كتاب الفتوح

للعلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي

(المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م)

تحقيق

علي شيري

ماجستير في التاريخ الإسلامي

الجزء الأول

دار الأضواء

كتاب الفتوح

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ٢٥/٤٠ غبيري - أو ١١١٣/٦٦٤١ الحمرا.
تلكس ٢٣٧١٧ بيدر أو ٢٣٤٠٧ هادي - بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قال الشيخ الإمام العالم العلامة لوط أحمد بن محمد بن أعثم[1] الكوفي عفا الله عنه :

الحمد لله ربّ العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . إنّ رسول الله ﷺ لّما توفي قام بالأمر بعده الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان قد بويع له بالخلافة في اليوم الذي مات[2] فيه النبي ﷺ بسقيفة بني ساعدة ؛ ولذلك قصة عجيبة نذكرها بتمامها ، ونذكر ما فتحه المسلمون في أيامه وأيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من الفتوحات ، وقتال أهل [الردة][3] ، وذلك أن المسلمين اجتمعوا وبكوا على فقد رسول الله ، فقال لهم أبو بكر : إن دمتم على هذه الحال فهو والله الهلاك والبوار .

---

(١) في اسم المؤلف خلاف ـ وقد تطرقنا إلى مختلف الأقوال في ذلك في مقدمة التحقيق ـ والأرجح أنه أحمد بن محمد بن علي المعروف بابن الأعثم الكوفي . وهو ما ورد في النسخة المطبوعة من الترجمة الفارسية لأحمد بن محمد المستوفي .

(٢) قال خليفة في تاريخه : توفي رسول الله (ص) يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول ، ويقال لليلتين خلتا منه ودفن ليلة الأربعاء (ص) . انظر ص ٩٤ والطبري ٣ / ٢٠٠ ومروج الذهب ٢ /٣٠٣ والبداية والنهاية ٥/ ٢٧٥ ابن الأثير ٢ /٩ ونقل عن أبي نعيم الفضل بن دكين أنه (ص) توفي : يوم الاثنين مستهل ربيع الأول سنة إحدى عشرة . والأكثر على القول الأول .

(٣) ما بين معكوفين سقطت من الأصل ، استدركت للإيضاح .

ذكر ابتداء سقيفة بني ساعدة وما كان من المهاجرين والأنصار

قال : ثم أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على المسلمين فقال : أيها الناس ! إنه من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمّداً فإنّ محمداً قد مات ، والله ! لقد نعى الله نبيّه محمداً عليه السلام نفسه فقال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾(١) ثم قال ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾(٢) ثم قال ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّٰكِرِيْنَ ﴾(٣) ألا ! وإن محمداً عليه السلام قد مضى لسبيله ، ولا بدّ لهذا الأمر من قائم يقوم به ، فدبّروا وانظروا وهاتوا رأيكم ـ رحمكم الله(٤) . قال : فناداه الناس من كل جانب : نصبح وننظر في ذلك إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله . قال : فانصرف الناس يومهم ذلك ، فلما كان من غدٍ انحازت طائفة من المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وانحازت طائفة من الأنصار إلى سعد بن عبادة الخزرجي في سقيفة بني ساعدة . قال : وجلس عليٌّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في منزله مغموماً بأمر النبي ﷺ وعنده نفر من بني هاشم وفيهم الزبير بن العوام . قال : فاجتمع الناس من جميع جنبات المدينة يستمعون ما يكون من كلام المهاجرين والأنصار(٥) ؛ وكان أول من تكلم من الأنصار يومئذ خزيمة بن . . .(٦) ذو

---

(١) سورة الزمر : ٣٠ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٤) جاء كلام أبي بكر هذا بعدما اختلف الصحابة فيما بينهم فمن قائل يقول : مات رسول الله (ص) ، ومن قائل : لم يمت . وكان عمر بن الخطاب قد قام في الناس يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ص) توفي وأنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، والله ليرجعن رسول الله (ص) ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات . وكان أبو بكر غائباً ببيته في السنح ، فاستدعي سريعاً فجاء ، فقام في الناس وقال ما قال ، وأزاح الجدل وأزال الإشكال . (الطبري ٣ / ٢٠٢ البداية والنهاية ٥ / ٢٦٥ الكامل لابن الأثير ٢ /١١) .

(٥) قارن ما جرى يوم السقيفة مع الطبري ٣ /٢٠٥ وما بعدها وابن الأثير ٢ /١٣ والبداية والنهاية ٥ / ٢٦٥ .

(٦) كذا بياض بالأصل . وهو خزيمة بن ثابت ، ذو الشهادتين ، ابن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر بن =

الشهـادتين وقال : يـا معشر الأنصـار ! إنكم إذ قدمتم اليـوم . . . .[1] إلى يوم القيامة ، وأنتم الأنصار في كتاب الله تعالى ، وإليكم كانت الهجرة وفيكم قبر النبي (صلّى الله عليه وسلم وآله) ، فأجمعوا أمركم على رجل تهابه قريش وتأمنه الأنصار . قال : فقالت الأنصار : صدقت يا خزيمـة ! إن القول لعلى مـا تقول ، قـد رضينا بصاحبنا سعد بن عبادة . قال : فقلب المهاجرون ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم وثب أسيد بن حضير الأنصاري الأوسي[2] ـ وكان مقبول القول عند الأنصار وأهل الطاعة فيهم ـ فقـال : يـا معشـر الأنصـار ! إنـه قـد عـظمت نعم الله عليكم إذ سمـاكم « الأنصار »[3] وجعل إليكم الهجـرة ، وفيكم قبض الرسـول محمد عليـه السلام ، فاجعلوا ذلك شكراً لله فإن هذا الأمر في قريش دونكم ، فمن قدَّموه فقدِّمـوه ومن أخَّروه فأخِّروه . قال : فـوثب إليه نفـر من الأنصار فـأغلظوا له في القـول وسكّتوه فسكت ؛ ثم وثب بشيـر بن سعد الأنصـاري الأعور[4] ـ وكـان أيضـاً من أفـاضـل الأنصار ـ فقال : يا معشر الأنصار ! إنما أنتم بقريش وقريش بكم ، ولو كان ما تدّعون حقاً لما اعترض عليكم فيه ، فإن قلتم بأنّا آوينا ونصرنا فما أعطاهم خير مما أعطيتم ، فلا تكونوا كالذين بدّلوا نعمة الله كفـراً وأحلّوا قومهم دار البـوار . قال : ثم وثب عويم بن ساعدة الأنصاري ـ وهو من النفر الذين أنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية في مسجد قباء ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِيْنَ ۞ ﴾[5] ـ فقال : يا معشر الأنصار ! إنكم أول من قاتل عن هذا الدين فلا تكونوا أول من قاتل أهله عليه ، فإن الخلافة لا تكون إلاّ لأهل النبوة فاجعلوها حيث جعلها الله عز وجل ، فإن

= غيان بن عامر بن خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس جعل رسول الله (ص) شهادته بشهادة رجلين (أسد الغابة ٢/١١٤) .

(١) بياض بالأصل .

(٢) كان سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان أسيد بن حضير (أسيد بضم الهمزة ، وحضير بضم أوله وآخره راء) من نقباء الأوس وقد خافوا من تأمير الأوس فقالوا لبعضهم البعض : والله لئن وليتها الخزرج مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً (الكامل لابن الأثير ٢/١٤ الإمامة والسياسة ١/٩) .

(٣) كلمة « أنصار » وردت ثماني مرات في القرآن الكريم .

(٤) كان بشير بن سعد من سادة الخزرج ورؤسائهـم ، وقد نفر من تأمير قومه سعد بن عبادة وحسده (الإمامة والسياسة ١ /٨) وقارن ما قاله مع الأصل (الطبري ٣ / ٢٢١ ابن الأثير ٢ / ١٤) .

(٥) سورة التوبة : ١٠٨ وعويم من الأوس ، مات على الصحيح في خلافة عمر بن الخطاب وله خمس أو ست وستون سنة .

لهم دعوة إبراهيم عليه السلام ؛ قال : ثم وثب معن بن عدي الأنصاري فقال : يا معشر الأنصار ! إن كان هذا الأمر لكم من دون قريش فخبروهم بذلك حتى يبايعوكم عليه ، وإن كان لهم من دونكم فسلموا لهم ، فوالله ! ما مات رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وعلى آله) حتّى صلّى بنا أبو بكر رضي الله عنه فعلمنا أنه قد رضيه لنا[١] ، لأن الصلاة عماد الدين . قال : فبينا الأنصار كذلك في المحاورة إذ أقبل أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح وجماعة من المهاجرين رضي الله عنهم فإذا هم بسعد بن عبادة[٢] . [٣] ينصره الله فهو مخذول ، ألا ! فاهتدوا بهدي الله ربكم وما جاء به نبيكم محمد ﷺ فإنه **﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾**[٤] ؛ وقد بلغني رجوعِ من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام ، وعمل بشرائعه اغتراراً بالله عزّ وجلّ وجهالة بأمره وطاعة للشيطان ، و **﴿ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحب السعير ﴾**[٥] وبعد ! فقد وجهت إليكم خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار وأمرته أن لا يقاتل أحداً حتى يدعوه إلى الله عزّ وجلّ ويعذر إليه وينذر ، فمن دخل في الطاعة وسارع إلى الجماعة ورجع عن المعصية إلى ما كان يعرف من دين الله ثم تاب إلى الله وعمل صالحاً قبل الله منه ذلك وأعانه عليه ، ومن أبى أن يرجع إلى الإسلام بعد أن يدعوه خالد بن الوليد ويعذر إليه فقد أنذرته وأمرته أن يقاتله أشد القتال بنفسه ومن معه من أنصار دين الله وأعوانه ، ثم لم يترك أحداً قدر عليه إلا أحرقه بالنار إحراقاً ، ويسبي الذراري والنساء ، ويأخذ الأموال وقد أعذر من أنذر[٦] ، والسلام على عباد الله المؤمنين ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال : ثم

---

(١) إشارة إلى تأميره (ص) أبا بكر بالصلاة في الناس في مرض موته . انظر ما ذكر في ذلك دلائل البيهقي ١٨٩/٧ و٧/ ١٩٤ وما بعدها .

(٢) كذا بالأصل . ولم يذكر المؤلف تتمة بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة .

(٣) هذا من كتاب أبي بكر الصديق إلى قبائل العرب التي ارتدت ، وقد سقط من الأصل أول الكتاب . قال الطبري ٢٥٠/٣ أنه كتب إلى قبائل العرب المرتدة كتاباً واحداً . وفي ابن الأثير ٢١/٢ « نسخة واحدة » وبينهما وبين ما ذكر من الكتاب هنا بعض اختلاف .

(٤) سورة الكهف : ١٧ .

(٥) سورة فاطر : ٦ .

(٦) وفي الكتاب : وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغي لهم . (عن الطبري ٢٥١/٣) .

طوى أبو بكر الكتاب وختمه ودفعه إلى خالد بن الوليد وأمره أن يعمل بما فيه[1] .
قال : فسارع خالد بن الوليد إلى أهل الردة بمن معه من المهاجرين والأنصار يريد طليحة بن خويلد .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى أهل الردة

قال : فسار خالد وكان معه جماعة يومئذ من بني أسد من المؤمنين الذين لم يرتدّوا ، وكتب رجل منهم يقال له ضرار بن الأزور إلى بني عمّه من بني أسد كتاباً ، قال : فلم يبق مع خالد بن الوليد رجل من بني أسد يعرف بالصلاح إلّا كتب إلى قومه يحذرهم مقدم خالد بن الوليد عليهم ويعـذلهم على ارتدادهم عن دين الإسـلام ، وآخر من كتب إليهم جعونة بن مرثد الأسدي .

ذكر الفجاءة بن عبد ياليل السلمي
وما فعل بالمسلمين وكيف أحرق بالنار

قال : وسار خالد بن الوليد يريد بني أسد فأقبل إلى أبي بكر الصديـق رضـي

(١) يستفاد من الطبري وابن الأثير واليعقوبي أن أبا بكر أمّر أمراء وعقد لهم بالمسير لقتال المرتدين ، وعقد لهم الألوية ، فعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً ، منهم خالد بن الوليد .
وقد كتب أبو بكر للأمراء عهوداً بذلك ـ نسخة العهد كما وردت عند الـطبري ٣/ ٢٥١ : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله (ص) لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته ، وأمره بالجد في أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ! فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم الذي لهم ، لا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عزّ وجلّ وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ، ومن أبىٰ قاتله ؛ فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه ، إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ، ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

الله عنه رجل من بني سُليم يقال له الفجاءة[١] بن عبد ياليل فدخل عليه وسلم ثم قال: يا خليفة رسول الله ﷺ ! أنا رجل مسلم وعلى دين الإسلام مذ كنت ما غيّرت ولا بدّلت وقد رغبت في قتال أهل الردّة[٢] وقد أحببت أن تعينني بقوة من خيل وسلاح حتى أفرقه في قومي وبني عمي من بني سُليم ، وألحق بالقوم بخالد بن الوليد وأقاتل معه طليحة بن خويلد وأصحابه ؛ قال : فدفع إليه أبو بكر رضي الله عنه عشرة من الخيل ودفع إليه سلاحاً كثيراً من سيوف ورماح وقسي وسهام ، ووجّه معه بعشر نفر من المسلمين . قال : فخرج الفجاءة من المدينة كأنه يريد إلى خالد بن الوليد ثم ترك الطريق إلى خالد وعطف إلى دار بني سُليم فأرسل إلى قوم منهم ودعاهم فأجابوه فعطف بهم على هؤلاء العشرة الذين وجه بهم معه أبو بكر رضي الله عنه فقتلهم عن آخرهم ، ثم أنه فرق تلك الخيل وذلك السلاح الذي قد أعطاه أبو بكر رضي الله عنه على من اتبعه من سفهاء قومه[٣] ؛ ثم سار فجعل يقتل الناس يمنة ويسرة فلا يبقي على قومه ولا غيرهم . قال : فجعل الفجاءة يفعل ما يفعل ويلتئم إليه الناس من أهل الدعارة والفساد .

قال : وبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه فأعرضه على من كان عنده من بني سليم وغيرهم من قيس غيلان وخبرهم بما صنع الفجاءة ؛ قال : فاغتمَّ لذلك بنو سليم خاصّة غمّاً شديداً وقالوا : والله يا خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ! لقد حدثتنا أنفسنا ببعض ذلك وقد قلّدنا عدوّ الله بفعاله عاراً لا يغسل عنا أبداً . قال : ثم وثب الضحاك بن سفيان الكلابي[٤] ـ وكان شيخ بني كلاب وفارسهم وعميدهم وشاعرهم وكانت له صحبة مع رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ـ فقال : والله يا خليفة رسول الله ! لقد كان عدوّ الله يريد الفساد ، وما كنت أظنّ أنّه يقدم على مثل هذا الفعال ، ولقد كنت أحذر قومي من بني ذكوان أن يسمعوا منه ، ويأخذوا برأيه

---

(١) قيل اسمه : إياس بن عبد ياليل ، وقيل : إياس بن عبد الله بن عبد ياليل بن عميرة بن خفاف ، من بني سُليم . (الطبري ٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ البداية والنهاية ٦ / ٣٥١) .

(٢) في الطبري : وقد أردت جهاد من ارتد من الكفار .

(٣) كان معه نجبة (نخبة) بن أبي الميثاء من بني الشريد .

(٤) هو الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي ، يكنى أبا سعيد . كان من الشجعان الأبطال ذكره العباس بن مرداس السلمي في شعره : وكان النبي (ص) قد بعثه في سرية :

إن الذين وفوا بما عاهدتهم   جيش بعثت عليهم الضحاكا

فأبى الله تبارك وتعالى إلا ما أراد . قال : ثم كتب أبو بكر رضي الله عنه كتاباً إلى خالد بن الوليد يخبره بما صنع الفجاءة وما أخذ من الخيل والسلاح وما قتل من المسلمين ، وأمره أن يوجه إليه بقوم يطلبونه فيأتون به حيث ما كان ؛ فلما ورد الكتاب . . . . . .[1] يا سوداء[2]! من يقول هذا الشعر ؟ فقالت : والله ! ما أدري غير أني سمعت دوياً من هذا الغدير وقائلاً يقول هذا الشعر . قال : فاغتمّ عيينة بن حصن وانكسر لذلك انكساراً شديداً ، ثم أقبل على طليحة بن خويلد وهو جالس في بني عمه فقال له : أبا عامر ! أتاك جبريل منذ نزلت هذا المنزل ؟ قال طليحة : لا ، قال : فهل ترجو أن يأتيك ؟ قال : نعم ، ولِم سألت عن ذلك ؟ قال : إني سمعت هذه الأَمَة السوداء تزعم أنها سمعت من هذا الغدير كذا وكذا ؛ قال : فضحك طليحة ثم قال : ترى أن سحر قريش وصل إلينا من المدينة . قال : ثم أقبل قرة بن هبيرة القشيري على بني عامر بن صعصعة فقال : يا بني عامر ! هذا خالد بن الوليد قد أظلكم في المهاجرين والأنصار وقد تقارب من أرضكم فلو صاح بخيله صيحة لصبحكم فاتّقوا الله ربكم وارجعوا عن هذا الذي أنتم عليه فإنكم قتلتم بالأمس المنذر بن عمرو الساعدي[3] وكان من خيار أصحاب محمد ﷺ ثم إنكم حقرتم ذمة أبي بكر ورددتم عامر بن الطفيل عن دين الإسلام وإني خائف على طليحة بن خويلد أن . . . . . .[4] خالد غداً قد هلك وهلكنا معه . قال : فأبى قومه أ[ن يطيعوه ـ][5]

---

(١) بياض بالأصل ، سقطت معه تتمة الكلام على الفجاءة بن عبد ياليل . وفي الطبري روايتان عن نهاية الفجاءة : عن سيف ، عن سهل وأبي يعقوب قالا : وبلغ ذلك أبا بكر ، فأرسل إلى طريفة بن حاجز يأمره أن يجمع له وأن يسير إليه ، وبعث إليه عبد الله بن قيس الجاسي عوناً ، ففعل ، ثم نهضا إليه وطلباه ، فجعل يلوذ منهما حتى لقياه على الجواء ، فاقتتلوا ، فقتل نجبة وهرب الفجاءة ، فلحقه طريفة فاسره ، ثم بعث به إلى أبي بكر ، فقدم به على أبي بكر ، فأمر فأوقد له ناراً في مصلى المدينة على حطب كثير ، ثم رمى به فيها مقموطاً (٣/ ٢٦٤ ابن الأثير ٢/ ٢٧ البداية والنهاية ٦/ ٣٥١) .

(٢) كذا بالأصل ، ويظهر أن هناك نقصاً في الكلام ، ويظهر أن القصة تتعلق بموضوع طليحة وردته .

(٣) وكان رسول الله (ص) قد أرسله في نفر من خيار المسلمين إلى نجد يدعونهم إلى الإسلام حتى نزلوا ببئر معونة وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم ، فقتلتهم قبائل سليم وذلك في صفر على رأس أربعة أشهر من أحد (تاريخ خليفة ص ٧٦ وانظر حديث بئر معونة في سيرة ابن هشام ٢/ ١٨٤ وصحيح البخاري ٥/ ١٣٤) .

(٤) بالأصل غير واضح .

(٥) بالأصل مطموس . وما أضفناه لاستقامة المعنى .

ثم قالوا : لا نعطي الدنية في ديننا أبداً ونحن أحق[1] من ابن أبي قحافة . قال : فقال لهم ابن سلمة . . . .[2] تعطوا الدنية في دينكم أن يسفكوا دماءكم بـإجماعكم . . . . . .[3] قال : فأبى القوم أن يطيعوه ولجّوا في طغيانهم . قال : ودنا خالـد بن الوليد من أرض بني أسد ثم دعا ابن محصن الأسدي[4] وثابت بن أرقم[5] الأنصاري وسعيد بن عمرو المخزومي فقال لهم : انطلقوا وتجسسوا إليّ الخبر عن طليحة بن خويلد وأصحابـه ولا تبطوا عليّ . قـال : فمضى هؤلاء الثلاثـة وجعلوا يتجسسون ويسألون عن طليحة وعن موضع عسكره . قال : فبينما هم كذلك إذ وقع عليهم نفر من أصحاب طليحة فقتلوهم[6] ـ رحمة الله عليهم . قال : وخالد بن الوليد لا يعلم بشيء من ذلك غير أنه انطوى عليه خبرهم كأنه أنكر أمرهم فركب في نفر من أصحابه وساروا فإذا هم بالقوم قتلى ، فاغتمّ خالد والمسلمون لذلك غمّاً شديداً ثمّ أمر بهم فحملوا ودفنوا في عسكر المسلمين . قال : وبلغ بني أسد أن خالد بن الوليد قد دنا من أرضهم فأقبلوا على طليحة بن خويلد فقالوا : يا أبا عامر ! إنا نظن أن هذا الرجل قد سار إلى ما قبلنا وذلك أنا قتلنا ثلاثة نفر من أصحابه فلو بعثت من يتجسس لنا عن خبره . قال : قال طليحة : نعم ، أرأيتم [إن][7] بعثتم بفارسَين بطلين على فرسَين عتيقين أدهمين أغرّين محجّلين من بني نصر بن قُعين[8] أتياكم من القوم بعين ؛ فقال له بعض أصحابه : أبا عامر ! أشهد أنك نبي حقاً فليس هذا الكـلام إلا من كلام

---

(١) بالأصل مطموس . « كلمة » ولعله : ونحن أحق بالخلافة .

(٢) بالأصل غير واضح .

(٣) بالأصل مطموس ، ولم نصل إليه .

(٤) هو عكاشة بن محصن الأسدي . (عكاشة بضم أوله وتشديد الكاف وتخفيفها أيضاً : الإصابة) من السابقين الأولين ، وشهد بدراً .

(٥) كذا ، وهو تحريف ، وهو ثابت بن أقـرم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان ، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) .

(٦) في تاريخ خليفة ص ١٠٢ : فانتهوا إلى قطن (ماء في أرض بني أسد من ناحية فيد ـ ياقوت) فصادفوا بها حبالاً متوجهاً إلى طليحة (أخيه) بثقله ، فقتلا حبالاً وأخذا ما معه ، فخرج طليحة وسلمة ابنـا خويلد فلقيا عكاشة وثابتاً (إشارة هنا إلى أن خليفة والطبري لم يذكـرا سعيد بن عمـرو المخزومي معهما) فقتلا عكاشة وثابتاً .

(٧) زيادة ليستقيم المعنى . وفي المطبوعة : إن شئتم .

(٨) بنو نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة . وهم أولاد عم طليحة بن خويلد ، وهو من بني نضلة بن الأشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو . وعمرو ونصـر ابنا قعين . (جمهرة النسب للكلبيّ ص ١٦٩ ـ ١٧٠) .

الأنبياء . قال : ثم بعث القوم . . . . . .[1] على وصف طليحة بن خويلد ليتجسسا الأخبار بخالد . . . . . .[2] رجعا يركضان وهما يقولان : هذا خالد بن الوليد أقبل . . . . . .[2] والأنصار ، قال : فازداد القوم فتنة إلى فتنتهم . . . . . .[3] يشجّع أصحابه ويقول : يا معشر بني أسد ! لا يهولنكم . . . .[2] إلى خالد بن الوليد من هذا الجيش فإنهم على باطل وغرور ، وأخرى فإنهم قد لهجوا بهذه الصلاة فهم يظنّون أنهم محسنون ، ولقد أتاني جبريل يخبرني عن ربي : أنّه ليس يحتاج إلى تعفر وجوهكم ، وفتح[4] أدباركم ، ولا يريد منكم ركوعاً وسجوداً وإنما يريد منكم أن تذكروه قياماً وقعوداً ، فانظروا أن تمنعوا القوم أموالكم كما منعتموها في جاهليتكم ؛ وأما عيينة بن حصن فقد خبرني عنه جبريل أنه قد خاف من حرب القوم ، وأيم الله ! لو كانت له نية صادقة لما خاف من أحد أبداً إذا كان على هذا الدين . قال : ثم تقدم إلى طليحة جماعة من أصحابه فقالوا : يا أبا عامر ! إنه قد أضرّ بنا العطش فهل عندك من حيلة ؟ فقال طليحة : نعم اركبوا عِلالاً ، واضربوا أميالاً ، وجاوزوا الرمالا ، وشارفوا الجبالا ، ويمموا التلالا ، تجدوا هناك قلالا[5] . قال : فركب بعض بني أسد فرساً لطليحة يقال له : علال ، ثم سار إلى ذلك الموضع الذي وصف طليحة فإذا هو بماء عذب زلال ! فشرب منه وملأ سقاء كان معه ، ثم رجع إلى قومه فخبرهم بذلك ؛ قال : فمضوا إلى ذلك الموضع فأسقوا وازدادوا فتنة إلى فتنتهم بطليحة بن خويلد . قال : وجعل خالد بن الوليد يتأنى بطليحة ويرسل إليه الرسل ويحذره سفك دماء أصحابه[6] ، وطليحة يأبى ذلك ولجّ في طغيانه ، قال : فعندها عزم خالد على حرب القوم .

أوّل حرب أهل الردّة

قال : وزحف إليهم خالد حتى وافاهم بأرض يقال لها : بُزاخة[7]، وإذا

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل . ويتضح مما يلي أن الكلمة المطموسة : « رجلين أو فارسين » انظر الطبري ٣/ ٢٦١ .

(٢) مطموس بالأصل قدر كلمتين .

(٣) مطموس بالأصل ، ويتضح مما يلي أنه « وراح طليحة » .

(٤) كذا بالأصل . وفي المطبوعة « وقبح » أصوب .

(٥) القلال جمع قُلّة وهي أعلى الجبل . وقلة كل شيء : أعلاه . والقلة : مزادة كبيرة من الماء ، وقد سميت قلال لأنها تُقَل (اللسان) .

(٦) وكان ذلك ـ من خالد ـ وفقاً لما جاء في عهد أبي بكر إليه ، وقد مر قريباً نسخة عنه .

(٧) بزاخة : ماء لبني أسد . وما أثبتناه عن تاريخ خليفة ، وبالأصل براحه .

طليحة قد عبّى أصحابه وعبّى خالد أصحابه ، وكان على ميمنته عدي بن حاتم الطائي ، وعلى ميسرته زيد الخيل ، وعلى الجناح الزبرقان بن بدر التميمي ، ودنا القوم بعضهم من بعض واختلط القوم فاقتتلوا ، فقتل من الفريقين جماعة ؛ وجعلت بنو أسد وغطفان وفزارة يقاتلون بين يدي طليحة بن خويلد أشد القتال وهم ينادون : لا نبايع أبا الفصيل ـ يعنون أبا بكر الصديق رضي الله عنه ؛ وجعل عدي بن حاتم يحمل عليهم في أصحابه فيقاتلهم وهو يقول : والله ! لنقاتلنكم أبداً أو تكنّونه بالفحل الأكبر(١) . قال : وجعل عدي بن حاتم وزيد الخيل وقبائل طيء يقاتلون بين يدي خالد بن الوليد قتالاً لم يقاتلوا قبله في يوم من أيامهم التي سلفت ، ومدحهم خالد بن الوليد . قال : واشتدّ القتال وعظم الأمر وعظّت(٢) الحرب الفريقين جميعاً ، فأقبل عيينة بن حصن إلى طليحة بن خويلد وهو واقف على باب خيمة من شعر(٣) وفرسه علال إلى جانبه وامرأته نوار جالسة بين يديه(٤) فقال له عيينة : أبا عامر ! هل أتاك جبريل ؟ قال طليحة : لا ، فرجع عيينة إلى الحرب فقاتل ساعة ثم رجع إليه فقال : هل أتاك جبريل بعد ؟ فقال : لا ، فرجع فلم يزل يقاتل حتى بلغ منه الجهد واشتدّ به الأمر ثم رجع إلى طليحة فقال : أبا عامر ! هل أتاك جبريل ؟ قال : لا ، قال عيينة : حتى متى ويحك ! بلغ منا الجهد واشتدّ بنا الأمر وأحجم الناس عن الحرب ؛ ثم رجع فلم يزل يقاتل هو وبنو عمّه من فزارة حتى ضجّوا من الطعان والضراب ، ثم رجع فقال له : أبا عامر ! هل أتاك جبريل بعد ؟ قال : نعم قد أتاني ، قال عيينة : الله أكبر ! هات الآن ما عندك وما الذي قال لك جبريل ! قال طليحة : نعم قد قال جبريل عليه السلام : إن رجاء لا تقوم لرجاه وإن لك وله حديثاً لا تنساه الناس أبداً(٥) . قال : ثم أقبل عيينة على أهله وبني عمّه من فزارة فقال : ويحكم يا بني عمّي ! هذا والله رجل كذاب ! والله صحّ عندي كذبه لتخليطه في كلامه ! قال : ثم ولّى عيينة بن حصن منهزماً مع بني عمّه من فزارة وانهزمت بنو أسد وغطفان وسيوف المسلمين في أقفيتهم كأنها الصواعق ! فقال طليحة بن خويلد :

---

(١) في الطبري ٣/ ٢٥٥ أبا الفحل الأكبر .

(٢) أي اشتدت ، وكانت شديدة فيها عسف وعنف (اللسان) .

(٣) في الطبري : وطليحة متلفف في كساء له بفناء بيت له من شعر .

(٤) زيد في الطبري : يتنبألهم، والناس يقتتلون ، فلما هزت عيينة الحرب ، وضرس القتال، كر على طليحة .

(٥) في الطبري : « إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » .

ويحكم ! ما بالكم منهزمين ؟ فقال رجل منهم : أنا أخبرك يا أبا عامر : لم لا ننهزم ؟ نحن قوم نقاتل ونريد البقاء، وهؤلاء قوم يقاتلون ويحبون الفناء . قال : فقالت نوار امرأة طليحة : أما إنه لو كانت لكم نيّة صادقة لما انهزمتم عن نبيكم ! فقال لها رجل منهم : يا نوار ! لو كان زوجك هذا نبياً حقاً لما خذله ربّه . قال : فلمّا سمع طليحة ذلك صاح بامرأته : ويلك يا نوار ! اقتربي منّي فقد اتّضح الحقّ وزاح الباطل . قال : ثم استوى طليحة على فرسه وأردف امرأته من ورائه ومرّ منهزماً مع من انهزم[١] ، واحتوى خالد ومن معه من المسلمين على غنائم القوم وعامة نسلهم وأولادهم . قال : فجمع خالد غنائم القوم فوكل نفراً من المسلمين يحفظونها ، ثم خرج في طلب القوم يتبع آثارهم حتى وافاهم بباب الأجرب[٢] فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأسر عيينة بن حصن الفزاري وأسر معه جماعة من بني عمّه ، وأفلت طليحة بن خويلد فمرّ هارباً على وجهه نحو الشام حتى صار إلى بني جفنة[٣] فلجأ إليهم واستجار بهم فأجاروه . قال : ثم جمع خالد الأسارى بأجمعهم من بني أسد وغطفان وفزارة وعزم أن يوجه بهم إلى أبي بكر رضي الله عنه .

ذكر الأسارى الذين وجه بهم خالد بن الوليد إلى أبي بكر وما كان من أمرهم

قال : ثم أمر خالد بالمجامع فوضعت في أعناق هؤلاء الأسارى[٤] ووجه بهم مع الغنائم إلى المدينة ، فلما أشرفت الغنائم على المدينة خرج الناس ينظرون إلى الأسارى ، فإذا هم بعيينة بن حصن على بعير ويده مجموعة إلى عنقه[٥] ، فجعل المسلمون يشتمونه ويلعنونه وهو ساكت لا ينطق بشيء ، قال : وجعل أهل المدينة ينخسونه بالعُسبان[٦] ويقولون له : يا عدو الله ! أكفرت بعد إيمانك وقاتلت المسلمين ؟ قال : فأشرف عليهم من فوق البعيرفقال : والله ! ما آمن ذلك الرجل بالله

(١) العبارة في الطبري : وقال (لأصحابه) : من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل . ثم سلك الحوشية حتى لحق بالشام وارفضّ جمعه .
(٢) الأجرب : اسم موضع يذكر مع الأشعر من منازل جهينة بناحية المدينة .
(٣) في تاريخ اليعقوبي : لحق طليحة بالشام وجاور بني حنيفة .
(٤) كانوا ثلاثين أسيراً وعيينة بن حصن (اليعقوبي ٢ / ١٢٩) .
(٥) عند اليعقوبي : وهو مكبل بالحديد .
(٦) العسبان جمع عسيب وهو جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها (اللسان) وفي الطبري : ينخسه غلمان المدينة بالجريد .

ساعة قط ـ يعني عن نفسه . قال : ثم أتي به حتى أدخل على أبي بكر رضي الله عنه فأوقفه بين يديه ، فقال له أبو بكر : يا عدوّ الله ! أسلمت وأقرأت القرآن ثم رجعت عن دين الإسلام كافراً ! لأضربن عنقك صبراً ؛ فقال عيينة : يا خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ! إن الجميل أجمل ، وقد كان رسول الله ﷺ أعرف بي منك لم يخفَ عليه شيء من أمري ، ولقد خرج من الدنيا وإني لمقيم على النفاق[1]، غير أني تائب إلى الله عزّ وجلّ وإليك في يومي هذا فاعفُ عنّي عفا الله عنك! فعفا عنه أبو بكر رضي الله عنه وصفح عن بني عمّه وأحسن إليهم وكساهم .

قال : ثم قدم قرّة بن سلمة[2] بن هبيرة القشيري حتى أوقف بين يدي أبي بكر رضي الله عنه ويده مجموعة إلى عنقه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : اضربوا عنقه ، فقال قرّة : يا خليفة رسول الله ! إني رجل مسلم يشهد لي بذلك عمرو بن العاص ، وذلك أنه مَرّ بي منصرفاً من عُمّان[3] فقرّبته وأكرمته ودللته على الطريق ، وهو عارف بإسلامي ، قال : فدعا أبو بكر عمرو بن العاص ، قال له : يا أبا عبد الله ! ما الذي عندك من الشهادة لقرة بن هبيرة ؟ فإنه يزعم أنك تشهد له بالإسلام ! فقال عمرو بن العاص : نعم يا خليفة رسول الله ! عندي من الشهادة أني مررت به ، وأنا منصرف من عمان فلما نزلت عليه سمعته يقول : والله ! لئن لم يتجاف أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ عن زكاة أموالنا فما له في أعناقنا طاعة ، فقال قرّة بن هبيرة : لم يكن القول على ما تقول يا عمرو ! فقال عمرو : بلى والله يا خليفة رسول الله ! لقد سمعته يقول هذا المقال[4] وعلمت أنه قد عزم على العصيان ومنع الزكاة ، فهذا والله

(١) كذا . وقد ورد فيه أنه أسلم قبل الفتح ـ وقيل بعده ـ وشهده وشهد حنيناً والطائف ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وكان من الأعراب الجفاة ، فيه جفاء سكان البوادي . ولم نجد عند من ترجم ما يشير إلى ذلك والنبي حياً (أسد الغابة ـ الإصابة ـ الاستيعاب) فقط هناك إشارة في حديث قال عنه النبي (ص) : أحمق مطاع سيد قومه . ونعته ابن أخيه في مجلس عمر بن الخطاب أنه من الجاهلين .

(٢) كذا ورد قرة بن سلمة بن هبيرة خطأ ، وقد مر قريباً صواباً : قرة بن هبيرة . ترجم له في أسد الغابة والإصابة .

(٣) وذلك بعد وفاة رسول الله (ص) . وكان رسول الله (ص) قد استعمله على عمان ومات (ص) وهو أميرها . (الطبري ـ الإصابة) .

(٤) عبارة الطبري ٣/ ٢٥٩ فلما أراد الرحلة ، خلا به قرة ، فقال : يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم .

يا خليفة رسول الله ﷺ ما كان من مقالتي ومقالته ثم إني رحلت عنه فلما قربت فرسي وركبته سمعته يقول: إن أتيتنا ـ فعضّض على الأنامل[1]؛ قال قرة بن هبيرة : يا هذا ! فإن كان هذا ذكرت فكم إلى كم هذا التحريض ؛ قال : فسكت عمرو بن العاص وتكلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : سوءاً لك يا عمرو ! رجل نزلت عليه فآواك وأحسن ضيافتك وأطعمك وسقاك ثم تكلم بكلام بينك وبينه فأجبته على كلامه ثم رحلت عنه ، فالآن لما نظرت إليه في مثل هذه الحالة أسيراً قد جمعت يداه إلى عنقه وثبتَ قائماً على قدميك تخطب عليه بجهدك ! فاستحيا عمرو وندم على ما تكلم ؛ والتفت عمر إلى أبي بكر فقال : يا خليفة رسول الله ﷺ ! هذا رجل من سادات العرب وأشراف بني عامر وما أولاك بالصفح عنه بعد إذ قدرت عليه ! فقد كان منه ما كان من غيره فاعف عنه كما عفوت عن غيره[2] ! قال أبو بكر : قد عفوت عنه ، ثم أطلقه رضي الله عنه وكساه وأحسن إليه وأطلق من كان معه من بني عمه .

قال : وبلغ طليحة بن خويلد الأسدي أن عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة قد حُملا إلى المدينة وقد عفا عنهما أبو بكر رضي الله عنه ، فندم على ما كان منه أشد الندامة ، ثم إنّه وجّه إلى أبي بكر رضي الله عنه من الشام مع بعض النوادر[3] ، قال : فلما انتهى إلى أبي بكر كتابه وقرىء عليه رقّ له أبو بكر رقّة شديدة وعلم أنه قد ندم على ما كان منه . قال : وجعل طليحة بن خويلد يتقدم في الرجوع إلى دار الإسلام ويتأخر إلى أن توفي أبو بكر ومضى لسبيله رحمة الله عليه ثم استخلف بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقدم عليه طليحة بن خويلد مسلماً تائباً ، فلما رآه عمر قطب في وجهه ثم قال : يا طليحة ! كيف ترجو النجاة من النار وقتلت مثل

---

(١) وكان عمرو بن العاص ـ على رواية الطبري ـ قد قال لقرة : فوالله لأوطئن عليك بالخيل .

(٢) في الإصابة أن قرة بن هبيرة اعتذر إلى أبي بكر عن ارتداده بأنه كان له مال وولد فخاف عليهم ، ولم يرتد في الباطن .

(٣) عند اليعقوبي ١٢٩/٢ وبعث بشعر إلى أبي بكر يعتذر إليه ، ويراجع الإسلام ، يقول فيه :

فهل يقبل الصدّيق أني مراجع ... ومعطٍ بما أحدثتُ من حدثٍ يدي
وأني من بعد الضلالة شاهد ... شهادة حق لست فيها بملحد

وفي رواية عند الطبري ٢٦١/٣ أنه راجع إسلامه بعدما بلغه أن أسد وغطفان وعامراً قد أسلموا « ثم خرج نحو مكة معتمراً في إمارة أبي بكر ومر بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر : هذا طليحة . فقال : ما أصنع به ! خلوا عنه ، فقد هداه الله للإسلام » .

ثابت بن أرقم[1] الأنصاري وعكاشة بن محصن الأسدي ؟ قال طليحة : يا أمير المؤمنين ! ذلك رجلان أكرمهما الله عز وجل بالجنة وساق إليهما الشهادة على يدي ولم يقتلني[2] بأيديهما فأكون في النار ! قال : فأعجب عمر مقالته فقرّبه وأدناه ؛ وأقام طليحة عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أن تحركت الفرس بعد ذلك فوجهه عمر بن الخطاب مع سعد بن أبي وقاص ، فقاتل بالعراق قتالاً شديداً وقاتل أيضاً بنهاوند ، ولم يزل ناصراً لدين الإسلام حتى لحق بالله . فهذا ما كان من كفر طليحة بن خويلد الأسدي وارتداده وخروجه على أبي بكر وتوبته .

ثم رجعنا إلى مسير خالد بن الوليد إلى مالك بن نويرة ، قال : فلما فرغ خالد بن الوليد من حرب بني أسد وغطفان وفزارة وأمكنه الله منهم أقبل على من كان معه من المسلمين فقال لهم : إنكم تعلمون أن خليفة رسول الله(ص) قد كان أمرني بالبطاح[3] من أرض بني تميم إلى مالك بن نويرة وأصحابه وأنا سائر[4] ، فما الذي عندكم من الرأي ؟ قال : فقالت له الأنصار : يا أبا سليمان ! إنك لست عندنا بمتهم غير أن أبا بكر لم يعهد إلينا بشيء في ذلك[5] عهداً فإن كان أمرك بالمسير إلى بني تميم فسر راشداً فإنا غير سائرين معك ؛ قال خالد : لست أكرهكم على شيء وأنا سائر بمن معي من المهاجرين حتى أنفذ أمر أبي بكر . قال : ثم سار خالد بمن معه من المهاجرين[6] يريد أرض بني تميم وأقامت الأنصار في مواضعها ، حتى إذا سار خالد يومه كأنه اغتم على تخلف الأنصار عنه ، قال : وتلاومت[7] الأنصار أيضاً ، ثم قال بعضهم لبعض : والله ، لئن كان غداً في هذا الجيش مصيبة فإنه لعار علينا ! ليقولنّ الناس بأنكم خذلتم المهاجرين وأسلمتموهم لعدوّهم[8] ، ولئن أصابوا

---

(١) كذا بالأصل ، وهو تحريف ، وهو أقرم وقد تقدم .

(٢) في الطبري : ولم يهني .

(٣) البطاح بضم أوله ـ منزل لبني يربوع ، وقيل : البطاح ماء في ديار بني أسد بن خزيمة ، وهناك كانت الحرب بين المسلمين وأميرهم خالد بن الوليد وأهل الردة (معجم البلدان) .

(٤) في تاريخ خليفة أنه بعد هزيمة غطفان وأسد ببزاخة قال خالد : والله لا أنتهي حتى أناطح مسيلمة .

(٥) في الطبري : إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة . . . أن نقيم حتى يكتب إلينا .

(٦) زيد في الطبري : والتابعين بإحسان .

(٧) في الطبري : وندمت الأنصار ، وتذامروا . وفي الأغاني ١٥/ ٣٠٠ وبرمت الأنصار وتذامروا .

(٨) في الطبري والأغاني : ولئن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس .

فتحاً فإنه خير حرمتموه ، ولكن سيروا فالحقوا بإخوانكم . قال : فسارت الأنصار حتى لحقت خالد بن الوليد فصار القوم جميعاً واحداً ، وتوسط خالد بن الوليد أرض البطاح ، وبالبطاح يومئذ رجل من أشراف بني تميم يقال له : الجفول[1] ، لأنه جفل إبل الصدقة ، ومنع الزكاة وجعل يقول لقومه : يا بني تميم ! إنكم قد علمتم بأن محمد بن عبد الله قد كان جعلني على صدقاتكم قبل موته[2] ، وقد هلك محمد ومضى لسبيله ، ولا بدّ لهذا الأمر من قائم يقوم به ، فلا تطمعوا أحداً في مالكم فأنتم أحق بها من غيركم . قال : فلامه بعض قومه على ذلك وحمده بعضهم وسدد له رأيه بما قال[3] ؛ فلما بلغ كلامه أبا بكر والمسلمين فازدادوا عليه حنقاً وغيظاً ، وأما خالد بن الوليد فإنه حلف وعاهد الله عزّ وجلّ لئن قدر عليه ليقتلنه وليجعلنّ رأسه أثفية للقدور .

قال : ثم ضرب خالدعسكره بأرض بني تميم ، وبثّ السرايا في البلاد يمنة ويسرة . قال : فوقعت سرية من تلك السرايا على مالك بن نويرة فإذا هو في حائط له ومعه امرأته وجماعة من بني عمه[4] ؛ قال : فلم يرع مالك إلا والخيل قد أحدقت به فأخذوه أسيراً وأخذوا امرأته معه وكانت بها مسحة من جمال . قال : وأخذوا كل من كان من بني عمه فأتوا بهم إلى خالد بن الوليدحتى أوقفوا بين يديه . قال : فأمر خالد بضرب أعناق بني عمه بدياً . قال : فقال القوم : إنا مسلمون فعلى ماذا تأمر بقتلنا ؟ قال خالد : والله ! لأقتلنكم ، فقال له شيخ منهم : أليس قد نهاكم أبو بكر أن تقتلوا من صلى للقبلة ؟ فقال خالد : بلى قد أمرنا بذلك ولكنكم لم تصلّوا ساعةً قط ؛ قال : فوثب أبو قتادة[5] إلى خالد بن الوليد فقال : أشهد أنك لا سبيل لك

---

(١) عن الأغاني : وبالأصل : الحفول .

(٢) كان مالك بن نويرة على بني يربوع ـ من بني حنظلة .

(٣) كذا بالأصل ، وفي الطبري أن مالكاً قد فرق (أصحابه) في أموالهم ونهاهم عن الاجتماع ، وقال : يا بني يربوع إنا قد كنا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلي هذا الدين ، وبطأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح ، وإني قد نظرت في هذا الأمر ، فوجدت الأمر يتأنى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا في هذا الأمر . . . وخرج مالك حتى رجع إلى منزله . وانظر الأغاني ١٥ / ٣٠١ .

(٤) من بني ثعلبة بن يربوع ، من عاصم وعبيد وعرين وجعفر .

(٥) هو الحارث بن ربعي وقيل اسمه النعمان أبو قتادة الأنصاري الخزرجي ، ثم من بني سلمة . فارس رسول الله (ص) . (أسد الغابة ـ الإصابة) .

عليهم ، قال خالد : وكيف ذلك ؟ قال : لأني كنت في السرية التي قد وافتهم فلما نظروا إلينا قالوا : من أين أنتم ؟ قلنا : نحن المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، ثم أذّنّا وصلّينا فصلّوا معنا ؛ فقال خالد : صدقت يا [أبا ـ][1] قتادة إن كانوا قد صلوا معكم فقد منعوا الزكاة التي تجب عليهم ولا بدّ من قتلهم . قال : فرفع شيخ منهم صوته وتكلّم فلم يلتفت خالد إليه وإلى مقالته فقدمهم فضرب أعناقهم عن آخرهم[2] . قال : وكان أبو قتادة قد عاهد الله أنه لا يشهد مع خالد بن الوليد مشهداً أبداً بعد ذلك اليوم .

قال : ثم قدّم خالد مالك بن نويرة ليضرب عنقه فقال مالك : أتقتلني وأنا مسلم أصلّي إلى القبلة ! فقال له خالد : لو كنت مسلماً لما منعت الزكاة ولا أمرتَ قومك بمنعها والله ! ما نلت ما في مثابتك حتى أقتلك . قال : فالتفت مالك بن نويرة إلى امرأته فنظر إليها ثم قال : يا خالد ! بهذه قتلتني ؟ فقال خالد : بل الله قتلك برجوعك عن دين الإسلام وجفلك لإبل الصدقة وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من زكاة أموالهم . قال : ثم قدّمه خالد فضرب عنقه صبراً[3] . فيقال إن خالد بن الوليد تزوج بامرأة مالك[4] ودخل بها ؛ وعلى ذلك أجمع أهل العلم .

---

(١) سقطت من الأصل .

(٢) كذا بالأصل ، ويفهم من رواية الطبري والأغاني أن قتلهم لم يكن مقرراً إنما كان لسوء فهم أمرٍ أصدره خالد بقوله : أدفئوا أسراكم وكان في لغة كنانة إذا قالوا : دثروا الرجل فأدفئوه ، دفئه أي اقتلوه من الدفء . فظن القوم ـ وهي في لغتهم القتل ـ أنه أراد القتل ، فقتلوهم . وقد عبر خالد عن أسفه بقوله : إذا أراد الله أمراً أصابه (٣ /٢٧٨ الأغاني ١٥ / ٣٠١) .

(٣) كذا بالأصل ، وهو ما ذهب إليه اليعقوبي ، وأما في الرواية المتقدمة عن الطبري والأغاني أن ضرار بن الأزور هو الذي قتل مالكاً . ويقول أخوه متمم بن نويرة يرثيه :

فعشنا بخير في الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

في أبيات (الأغاني ـ الكامل لابن المبرد ـ أدب الكاتب وقال :

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت ... خلف البيوت قتلت يا بن الأزور
أدعوته بالله ثم غدرته ... لو هو دعاك بذمة لم يغدر

(٤) هي أم تميم بنت المنهال بن عصمة الرياحي وهو الذي كفن مالكاً ـ بثوبيه .

ذكر أمر مسيلمة الكذاب وما كان
من حروبه مع خالد بن الوليد والمسلمين

قال : وأقام خالد بن الوليد بالبطاح من أرض بني تميم بعد قتل مالك بن نويرة ينتظر أمر أبي بكر رضي الله عنه[١] . وجعل مسيلمة بن حبيب الكذاب يعلو أمره باليمامة يوماً بعد يوم ويقول لقومه بني حنيفة : أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحق بالنبوة والإمامة منكم ، والله ! ما هم بأكثر منكم ولا أنجد ، وإن بلادكم لأوسع من بلادهم ، وأموالكم أكثر من أموالهم ، وإن جبريل عليه السلام ليأتيني في كل يوم بالذي أريده من الأمور ، وينزل عليّ كما كان ينزل على محمد بن عبد الله من قبلي ، وبعد فهذا الرحّال بن نهشل[٢] ومحكم بن الطفيل وهما من سادات أهل اليمامة فسلوهما هل يشهدان لي بأن محمد بن عبد الله قد أشركني في نبوته قبل وفاته[٣] . قال : فأقبل قوم من أشراف بني حنيفة إلى الرحّال[٢] بن نهشل ومحكم بن الطفيل فقالوا لهما : إن مسيلمة بن حبيب قد ادّعى النبوة بين أظهرنا منذ كذا وكذا وقد زعم لنا أنكما تشهدان له بأن محمد بن عبد الله قد أشركه في نبوته قبل وفاته وأنتما عندنا شيخان صادقان فما الذي عندكما ؟ قال الرحّال[٢] بن نهشل : صدق مسيلمة في قوله ، أنا أشهد أن محمد بن عبد الله قد أشركه في نبوته قبل وفاته[٣] ؛ وقال محكم بن الطفيل : وأنا أشهد بذلك . قال : فعندها تسارع الناس إلى مسيلمة وآمنوا بنبوته إلا القليل منهم .

---

(١) في الطبري : أنه لما بلغ أبا بكر خبر مالك بن نويرة وما أقدم عليه خالد بن الوليد كتب إليه أن يقدم عليه ، ففعل ، فأخبره خبره ، فعذره وقبل منه ، وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك . (٣/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩ والأغاني ١٥ / ٣٠١ ـ ٣٠٢) .

(٢) كذا بالأصل ، وهو الرجال بن عنفوة بن نهشل (وقيل هو الرحال بالحاء) واسمه نهار (عن ابن الأثير) وكان قد أسلم في قومه بني حنيفة وهاجر إلى النبي (ص) وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة .

(٣) وكان مسيلمة قد تنبأ سنة عشر ، وكان كتب إلى رسول الله إني أشركت معك ، فلك نصف الأرض ، ولي نصفها ، ولكن قريش قوم لا يعدلون . فكتب إليه رسول الله (ص) : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

ذكر سجاح بنت الحارث[1] التميمية لما زوجت نفسها من مسيلمة

قال : وظهر أمر مسيلمة باليمامة وانتشر ذكره في الناس ، وسمعت به سجاح بنت الحارث[1] التميمية وقد كانت ادّعت النبوة[2] وتبعها رجال من قومها غيلان بن خرشة[3] والحارث[4] بن الأهتم وجماعة من بني تميم.[5] قال : وكان لها مؤذّن[6] يؤذّن بها ويقول : أشهد أن سجاح[1] نبيـة الله . قال : فسارت سجاح[1] هذه إلى مسيلمة الكذاب سلمت عليه بالنبوة وقالت : إنه بلغني أمرك وسمعت بنبوتك وقد أقبلت إليك وأحببت أن أتزوج بك ، ولكن أخبرني ما الذي أنزل إليك من ربك ؟ فقال مسيلمة : أنزل عليّ من ربي : لا أقسم بهذا البلد ، ولا تبرح هذا البلد ، حتى تكون ذا مال وولد ، ووفر وصفد ، وخيل وعدد ، إلى آخر الأبد ، على رغم من حسد . قال : فقالت سجاح[1] : إنك نبي حقاً ، وقد رضيت بك وزوّجتك نفسي ، ولكن أريد أن تجعل لي صداقاً يشبهني ؛ قال مسيلمة : فإني قد فعلت ذلك . قال : دعا مسيلمة بمؤذنه[7] فقال : ناد في قوم هذه المرأة : ألا ! إن نبيكم مسيلمـة قد رفـع عنكم صلاتين[8] من الخمس التي جاء بها محمد بن عبد الله ، وهي صلاة الفجر وصلاة العشاء الأخيرة ؛ فقالت سجاح[1] : أشهد أنك لقد جئت بصواب .

قـال : وضج المسلمـون إلى أبي بكـر رضي الله عنـه وقـالـوا : يـا خليفـة

(١) بالأصل شجاح بنت المنذر ، تحريف . وهي سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان .

(٢) تنبأت بعد موت رسول الله (ص) بالجزيرة في بني تغلب ، فاستجاب لها الهذيل ، وترك التنصر . وتابعها جمع من عشيرتها .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل حرشنة .

(٤) في الطبري : وعمرو .

(٥) زيد في الطبري ٣ / ٢٧٤ والزبرقان بن بدر ، وعطارد بن حاجب وشبث بن ربعي .

(٦) في تاريخ اليعقوبي ٢ /١٢٩ الأشعث بن قيس ، وفي الطبري والكامل لابن الأثير : شبث بن ربعي الرياحي . وفي المعارف لابن قتيبة ص ١٧٨ : مؤذنها زهير بن عمرو من بني سليط بن يربوع ، ويقال أن شبث بن ربعي أذن لها .

(٧) في الطبري وابن الأثير : دعا مسيلمة بمؤذنها وقال له : نادِ في أصحابك . . .

(٨) في الأغاني ١٨/ ١٦٦ « قد وضعت عنكم صلاة العصر . فبنو تميم إلى الآن بالرمل لا يصلونها ، ويقولون : هذا حق لنا ، ومهر كريمة منا لا نرده » .

رسول الله ! قد انتشر من ذكر هذا الملعون الكذاب بأرض اليمامة . قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : لا تعجلوا فإني أرجو أن الله تبارك وتعالى قد أذن في هلاكه .

ذكر كتاب أبي بكر رضي الله عنه
إلى خالد بن الوليد في أمر مسيلمة

قال : ثم كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما وهو يومئذ مقيم بالبطاح[1] فكتب إليه[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله(ص) إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان .

أما بعد يا خالد ! فإني قد أمرتك بالجد في أمر الله ، والمجاهدة لمن تولى عن سبيل الله إلى غيره ورجع عن دين الإسلام والهدى إلى الضلالة والردى ، وعهدي إليك يا خالد أن تتقي الله وحده لا شريك له ، وعليك بالرفق والتأني ، [وإياك ونخوة بني المغيرة][3] ، وسر نحو بني حنيفة ومسيلمة الكذاب ، واعلم بأنك لم تلق قوماً قط يشبهون بني حنيفة في البأس والشدة ، فإذا قدمت عليهم ، فلا تبدأهم بقتال حتى تدعوهم إلى داعية الإسلام ، واحرص على صلاحهم ، فمن أجابك منهم ، فاقبل ذلك منه ، ومن أبى فاستعمل فيه السيف .

واعلم يا خالد بأنك إنما تقاتل قوماً كفاراً بالله وبالرسول محمد ﷺ ، فإذا عزمت على الحرب فباشرها بنفسك ، ولا تتكل على غيرك ، وصف صفوفك ، واحكم بعينك[4] واجزم[5] على أمرك ، واجعل على ميمنتك رجلاً ترضاه ، وعلى ميسرتك مثله ، واجعل على خيلك رجلاً عالماً صابراً ، واستشر من معك من أكابر[6] المسلمين أصحابِ رسول الله ﷺ ، فإن الله تبارك وتعالى موفّقك بمشورتهم .

---

(١) تقدم أن أبا بكر كان قد استدعى خالداً بعد قتله مالك بن يربوع فقدم عليه خالد واعتذر إليه فعذره وقبل منه ثم وجهه إلى مسيلمة وأوعب معه الناس . (الطبري ٣ / ٢٨١ الكامل لابن الأثير ٢ / ٣٥) .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية حميد الله ص ٣٤٨ عن كتاب الردة للواقدي ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٣) ما بين معكوفتين سقط من مجموعة الوثائق .

(٤) في مجموعة الوثائق : تعبئتك .

(٥) في مجموعة الوثائق : واحزم .

(٦) في مجموعة الوثائق : أكابر أصحاب .

واعرف للمهاجرين والأنصار حقهم وفضلهم ، ولا تكسل ولا تفشل ، وأعد السيف للسيف والرمح للرمح ، والسهم للسهم ، واستوصِ بمن معك من المسلمين خيراً ، ولين الكلام وأحسن الصحبة واحفظ وصية نبيك محمد ﷺ في الأنصار خاصة . أن[1] تحسن إلى محسنهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وقل : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال : فلما ورد الكتاب على خالد بن الوليد جمع أصحابه ثم قرأ عليهم الكتاب وقال : ما الذي ترون الآن من الرأي ؟ فقالوا : الرأي رأيك وليس فينا أحد يخالفك . قال : فعندها عزم خالد على المسير إلى مسيلمة وأصحابه[2] ، وكتب حسان بن ثابت الأنصاري إلى محكم بن الطفيل وزير مسيلمة يهدده ؛ قال : فلما وصل كتابه إلى محكم بن الطفيل هذا الذي هو وزير مسيلمة وقرأه أرسل إلى وجوه أهل اليمامة فجمعهم ثم أقبل عليهم فقال : يا بني حنيفة ! هذا خالد بن الوليد قد سار إليكم في جمع المهاجرين والأنصار وإنكم تلقون غداً قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم ، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم . قال : فقالت بنو حنيفة : سيعلم خالد غداً إذا نحن التقينا أنا بخلاف من لقي من العرب ؛ فقال محكم بن الطفيل : هذا الذي أريده منكم . قال : وبلغ بني حنيفة أن خالداً قد سار إليهم في الحد والحديد والخيل والجنود فاجتمعوا إلى رجل واحد من أكابرهم يقال له ثمامة بن أثال[3] ـ وكان ذا عقل وفهم ورأي وكان مخالفاً لمسيلمة على ما هو عليه ـ فقالوا له : يا أبا عامر ! إنه قد سار هذا الرجل إلى مقاتلتنا يريد قتلنا وبوارنا واستئصالنا عن جدبة الأرض ، فهذا مسيلمة بن حبيب بين أظهرنا وقد ادّعى ما قد علمت من النبوة ، فهات الذي عندكم من الرأي[4] .

---

(١) في مجموعة الوثائق : وأن .

(٢) رواية الطبري ٣ / ٢٨٠ أنه لما وجهه أبو بكر إلى مسيلمة أوعب معه الناس . . . وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح ، وانتظر البعث الذي ضرب بالمدينة ، فلما قدم عليه نهض حتى أتى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير .

(٣) من الطبري والاصابة . وبالأصل : تمامة بن أتال . وهو ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم . حاول وهو مشرك أن يقتل رسول الله (ص) فأخذ وأمر به فربط إلى عمود من عمد المسجد ثم عفا عنه رسول الله (ص) وتركه ثم أسلم . قال ابن إسحاق : لما ارتد أهل اليمامة عن الإسلام لم يرتد ثمامة وثبت على إسلامه هو ومن اتبعه من قومه وكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ويقول : إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه وأنه لشقاء . قتله بنو الحصم . (أسد الغابة) .

(٤) قيل إن ثمامة كتب إلى مسيلمة ينصحه كتاباً نسخته (عن مجموعة الوثائق حميد الله ص ٣٤٩ عن كتاب =

قـال : فقال لهم ثمـامة[1]: ويحكم يـا بني حنيفة ! اسمعـوا قولي تهتـدوا ، وأطيعوا أمري ترشدوا ، واعلموا أن محمداً ﷺ كان نبياً مرسلاً لا شك في نبوّته ، ومسيلمة رجل كذاب لا تغتروا بكلامه وكذبه ، فإنّكم قد سمعتم القرآن الذي أتى به محمد (صلّى الله عليه وسلم وآله) عن ربّه إذ يقول : ﴿ بسم الله الرحمن الـرحيم * حٰمٓ * تنزيلُ الكِتٰبِ من الله العزيز العليم * غافِرِ الذنب وقابلِ التوب شديدِ العقابِ ذي الطولِ لآ إلٰه إلا هو إليهِ المصيـرُ * ﴾[2] فأين هـذا الكلام من كـلام مسيلمة الكذاب ! فانظروا في أموركم ولا يذهبن هذا عنكم ، ألا ! وإني خارج إلى خالد بن الوليد في ليلتي هذه طالباً منه الأمان على نفسي ومالي وأهلي وولدي ؛ فقال القوم : نحن معـك يا أبا عامر ! فكن من ذلك على علم . ثمّ خرج ثمامة بن أثال في جوف الليل في نفر من بني حنيفة حتى صار إلى خالد فـاستأمن إليـه فأمنـه خالـد وأمن أصحابه .

قال : وسار خالد بمن معه من المهاجرين والأنصار حتى إذا تقارب من أرض اليمامة نزل إلى جنب وادٍ من أوديتها[3] ، ثم بعث بجماعة من أصحابه يزيدون على مائتي فارس فقال لهم : سيروا في هذه البلاد فأتوني بكل من قدرتم عليه ؛ فساروا فإذا هم برجل من أشراف بني حنيفة يقال له مجاعة بن مرارة ومعه ثلاثة[4] وعشرون رجلاً من بني حنيفة .

ذكر مجاعة بن مرارة وسارية بن عامر

قال : فدنـا منهم المسلمون فقـالوا : من أنتم ؟ قـالوا : نحن قـوم من بني حنيفة ، قال المسلمـون : فلا أنعم الله بكم عينـاً يا أعـداء الله ! ثم أحاطـوا بهم

= الردة للواقدي ص ٧٦) : ارجع ولا تدّع ، فإنك في الأمر لم تشرك . كذبت على الله في وحيه وكان هواك هوى . ألا وتدو مناك (؟ وقد منّاك) وقومك أن يمنعوك . وإن باتهم خالد ينزل ، فما لك في الجو من مصعد ، وما لك في الأرض من مسلك . سحبت الذيول إلى سوءة (؟) على من يقل مثله يهلك .

(١) بالأصل : تمامة .

(٢) سورة غافر : ١ ـ ٣ .

(٣) في الطبري : حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على ليلة .

(٤) في تاريخ خليفة ص ١٠٧ في عشرين رجلاً . وفي الكامل ٢ / ٣٦ والبداية والنهاية ٦ / ٣٥٦ « أربعين وقيل ستين فارساً » وكانوا قد ذهبوا لأخذ ثأر لهم في بني تميم وبني عامر .

فأخذوهم وجاؤوابهم إلى خالد بن الوليد حتى أوقفوهم بين يديه ، فقال لهم خالد : يا بني حنيفة ! ما تقولون في صاحبكم مسيلمة ؟ فقالوا : نقول إنه شريك محمد في نبوّته ؛ فقال رجل يقال له سارية بن عامر(١) : يا أبا سليمان ! ولكني لا أقول ذلك ؛ قال خالد : يا مجاعة(٢) ! ما تقول فيما يقول أصحابك هؤلاء ؟ فقال مجاعة : أقول إني قدمت المدينة وبها رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) فآمنت بـه وصدقتـه أنا وصاحبي هذا سارية بن عامر ، لا والله ما غيّرنا ولا بدّلنا ! غير أنه لم يكن لنا بدّ من مداراة مسيلمة خوفاً على أنفسنا وأموالنا وأولادنا ؛ فقال له خالد بن الوليد : فاعتزل أنت وصاحبك هذا ناحية من هؤلاء الكفار . ثم قدم خالد بقية القوم فضرب أعناقهم صبراً ، ثم عمد إلى مجاعة فقال مجاعة : أيّها الأمير ! إني لم أزل مسلماً وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس وقد عجلت على هؤلاء القوم بالقتل وأنا والله خائف على نفسي منك ! ولكن أيها الأمير إن كان رجل كذاب خرج بين أظهرنا فادّعى ما ادّعى فليس يجب عليك أن تأخذ البريء بأمر السقيم فـإنّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ ولا تَزِر وازرةٌ وزرَ أخرىٰ ﴾(٣) ؛ قال : فسكت عنه خالد ولم يكلمه بشيء . قال : ثم أقبل عليه سارية بن عامر فقال : أيّها الأمير ! من خاف سيفك رجا عدلك ومن رجا عدلك رجا أماناً منعماً ، وخفتك ورجوتك وأنا بحمد الله على دين الإسلام ، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ ، فإن أردتَ أن نسأل لك أمر بني حنيفة فاستبقني واستبق هذا الشيخ فإنه سيّد أهل اليمامة ولا تؤاخذونا بما كان منّا ومن تخلّفنا عنك والسلام ؛ قال خالد : فإني عَفوت عنكما ولكن أقيما في عسكري ولا تبرحا حتى أنظر ما ينصرم أمري وأمر بني حنيفة . ثم أمر خالد بمجاعة وسارية فأطلقهما من حديدهما .

---

(١) في الإصابة : سارية بن عمرو الحنفي .

(٢) هو مجاعة بن مرارة بن سلمى وقيل سليم بن زيد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة الحنفي اليمامي من رؤساء بني حنيفة . وفيه يقول شاعر بني حنيفة :

ومجاع اليمامة قد أتانا ... يخبرنا بما قال الرسول
فأعطيناه المقادة واستقمنا ... وكان المرء يسمع ما يقول

وقد أنشد مجاعة يعبر عن تخوفه من خالد بعدما أسر :

أترى خالداً يقتلنا اليو ... م بذنب الأصفر الكذاب
لم يدع ملة النبي ولا نحـ ... ـن رجعنا فيها على الأعقاب

قال المرزباني : وبقي إلى خلافة معاوية .

(٣) سورة الأنعام : ١٦٤ والإسراء : ١٥ وفاطر : ١٨ والزمر : ٧ .

ذكر الوقعة بين مسيلمة وخالد بن الوليد ومقتل مسيلمة

قال : وسار خالد بن الوليد بالمسلمين حتى نزل بموضع يقال له عَقرُباء[1] من أرض اليمامة ، فضرب عسكره هناك . وسار مسيلمة في جميع بني حنيفة حتى نزل حذاء خالد ، فأقاموا يومهم ذلك ينظر بعضهم إلى بعض ، فلمّا كان من غد وثب مسيلمة يعبّي أصحابه تعبية الحرب ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين[2] ؛ ونظر خالد بن الوليد إلى ذلك فوثب يعبّي أصحابه فكان على ميمنته زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعلى ميسرته أسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ ، وعلى الجناح البراء بن مالك أخو أنس بن مالك[3] . قال : وسلّت بنو حنيفة سيوفها من أجفارها وأبرقوا بها ، ثم إنهم ضجّوا ضجّة ونعروا نعرة منكرة ، فقال خالد : أيها القوم أبشروا ! فإن القوم مخذولون إن شاء الله تعالى ، وإنما سلّوا هذه السيوف ليرهبوكم ولم يفعلوا ذلك إلا جزعاً وفشلاً ؛ قال : فسمع رجل من بني حنيفة فقال[4] : هيهات والله يابن الوليد ! لكن أبرزناها لكم من أغمادها لتعلموا أنها ليست كسيوفكم الخشنة الكليلة .

قال : ودنا القوم بعضهم من بعض وتقدم خالد بن الوليد في أول القوم ثم قاتل ساعة ورجع إلى أصحابه ؛ وتقدم عمّار بن ياسر وفي يده صحيفة له يمانية ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم جماعة ، وحمل رجل من بني حنيفة فضربه فالتقاها عمار بحجفته فزاحت الضربة عن الحجفة وهوت إلى أذن عمار فرمت بها ، فلمّا بقيت أذن عمار معلقة سقطت على عاتقه ؛ قال : وداخله عمّار فضربه ضربة قتله . قال : ثم تقدم الحارث بن هشام المخزومي أخو أبي جهل بن هشام فجعل يهدر كالفحل ، ثم حمل وقاتل قتالاً شديداً ورجع إلى موقفه ، وتقدم زيد بن الخطاب ثم

---

(١) عقرباء : منزل من أرض اليمامة في طريق النباج (معجم البلدان) .

(٢) كان على مقدمته الرجال بن عنفوة بن نهشل . وفي الطبري : جعل مسيلمة على مجنبتيه المحكم والرجال .

(٣) في الطبري ٣ / ٢٨٦ قدم خالد شرحبيل بن حسنة ، وأمّر على المقدمة خالد بن فلان المخزومي وجعل على المجنبتين زيداً وأبا حذيفة . وفي رواية أخرى ٣ / ٢٨٨ كانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس .

(٤) في الطبري ٣ / ٢٨٩ هو مجاعة بن مرارة قال : كلا والله ولكنها الهندوانية خشوا عليها من تحطمها ، فأبرزوها للشمس لتلين لهم .

حمل وذلك في آخر النهار فلم يزل يقاتل حتى قتل خمسة من وجوه القوم وفرسانهم وقُتل[1] ـ رحمة الله عليه ـ . قال : فتقدم ابن عمّ له يقال له عامر بن بكير العدوي حتى وقف بين الجمعين ، قال : ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قُتل ـ رحمة الله عليه ـ .

قال : واشتبك الحرب بين الفريقين فقتل من المسلمين زهاء عن ثلاثمائة رجل ، وقتل من بني حنيفة جماعة ؛ فأمسى القوم فرجع بعضهم عن بعض ولم ينم منهم أحد تلك الليلة لِماَ يخافون من البيات ؛ فلمّا كان من الغد دنا بعضهم إلى بعض ، وتقدم محكم بن الطفيل هذا ـ وزير مسيلمة وصاحب أمره ـ فتقدم حتى وقف أمام أصحابه شاهراً سيفه ، ثم حمل على المسلمين فقاتل قتالاً شديداً ، وحمل عليه ثابت بن قيس الأنصاري فطعنه في خاصرته طعنة نكسه عن فرسه قتيلاً[2]، ثم جال الأنصاري في ميدان الحرب جولة ، ثم حمل هذا الأنصاري في جماعة من بني حنيفة فلم يزل يقاتل حتى قتل ـ رحمة الله عليه ـ . قال : ثم تقدم السائب بن العوام أخو الزبير بن العوام ثم حمل ، فلم يزل يقاتل حتى قُتل ـ رحمة الله عليه ـ .

ذكر البراء بن مالك أخي أنس بن مالك

قال : وكان البراء بن مالك فارساً بطلاً لا يصطلى بناره ، وكان إذا شهد الحرب وعاينها أخذته الرعدة[3] وينتفض انتفاضاً شديداً حتى كان ربما يعقل بالحبال ويضبطه الرجال فلا يزال كذلك ساعة حتى يفيق ، وإذا أفاق يبول بولاً أحمر كأنه نقاعة الحناء ، ثم إنه يثب قائماً مثل الأسد فيقاتل قتالاً شديداً لا يقوم له أحد ؛ قال : فلمّا كان ذلك اليوم وعاين البراء بن مالك من شدة الحرب ما عاين أخذته الرعدة والنفضة ، فلمّا أفاق[4] وثب ثم حمل على جميع بني حنيفة فجعل تارة يضرب بسيفه وتارة يطعن فيهم برمحه حتى قتل منهم جماعة ورجع إلى موقفه . قال : وصاحت بنو حنيفة بعضها ببعض وحملوا على المسلمين حملة منكرة حتى أزالوهم عن موقفهم

(١) قتله أبو مريم الحنفي (تاريخ خليفة ص ١٠٨) وقيل قتله : سلمة بن صبيح ابن عم أبي مريم (الاستيعاب) .

(٢) في تاريخ خليفة ص ١٠٩ رماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم فقتله . زيد في الطبري ٣ / ٢٩٠ رماه بسهم فوضعه في نحره فقتله .

(٣) في الطبري ٣ / ٢٩٠ « العروراء » وهي رعدة تصيب الإنسان ، وهي في الأصل برد الحمى .

(٤) في الطبري : فلما بال وثب .

وقتلوا منهم نيفاً على ثمانين رجلاً . قال : ثم كبّر المسلمون وحملوا عليهم وكشفوهم كشفة قبيحة .

ثم تراجعت بنو حنيفة ومعهم صاحبهم مسيلمة حتى وقف أمام قومه ، ثم حسر عن رأسه ، ثم إنه حمل وحمل معه بنو حنيفة كحملة رجل واحد وانهزم المسلمون بين أيديهم وأسلموا سوادهم . قال : وصارت بنو حنيفة إلى فسطاط خالد فأحدقوا به[1] ، وثبت لهم خالد يومئذ وحده يضاربهم بالسيف ، فإذا هو قد كشفهم عن فسطاطه ويلتفت إلى المسلمين فيناديهم : ويحكم يا قراء القرآن ! أما تخافون غضب الرحمٰن وعذاب النيران ؟ ويحكم يا أهل دين محمد ! أين الفرار ممن يزعم أنه شريك نبيّكم محمّد ﷺ في نبوّته ورسالته ؟ أما تخافون الله أن يطلع عليكم فيجازيكم على سوء فعلتكم ؟ قال : فتاب الناس إليه من كان جانب حتى أحدقوا به ، ودنت بنو حنيفة للقتال كأنهم الأسد الضارية ، واشتبك الحرب بين الفريقين ؛ وتقدم أبو دجانة سماك بن خرشة[2] الأنصاري ، ثم حمل أبو دجانة على بني حنيفة فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم جماعة ؛ قال : وحمل عليه رجل من سادات بني حنيفة ليضربه بالسيف فأخطأه وضربه أبو دجانة ضربة فقطعه نصفين ، وحمل على رجل آخر من بني حنيفة وولى الحنفي من بين يديه ولحقه أبو دجانة فضربه فقطع ساقيه جميعاً ، ثم حمل على ميمنتهم فضرب فيهم ضرباً وجيعاً وحمل على ميسرتهم ففعل كذلك ، وكان ربما حمل على الرجل فيعانقه ثم يضربه فيذبحه ثم يقف وينادي بأعلى صوته : يا أهل الدين والإسلام ! إليّ إليّ فداكم أبي وأمي ! فتاب إليه السوابق من أهل بدر وأحد والأحزاب فكبروا وحملوا معه حملة عجيبة على مسيلمة وأصحابه فكشفوهم كشفة فاضحة وقتلوا منهم جماعة ، ثم رجعوا إلى مواقفهم .

قال : وتقدم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري خطيب الأنصار وشيخهم

---

(١) في الطبري : فزال خالد عن فسطاطه ، ودخل ناس الفسطاط وفيه مجاعة [بن مرارة ، وكان خالد قد أبقاه في فسطاطه مع امرأته أم تميم] عند أم تميم ، فحمل عليها رجل بالسيف ، فقال مجاعة : مه أنا لها جار ، فنعمت الحرة ! عليكم بالرجال ٣ / ٢٨٩ .

(٢) عن الاستيعاب ٢ / ٨٣ وبالأصل حرشنة . وهو سماك بن خرشة ، ويقال : سماك بن أوس بن خرشة بن لوذان بن عبدود بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج ، مشهور بكنيته أحد الشجعان شهد بدراً .

فتقدم[1] وفي يده راية صفراء ثمّ حمل على القوم فلم يزل يطاعن حتى قتل[2] ـ رحمة الله عليه ـ. قال: فتقدم ابن عمّ له يقال له بشير بن عبدالله من بني الحارث بن النجار حتى وقف بين الجمعين ؛ قال : ثم حمل بشير بن عبد الله هذا فلم يزل يقاتل حتى قتل ـ رحمه الله تعالى ـ .

قال رافع بن خديج الأنصاري : والله ! لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ﴿ ستُدعون إلى قوم أُولي بأس شديد تُقاتِلونهم أو يُسلِمون ﴾[3] فلم نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة ، فلمّا قاتلناهم علمنا أنهم أولو بأس شديد ، وذلك أنهم هزمونا نيفاً على عشرين هزيمة وقتلوا منا مقتلة عظيمة وكادوا أن يفضحونا مراراً غير أن الله عز وجل أحب أن يعز دينه .

قال : ثم إن المسلمين اجتمعت آراؤهم على أن يحملوا بأجمعهم على بني حنيفة . . . . .[4] واحدة ثم إنهم لا يرجعون دون أن ينكوا فيهم . قال . . . .[5] على ذلك ، ثم إنهم اجتمعوا في موضع واحد وكبروا تكبيرة واحدة وحملوا عليهم فكشفوهم حتى ألجؤوهم إلى حديقة لهم ، فلمّا أدخلوهم إلى جوفها ومسيلمة معهم أقبل المسلمون إلى الحديقة ، فقال أبو دجانة الأنصاري[6] : ويحكم يا معشر الأنصار ! احملوني حملاً [وألقوني][7] إليهم . قال : فحملوا أبا دجانة الأنصاري[6] على ترس . . . . .[8] الأنصار ثم رفع بالرماح حتى أُلقي في جوف الحديقة . قال . . . . .[8] أبو دجانة[6] في وسط الحديقة ثم وثب كالليث

---

(١) تقدم وهو يقول : بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء ـ يعني أهل اليمامة ـ وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ .

(٢) في البداية والنهاية ٦ / ٣٥٧ : حفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحفظ وتكفن فلم يزل ثابتاً حتى قتل هناك (وانظر الطبري ٣ / ٢٩٠ وتاريخ خليفة ص ١٠٧) .

(٣) سورة الفتح : ١٦ .

(٤) بالأصل مطموس ، ولعله « حملة واحدة » .

(٥) بالأصل مطموس .

(٦) في تاريخ خليفة والطبري وابن الأثير والبداية والنهاية : البراء بن مالك .

(٧) زيادة عن تاريخ خليفة ص ١٠٩ ، الأصل مطموس .

(٨) الأصل مطموس .

المغضب فلم يزل يقاتل في جوف الحديقة حتى قتل[١] ـ رحمة الله عليه ـ. قال: وصاح رجل من بني حنيفة بأصحابه: ويلكم يا معشر بني حنيفة! اعلموا أن هذه الحديقة حديقة الموت فقاتلوا أبداً حتى تموتوا كراماً.

قال: واقتحم خالد بن الوليد الحديقة بفرسه وبيده سيف لو ضرب به الحجر لقطعه؛ قال: فاستقبله رجل من بني حنيفة فقال له: أين تريد يابن كذا وكذا؟ فحمل عليه خالد واعتنقه الحنفي فسقطا عن فرسيهما جميعاً إلى الأرض، فسقط الحنفي تحت خالد فجعل يجرحه بخنجر كان معه، وخالد قد قبض على حلقه والحنفي يجرحه من تحت حتى جرحه سبع جراحات، فوثب خالد وتركه وإذا فرس خالد قد غار عن الحديقة، فجعل خالد ظهره إلى باب الحديقة وجعل يقاتل حتى تخلص وهو لِما به. قال: وأقبل عباد بن بشر[٢] الأنصاري حتى وقف على باب الحديقة ثم نادى بأعلى صوته: يا معشر الأنصار! احطموا جفور[٣] سيوفكم واقتحموا .....[٤] الحديقة عليهم فقاتلوهم أو يقتل مسيلمة الكذاب. قال: ثم كسر عباد بن بشر .....[٥] سيفه وكسرت الأنصار جفار سيوفهم واقتحموا الحديقة ....[٦] ومائة رجل، فقاتلوا حتى ما بقي منهم إلا أربعة نفر فإنهم أقبلوا مجروحين لِما بهم.

قال: وعظم الأمر على الفريقين جميعاً، والتفت بنو حنيفة إلى مسيلمة فقالوا له: يا أبا ثمامة! ألا ترى إلى ما نحن فيه من قتال هؤلاء؟ فقال مسيلمة: بهذا أتاني

---

(١) كذا بالأصل والعبارة في الطبري ٣ / ٢٩٠: «فقال البراء: يا معشر المسلمين، القوني عليهم في الحديقة، فقال الناس: لا تفعل يا براء، فقال: والله لتطرحني عليهم فيها، فاحتمل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار، اقتحم فقاتلهم على باب الحديقة، حتى فتحها للمسلمين، ودخل المسلمون عليهم فيها» وقال خليفة ص ١٠٩: «... فقاتلهم حتى فتح الباب، وفيه بضع وثمانون جراحة من بين رمية بسهم وضربة فحمل إلى رحله يداوى فأقام عليه خالد شهراً» (انظر الاستيعاب ١ / ١٥٥).

(٢) من تاريخ خليفة ص ١١٣ وبالأصل «بشير» تحريف.

(٣) كذا جفور، وجفار يريد جمع جُفْرة. وجفرة كل شيء وسطه ومعظمه. والجفير: الكنانة والجعبة التي تجعل فيها السهام (اللسان).

(٤) بالأصل مطموس، لعله «جدار».

(٥) بالأصل مطموس: لعله «جفرة».

(٦) مطموس بالأصل، وفي المطبوعة عن الترجمة الفارسية: وهم عشرون ومائة.

الوحي أن القوم يلجؤوكم إلى هذه الحديقة ويكون قتالكم معهم في جوفها ، فقال له بعضهم : فأين ما وعدتّنا من ربّك بأنّه ينصرنا على عدونا ، وأن هذا الدين الذي نحن فيه هو الدين القيّم ؟ فقال مسيلمة : أما الدين فلا دين لكم ، ولكن قاتلوا عن أحسابكم . تظنون أنا إنما كنا نقاتل إلى ....[1] ونحن على الحق وهم على الباطل ، إنه لو كان ما تظنون إذاً لما ....[2] أحد جمعنا . قال : ثم جعل مسيلمة يرتجز . قال : فعند ذلك علم القوم أنهم كانوا في غرور وضلال من استمساكهم بدين مسيلمة ، وجعل رجل منهم يرتجز .

قال : فاقتحم المسلمون بأجمعهم على مسيلمة وأصحابه فقاتلوهم حتى احمرّت الأرض من الدماء . قال : ونظر وحشي[3] غلام جبير بن مطعم بن عدي إلى مسيلمة وقد ألجأه المسلمون إلى جانب الحديقة فقصده وحشيّ وقصده أيضاً رجل من الأنصار يقال له : عبد الله بن يزيد[4] ، ونظر إليهما مسيلمة وقد قصداه فحمل عليهما ، ثم بدره الأنصاري بضربة على رأسه فأوهنه ، ورماه وحشيّ بحربة كانت في يده فوقعت الحربة في خاصرته فسقط مسيلمة عدو الله عن فرسه قتيلاً[5] . قال : وتصايح الناس من كل جانب وقالوا : ألا ! إن مسيلمة عدوّ الله قد قتله عبد أسود وهو وحشيّ غلام جبير بن مطعم . قال : وجعل وحشيّ ينادي : أيّها الناس ! أنا وحشيّ غلام جبير بن مطعم ! قتلت خير الناس وأنا كافر - يعني حمزة بن عبد المطلب رحمة الله عليه - وقتلت شر الناس وأنا مسلم - يعني مسيلمة الكذاب -؛ قال: ثم أنشأ الأنصاري[6] . قال : ودفع بنو حنيفة جانباً من حائط الحديقة فهدموه وخرجوا منها والسيف يأخذهم ، وأقبل خالد بن الوليد حتى دخل الحديقة ومعه جماعة من

---

(١) بالأصل مطموس ، ولعله : إلى إظهار هذا الدين .

(٢) بالأصل مطموس : ولعله : إذاً لما فرّق .

(٣) هو وحشي بن حرب الحبشي ، أبو دسمة وهو من سودان مكة مولى طعيمة بن عدي وقيل مولى جبير بن مطعم بن عدي قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه يوم أحد . كان يقول : قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام (أسد الغابة) .

(٤) في تاريخ خليفة : عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب من بني مازن بن النجار . وفي البداية والنهاية ٦ / ٣٥٧ : أبو دجانة الأنصاري سماك بن خرشة ، ضربه بالسيف فسقط . وانظر تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٣٠ .

(٥) كان وحشي يقول : ربك أعلم أينا قتله ! (وقد ضرباه سوية فلا يدرى ضربة من منهما أصابته أولاً).

(٦) كذا ، وقد سقط كلامه من الأصل .

المسلمين ، فوقف على مسيلمة وهو مقتول ونظر إليه فإذا هو أصفر أحمش[1] ضعيف البدن ، فقال خالد بن الوليد : أين مجاعة بن مرارة ؟ فقال : هـا أناذا ـ أصلح الله الأمير ـ ! فقال : هذا صاحبكم الذي أوقعكم[2] ! فقال مجاعة : نعم ـ أصلح الله الأمير ـ ! هذا صاحبنا فلعنة الله عليه فلقد كان مشوماً على نفسه وعلى بني حنيفة . قال : ثم جعل مجاعة بن مرارة يقول[3] :

ذكر الصلح الذي جرى بين خالد بن الوليد وبين مجاعة بن مرارة

قـال : ثـم أقبل مجاعة على خالد فقال : أيها الأمير ! هلمّ فصالحني على من ورائي من الناس ، فإني أعلم أنه ما أتاك إلى الحرب إلا سرعان الخيلِ[4] ، فقال خالد : ويلك ما تقول يا مجاعة ! فقال : أقول إن الحصون مملوءَة رجالاً وسلاحاً ! قال : فظن خالد أنه كما يقول مجاعة ، فجعل يقدّم ويؤخّر في الصلح .

قال : وأرسل مجاعة إلى الحصون فأمر النساء أن يلبسن . . . . .[5] والمغافر ويتقلّدن ويقفن على أسوار الحصون حتى ينظر إليهن خالد . قال : ففعل النساء ما أمرهن به مجاعة ولبسن السلاح ، فلما وقفن على حيطان الحصون ونظر إليهن خالد قـال : ويحك يـا مجاعـة ! إني أرى حصونكم مملوءة رجـالاً وسلاحـاً ، فقال لـه مجاعة : قد خبرتك بذلك أيّها الأميـر ولكنك أبيت أن تصـالحني ، قال خـالد بن الوليد : فإني قد صالحتك . قال : فصالحه خالد على ما ظهر من الصفراء والبيضاء من الذهب والفضة وعلى ثلث الكراع وربع من السبي . وأقبل مجاعة نحو الحصون فإذا هو بامرأة من بني حنيفة قد رفعت صوتها وهي تقول :[6] ، قال : فـدنا منهـا

---

(١) في تاريخ خليفة ص ١١٠ : « رويجل أصفر أحيمش » والأحيمش : دقيق الساقين صغير الحجم . وفي تاريخ الطبري ٣ / ٢٩٥ : أخينس (تصغير أخنس) والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة .

(٢) في الطبري : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وفي تاريخ خليفة : هذا صاحبنا . فقال خالد : ويلك هذا فعل بكم ما فعل ؟ قال : قد كان ذلك .

(٣) كذا ، وسقط كلامه من الأصل .

(٤) في الطبري : « سرعان الناس » وسرعان : بالتحريك ويخفف . أوائلهم المستبقون إلى الأمر .

(٥) الأصل مطموس . وفي مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٠ : الدروع .

(٦) كذا ، وقد سقط من الأصل ما قالته .

مجاعة بن مرارة فقال لها : اسكتي - رضّ الله فاك ! أنا مجاعة بن مرارة ، صالحتُ خالداً صلح مكر فلا تبرحن عن مواضعكن حتى يتم الصلح[1] .

ذكر عدد القتلى الذين قتلوا من المسلمين ، والكتاب الذي ورد على خالد من المدينة

قال : وأحصي من قتل من المسلمين فكانوا ألفاً ومائتي رجل [و] سبعمائة رجل كانوا حفاظ القرآن ، وبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه ومن معه بالم من المسلمين ، وقامت النياحات بالمدينة على القتلى . قال : وكتب ؛ المسلمين إلى خالد بهذه الأبيات . . . .[3] يحرضه على قتل من بقي من حنيفة . . . . . .[4] قال : فلمّا وصلت هذه الأبيات إلى خالد بن الوليد ونظر قال : إنه لولا ما مضى من صلح القوم لفعلت ذلك فأما الآن فليس إلى قتلهم سبيل .

---

(١) خرج مجاعة حتى أتى خالداً فقال : بعد شد ما رضوا ، اكتب كتابك فكتب : (نص الصلح الطبري ٣ / ٢٩٨ ومجموعة الوثائق السياسية حتى ١٥٩) بسم الله الرحمن الرحيم (تفرد بها الـ وليست في الطبري) .

هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد ، مجاعة بن مرارة وسلمة بن عمير وفلاناً وفلاناً ، قاضـ الصفراء والبيضاء ، ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة ، على أن يُسْلم ثم أنتم آمنون بأمان الله ، ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمة أبي بكر خليفة رسول الله (ص) ، المسلمين على الوفاء .

(٢) كذا بالأصل والطبري ٣/ ٣٠٠ وفي رواية أخرى في الطبري ٣/ ٢٩٦ : قتل من المهاجرين واا ٣٦٠ ومن المهاجرين من غير المدينة والتابعين بإحسان ٣٠٠ من هؤلاء و ٣٠٠ من هؤلاء . وفي خليفة ص ١١١ : قتل من المهاجرين والأنصار ١٤٠ وكان جميع القتلى ٤٥٠ رجلاً . وفي ر شهداء اليمامة ٥٠٠ ، فيهم ٥٠ أو ٣٠ من حملة القرآن . وقد ذكر خليفة اسماءهم انظر ص ١١ بعدها .

(٣) كذا ، ولم تذكر الأبيات بالأصل . وفي الطبري ٣ / ٢٩٧ أبيات قالها ضرار بن الأزور يوم الـ منها :

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت ... عشية سالت عقرباء وملهم

(٤) بياض بالأصل .

ذكر كتاب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بعد قتل مسيلمة وجواب الكتاب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله بن عثمان خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) من خالد بن الوليد ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى لم يرد بأهل اليمامة إلا ما صاروا إليه ، وقد صالحت القوم على[2] شيء من الصفراء والبيضاء وعلى ثلث الكراع وربع السبي ، ولعل الله تبارك وتعالى أن يجعل عاقبة صلحهم خيراً ـ والسلام [عليك ورحمة الله وبركاته] .

جواب الكتاب :

أما بعد فقد قرأت كتابك ، وأما[3] ما ذكرت فيه من صلح القوم . فأتمم للقوم ما صالحتهم عليه ، ولا تغدر بهم ، واجمع الغنائم والسبي ، وما أفاء الله به عليك من مال بني حنيفة . فأخرج من ذلك الخمس ووجه به إلينا ليقسم فيمن بحضرتنا[4] من المسلمين ، وادفع إلى كل ذي حق حقه ـ والسلام .

قال : وبلغ خالد بن الوليد أن مجاعة بن مرارة قد خدعه وأوقف النساء على حيطان الحصون وألبسهم السلاح وأنه صالح خالداً صلح مكر . قال : فدعا به خالد وسأله عن ذلك ، فقال : نعم أيها الأمير ! إني لم أجد بداً مما فعلت وذلك أنهم قومي وعشيرتي وخشيت عليهم الفناء ، وأرجو أن نكون بعد هذا اليوم أعواناً لك على من ناوأك . قال : فسكت عنه خالد ولم يحب أن ينقض الصلح الذي كان بينه وبين مجاعة ، فانصرف مجاعة إلى منزله وأنشأ يقول . . . . . .[5] .

قال : ثم رجع خالد إلى الغنائم فأخرج منها الخمس وقسم باقي ذلك في المسلمين وبعث الخمس إلى المدينة ، وانتخب خمسين من وجوه أهل اليمامة فوجه بهم وفداً[6] إلى أبي بكر رضي الله عنه حتى قدم هؤلاء القوم على أبي بكر مع

(١) انظر مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٠ نقلاً عن كتاب الردة للواقدي ص ٩٢ ـ ٩٥ .

(٢) في مجموعة الوثائق : على ما وجد .

(٣) في مجموعة الوثائق : وما ذكرت فيه من صلح القوم بأنهم صالحوك .

(٤) مجموعة الوثائق : يحضرنا .

(٥) كذا بالأصل ، ولم نجد الأبيات .

(٦) انظر الطبري : ٣/ ٣٠٠ .

الخمس ، فلما دخلوا إليه سلّموا عليه وردّ عليهم السلام ، ثم قال : يا بني حنيفة ! ما هذا الذي كنتم أزمعتم عليه من أمر مسيلمة ؟ قال : فتكلم رجل منهم يقال له : عمرو بن شهم بن عبد العزيز بن سحيم فقال : يا خليفة رسول الله ! خرج بيننا وكان رجلاً مشؤوماً أصابته فتنة من حديث النفس وأماني الشيطان دعا إليه قوماً مثله فأجابوه إلى ما دعاهم إليه فلم يبارك الله عزّ وجلّ له في قومه ولا لقومه فيه ، وقد كان منّا ما كان من غيرنا ممن ارتدّ من قبائل العرب وأنت أولى بالعفو والصفح الجميل - والسلام ؛ ثم أنشأ يقول شعراً . . . . . .(1) فلمّا فرغ عمرو بن شهم هذا من شعره أقبل أبو بكر عليه - رضي الله عنه - قال : ذاك بما قدّمت يداك وما الله بظلّام للعبيد ؛ قال : ثم رضي عنهم أبو بكر وأمرهم بالرجوع إلى بلدهم باليمامة .

ذكر تزوج خالد بن الوليد رضي الله عنه
إلى مجاعة بن مرارة بابنته بأرض اليمامة

قال : وخطب خالد إلى مجاعة ابنته فزوّجها إياه ودخل خالد بها هنالك بأرض اليمامة ، فكان إذا جاءه المهاجرون والأنصار فسلّموا عليه يرد عليهم السلام ويأمرهم بالجلوس فيجلس الرجل منهم حيث ما لحق ، وإذا جاء أعمام هذه الجارية التي قد تزوجها يرفع مجالسهم ويقضي حوائجهم ؛ قال : فغضب المسلمون لذلك واشتدّ عليهم ما يفعله بهم خالد ، فكتب حسان بن ثابت إلى أبي بكر رضي الله عنه أبياتاً . . . . . .(2) قال : فلما وردت هذه الأبيات إلى أبي بكر رضي الله عنه غضب لذلك

---

(1) كذا بياض بالأصل .

(2) بياض بالأصل . ونقل في مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥١ عن كتاب الردة للواقدي ص ٩٨ - ١٠٠ أبيات حسان - وهي ليست في ديوانه المطبوع : يقول :

ألا أبلغ الصدّيق قولاً كأنه ... إذا بث بين المسلمين . . .
أترضى بأنا لا تجف دماؤنا ... وهذا عروس باليمامة خالد ؟
يبيت يناجي عرسه في فراشه ... وهامٌ لنا مطروحة وسواعد
إذا نحن جئنا صدّ عنا بوجهه ... وثنى لأعمام العروس الوسايد
وقد كانت الأنصار منه قريبة ... فلما رأوه قد تباعد ، باعدوا
وما كان في صهر اليمامي رغبة ... ولم يرضه إلا من الناس واحد
فكيف بألف قد أصيبوا ونيفٍ ... على الماء بين اليوم أو زاد زايد
فإن ترض هذا ، فالرضى ما رضيته ... وإلا فأيقظ إن من تحت راقد

ثم أقبل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أبا حفص ! ما ترى إلى خالد بن الوليد وحرصه على الزواج وقلة اكتراثه بمن قتل من المسلمين ؟ فقال عمر : أما والله لا يزال يأتينا من قبل خالد في كل حين ما تضيق به الصدور(1) .

قال : ثم كتب إليه أبو بكر(2) : أما بعد يابن الوليد فإنك فارغ القلب حسن(3) العزاء عن المسلمين ، إذ قد اعتكفت على النساء ، وبفناء بيتك ألف ومائتا رجل من المسلمين منهم سبعمائة رجل من حملة القرآن . إن لم يخدعك مجاعة بن مرارة عن رأيك أن صالحك صلح مكرٍ ، وقد أمكن الله منهم ، أما والله يا خالد ما هي منكر ينكر ؟ وإنها لشبيهة بفعلك الأول بمالك بن نويرة ، فسوأة لك ولأفعالك ! هذه القبيحة التي شانتك(4) في بني مخزوم - والسلام .

قال : فلمّا وصل كتاب أبي بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد وقرأه تبسّم ضاحكاً ثم قال : يرحم الله أبا بكر ! والله ما أعرف في هذا الكتاب من كلامه شيئاً ! ولا هذا إلا من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه(5) ، وقد كان الذي كان ، وليس إلى ردة خالد في تزويجه ابنة مجاعة ؛ وأنشأ منهم رجل(6):

ذكر ارتداد أهل البحرين ومحاربة المسلمين إياهم

قال : فلمّا فرغ خالد بن الوليد من أمر اليمامة وبني حنيفة وقتل مسيلمة أقام بأرض اليمامة ينتظر أمر أبي بكر . قال : وعزم أبو بكر رضي الله عنه على أن يوجّه بجيش من المسلمين إلى محاربة أهل البحرين .

قال : وكان من سبب أهل البحرين وارتدادهم عن دين الإسلام أن نفراً من بكر بن وائل كانوا يعادون قبائل عبد القيس ، وعبد القيس يومئذ بالبحرين متمسكون بدين الإسلام ، لم يرتدوا مع من ارتدّ(7) ؛ قال : وجعل هؤلاء الذين ارتدوا من

---

(1) يعرض بفعلته هذه ، وبقتله مالك بن نويرة .

(2) مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٢ ، الطبري باختصار ٣/ ٣٠٠ .

(3) في مجموعة الوثائق : خشن .

(4) مجموعة الوثائق : ساقك .

(5) في الطبري : هذا عمل الأعيسر - يعني عمر بن الخطاب - .

(6) كذا بالأصل .

(7) وكان الذي ثنى عبد القيس عن الردة الجارود بن عمرو بن حنش بن معلى . (انظر الطبري ٣ / ٣٠٢) .

بكر بن وائل[1] يقول بعضهم لبعض : تعالـوا حتى نرد الملك في دار النعمـان بن المنذر[2] فإنه أحقّ بهذا الأمر من ابن أبي قحافة ؛ قال : فعزموا على ذلك ، ثم خرج نفر من رؤسائهم وأهل الشرف فيهم حتى قدموا على كسرى ملك الفرس فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه وحيّوه بتحيّة الملوك ، فقال كسرى : ما الذي أقدمكم يا معشر العرب ؟ فقالوا : أيّها الملك ! إنه قد مضى ذلك الرجل العربي الذي كانت قريش وسائر مضر يعتزون به ـ يعنون بذلك رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ـ وقد قـام من بعده خليفـة لـه ضعيف البـدن ضعيف الـرأي ، قـد انصـرف عـامله إلى صاحبه[3] ، وبلاد البحرين اليوم ضائعة ليس بها أحد ممن هو على ديـن الإسـلام إلا شرذمة من عبد القيس ، وليس هم عندنا بشيء ونحن أكثر منهم خيلاً ورجلاً ، فلو بعثت إلى البحرين رجلاً يـأخذهـا لم يكن أحد يمـانعه عليهـا . قال : فقـال لهم كسرى : فمن تحبُّون أن أوجّـه معكم إلى البحرين ؟ فقـالوا : من أحبَّ الملك ؛ قال : فما تقولون في المنذر بن النعمان بن المنذر ؟ فقالوا : أيها الملك ! هو لنا رضاً وما نريد بدلاً . قال : فأرسل كسرى إلى المنذر بن النعمان ، فدعاه وهو يومئذ غلام حدث السـن حين بقل وجهه ، فخلع عليه خلعاً وتوّجه بتاج وحمله على مـائة من الخيل وضمّ إليه سبعة آلاف فارس وراجل ، وعزم على أن يوجّه به مع بكر بن وائل إلى البحرين .

قال : وتجهز المنذر بن النعمان ليخرج مع القوم وندم كسرى على ما فعـل وجعل يقول لوزرائه : إني لم أصنع شيئاً عمدت إلى غلام حدث[4] لا معرفـة له بالأمور فجعلته رأساً للعرب ، وما عسى أن يكون مثله ؛ وبلغ ذلك المنذر بن النعمان فأقبل حتى دخل على كسرى فحيّاه بتحية الملوك ووقف بين يديه ثم أقبل على من بحضرته من العرب ثم قال : انظروا أن تفسروا ما أقول . قال : فلما فسرت هذه الأبيات[5] لكسرى وفهمها أمره بالمسير إلى البحرين مع بكر بن وائل فكـان معهم

---

(١) وهم ربيعة وقد خرج بهم على الردة الحطم بن ضبيعة .

(٢) في الطبري : ٣/ ٣٠٣ والأغاني ١٥/ ٢٥٦ : فقالوا : نرد الملك في آل المنذر ، فملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر ، وكان يسمى الغرور .

(٣) هو المنذر بن ساوى ، وقد مات بعد متوفى رسول الله (ص) .

(٤) حدث أي شاب .

(٥) كذا بالأصل . وقد سقطت الأبيات من الأصل .

الحطم بن ضبيعة(1) وظبيان بن عمرو ، ومشمع بن مالك ؛ قال : فكتب إليهم المثنى بن حارثة يعذلهم على فعالهم وينهاهم عمّا قد أزمعوا عليه من حربهم لإخوتهم عبد القيس ، ويهددهم بالمهاجرين والأنصار وأنشأ يقول في كتابه إليهم أبياتاً ...... (2) ؛ فلما وصلت هذه الأبيات إلى بكر بن وائل جعل يقول بعضهم لبعض : حسدنا المثنى بن حارثة على ثلاث خصال : على ملك المنذر بن النعمان وعلى صلحنا لكسرى ، وعلى التوسع في البحرين ، والله ! لا قبلنا منه ما أشار به علينا . قال : ثم سار القوم نحو البحرين وأنشأ رجل منهم(3) :

قال : وتوسط بنو بكر بن وائل أرض البحرين ، واجتمعت عبد القيس إلى رأس من رؤسائهم يقال له الجارود بن المعلى العبدي في أربعة آلاف من عبد القيس وأحلافهم وعبيدهم ومواليهم ، قال : ودنت منهم بنو بكر بن وائل في تسعة آلاف من الفرس وثلاثة آلاف من العرب(4) ، فاقتتل القوم قتالاً شديداً ، فكانت الدائرة على عبد القيس فانتصف بعضهم من بعض ودام الحرب بينهم أياماً كثيرة حتى قتل منهم مقتلة عظيمة ، واستأمن عامة عبد القيس إلى بكر بن وائل فانهزموا بين أيديهم حتى صاروا إلى حصن لهم بأرض هجر يقال له جُواثا(5) فدخلوا ، وأقبلت بنو بكر بن وائل والفرس حتى نزلوا على الحصن فأحدقوا به وحاصروا عبد القيس حصاراً شديداً ومنعوهم من الطعام ، فقال رجل منهم يقال له عبد الله بن حذف(6) العبدي هذه الأبيات ووجه بها إلى أبي بكر رضي الله عنه بالمدينة(7) .

---

(1) عن الطبري والأغاني ، وبالأصل : أبو ضبعة الحطيم بن زيد .

(2) كذا بياض بالأصل .

(3) كذا بالأصل .

(4) في الطبري : ٣ / ٣٠٤ خرج الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة ... ومن غير المرتدين ممن لم يزل كافراً ... ومن الزط والسيابجة .

(5) جواثا : (جواثاء : بالضم ، وبين الألفين ثاء مثلثة ، يمد ويقصر) حصن لعبد القيس فتحه العلاء بن الحضرمي في أيام أبي بكر (رض) سنة ١٢ (ياقوت) .

(6) عن الأغاني : ١٥ / ٢٥٧ ومعجم البلدان ، والطبري ٣/ ٣٠٤ وبالإصل : « عوف » تحريف .

(7) لم تذكر الأبيات ، وهي في الطبري ٣/ ٣٠٤ والأغاني ١٥ / ٢٥٦ معجم البلدان (جواثا) .

ذكر مسير العلاء بن الحضرمي إلى البحرين
ومحاربة الكفار الذين بها

قال: فلما نظر أبو بكر رضي الله عنه في هذه الأبيات اغتمّ فيه غمّاً شديداً لِمَا فيه من ذكر عبد القيس وما قد اجتمع عليهم من كفار الفرس وبني بكر بن وائل، فدعا برجل من المسلمين يقال له العلاء بن الحضرمي(١) فعقد له علماً وضمّ إليه ألفي رجل من المهاجرين والأنصار وأمره بالمسير إلى البحرين إلى نصرة عبد القيس ثم قال له: انظر يا علاء إلا تمرّن بحيّ من أحياء العرب إلا استنهضتهم إلى محاربة بني بكر بن وائل فإنهم قد أتوا بالمنذر بن النعمان بن المنذر من عند كسرى ملك الفرس وقد عقدوا التاج على رأسه، وقد عزموا على إطفاء نور الله وقتل أولياء الله. فسر وقل: لا حول ولا قوّة إلا بالله.

قال: فسار العلاء بن الحضرمي حتى صار بأرض اليمامة فاستقبله ثمامة بن أثال الحنفي وكان مسلماً تقياً فسلّم عليه ثم قال: أين تريد يا علاء؟ فإني أرى معك جيشاً كثيفاً! فقال: والله! أريد بني بكر بن وائل، فإنهم قد أتوا بالمنذر بن النعمان من عند كسرى، وقد ارتدّوا عن دين الإسلام وقد اجتمعوا على عبد القيس يريدون قتلهم وبوارهم، وقد أمرني الصديق أن استنهض كل من لقيني من المسلمين إلى حربهم، فهل لك أن تكون أولَ من أجاب إلى هذه الدعوة؟ قال: فقال ثمامة: ويحك يا علاء! أنت تعلم أن قومي قريبوعهدبالردّة مع مسيلمة الكذّاب وما أظنهم يجيبوا إلى ذلك. ولكن ارقب عليّ قليلاً حتى أذوق القوم وانظر ما عندهم، ثم أرسل ثمامة بن أثال إلى جماعة من بني حنيفة فدعاهم، فلما اجتمعوا عنده أقبل عليهم فقال لهم: يا بني حنيفة! هل لكم أن يرفع الله عزّ وجلّ رؤوسكم ممّا كان منكم مع مسيلمة؟ فقالوا: وما ذاك؟ فقال: تسيرون مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين فتقاتلون على الحق، فقالوا: ولمن نقاتل؟ فقال: تقاتلون قوماً لو أدعوكم إلى قتالهم لقاتلوكم على الباطل، فقال له رجل من قومه: يا ثمامة! حسبنا ما كان منا من الخروج مع مسيلمة حتى فنيت رجالنا وذهبت أموالنا وسبيت أولادنا ونساؤنا.

---

(١) وهو العلاء بن عبد الله بن عباد ... بن مالك بن الخزرج. وقيل غير ذلك في نسبه. ولاه النبي (ص) البحرين ثم أقره أبو بكر وعمر. توفي سنة ١٤ وقيل سنة ٢١. (أسد الغابة).

فلا تلمنا على القعود فحسبنا ما نزل بنا من الأمر ، ثم أنشأ[1] .

فقال لهم ثمامة بن أثال : ويحكم يا معشر بني حنيفة ! ليس الأمر فيما ذكرتم من هتك حريمكم وسفك دمائكم وذهاب أموالكم ، فذلك بما كان من كفركم ورجوعكم عن دين الإسلام وخروجكم مع مسيلمة الكذاب تضربون وجوه المهاجرين والأنصار ! فأنزل بكم خالد بن الوليد من الذل والصغار ، والعلاء بن الحضرمي في وقته هذا إنما يدعوكم إلى نصرة الإسلام ، وليس القياس فيما ذكرتم بسواء ، وأنا والله ماض معه غير راغب بنفسي عنه ، والله يفعل في ذلك ما يحبّ ويرضى ؛ ثم أنشأ ثمامة بن أثال[2] :

قال : وسار ثمامة بن أثال مع العلاء بن الحضرمي في نفر من بني عمّه[3] ، حتى إذا صار العلاء إلى أرض بني تميم لقيه ابن عاصم[4] المنقري التميمي فسلّم عليه ورحّب به ، فقال له العلاء : ويحك ! إن قومك من بني تميم أبطؤوا عن الإسلام وتأخّروا عنه فلما دخلوا فيه ردّتهم عنه امرأة[5] وقد كان ما علمت من تأخرك عن أبي بكر فهل لك أن تسير معي إلى أرض البحرين فنقاتل هؤلاء المرتدين عن دين الإسلام ؛ فقال له قيس بن عاصم : أما قولك بأن قومي تأخّروا عن دين الإسلام فلمّا دخلوا فيه ردّهم امرأة فقد كان ذلك كما ذكرت ، وقومك من اليمن أيضاً قد ملكتهم امرأة وليس هذا بعجب ، والكلام كثير، وإن زِدت زِدنا ، فإني إنما آتيك الآن لأحفزك وأسير معك حتى تخرج من أرض بني سعد فأكون قد قضيت حق مسيرك ، وليس لي حاجة إلى قتال أهل البحرين إلا أن أرى في ذلك رأيي .

قال : فسار العلاء بن الحضرمي ومعه قيس بن عاصم في عشرين فارساً من بني تميم ، فكان لا ينتهي إلى ماء من مياه بني سعد إلا تلقوه بالقِرْيِ والإنزال والعلوفة ، وقد ذكر بعض ذلك بنو تميم حيث يقول[6] : قال : وسار العلاء بن الحضرمي ومعه

---

(١) كذا .

(٢) كذا .

(٣) في الطبري : ٣ / ٣٠٤ لحق به ثمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة من بني سحيم ومن أهل القرى من سائر بني حنيفة .

(٤) هو قيس بن عاصم المنقري .

(٥) يريد سجاح التميمية .

(٦) كذا .

ألف رجل من المهاجرين والأنصار ومعه ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم المنقري[1] في جماعة من بني تميم وبني حنيفة حتى توسط أهل البحرين .

قال : وبنو بكر بن وائل والفرس نزول على حصن جُواثا قد حاصروا المسلمين من عبد القيس . قال : وجعل العلاء بن الحضرمي يستشير أصحابه في محاربة القوم ، وبلغ من كان في حصن جواثا من المسلمين أن العلاء بن الحضرمي قد وافى في المهاجرين والأنصار معونة لهم فرحوا بذلك واشتدت بهم ظهورهم .

قال : وكتب إليه رجل من المسلمين من الحصن يُعلمه أن القوم ليس لهم إلا البيات فإن يأتهم وكسر عسكرهم فقد قتلهم وكسر شوكتهم ؛ وأثبت في كتابه إلى العلاء بن الحضرمي أبياتاً . قال : فلما انتهت هذه الأبيات إلى العلاء بن الحضرمي علم أنه أمر ببيات القوم ، فعزم على ذلك ، ثم بعث إلى أولئك المحاصرين في الحصن أن يكونوا على أهبة الحرب فإذا علمتم أني كبستهم وسمعتم المعمعة فاخرجوا عليهم فإني أرجو أن يمكن الله عزّ وجل منهم .

قال : وبات العلاء بن الحضرمي ليلته تلك يشجّع قومه ويقوّي عزمهم وينهاهم عن الجزع والفشل[2] . قال : ثم إنه دعا برجل من أصحابه[3] وقال له : امض وتجسس لي الخبر من القوم ؛ قال : فمضى ذلك الرجل ، فلما كان انفجار الصبح إذا الرجل وافاه فقال : أيها الأمير ! قم فإن الله أمكن منهم وذلك أني أشرفت على معسكرهم[4] فلم أسمع لهم حركة والقوم عندي سكارى ما يعقلون . قال : فعندها نادى العلاء بن الحضرمي في أصحابه ، فركب وسار نحوهم رويداً رويداً ، حتى إذا عاين عسكرهم أكبّ عليهم الخيل ، فلم تشعر الفرس ومن معهم من العرب إلا

---

(١) وكان قيس بن عاصم قد قسم الصدقات التي اجتمعت إليه بعد موت النبي (ص) . ولما رأى ما صنعت الرباب وعمرو من تلقيهم للعلاء ندم قيس على ما كان فرط منه ونزع عن أمره الذي كان همّ به ، وعمل على إعداد ما كان قسم من الصدقات . وخرج مع العلاء لقتال أهل البحرين . (الطبري ٣/ ٣٠٥ ابن الأثير ٢/ ٤٠) .

(٢) وكانت الإبل ـ بعد نزولهم في بحبوحة الدهناء ـ قد نفرت في جوف الليل ، فما بقي بعير ولا زاد ولا مزاد ولا ماء ، فلحقهم من الغم ما لا يعلمه إلا الله . فدعاهم العلاء وجمعهم وقال : لن تراعوا ، أنتم المسلمون ، وفي سبيل الله وأنصار الله ، فابشروا فوالله لن تخذلوا . (الطبري ـ ابن الأثير) .

(٣) هو عبد الله بن حذف (الطبري ٣/ ٣٠٨) .

(٤) انظر ما ذكره الطبري بشانه .

وحوافر الخيل تطأهم فاستيقظوا فزعين فأخذتهم السيوف .

قال : وفتح أولئك القوم المحاصرون باب الحصن وخرجوا من ورائهم فاقتتل القوم قتالاً شديداً في جوف الليل ، فقتل من المسلمين نفر قليل وقتل من الكفار بشر كثير ؛ وأضاء الصبح وانهزم الكفار إلى موضع يقال له الردم[1] ، واحتوى المسلمون على ما قدروا عليه من غنائمهم .

قال : واجتمعت عبد القيس إلى العلاء بن الحضرمي من جميع نواحي البحرين حتى صار في نيف من ستة آلاف من أصحابه الذين قدموا عليه وممن انحاز إليهم ، فأقبل عليهم العلاء بن الحضرمي فقال : يا معشر عبد القيس ! اعلموا أنكم في جهاد هؤلاء كجهاد من جاهد بين يدي رسول الله ﷺ وليس بين هؤلاء وأولئك فرق ، واعلموا أن القتيل منكم في الحياة والرزق عند الله ، وللحي منكم الغنم والسرور ، وقد ذلّت لكم بنو بكر بن وائل الرقاب بقدومي عليكم فأبشروا بالنصر على أعدائكم ولتصدق نياتكم في الجهاد . قال : فقال المنذر بن الجارود العبدي : صدقت أيها الأمير ! لقد كان قدومك علينا فرجاً لنا وثواباً عظيماً لنا ولك في جهاد عدونا ، فلو لم تأتنا لكان الله عزّ وجل ينصرنا على عدونا ولم يكن يخذلنا ، لكن أيها الأمير ههنا جزيرة[2] فيها قوم كفار أشد علينا من جميع أعدائنا وليس لها إلا طريق واحد ، فسر بنا إليهم فعسى الله عزّ وجلّ أن يمكننا منهم ، فإذا فرغت منهم سر بنا إلى عدونا وعدوك من هؤلاء الفرس وغيرهم من الكفار .

قال : فسار العلاء بن الحضرمي في جوف الليل وليس لها إلا طريق واحد وعلى طريقها قوم يحرسونها فلم يشعر الحرس إلا وخيل المسلمين قد وافتهم فقتلوا عن آخرهم ، ودخلت الخيل إلى الجزيرة ، فما تركوا فيها ذكراً إلا قتلوه إلا من كان من صغار الذرية ، واحتوى المسلمون على جميع ما كان في جزيرة دارين من النساء

---

(١) الردم : قرية لبني عامر بن الحارث العبقسيين بالبحرين . (معجم البلدان) .

(٢) وهي جزيرة دارين ، فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ، والنسبة إليها داري . قال ياقوت : إن المسلمين اقتحموا إلى دارين البحر مع العلاء بن الحضرمي فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفر البحر ، فالتقوا وقتلوا وسبوا فبلغ منهم الفارس ستة آلاف والراجل ألفين (معجم البلدان) وانظر الطبري ٣ / ٣١١ .

والذرية والأموال ، وانصرفوا إلى عسكرهم ، فأنشأ بعض المسلمين يقول في ذلك[1] .

قال : ثم سار العلاء بن الحضرمي حتى وافى الكفار في موضع يقال له الردم ، ودنا القوم بعضهم من بعض واختلطوا فاقتتلوا ساعة وحمل رجل من الكفار يقال له أبجر بن بجير على قيس بن عاصم فضربه على رأسه وانهزم بين يديه فضربه قيس ضربة أثخنه[2] ، ثم أنشأ قيس بن عاصم في ذلك يقول[3] .

قال : وانهزم الكفار بين يدي المسلمين وأخذتهم السيوف وقد كان رائس لهم يقال له الحطم بن ضبيعة[4] نزل عن فرسه لقضاء حاجة قبل أن تقع الهزيمة . فلما انهزم القوم وثب مسرعاً ، فلما وضع رجله في الركاب ليركب وكان ثقيل البدن مال به السرج فوقف قائماً لا يدري ما يصنع فضربه رجل من المسلمين ضربة فقتله[5] ثم جعل يقول شعراً[6] . قال : ثم مضى حتى لحق بالمسلمين فخبرهم أنه قتل الحطم بن ضبيعة[7] ثم أنشأ في ذلك يقول شعراً[6] .

قال : وانهزمت بنو بكر بن وائل فلحقوا بالبراري والفلوات هائمين من سيوف المسلمين والمهاجرين والأنصار ؛ وهرب[8] المنذر بن النعمان حتى صار إلى أهل جفنة فاستجار فأجاروه ، وانهزم الفرس فصار بعضهم إلى موضع يقال له الزارة والقطيف[9] ، ومضى بعضهم حتى لحق بكسرى فخبروه بما كان منهم ، فاغتمّ

---

(١) كذا بالأصل ، ولعله يريد ما قاله عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلك بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل

(الطبري ـ معجم البلدان ـ البداية والنهاية) .

(٢) في الطبري : طعنه في العرقوب ، فقطع العصب ، وسلم النسا ، فكانت رادة .

(٣) كذا ، وفي الطبري ـ ٣/ ٣٠٩ : وقال عفيف بن المنذر ، وذكر بيتين له .

(٤) بالأصل « زيد » : وقد تقدمت الإشارة إليه .

(٥) قتله قيس بن عاصم . وكان قبله قد ضربه عفيف بن المنذر على فخذه فقطعها وتركه . الطبري ٣/ ٣٠٩ الأغاني ١٥/ ٢٦٠ .

(٦) كذا ، ولم ترد في الأصل ولا في الطبري أو الكامل أو الأغاني .

(٧) بالأصل : زيد تحريف .

(٨) كذا ، وفي الطبري والأغاني : أنه أسره عفيف بن المنذر ثم أجاره وأسلم وبقي بهجر .

(٩) الزارة والقطيف من قرى البحرين .

كسرى بذلك غمّاً شديداً ؛ واستأمن أيضاً قوم من الفرس إلى العلاء بن الحضرمي فآمنهم فصاروا بالبحرين حراثين وزراعين .

وجمع العلاء بن الحضرمي ما كان عنده من الغنائم فأخرج منه الخمس ووجّه بـه إلى أبي بكر رضي الله عنـه وكتب إليه يخبـره بما فتـح الله عزّ وجـلّ عليه من البحرين ، فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه بالجواب (١) ، وأقره على البلاد . قال : وندم المنذر بن النعمان بن المنذر على ما كان منه أشد الندامة ثم كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الشام هذه الأبيات (٢) .

ذكر ارتداد أهل حضرموت من كندة ومحاربة المسلمين إياهم

قال : فلما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من حرب أهل البحرين عزم على محاربة أهل حضرموت من كندة ، وذلك أن عاملهم زياد بن لبيد الأنصاري (٣) كان ولاه عليهم النبي (صلّى الله عليه وسلم وآله) كان مقيماً بحضرموت يصلي بهم ويأخذ منهم ما يجب عليهم من زكاة أموالهم ، فلم يزل كذلـك إلى أن مضى رسول الله (صلّى الله عليـه وسلم وآلـه) لسبيله وصار الأمـر إلى أبي بكر رضي الله عنـه ، فقال لـه الأشعث بن قيس : يا هذا ! إنا قد سمعنا كلامك ودعاءك إلى هذا الرجل فإذا اجتمع الناس إليه اجتمعنا ، قال له زياد بن لبيد : يا هذا ! إنه قد اجتمع المهاجرون والأنصار ؛ فقال له الأشعث : إنك لا تدري كيف يكون الأمر بعد ذلك . قال : فسكت زياد بن لبيد ولم يقل شيئاً ؛ ثم قام إلى الأشعث بن قيس ابن عم له يقال له امرؤ القيس بن عابس من كنـدة فقـال له : يا أشعث ! أنشدك بالله وبإيمانك وبقدومك إلى رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ان نكصت أو رجعت عن دين الإسلام ، فإنك إن تقدمت تقدم الناس معك ، وإن هذا الأمر لا بدّ له من قائم يقوم به فيقتل من خالف عليه ، فاتق الله في نفسك ، فقد علمت ما نزل بمن خالف أبـا بكـر ومنعه الزكاة ؛ فقال له الأشعث بن قيس : إن محمداً ﷺ قد مضى لسبيله وإن العرب قد رجعت إلى ما كانت تعبده ؛ فقال له : نحن أقصى العرب داراً فيبعث إلينا أبو بكر جيشاً كما بعث إلى غيرنا ،

---

(١) كتاب العلاء وجواب أبي بكر في الطبري : ٣١٣/٣ .

(٢) كذا بالأصل .

(٣) في الطبري : ٣ / ٣٣٠ زياد بن لبيد البياضي . وفي الكامل ٢ / ٤٧ زياد بن أبي لبيد الأنصاري .

وأخرى فإن زياد بن لبيد بين أظهرنا وهو عامل علينا ولا يدعك أن ترجع إلى الكفر بعد الإيمان . قال : فضحك الأشعث ثم قال : أوَ لا يرضى زياد أن يخبره فيكون بين أظهرنا ! قال : فقال له امرؤ القيس : يا أشعث ! انظر ما يكون بعد هذا . قال : ثم انصرف امرؤ القيس إلى منزله وأنشد شعراً[1] . قال : وافترق القوم فريقين : فرقة أقاموا على دين الإسلام فلم يرجعوا وعزموا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفرقة عزموا على منع الزكاة والعصيان .

قال : وانصرف زياد بن لبيد يومه ذلك مغموماً إلى منزله ، فلما كان بعد أيام نادى في أهل حضرموت فجمعهم ثم قال : اجمعوا صدقاتهم فإني أريد أن أوجه بها إلى أبي بكر الصديق لأن الناس قد اجتمعوا عليه وقد أهلك الله أهل الردّة وأمكن منهم المسلمين . قال : فجعل قوم يعطونه الزكاة وهم طائعون ، وقوم يعطونه إياها كارهين ، وزياد بن لبيد يجمع الصدقات ولا يريهم من نفسه إلا الصَّرامة ؛ غير أنه أخذ يوماً من الأيام ناقة من إبل الصدقة فوسمها وسرحها مع الإبل التي يريد أنّ يوجّه بها إلى أبي بكر رضي الله عنه وكانت هذه الناقة لفتى من كندة يقال له زيد بن معاوية القشيري[2] من بني قشير ، فأقبل ذلك الفتى إلى رجل من سادات كندة يقال له حارثة بن سراقة فقال : يابن عم ! إن زياد بن لبيد قد أخذ ناقة لي فوسمها وجعلها مع إبل الصدقة وأنا مشغوف بها فإن رأيت أن تكلّمه فيها فلعلّه أن يطلقها ويأخذ غيرها من إبلي فإني لست أمتنع عليه ! قال : فأقبل حارثة بن سراقة إلى زياد بن لبيد وقال له : إن رأيت أن تردّ ناقة هذا الفتى عليه وتأخذ غيرها فعلتَ منعماً ! فقال له زياد بن لبيد : إنّها قد دخلت في حقّ الله وقد وضع عليها ميسم الصدقة ولا أحبّ أن آخذ غيرها ؛ فغضب حارثة بن سراقة من ذلك ثم قال : أطلقها وأنت كريم وإلا طلقتها وأنت لئيم[3] . قال : فغضب زياد من ذلك ، ثم قال[4] : لا أطلقها حتى أنظر من يحول بيني وبينها أو يمنعها ! قال : فتبسّم حارثة بن سراقة ثم جعل يقول أبياتاً من جملتها :

---

(١) كذا وليست الأبيات بالأصل .

(٢) في الطبري : ٣ / ٣٣٢ شيطان بن حجر ، وقيل بل هي لأخيه العداء بن حجر . وهو من بني عمرو بن معاوية .

(٣) في معجم البلدان (حضرموت) : أطلقها أيها الرجل طائعاً قبل أن تطلقها وأنت كاره .

(٤) في المعجم : لا والله لا أطلقها ولا نعمة عين .

يَمْنَعُهـا شيـخٌ بخـدَّيْـه الشَّيْبْ يُـلمَّـعُ[1] كمـا يُـلَمَّـعُ الـثـوبْ

قال : ثم أقبل حارثة بن سراقة إلى إبل الصدقة فأخرج الناقة بعينها ثم قـال لصاحبها : خذ ناقتك إليك فإن كلمك أحد فاحطم أنفه بالسيف ! نحن إنما أطعنا رسول الله ﷺ إذ كان حيّاً ، ولو قام رجل من أهل بيته لأطعناه ، وأمّا ابن أبي قحافة فلا والله ما له في رقابنا طاعة ولا بيعة ! ثم أنشأ حارثـة بن سراقـة يقول أبيـاتاً من جملتها :

أطـعـنـا رسـول الله إذ كـان بـيـنـنـا فيـا عجبـاً ممـن يـطيـع أبـا بكـر

قال : فلما سمع زياد بن لبيد هذه الأبيات كأنه اتقى على ما جمـع من إبل الصدقة أن تؤخذ[2] فخرج ليلته يريد المسير إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومعه نفر من أصحابه ، فلمّا سار على مسيرة يومين من القوم كتب إلى حارثة بن سراقة وأصحابه بهذه الأبيات من جملتها :

نـقـاتـلهـم فـي الله والله غـالـب على أمـره حتى تـطيعـوا أبـا بكـر

قال : فلمّا وردت هذه الأبيات من زياد بن لبيد غضبت أحياء كندة لذلك غضباً شديداً فأتت الأشعث بن قيس ، فقال : خبروني عنكم يا معشر كندة إذ كنتم بايعتم على منع الزكاة وحرب أبي بكر فهلا قتلتم زياد بن لبيد فكان يكون الأمر في ذلك واحداً كائناً ما كان ، ولكنّكم أمسكتم عنه حتى أخذ زكاة أموالكم ثم رحل عنكم إلى صاحبه ، وكتب إليكم يهدّدكم بالقتل ؛ فقال له رجل من بني عمّه : صدقت والله يا أشعث ! ما كان الرأي إلا قتل زياد بن لبيد وارتجاع ما دفع إليه من إبل الصدقة ، والله ما نحن إلا كعبيد لقريش ! مرة يوجهون إلينا أمية[3] فيأخذون من أموالنا مـا يريدون ومرة يولون علينا مثل زياد بن لبيد فيأخذ من أموالنا ويهدّدنا بالقتل ، والله لا طمعت قريش في أموالنا أبداً ! ثم أنشأ يقول أبياتاً من جملتها :

---

(١) في الطبري : ٣/ ٣٣٢ ملمع .

(٢) في الطبري ذكر أنه بعد أن أطلقت الناقة : « فأمر به زياد شباباً من حضرموت والسكون ، فمغثوه وتوطئوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وارتهنوهم وأخذوا البكرة فعقلوها كما كانت وقال زياد في ذلك :

لـم يـمـنـع الـشـذرة أركـوب والـشـيـخ قـد يـثـنـيـه أرجـوب

(٣) كذا ، لعله يريد المهاجر بن أبي أمية .

إذا نحن أعطينا المصدّق سؤله فنحن له فيما يريد عبيدُ

قال : ثم تكلم مثل كلام الأوّل وحرّض بني عمّه على العصيان ومنع الزكاة . قال : ثم تكلم الأشعث بن قيس فقال : يا معشر كندة ! إن كنتم على ما أرى فلتكن كلمتكم واحدة والزموا بلادكم وحوطوا حريمكم وامنعوا زكاة أموالكم ، فإني أعلم أن العرب لا تقر بطاعة بني تميم بن مرة وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيره ، فإنها لنا أجود ، ونحن لها أجرى وأصلح من غيرنا لأنا ملوك من قبل أن يكون على وجه الأرض قريشي[١] ولا أبطحي .

قال : ثم إنّ زياد بن لبيد رأى من الرأي لا يعجل بالمسير إلى أبي بكر فوجّه بما عنده من إبل الصدقة إلى المدينة مع ثقة وأمره أن لا يخبر أبا بكر بشيء من أمره وأمر القوم . قال : ثم إنه سار إلى حيّ من أحياء كندة يقال لهم بنو ذهل[٢] بن معاوية فخبرهم بما كان من . . . . . .[٣] إليه ودعاهم إلى السمع والطاعة ، فأقبل إليه رجل من سادات بني تميم يقال له الحارث بن معاوية فقال لزياد : إنك لتدعو إلى طاعة رجل لم يعهد إلينا ولا إليكم فيه عهد ، فقال له زياد بن لبيد : يا هذا صدقت ! فإنه لم يعهد إلينا ولا إليكم فيه عهد ، ولكنّا اخترناه لهذا الأمر ، فقال له الحارث : أخبرني لِم نحيتم عنها أهل بيته وهم أحقّ الناس بها لأنّ الله عز وجل يقول : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتب الله** ﴾[٤] ؟ فقال له زياد بن لبيد : إنّ المهاجرين والأنصار أنظر لأنفسهم منك ؛ فقال له الحارث بن معاوية : لا والله ! ما أزلتموها عن أهلها إلا حسداً منكم لهم وما يستقرّ في قلبي أن رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) خرج من الدنيا ولم ينصب للناس علماً يتبعونه فارحل عنّا أيها الرجل فإنك

---

(١) كذا بالأصل . قريشي : قال صاحب اللسان في مادة قرش : قريش غير مصروف إذا أردت القبيلة ، والنسب إليه قرشي نادر ، وقريشي على القياس . قال :

بكل قريشي عليه مهابة سريع إلى داعي الندى والتكرم

قال ابن بري بإثبات الياء في النسب إلى قريش .

وقال في التهذيب ، إذا نسبوا إلى قريش قالوا : قرشي بحذف الزيادة ، وللشاعر إذا اضطر أن يقول قريشي .

(٢) كذا بالأصل ، ولم نجده في كتب النسب .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) الأنفال : ٧٥ .

تدعو إلى غير رضا ؛ ثم أنشأ الحارث بن معاوية يقول :

كـان الرسـول هو المـطاع فقـد مضى صـلّى عـليـه الله لـم يـسـتـخـلفِ

قال : فوثب عرفجة بن عبد الله الذهلي فقال : صدق والله الحارث بن معاوية ! أخرجوا هذا الرجل عنكم ، فما صاحبه بأهلٍ للخلافة ولا يستحقها بوجه من الوجوه ، وما المهاجرون والأنصار بأنظر لهذه الأمة من نبيها محمّد (صلّى الله عليه وسلم وآله) .

قال : ثم وثب رجل من كندة يقال له عدي بن عوف فقال : يا قوم ! لا تسمعوا قول عرفجة بن عبد الله ولا تطيعوا أمره ، فإنّه يدعوكم إلى الكفر ويصدّكم عن الحقّ ، اقبلوا من زياد بن لبيد ما يدعوكم إليه وارضوا بما رضي به المهاجرون والأنصار ، فإنّهم أنظر لأنفسهم منكم ؛ قال : ثم أنشأ يقول في ذلك أبياتاً من جملتها :

يـا قـوم إني نـاصـح لا تـرجعـوا في الكفـر واتبعـوا مقـال النـاصـحِ

قال : فوثب إليه نفر من بني عمّه فضربوه حتى أدموه وشتموه أقبح الشتم ، ثم وثبوا إلى زياد بن لبيد فأخرجوه من ديارهم وهمّوا بقتله .

قال : فجعل زياد لا يأتي قبيلة من قبائل كندة فيدعوهم إلى الطاعة إلاّ ردّوا عليه ما يكره ، فلمّا رأى ذلك سار إلى المدينة إلى أبي بكر رضي الله عنه فخبره بما كان من القوم وأعلمه أن قبائل كندة قد أزمعت على الارتداد والعصيان ؛ فاغتمّ أبو بكر رضي الله عنه لذلك غمّاً شديداً ، فقال له بعض المسلمين : يا خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ! هذا خالد بن الوليد مقيم بأرض اليمامة ، وقد تعلم أنه ......(1) فوجه به إليهم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن خالداً كما وصفتم ولكن أميرهم الذي أخرجوه عنها هو أحق بحربهم من غيره ؛ ثم جمع أبو بكر جيشاً ضمّه إلى زياد بن لبيد وأمره بالمسير إلى القوم ، فسار زياد من المدينة في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار يريد حضرموت .

قال : واتصل الخبر بقبائل كندة فكأنهم ندموا على ما كان منهم ، ثم وثب

---

(1) كذا ، بالأصل مطموس .

رجل من أبناء ملوكهم[1] يقال له أبضعة بن مالك فقال : يا معشر كندة ! إنّا أضرمنا على أنفسنا ناراً لا أظنّ أنها تطفأ أو تحرق منا بشراً كثيراً ، والرأي عندي أن نتدارك ما فعلنا ونسكن هذه الثائرة التي هاجت علينا ونكتب إلى [أبي][2] بكر الصديق فنخبره بطاعتنا وأن نؤدي إليه زكاتنا طائعين غير مكرهين وأنا قد رضينا به خليفة وإماماً ، مع أني أقول هذه المقالة ولست بخارج من رأيكم غير أني أعلم إلى ما يؤول أمركم غداً ! ثم أنشأ يقول أبياتاً من جملتها :

أرى أمــراً لــكــم فــيــه ســرور   وآخــره لــكــم فــيــه نــدامــة

قال : فلمّا سمعت قبائل كندة هذا الشعر كأنهم انكسروا لذلك وجعل بعضهم يوثب بعضاً ؛ فقال قوم : نرجع عمّا فعلنا ونؤدّي الزكاة ، وقال قوم : لا بل نمنع الزكاة ونقاتل من يأتينا من عند أبي بكر .

قال : فلما سمعت قبائل كندة الأبيات من حارثة بن سراقة وثبوا إليه من كل جانب وقالوا : والله ! ما ألقانا فيما نحن فيه سواك وما زلت مشؤوماً في كل حال! ثم وثب إليه الأشعث بن قيس فقال : والله يابـن سـراقة ! لأسلمنك غداً برمّتك إلـى زياد بن لبيد يقضي فيك ما يقضي فإن ذلك خير لكندة من نصب الحرب لمثل أبي بكر في سبب ناقة لا أقل ولا أكثر . قال : فقال حارثة بن سراقة : يا أشعث ! إن كلامك هذا يدلّ على أنك فاضح قومَك غداً إذا وافاهم جيش أبي بكر . قال : فقال الأشعث : والله ما أبرأ إليك من ذلك يا حارثة ! فكن مما قلته على يقين .

قال : واتصل الخبر بزياد بن لبيد ومن معه من المسلمين بأن الأشعث بن قيس قد ندم على ما كان منه فجزوه خيراً ، وكتب إليه بعض بني عمه ممن كان مع زياد بن لبيد أبياتاً من جملتها يقول :

إن تمس كنــدة نــاكثين عهــودهم   فــالله يــعــلم أنــنــا لــم نــنــكــثِ

قال : ثم وثب رجل من كندة يقال له عفيف بن معديكرب[3] وكان من رؤسائهم

---

(١) وكانوا أربعة ملوك وهم : مخوص ومشرح وجمد وأبضعة وأختهم العمردة بنو معدي كرب بن وليعة .

(٢) سقطت من الأصل .

(٣) ويقال عفيف بن قيس الكندي ، ويقال عفيف بن قيس بن معدي كرب .

قال ابن منده : هو أخو الأشعث بن قيس لأمه وابن عمه . (أسد الغابة) .

وذي أنسابهم فقال : يا معشر بني كندة ! إنكم قد علمتم الـذي بينكم وبين مذحج من العداوة والشحناء وهذه خيل أبي بكر قد سارت إلى مقابلتكم فخبروني الآن أي الخيلين تدفعون عنكم : خيل أبي بكر أم خيل مذحج ؟ أما والله ما أقول لكم إلا وأنا رجل منكم ، ولكن كأن ملوككم وساداتكم قد أهلكتهم هذه الحروب التي تتوقد ، وقد والله ! وقعنا في أمر ما لنا منه مخلص إلا السمع والطاعة ـ والسلام .

قال : وتقارب خيل المسلمين من بلاد حضرموت وديـار كندة وحصـونهم ، فوثب رجل منهم يقال له ثور بن مالك وكان قديم العهد في الإسلام وذلك أنه أسلم في أيام معاذ بن جبل حين بعث به النبي (صلّى الله عليه وسلم وآله) إلى أرض اليمن ، قال : وكان ثور بن مالك هذا ممن أسلم يومئذ فأقبل على قومه فقال : يا معشر كندة ! أراكم مجمعين على حرب المسلمين وأرى فيكم نخوة ذلك وقد علمتم أن الـذي تدّعونه من الملك قد محقه الله تبارك وتعالى بمحمد (صلّى الله عليه وسلم وآله) ، وأن السيـوف التي قتل الله بهـا أهل الـردة هي السيوف التي تقـاتلكم غداً ! فتـداركوا ليومكـم فهذه خيل أبي بكر قد تقاربت منكم . قال : فوثبت كندة من كل ناحية فقالوا : يـابن مالـك ما أنت والكلام بين أيدي الملوك ولست هنالك ! قم من ههنا فالتراب بفيك ! قال : فوثب ثور بن مالك من بين يدي القوم وقد نزل به منهم ما نزل .

قال : وأشرفت خيل أبي بكر المسلمين(١) على ديار كندة وإذا أربعة إخوة من ملوك كندة أحدهم يقال له مخوص(٢) ومشرح وجمد وأبضعة فإذا هم على شراب لهم والمعازف بين أيديهم فلم يشعروا إلا وخيل المسلمين على رؤوسهم فوضعوا فيهم السيوف فقتلوهم وقتلوا أختاً لهم يقال لها العمرَّدة(٣) ، واحتووا على أموالهم وقليلهم وكثيرهم .

---

(١) كذا .

(٢) عن الطبري : ٣ / ٣٣٤ وتاريخ اليعقوبي ٢ / ١٣١ وبالأصل محضوض . وقد تقدمت الإشارة إليه .

(٣) في الطبري ٣ / ٣٣٤ فأكبوا على بني عمرو بن معاوية ، وهم عدد القوم وشوكتهم ، من خمسة أوجه في خمس فرق ، فأصابوا مشرحاً ومخوصاً وجمداً وأبضعة وأختهم العمردة ، وقتلوا فأكثروا . وفي معجم البلدان (حضرموت) : وجاء عبد له (لزياد) فأخبره أن ملوكهم الأربعة . . . . قد ثملوا من الشراب ، فكبسهم وأخذهم وذبحهم ذبحاً . وقال زياد في ذلك :

نحن قتلنا الأملاك الأربعة   جمداً ومخوساً ومشرحاً وأبضعة

قال : واتصل هذا الخبر بالسكاسك والسكون وهما قبيلتان من قبائل كندة فإنهم اتقوا على أنفسهم فركبوا في جوف الليل ، وصاروا إلى زياد بن لبيد فاستأمنوا إليه وعزموا على نصرته . قال : وصار زياد إلي حيّ من أحياء كندة يقال لهم بنو هند وكبسهم وقاتلم ، ووقعت الهزيمة عليهم ، فقتل منهم جماعة وولوا الأدبار ، واحتوى المسلمون على نسائهم وذراريهم وأموالهم[١] .

قال : ثم سار زياد بن لبيد إلى حي من أحياء كندة يقال لهم بنو العاقل[٢] فوافاهم غافلين ، فلمّا أشرفت الخيل عليهم تضايجت النساء وخرج الرجال إلى الحرب فاقتتلوا ساعة ووقعت الهزيمة عليهم فانهزموا وأسلموا ديارهم ونساءهم وأموالهم ، واحتوى المسلمون على جميع ذلك . قال : ثم سار زياد بن لبيد إلى حي من أحياء كندة يقال لهم بنو حجر وهم يومئذ جمرات كندة وفرسانهم فلم يشعروا إلا والخيل قد كبستهم في جوف الليل ، فاقتتل القوم ساعة ، وقتل من بني حجر مائتا رجل وأسر خمسون رجلاً وولّى الباقون الأدبار ، واحتوى المسلمون على قليلهم وكثيرهم .

قال : ثم سار زياد بن لبيد إلى حي من أحياء كندة يقال لهم بنو حمير[٣] وهم فرسان وأبطال ، فالتقى للقتال فقتل من المسلمين عشرون رجلاً وقتل من بني حمير[٣] قريب من ذلك ، ووقعت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار وأسلموا الديار ، واحتوى المسلمون على النساء والأولاد .

قال : وبلغ الأشعث بن قيس ما فعله زياد بن لبيد ببني هند وبني عاقل[٤] وبني حجر وبني حمير[٣] فغضب لذلك ثم قال : لا كرامة لزياد أن يقتل قومي وبني عمي ويسبي النساء والذراري ويحوي الأموال وأقعُد عنه ! قال : ثم نادى الأشعث في بني عمه من بني مرة وبني عدي وبني جبلة ؛ وسار يريد زياد بن لبيد ومعه ألف رجل من فرسان قومه ، وزياد بن لبيد يومئذ في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار وخمسمائة رجل من السكاسك والسكون ، فالتقى القوم قريباً من مدينة من مدن حضرموت يقال

---

(١) في الطبري : ٣/ ٣٣٦ قتل من بقرى بني هند إلى برهوت .
(٢) في مجموعة الوثائق عن كتاب الردة للواقدي : بنو العاتك .
(٣) في مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٣ : « بنو جمر » .
(٤) بنو عاتك (كتاب الردة للواقدي) .

لها يريم[1] فاقتتلوا هنالك ساعة ووقعت الهزيمة على زياد ومن معه من المسلمين ، فقتل منهم نيف على ثلاثمائة رجل وانهزموا هزيمة قبيحة حتى دخلوا تلك المدينة ، واحتوى الأشعث على تلك الأموال والغنائم والذراري فردها على أهلها . قال : وأقبل الأشعث بن قيس وأصحابه حتى نزل على مدينة يريم[1] فحاصر زيادَ بن لبيد ومن معه من المسلمين حصاراً شديداً .

قال : وكتب زياد بن لبيد إلى المهاجر بن [أبي][2] أمية المخزومي[3] ، فلمّا بلغه ما فيه زياد سار إليه فيمن معه وهم ألف فارس من ثغر لهم ؛ وبلغ ذلك الأشعث فأمر أصحابه فتنحوا عن باب تريم ، وأقبل المهاجر بن [أبي][4] أمية في ألف فارس حتى دخل المدينة إلى زياد بن لبيد فصار معه ، ورجع الأشعث حتى جلس على الباب وأرسل إلى جميع قبائل كندة ، [فأجابه][4] رجل يقال له الجبر بن قشعم في قومه من بني الأرقم ، وأجابه أبو قرة الكندي في قومه من بني حجر ، وأجابه أبو شمر الكندي في قومه من بني حمير[5] ، وأجابه الخنفشيش بن عمرو في قومه من بني هند ؛ قال : فاجتمع الأشعث بن قيس في خلق كثير من قبائل كندة فنزل بهم على باب المدينة فحاصروا زياد بن لبيد والمهاجر بن [أبي][4] أمية ومن معهما من المسلمين حصاراً شديداً وضيقوا عليهم .

قال : وكتب زياد بن لبيد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخبره بذلك ، وعلمت قبائل كندة أن زياداً كتب إلى أبي بكر كتاباً فأنشأ رجل منهم يقول أبياتاً من جملتها :

أبلغ زياداً أن كندة أجمعت   طرا عليك فكيف ذلك تصنعُ

قال : فلما ورد كتاب زياد إلى أبي بكر رضي الله عنه بخبر كندة وما قد اجتمعت عليه من حرب المسلمين اغتم لذلك واغتم المسلمون أيضاً ، ولم يجد أبو بكر بداً من الكتاب إلى الأشعث بن قيس بالرضا .

---

(١) كذا بالأصل ومجموعة الوثائق السياسية . وفي معجم البلدان : تريم : اسم إحدى مدينتي حضرموت .
(٢) سقطت من الأصل .
(٣) كذا ، ولم يرو نص الكتاب ، وفي الطبري أن أبا بكر بعث المهاجر إلى اليمن وبعدما قضى مهمته بها أرسل إلى أبي بكر يعلمه ، فأرسل إليه أبو بكر يأمره أن يسير إلى حضرموت (٣ / ٣٣٠ - ٣٣١) .
(٤) سقطت من الأصل .
(٥) كذا ، وفي مجموعة الوثائق : جمر .

ذكر كتاب أبي بكر إلى الأشعث بن قيس ومن معه من قبائل كندة

قال : فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه[1] : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وعلى آله) إلى الأشعث بن قيس ومن معه من قبائل كندة .

أما بعد فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه المنزل على نبيهعليه السلام : ﴿ اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ ﴾[2] . وأنا آمركم بتقوى الله وحده ، وأنهاكم أن لا[3] تنقضوا عهده وأن لا[3] ترجعوا عن دينه إلى غيره ، فلا تتبعوا الهوى فيضلكم عن سبيل الله ، وإن كان إنما حملكم على الرجوع عن دين الإسلام ومنع الزكاة ما فعله بكم عاملي زياد بن لبيد فإني أعزله عنكم ، وأولّي عليكم من تحبون ، وقد أمرت حامل[4] .كتابي هذا إن أنتم قبلتم الحق أن يأمر زياداً بالانصراف عنكم . فراجعوا وتوبوا من قريب ـ وفقنا الله وإياكم لكلّ ما كان فيه رضا ! والسلام » .

قال : وكتب حسان بن ثابت الأنصاري إليهم في آخر الكتاب[5] .

قال : ثم طوى الكتاب وعنونه وختمه ودفعه إلى رجل من قيس عيلان يقال له مسلم بن عبد الله .

فلما وصل الكتاب إلى الأشعث وقرأه أقبل على الرسول فقال : إن صاحبك أبا بكر هذا يلزمنا الكفر بمخالفتنا له ولا يلزم صاحبه الكفر بقتله قومي وبني عمي ! فقال له الرسول : نعم يا أشعث ! يلزمك الكفر لأن الله تبارك وتعالى قد أوجب عليك الكفر بمخالفتك لجماعة المسلمين ؛ قال : فوثب إلى الرسول غلام من بني مرة ابن عم الأشعث بن قيس فضربه بسيفه ضربة فلق هامته ؛ قال : فسقط الرسول ميتاً ، فقال له الأشعث : أحسنت لله أبوك ! ولقد قصرت العتاب وأسرعت الجواب ؛ قال : فوثب

---

(١) نسخة الكتاب في مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٤ عن كتاب الردة للواقدي .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

(٣) سقطت في الموضعين من مجموعة الوثائق .

(٤) في مجموعة الوثائق : صاحب .

(٥) كذا .

أبو قرة الكندي مغضباً فقال : يا أشعث لا والله ما يوافقك أحد منا على مثل هذا الأمر أبداً ! تقتل الرسول بلا ذنب كان منه ولا سبيل لك عليه ؛ ثم أقبل أبو قرة على قومه من كندة فقال : انصرفوا ولا تقيموا فإن الصواب عندي الرحيل عن هذا الرجل وإلا فتوقعوا العقوبة . قال : ثم وثب أبو الشمر الكندي فقال : يا أشعث ! لقد ركبت عظيماً من الأمر بقتلك من لا ذنب له ، وذلك أنا نقاتل من يقاتلنا ، فأما قتل الرسول فلا ، لأن الرسول لا يجب عليه القتل لأنه مأمور . فقال الأشعث : يا هؤلاء ! لا تعجلوا فإنه قد شهد عليٌّ وعليكم بالكفر ، وبعد فلم آمر بقتله ولا ساءني ذلك ؛ قال : فوثب الجبر بن القشعم الكندي فقال : إنا رجونا أنك تعتذر إلينا بعذر نقبله منك ، فأجبتنا بما قد أنفرنا عنك ، وأيم الله ! لو كنت ذا أرب لغيرت هذا ولم تركب العدوان والظلم بقتلك رسولاً لا جرم له ؛ قال : ثم نادى الجبر بن القشعم في بني عمه الأرقم فقال : ارحلوا عن هذا الظالم حتى يعلم الله عز وجل أنكم لم ترضوا بما فعل .

قال : فتفرق عن الأشعث عامّة أصحابه حتى بقي في قريب من ألفي رجل ، وأقبل السكاسك والسكون على زياد بن لبيد والمهاجر بن [أبي][(1)] أمية من مدينة تريم في نيف على خمسة آلاف رجل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل ، والتقى القوم بواد يقال له زرقان[(2)] قريباً من مدينة تريم فاقتتلوا هنالك ساعة ، ونظر الأشعث بن قيس إلى رجل من أصحاب زياد بن لبيد يقال له جفنة بن قتيرة السكوني وإنه يقاتل قتالاً شديداً ، فحمل عليه الأشعث فطعنه طعنة صرعه عن فرسه وهمّ أن ينزل إليه فحماه ابن عمّ له من الأشعث فأفلت وهو لما به ؛ قال : ثم حمل الأشعث أيضاً على رجل يقال له السمط بن الأسود السكوني فضربه ضربة أثخنه منها ؛ قال : فولى السمط من بين يدي الأشعث هارباً ، ووقف الأشعث في ميدان الحرب فجعل يلوح بسيفه ؛ قال : ثم حمل الأشعث ؛ قال : وحمل مهاجر بن أبي أمية على الأشعث وهو يقول : أنا المهاجر ! وحمل عليه الأشعث والتقيا بضربتين فبادره الأشعث بضربة على بيضته وأسرع السيف إلى رأسه ، فولى مدبراً ، فناداه الأشعث : يا مهاجر ! أتعير الناس بالفرار وتفر فرار الحمار ؛ ثم حمل الأشعث بن

(١) سقطت من الأصل .

(٢) ما أثبتناه عن الطبري ٣ / ٣٣٥ وبالأصل « الرفان » وفي معجم البلدان محجر الزرقان بضم الزاي ناحية بأرض حضرموت أوقع فيه المهاجر بن أبي أمية بأهل الردة .

قيس وأصحابه على جميع المسلمين فهزموهم حتى أدخلوهم مدينة تريم وقد قتل منهم جماعة وجرح منهم بشر كثير .

ثم أقبل الأشعث بأصحابه حتى أحدقوا بالمدينة ونزلوا عليها وحاصروا زياد بن لبيد وأصحابه وضيّقوا عليهم غاية التضييق(1) .

وكتب زياد بن لبيد إلى أبي بكر رضي الله عنه يخبره بقتل الرسول ويعلمه أنه وأصحابه محاصرون في مدينة تريم أشد الحصار ، ثم أثبت إليه في آخر كتابه أبياتاً من جملتها :

من راكب نحو المدينة مخبراً رهط الرسول وسائر الأنصار

ذكر المشورة التي وقعت بالمدينة
في أمر الأشعث بن قيس وأصحابه

قال : فلمّا ورد الكتاب إلى أبي بكر رضي الله عنه وقرأه نادى في المسلمين ثم قال : أشيروا عليّ ما الذي أصنع في أمر كندة . قال : فتكلم أبو أيوب الأنصاري فقال : اسمع ما أشير به عليك ، قال أبو بكر : قل حتى أسمع ، فقال : إن القوم كثر عددهم وفيهم نخوة الملك ومنعه ، وإذا همّوا بالجمع جمعوا خلقاً كثيراً فلو صرفتَ عنهم الخيل في عامك هذا ، وصفحتَ عن أموالهم لرجوتُ أن ينيبوا إلى الحق ، وأن يحملوا الزكاة إليك بعد هذا العام طائعين غير مكرهين ، فذاك أحبّ إليّ من محاربتك إياهم ، فقد علمت أنهم فرسان أبطال لا يقوم لهم إلا نظراؤهم من الرجال ؛ قال : فتبسم أبو بكر رضي الله عنه من قول أبي أيوب ، ثم قال : والله يا أبا أيوب ! لو منعوني عقالاً(2) واحداً مما كان النبي (صلّى الله عليه وسلم وآله) وظّفه عليهم

---

(1) كذا بالأصل أن الأشعث انتصر على المسلمين في معركة الزرقان أما في الطبري ٣ / ٣٣٥ : فالتقوا بمحجر الزرقان فاقتتلوا به فهزمت كندة ، وقتلت وخرجوا هراباً ، فالتجأت إلى النجير وقد رمّوه وحصنوه . وقال المهاجر في يوم محجر الزرقان .

كنا بزرقان إذ يشردكم بحر يزجى في موجه الحطبا
نحن قتلناكم بمحجركم حتى ركبتم من خوفنا السببا
إلى حصار يكون أهونه سبي الذراري وسوقها خببا

(وانظر الكامل ٢ / ٤٩ ومعجم البلدان زرقان) .

(2) الأثر في غريب الحديث للهروي ٢ / ٣ والفائق ٢ / ١٧٤ .

لقاتلتهم عليه أبداً أو ينيبوا إلى الحق صغرة وقمأة ؛ قال : فسكت أبو أيوب .

قال : ثم انصرف أبو بكر إلى منزله وأرسل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فدعاه وقال : إني عزمت على أن أوجّه إلى هؤلاء القوم عليٍّ بن أبي طالب فإنه عدل رضا عند أكثر الناس لفضله وشجاعته وقرابته وعلمه وفهمه ورفقه بما يحاول من الأمور ؛ قال : فقال له عمر بن الخطاب : صدقت يا خليفة رسول الله ﷺ ! إن عليّاً كما ذكرت وفوق ما وصفت ولكني أخاف عليك خصلة منه واحدة ؛ قال له أبو بكر : وما هذه الخصلة التي تخاف عليٍّ منها منه ؟ فقال عمر : أخاف أن يأبى لقتال القوم فلا يقاتلهم ، فإن أبى ذلك فلم تجد أحداً يسير إليهم إلا على المكروه منه ، ولكن ذر عليّاً يكون عندك بالمدينة فإنك لا تستغني عنه وعن مشورته واكتب إلى عكرمة بن أبي جهل فمره بالمسير إلى الأشعث وأصحابه ، فإنه رجل حرب وأهل لما أهّل له ؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه : هذا هو الرّأي .

ذكر كتاب أبي بكر إلى عكرمة بن أبي جهل

قال : ثم كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عكرمة ، وعكرمة يومئذ بمكة[1] : « أما بعد فقد بلغك ما كان من أمر الأشعث بن قيس وقبائل كندة ، وقد أتاني كتاب ابن لبيد يذكر أن قبائل كندة قد اجتمعوا عليه وعلى أصحابه وحصروهم في مدينة تريم بحضرموت ، فإذا قرأت كتابي هذا فسر إلى زياد بن لبيد في جميع أصحابك ومن أجابك من أهل مكة ، واسمع له وأطع فإنه الأمير عليك ، وانظر لا تمرّنّ بحي من أحياء العرب إلا استنهضتهم وخرجت معهم إلى محاربة الأشعث بن قيس وأصحابه - إن شاء الله تعالى والسلام »[2] .

قال : فلمّا ورد كتاب أبي بكر رضي الله عنه على عكرمة وقرأه نادى في أصحابه ومن أجابه من أهل مكة ، وخرج في ألفي فارس من قريش ومواليهم وأحلافهم .

= قال أبو عبيد ويروى : لو منعوني عناقاً . قال الكسائي : العقال صدقة عام وقال الكسائي : بعث فلان على عقال بني فلان إذا بعث على صدقاتهم .

(١) كذا وفي الطبري أن عكرمة سار من أبين يريد حضرموت .

(٢) نسخة الكتاب في مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٥ عن كتاب الردة للواقدي .

ذكر مسير عكرمة بن أبي جهل
إلى الأشعث بن قيس

قال : فسار عكرمة حتى صار إلى نجران وبها يومئذ جرير بن عبد الله البجلي في بني عمه من بجيلة ، فدعاه عكرمة إلى حرب الأشعث بن قيس وأصحابه ، فأبى عليه جرير ولم يجبه إلى ذلك ، ثم سار إلى مأرب(١) فنزلها ، وبلغ ذلك أهل دبا(٢) فغضبوا عن مسير عكرمة بن أبي جهل إلى محاربة كندة ، وجعل بعضهم يقول لبعض : تعالوا حتى نشغل عكرمة وأصحابه عن محاربة بني عمنا من كندة وغيرهم من قبائل اليمن ، فعزموا على ذلك ، ثم إنهم وثبوا على عامل لهم من قبل أبي بكر رضي الله عنه فطردوه عن بلدهم ، فخرج عاملهم هارباً من بين أظهرهم حتى صار إلى عِكرمة بن أبي جهل فلجأ إليه .

ذكر كتاب عامل أهل دَبَا إلى أبي بكر رضي الله عنه
وهو حذيفة بن محصن(٣)

قال : فكتب حذيفة بن محصن(٣) هذا إلى أبي بكر رضي الله عنه يخبره بأمر أهل دبا وارتدادهم عن دين الإسلام وطردهم إياه(٤) ثم خبره في كتابه أنه أتى إلى عكرمة بن أبي جهل فصار معه ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، ثم إنه كتب إلى عكرمة :

« أما بعد فإني كنت كتبت إليك وأمرتك بالمسير إلى حضرموت فإذا قرأت كتابي هذا فسر إلى أهل دبا على بركة الله عزّ وجلّ فأنزل بهم ما هم له أهل ، ولا تقصرن فيما كتبت به إليك ، فإذا فرغت من أمرهم فابعث بهم إليّ أسراء ، وسر إلى زياد بن لبيد فعسى الله عزّ وجلّ أن يفتح على يديك بلاد حضرموت إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

قال: فلمّا ورد كتاب أبي بكر على عكرمة نادى في أصحابه وأمرهم بالمسير إلى

---

(١) مأرب : بلاد الأزد باليمن ، وقيل قصر لهم . وهي بين حضرموت وصنعاء .

(٢) دبا : سوق من أسواق العرب بعمان .

(٣) من الطبري ٣ / ٣١٤ وتاريخ اليعقوبي ٢ / ١٣٨ وفي تاريخ خليفة ص ١٢٣ حذيفة العلقاني ، وعند الطبري : حذيفة بن محصن الغلفاني . وفي معجم البلدان : حذيفة بن محصن البارقي ثم الأزدي .

(٤) في معجم البلدان : لما مات رسول الله (ص) ارتدوا فدعاهم (حذيفة) إلى النزوع فأبوا وأسمعوه شتماً لرسول الله (ص) وأبي بكر . (وانظر الطبري ٣ / ٣١٤) .

أهل دبا . قال : ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا[١] ، ورزق عليهم الظفر فهزمهم عكرمة حتى بلغ بهم إلى أدنى بلادهم ، وقتل منهم زهاء مائة رجل ، ثم سار إليهم عكرمة يريد قتالهم ثانية ، ودخل القوم مدينتهم فتحصنوا بها ، ونزل عليهم عكرمة في أصحابه فحاصرهم وضيّق عليهم .

قال : فاشتدّ عليهم الحصار[٢] لأنهم لم يكونوا أعدّوا لذلك ، فأرسلوا إلى حذيفة بن محصن[٣] يسألونه الصلح على أنهم يؤدّون الزكاة ويدعون إلى محبته وينصرف عنهم عكرمة ! فأرسل إليهم عاملهم أنه لا صلح بيننا وبينكم إلا على إقرار منكم بأنا على حق وأنتم على باطل ، وأن قتيلنا في الجنة وقتيلكم في النار ، وعلى أنا نحكم فيكم بما رأينا ؛ فأجابوه إلى ذلك فأرسل إليهم أن اخرجوا الآن عن مدينتكم بلا سلاح ، ففعلوا ذلك ، ودخل المسلمون إلى حصنهم . قتلوا أشرافهم[٤] وسبوا نساءهم وأولادهم وأخذوا أموالهم ونزل عكرمة مدينتهم ، ووجه أيضاً برجالهم إلى أبي بكر[٥] وهم ثلاثمائة من المقاتلة وأربعمائة من النساء والذريّة .

قال : فهمّ أبو بكر رضي الله عنه بقتل المقاتلة وقسمة النساء والذريّة ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ﷺ ! إن القوم على دين الإسلام وذلك أني أراهم يحلفون بالله مجتهدين : ما كنا رجعنا عن دين الإسلام ، ولكن شحّوا على أموالهم ، وقد كان منهم ما كان فلا تعجل عليهم واحبسهم عندك إلى أن ترى فيهم رأيك ؛ قال : فأمر بهم أبو بكر فحبسوا في دار رملة بنت الحارث ، فلم يزالوا هنالك محبوسين إلى أن توفي أبو بكر رضي الله عنه وصار الأمر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فدعاهم ثم قال : إنكم قد علمتم ما كان رأي أبي بكر وما

---

(١) وكان رئيس أهل الردة لقيط بن مالك الأزدي (الطبري ـ معجم البلدان) .

(٢) حاصرهم شهراً أو نحوه (معجم البلدان) .

(٣) بالأصل : عمر تحريف .

(٤) في المعجم : قتل من اشرافهم مائة رجل .

(٥) في الطبري : بعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة البارقي .

وفي هزيمة لقيط يقول عباد الناجي :

لعمري لقد لاقى لقيط بن مالك ... من الشر ما أخزى وجوه الثعالب
وبادى أبا بكر ومن هلّ فارتمى ... خليجان من تياره المتراكب
ولم تنهه الأولى ولم ينكأ العدا ... فألوت عليه خيله بالخبائب

كان من رأيي، وقد مضى أبو بكر لسبيله ، وقد أفضى الأمر إليّ فانطلقوا إلى أي بلد شئتم فأنتم أحرار لوجه الله تعالى فلا فدية عليكم ؛ قال : فمضى القوم على وجوههم فمنهم من صار إلى بلده ومنهم من صار إلى البصرة بعد عمارتها ، فيها خطط المهالبة[1] إلى يومنا هذا .

ثم رجعنا إلى خبر الأشعث بن قيس ، قال : وسار عكرمة يريد زياد بن لبيد وبلغ ذلك الأشعث بن قيس فانحاز إلى حصن من حصون حضرموت يقال له النُّجَيْر[2] فرمّه وأصلحه ثم جمع نساء قومه وذريّته فأدخلهم إلى ذلك الحصن[3] ، وكان للحصن باب عابر[4] المكان يدخل إلى أهل الحصن كل ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب وغير ذلك .

قال : ونادى زياد بن لبيد في أصحابه فجمعهم ثم قال : أيها الناس ! اعلموا أنكم تقاتلون أهل ردّة وكفر فأظهروا أسلحتكم واشحذوا سيوفكم وركبوا أسنّتكم فإني ناهض إليهم غداً إن شاء الله تعالى ، وهذا عكرمة بن أبي جهل قد جاءكم مدداً لكم في عسكر لجب فأبشروا بالنصر والظفر ؛ قال : وجعل زياد بن لبيد يحرّض من معه من المسلمين على حرب عدوهم .

قال : وبلغ ذلك الأشعث بن قيس بأن زياد بن لبيد قد شجّع أصحابه على الحرب ، فجعل الأشعث أيضاً يحرض أصحابه ويشجّعهم ويقول : يا معشر كندة ! لا يهولنّكم مدد أعدائكم لأصحابهم فإن النصر مع الصبر والقوم مع الصبر لا يثبتون . فقاتلوهم محتسبين واشجروهم بالرماح شجراً[5] وكافحوهم بالصفاح[6] ولا تذلوا بعد

---

(١) وكان أبو المهلب غلاماً لم يبلغ بين الأسرى ، ثم خرج بعد إلى البصرة .

(٢) النجير : حصن باليمن قرب حضرموت (معجم البلدان) .

(٣) في الطبري : فتحصنوا فيه (كندة) ومعهم من استغووا من السكاسك وشذاذ من السكون وحضرموت ونجير .

(٤) وقد نزل زياد على سبيل (باب) والمهاجر على باب آخر ، والباب الثالث لهم يؤتون منه ويذهبون . إلى أن جاء عكرمة فأنزله على ذلك الطريق (الباب الثالث) . فقطع عليهم المواد ، وردّهم . (الطبري ٣ / ٣٣٦) .

(٥) شجره بالرمح شجراً : طعنه . قال في اللسان : وفي حديث الشراة : فشجرناهم بالرماح : أي طعناهم بها حتى اشتبكت فيهم .

(٦) الصفاح : السيوف العريضة (اللسان) .

العز ولا تضعفوا بعد القوّة . قال : وجعل كل رئيس من رؤساء كندة يحرّض بني عمّه على الحرب ويأمرهم أن لا يقصروا .

قال : فأصبح زياد بن لبيد وقد عبّى أصحابه فجعل على ميمنته المهاجر بن [أبي][1] أمية المخزومي وعلى ميسرته وائل بن حجر الحضرمي وعلى الجناح [ابن][1] قتيرة السكوني ، وعبّى الأشعث أصحابه فجعل على ميمنته الخنفشيش بن عمرو وعلى ميسرته عبد الرحمن بن محرز الحطحمي وعلى الجناح مرة بن امرىء القيس الذهلي ، وصار الأشعث بن قيس في القلب مسربلاً في سلاحه وعلى رأسه تاج لجده يزيد بن معديكرب ؛ وتقدّم زياد بن لبيد حتى وقف أمام أصحابه في القلب على فرس له أدهم عليه ذرعان سابغان قد ظاهرهما بحرير أصفر وبينهما حريرة صفراء وسيفه على عاتقه ؛ قال : وجالت الحرب بعضها على بعض وتقدم المهاجر بن [أبي][2] أمية المخزومي فجعل يجول في ميدان الحرب ؛ قال : فحمل عليه الخنفشيش بن عمرو ، وكان من فرسان أصحاب الأشعث بن قيس فاختلفا بضربتين سبقه المهاجر بن [أبي][2] أمية بالضربة فلم تصنع شيئاً وقنعه الخنفشيش بضربة قدّ بها بيضته ، وأسرع إلى رأس المهاجر بن [أبي][2] أمية فكادت الضربة أن تبدي عن دماغه فاعتنق المهاجر عنق فرسه وولى بين يدي الخنفشيش هارباً ؛ قال : فحمل الخنفشيش على رجلٍ من أصحاب ابن لبيد يقال له وائل بن حجر فأرداه بطعنة عن فرسه فانقلب مجروحاً وهو لما به وغار فرسه ؛ وجال وائل بن حجر في ميدان الحرب .

قال : فاختلط القوم اختلاطاً شديداً ، ونظر الأشعث بن قيس إلى رجل من أصحاب زياد بن لبيد وهو يقاتل قتالاً شديداً فلم يكذب أن حمل عليه ليضربه بسيفه وحمل ابن ذلك الرجل على الأشعث ، فنظر إليه الأشعث فإذا هو غلام حدث فلم يقدم عليه لكنه وقف في ميدان الحرب وجعل يعرض لزياد بن لبيد فبدر إليه زياد بن لبيد ؛ قال : فحمل عليه الأشعث والتقيا بضربتين ، ضربة الأشعث [ضربة] التقاها زياد بحجفته فقدّ الأشعث حجفة زياد فرمى بها من يده ، وولّى زياد بن لبيد من بين يديه وأتبعه الأشعث فضربه ضربة على قذاله[3] فقدّ المغفر إلى رأسه وضربه الأخرى

---

(١) سقطت من الأصل .

(٢) سقطت من الأصل .

(٣) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا والجمع أقذلة وقذل (اللسان) .

على شماله وعلى زياد يومئذ ذرعان وحريران غير ثيابه ، فقدّ الأشعث ذلك كلّه حتى وصل السيف إلى عضد زياد ، وقال : خذها وأنا ابن قيس ! وأفلت زياد من الأشعث وهو لما به ؛ ثم حمل الأشعث على جميع المسلمين فجعل لا يمرّ بشيء إلا حطمه وهو في ذلك .

قال : فانهزم زياد وأصحابه حتى دخلوا مدينة حضرموت فتحصّنوا فيها ، وبلغ ذلك عكرمة بن أبي جهل فكتب إلى زياد يعلمه بالوقت الذي يوافيه فيه ، وأنه قد رحل إليه ، وأنه يوافيه في يوم كذا وكذا . قال : ففرح زياد وأصحابه بقدوم عكرمة عليهم .

فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده عكرمة أن يوافيه فيه نادى زياد في أصحابه فركبوا ، ثم إنه خرج من مدينة تريم ، وإنّه ليشد بالأيدي حتى استوى على فرسه وهو لما به من الضربات التي أصابته من الأشعث .

قال : وارتفعت غبرات الخيل من ناحية باب المدينة ، فعلم الأشعث أن زياداً قد خرج إليه على علته ، فنادى في أصحابه فركبوا ، ثم سار نحو زياد بن لبيد على غير تعبية ، فلمّا تلاقت الخيلان جعل الأشعث يجول في ميدان الحرب ؛ قال : فلم يجبه زياد إلى شيء ، واختلط القوم فاقتتلوا ساعة ، وهمّت خيل زياد بالفرار غير مرّة وكان زياد يمنّيهم بقدوم عكرمة عليهم ويسألهم صبر ساعة . قال : فبينما المسلمون كذلك إذا خيل عكرمة قد أشرفت عليهم في تعبية حسنة وخيل عتاق وسلاح شاك ورجال جلدين .

قال : ونظرت قبائل كندة إلى خيل عكرمة قد أشرفت عليهم ، فصاحوا بالأشعث : ما ترى هذه خيل حامية قد أقبلت ! ونحن قد تعبنا وخيلنا قد كلّت وعامّتنا جرحى ؛ قال : فشجّعهم الأشعث وأمرهم بالصبر ونهاهم عن العجز والفشل . قال : فاختلطت خيل عكرمة وخيل زياد فصاروا في موضع واحد[1] ، ثم اجتمعوا وحملوا على الأشعث وأصحابه فلم يزل واحد منهم عنّ لكنهم أشهروا السلاح في وجوه القوم

---

(١) تقدم أن عكرمة وخيله لما وصلت إلى النجير ، سد الباب العابر (الثالث) الذي كان الأشعث وكندة يؤتون منه ويمدون أنفسهم بالمواد .

وفي رواية في الطبري ٣ / ٣٣٧ أن عكرمة قدم بعدما فرغ المسلمون من كندة وهزيمتها . وانظر تاريخ اليعقوبي ٢ /١٣٢ .

فرجعوا عنهم ، ثم جالت الخيل بعضها على بعض ؛ وقد تقدم رجل من فرسان الأشعث وشجعانهم يقال له عرفجة بن عبد الله الذهلي ؛ قال : ثم حمل عرفجة على خيل المسلمين فلم يزل يقاتل حتى ضج المسلمون من طعانه وضربه ؛ قال : ورمى رجل من أهل مكّة بسهم فوقع السهم في فؤاده فقتله ؛ فصاح زياد بن لبيد : يا معشر المسلمين ! أبشروا فقد أخمد الله عزّ وجلّ جمرة كندة بقتل عرفجة الذهلي .

قال : وتقدم الأشعث بن قيس حاسر الرأس حتى وقف بين الجمعين فبرز إليه عكرمة بن أبي جهل ؛ قال : والتقيا بطعنتين فافترقا جريحين ولم يصنعا شيئاً ، فرمى كل واحد منهما برمحه من يده واعتمد على قائم سيفه ، ثم التقيا بضربتين بدره الأشعث بضربة قدّ بها بيضة عكرمة ، ثم إن رجلاً يقال له النعمان بن الحارث حمل على الأشعث بن قيس فطعنه طعنة منكرة حتى كاد الأشعث أن يسقط عن فرسه ، ثم جال النعمان في ميدان الحرب ؛ قال : فخرج إليه رجل من أصحاب الأشعث يقال له مرّة بن امرىء القيس ، ثم حمل على النعمان فطعنه طعنة جندله قتيلاً ، وجعل الأشعث يجول في ميدان الحرب وهو يقاتل فكلما حمل بفرسه على الناحية التي فيها زياد بن لبيد يمضي زياد عن ذلك الموقف إلى موقف آخر ، وهبّت الريح وثار العجاج(١) فلم يبصر الناس بعضهم بعضاً ، فطلب الأشعث فلم يقدر عليه فظنت قبائل كندة أنه قد قتل ، وجعل الخنفشيش بن عمرو الكندي يرتجز . . . . . .(٢)
قال : وانحلت العجاج عن القوم فنظروا فإذا الأشعث حاسر الرأس ينادي : الصبر الصبر يا معشر كندة ! فإن القوم قد صبروا لكم . قال : فلم يزل القوم على ذلك من شأنهم إلى وقت المساء ، ثم اجتمع المسلمون بأجمعهم في موضع واحد ورفعوا أصواتهم بالتكبير ثم حملوا على الأشعث وأصحابه كحملة رجل واحد فهزموهم بأجمعهم حتى ألجؤوهم إلى حصنهم الأعظم .

قال : فدخل الأشعث وأصحابه إلى ذلك الحصن وغلقوا على أنفسهم الباب ؛ وأقبل زياد بن لبيد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن [أبي](٣) أمية وجميع المسلمين حتى نزلوا على الحصن وأحدقوا به من كل ناحية واشتدّ الحصار على من

---

(١) العجاج : الصياح . والعجاج : الغبار ، وقيل : هو من الغبار ما تورثه الريح ، واحدته عجاجة ، وفعله التعجيج (اللسان) .
(٢) كذا ، ولم ترد الأرجاز بالأصل .
(٣) سقطت من الأصل .

في الحصن من قبائل كندة ، فقال لهم الأشعث بن قيس : يا بني عمّ ! ما الرأي ؟ فقالوا : والله الرأي أن نموت كراماً ؛ قال الأشعث : إن كنتم عزمتم على ذلك فافعلوا كما أفعل حتى أعلم أنكم صادقين ؛ قال : ثم ضرب الأشعث بيده إلى ناصيته فجزها وربطها على رأس رمحه وجزّ القوم نواصيهم وربطوها في رؤوس رماحهم وتبايعوا على الموت[1] ؛ فلمّا أصبح الأشعث أمر بباب الحصن ففتح ، واستوى الأشعث على فرسه وخرج في أوائل القوم ؛ قال : وخرج خلفه الخنفشيش بن عمرو وظفيرته معقودة في رأس رمحه ؛ قال : ثم خرج من بعده سعيد بن معدي كرب ؛ قال : فكان كلّما خرج رجل من أشرافهم خرج معه قومه وعشيرته . قال : واختلط القوم فاقتتلوا على باب الحصن قتالاً لم يقتتلوا مثله في يوم من الأيام حتى قتل من الفريقين بشر كثير ؛ قال : وأثخن الأشعث بالجراحات فولّى منهزماً هو وأصحابه حتى دخلوا الحصن فحصرهم المسلمون حصاراً شديداً .

قال : وسمعت بذلك قبائل كندة ممن كان تفرّق عن الأشعث بن قيس لما قتل رسول أبي بكر رضي الله عنه فقال بعضهم لبعض : يا قومنا ! إن بني عمّنا قد حصروا في حصن النجير وهذا عار علينا أن نسلّمهم فسيروا بنا إليهم ؛ قال : فسارت قبائل كندة يريدون محاربة المسلمين وبين أيديهم الجبر بن القشعم الأرقمي شاك في السلاح ، وأقبل أبو قرة الكندي في قومه من بني الحارث ، وأقبل أبو الشمر الكندي في قومه ، من بني حمير[2] .

قال : وبلغ زياد بن لبيد مسير هؤلاء القوم إليه فكأنه جزع لذلك ثم أقبل على عكرمة بن أبي جهل فقال له : ما ترى ؟ فقال عكرمة : أن تقيم أنت على باب الحصن محاصراً لمن فيه حتى أمضي أنا فألتقي هؤلاء القوم ، فقال زياد : نعم ما رأيت ! ولكن انظر يا عكرمة ! إن ظفر الله عزّ وجلّ بهم فلا ترفع السيف عنهم أو تبيدهم عن آخرهم ، فقال عكرمة : لست آلو جهداً فيما أقدر عليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال : ثم جمع عكرمة أصحابه وسار حتى وافى القوم وقد تعبّى تعبية الحرب فلم يكذب عكرمة أن حمل عليهم في جميع أصحابه

---

(١) في الطبري : ٣ / ٣٣٦ قالوا : الموت خير مما أنتم فيه ، جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم ، فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه ، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة ، فجزوا نواصيكم ، وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض .

(٢) كذا ، وفي كتاب الردة للواقدي : « جمر » .

فاقتتلوا ، ووقعت الهزيمة على أصحاب عكرمة ، فقتل منهم نفر يسير وضُرب عكرمة على رأسه ضربة منكرة ، وجاء الليل فحجز بين الفريقين . فلما كان من الغد دنا بعضهم من بعض فاقتتلوا حتى أمسوا ؛ والأشعث بن قيس في خلال ذلك لا يعلم بشيء من ذلك غير أنه طال عليه وعلى من معه الحصار واشتد بهم الجوع والعطش ، فأرسل الأشعث إلى زياد أن يعطيه الأمان ولأهل بيته ولعشرة[1] من وجوه أصحابه ؛ فأجابه زياد إلى ذلك وكتب بينهم الكتاب ، فظن أهل الحصن أن الأشعث قد أخذ لهم الأمان بأجمعهم فسكتوا ولم يقولوا شيئاً ؛ واتصل الخبر بعكرمة بن أبي جهل فقال لهؤلاء الذين يقاتلونه : يا هؤلاء ! على ماذا تقاتلون ؟ فقالوا : نقاتلكم على صاحبنا الأشعث بن قيس ، فقال عكرمة : فإن صاحبكم قد طلب الأمان ، وهذا كتاب زياد بن لبيد إليّ يخبرني بذلك ـ ورمى الكتاب إليهم ، فلما قرأوه قالوا : يا هذا ! انصرف فلا حاجة لنا في قتالك بعد هذا اليوم . قال : ثم انصرف القوم عن محاربة عكرمة وهم في ذلك يسبون الأشعث بن قيس ويلعنونه .

قال : ثم أقبل عكرمة على أصحابه فقال : سيروا وأسرعوا السير إلى إخوانكم من المسلمين ، فإن الأشعث بن قيس قد طلب الأمان ، ولعله إن غنم زياد وأصحابه ما في الحصن لا يشركونكم في شيء من ذلك لأنهم قد سبقوكم إلى فتح الحصن إلا أن يرى زياد رأيه في ذلك ؛ قال : فأنشأ رجل من أصحاب عكرمة أبياتاً من جملتها :

إذا ما أتانا راكب برسالة رحلنا وفي الليل الطويل سواد

قال : ثم قدم عكرمة وأصحابه على زياد والأشعث بعد لم ينزل من الحصن وهو يستوثق لنفسه ولمن معه من بني عمّه ، فأقبل زياد على عكرمة فقال : ما صنعت مع قبائل كندة ؟ فقال له : صنعت والله ! إني لقيت قوماً لهم أقدار وأخطار وصبر على الموت ، فلم أزل أحاربهم حتى علمت أن انتصافهم منّي أكثر من انتصافي منهم ، وأتاني كتابك يخبر أنه بعث الأشعث إليك كتاباً يسألك الأمان فكففت عن حرب القوم

---

(١) في معجم البلدان (النجير) : سأله أن يؤمن أهل النجير ويصالحهم فامتنع عليه وراده حتى امن سبعين رجلًا منهم ويكون حكمه في الباقي نافذاً .
وعند الطبري ٣ / ٣٣٧ واستأمنه له على نفسه ، ونفر معه تسعة ، على أن يؤمنهم وأهليهم . . . فأجابه إلى ذلك .

وانصرفت إليك ؛ فقال زياد : لا والله ! ولكنك جبنت فضعفت وكععت[1] عن الحروب ، ألم آمرك أن تضع سيفك فيهم ثم لا ترفعه عنهم وفيهم عين تطرف ، فعصيتني وحببت العافية وانصرفتَ إليّ بأصحابك خوفاً من أن تفوتك الغنيمة ، قبح الله من يزعم أنك شجاع القلب بعد هذا ! فغضب عكرمة من ذلك ثم قال : أما والله يا زياد ! لو لقيتهم وقد أزمعوا على حربك لرأيت أسوداً تحمي أشبالاً وتكافح أبطالاً ذات أنياب حداد ، ومخاليب شداد ، ولتمنّيت أنهم ينصرفون عنك ويخلونك ، وبعد فإنك أظلم وأغشم وأجبن قلباً وأشحّ نفساً وأيبس ، إذ قاتلت هؤلاء القوم وشنئت هذه الحروب بينك وبينهم بسبب ناقة واحدة لا أقل ولا أكثر ، ولو لم أغثك بجنودي هؤلاء لعلمتَ أنك تكون رهين سيوفهم وأسير جوامعهم . قال : ثم نادى عكرمة في أصحابه وهمّ بالرحيل ، فاعتذر إليه زياد مما تكلم به ، فقبل عكرمة عذره .

ونزل الأشعث بن قيس من الحصن في أهل بيته وعشيرته من رؤساء بني عمه مع أهاليهم وأموالهم وأولادهم ، فقال زياد : يا أشعث ! ألست إنما سألتني الأمان لعشرة مع أهاليهم وأولادهم وبهذا كتبت لك الكتاب ؟ قال الأشعث : بلى قد كان ذلك ، فقال زياد : الحمد لله ! لم تسألني الأمان لنفسك ، والله ما أرى لك في الكتاب اسماً والله لأقتلنك ! فقال الأشعث : يا أقل الخلق عقلاً ! أترى أنه بلغني من الجهل أن أطلب الأمان لغيري وأتركه لنفسي ؟ أما إني لو كنت أخاف غدرك لبدأت بنفسي في أوّل الكتاب ولكني أنا كنت الطالب لقومي الأمان فلم أكن أثبت نفسي مع غيري[2] ، وأما قولك : إنك تقتلني ، فوالله لئن قتلتني لتجلبن عليك وعلى صاحبك اليمن بأجمعها بخيلها ورجلها فينسيك ما قد مضى ! فقال له زياد : إني والله لأرجو أن ينظرك أبو بكر الصديق يضرب عنقك فإنّه أهل لذلك يا عدوّ الله ! فقال له الأشعث : والله يا زياد ! لئن يأكلني الأسد أحبّ إليّ من [أن][3] يأكلني الكلب - يعني بالكلب هو - ، ولكن كيف أنت من تلك الضربات يا زياد التي نالتك مني يوم بارزتني ؟ قال : فسكت زياد ولم يقل شيئاً وازداد عليه غيظاً وحنقاً ، ثم استوثق منه

---

(١) كععت : الكع والكاع : الضعيف العاجز . قال أبو زيد : كَعَعتُ وكيعت وقال ابن المظفر : رجل كع وكاع : هو الذي لا يمضي في عزم ولا حزم ، وهو الناكص على عقبيه (اللسان) .

(٢) في الطبري : لما لم يبق إلا أن يكتب نفسه وثب عليه جحدم بشفرة ، وقال : نفسك أو تكتبني ! فكتبه وترك نفسه .

(٣) زيادة ليستقيم المعنى .

ومن أصحابه ودخل الحصن ، فجعل يأخذ المقاتلة فيضرب أعناقهم صبراً[1] ، فقال له القوم : أيها الرجل ! إنما فتحنا باب الحصن لأن الأشعث خبّرنا أنك أعطيت الأمان فلِمَ تقتلنا ؟ فقال زياد : كذب الأشعث ، ما أثبت أحداً منكم في الكتاب غيره وغير أهل بيته وعشرة من بني عمه ؛ قال : فسكت القوم ، وعلموا أن الأشعث هو الذي أسلمهم للقتل[2] .

قال : فبينا زياد كذلك يضرب أعناقهم إذا كتاب أبي بكر رضي الله عنه قد ورد عليه مكتوب فيه[3] : أما بعد يا زياد ! فقد بلغني أن الأشعث بن قيس قد سأل الأمان وقد نزل على حكمي ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاحمله إليّ مكرماً ولا تقتلن أحداً من أشراف كندة لا صغيراً ولا كبيراً ـ والسلام .

قال : فلمّا قرأ زياد كتاب أبي بكر رضي الله عنه قال : أما إنه لو سبق هذا الكتاب قبل قتلي هؤلاء ما قتلت منهم أحداً ، ولكن قد قضى فيه القضاء والقدر .

قال : فكان نهيك بن أوس الأنصاري يقول : لقد نظرت إلى قتلى كندة فلم أشبههم إلا بقتلى قريظة يوم قتلهم النبي (صلّى الله عليه وسلم وآله) .

قال : ثم جمع زياد بن لبيد من بقي من بقايا ملوك كندة ـ وهم ثمانون رجلاً ـ فصفدهم في الحديد ووجّه بهم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، قال : ثم إنه أتى بالأسارى[4] حتى أدخلوا المدينة فأوقفوا بين يدي أبي بكر رضي الله عنه ، فلما نظر أبو بكر إلى الأشعث بن قيس فقال[5] : الحمد لله الذي أمكن منك يا عدوّ نفسه ! فقال الأشعث بن قيس : لعمري لقد أمكنك الله مني ! وبعد فإن قومي أطاعوني مخالفاً وعصوني محارباً وقد كان منّي ما كان من غيري ، وذلك أن صاحبك زياداً قتل قومي ظلماً وعدواناً فكان مني ما قد علمت .

قال : فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا خليفة رسول الله ! هذا الأشعث بن قيس قد كان مسلماً آمن بالنبي ﷺ وقرأ القرآن وحج البيت الحرام ،

---

(١) في معجم البلدان : سبعمئة رجل ضرب أعناقهم على دم واحد .

(٢) سماه نساء قومة « عرف النار » كلام يمانٍ يسمون به الغادر .

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٥٨ وثيقة ٢٨٣ / ت .

(٤) بعث السبي والأسارى مع نهيك بن أوس بن خزيمة (معجم البلدان) .

(٥) قارن مع الطبري ٣ / ٣٣٨ ـ ٣٣٩ وابن الأثير ٢ / ٤٩ ومعجم البلدان (النجير) .

ثمّ إنّه رجع عن دينه وغيّر وبدّل ومنع الزكاة ، وقد قال النبي (صلّى الله عليه وسلم وآله) : من بدّل دينه فاقتلوه ، وقد وسّع الله عليك فيه فاقتله فدمه حلال ؛ فقال الأشعث بن قيس : يا خليفة رسول الله ! إني ما غيّرت ، ولا بدّلت ، ولا شححت على مالي ، ولكن عاملك زياد بن لبيد جار على قومي فقتل منهم من لا ذنب له فأنفت لذلك وانتصرت لقومي فقاتلته ؛ وقد كان مني ما كان وإني أفدي نفسي وهؤلاء الملوك وأطلق كل أسير في بلاد اليمن وأكون عوناً لك وناصراً ما أبقيتُ على أن تزوجني[١] أم فروة بنت أبي قحافة فإني لك نعم الصهر ، فهذا خير مما يقوله عمر بن الخطاب . قال : فأطرق أبو بكر إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه وقال : إني قد فعلت . قال : ثم أطلقه أبو بكر رضي الله عنه من حديده ، وأطلق من كان معه من ملوك كندة ، ثم أمره فجلس وزوّجه أبو بكر رضي الله عنه أخته أم فروة بنت أبي قحافة ، وأحسن إليه غاية الإحسان ، فكان الأشعث بن قيس عند أبي بكر رضي الله عنه بأفضل المنازل وأرفعها[٢] .

ويقال : إن أم فروة بنت أبي قحافة ولدت من الأشعث بن قيس محمد بن الأشعث وإسحاق بن الأشعث وجعدة بنت الأشعث ؛ فأما إسحاق فإنه قُتل في أيام عبد الملك بن مروان في بعض الوقائع ، وأما محمد بن الأشعث فلم يزل مع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وشهد مقتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وقتل في أيام المختار بن أبي عبيد ؛ وابنه عبد الرحمن بن محمد هو الذي خرج على الحجاج في أيام دير الجماجم .

قال : فكان الأشعث بن قيس إذا ذكر قتلى كندة يتمثل بهذه الأبيات ، من جملتها[٣] :

لعمري وما عمري عليّ بهين ... لقد كنت بالقتلى أحق[٤] ضنين

---

(١) في الطبري : ٣ / ٣٣٩ كان قد خطب أم فروة . . مقدمه على رسول الله (ص) فزوجه وأخرها إلى أن يقدم الثانية ، فمات رسول الله (ص) وفعل الأشعث ما فعل . فخشي ألا ترد عليه .

(٢) بقي بالمدينة مقيماً حتى ندب عمر الناس لقتال الفرس فخرج فيهم ، ومات بعد قتل علي (رض) بأربعين ليلة ، وقيل مات سنة ٤٢ . وله ثلاث وستون سنة .

(٣) الأبيات للأشعث بن مثناس السكوني قالها يبكي أهل النجير .

(٤) في الطبري : لحق . وبعده :

فلا غرو إلا يوم أقرع بينهم ... وما الدهر عندي بعدهم بأمين =

انقضت أخبار الردة عن آخرها بحمد الله ومنّه وحسن تيسيره وبعونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

= فليت جنوب الناس تحت جنوبهم ولم تمش أنثى بعدهم لجنين
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت على بوها إذ طربت بحنين

ذكر الفتوحات التي كانت بعد الردة
مع الفرس والروم وأصنافهم من الكفرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال : فلما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من حرب أهل الردّة عزم على محاربة الأعاجم من الفرس والروم وأصناف الكفرة . فكان السبب في ذلك أن أوّل من ألف الحروب من العرب والعجم المثنى بن حارثة الشيباني[1] ، وذلك أن ربيعة من بني شيبان وغيرهم سكنوا العراق من قحط أصابهم بالتهامة والحجاز ، فارتحلت ربيعة إلى العراق من القحط الذي أصابهم فأتت الجزيرة وسكنت اليمامة ؛ قال : فلمّا قدمت ربيعة إلى العراق بعث إليهم كِسرى ملك الفرس فدعاهم ثم قال : يا معشر العرب ! ما الذي أقدمكم إلى بلدي ؟ فقالوا : أيها الملك ! أصابنا في بلدنا قحط وجهد فرغبنا في مجاورة الملك وفزعنا إلى أرضه والكينونة في بلده وكنفه والاتصال بقربه ، فإن أذن أقمنا وإلا ارتحلنا . فأذن لهم كسرى في المقام على أنهم لا يفسدون وأنهم يحسنون له الجوار ، فضمنوا له ذلك[2] . قال : فنزل بنو شيبان وغيرهم من

---

(١) هو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة الشيباني (جمهرة ابن حزم ص ٣٢٤) .

(٢) جاءت من بني شيبان ، فتلا الرسول عليهم : ﴿قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم . . . . ﴾ ثم تلا : ﴿إن الله يأمر بالعدل . . ﴾ فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك وأعجبني ما تكلمت به ، ولكن علينا عهد من كسرى لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً ، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي بلاد العرب فعلنا . فقال النبي (ص) : ما أسأتم إذا أفصحتم الصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه بجميع جوانبه . (الطريق إلى المدائن ص ٢٠٢) .

ربيعة أرض العراق فكانوا لا يؤذون أحداً من الفرس ، وكذلك الفرس لم يكونوا يؤذون من العرب أحداً ، فقاموا على ذلك ما شاء الله عز وجل أن يقيموا ، ثم إن الفرس جعلت تتعدى على العرب وتؤذيهم غاية الأذى لسبب الملك أنه فيهم ، فلم يزالوا كذلك حتى وقعت بينهم الشقاوة والشحناء ، فجعل المثنى بن حارثة الشيباني يغير على أساورة . . . .[1] بناحية الكوفة وسوادها ويؤذيهم غاية الأذى وهو يومئذ متمسك بدين الإسلام .

قال : وبلغ أبا بكر رضي الله عنه فعاله . . . .[2] للمسلمين ويحكم ! من هذا الذي تأتينا أخباره ووقائعه قبل معرفة خبره[3] ؟ قال : فوثب قيس بن عاصم المنقري فقال : يا خليفة رسول الله ﷺ ! هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول الحسب[4] ولا بقليل العدد والمدد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني .

قال : فأرسل إليه أبو بكر رضي الله عنه فجعله رئيساً على قومه وبعث إليه بخلعة ولواء وأمره بقتال الفرس[5] . قال : فجعل المثنى بن حارثة يقاتل الفرس من ناحية الكوفة وما يليها ويغير على أطرافها، فلم يترك لهم سارحة ولا رائحة[6] إلا استقاها ؛ وأقام على ذلك حولاً كاملاً أو نحواً من ذلك ؛ ثم إنه دعا بابن عمّ له يقال له سويد بن قطبة بن قتادة بن جرير بن بشار بن ثعلبة بن سدوس فضمّ إليه جيشاً ووجهه إلى نحو البصرة ، فجعل يحارب أهل أُبُلَّة[7] وما يليهم من الفرس .

---

(١) مطموس بالأصل .

(٢) مطموس بالأصل ، وفي فتوح الأزدي ص ٥٣ « خبره وصنيعه بالفرس » .

(٣) في الإصابة : نسبه . (أسد الغابة) .

(٤) في أسد الغابة : ٤ / ٢٩٩ النسب (انظر فتوح البلدان ص ٢٤٢) .

(٥) في أسد الغابة والإصابة : ثم قدم على أبي بكر فقال : ابعثني على قومي أقاتل بهم أهل فارس وأكفيك أهل ناحيتي من العدو ، ففعل أبو بكر .
(انظر فتوح البلدان ص ٢٤٢ . وفتوح الأزدي ص ٥٣) .

(٦) السارحة ، السرح : المال السائم ، والسارحة الإبل والغنم . قال الليث : السرح المال يسام في المرعى من الأنعام . (اللسان) .
والرائحة الإبل التي تأوي بعد غروب الشمس إلى مراحها الذي تبيت فيه . تقول : راحت الإبل تروح وتراح رائحة . (اللسان) .

(٧) أبلة : بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في راوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة (معجم البلدان) .

قال : فكان المثنى بن حارثة بناحية الكوفة وما يليها وسويد بن قطبة من ناحية البصرة وما يليها ، هذا في جيش من بني عمّه[1] جميعاً يحاربان الفرس ولا يفتران من ذلك .

ذكر ابتداء مسير خالد بن الوليد رضي الله عنه من أرض اليمامة إلى أرض العراق

قال : وتكاثرت الفرس عليهم حتى كادوا أن يجلوهم عنها وبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه[2] ، فاغتم لذلك ولم يدر ما يصنع ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ! عندي رأي أشير به عليك ؛ فقال : وماذا يا أبا حفص ؟ فقال : هذا خالد بن الوليد قد فتح الله عز وجل على يديه اليمامة وهو مقيم بها مصاهراً . . . . . . [3] فاكتب إليه ومره بالمسير إلى العراق حتى يطأ لك الفرس بخيله ورجله . . . . . . [4] المثنى بن حارثة وأصحابه فلعل الله تبارك وتعالى يكفيك به أمر الفرس . قال : فقال له أبو بكر رضي الله عنه : هذا لعمري رأي .

ذكر كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما

قال : فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه : بسم الله الرحمن الرحيم ......[5]] « من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد والذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ! سلام عليكم ! فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ! فالحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر

---

(١) مطموس بالأصل .

(٢) في فتوح الأزدي ص ٥٣ : ثم انه بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقدم عليه فقال : يا خليفة رسول الله (ص) ، إني رسول أخي المثنى بن حارثة ، وإنه يسألك أن تمده ، فإنه لم يأته من قبلك مدد ، ولو أتاه مدد فسمعت بذلك العرب تسارعوا إليه ، ولأذل الله المشركين ، مع أني أخبرك ـ أيها الصديق ـ إن الأعاجم قد خافتنا واتقتنا ، وتتابعت كتبهم إلينا يسألوننا الصلح .

(٣) مطموس بالأصل .

(٤) مطموس بالأصل ، وفي فتوح الأزدي ص ٥٤ « مع هذا الرجل يعني ـ المثنى . . . » .

(٥) بالأصل سقطة طويلة استدركنا ترجمتها من النسخة الفارسية لهذا الكتاب وهي مأخوذة من المخطوطة (مكتبة سالارجنك رقم ١٤٤ و ١٤٥ تاريخ) .

عبده[1] ، وأعز وليه ، وأذل عدوه ، وغلب الأحزاب فرداً ، فإن الله الذي لا إله إلا هو . قال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾[2] ـ وكتب الآية كلها وقرأ الآية ؛ وعداً منه لا خلف له ، ومقالاً لا ريب فيه ، وفرض الجهاد على المؤمنين . فقال : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾[3] ـ حتى فرغ من الآيات ؛ فاستتموا بوعد الله إياكم وأطيعوه فيما فرض عليكم وإن عظمت فيه المؤونة ، واستبدت الرزية[4] ، وبعدت المشقة[5] ، وفجعتم في ذلك بالأموال والأنفس فإن ذلك يسير في عظيم ثواب الله[6] ! فاغزوا ـ رحمكم الله ـ في سبيل الله ﴿ خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ﴾[7] ـ كتب الآية . ألا ! وقد أمرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق ، فلا يبرحها حتى يأتيه أمري ، فسيروا معه ولا تثاقلوا عنه ، فإنه سبيل يعظم الله فيه لمن حسنت فيه نيته ، وعظمت في الخير رغبته . فإذا وقعتم[8] العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمري ؛ كفانا الله وإياكم مهمات الدنيا والآخرة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! » ـ انتهى .

وفي النص الفارسي زيادة مؤداها :

« ومتى وصلك كتابي هذا أسرع بالتوجه نحو العراق واتفق مع المثنى بن حارثة وكن معه يداً واحدة وعلى رأي واحد ، وعلى جميع المسلمين الطاعة والانتقال معك وسيجزيهم الله تعالى في الدارين خير الجزاء » .

ثم استدعى أبا سعيد الخدري[9] وسلمه الرسالة وقال له : اذهب إلى خالد .

---

(1) في فتوح الأزدي ص ٥٥ : دينه .

(2) النور آية : ٥٥ .

(3) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

(4) عند الأزدي : واشتدت فيه الرزية .

(5) الأزدي : وبعدت فيه الشقة .

(6) بعدها في الأزدي : ولقد ذكر لنا الصادق المصدوق (ص) أن الله يبعث الشهداء يوم القيامة شاهرين سيوفهم ، لا يتمنون على الله شيئاً إلا أتاهموه حتى أعطوا أمانيهم ، وما لم يخطر على قلوبهم فما شيء يتمناه الشهيد بعد دخوله الجنة إلا أتاه الله ، إلا أن يردهم الله إلى الدنيا فيقرضون بالمقاريض في الله العظيم ، ثواب الله .

(7) سورة الصف ، آية : ١١ .

(8) الأزدي : قدمتم .

(9) هو سعد بن مالك بن سفيان بن عبيد بن ثعلبة الأبجر ، صحابي ، مكثر الحديث ، روى عن

ولا تفارقه حتى يتوجه[1] إلى العراق وقل له سراً : بأن يذهب مدداً إلى المسلمين الذين يحاربون العجم فلعل الله يفتح عليك ، وسوف استدعيك متى لزم الأمـر ، وحيثما كنت فأنت أمير الجيش ، وليس فوقك أمير سواي .

فذهب أبو سعيد إلى خالد وسلمه الرسالة فقال له : يا أبا سعيد ؛ ما أرى هذا رأي الخليفة ، بل هو من اجتهاد عمر ، لأنه سمع بأني واصلت بني حنيفة « تزوجت فيهم » لذا فقد غضب[2] .

وعلى كل حال ، فإن خالداً جمع الجنود وأخذ[3] يذكر لهم فضائل الجهاد ثم قرأ عليهم أوامر الخليفة فأجابه الجميع : سمعنا وأطعنا .

ثم تحـركوا في اليـوم وكان الـزبرقـان بن بدر علي (ينقـل) الجيش وكـان الصديق قد كتب رسالة إلى المثنى بن حارثة[4] : بأني قد كتبت لخالد بن الوليد بأن يسرع لإعانتك فأحسن استقباله واعرف له حقه . وقوله تعالى : ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[5] تنطبق عليـه . ومتى وصل خـالد إلى العـراق فهو الأميـر وأنت الوزير ، وإذا استدعيته ثانية فأنت الأمير .

وحين وصلت هذه الرسالة إلى المثنى بن حارثة جمع إليه رجاله وأعوانه وقال لهم : لقد كرّمنا الصديق غاية التكريم كما بشّرنا بمجيء خالد ، فلنتوقف إذن لحين وصول خالد .

وكان خالد من جهته يغذّ السير حتى وصل إلى حدود البصرة ، فاستقبله هناك

النبي (ص) ، مات سنة ٦٥ .

(١) عند الأزدي ص ٦٥ : لا تفارقه حتى تشخصه منها .

(٢) زيد عند الأزدي : فأشار على أبي بكر بأن يحولني من مكاني ، لقد أغرى ابن الخطاب بخلافي (أي حبب إليه خلافه) .

(٣) في فتوح الأزدي ص ٥٦ : قام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص) ثم قال : الحمد لله ، والله أهله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد ، فإن خليفة رسول الله (ص) كتب إلينا يحضنا على طاعة ربنا ، وجهاد عدونا وعدو الله ، وبالجهاد في سبيل الله أنجز الله دعوتنا ، وجمع كلمتنا وأمنيتنا والحمد لله رب العالمين ، ألا وأني خارج ومعسكر وسائر ـ إن شاء الله ـ ومعجل ، فمن أراد ثواب العاجل والآجل فلينكمش .

(٤) الكتاب في فتوح الأزدي ص ٦٠ ومجموعة الوثائق السياسية ص ٣٧١ باختلاف .

(٥) سورة الفتح ، آية : ٢٩ .

(سويدا)[1] كذا في الأصل مع لفيف من رجاله فأكرمه خالد ثم سأله : دلني على أكبر جمع للعدو في هذه الجهات وأكثرهم عدة وعدداً وأشدهم بأساً في الحرب .

فقال سويدا : أيها الأمير ، إن « الأُبُلّة » مملوءة بالحشود ، وفيهم شجاعة متهورة . فقال خالد : يجب أن أبدأ بهم ، لكي يكون مصيرهم عبرة لغيرهم من العرب فلا يرفعون رؤوسهم فقال سويدا : هو كما تقول أيها الأمير .

وحينئذ أمر سويدا بأن يسوق إليهم الجنود ثم إني لاحق بكم وسأفعل ما أراه لازماً .

فعبّأ سويدا الجيش واتجه إلى الأبلة ، وخرج إليه أهلها لقتاله وحين حمي القتال بين الطرفين ، برز إليهم خالد من مكمنه[2] ، ومعه جيش المهاجرين والأنصار وهزموا أهل الأبلة الذين التجأوا إلى الحصن ، وقد كانت السيوف من ورائهم والنهر أمامهم . فقتل منهم أربعة آلاف ، كما غرق آخرون في الماء ووصلت منهم بقية إلى الحصن .

ثم انطلق خالد من هناك حتى وصل إلى « نباج »[3] . ونزل قرب بعض العرب من بني بكر ، ثم لحق به المثنى بن حارثة ومعه جيشه وعدد من ذوي قرابته ، فحيّاه خالد وأدنى منزلته وأكرمه غاية الإكرام ، ثم ركب خالد وساق الجيش نحو أطراف الكوفة وسوادها ، وقد دبّ الرعب في قلوب العجم ، ففتحوا الطريق لخالد والمثنى حتى بلغوا الكوفة ، فعسكروا حولها ، ثم كتب للأعاجم رسالة مضمونها[4] :

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام على من اتبع الهدى . الحمد لله الذي فرق جموعكم ، واجتث أصول عزتكم وأوقع الخلاف بينكم وبدل شجاعتكم خوفاً . اعلموا بأن كل من يترك طريق

---

(١) في فتوح الأزدي : سويد بن قطبة بن بكر بن وائل .

(٢) عند الأزدي ص ٥٧ : قال خالد (لسويد) : إني أمضي عنك حتى إذا ظنوا أني قد جزتك وذهبت عنك رجعت منصرفاً إليك حتى أبيت بعسكرك . . . فلما أظلم الليل رجع خالد في جوف الليل .

(٣) نباج : منزل لحجاج البصرة ، وقيل : النباج : بين مكة والبصرة . ونباج آخر بين البصرة واليمامة ، بينه وبين اليمامة غباق لبكر بن وائل . (معجم البلدان) .

(٤) قارن مع الطبري ٣ / ٣٤٦ باختلاف وزيادة . وفتوح الأزدي ص ٦٦ وانظر روايات مختلفة للكتاب في مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٩٥ .

الضلالة ويصلي إلى قبلتنا ، ويطيع أوامر ربنا وأوامر رسوله ، ويشهد بما نشهد به ويترك عداوتنا فهو منا ونحن منه ، وإن دخل ذمتنا وأدّى إلينا الجزية فهو آمن ، وأما كل من يريد خصومتنا ، فليبرز إلى الميدان ، ونحن سنقابله بسيوفنا التي تقطر منها المنايا والسلام .

وحين وصلت هذه الرسالة إلى قادة العجم هاجوا وماجوا وعجزوا عن الجواب وأخذ خالد في ارسال السرايا إلى الأطراف يغيرون عليها حتى لم يبق فيها شيء من المواشي إلا وأحضروه لخالد . ثم ساق خالد الجيوش نحو الحيرة[1] فرأى ثمة حصوناً منيعة ، ورجالاً ذوي خبرة بالحرب مع وفور السلاح لديهم فنزل هناك .

فاضطرمت نار الحرب بين الطرفين وحمي وطيسها ، وبينما كان خالد منهمكاً في الضرب والطعان قال له ضرار بن الأزور الأسدي[2] : أيها الأمير :

« إن هؤلاء قوم عقولهم ناقصة وهم أعداء أنفسهم فإن رأى الأمير أن يطلب منهم رجلاً لمفاوضته وبذل النصيحة له فعسى أن تنجح المفاوضة وتكون النتيجة أفضل .

فأرسل إليهم خالد من قال لهم : اخرجوا إلينا رجلاً معروفاً لديكم بجودة الرأي والعلم لكي يسمع منا ويبلغكم رسالتنا .

فبعثوا إلى المسلمين رجلاً يدعى عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقيلة النسائي[3] . وكان رجلاً مهيب الطلعة وقوراً وقد جاوز عمره المئتي سنة فوصل إلى خالد وأنشده شعراً في مدح آل غسان وصفة مملكتهم منذ أيام المنذر وآل النعمان وقال :

إن ها هنا مراع لم تصطد فيها الأسود ، وقد شربت النمور دواء التقوى والقطعان تستطيع أن ترعى في هذه المروج آمنة مطمئنة ، والطيور تستطيع الطيران

---

(١) الحيرة : بلد قرب الكوفة بالعراق .

(٢) كذا بالأصل ، وقد ذكر أنه قتل باليمامة ، وهذا ما ذهب إليه الواقدي قال : والمجتمع عليه عند أصحابنا أن ضراراً قتل باليمامة .

(٣) زيد في فتوح البلدان ص ٢٤٤ وهاني بن قبيصة بن مسعود الشيباني وإياس بن قبيصة الطائي ، ويقال فروة بن إياس . (انظر فتوح الأزدي ص ٦٤ والطبري ٣ / ٣٤٥) .

تحت سرير قصر الخورنق والآن : قد تعطلت الأمور . نعم إنه الدهر الدوار والدنيا لهذا سميت دنيا .

شعر ابن بقيلة من الطبري ج ٢ ص ٥٦٦ طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ .

أبعد المنذرين أرى سواماً … تروّحُ بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى … قلوصاً بين مرة والحضير
فصرنا بعد هُلْك أبي قبيس … كجرب المعز في اليوم المطير
تقَسَّمنا القبائل من معدّ … علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريمٌ … فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى … وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال … فيوم من مساءة أو سرور

وحين فرغ عبد المسيح من كلامه قال خالد[1] : من أنت ؟ قال : أنا عبد ربي . فقال : من أين ؟ قال : من الدنيا . فقال : من أين أتيت ؟ قال : من صلب أبي . فقال : من أين وصلت ؟ قال : من بطن أمي . فقال : في أي شيء أنت ؟ قال : في ثيابي . فقال : على مَ أنت ؟ قال : على الأرض . فقال خالد : لم تزدني إلا حيرة فاصدقني : هل لك عقل أم لا وهل تعقل ركبة البعير أم لا ؟ فغالطه وحمل كلامه على وجه آخر وقال : إنني أعقل ركبة الجمل وأحكمها . فقال خالد : إنني أكلمك بكلام الناس . فقال الشيخ : وإني أجيبك بجواب الناس . فقال خالد : أنتم من تكونون ؟ فقال : نحن أولاد آدم فقال خالد : للصلح جئت أم للحرب ؟ فقال : للصلح . فقال خالد : هل أنتم عرب أم عجم ؟ فقال : كنا عرباً وصرنا عجماً وعجماً كنا وعرباً صرنا فكبر خالد وقال : الآن فهمت كلامك . والآن قل لي : هذه الجدران لماذا رفعتموها ؟ فقال : كي يستتر وراءها ناقصو العقول ولكي يستطيع العقلاء أن يسمعوا كلامنا ، ويمنعوهم عن إيقاع الظلم بنا . فقال خالد : أرى شيئاً في يدك فما هو ؟ قال الشيخ : سم زعاف . فقال خالد : لماذا حملت السم في يدك ؟ فقال : من باب الاحتياط فإن وصلت معك إلى اتفاق فكان بها وإلا شربت السم ومضيت في

---

(١) انظر مقابلة خالد وعبد المسيح في الطبري ٣ / ٣٤٥ وفتوح الأزدي ص ٦٤ ـ ٦٥ وفتوح البلدان ص ٢٤٤ باختلاف في الألفاظ والتعابير بينها وبين الأصل هنا .

سبيلي فإني قد وصلت إلى أرذل العمر فقال خالد : أعطني السم لكي أراه . فأعطاه له ثم تناوله خالد وشربه وقال : بسم الله وبالله رب الأرض والسماء الذي لا يضر معه[1] شيء في الأرض ولا في السماء وفي الحال : خرج منه عرق غزير أذهب أثر السم عنه .

وآنذاء قال خالد : أيها الشيخ : اتق الله وادخل في دين محمد فإن معي رجالاً يستهينون بالموت ولا يبالون ببذل الروح[2] .

فقال الشيخ : أمهلني حتى أراجع قومي وأخبرهم بما رأيت ثم أعود إليك . فقال خالد : اذهب فلما ذهب والتقى بقومه وأخبرهم ما رأى من استهانة المسلمين بالموت حتى إن السم القاتل لا يؤثر بهم ، وأنهم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، فوافقوا على اقتراح عبد المسيح ورضوا بدفع مبلغ مائة ألف درهم وطيلسان شيرويه بن كسرى وقيمته ثلاثون ألف درهم . فأرسل خالد تلك الأموال كلها إلى الصديق رضي الله عنه . وكان ذلك أول ما أرسل من أموال العجم للمدينة المنورة . ثم كتب خالد كتاب الصلح[3] وسلمه إليهم ثم رجع .

ونادى خالدُ جرير بن عبد الله البجلي وجعل تحت قيادته ألف رجل من المهاجرين والأنصار وعين له موضعاً يقال له (بانقيا)[4] وأمره بالذهاب إليه وكان في ذلك المكان (داذويه بن فرخان) وذكر في الطبري أنه (صلوبا بن نسطونا) .

ولما وصل جيش جرير إلى شاطىء النهر وأرادوا أن يعبروه إذ جاءهم رجل من (بانقيا) يعرض الصلح على جرير بن عبد الله مقابل مائة ألف درهم[5] . فرضي

---

(١) في الطبري ٣ / ٣٦٣ : مع اسمه داء .

(٢) في الطبري ٣ / ٣٤٤ قال له خالد ولأصحابه : أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام . فإن أجبتم اليه فأنتم من المسلمين ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

(٣) نسخة كتاب الصلح في الطبري ٣ / ٣٦٤ وانظر الوثائق السياسية ص ٣٧٩ وفتوح البلدان ص ٢٤٥ .

(٤) بانقيا ناحية من نواحي الكوفة على شاطىء الفرات (معجم البلدان) .

(٥) في فتوح الأزدي : ألف درهم وطيلسان .

وفيه أن خالد كان قد بعث قبل جرير ، بشير بن سعد في مائتي رجل فأغاروا عليها وقتلوا فرخزاد بن هرمز ، وقد رمي بشير فجرح وعاد إلى خالد جريحاً فأرسل خالد عندئذ جريراً إليهم .

جرير بذلك . وكتب له كتاب الصلح[1] .

ثم هرب داذويه من هناك إلى يزدجرد وأخبره بالأمر الواقع فتألم يزدجرد غاية الألم .

ثم انطلق خالد من ناحيته واستولى على مدينة عين التمر[2] وسبى كثيراً من الأهالي وأخذ كثيراً من الأموال والمواشي . وكذلك فعل بعدد من الأماكن في العراق وأخرج الخمس من الغنائم وأرسله إلى الصديق ووزع الباقي على أفراد الجيش .

ذكر كيفية الاستيلاء على بلاد الشام في خلافة الصديق رضي الله عنه

لقد تواترت الأخبار من الشام بأن الروم قد شددوا قبضتهم على بلاد الشام وأعلنوا الفساد ، وقد مال الصديق إلى إرسال الجيوش إلى تلك الجهات . لتخليص تلك البلاد من الشر والفساد . واحتفظ برأيه ذاك إلى يوم جمع فيه العشرة البشرة وعدداً من وجهاء الصحابة وخاطبهم قائلاً :

(والنص العربي من « حياة الصحابة » ج ١ مختصر بتصرف من تاريخ ابن عساكر ٤٢٢)[3] .

« إن الله عز وجل لا تحصى نعماؤه ، ولا تبلغ جزاءَها الأعمال فله الحمد ، قد جمع الله كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم ، وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوابه، ولاتتخذوا إلهاًغيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب . وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر ، لأنه من هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على

---

(١) في الطبري ٣ / ٣٦٧ كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، ولعله توثيق وتصديق من خالد لما كتب جرير بن عبد الله لأهل بانقيا وانظر الوثائق السياسية ص ٣٨٢ .

(٢) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة منها يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد ، وهي على طرف البرية (معجم البلدان). وانظر تفاصيل عن فتحها في فتوح البلدان ص ٢٤٨ . والطبري ٣ / ٣٧٦ وابن الأثير ٢ / ٥٧ .

(٣) حياة الصحابة للكاندهلوي ج ١ / ٣٨٣ .

الله ثواب المجاهدين وهذا رأيي الذي رأيته . فليشر امرؤ عليّ برأيه .

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : الحمد لله الذي يخص بالخير من شاء من خلقه ! والله ! ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . قد ، والله ، أردت لقاءك بهذا الرأي الذي رأيت ، فما قضي أن يكون حتى ذكرته ، فقد أصبت ـ أصاب الله بك سبيل الرشاد ـ سرِّب[1] إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابعث الرجال بعد الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فإن الله ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله .

ثم إن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قام فقال : يا خليفة رسول الله ! إنها الروم وبنو الأصفر حدّ مديد[2] وركن شديد ، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً ، ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع إليك ، وإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضروا بهم ، وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوهم ؛ ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر ثم تجمعهم جميعاً إليك ، ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم ، ثم سكت وسكت الناس .

ثم قال لهم أبو بكر : ما ترون ؟

فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم ، فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين[3] .

وبعد ذلك تكلم كل من طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار[4] كلاماً بهذا المعنى[4] . وعلي رضي الله عنه ساكت فقال أبو بكر : ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت عليهم إن شاء الله . فقال : بشرك الله بخير . ومن أين علمت ذلك ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) أي أرسل قطعة قطعة .

(٢) حياة الصحابة : حد حديد .

(٣) أي غير متهم . وفي الكنز : غير ضنين .

(٤ ـ ٤) في حياة الصحابة : صدق عثمان ، ما رأيت من رأي فامضه ، فإنا لا نخالفك ولا نتهمك ، وذكروا هذا وأشباهه .

« لا يـزال هذا الـدين ظاهـراً على كل من نـاوأه ، حتى يقـوم الـدين وأهله ظاهرون » .

فقال : سبحان الله ! ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتني به سرّك الله .

ثم التفت الصديق إلى الصحابة وقال :

« أيها الناس . إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأكرمكم بالجهاد ، وفضلكم بهذا الدين على كل دين ، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشـام ، فإني مؤمـرٌ عليكم أمراء ، وعاقد لكم ألوية . فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

فأجابه خالد بن سعيد وهو أخ لعمرو بن العاص قائلاً :

أنت أميرنا ونحن رعيتك ، فمنك الأمر ومنا الطاعة . فنحن مطيعون لأمـرك وحيثما توجهنا نتوجه . فقال الصديق : جزاك الله خيراً . تهيأ لقيادة هذا الجيش .

فقبل خالد ذلك وقال : إنني مع إخواني وأبناء عمومتي قد وطّنـا العزم على الجهاد في سبيل الله وسنبذل ما في وسعنا لجهاد الكفرة . عسى الله أن يحقق لنا أملنا أو يكون في ذلك انقضاء آجالنا . وإني أشهدك على ذلك وسائر من حضر . وإننا لا نرجو ثناءً من أحد . فأثنى الصديق على موقفه .

(وكان خالد عاملاً لرسول الله على اليمن) فرأى الفـاروق أن حرب الشـام تقتضي قائداً أكفأ منه فقال للصديق : يا خليفة رسول الله ! إن خالداً الذي عينته قائداً لهذا الوجه هو أهل لذلك بلا شك ، ولكن في المسلمين رجالاً هم أجدر بذلك منـه لأن أمر بني الأصفر ليس سهلاً ، فلديك مثلاً أبو عبيدة وهو رجل مجرب وكـذلك معاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان فالأولى أن يتولى القيادة مثل هؤلاء حتى تأتي النتائج على أفضل وجه[1] .

فوافق أبو بكر على اقتراح عمر واستدعى هؤلاءالرجال وقال لهم : يا أبا عبيدة ويا معاذ ويا شرحبيل ويا يزيد : أنتم من حماة هذا الدين وقد فوضت إليكم أمر هذه الجيوش فاجتهدوا في الأمر واثبتوا وكونوا يداً واحدة في مواجهة عدوكم .

---

(١) في فتوح البلدان ص ١٢٨ : كره عمر ـ لما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد ـ ذلك فكلم أبا بكر في عزله ، وقال : إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب ، فعزله أبو بكر . وانظر الطبري ٣ / ٣٨٧ وابن سعد ٤ / ٩٧ والكامل لابن الأثير ٢ / ٦٣ . البداية والنهاية ٧ / ٥ . اليعقوبي ٢ / ١٣٣ .

ثم قال عمر : يا خليفة رسول الله . أرى أن عدد هذا الجيش أقل من أن يواجه الروم فاكتب إلى أهل اليمن ترغبهم في امدادهم . فوافق الصديق على ذلك وكتب إلى أهل اليمن يدعوهم إلى المشاركة في حرب الروم(١) .

وحين وصلت الرسالة فأجابوا دعوته وأسرع أربعة آلاف فارس بقيادة قيس بن هبيرة المرادي نحو المدينة . فأثنى أبو بكر عليهم . ثم اتجه الجميع نحو مقصدهم وقد شيعهم أبو بكر راجلاً مسافة خارج المدينة . فقال له يزيد : يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن نترجل . فقال أبو بكر : إنني ما سرت إلا ابتغاء مرضاة الله واستمر كذلك حتى ثنية الوداع ثم قال ليزيد : يا يزيد اجتهد ما استطعت ، وإياك والجزع ، واعلم بأنك ذاهب إلى أرض العدو فيها كثير ، والنعم وافرة ، فلا تغفلنّ عن ذكر الله بأي حال . ولتكن معه بقلبك . إياكم وقتل النساء والأطفال ولا تقلعوا نخلاً ولا شجرة وحاذر من قتل الشيوخ والأطفال . ولا تقتل أحداً بدون علة . ولا تخربوا عامراً . كي ينصركم الله . الذي هو على كل شيء قدير(٢) .

ثم رفع أبو بكر يديه بالدعاء وتوجه للقبلة وقال(٣) : يا رب لقد خلقتنا من العدم وأبلغت إلينا رسالتك على لسان رسولك محمد ﷺ حتى تفقهنا في هذا الدين ، وقد رغَّبنا بالجنة ، وحذَّرنا من النار ، وقد هدانا بعد الضلالة فصرنا مؤمنين بعدما كنا غارقين في الكفر . ففضلك علينا عظيم جداً ، كنا مفترقين فاجتمعنا بلطفك ، وقد أمرتنا بإظهار دينك وإعلاء كلمتك حتى يدخل الناس في هذا الدين ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون . والآن ها نحن في سبيلك سائرون، ولرضاك طالبين، نجاهد من لا يعرفك ، أو يشرك بك يا إلهي كن للمؤمنين بك عوناً وسنداً ، واهلكْ عدونا . واجعل أمة محمد جريئة عليهم وثبت أقدام المترددين منا ، وزلزل الأرض تحت أقدام عدوّنا ، وألقِ الرعب في قلوبهم ، وارزقنا أرضهم وديارهم يا إلهي يا قادر ويا رحمن .

---

(١) نسخة الكتاب في فتوح الأزدي ص ٨ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٠٢ / ألف ص ٣٩٦ . وأرسل الكتاب مع أنس بن مالك (الأزدي ص ٩) .

(٢) انظر وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان فتوح الأزدي ص ١٢ وفتوح الشام للواقدي ١/٧ ـ ٨ والكامل لابن الأثير ٢ / ٦٤ ـ ٦٥ .

(٣) في فتوح الأزدي ص ١٣ : كان أبو بكر ـ رحمة الله عليه ـ يدعو في كل يوم غدوة وعشية في دبر صلاة الغداة وبعد العصر يقول : وفيه نسخة الدعاء باختلاف في الألفاظ والتعابير .

ثم أمر (القادة) بمراعاة أحوال الجنود وتقديم الاخلاص والاتحاد ثم استودعهم الله . وانطلقوا إلى وجهتهم لغزو الروم في بلاد الشام .

ثم وصل الخبر إلى هرقل ملك الروم وقد كان في فلسطين . فأقسم مع نسائه وأولاده على مقتضى دينه ومذهبه بأن يثبتوا في قتال المسلمين ، وأنه ما دام يوجد منهم رجل واحد على قيد الحياة فلن يرجعوا ولن يعودوا حتى يفتحوا فلسطين .

ثم استدعى هرقل قادة جيشه وشرح لهم كيفية وصول جيش العرب وقال عنهم : إنهم يملكون فكرة هائلة ، ويدّعون أن نبيهم أخبرهم بالنصر على هذه البلاد ، وهم بناء لذلك جاؤوا إلينا وليس لديهم شك في بشارة نبيهم](1) . ودينه هدى وفعاله تقى ، فلمّا غيّرتم وبدّلتم لجمع فيكم قوم ما كنا نعتد بهم ولا نخاف أن نبتلي بهم ، والآن فقد ساروا إليكم حفاة عراة جياعاً نياعاً قد أطرهم(2) إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض وسوء الحال ، وقد جاؤوكم وهم يزعمون أن نبيّهم الذي كان لهم خبّرهم بأنهم ظاهرون على بلادكم وأهلها وقد أتوكم بنسائهم وأولادهم ، وهم لا يشكّون في الذي قال لهم نبيّهم أنه سيكون ، فخذوا الآن أهبتكم وأعدّوا لهم عدّتكم وسيروا إليهم وقاتلوهم عن دينكم وبلادكم ونسائكم وأولادكم ، ألا ! وإني شاخص عنكم وأنا ممدّكم بالخيل والرجال ومؤمر عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا ؛ قال : ثم بعث هرقل بكتابه إلى دمشق وحمص وأنطاكية وحلب وجميع بلاد الشام فحذّرهم مسير العرب إلى ما قبلهم ، ثم جمعهم وحشر منهم خلقاً كثيراً .

قال : وسار أبو عبيدة بن الجراح بالمسلمين من المدينة حتى صار إلى وادي القرى(3) فنزل هنالك حتى اجتمع إليه الناس ، ثم سار من وادي القرى فأخذ على الأقرع من بلاد الحجر ، وهي بلاد صالح النبي ﷺ ثم أخذ على ذات المنار(4) على الأخضر ، ثم الجنينة ، ثم على تبوك ثم دخل أرض الشام(5) ؛ وبلغ ذلك

(1) إلى هنا ينتهي النص الذي أخذ عن الترجمة الفارسية .

(2) كذا .

(3) وادي القرى : واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى (معجم البلدان) .

(4) عن فتوح الأزدي ص ٢٩ وبالأصل « ذات المشتاه » وذات المنار : موضع في أول أرض الشام من جهة الحجاز (معجم البلدان وزيد فيه : نزله أبو عبيدة في مسيره إلى الشام) .

(5) في فتوح الأزدي : ... وعلى ذات المنار ثم على زيزا ، ثم سار على مآب بعمان فخرج إليه =

هرقك ملك الروم ، فسار ملك الروم من فلسطين في خيله ورجله حتى صار إلى أنطاكية فنزلها .

وبلغ ذلك أبا عبيدة بن الجراح فكتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أبي بكر ، خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) من عامر بن الجراح [سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ،] أما بعد فإني أسأل الله عز وجل أن يعزّ الإسلام وأهله عزّاً كثيراً(٢) ، وأن يفتح للمسلمين فتحاً مبيناً(٣) ، وإني أخبر الخليفة أن هرقل ملك الروم قد تنحّى من بين أيدينا ونزل مدينة يقال لها أنطاكية وقد بعث إلى أهل مملكته ، فحشرهم إلى ما قبله وقد اجتمع إليه منهم خلق كثير على الصعب والذلول(٤) وهم يزيدون على ثمانين ألفاً سوى ما في سائر المدائن بالشام من الخيل والجنود ، وقد أحببت أن أعلمك لترى فيه رأيك ـ والسلام [عليك ورحمة الله وبركاته] .

قال : فلما قرأ أبو بكر رضي الله عنه كتاب أبي عبيدة بن الجراح كتب إليه(٥) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله ﷺ إلى أبي عبيدة بن الجراح ، أما بعد فقد أتاني كتابك فقرأته وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم ونزوله بأنطاكية ، فأما نزوله بها فإن ذلك هزيمة له ولأصحابه ، وفتح من الله عزّ وجلّ عليك وعلى المسلمين إن شاء الله عزّ وجلّ ، وأما حشره إليه الجنود من أهل مملكته ، وجمعه لهم ولكم الجموع فإنّ ذلك ما كنّا نعلم وتعلمون أنّه سيكون ذلك منهم ، وقد علمت يا أبا عبيدة أنه ما كان قوم ليتركوا ملكهم وسلطانهم بغير قتال ، ومعك بحمد الله رجال يحبّون الموت كحبّ الحياة ويحتسبون في حبّهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم ، والقهم بهم ولا تستوحش لقلة من معك من

= الروم . . . . وصالحهم أهل مآب . . . ثم سار أبو عبيدة حتى إذا دنا من الجابية . .
وكان صلح مآب (باب من البلقاء في الكامل لابن الأثير) (الصواب مؤاب) هو أول صلح في الشام .

(١) فتوح الأزدي ص ٣٠ الوثائق السياسية ص ٤٠٠ باختلاف بعض الألفاظ وفيه زيادة . وما أثبت بين معكوفتين زيادة عن الأزدي .

(٢) عند الأزدي : متيناً .

(٣) الأزدي : يسيراً .

(٤) الذلول : المراد الخيل بأنواعها ، ما يصعب قياده منها وما سهل .

(٥) الأزدي ص ٣٠ ـ ٣١ الوثائق السياسية ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ . باختلاف .

أصحابك ، فقد علمت أن رجلاً واحداً من المسلمين أكثر من ألف رجل من المشركين ، فباشرهم بنفسك ، والقهم بجندك فإنّ الله عزّ وجلّ معك فثق به فإنه منجز وعده وناصر عبده ، وأنا مع ذلك ممدّك بالخيل بعد الخيل والجنود بعد الجنود حتى تكتفي إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والسلام[1] .

فلمّا أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يوجّه بالكتاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أقبل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إنك قد كتبت إلى أبي عبيدة بهذا الكتاب وعلمت أن معاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان هؤلاء الثلاثة هم أمراؤك فاكتب إليهم بما كتبت إلى أبي عبيدة وشجعهم على اللقاء لعدوّهم كي لا يجدون في أنفسهم ؛ فكتب إليهم أبو بكر رضي الله عنه نسخة واحدة[2] : أما بعد فقد بلغني جمع الروم بأنطاكية وكثرتهم واحتشادهم بها ، وما قد أزمعوا عليه من أمورهم ، وقد علمتم أنا كنا مع رسول الله ﷺ فكان الله تبارك وتعالى ينصرنا ويمدّنا بالملائكة الكرام الأبرار ، وإن ذلك الدين الذي ندعو إليه الناس ونقاتلهم عليه هو هذا الدين ، فوربكم لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين ، ولمن[3] شهد بشهادة الحق كمن يعبد الصلبان ويكفر بالرحمن ، وقد كتبت إلى أبي عبيدة بن الجراح بنظير هذا الكتاب ، فانظروا إن قضى الله عزّ وجل لكم مع الروم حروباً فالقوهم بقلوب شديدة ، وآراء عتيدة فإنّ الله عزّ وجلّ معكم ، ولن يخذلكم وقد خبركم في كتابه إنّ الفئة القليلة من أوليائه تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه ، فثقوا بالله وارضوا به ، وأنا مع ذلك ممدّكم بخيل ورجال حتى تكتفوا ولا قوة إلا بالله[4] .

قال : ثم وجه أبو بكر رضي الله عنه بهذه الكتب الثلاثة إلى أمراء الأجناد شرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان .

قال : ثم دعا أبو بكر بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو ابن أخي سعد بن أبي

---

(١) في فتوح الأزدي ص ٣١ بعث بهذا الكتاب مع دارم العبسي .

(٢) في فتوح الأزدي أن هذا الكتاب بعثه أبو بكر إلى يزيد بن أبي سفيان جواباً على كتاب يزيد إليه (نسخته في الفتوح للإزدي ص ٣١ والوثائق السياسية ص ٤٠١) . ونسخة كتاب أبي بكر هذه في فتوح الأزدي ٣١ ـ ٣٢ والوثائق السياسية ص ٤٠٢ باختلاف وزيادة .

(٣) عند الأزدي : ولا من يشهد أن لا إله إلا الله كمن يعبد معه آلهة آخرين . ويدين بعبادة آلهة شتى .

(٤) بعثه مع عبد الله بن قرط الثمالي (الأزدي) .

وقاص فقال : يا هاشم ! إن من سعادة جدك ، ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوّها ، وممن يثق الوالي بوفائه وصدقه ونصحه وبأسه وشجاعته ، وقد بعث أبو عبيدة بن الجراح والمسلمون يخبرونني باجتماع الكفّار عليهم ، فاخرج فعسكر حتى أندب إليك الناس إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ قال هاشم بن عتبة : أفعل ذلك إن شاء الله ولا أعصي لك أمراً .

قال : فعندها قام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيباً ؛ فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ، ثم قال[1] :

أيها الناس ! إن إخوانكم من المسلمين الذين أغزيناهم إلى الشام إلى جهاد عدوّهم معافون ، مدفوع عنهم ، مصنوع لهم ، قد ألقى الله الرعب في قلوب أعدائهم وقد جاءني كتاب أبي عبيدة يخبرني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم ، ونزوله مدينة أنطاكية ، وقد اجتمع عليه خلق كثير من النصرانية ؛ وقد رأيت أن أمدّ إخوانكم بجند منكم فيشدّ الله عزّ وجلّ بكم ظهورهم ، ويكبت بكم أعداءهم ، ويلقي الرعب في قلوبهم ، فانتدبوا ، رحمكم الله ، مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، واحتسبوا في ذلك الأجر العظيم ، فإنكم إن قاتلتم ونصرتم فهو الفلح[2] والغنيمة وإن هلكتم فهو الشهادة والسعادة .

قال : فانتدب لأبي بكر خلق كثير من همدان وأسلم وغفار ومزينة ومراد والأزد وجميع القبائل[3]، وفيمن انتدب إليه يومئذ رجل من الأزد يقال له الهلقام بن الحارث بن معمر بن النضر بن خليد التكي[4] وكان يعدّ بألف فارس ، وله قصة عجيبة من قبل إسلامه ، ذكر أنه كان بدء أمر الهلقام بن الحارث أن العرب في الزمن الأول كانت يغير بعضها على بعض ويقتل بعضها بعضاً .

ذكر الهلقام بن الحارث وما كان من أمره قبل إسلامه رواه بعض العلماء عن آخر

قال : ولم يكن في ذلك العصر في قيس غيلان خاصة أفرس من هؤلاء الثلاثة

---

(١) خطبته في فتوح الأزدي ص ٣٤ . قارن هناك .

(٢) عند الأزدي : الفتح .

(٣) كانت عدتهم ألف رجل (فتوح الأزدي) .

(٤) كذا .

عامر بن الطفيل العامري ، وعنترة بن شداد العبسي ، والعباس بن مرداس السلمي ؛ وكانوا مولعين بالغارة على أحياء العرب .

قال : فاجتمعوا على ذلك ثمّ إنّهم خرجوا وخرج معهم ألف رجل من أخيار قيس وشجعانهم فلم يزالوا يسيرون ، فلم يأتوا على حيّ من أحياء العرب إلا أبادوهم ، وأوجعوهم بالأسر والقتل يذلّون العرب ما يفلت منهم أحد إلا مأسوراً أو مقتولاً أو مفلولاً أو مغلوباً . قال : فجمعوا من الغنائم ما لم يجمعه أحد في عمره ، ثم إنهم أتوا أجمعين يريدون بلادهم فجعلوا يفتخرون بما صنعوا بالناس ، ويقولون في ذلك الأشعار ويذكرون جلادتهم ، وصبرهم في الحرب ، وقتلهم الأبطال ، وأخذهم الأموال . قال : فأوّل من تكلم منهم وفخر بقومه عامر بن الطفيل العامري ، قال : ثم تكلم العباس بن مرداس السلمي ، قال : ثم تكلم عنترة بن شداد وفخر بقومه .

قال : فلم يزالوا سائرين بالغنائم والأموال حتى نزلوا وادياً قريباً من أرض اليمن يقال له « السَّلِيّ »(١) فلمّا استقرّ بهم الموضع نظروا فإذا هم بخيمة قد لاحت لهم قريبة منهم ، فأرسلوا ثلاثة نفر من أصحابهم لينظروا ما هي ومن فيها ، فأقبل ثلاثة نفر إلى الخيمة فإذا هم بعجوز قاعدة فكلموها فلم تكلمهم ، فقال أحد الثلاثة لصاحبه : انزل عن فرسك فانظر من في هذه الخيمة ، فنزل ومشى نحو باب الخيمة ، فصاحت به العجوز : وراءك ! فلم يفعل حتى صار إذاً قريباً من باب الخيمة فوثبت إليه العجوز فضربت بيدها إلى جنبه ثم رفعته فضربت به الأرض فإذا هو ميّت ، فنزل الثاني ومضى إلى صاحبه فنظر إليه ميتاً فلم يرجع لكنه مشى نحو الخيمة ، فصاحت به العجوز : وراءك قليلاً لا ألحقك بصاحبك ، فلم يفعل ودنا من باب الخيمة فرفعت العجوز يدها ووكزت في صدره وكزة فإذا هو قد خرّ ميتاً ، فلما رأى الثالث انصرف إلى أصحابه فخبرهم بذلك .

قال : فركب عامر بن الطفيل والعباس بن مرداس وعنترة بن شداد في قريب من مائة فارس من أبطال قومهم وخلفوا الباقين من أصحابهم عند الغنائم والأمتعة ، فلمّا نظرت العجوز إلى هؤلاء المائة قد أقبلوا صاحت وقالت في صيحتها : يا هلقام !

---

(١) السلي : بتشديد اللام والياء موضع في بلاد عامر . والسلي : بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد يائه بين اليمامة وهجر .

الحزم ، الحزم ، قال : فاقشعرّ القوم من صيحة العجوز وإذا بجارية قد أطلعت رأسها من الخيمة كأنها القمر في ليلة البدر حسناً وجمالاً فقالت : يا هؤلاء ! انصرفوا من حيث جئتم من قبل أن يأتيكم الليث الهصور ؛ قال : فضحك عامر من تهديدها إياهم ثم أقبل على العباس بن مرداس فقال : ويحك يا عباس ! ما أظن العرب والعجم ولدت مثل هذه الجارية فانزل إلى هذه الجارية فإما تقتل وإما نعينك ، فقال العباس : وإن قلت هذا وافتخرت فأنت قد قلت وهذا عنترة أيضاً قد قال ، وهذا وقت يختبر فيه الأبطال فانزل يا عامر ويا عنترة وأنا معكما .

قال : فبينما هم كذلك في المحاورة وإذا هم بغلام أمرد قد طلع عليهم من شعب في ذلك الوادي كأنه الشمس الطالعة بهاء وجمالاً وحسناً على فرس له أدهم أغر محجل وفي يده رمح يجرّه من طوله وفي رأس الرمح سنان كأنه شعلة نار ، وللغلام ذؤابة قد سقطت على عجز الفرس وعليه قميص وإزار ومعه ثلاثة عبيد له سود يمشون بين يديه ، فلما نظر إلى الخيل قد أحدقت بباب الخيمة جعل يزئر كالليث المغضب عند فريسته وهو في ذلك .

قال : ثم دنا من القوم فقال : ما بغيتكم ؟ فلا واللات والعزّى ما عندي إلا شويهات يسيرة وعشرة من الإبل وثلاثة أفراس وسلاحي وعبيدي هؤلاء وأمي وأختي وأهلي هي بنت عمي ! فانصرفوا عني ولا تهيجوني ، فإن كنتم قد حدثتكم أنفسكم وظننتم أنكم تأخذون مني شيئاً فبئس ما ظننتم ، فقال عامر بن الطفيل : من أنت يا غلام ؟ قال الغلام : أنا الهلقام بن الحارث بن معمر بن النضر بن خليد الأزدي أحد بني العتيك بن الأزد وابن عمي سبرة بن قرة فارس العنقاء الذي أغار على أحياء العرب فأسر ثم أطلقهم بعد ذلك عن مقدرة ؛ فقال عامر بن الطفيل : فكيف اخترت هذا الوادي فنزلته منقطعاً عن الناس ؟ فقال : إني جنيت في قومي جناية ، قتلت منهم فرحلت عنهم بأختي وأمي وأهلي ومالي حتى نزلت هذا الوادي فقلت : أكون فيه مقيماً إلى أن ترضى بنو عمي فيصفحون عن دم قتيلهم ثم أعود إليهم ، ولكن خبروني من أنتم ؟ فقال له : أنا عامر بن الطفيل العامري ، وهذا عنترة بن شداد العبسي ، وهذا العباس بن مرداس السلمي ومع كل واحد منا وجوه قومه وأشراف عشيرته . قال : فتبسم الغلام ضاحكاً ثم قال : والله ! ما كنت بالذي أبالي بكم ولو كان معكم ابن عمي عمرو بن معدي كرب الزبيدي فإنه أشد منكم جأشاً ، وأجرأ منكم جناناً ، وأشجع منكم قلباً ، ولقد أقررتم له بذلك عند النعمان بن المنذر وخضعتم له

صاغرين ؛ فقال له عامر بن الطفيل : وما علمك أنا أقرنا له ؟ فقال : علمني شعرك حين فضلته على نفسك ؛ قال : ثم أقبل الغلام على العباس بن مرداس السلمي فقال له : يا عباس ! ألست القائل يوم فضلت عمراً على نفسك ، قال : ثم أقبل الغلام على عنترة بن شداد وقال له : وأما أنت يا عنترة فإنك لم تشهد ذلك المشهد والكذب عار على الأحرار ؛ قال : فقال له عامر بن الطفيل : حسبك يا غلام من كثرة القول ، أما ما ذكرت من تفضيلنا عمراً على أنفسنا فلعمري لقد كان ذلك في وقت من الأوقات ولم نجد بداً من تفضيله ، ولكن ما أنت وعمرو ولست كعمرو ولا دون عمرو وإنما أنت صبي من الصبيان فخل عن أختك وأهلك وانج بنفسك وخدمك وأمك وسائر أموالك ، فقال الغلام : أيجوز هذا يا عامر أن أخلي عن أختي وأهلي وقد أوصاني ....[1] بحفظ الجار ، وطلب الثأر ، ونفي العار ، ومنع الدمار ، لسنا واللات والعزّى كأولاد قيس غيلان ، إنما نحن ولد قحطان ، أصحاب الضراب والطعان ، ملوك الشرق والغرب ، وأحلاس[2] الوخز والضرب ، ما أنتم عندي إلا كما قال سيدكم عمرو بن معدي كرب حيث يقول ـ شعر :

والله ما لبني غيلان مكرمة فرع قديم ولا أس بتأسيسِ

قال : فغضب عامر بن الطفيل من قوله غضباً شديداً وهمّ أن يحمل عليه ثم خشي أن يغلبه الغلام فتكون فضيحة ومسبة عليه ، فأقبل على أصحابه وقال لرجل يقال له « ضمضم » : يا ضمضم ! اخرج إلى هذا الغلام فاكفنا أمره ، فخرج ضمضم نحو الهلقام وهو يرتجز ، فبدر إليه الهلقام بن الحارث وهو يرتجز ، فالتقيا بطعنتين طعنه الهلقام طعنة أرداه عن فرسه قتيلاً .

قال : فاغتم القوم بقتل ضمضم بن عاصم العامري غمّاً شديداً ، فأقبل عنترة بن شداد على رجل من بني عبس يقال له « عمرو بن دعامة » فقال : ويحك يا عمرو ! اخرج الى هذا الكلب فاكفنا أمره ، فخرج عمرو بن دعامة نحو الهلقام وهو يرتجز ، قال : فبدر إليه الهلقام بن الحارث ، قال : والتقيا بطعنتين طعنه الهلقام طعنة فقتله ، ثم جال جولة ووقف .

---

(١) كذا . بياض بالأصل .

(٢) أحلاس : جمع حلس ، هو الملازم لا يبرح القتال . يقال : فلان من أحلاس الخيل أي هو في الفروسية ولزوم ظهر الخيل كالحلس اللازم لظهر الفرس . (اللسان) .

قال : فلمّا نظر العباس بن مرداس السلمي إلى هذا الغلام وقد قتل رجلاً من بني عامر ، ورجلاً من بني عبس أقبل على رجل من فرسان بني سليم يقال له « حرشل بن زياد » فقال له : ويحك يا حرشل ! واللات والعزى إني لأعلم أنه ما يقوم لهذا الغلام أحد سواك فإن رأيت أن تشفي صدور بني عمك منه فعلت منعماً ! قال : فخرج حرشل بن زياد السلمي نحو الهلقام بن الحارث وفي يده حربة له كالشهاب فجعل يلعب بها ويقلبها وتحته فرس له أشقر وهو يرتجز ، قال : فبدر إليه الهلقام بن الحارث وهو يرتجز ، قال : والتقيا بطعنتين طعنه الهلقام [طعنة] قتله ؛ ثم وقف في ميدان الحرب ثم دعاهم إلى البراز ، فلم يزل يُخرج إليه رجلاً بعد رجل حتى قتل منهم بضعة عشر رجلاً .

قال : وامتلأ القوم غيظاً وغضباً وندموا على مجيئهم إليه ، وخشوا العار أن ينصرفوا عنه وهم فرسان وسادات من سادات العرب ، ثم إنهم همّوا بالحملة عليه ؛ قال : وأحس الغلام بذلك فقال : يا معشر العرب ! أما تستحون من هذا الذي أزمعتم عليه ؟ إن كنتم تريدون ذلك فارقبوا عليّ قليلاً حتى أفرغ عليّ سلاحي ؛ فقال له عامر بن الطفيل : قد فعلنا ذلك فأته إلى ما تريد ؛ قال : فقنع الغلام فرسه ومضى مولياً نحو باب الخيمة فصاح وقال : يا أمه ! هلمّي سلاحي ، ثم نزل عن فرسه والقوم قد أمهلوه وينظرون إليه فخرجت إليه بالدرع فأفرغته عليه وناولته ابنة عمه السيف وأعطته أخته عمامته فاعتجر بها ، ثم تناول رمحه واستوى على فرسه كالبرق الخاطف ، ثم أقبل نحو القوم ؛ قال : ثم إنه حمل عليهم ففرق جمعهم وجعل يكرّ عليهم ويكرّون عليه حتى أثخنوه بالجراحات ، ثم حمل عليه عامر بن الطفيل والتقيا بطعنتين طعنه الهلقام طعنة نكسه عن فرسه ، وحمل عليه عنترة بن شدّاد ليطعنه فكبا بعنترة فرسه فإذا هو في الأرض ، فانهزم الباقون من بين يديه وفيهم العباس بن مرداس السلمِي .

قال : وصاح الهلقام بغلمانه فأقبلوا إليه يحصرون فقال : دونكم هذين الكلبين فاكتفوهما ، قال : فكتف عامر بن الطفيل وعنترة بن شداد .

قال : ومرّ الهلقام في طلب القوم فإذا هم يسوقون الغنائم سوقاً عنيفاً ، فلما نظروا إليه قد وافاهم رجعوا عنها ، فجاولوه وجاولهم وطاعنوه وطاعنهم وجرحوه وجرحهم ، ثم قال : واللّاتِ والعزّى وحقّ أنصار اليمن لا رجعت عنكم دون أن أقتل أو أبيدكم أو تدفعون إليّ العبّاس بن مرداس أسيراً ! وإذا فعلتم ذلك رجعت عنكم ،

وإلا فهذا دأبي ودأبكم أبداً فكونوا من ذلك على يقين . قال : فبادر القوم إلى العباس بن مرداس فأحاطوا به من كلّ جانب حتى نكسوه عن فرسه ثم كتفوه ودفعوه إليه ومضى القوم على وجوههم .

وأقبل الهلقام بالعباس إلى موضع الوقعة وغلمانه وقوف على عامر بن الطفيل وعنترة بن شداد ، فقال لغلمانه : اجمعوا عليّ ما قدرتم عليه من غنائم هؤلاء القوم ، فجمع غلمانه شيئاً مما تخلف عن القوم ، فجعل الهلقام يسوق الغنائم بين يديه وهؤلاء الثلاثة يساقون مع الغنائم نحو باب الخيمة والهلقام من ورائهم وقد رفع صوته ثم نزل عن فرسه على باب الخيمة ، فخرجت إليه بنت عمه فجعلت تمسح وجهه بردائها ، وخرجت إليه أخته فأخذت عنه سلاحه ، وتقدّمت إليه أمه فقبّلت بين عينيه ، ثمّ إنها حطت عن الفرس السرج واللجام وأقامتها على مذودها(١) .

قال : وقعد الهلقام ثم دعا بالطعام فأكل ، فلمّا فرغ من طعامه أمر فقرب إلى هؤلاء الثلاثة المائدة بعد أن أطلقهم من كتافهم فأكلوا ، فلمّا فرغوا من طعامهم أمر بهم فأعيدوا في كتافهم ، ثم رفع صوته .

قال : فمكث هؤلاء القوم في يده شهراً كاملاً ونحو ذلك لا يكلمهم ولا يسألهم عن شيء غير أنه يجري عليهم من الطعام ما يقوتهم ، والقوم يمنعهم الحياء أن يسألوه التخلية عنهم بما كانوا ارتكبوا منه وتعرضوا لحرمته وبغوا عليه .

فلما كان بعد شهر اتصل الخبر ببني عمه فسرّهم ما كان منه ، ثم إنهم صفحوا عنه وعن دم قتيلهم ، وسألوه أن يصير إليهم ، فتهيأ لذلك وهيّأ الرواحل لأمه وأخته وامرأته وغلمانه ، ثم أمر أن تهيأ ثلاثة رواحل لهؤلاء الثلاثة ليحملهم إلى قومه ؛ فشقّ ذلك عليهم وجعل عامر بن الطفيل يقول لعنترة وللعباس بن مرداس : ويحكما إنه متى حملنا هذا الغلام إلى قومه فذاك هو العار الذي لا يغسل عنا أبداً ولكن ذروني أتكلم بما أريد فأسأله الصفح فلعله أن يفعل ، فقالا له : شأنك يا عامر ؛ فخرج إليه عامر بن الطفيل والفتى قاعد على باب الخيمة فحيّاه بتحية الجاهلية ثم قال له : يا سيد الفتيان كلها قاطبة غير مدافع أتأذن لأسيرك في الكلام ؟ فقال له الهلقام : تكلم ما أحببت ، فأنشأ عامر بن الطفيل يقول أبياتاً من جملتها :

---

(١) مذود الدابة : معلفها . ومذود الثور : قرنه (اللسان) .

فـامنن عـليـه يـابن نـضـر الخيـر بـالـعفـو والـرضـاء والـتيسيـر
خـلّ سبيـل الحـامـد الشكـور

قال الهلقام : إني قد فعلت يا غلام ! خل سبيله واردد عليه فرسه وسلاحه ؛ قال : فأنشأ عنترة بن شداد يقول أبياتاً ، من جملتها :

جـاء عـلى أجـرد أعـوجـي مثـل هـزبـر غـالب خيسـيّ
قـد طـال حبس الجـائـر الشقي خـلّ سبيـل الشـاكـر الـوفي

فقال الهلقام : قد فعلت يا غلام ! حلّ كتافه واردد عليه فرسه وسلاحه ، قال : فأطلق الغلام سبيله وردّ عليه فرسه وسلاحه ؛ قال : ثم أنشأ العباس بن مرداس أبياتاً من جملتها :

والضرب عند الحرب بالصمصام قد طال حبس . . . . .[1] المجرام
فـامنن عليّ واغتفـر اجـرامي

فقـال الهلقام : قـد فعلت ، يـا غـلام فحـلّ عنـه كتافـه واردد عليه فـرسـه وسلاحه .

قال : فأطلق سبيلهم وردّ عليهم أسلحتهم وأفراسهم ، ثم دعاهم وأجلسهم بين يديه ، ثم قال : اعلموا أني لست كأنتم من الناس ، ولا أقاسُ بأمثالكم في الشدّة والنجدة والشجاعة والبأس ، ولكنّي إنما نصرت عليكم لأنكم وافيتموني في الشهر الحرام فتعرضتم لحرمتي ، وأردتم هتكي وفضيحتي فنصرت عليكم للذي كان من بغيكم في الشهر الحرام ، ولعمري بي لفعلتم غير أني لم أحب أن تتحدث العرب بذلك ويقول بعضها لبعض : إن الهلقام لئيم الظفر ، وهذه غنائمكم خذوها إليكم وانصرفوا إلى قومكم ولا تحدّثوا أحداً بالذي كان منكم لأني لا أحدث أحداً مع أني أعلم أنه حديث لا ينكتم .

فانصرف القوم إلى بلادهم وانصرف الهلقام إلى بلاده وقومه وبني عمّه من الأزد وشاع خبره وخبر هؤلاء القوم في قبائل العرب فتحدّثوا به ودار في أفواه أهل الأدب . فأما عنترة بن شداد العبسي مات ولم يدرك الإسلام ؛ وأما العباس بن مرداس فإنه

---

(١) بياض بالأصل .

رزق الإسلام[1] وكان مع النبي ﷺ وغزا في عشرين غزوة ، وقاتل في يوم حنين قتالاً شديداً إلى أن مضى لسبيله ؛ وأما عامر بن الطفيل فإنه أدرك الإسلام ولم يسلم[2] ؛ وأما هذا الفتى الهلقام فإنه لم يزل في ديار قومه ثم أسلم وبطىء عن القدوم على رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) حتّى مضى لسبيله ، ثم كانت الردة فلم يشهد شيئاً منها ، ثم قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في وفد اليمن ، فلمّا ندب أبو بكر الناس إلى حرب الروم كان هذا هلقام ممن انتدب مع سبعين رجلاً من قومه وبني عمّه فصار في جيش هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

ثم رجعنا إلى الخبر الأول ، فلمّا نظر أبو بكر رضي الله عنه إلى كثرة من أجابه من المسلمين قال : الحمد لله على صنعه لهذه الأمة فإنه ما زال يرتاح لهم مدد من أنفسهم يشدّ الله به ظهورهم ويقصم به عدوّهم .

قال : وجعل الناس يجتمعون إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حتى صار في قريب من ثلاثة[3] آلاف ، فلمّا همّ بالمسير أقبل عليه عمّه سعد بن أبي وقاص فقال له : يابن أخي ! إنك خارج في هذا الجيش ، ومعك سادات العرب فإياك والاستطالة على أحد منهم فلست أفضل من غيرك إلا بالتقى . وانظر إذا لقيت عدوّك فلا تضربنّ ضربة ولا تطعننّ طعنة ولا ترمين بسهم إلا وأنت تريد بذلك وجه الله عزّ وجلّ فإنّك خارج من الدنيا وشكاً[4] وراجع إلى دار الآخرة ولدار الآخرة خير للمتّقين ، فلم يصحبك من هذه الدنيا إلا قدم صدق قدمته ، يابن أخي ، وعمل صالح قدمته[5] والسلام . قال هاشم بن عتبة : يا عمّ ! إن تعدّيتُ وصيتك فإنّي إذاً لمن الخاسرين ، أتراني يا عمّ ارتحالي إلى عدوّي ورواحي وبكوري وسعيي[6] وجلادي وضربي بسيفي وطعني برمحي رياء للناس ! كلا يا عمّ ! لا تظنّ بي هذا .

قال : فودّعه عمّه وأقبل إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليودّعه فأوصاه وعهد

---

(١) أسلم قبل فتح مكة بيسير ، وهو من المؤلفة قلوبهم . (أسد الغابة ٣ / ١١٢) .

(٢) أسد الغابة ٣ / ٨٤ .

(٣) في فتوح الأزدي ص ٣٤ : « ألف » .

(٤) عند الأزدي : رشيداً .

(٥) الأزدي : أسلفته .

(٦) الأزدي : وسيفي .

إليه ثم قال[1] : يا هاشم ! إنّا كنّا فيما مضى ننتفع من الشيخ الكبير بمشورته ورأيه وحسن تدبيره وننتفع من الشابّ الحدث ببأسه وصبره وبنجدته ، وقد جمع الله لك هذه الخصال كلّها ، فأنت بحمد الله حدث السن شجاع القلب مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوّك غداً فاصبر وصابر ، واعلم بأنك لم تخط خطوة ولم تنفق نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا تقطع وادياً ، ولا يصيبك مخمصة في سبيل الله إلا كتب لك بها عمل صالح ! إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

فقال هاشم : إن يرد الله بي خيراً يجعلني كذلك ، وبعد يا خليفة رسول الله ! فإني[2] أرجو أن أقبل ، فقال أبو بكر : وفّقك الله للخير ، يا هاشم ! إنك سائر إلى أبي عبيدة بن الجراح وقد صحبك رجل من المعدودين في الجاهلية بالشجاعة والنجدة يقال له هلقام بن الحارث الأزدي ، وأنا أوصيك به خيراً فإنّه رجل يعدّ بألف فارس غير مدافع فلا تشكه في نفسك وأَلِنْ له جانبك واخفض له جناحك ، وقد صحبك أيضاً رجل عظيم الشرف ذو بأس ونجدة وشدة وشجاعة وهو قيس بن هبيرة[3] فأحسن صحبته في طريقك ما استطعت ، وإذا قدمت إلى أبي عبيدة فأقرئه مني السلام ومره أن يدنيه ويلطّف به ويستعين برأيه فإنّه رجل لا يملأ قلبه شيء ؛ فقال هاشم بن عتبة : أفعل ذلك إن شاء الله عزّ وجلّ ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم .

قال : ثم أقبل أبو بكر رضي الله عنه على قيس بن هبيرة فقال له : يا قيس ! إنّك خارج مع هاشم بن عتبة وقد أوصيته بك وقد أمرته أن يأمر أبا عبيدة بالوصاة بك وإلاّ بمشورتك فإذا قدمت إن شاء الله فلا تعصين له أمراً فإنّه لا يأمرك إلا بخير ، وهو الأمير الذي إن ظلم لم يظلم وإن أسيء إليه غفر وإن قطع وصل ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، وقد بلغني عنك أنّك فارس مجرب وقد كان ذلك عنك في زمن الجاهلية ، وليس في ذلك إلا الإثم والقطيعة للرحم ، فاجعل بأسك اليوم في الإسلام[4] على من كفر بالله وعبد غيره ، وقد جعل الله عزّ وجلّ في الجهاد الأجر العظيم .

---

(١) فتوح الشام للأزدي ص ٣٤ .

(٢) في فتوح الأزدي : وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل ، ثم اقتل إن شاء الله .

(٣) في فتوح الأزدي أن قيس بن هبيرة صحب أبا عبيدة ، وقد أوصى أبو بكر أبا عبيدة به ، انظر مقالته فيه ص ٢٦ .

(٤) في الأزدي : على المشركين ، وعلى من كفر . . .

قال : ثمّ أقبل أيضاً على الهلقام بن الحارث ليوصيه فقال : يا خليفة رسول الله ! لا توصني بشيء فقد سمعت وصيتك فإن[1] بقيت وأخّر الله عزّ وجلّ في الأجل فسيبلغك من حيطتي على الإسلام والمسلمين وجهادي في المشركين ما يسرّك الله عزّ وجلّ به ويرضيك عنّي إن شاء الله ولا قوّة إلا بالله .

قال : ثم سار هاشم بن عتبة في ثلاثة آلاف مجهّز حتّى قدم على أبي عبيدة بن الجراح ، قال : فسرّ أبو عبيدة وجميع المسلمين بقدوم هاشم بن عتبة ومن معه سروراً شديداً .

وأقبل إلى أبي بكر رضي الله عنه رجل من خيار المسلمين يقال له سعيد بن عامر بن جديم[2] فقال[3] : يا خليفة رسول الله ﷺ ! إنه بلغني أنك أردت أن تبعثني في هذا الوجه ، ثم إني رأيتك وقد أمسكت عن ذلك فلا أدري لأي شيء كان ذلك منك ! فإن كنت تريد أن تبعث أحداً فأذن لي أن ألحق بجماعة المسلمين فإني راغب في الجهاد ؛ قال فقال له أبو بكر : يا أبا عمرو ! إني لأرجو أن يرحمك الله فإني[4] ما علمتُ إلا أنك من المتواضعين المحبّين الذاكرين الله عزّ وجل كثيراً[5] فاخرج رحمك الله يا أبا عمرو واضرب عسكرك خارج المدينة فأنت أمير على كل من تبعك .

قال : فخرج سعيد بن عامر حتى عسكر خارج المدينة في سبعمائة رجل ، فلمّا أراد الرحيل إلى الشام أقبل بلال مؤذّن رسول الله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال[6] : يا خليفة رسول الله ! يا ولي نعمتي ! إنك إنما أعتقتني لأقيم معك وأؤذّن

---

(١) نسب الأزدي هذا القول إلى قيس بن هبيرة يرد على ما أوصاه به أبو بكر الصديق .

(٢) كذا بالأصل ، وفي فتوح الأزدي ص ٣٥ « حذيم » .

(٣) وكان قد بلغه أن أبا بكر يريد أن يبعثه فلما أبطأ عليه ، ومكث أياماً لا يذكر له أبو بكر شيئاً قال (عن فتوح الشام للأزدي ص ٣٥) .

(٤) في فتوح الأزدي ص ٣٦ فإنك ما علمتُ من المتواضعين ، المتواصلين ، المجتنبين ، المجتهدين بالأسماء ، الذاكرين الله كثيراً .

(٥) زيد في فتوح الأزدي : فقال سعيد : رحمك الله ، إن نعم الله عليّ أفضل مما عسيت أن تذكره ، فله المن والطول والفضل علينا ، وأنت ، والله ما علمت ، صدوع بالحق ، قوام بالقسط ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، تحكم بالعدل ، والحق ، لا تستأثر في القسم .

(٦) انظر مقالته في وفيات الأعيان وفتوح الأزدي .

في مسجد رسول الله ﷺ ، وقد أذنت وأقمت ، والآن فقد مضى رسول الله ﷺ لسبيله وأنا لا أحبّ أن أؤذّن لأحد من بعده ، وأريد منك أن تأذن لي حتى أخرج فيما ينفعني ، وتخلي سبيلي حتى أجاهد في سبيل الله فإنّ الجهاد أحبّ إليّ من المقام ، قال : فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ويحك يا بلال ! إنما أعتقتك لوجه الله تعالى ، ولم أرد بذلك جزاء ولا شكوراً ، وهذه الأرض ذات الطول والعرض بين يديك فاسلك أيّ فجاجها أحببت ؛ قال فقال بلال : يا خليفة رسول الله ! لعلك وجدت عليّ في مقالتي ، فقال أبو بكر : لا والله يا بلال ! ما وجدت عليك ولا أحبّ أن تترك هواك لهوائي لأني قد علمت أن هواك يدعو إلى الله وإلى طاعته ، وإنما أحببت أن تقيم معي في المدينة للأذان ، واعلم أني سأجد لفراقك وحشة شديدة ولا بد من الفراق[1] ، فاعمل صالحاً يا بلال يكن زادك من الدنيا ، ويذكرك الله عزّ وجلّ ما حييت ، ويحسن لك الثواب إذا قدمت عليه ، فقال بلال : جزاك الله من ولي نعمة ، وأخ في الإسلام خيراً ! فوالله ما علمتك إلا تأمر بالصبر والمداومة[2] على طاعة الله وما كنت أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ .

قال : ثم خرج بلال مع سعيد بن عامر في هذا الجيش[3] . وأقبل سعيد بن عامر إلى أبي بكر ليودّعه ، وأبو بكر رضي الله عنه في ذلك الوقت في مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ، فودّعه أبو بكر رضي الله عنه ثم قال : يا معشر المسلمين ! ارفعوا أيديكم إلى الله عزّ وجلّ وسلوه أن يصحب أخاكم هذا وأن يسلمه في طريقه ؛ فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : ما من عدّة من المسلمين رفعوا أيديهم إلى الله عزّ وجلّ يسألونه شيئاً إلا استجابه الله لهم ما لم تكن معصية أوقطيعة رحم ؛ قال : فعندها رفع المسلمون أيديهم في مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ـ وهم أكثر من خمسين رجلاً ، فقالوا : اللهمّ احفظ إخواننا من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وارزقهم السلامة إنك على كل شيء قدير ! قال : فقال سعيد : يا خليفة رسول الله ﷺ ! ما كنت أحبّ أن يُدعى لي

---

(١) في الأزدي : فرقة لا لقاء بعدها أبداً حتى يوم البعث .

(٢) عند الإزدي : والمداومة على الحق والعمل الصالح .

(٣) خرج بلال بعد النبي (ص) مجاهداً إلى أن مات بالشام . قال البخاري : مات بالشام في زمن عمر ، وقال ابن بكير : مات في طاعون عمواس . وقال عمرو بن علي : مات سنة عشرين . وقال ابن منده في المعرفة أنه دفن بحلب (عن الإصابة) .

بالسلامة فإني خائف أن يرزقني الله عزّ وجلّ السلامة ولا أستشهد ، وإني لحريص على الشهادة ، قال : فدعا المسلمون له بالشهادة[1] .

وسار سعيد بن عامر من المدينة في ألفي رجل من المسلمين يريد بلاد الشام ؛ قال : ومضى المسلمون حتى لحقوا بأبي عبيدة بن الجراح .

قال : وجعل أبو بكر رضي الله عنه كلّما قدم عليه وفد من العرب يوجّه بهم إلى الشام الأول فالأول . قال : ونظرت الروم إلى جيوش العرب وقد أقبلت من كلّ أوب ففزعوا لذلك أشد الفزع ثمّ إنهم كتبوا إلى هرقل ملك الروم يخبرونه بذلك ويسألونه المدد ، فكتب إليهم هرقل فقال : إني قد عجبت منكم يا معاشر بني الأصفر ومن كتبكم إليّ تخبروني بكثرة من أقبل إليكم من العرب[2] ، وإني لأعلم أنّ مدينة واحدة من مدنكم فيها أكثر ممن جاءكم منهم بأضعاف متضاعفة ، فإذا ورد عليكم كتابي هذا فالقوهم بالحدّ والحديد وقاتلوهم بالخيل والجنود، ولا تحسبوا[3] أني كتبت هذا الكتاب وأنا لا أريد [أن] أمدّكم بخيل ولا رجل ، فوحقّ المسيح روح القدس لأبعثن إليكم من الجنود ما تضيق به الأرض العريضة الطويلة سعتها !

قال : ثم جعل هرقل يكاتب ملوك الروم ويسألهم المدد إلى حرب المسلمين ، واتصل الخبر بأبي عبيدة بن الجراح ، فكتب به إلى أبي بكر رضي الله عنه[4] .

فلمّا ورد الكتاب إلى أبي بكر نادى في الناس فجمعهم ثم أرسل إلى وجوه

---

(١) مات سنة ١٩ بقيسارية . وقيل مات سنة ٢١ هـ . وقال ابن سعد : مات سنة ٢٠ وهو والٍ على بعض الشام (الإصابة) .

(٢) زيد في فتوح الأزدي : وأنا أعلم بهم وبمن جاء منهم .

(٣) عند الأزدي : ولا تظنوا .

(٤) نسخة كتاب أبي عبيدة إلى أبي بكر (عن فتوح الأزدي ص ٤٤) : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فالحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وإن عيوني من أنباط الشام أخبروني أن أوائل امداد ملك الروم قد وقعوا عليه ، وأن أهل مدائن الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم ، أن أهل مدينة من مدائنكم أكثر مما قدم عليكم من العرب ، فانهضوا إليهم فقاتلوهم ، فإن مددي يأتيكم من ورائكم ، فهذا ما بلغني عنهم ، وأنفس المسلمين لينة بقتالهم ، وقد أخبرونا أنهم قد تهيأوا لقتالنا ، فأنزل الله على المؤمنين نصره ، وعلى المشركين رجزه ، إنه بما يعملون عليم . والسلام (انظر الوثائق السياسية ص ٤٠٣) .

قريش من أهل مكة فدعاهم ثم استشارهم في أمر الروم ؛ قال : فذهب أهل مكة ليتكلموا ، فصاح بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه صيحة أسكتهم ثم أقبل على أبي بكر فقال : يا سبحان الله ! أتجمع من أسلم يوم فتح مكة من فرق السيف مع السابقين من المهاجرين والأنصار ! فقال له أبو بكر : يا أبا حفص ! إنما دعوتهم للمشورة لهذا الأمر الذي نحن فيه ولهذا الخبر الذي ورد علينا من أبي عبيدة بن الجراح ؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فالمهاجرون والأنصار أولى بالمشورة والانتصاح لهذه الأمة من أهل مكة ، لأن هؤلاء إنما قاتلناهم لتكون كلمة الله هي العليا ، وقاتلونا ليطفئوا نور الله بأفواههم جاهدين على قتلنا ، فلمّا أعزّ الله عزّ وجلّ دعوتنا وصدق أحدوثتنا ونصرنا عليهم تريد أن تقدمهم في الأمر وتستنصحهم في المشورة وتدنيهم بين يدي من هو خير منهم[1] ، والله لا تفعل ذلك ! قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبا حفص ! إنه قد حسن إسلامهم وإنما أردت أن أدنيهم وأقربهم وأنزلهم منازلهم التي كانت منّا إليهم ، فأما إذ قلتَ ما قلت فإن رأيي لرأيك تبع .

قال : فشق ذلك على أهل مكة فوثب الحارث بن هشام المخزومي وهو أخو أبي جهل بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو فقالوا : إياك نريد بكلامنا يا عمر ! ولك نخاطب وعليك نعتب ، فأمّا خليفة رسول الله ﷺ فهو بريء عندنا من الغيظ والحقد والقطيعة ، فقال عمر : تكلموا بما أحببتم ؛ فقال سهيل بن عمرو : يا عمر بن الخطاب ! ألسنا إخوانكم في الإسلام وبني أبيكم في النسب ؟ فقال عمر : بلى لعمري إنا لكذلك ! فقال سهيل : فلم تؤخرونا وقد قدمنا خليفة رسول الله ﷺ ؟ قال[2] . . . . في السابقة . . . . سهيل[3] : يا عمر بن الخطاب . . . . [3] منه أشهدكم يا معشر المسلمين[4] . . . .

---

(١) زيد في فتوح الأزدي ص ٤٥ فما نصحنا إذن بصلحائنا الذين كانوا يقاتلونهم في الله حين تقدمهم دونهم فلا نراهم ، اذن وضعهم عندنا جهادهم إيانا ، وجهدهم علينا .

(٢) كذا بالأصل بياض وفي فتوح الأزدي ص ٤٧ : فقال لهم عمر : إني والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام ، وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين .

(٣) كذا ، وعند الأزدي : فقال سهيل بن عمرو : فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد في سبيل الله فوالله لتستكثرن منه .

(٤) بياض بالأصل ، وفي الأزدي : أني حبيس في سبيل الله والله لأنفقكن .

بدل كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﷺ [نفقتين][1] في سبيل الله ، ولأقفنّ مكان كل موقف وقفته على رسول الله ﷺ، موقفين على أعداء الله .

قال : ثم وثب الحارث بن هشام [وقال مثل ـ][2] ذلك القول ، ووثب عكرمة بن أبي جهل ورجال أهل مكة[3] . . . . فقال أبو بكر : اللهم بلغهم أفضل ما يؤمّلون واتجرهم[4] . . . . قال وسر عمر بن الخطاب وغيره من المسلمين بما كان من أهل مكة . . . .[5] شديداً .

قال : ثم دعا أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص فقال له : . . . .[6] أتحب أن تخرج في هذا الوجه إلى جهاد الروم ؟ فقال عمرو : أحب ذلك يا خليفة رسول الله ﷺ ! قال له أبو بكر : هؤلاء أشراف قومك من أهل مكة يريدون الخروج[7] ، فإن كانت نية صادقة فاخرج فعسكر خارج المدينة حتى أندب إليك الناس ، قال عمرو : أخرج على أن أكون أميراً على جميع الناس ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أمير على كل من أبعثه معك ، قال عمرو : لا بل كل من أقدم [عليه][8] من المسلمين بالشام . قال أبو بكر : لا ولكن أحد الأمراء ، فإن جمعكم الله عزّ وجلّ على حرب واحد في موضع واحد فأميركم أبو عبيدة بن الجراح المقيم بأرض الشام . قال : فسكت عمرو بن العاص ساعة ثم قال : إني أفعل ما تأمر به يا خليفة رسول الله ﷺ .

ثم انصرف عمرو إلى منزله ، فلما كان الليل سار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسلم عليه ثم قال : يا أبا حفص إنك قد عرفت بصري بالحرب[9] وقد رأيت منزلتي عند رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) وقد علمتُ أنّ أبا بكر لا يعصيك في

---

(١) بياض بالأصل ، وما أثبتناه عن الأزدي .
(٢) سقطت من الأصل .
(٣) عند الأزدي : فقال عكرمة بن أبي جهل : أنا أشهدكم أني حبيس في سبيل الله .
(٤) عند الأزدي : وأجزهم بما كانوا يعملون ، قد أصبتم فيما صنعتم ، فأرشدكم الله .
(٥) غير واضح بالأصل .
(٦) غير واضح بالأصل .
(٧) عند الأزدي ص ٤٨ : يخرجون مجاهدين .
(٨) مطموس بالأصل . وما أثبتناه عن الأزدي .
(٩) عند الأزدي : وتيمن نقيبتي في الغزو .

شيء فلو جعلته أن يجعلني أميراً على جميع الأجناد الذين بالشام لرجوت أن يفتح الله عزّ وجلّ على يدي ، ويرى المسلمون مني ما يسرّون به إن شاء الله عزّ وجلّ ؛ قال : فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا هـذا . . . . (١) عليه وسلم وآله في أن يوليك . . . . (٢) إن أبا بكر ليس ينقص أبا عبيدة [شيئاً من فضله أن ألي عليه](٣) فقال عمر : ويحك يا عمرو [انك](٣) لتحب الإمارة [والله ما تطلب](٣) بهذه الرئاسة إلا شرف الدنيا فاتق الله تعالى [يا عمرو ولا](٣) تطلب بسعيك من هذه الدنيا إلا وجه الله سبحانه وتعالى و. . . . . . (٤) واخرج في هذا الوجه فإنك إن لم تكن اليوم أميراً [فما أسرع أن تكون](٣) إن شاء الله أميراً . [ليس فوقك أحد](٥) .

قال : فعندها أيس عمرو بن العاص من . . . . (٤) الشام ثم إنه خرج فعسكر بإزاء المدينة واجتمع . . . . (٦) أول من خرج إليه سهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل هؤلاء الثلاثة في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم . وخرج إليه أبو الأعور السلمي ، ومعن بن يزيد ابن عمه في ألف وسبعمائة فارس ، وخرج إليه الضحاك بن قيس الفهري في ثلاثمائة فارس . وعمير بن حرام المرادي في مائتي فارس .

قال : فالتأم الناس إلى عمرو بن العاص فصار في قريب من ستة آلاف فارس فخرج من المدينة في يوم الأربعاء راحلاً نحو الشام وخرج معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في نفر من المسلمين يشيعه فجعل يوصيه ويقول له : يا عمرو إنك لذو رأي وتجربة للأمور وبصر بالحروب وقد خرجت في أشراف قومك و[رجال من](٥) صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك بالشام فثبت العالم وعلم الجاهل وعاتب السفيه وانصح المسلمين وابذل لهم نصحك ومشورتك ، ولا تدخرن عنهم صالحاً

---

(١) غير واضح بالأصل ، وعند الأزدي : لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً ، وما يوافق يبعثك على أبي عبيدة ، وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا منك . (انظر فتوح الشام للواقدي ص ١٥) .

(٢) غير واضح بالأصل . وانظر الحاشية السابقة .

(٣) غير واضح بالأصل ، وما أثبتناه عن فتوح الأزدي .

(٤) غير واضح بالأصل .

(٥) زيادة عن فتوح الأزدي .

(٦) غير واضح بالأصل ؛ وعبارة الأزدي : واجتمع إليه ناس كثير ، وكان معه أشراف قريش أولئك .

من الرأي ، فرب رأي لك محمود[1] فـاعمل لله كـأنك تـراه ، واعدد نفسـك في الموتى ، وفكر في عواقب الأمور ، واعلم بأنا عن قليل ميتون ومبعوثون ومحاسبون ومسؤولون ، جعلنا الله وإيـاك منه على مـدرجة اليقين ، وحشـرنا وإيـاك في زمرة المتقين ، وجعلنا وإياك لأنعمه من الشاكرين ، قال : ثم انصرف عنه أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين إلى المـدينة ، ومضى عمـرو ومن معـه يـريـدون الشام .

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح[2] : أما بعد ! فقد أتاني كتابك وما ذكرت فيه من مسير العدو واجتماعهم ، وما كتب إليهم ملكهم من عدته إياهم أنه يمدهم من الجنود ما تضيق عليه الأرض بسعتها ، ولعمري لقد أصبحت الأرض ضيقة عليهم جداً لمكانكم ، ووالله ما أنا بآيس من أن تزيلوا هرقل عن مكانه الذي هو فيه عاجلاً إن شاء الله عزّ وجلّ ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فثبت خيلك[3] واحزم أمرك وضيق عليهم بقطع الميرة عنهم ، واعلم أنه ليس يأتيهم مدد إلا مددتك بمثله وأضعافه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وليس بكم ـ والحمد لله ـ ذلة ولا قلة ، فبث خيلك في القرى وفي السواد ، ولا تحاصرن مـدينة من مـدنهم حتى يأتيـك أمري ، ولكن انظر إن ناهضوك فانهض إليهم واستعن بالله عليهم ، [واعلم بأنكم تقاتلون لله ، ويقاتلون للشيطان ،][4] وإن الله عز وجل فاتح عليكم ومظهركم على عدوكم ومعزكم بالنصر وملتمس منكم الصبر[5] لينظر كيف تعملون ؛ وقـد وجهت إليك عمرو بن العاص في جيش لجب، وعمرو قد علمت أنه من ذوي الرأي والتجربة والصبر والإقدام والجد والحذر وقد أوصيته أن لا يضيع لك حقـاً ، فاستعن بـرأيه واستوص به خيراً ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما ورد الكتاب على أبي عبيدة بن الجراح في مثل ذلك اليوم وقدم عمرو بن العاص في أصحابه على المسلمين في غد فسر به أبو عبيدة والمسلمون سروراً شديداً ثم أقبل إليه أبو عبيدة بن الجراح فقال : يا أبا عبد الله ! رب يوم شهدته

---

(١) زيد في فتوح الأزدي : في الحرب مبارك في عواقب الأمور .

(٢) نسخة الكتاب في فتوح الشام للأزدي ص ٥٠ والوثائق السياسية ص ٤٠٤ .

(٣) عند الأزدي : فبث خيلك في القرى والسواد .

(٤) مكانها عند الأزدي : فلا أعرفن ما جبنتم عنهم ، ولا ما خفتم منهم .

(٥) عند الأزدي : الشكر .

فبورك للمسلمن فيه برأيك ومحضرك ، وأنا أريد منك أن تحضرني برأيك في كل وقت فإني وإن كنت الوالي عليك فلست بقاطع أمراً دونك ولا دون المسلمين ، فاحضرني أنت خاصة ما ترى من رأيك فليس لي عنك غنى ؛ فقال عمرو بن العاص : أفعل ذلك إن شاء الله تعالى [والله يوفقك لما يصلح المسلمين][1] .

قال : وبلغ أبا عبيدة بن الجراح أن جبلة بن الأيهم الغساني بالغوطة من أرض دمشق في أربعين ألفاً من العرب المتنصرة بالخيل والعدد والسلاح والزينة .

ذكر جبلة بن الأيهم ومخاطبته مع المسلمين من قبل هرقل ملك الروم

قال : فدعا بهشام بن العاص ، وهو أخو عمرو بن العاص ، فضم إليه جماعة من المسلمين من أهل الدين والحسب فأرسله إلى هرقل ملك الروم .

قال : فخرج إليه هشام بن العاص في من معه من المسلمين حتى صاروا إلى الغوطة من أرض دمشق ، ثم صاروا إلى باب جبلة فاستأذنوا عليه فأذن لهم ، فدخلوا عليه في مجلس له مزخرف فإذا هو على فرش له مرتفعة وعلى يمينه كراسي الذهب والفضة عليها ملوك اليمن عليهم الديباج المنسوج وعلى رؤوسهم العمائم وقد اعتجروا بها على زي العرب ، والمجلس مفروش بالديباج الأسود ، وعلى جبلة يومئذ ثياب سود وتاجه على رأسه ؛ فلما نظر المسلمين أومأ إليهم أن اجلسوا ، فجلس المسلمون بعيداً منه وإذا رسول جبلة قد أقبل إليهم فقال لهم : يقول كم جبلة : ما حاجتكم ؟ فقال هشام للرسول: ارجع إليه فقل له : إن أردت كلامنا فانزل عن فرشك وكلمنا ؛ فانطلق إليه الرسول فخبره بذلك ، فنزل جبلة عن فرشه تلك المرتفعة التي كان عليها إلى فرش دونها ، ثم جلس عليها وأومأ إلى المسلمين تقدموا ، فتقدموا وجلسوا قريباً من فرشه ، ثم كلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام ورغبه فيه وقرأ عليه كتاب الله عزّ وجلّ وخبره بأمر الجنة والنار . قال : فأبى جبلة ذلك ونفر من الإسلام نفراً شديداً ، فقال له هشام : إذ قد أبيت ما دعوناك إليه فإني مسائلك ، فقال : سل عما بدا لك ، فقال هشام بن العاص : ما هذه الثياب السود التي أراها عليك ؟ فقال جبلة : إذاً

---

(١) زيادة عن الأزدي .

أخبرك أني لبستها نذراً على أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام ، فتبسم هشام ثم قال : يا جبلة ! إنك والله لن تقدر أن تمنع مجلسك هذا منا ! والله لنأخذنه ولنأخذن ملك الملك الأعظم ! وبذلك خبرنا نبينا الصادق عليه السلام ، فقال جبلة : فأنتم إذاً السمراء ، قال هشام : وما السمراء ؟ قال جبلة : السمراء قوم نجدهم في الإنجيل أنهم يصومون النهار ويقومون الليل ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويفتحون من المشرق إلى المغرب ، قال هشام : فنحن والله أولئك الموصوفون في الإنجيل ! فلا تشك في ذلك يا جبلة ! فاسود وجه جبلة حتى صار كالليل المظلم ثم قال : إليّ بعثتم أم إلى الملك الأعظم ؟ فقال : بعثنا إليك وإليه ؛ قال : فسيروا إذاً إليه فإن أجابكم إلى ما تريدون أجبتكم ولم أتأبّ عليكم .

قال : فخرج هشام ومن معه من عند جبلة وساروا حتى صاروا إلى أنطاكية .

ذكر مسير المسلمين إلى أنطاكية ودخولهم على الملك

قال : فدخل المسلمون مدينة أنطاكية على رواحلهم من باب المدينة وهرقل ينظر إليهم من منظرة ، والقوم من الروم ينظرون إليهم من وسط المدينة إلى أن أناخوا رواحلهم على باب الملك حذاء المنظرة ثم رفعوا أصواتهم فقالوا : لا إله إلا الله والله أكبر ! قال : فانتفضت المنظرة حتى سمع الناس صوت نفيضها ، فأرسل إليهم هرقل أنه ليس لكم أن تجهروا بدينكم على بابي ، فإن كنتم رسلاً فادخلوا .

قال : فدخل إليه المسلمون وهو على سرير من ذهب مفروش بالديباج الأحمر ، وجميع ما في مجلسه مفروش بالحمرة ، وعليه ثياب منسوجة وعلى رأسه تاج من ذهب يلمع من الجوهر ، وإذا هو يكسر بالعربية ليس بالفصيح ؛ قال : فوقف المسلمون بين يديه ولم يسلموا عليه ، فتبسم ثم قال : ما منعكم أن تحيوني بما تحيون به ملوككم ؟ فقال له هشام بن العاص : أيها الرجل ! إن تحيتنا إنما تجوز بيننا ولن يجوز لنا أن نحييك بها ، قال هرقل : وما تحيتكم ؟ فقال هشام : تحيتنا السلام ، فقال هرقل : وبذلك تحيون ملوككم ؟ فقال هشام : نعم ، بذلك نحيي ملوكنا وبذلك يحيوننا كما نحييهم . فقال هرقل : فكيف يرث الميت منكم ؟ فقال هشام : يرث أقرب الناس إليه ، فقال هرقل : كيف صومكم وصلاتكم ؟ فوصف له هشام بن العاص ذلك ، فقال هرقل : فما أعظم كلامكم ؟ فقال هشام : أعظم كلامنا لا إله إلا الله والله أكبر . قال : فانتفضت القبة من سقفها حتى فزع هرقل من ذلك ،

ثم رفع رأسه فنظر إلى السقف وقال : خبروني عن هذه الكلمة كلما قلتموها في بلادكم انتفضت سقوفكم ؟ قال هشام : لا ، وما رأينا هذا إلا عندك وما نظن هذا إلا لشيء وعظت به لتعتبر ؛ فقال هرقل : ما أحسن الصدق وأزين الحق ، ولكن خبروني عن هذه الكلمة أتقولونها إذا أردتم أن تفتحوا المدن والحصون ؟ فقال هشام : نقولها ولا نعتمد إلا عليها .

قال : فأطرق هرقل ساعة ثم إنه راطن بعض غلمانه بالرومية وأقبل على هشام بن العاص وأصحابه فقال : إني قد أمرت لكم بمنزل فصيروا إليه يومكم هذا . قال : فصار هشام والمسلمون إلى ذلك المنزل وأمر لهم بطعام وعلوفة وما يصلحهم .

فلما كان من غد بعث إليهم فدخلوا عليه وليس في مجلسه أحد ، فأمرهم بالجلوس فجلسوا ثم دعا بشيء على مثل الصندوق الصغير إلى الطول ما هو وفيه بيوت صغار عليها أبواب ، ففتح منها باباً ثم أدخل يده وأخرج خرقة حرير سوداء فيها صورة رجل طوال أبيض الجسم كبير العينين والأذنين أقنى[1] الأنف كأنه القمر في صورته مع عظم جسده ، فقال هرقل : أتدرون من هذا ؟ فقال المسلمون : لا نعرفه ، فقال : هذا أبوكم آدم عليه السلام ، ثم طوى الحريرة وردها إلى موضعها ، وفتح باباً آخر وأدخل يده فأخرج حريرة سوداء ثم نشرها فإذا فيها صورة رجل مدور الهامة معتدل القامة صلت[2] الجبين أحور العينين لطيف الفم قد وخطه الشيب ، فقال : أتدرون من هذا ؟ فقال المسلمون : لا ، ما نعرفه ، فقال : هذا أبوكم إبراهيم عليه السلام ، ثم طوى الحريرة وردها إلى موضعها وفتح باباً آخر فأخرج حريرة بيضاء ثم نشرها فإذا فيها صورة رجل آدم طوال جعد الشعر حديد النظر كث اللحية ، فقال : أتعرفون من هذا ؟ فقال هشام : لا ، ما نعرفه ، فقال هرقل : فلا يجب عليكم أن تعرفوه بصفته ، هذا موسى بن عمران الذي كلمه الله عز وجل على الطور ؛ فلم يزل هرقل يفتح باباً باباً ويعرض الصور على هشام وأصحابه حتى عرض عليهم النبيين بصفاتهم ونعوتهم ، ثم فتح آخِر الأبواب وأخرج حريرة سوداء مذهبة الجوانب ثم نشرها فجعل ينظر إلى الصورة التي فيها ويتأملها ثم أقبل على هشام بن العاص وأصحابه ثم قال : أتعرفون هذه الصفة ؟ فلما نظر المسلمون إلى الصورة

---

(١) أقنى الأنف يعني فيه طول ودقة أرنبته وحدب في وسطه .

(٢) صلت الجبين : أي المستوي الذي لا يفوت بعض لحم بعضه بعضاً .

بكوا بكاء شديداً حتى علا بكاؤهم ونحيبهم ؛ فقال لهم هرقل : ما يبكيكم ؟ فقال هشام : هذه الصورة صورة نبينا محمد (صلّى الله عليه وسلم وآله) كأنا نراه بين أيدينا بنعته وصفته ، فقال هرقل : بدينكم إنها صورة نبيكم عليه السلام ؟ فقال المسلمون : هذه صورة نبينا كأنا نراه حياً بين أظهرنا ، ولكن من أين هذه الصورة أيها الرجل ؟ فقال هرقل : إذاً أخبركم أن آدم عليه السلام سأل ربه تبارك وتعالى أن يمن عليه بصفة أولاده من النبيين المرسلين خاصة ، فأعطاه الله تبارك وتعالى ذلك وبعث إليه بصفاتهم في نمط من ديباج أخضر ، فلم يزل ذلك النمط في تابوت آدم عليه السلام يعرضه على أولاده كل جمعة مرة ، فلما توفي آدم عليه السلام صار التابوت إلى شيث ومن شيث إلى أنوش ، ثم توارثه قوم بعد قوم حتى انتهى ذلك إلى ذي القرنين فاستخرج هذه الصورة من خزانة آدم عليه السلام ، وتوارثها آباؤنا حتى صارت هذه الصورة إلينا ، والله ! لقد وددت أن نفسي تطيب بترك هذا الملك حتى أخرج معكم وأكون عبداً لأميركم إذ كنتم رأيتم هذا النبي وشاهدتموه ، ولكن نفسي لا تطيب بترك ما أنا فيه من هذا الملك . والله ! لقد خبرنا المسيح عيسى ابن مريم في الإنجيل وأمرنا أن نؤمن بالنبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة والهراوة والنعلين والعمامة ، الأنجل[1] العينين المقرون الحاجبين الصلت الجبين الواضح الخدين ، ولكن يأبى لي النعمة والسرور إلا التمادي في الغرور .

قال : ثم أمر لهشام بن العاص وأصحابه بجوائز سنية ، فأبوا أن يقبلوها منه ؛ ثم خرجوا من عنده واستووا على رواحلهم وساروا حتى صاروا إلى أبي عبيدة بن الجراح فخبروه بما كان من أمر جبلة بن الأيهم وأمره وأمر هرقل ملك الروم ، فقال أبو عبيدة : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾[2] .

قال : ثم جعل هرقل يضم أطرافه ويقوي أصحابه ولا يألو في ذلك جهداً . قال : وسار أبو عبيدة بالمسلمين حتى نزل بموضع يقال له : الجابية[3] من أرض دمشق في ثلاثين ألفاً ، وسارت إليه الروم في ثمانين ألف حتى نزلوا قريباً منه ، وبلغ

---

(١) أنجل العينين ؛ العين النجلاء : الواسعة . والنجل بالتحريك : سعة شقة العين مع حسن (اللسان) .
(٢) سورة البقرة : ٧ .
(٣) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، قرب مرج الصفر في شمالي حوران .

ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه ففزع لذلك واشتد عليه أمر الروم وضاق به ذرعاً ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ! إني رأيت رأياً ، فقال : وما ذاك ؟ فقال : رأيت أن تكتب إلى خالد بن الوليد فإنه مقيم بالعراق أن يشخص إلى الشام بخيله ورجله فيكون عوناً للمسلمين ؛ فقال أبو بكر : ما الرأي غير هذا ؛ ثم كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد .

ذكر كتاب أبي بكر الصديق
إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم(١) ، من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد . أما بعد فقد ورد عليّ من خبر الشام ما قد أقلقني وأرّقني وضقت به ذرعاً ، فإذا ورد عليك كتابي هذا وأنت قائم فلا تقعد ، وإن كنت راكباً فلا تنزل ، وذر العراق وخلّف عليها من تثق به من أهلها(٢) الذين قدمت عليهم وامض مخفّاً في أهل القوّة من أصحابك الذين قدموا معك من اليمامة والحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإن العدوّ قد جمع لهم جمعاً عظيماً وقد احتاجوا إلى معونتك ، فإذا أنت أتيت المسلمين بالشام فأنت أمير الجماعة ـ والسلام .

قال : ثم دفع أبو بكر رضي الله عنه كتابه إلى عبد الرحمن بن حنبل الجمحي(٣) وأمره أن يسرع المسير إلى خالد بن الوليد ؛ فلمّا ورد الكتاب على خالد بن الوليد أخذه في يده ولم يقرأه ثم قال للرسول : ما وراءك ؟ فقال : ورائي كل خير غير أنك تسير إلى الشام ؛ قال : فغضب خالد بن الوليد ثمّ قال : هذا عمل عمر بن الخطاب وقد نفس عليّ أن يفتح العراق على يدي(٤) ؛ قال : ثمّ فتح الكتاب

---

(١) قارن مع نسخ للكتاب في فتوح الشام للأزدي ص ٦٨ وفتوح الشام للواقدي ص ٢٤ والوثائق السياسية ص ٣٩٩ .

قال الواقدي في فتوح الشام : إن أبا بكر لما سمع ما حشد الروم من قوى علم أن أبا عبيدة لين العريكة ولا يصلح لقتال الروم ، وعول أن يكتب إلى خالد . وفي الطبري ٣ / ٣٩٣ قال : خالد لها .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٢ / ٦٧ وتاريخ اليعقوبي ٢ / ١٣٣ أمره أن يستخلف المثنى بن حارثة .

(٣) في فتوح الواقدي : نجم بن مقدم الكناني .

(٤) زيد في فتوح الأزدي ص ٦٨ : وكانت الفرس قد هابوه هيبة شديدة وخافوه ، وكان خالد ، رحمه الله ، =

وقرأه ، فلما رأى أنه ولاه على أبي عبيدة بن الجراح وعلى جميع أجناد الشام من المسلمين فرح لذلك وطابت نفسه ، ثم قال : إذ قد ولاني الشام فالشام عوض من العراق، ؛ قال : فتكلم بشر[1] بن ثور العجلي ـ وكان من أشراف بني عجل وفرسان بني بكر بن وائل [ومن رؤوس أصحاب المثنى بن حارثة][2] ـ فقال : لا والله أصلح الله الأمير ! ليس الشام عوضاً من العراق ساعة قط ، لأن العراق أكثر من الشام حنطة وشعيراً وديباجاً وحريراً وفضّة وذهباً ووقراً ونسباً ، وما الشام كلها إلا كجانب من جوانب العراق[3] ؛ فقال له خالد : صدقت يا بشر[4] ! إن العراق لعلى ما تقول ، ولكن هذا كتاب خليفة رسول الله ﷺ قد ورد عليّ وإنما أنا معين المسلمين على أعدائهم وراجع إليكم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، فكونوا أنتم ههنا على حالتكم التي أنتم عليها ، فإن كفى الله مؤنة الروم عجلنا إليكم الكرة إن شاء الله تعالى ، وإن أبطأت عنكم رجوت أنكم لم تعجزوا ولم تهنوا عن محاربة الفرس ، ومع هذا فإني أرجو أنّ الخليفة لا يدعكم أن يمدكم بالخيل والرجال حتّى يفتح الله عزّ وجلّ عليكم هذه البلاد ، فلا تجزعوا ولا تهلعوا عن محاربة الفرس فإني أرجو لكم النصر من الله العزيز الحكيم .

قال : ثم دعا خالد بن الوليد بالمثنى بن حارثة الشيباني واستخلفه على العراق ثم جمع أصحابه الذين قدم بهم من الحجاز واليمامة فكانوا سبعة آلاف فارس ، فخرج بهم خالد من الحيرة متوجّهاً نحو الشام .

قال : وسار خالد حتّى صار إلى الأنبار[5] ثم رحل من الأنبار فأخذ على قرية

= إذا نزل بقوم من المشركين كان عذاباً من عذاب الله عليهم ، وليثاً من الليوث ، وكان خالد قد رجا أن يفتح الله على يده العراق .

(١) كذا ، وفي فتوح الأزدي : بشير ، وفي الإصابة « نسير » قال له إدراك وشهد الفتوح في عهد عمر منها القادسية وهو القائل فيها :

لقد علمت بالقادسية انني صبور على اللأواء عف المكاسب

(٢) زيادة عن فتوح الأزدي .

(٣) قال الأزدي : فكره المثنى بن حارثة مشورته عليه ، وكان يحب أن يخرج خالد عنه ، ويخليه وإياها .

(٤) كذا ، انظر الحاشية السابقة . (رقم ١) .

(٥) الأنبار : إحدى مدن العراق ، تقع على الفرات .

يقال لها : صندوداء[1] ـ وصندوداء اليوم من الأمصار ـ قام بها خالد يومه حتى استراح المسلمون ، ثم رحل من صندوداء[1] فأغار في طريقه على قوم من بني ثعلب[2] فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثمّ سار حتى أشرف على قوم من النمر ، وذلك في جوف الليل فإذا هم قعود على شراب لهم قدموه في جفنة لهم عظيمة ورجل منهم يقال له : حرقوص النمري[3] قد رفع صوته وهو يقول أبياتاً من جملتها :

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب وما ندري[4]

قال : فلم يشعر القوم إلا والخيل كبستهم ، وشدّ رجل من المسلمين على صاحب هذا الشعر فضربه بسيفه ضربة فإذا رأسه في الجفنة قد اختلط دمه مع الشراب الذي كان فيها ؛ قال : وغنم المسلمون وخالد أموالهم وقليلهم وكثيرهم .

ثم سار خالد من هنالك على قرى السماوة حتى صار إلى موضع يقال له قَرَاقِر[5] على طريق مفازة الشام .

قال : ونزل المسلمون هنالك ولم يعرف خالد الطريق ، فأقبل إليه رافع بن عميرة الطائي وهو ابن مكلم الذئب بإذن الله وقال : يا هذا ! ما لي ولك ؟ عمدت إلى رزق رزقني ربي انتزعته مني ! قال : فصاح عميرة وقال : يا عباد الله ! هلموا فاسمعوا ذئب يتكلم ! فقال الذئب : يا هذا ! إن أعجب مني ومن كلامي نبي مرسل يدعوكم إلى عبادة الرحمن وتأبون إلا عبادة الأوثان ؛ قال : ثم ترك الذئب ومضى ، فأقبل عميرة إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بما سمع من الذئب وأسلم وحسن إسلامه .

---

(١) بالأصل : « صندود » وفي الكامل لابن الأثير : « حدوداء » وما أثبتناه يوافق الطبري ومعجم البلدان : وبها قوم من كندة وإياد العجم فظفر بهم وخلف بها سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري . وفي فتوح الأزدي : مندوا ـ (جنوبي الأنبار) وهي التي خلف بها سعد .
وانظر فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٨ .

(٢) كذا ، وفي الكامل ٢ / ٦٧ بني تغلب وكانوا بالمصيخ . قال الطبري ٣/٤٠٧ : وعليهم ربيعة بن بجير التغلبي .

(٣) هو حرقوص بن النعمان البهراني (الطبري) .

(٤) البيت في فتوح البلدان ص ١١٨ والكامل ٢ / ٦٨ والطبري ٣ / ٤١٦ وفيهما أبيات أخرى ، ومعجم البلدان .

(٥) قراقر : أصله من الدهناء ، وقيل ماء لكلب ، وقراقر وادٍ لكلب بالسماوة من ناحية العراق ، نزله خالد عند قصده الشام (معجم البلدان) .

قال : فأقبل رافع ابن هذا مكلم الذئب إلى خالد بن الوليد فقال : أيّها الأمير ! أنا أعرف هذه المفازة[1] ولا يخفى عليّ موضع فيها إن شاء الله ؛ قال فقال له خالد بن الوليد : كم تكون هذه المفازة ؟ قال : مسيرة خمسة أيام ، ومافيهاماء إلا في موضع وأنا أعرف به ، قال خالد : فإني قد جعلتك دليلاً فإذا سلم الله عزّ وجلّ من هذه المفازة فلك عندي عشرة آلاف درهم وما لك عند الله عزّ وجلّ من الثواب أكثر ؛ فقال رافع بن عميرة : أيّها الأمير ! فإني قد رضيت بذلك ولكن أبغني[2] خمسة وعشرين جملاً ، فقال : ألقوا إليها العلف اليابس وامنعوها من الماء . ثم أمر بها فألقي إليها العلف فجعلت الإبل تعتلف وقد منعت من الماء ، ثم أوردها بعد ذلك فشربت حتى امتلأت أجوافها من الماء ثم أمر بها فكمعت لكيلا تحبر[3] ، وأمر الناس أن يستوفروا من الماء ، ثمّ أمر الناس بالرحيل .

قال : فكان كلمّا سار يوماً أمر بخمس[4] من تلك الجمال فنحرت ثم شق أجوافها ثم أمر بالجفان فأحضرت وجعلوا يعصرون ما في كروش الجمال من الماء في الجفان ويمزجونه بالقليل من الماء العذب ويسقى الخيل والبغال والحمير ؛ وأما ما كان معهم من الإبل فإنها لم تذق الماء خمسة أيام ، فلم يزل القوم على ذلك ، كلّما نزلوا ذبحوا خمسة من الإبل فسقوا ما في أجوافها ؛ فلمّا كان اليوم السادس سار القوم وهم لا يشكّون أنّهم قاربوا العمران[5] . قال : ورمدت عين الدليل فلم يبصر سهلاً ولا جبلاً وأيس الناس من أنفسهم فأضربهم العطش وخافوا على أنفسهم الهلاك وحميت عليهم الشمس ، فقال خالد بن الوليد للدليل : ويحك يا رافع ! أين الطريق وأين الماء ؟ فقال : لا والله أعزّ الله الأمير ! لا أدري ، ولكن انظروا ميمنة وميسرة ، فإن رأيتم شجرة عوسج[6] فقد نجوتم والماء تحت الشجرة وإلا فقد هلكتُ وهلكتم .

---

(١) وكان خالد يريد أن يسير من قراقر إلى سوى (وقيل شوا ، وقيل شوى) وهو ماء لبني بهراء ، حتى يظهر من وراء جموع الروم لأنه إن استقبلها حبسته عن غياث المسلمين .

(٢) في فتوح الأزدي : عشرين جزوراً عظاماً سماناً مسان .

(٣) في فتوح الأزدي : ثم كمعهن ـ أي شد أفواهن ـ لئلا تجتر .

وعند الطبري : ثم صروا آذان الإبل وكعموها . وفي الكامل : وشدوا مشافرها لئلا تجتر .

(٤) الطبري : « عشراً من تلك الإبل » فعلى رواية الطبري يصبح العدد خمسين جملاً . (وانظر الكامل لابن الأثير) .

(٥) في الطبري وابن الأثير : « علمين » .

(٦) العوسج : ضرب من الشجر كثير الشوك ، وله ثمر أحمر مدور كأنه العقيق .

فقال خالد : إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال : وقفت الدواب ولم يتهيأ لها أن تسير ونزل الناس وجعلوا يمشون ويقودونها وقد أيسوا من الحياة وينظرون يمنة ويسرة فإذا هم بشجرة قد لاحت لهم ، فكبّروا وقصدوها وإذا تحتها عين من الماء غزيرة ، فكبّر القوم ونزلوا فشربوا وسقوا ما معهم وحمدوا الله عزّ وجلّ على ذلك ، فقال خالد : ويحك يا رافع ! لقد كدنا أن نهلك وتهلك معنا ، فقال : أعز الله الأمير ! ما سلكت هذه المفازة إلا مرّة واحدة مع أبي وأنا غلام حدث السن ، ولكن رجوت أن يسلم الله عزّ وجلّ المسلمين[1] .

قال : ثم سار خالد بن الوليد واتّصلت له المياه حتى انحطّ على موضع يقال له الكواتل[2] من ديار بني ثعلب وهم قوم نصارى على دين هرقل ملك الروم ، وهو الذي أقطعهم البلد فيما مضى ، فلم يشعر القوم إلا وخالد قد وافاهم فوضع فيهم السيف فقتل منهم مقتلة عظيمة وسبى نساءهم وأولادهم وأموالهم وفضّ جموعهم فضّاً لم يجمعوها بعدها في ذلك الموضع .

ذكر كتاب خالد بن الوليد إلى أبي عبيدة وأصحابه رضي الله عنهم[3]

بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن الوليد إلى أبي عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين والمؤمنين ، سلام عليكم ! أما بعد فإني أسأل الله عزّ وجلّ الذي أعزّنا بنصره وشرّفنا بدينه وأكرمنا بنبيه ﷺ [وفضلنا بالإيمان ، رحمة من ربنا لنا واسعة ، ونعمة منه علينا سابغة][4] أن يتمّ علينا وعليكم نعمه وأن يصرف عنّا وعنكم

---

(١) فقال شاعر من المسلمين :

لله عينا رافع أنى اهتدي ... فوّز من قراقر إلى سوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ... ما سارها قبلك إنسي يرى

(الطبري ٣ / ٤١٦ الكامل ٢ / ٦٨ فتوح الأزدي ص ٧٥ وفيه : إلى شوا) .

(٢) وفي معجم البلدان : الكواتل موضع من أطراف الشام مر به خالد لما قصد الشام من العراق . وفي فتوح الأزدي بعد وصوله إلى سوى : ثم على اللوى ، ثم قصم . . . ثم على أركة . . . ومر بتدمر (وانظر فتوح البلدان ص ١١٩ والكامل ٢ / ٦٨) .

(٣) نسخته في فتوح الأزدي ص ٧١ وفيه اختلاف .

(٤) زيادة عن فتوح الأزدي .

نقمه وأن يزيدنا عزّاً ونصراً وتأييداً ، إنّه ولي قدير ؛ وبعد فإني أخبركم أن كتاب أبي بكر الصديق خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ورد عليّ بالعراق يأمرني فيه بالمسير إلى ما قبلكم لمعونتكم على أعدائكم فشمّرت وانكمشت وبادرت وأسرعت وما أقربني منكم ، وكأني[١] قد أشرفت عليكم بخيلي ورجلي أميراً عليكم وعلى جماعتكم ، فأبشروا بإنجاز وعد الله عزّ وجلّ وحسن ثوابه ، عصمنا الله وإياكم بالتقوى وجنبنا وإياكم البلوى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة[٢] : من خالد بن الوليد ، [سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو][٣] أما بعد فإني أسأل الله لنا ولكم الأمن يوم الخوف والعصمة من كل سوء في دار الدنيا ، فإنّ كتاب خليفة رسول الله ﷺ ورد عليّ يأمرني بالمسير إلى الشام ، والقيام بحربها[٤] والتولي لأمرها ، ووالله ما ظننت ذلك قطّ ولا أدريه ولا كتبت فيه ، وإذ قد وليته فأنت على حالتك لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع أمراً دون أمرك ، فإنّك سيّد في المسلمين لا ينكر فضلك ولا يستغنى عن رأيك ، تمّم الله عزّ وجلّ بنا وبك من إحسانه ورحمنا وإياك من صلى النيران . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال ثم دفع خالد هذين الكتابين إلى رجل من الأزد يقال له عمرو بن الطفيل بن ذي النون[٥] وأمره بالمسير إلى أبي عبيدة بن الجراح وأصحابه .

فلمّا ورد عمرو بن الطفيل على المسلمين[٦] دفع إليهم الكتاب ودفع إلى أبي عبيدة بن الجراح كتابه ، فأمّا المسلمون لما قرؤوا كتابهم شق ذلك على قوم أن يؤمّر خالد على أبي عبيدة ، وأمّا أبو عبيدة فإنّه لمّا قرأ كتابه لم يتبين في وجهه ولا في منطقه شيء من الكراهة لإمرة خالد عليه ولكنّه قال : بارك الله لخليفة رسول الله فيما

---

(١) عند الأزدي : وكأن خيلي قد أطلت عليكم في رجال .

(٢) نسخته في فتوح الأزدي ص ٧١ ـ ٧٢ . باختلاف .

(٣) زيادة عن الأزدي .

(٤) عند الأزدي : وبالمقام على جندها .

(٥) كذا بالأصل ، وفي أسد الغابة عمرو بن الطفيل بن عمرو . وهو ابن من طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم . . . بن دوس الأزدي الدوسي يلقب ذا النون . قتل عمرو باليرموك وكانت قد قطعت يده يوم اليمامة . (أسد الغابة ٢ / ٥٤ و٣ / ١١٥) .

(٦) وهم بالجابية (فتوح الأزدي) .

رأى وحيّاالله خالداً وقرّبه .

قال : وسار خالد في جيشه ذلك فلمّا تقارب من أرض الشام نظر إلى مدينة من مدن الروم يقال لها : تدمر[1] وفيها خلق كثير من الروم ؛ فأقبل حتّى أحاط بهم من كل جانب . قال : وخرجت الروم وأقبلوا إلى خالد بن الوليد كالسباع الضارية واقتتل القوم قتالاً شديداً ، فقتل من المسلمين أربعة نفر إخوة سعيد وقيس والحجاج وسائب بنو الحارث السدوسي وخامسهم عبد الله بن عبد شمس أخو جرير بن عبد الله البجلي .

قال : ثم نادى خالد بصوت له جهوري وقال : يا أهل الإسلام ! الشدة الشدة ! فإنّكم إن قاتلتموهم وأنتم تريدون ما عند الله رجوت أن لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله ؛ قال : ثمّ حمل خالد وحمل الناس معه على جميع أهل تدمر ولحق خالداً بطريق من بطارقتهم فنفحه بالسيف نفحة أطال قحف رأسه ، فانهزم القوم حتى دخلوا مدينة تدمر وأغلقوا على أنفسهم الباب ، وأقبل خالد بن الوليد حتى نزل عليهم يومه .

فلما كان من غدٍ ركب في جماعة من أصحابه فدار حول المدينة فلم يقدر لهم خالد على حيلة لوثاقة سورها ؛ ثم إنّه عزم على الرحيل عنهم فنادى في أصحابه أن يرحلوا وأقبل حتى وقف حذاءهم ثم قال : والله ياأهل تدمر ! لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم بإذن الله عزّ وجلّ وظهرنا عليكم غير أني أريد المسير إلى أصحابي المقيمين بالشام لأني قد كتبت إليهم وأعلمتهم بقدومي وهم ينتظرونني ولا بدّ لي من السرعة إليهم ، ووالله إن أنتم لم تصالحوني هذه المرة لأرجعنّ إليكم إذا انصرفت من وجهي هذا ، ثم[2] لأدخلنّ عليكم مدينتكم ولأقتلنّ مقاتلتكم ولأسبينّ نساءكم وذرّيتكم ، وقد أعذرت إليكم وأنذرتكم، وأنا خالد بن الوليد ولعلّكم قد سمعتم باسمي .

ثم رحل من عندهم فصاحوا به أن ارجع فإنّا نصالحك على ما تريد . قال : فرجع إليهم خالد بن الوليد فصالحهم على مال أخذه منهم وفرّقه في أصحابه .

---

(١) تدمر : مدينة قديمة في برية الشام على الطريق إلى حلب .

(٢) في فتوح الأزدي : ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مقاتكتكم ، وأسبي ذراريكم . (انظر الطبري ٣ / ٤٠٧ فتوح البلدان ص ١١٩ الكامل ٢ / ٦٨) .

ثم سار خالد من تدمر حتى صار إلى ثنية العقاب[1] لأن راية خالد كانت سوداء وكان يقال لها العُقاب[2] ؛ قال : فلمّا أشرف خالد من الثنيّة نظر المسلمون إلى رايتهم وهم نزول في مرج دمشق فقالوا : والله ! هذه العقاب راية خالد بن الوليد ، فاستقبلوه ؛ ثم إنهم دخلوا مدينة دمشق فحصنوا فيها ، وأقبل خالد حتى نزل الدير الذي يقال له دير خالد وبه يعرف إلى يومنا هذا ، ويقال إنه على ميل من دمشق مما يلي الباب الشرقي .

قال : ثم دعا خالد بن الوليد بيزيد بن أبي سفيان فضمّ إليه خمسة آلاف رجل ووجّه به إلى البلقاء[3] فقال : اذهب وانزل بإزاء العدوّ وحارب من قدرت ، وإن خفت من العدوّ أمراً من الأمور فاكتب إليّ بذلك حتى أمدّك بخيل ورجال إن شاء الله ؛ ثم دعا بعمرو بن العاص فضمّ إليه خمسة آلاف رجل ووجّهه إلى فلسطين ثمّ أوصاه بما أوصى به يزيد بن أبي سفيان ؛ ثم دعا بشرحبيل بن حسنة فضمّ إليه ثلاثة آلاف فارس ووجّه به إلى بصرى ؛ ودعا معاذ بن جبل فضمّ إليه ألفي فارس ووجّه به إلى بعلبك ، ودعا خالد بن سعيد بن العاص فضمّ إليه أربعة آلاف فارس ووجّه به إلى حمص ؛ ودعا سعيد بن عامر بن جديم[4] فضم إليه ثلاثة آلاف فارس ووجّه به إلى حوران[5] .

قال : ففرّق خالد بن الوليد خيله بأرض الشام في اثني وعشرين ألفاً وبقي هو وأبو عبيدة بن الجراح بغوطة دمشق في خمسة عشر ألفاً من المسلمين ، ثم رتّب الجواسيس في أرض الشام ليتجسس عن أخبار الروم ، قال : فبينما هو كذلك إذا بجاسوس قد أقبل فقال : أيها الأمير ! الحذر الحذر ! ضمّ إليك أطرافك ، واكتب إلى أمرائك في النواحي أن يحذروا الروم فإنّهم قد اجتمعوا بموضع يقال له أجنادين[6]

---

(١) ثنية العقاب : ثنية مشرفة على غوطة دمشق (معجم البلدان) وانظر في الطبري ٣ / ٤٠٧ والأزدي والبلاذري وابن الأثير خطة سير خالد بعد تدمر . . . حتى وصل إلى ثنية العقاب .

(٢) كذا بالأصل وابن الأثير ، وفي فتوح الأزدي : ومعه راية بيضاء قال : فلما جاوز تلك الثنية سميت ثنية العقاب إلى اليوم .

(٣) البلقاء : من أعمال دمشق ، بين الشام ووادي القرى (معجم البلدان) .

(٤) كذا ، وقد تقدم « حذيم » وقيل « خذيم » .

(٥) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة (معجم البلدان) .

(٦) أجنادين : بلد بأرض الشام . وهي بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

في نيف على أربعين ألفاً أو يزيدون فإن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوهم وقد ضمنوا لهم المعونة عليكم . قال : فأقبل خالد على أبي عبيدة فقال : ما الرأي عندك في هذا الخبر ؟ قال أبو عبيدة : الرأي عندي في ذلك أن تبعث إلى أمرائك الذين فرّقتهم في البلاد فتشخصهم إليك ثم تسير بهم حتى تلقى العدو فعسى الله تبارك وتعالى أن يفض جمعهم ويفلّ جدهم ويهزم عسكرهم ، فقال خالد : هذا هو الرأي ولكن أحببت أن أستشيرك في ذلك ؛ ثم كتب خالد إلى جميع أمرائه الذين وجّه بهم إلى البلاد بنسخة واحدة : أما بعد فإنه قد نزل بأجنادين جمع الروم غير ذي قوة ولا عدد وقد بلغني أنهم في أربعين ألفاً[1] وليسوا هم عندنا بشيء إن شاء الله ، والله قاصمهم وقاطع ظهورهم وجاعل دائرة السوء عليهم ، وقد شخصت إليهم يوم كتبت كتابي هذا إليكم فإذا ورد الكتاب عليكم فانهضوا ـ يرحمكم الله ـ إلى عدوّكم فأحسن[2] نجدتكم وأحسن ثباتكم وأفضل بصائركم ، ضاعف الله أجوركم وحطّ عنكم أوزاركم وأظهركم على أعدائكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قال : ثم وجّه خالد بهذه الكتب إلى أمراء الأجناد مع أنباط الشام الذين كانوا عند المسلمين . قال : وكان هؤلاء الأنباط قوم نصارى غير أنهم كانوا إلى المسلمين لبرهم أميل بهم وصلتهم إياهم فكانوا فيوجاً[3] للمسلمين وجواسيس وكانت الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك .

قال : فمضت الفيوج بالكتب إلى الأمراء ، ونادى خالد في المسلمين ورحل من الغوطة في خمسة عشر ألفاً يريد إلى أجنادين ، فقال له أبو عبيدة : أمثلك يقول هذا ؟ والله لألقينهم بما معي ! فلو أنهم كثروا فالنصر من عند الله العزيز الحكيم . قال : فالتفت أبو عبيدة فإذا أهل دمشق قد خرجوا في آثار المسلمين فقال أبو عبيدة : أيها الأمير ! هذا ما كنا فيه ؛ قال خالد : فلا عليك أبا عبيدة ! فكلّ جهاد .

قال : ثم صاح خالد بأصحابه : ارجعوا إلى أعداء الله . قال : فحمل خالد بن الوليد وأبو عبيدة وحمل المسلمون معهما على أهل دمشق[4] فلم يزالوا يقاتلونهم حتى أدخلوهم مدينة دمشق ، وقد قتل منهم بشر كثير . قال : ثم سار خالد في

---

(١) في فتوح الواقدي : تسعين ألفاً .
(٢) في فتوح الأزدي ص ٨٧ : في أحسن عدتكم ، وأصح نيتكم .
(٣) الفيوج : جمع فيج وهو الحارس أو العدّاء سريع الجري .
(٤) انظر تفاصيل أوردها الواقدي في معركة دمشق ص ٤٩ ـ ٥٠ .

المسلمين حتى وافى الروم بأجنادين في يوم الجمعة فنزل قبالتهم وذلك في وقت العشاء ، فلمّا أمسى خالد ومضى من الليل بعضه وإذا جيوش المسلمين قد وافته من جميع المواضيع :

ذكر وقعة أجنادين وهي أول وقعة لخالد بن الوليد مع الروم

قال : فأصبح خالد يوم السبت يعبّي أصحابه فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته سعيد بن عامر بن جديم[1] ، وعلى جناح الميمنة يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة على جناح الميسرة ، وخالد بن سعيد بن العاص على الكمين ؛ ثم جعل خالد بن الوليد نساء المسلمين من وراء الصفوف وأمرهن فاحتزمن[2] وتشمّرن وأخذن في أيديهن الحجارة وجعلن يدعون الله ويستنصرنه على أعداء المسلمين .

قال : وجعل خالد بن الوليد لا يقرّ بمكان واحد ولكنّه يقف على كثيبة كثيبة من المسلمين[3] ويقول : اتّقوا الله عباد الله ! وقاتلوا في سبيل الله مَن كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ، ولا تهنوا ولا تجبنوا عن عدوّكم ، ولكن إقداماً كإقدام الأسد الضارية فإنّكم أحرار كرام ، وارفضوا عنكم هذه الدنيا واطلبوا ثواب الآخرة ، وأنتم الأعلون والله معكم[4] ، وبعد فإنّكم[5] إن هزمتم هؤلاء القوم كانت لكم هذه البلاد داراً للإسلام ما بقيتم أبداً مع رضوان الله والجنّة .

قال : ودنت الروم من المسلمين بخيلها ورجلها في الآلة والسلاح الشاك وقد تعبّوا ميمنة وميسرة وقلباً وجناحاً وبين أيديهم يومئذ بطريق من بطارقة الروم يقال له قلفط[6]، عليه ديباجة منسوجة وعلى رأسه تاج من ذهب وتحته فرس أدهم مغرق

---

(١) مرت الاشارة إليه .
(٢) عند الأزدي : « فاحترمن » أي حرمن على الرجال ما كان مباحاً لهم معهن .
(٣) كذا بالأصل ، لعله كتيبة . وعند الأزدي : وأقبل خالد يقف على كل قبيلة وكل جماعة .
(٤) في فتوح الأزدي : ولا يهولنكم ما ترون من كثرتهم ، فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه .
(٥) نسب هذا القول إلى معاذ بن جبل .
(٦) كذا بالأصل . وعند ابن الأثير : تذارق أخو هرقل . وفي الطبري وتاريخ خليفة : رجل من الروم يقال له القبقلار .

السرج واللجام بالذهب .

قال : فقال أبو عبيدة بن الجراح : كبّروا أيها المسلمون تكبيرة واحدة فإنّ الله عزّ وجلّ مهلكهم ومبدّد شملهم ؛ قال : فكبّر المسلمون وألقى الله الرعب في قلوب الكفار . قال : وهمّ المسلمون بالحملة عليهم ، فقال خالد : لا تعجلوا حتى أحمل أنا ، فإذا رأيتموني قد حملت فاحملوا . قال : فوقف المسلمون وجعلت سهام الروم تقع على عسكر المسلمين كالمطر ، فصاح رجل[1] من المسلمين بخالد بن الوليد : أيها الأمير ! لماذا قد نصبتنا لهؤلاء الأعلاج هدفاً يرموننا بنشابهم حتى قد جرحوا منا جماعة؟ فقال له خالد: ويحك! إنما أنتظر الوقت الذي كان النبي ﷺ يحارب فيه ، فإنه وقت مبارك[2] . قال : فوقف المسلمون لا يزول واحد منهم من موضعه والسهام تعمل في ذلك عملها ، فقتل يومئذ بالسهام أبان بن سعيد بن العاص رحمة الله عليه . وقتل أيضاً هشام بن العاص ، وسلمة[3] بن هشام المخزومي ، ونعيم بن صخر العدوي ، وهبار بن سفيان الأزدي ، وعبد الله بن عمر السدوسي[4] ؛ فعندها ضجّ المسلمون إلى خالد وأمروه بالحملة ، فعندها قال خالد : احملوا ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، ثم كبّر وحمل وحمل المسلمون معه ، وانكشفت الروم من بين أيديهم وأخذتهم السيوف ، فقتل منهم في المعركة ألف[5] وسبعمائة رجل ، وقتل صاحبهم قلفط[6] ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ومرّ القوم منهزمين على وجوههم

---

(١) هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ ابن عم عمر بن الخطاب (عن فتوح الأزدي) .

(٢) في الأزدي ص ٩٠ ـ ٩١ « كان من رأي خالد مدافعتهم ، وأن يؤخروا القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرواح ، وتلك الساعة التي كان رسول الله (ص) يستحب القتال فيها » وعن رواية أبي داود والترمذي : أنه (ص) كان يبدأ الجهاد عند شروق الشمس إلى قبيل وقت الظهر ، ثم يستأنفه بعد الزوال عند هبوب الريح ، وكان يقول : تهب نسائم النصر في هذه الأوقات .

(٣) عند الأزدي : مسلمة .

(٤) كذا بالأصل وهو خطأ ، وهو عبد الله بن عمرو بن الطفيل ذي النور الأزدي ، ثم الدوسي . (فتوح الأزدي ص ٩٢) وفي فتوح البلدان ص ١٢١ عمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي . وانظر الكامل لابن الأثير ٢ / ٧٤ . وفيه : عبد الله بن الطفيل الدوسي ، وهو الملقب بذي النور . انظر تاريخ خليفة ص ١٢٠ . وانظر في هذه المصادر بقية أسماء من استشهد في معركة أجنادين .

(٥) عند الأزدي : ثلاثة آلاف . وفي فتوح الشام للواقدي ص ٦٦ قتل خمسون ألفاً وتفرق من بقي منهم ، وكانوا تسعين ألفاً .

(٦) انظر ما سبق .

حتى تفرّقوا في الحصون . واحتوى المسلمون على غنائم الروم فجمعوها ؛ وقدم خالد من أسر منهم وهم يزيدون على ثمانمائة رجل ، فضرب أعناقهم صبراً وما أبقى على واحد منهم .

ذكر كتاب خالد بن الوليد إلى أبي بكر رضي الله عنه بخبر وقعة أجنادين(١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله بن عثمان خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ، من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على أعداء الله المشركين ، سلام عليك ! أما بعد فإنّي أخبرك أيها الصدّيق ! إنا لقينا المشركين بموضع من أرض الشام يقال له أجنادين وقد جمعوا لنا جموعهم ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم(٢) وتقاسموا بأيمانهم أنّهم لا يفرّون ولا يبرحون ولا ينصرفون حتى يقتلونا ويبيدونا(٣) ويخرجونا من بلادهم ، فلقيناهم ونحن بالله واثقون وبحبله معتصمون وعليه متكلون ، فطاعنّاهم بالرّماح وكافحناهم بالصفاح وأرميناهم بالسهام وأذقناهم حرّ الحِمام ، فلم نزل كذلك حتى أعزّ الله عزّ وجلّ نصرة الإسلام وأظهر أمره وأنجز وعده وأفلح جنده وهزم الكافرين وحده ، فقتلنا في كل واد وحجر وتحت كل شجر ومدر ، فأحمد الله عزّ وجلّ يا خليفة رسول الله على إعزاز دينه وأوليائه وإذلال أعدائه وحسن صنعه بالمسلمين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته(٤) .

قال : فلمّا قرأ أبو بكر الكتاب الذي لخالد بن الوليد تهلّل لذلك وجهه فرحاً وفرح فرحاً شديداً وسر سروراً ظاهراً ، ثم رمى بالكتاب إلى عمر بن الخطاب ؛ فلمّا قرأ الكتاب قطب حاجبه وعبس وجهه ثم قال : قبّح الله صلف خالد وتيهه وعجبه بنفسه ! يكتب إليك « من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على أعدائه » إنّ سيف الله هو الذي وضعه بذلك الموضع . قال : فسكت أبو بكر هنيهة ثم قال : أبا حفص ! الحمد لله على نصر المسلمين فقرّت بذلك عيوننا ، فقال عمر : نعم

---

(١) قارن مع نسختين للكتاب في فتوح الشام للأزدي ص ٩٣ وفتوح الشام للواقدي ص ٦٧ .

(٢) عند الأزدي : وكتبهم .

(٣) عند الأزدي : لا يفرون حتى يفنونا وعند الواقدي : أن لا يفروا حتى ينهزموا .

(٤) كذا بالأصل والأزدي ، وزيد عند الواقدي : وجملة من أحصيناهم ممن قتل من المشركين خمسون ألفاً ، وقتل من المسلمين في الأول والثاني أربعمئة وخمسون رجلاً ختم الله لهم بالمسلمين .

فالحمد لله على ذلك ولكن لا يجب أن يتسمّى بسيف الله .

قال : ثم كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد كتاباً لطيفاً يشكره على فعله بالمشركين ويبشّره بثواب الله عزّ وجلّ ويبشّـر من معه من المسلمين ويقـوّي عزمهم ويأمرهم بالشكر لله عزّ وجلّ وذكره كثيراً(١) .

قال : ثم أقبل خالد بن الوليد بالمسلمين حتّى نزل موضعه الذي كان فيه من أرض دمشق(٢) مما يلي الباب الشرقي ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب تُوماء(٣) ، فأحاط المسلمون بمدينة دمشق وحاصروا أهلها حصاراً شديداً وضيّقوا عليهم غاية الضيق.(٤) قال : وجعل أهل دمشق يـرمون المسلمين بالحجارة والسهام من كلّ جانب ، فلم يقدر أحد يدنو من سور المدينة إلا رُمي .

قال : فبينا المسلمون كذلك إذ أقبل بعض الجواسيس إلى خالد بن الوليد ، فقال : أيها الأمير ! كن على حذر ، فهذا جيش قد أقبل من عند هرقل ملك الروم معونة لأهل دمشق .

---

(١) نسخة كتاب أبي بكر عن فتوح الشام للواقدي ص ٦٨ :
بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر خليفة رسول الله إلى خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين . أما بعد ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ص) ، وأوصيكم وآمركم بتقوى الله في السر والعلانية وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل إلى دمشق إلى أن يأذن الله بفتحها على يدك ، فإذا تم لك ذلك فسر إلى حمص وأنطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته . وقد تقدم إليك أبطال اليمن وأبطال مكة ويكفيك ابن معدي كرب الزبيدي ومالك بن الأشتر وانزل على المدينة العظمى انطاكية ، فإن بها الملك هرقل فإن صالحك فصالحه وإن حاربك فحاربه ولا تدخل الدروب ، وأقول هذا وأن الأجل قد قرب .

(٢) نزل بدير خالد ، وهو على ميل من دمشق .

(٣) بالأصل : ثوما . وما أثبتناه عن معجم البلدان وتوماه اسم قرية بغوطة دمشق ، وإليها ينسب باب توماه من أبواب دمشق .

(٤) زيد في فتوح الشام للواقدي : وعمرو بن العاص إلى باب الفراديس ، وقيس بن هبيرة إلى باب الفرج ، وضرار بن الأزور وضم إليه ألفي فارس ، وقال له : تطوف حول المدينة بعسكرك (تقدم أن ضرار مات باليمامة ؟) (فتوح الشام ١ / ٧٠) .

ذكر وقعة مرج الصُّفَّر[1] آخر وقعة أجنادين

قال : فنادى خالد بن الوليد في المسلمين وركبوا وركب معهم خالد بن الوليد وسار في المسلمين نحو ذلك الجيش الذي وصفه الجاسوس ، فإذا هو بصليبين للروم ، تحت كل صليب عشرة آلاف فارس بموضع يقال له : مرج الصّفّر[1] . قال : ثم حمل خالد وحمل المسلمون معه على جميع الكفار ، فقتل منهم خلق كثير ، ولم يقتل من المسلمين رجل واحد ولا جرح منهم فارس ولا راجل[2] .

قال : فأسر منهم خالد مائة وعشرين رجلاً وفيهم بطريق عظيم الشأن يقال له : قسطا ، فأتي به إلى خالد بن الوليد حتى أوقف بين يديه ، فقال له خالد : أسلم وإلا ضربت عنقك ، فتكلم البطريق بالرومية وقال : إني غير داخل في دينك فاصنع ما بدا لك ؛ قال خالد : ما يقول هذا الكلب ؟ فقال بعض الجواسيس : إنه يقول أيها الأمير كذا وكذا ؛ قال : فقدمه خالد فضرب عنقه وأعناق الأسرى جميعهم فما أبقى على واحد منهم ، ورجع إلى باب دمشق كما كان .

قال : وجعل المسلمون يغيرون على أطراف دمشق فكلّما أصابوا نَفَلاً أتوا به في المقسم[3] ، فلم يستحل أحد أن يغل[4] شيئاً حتى إنّ الرجل من المسلمين كان ربما أُتي بكبة[5] [من] غزل وبكبة من الصوف والشعر والإبرة والمِسَلة وما فوق ذلك فيسلمه إلى صاحب المقسم . قال : وبلغ ذلك بطريق دمشق الذي هو مقيم بها وكان اسمه القنفلان فجعل يعجب من المسلمين ومن أمانتهم وعدلهم وحسن سيرتهم ، ثم أقبل على من كان عنده من البطارقة بدمشق فقال : ألا ترون إلى أمنة هؤلاء القوم وعفافهم ، ليس فيهم أحد يستحل أن يأخذ من غنائمنا شيئاً دون الآخر ؛ فقال له

---

(١) بالأصل : الصفرا . ومرج الصفر واحد من مروج غوطة دمشق . والمرج الموضع الذي ترعى فيه الدواب . والصفر : بضم أوله وفتح الفاء المشددة .

(٢) كذا بالأصل . وفي فتوح البلدان ص ١٢٥ جرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف . وفي فتوح الأزدي ص ٩٦ أن قتلاهم كانوا خمسمئة في المعركة ، وقد قتلوا وأسروا نحواً من خمسمئة أخرى .
وانظر في تاريخ خليفة ص ١٢٠ وفتوح البلدان ص ١٢٥ أسماء بعض من قتل من المسلمين .

(٣) في فتوح الأزدي : في القبض .

(٤) غلّ : من الغلول يعني الخيانة في الغنيمة . والسرقة من الغنيمة . قال ابن الأثير : وكل من خان في شيء خفية فقد غلّ (اللسان) .

(٥) كذا بالأصل ، وصوابه الجبة ، وهي الثوب .

بعض بطارقته : نعم أيها الملك وإنهم لرهبان بالليل صوّام بالنهار ، لو سرق بينهم ملكهم شيئاً لقطعوه . ولو زنى أحد منهم لرجموه ؛ قال القنفلان : إنّه قد بلغني عنهم ذلك ، ووالله إن بطن الأرض خير لي من ظهرها لأني قد علمت أنه ليس لي بهم طاقة ، ولا لي في قتالهم خيرة ، ولولا أني أخاف غضب الملك الأكبر إذاً لسألتهم الصّلح فلعلّي أنجو منهم وأدخل في دينهم[1] .

قال : فبينا المسلمون على باب دمشق وقد طمعوا في فتحها عنوة لشدّة حصارهم إياها إذ بلغهم أن أبا بكر الصديق عليل ، فاغتمّوا لذلك غمّا شديداً وكتموا ذلك على أهل دمشق .

---

(١) زيد في فتوح الشام للأزدي ص ٩٨ : فراوض المسلمين على الصلح ، فأخذ لا يعطيهم ما يرضيهم ، ولا يتابعونه على ما يسأل ، وهو في ذلك لا يمنعه من الصلح والفراغ إلا أنه بلغه أن قيصر يجمع الجموع للمسلمين ، وأنه يريد غزوهم ، فكان ذلك مما يمنعه من تعجيل الصلح .

ذكر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه قبل فتح دمشق

قال : واشتد المرض بأبي بكر رضي الله عنه جدّاً والمسلمون نزول على باب دمشق ، ودعا أبو بكر بدواة وبياض فكتب خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم دفع الرقعة إلى رجل من المسلمين فقال : اخرج بهذه الرقعة إلى الناس فخبّرهم بما هو فيها .

قال : فخرج الرجل بالرقعة حتى دخل مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) والناس مجتمعون ، فقال : أيها الناس ! أتسمعون لخليفة نبيّكم ؟ فقال الناس : نعم ، هات ما عندك ؛ فقال : هذه الرقعة فيها عهد منه وقد استخلف عليكم عمر بن الخطاب . قال : فسكت قوم فلم ينطقوا بشيء ، وتكلم قوم فقالوا : سمعنا وأطعنا .

وأقبل طلحة حتى دخل على أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا خليفة رسول الله ! تستخلف على الناس عمر بن الخطاب ؟ فقال : ولم لا أستخلفه يا طلحة ؟ قال : لأنك قد رأيت الناس من صرامته وغلظته وأنت حي فكيف إذا مضيت أنت وصار الأمر إليه ؟ وبعد فإنك قادم على ربك فإنّه سائلك عن رعيتك . قال : فسكت أبو بكر ساعة ثم رفع رأسه إلى طلحة فقال : أبالموت تفزعني أم بربي تخوّفني ؟ نعم إذ أقدم على ربي وسألني عن رعيتي أقول : يا ربّ ! استخلفت عليهم خير أهلك .

قال : ثم دعا أبو بكر رضي الله عنه عثمان بن عفان فأقعده بين يديه ، ثم دعا بدواة وبياض فقال له : اكتب يا عثمان ! قال : وما أكتب يا خليفة رسول الله ﷺ ؟

قال : اكتب : هذا ما أوصى به أبو بكر عبد الله بن عثمان عند آخر عهده بالدنيا فهو خارج منها وأول عهده بالآخرة وهو داخل فيها أنه استخلف على الأمة عمر بن الخطاب ، فإن قصد الحق فذاك ظني به ورجائي فيه ، وإن بدل وغير فلكل امرىء ما اكتسب ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾[1] .

قال : ثم دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما جاء وقعد بين يديه فقال له أبو بكر : يا عمر ! إنه قد أبغضك مبغض وأحبك محب وقديماً كان الشر يحب والخير يبغض ، فدونك هذا العهد فخذه إليك ، فأنت خليفتي من بعدي على الأمة . فقال عمر : يا خليفة رسول الله ﷺ ! إنه لا حاجة لي فيها ؛ فقال أبو بكر : فإن لم يكن لك فيها حاجة فإن بها إليك حاجة ، وبعد فإني ما حبوتك بالخلافة ولكني حبوت الخلافة بك ، ومع ذلك فإني أحذرك نفسك فإن النفس لأمارة بالسوء ، وأحذرك بعد نفسك الناس فإنه قد شخصت أبصارهم وانتفخت أجوافهم وتمنى كل واحد منهم أمنية[2] ، واعلم يا عمر ! فإنهم منك خائفون ما خفت الله تعالى وانزه عن هواك ، واعلم يا عمر ! إن لله تعالى حقاً بالنهار لا يقبله بالليل وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، واعلم أنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وقد علمت يا عمر أن الله تبارك وتعالى ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم وذكر أهل النار بسوء أفعالهم وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباع الحق ، و[إنما -] خفت [موازين -] من خفت موازينه [يوم القيامة -] باتباع الباطل ، وقد علمت يا عمر أن الله عز وجل أنزل آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن في هذه الدنيا راغباً راهباً ولا يلقي بيده إلى التهلكة ، فانظر يا عمر ! لا تتمن على الله إلا الحق ولا يكونن شيء هو أحب إليك من الموت ولا أبغض إليك من الحياة ، وإياك والذخيرة فإن ذخيرة الإمام تفسد عليه دينه وتسفك دمه ، فاحفظ وصيتي يا عمر ولا تنسها ، واحفظ المهاجرين والأنصار واعرف لهم حقهم وفضائهم ولا تفضهم ولا تباعدهم

---

(١) انظر كتاب عهد أبي بكر إلى عمر بن الخطاب مجموعة الوثائق السياسية وثيقة ٣٠٢ / د ص ٤٠٤ - ٤٠٥ نقلاً عن أنساب الأشراف للبلاذري ، ج ٢ / ٤٨٦ والسنن الكبرى للبيهقي ٨ / ١٤٩ واعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٥ وصبح الأعشى للقلقشندي ٩ / ٣٥٩ وانظر الطبري ٣ / ٤٢٩ ابن الأثير ٢ / ٨٠ والإمامة والسياسة ١ / ١٩ والعقد الفريد ٤ / ٢٦٧ وطبقات ابن سعد ٣ / ٢٠٠ . وبين النصوص في هذه المصادر خلاف .

(٢) قارن مع الكامل في التاريخ ٢ / ٨٠ والبيان والتبيين ٢ / ٦١ وما بين معكوفتين في النص زيادة عنهما .

واخفض لهم جناحك يحبوك في المشهد والمغيب .

قال : ثم التفت أبو بكر رضي الله عنه إلى الناس وهم عن يمينه وشماله فقال : أرضيتم بعمر بن الخطاب إماماً من بعدي ؟ فقال من حضر : سمعنا وأطعنا .

فقال : ثم خرج الناس من عنده ودعا أبو بكر بابنته عائشة رضى الله عنها فقال لها : يا بنية ! إن على أبيك ديناً[1] لا يجده فهل أنت مؤديته من بعدي ؟ فقالت : نعم يا أبتي ولِمَ لا أؤديه ! فقال : إنه قد دنا الأمر وأرجف الأجل ، فإذا أنا مت فاغسلوني وكفنوني وحنطوني وصلوا علي ثم ائتوا بي إلى قبر حبيبي محمد ﷺ فاستأذنوا وقولوا : السلام عليك يا رسول الله ! هذا أبو بكر بالباب ، فإن أذن لكم في دفني إلى جانبه فادفنوني ، وإن لم يؤذن لكم في ذلك فأتوا بي إلى مقابر المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون .

قال : فكان هذا الكلام من أبي بكر رضي الله عنه في يوم الأحد فلما كان يوم الاثنين توفي أبو بكر رضي الله عنه في مثل تلك الساعة التي توفي فيها رسول الله ﷺ . قال : فغسل أبو بكر وحنط وكفن وصلي عليه ، ثم حمل على أعواد المنايا وأتي به إلى قبر النبي ﷺ فحفر له فيه إلى جنب النبي ﷺ ، فدخل أبو بكر التراب لست ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة[2] ، واستخلف عمر بن الخطاب رأس سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً من وفاة رسول الله ﷺ .

---

(١) ذكر ابن سعد قال : توفي أبو بكر الصديق وعليه ستة آلاف كان أخذها من بيت المال . (٣ / ١٩٣) .

(٢) كانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وقال أبو معشر : سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال . وكان عمره يوم مات ٦٣ سنة .
(ابن سعد ٣ / ٢٠٢ الطبري ٣ / ٤٢١ ابن الأثير ٢ / ٧٥ تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٣٨) .

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال : فلما أفضت الخلافة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل الناس يدعونه : خليفة خليفة رسول الله ﷺ ، قال : فقال عمر : أيها الناس ! إن هذا الاسم الذي أراه تدعونني به يطول على الناس ويشتد عليهم ولكن ادعوني بغيره فإنه أحب إليّ وأسهل عليكم وأخف ، فقالوا[1] : وكيف ندعوك ؟ فقال عمر : أنتم المؤمنون وأمركم إليّ فأنا أميركم ، فقالوا : ندعوك إذاً « أمير المؤمنين » . قال : فخرج هذا الاسم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أول الناس وهو أول من قيل له : أمير المؤمنين .

ذكر كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه
إلى أهل الشام بتعزية أبي بكر
وذكر وفاته رحمة الله عليه

[2] بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى من بالشام من المسلمين والمؤمنين ، سلام عليكم ! فإن من الحادث الذي حدث على هذه

---

(١) عند ابن سعد : فقال بعض أصحاب رسول الله (ص) : نحن المؤمنون وعمر أميرنا فدعي عمر أمير المؤمنين ، فهو أول من سمي بذلك (الطبقات ٣ / ٢٨١) .

(٢) نسخة الكتاب في فتوح الشام للأزدي ص ٩٨ والوثائق السياسية وثيقة ٣٥٣ / ب ص ٤٥٩ باختلاف بين النصوص .
قال الأزدي : وجاء بالكتاب يرفأ (مولى عمر بن الخطاب) .

الأمة أن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ توفي فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمة الله ورضوانه على أبي بكر القائم بالحق القائل بالصدق والآمر بالصدق والآخذ بالقسط والمعروف الرؤوف الرحيم الورع الحكيم، فرغب في العصمة برحمته والعمل بطاعته والخلود في جنته إنه على كل شيء قدير ، وإذا[1] ورد عليكم كتابي هذا وقرأتموه فالأمير عليكم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير جماعتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال : ثم كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كتاباً صغيراً وجعله في وسطه وهو[2] : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ! أما بعد فإنك بحمد الله في كنف من المسلمين وعدد يكفي بعضهم حصار أهل دمشق ، فإذا ورد عليك كتاب هذا فاقرأه على من قبلك من المسلمين وخبرهم بأنك الوالي عليهم ، وابعث سراياك في نواحي الشام ولا تقر عسكرك من جندك فيطمع فيك عدوك ولكن انظر برأيك فيمن استغنيت عنه من أصحابك فسرحه إلى ما قبلي ، ومن احتجت إليه منهم في حصارك فاحبسه عندك ، وليكن فيمن تحبسه هناك خالد بن الوليد فإنه لا غناء بك عنه ، والسلام .

قال : فلما ورد كتاب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة بعزل خالد بن الوليد وولايته على المسلمين استحيى أن يخبر خالداً ، ثم جعل يصلي خلفه ولا يبدي له شيئاً حتى سمع خالد بعزله ، وذلك أنه سمع الناس يقولون لأبي عبيدة : أيها الأمير ، وعلم وأيقن أنه معزول فقال : رحم الله أبا بكر! أما انه لو كان حياً لما عزلني أبداً ، وأنت يا أبا عبيدة رحمك الله كيف لم تعلمني بعزلي وولايتك علي وأنت تصلي خلفي ولك السلطان عليّ ؛ فقال أبو عبيدة : ما كنت أحب أن أعلمك بذلك لولا أنك علمته من غيري ، وبعد يا أبا سليمان ! فما يبلغ من سلطان الدنيا وأمارتها ، إنما نحن إخوان في ذات الله عز وجل ، فأينا ولي أخاه لم يضره ذلك في دينه ولا في دنياه

---

(١) في فتوح الأزدي ص ١٠٢ ـ ١٠٣ وردت تولية أبي عبيدة وعزل خالد في كتاب مستقل أرسله مع شداد بن أوس بن ثابت . (وانظر فتوح الشام للواقدي ص ٩٦ ـ ٩٧) . والوثائق السياسية وثيقة ٣٥٣ / ألف و٣٥٣ / ب و٣٥٣ هـ (هذه الوثيقة نقلاً عن الأزدي ولم نجدها في فتوحه المطبوع) .

(٢) الوثائق السياسية وثيقة ٣٥٣ هـ باختلاف النص .

شيئاً ، لا بل لعل الوالي أن يكون أقرب إلى الفتنة من رعيته إلا من عصم الله ، وبعد فإني قد وليتك الحرب وجعلتك على أعنة الخيل والسلام[1] .

قال : ثم عبى أبو عبيدة الناس وزحف بهم إلى أبواب دمشق ، فأحاطت الخيل بدمشق من كل جانب فضيقوا عليهم غاية الضيق[2] . قال : فعندها نقلت الروم وخرج القنقلان صاحب دمشق في جمع عظيم من الروم إلى محاربة المسلمين ، فاقتتلوا قتالاً شديداً .

قال : وجعل المسلمون يقاتلون ويتأخرون إلى ورائهم ويطمعونهم في أنفسهم حتى بلغت بهم الروم إلى داريا[3] على فرسخ من دمشق واشتبك الحرب هناك .

قال : ونظر صفوان بن المعطل إلى رجل من الروم عليه بزة حسنة وحلية ظاهرة وسلاح شاك ، فحمل عليه صفوان فطعنه طعنة نكسه عن فرسه قتيلاً ، وإذا امرأة الرومي عليها سلاح شاك من وراء زوجها فلما نظرت إليه قد صرع عن فرسه حملت على صفوان بن المعطل ؛ قال : وعلم صفوان أنها امرأة فأومأ إليها بالسيف ولم يضربها لكنه حمل عليها ، فولت المرأة من بين يديه ، ونزل صفوان إلى الرومي فسلبه ما كان عليه من بزه وسلاحه ، واستوى على فرسه[4] .

قال : ثم اجتمع المسلمون في موضع واحد وحملوا على جمع الروم حملة

---

(١) في الطبري عن ابن إسحاق أن أبا عبيدة لم يعلم خالد بعزله إلا بعد فتح دمشق ، وقد جرى الصلح على يدي خالد وكتب الكتاب باسمه . وانظر فتوح البلدان ص ١٢٨ .

(٢) انظر بشأن تشديد الحصار على أبواب دمشق والقوى التي تولت ذلك فتوح الشام للواقدي ١ / ٧٠ وفتوح البلدان ص ١٢٧ . والطبري ٣ / ٤٣٨ .

(٣) قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة (معجم البلدان) .

(٤) وقال صفوان في ذلك :

ولقد شهدت الخيل يكثر وقعها ... ما بين داريا دمشق إلى نوى
فطعنت ذا حلى فصاحت عرسه ... يا بن المعطل ما تريد لما أرى
فأجبتها أني سأترك بعلها ... بالدير منعفر المناكب بالثرى
وأرى عليه حلية فشهرتها ... إني كذلك مولع بذوي الحلى

(فتوح الأزدي ص ١٠٥) .

صادقة وألحقوهم بحيطان دمشق وقد قتل منهم من قتل ، وأقبل المسلمون حتى نزلوا على دمشق وعزموا على مناجزة أهلها .

قال : فطال عليهم الحصار سنة وقريباً من شهر[1] ، فلما أضر بهم الحصار كتبوا إلى هرقل ملك الروم وهو مقيم بأنطاكية وبعثوا إليه رسولاً فقالوا : أيها الملك ! إن العرب قد حصرونا وضيقوا علينا وليست لنا بهم طاقة وقد قاتلناهم غير مرة وعجزنا عنهم ، فإن كانت لك فينا وفي السلطان حاجة فامددنا بالرجال وأعنّا[2] بهم وعجل بنا في ذلك فإنا في ضرّ وجهد جهيد وإلا فقد أعذرنا إليك ، والقوم قد أعطونا الأمان وبذلوه لنا غير مرة ورضوا منا باليسير من الجزية . قال : فأرسل إليهم هرقل أن تمسكوا بمدينتكم وحاربوا عدوكم ولا تسلموا حصنكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك وعجزتم ونيتم دخلوا عليكم في مدينتكم ولم تجدوا عندهم عهداً ولا وفاء ولا صدقاً وأجبروكم[3] على دينكم وأفتنوكم واقتسموكم بينهم أقساماً فصرتم أنتم ونساؤكم وأولادكم لهم عبيداً وإماء ، وأنا موجه إليكم بجيش عظيم في اثر رسولي هذا فلا تعجلوا .

قال : فصبر أهل دمشق على الحصار وجعلوا ينتظرون المدد من عند هرقل ، فلما أبطأ ذلك عليهم وضاق بهم الأمر واشتد عليهم الحصار ورأوا أن المسلمين لا يزدادون إلا قوة وصرامة وقد كانوا علموا أن خالد بن الوليد معزول فأرسلوا إلى أبي عبيدة بن الجراح يسألونه الصلح ، فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك ووقع صلحهم على مائة ألف دينار والجزية بعد ذلك على كل محتلم أربعة دنانير في كل سنة وعلى نسائهم ديناران فرضي القوم ؛ وكتب الكتاب بينهم بالصلح ، فأخذ القنفلان صاحب دمشق الكتاب ووفى للمسلمين بما صالحهم عليه ، فأخذ أبو عبيدة هذا المال فأخرج منه الخمس ووجه به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأعلمه في كتابه بما كان من أهل دمشق وصلحه إياهم ، وقسم باقي المال في المسلمين وهم سبعة

---

(١) في الطبري : سبعين ليلة . وقال الواقدي : ستة أشهر . وفي تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٤٠ أقاموا على ما كانوا عليه في حصار دمشق حولاً كاملاً وأياماً .

(٢) في فتوح الأزدي ص ١٠٦ : وأغثنا وعجل علينا .

(٣) في الأزدي : وأجبروكم على ترك دينكم .

وثلاثون ألفاً ؛ وفتحت أبواب دمشق فدخلها المسلمون يوم الجمعة في رجب سنة أربع عشرة وثلاثة عشر شهراً مضت من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فنزل المسلمون دمشق آمنين .

وفي رواية : أن الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه لما دخل دمشق من باب الجابية لم يكن عند خالد رضي الله عنه من ذلك علم ولا خبر لأنه كان قد شدد القتال عليهم ودخل من الباب الشرقي ووضع السيف في الروم إلى أن وصل خالد إلى كنيسة مريم والتقى الجيشان عندها(١) .

ذكر تحرك الفرس بالعراق بعد فتح دمشق

قال : وتحركت الفرس بالعراق وتكاثرت على المثنى بن حارثة بن [سلمة ـ(٢)]

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٧ / ٢٨ : اختلف العلماء في دمشق هل فتحت صلحاً أو عنوة ؟ فأكثر العلماء على أنه استقر أمرها على الصلح ، لأنهم شكوا في المتقدم على الآخر أفتحت عنوة ثم عدل الروم إلى المصالحة ، أو فتحت صلحاً . فقال قائلون : هي صلح يعني على ما صالحهم الأمير في نفس الأمر ـ وهو أبو عبيدة ـ. وقال آخرون : بل هي عنوة لأن خالد افتتحها بالسيف، فلما أحسوا بذلك ذهبوا إلى بقية الأمراء ومعهم أبو عبيدة فصالحوهم . فاتفقوا على أن يجعلوا نصفها صلحاً ونصفها عنوة . (قال الواقدي : قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا أدري من أين جاء به) . ويروي الواقدي في فتوح الشام أن خالد فتح دمشق عنوة وقد دار بينه وبين أبي عبيدة محاجة عنيفة نزل بعدها خالد على رأي أبي عبيدة (فتوح الشام ١ / ٧٢ وما بعدها) .

قال ابن كثير ٧ / ٢٥ والمشهور أن خالد فتح الباب قسراً (الباب الشرقي) وقال آخرون بل فتحها عنوة أبو عبيدة وقيل يزيد بن أبي سفيان . وخالد صالح أهل البلد فعكسوا المشهور المعروف . وهذا ما ذهب إليه البلاذري في فتوح البلدان وفيه نص كتاب خالد لأهل دمشق بالصلح (ص ١٢٧) وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد لأهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله (ص) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية ، وقيل إن أبا عبيدة كتب لهم كتاب الصلح ، قال ابن كثير : وهذا هو الأنسب والأشهر (وانظر ما تقدم قبل أسطر) فإن خالداً كان قد عزل عن الأمرة (تقدم أن هناك قولاً أن أبا عبيدة لم يبلّغه ذلك إلا بعد فتح دمشق) وقيل إن الذي كتب لهم الصلح خالد بن الوليد ، ولكن أقره على ذلك أبو عبيدة . وهذا ما ذهب إليه اليعقوبي في تاريخه ٢ / ١٤٠ .

(٢) سقطت من الأصل ، وانظر ما تقدم .

الشيباني وعلى من معه من المسلمين ؛ وخرج كسرى ملك الفرس ذات يوم إلى الصيد فعرض له عير وحشي فاتبعه كسرى ، وجرى العير بين يديه جرياً شديداً وسار كسرى في طلبه حتى إذا أقفرت به الأرض وانفرد من عسكره عطف عليه العير وكلمه بإذن الله تعالى وقال له : ويلك يا يزدجرد ! آمن بربك تبقى لك نعمتك ولا تكفر فيزول ملكك . قال : ففزع يزدجرد فزعاً شديداً ثم رجع إلى قصره منكسراً فدعا بمؤبدته وأساورته فخبرهم بما سمع من العير فقالوا : أيها الملك ! ما نظن هذا إلا حدثاً يأتيك من هؤلاء العرب الذين نزلوا بساحتك .

قال : ورأى المثنى بن حارثة في منامه رؤيا هالته وأفزعته ، فلما أصبح بعث إلى وزرائه فجمعهم إليه ثم قال لهم : اعلموا أني قد رأيت رؤيا ، فقالوا له : وما الذي رأيت أيها الأمير ؟ قال : رأيت كأن من أحسن الناس قد أقبل ومعه لواء فدفعه إليّ وقال : ذل أهل فارس كذلة الهجارس ، وزال ملكهم وحان هلكهم ، فارحل ناجياً وامض سائراً ، واستخبر خبراً واستنصر عمراً ؛ وأنا أظن ملك الفرس قد زال وعزهم قد حال . قال : فقالت له المشايخ من قومه : صدقت رؤياك ونامت عيناك ، وسر إلى عمر .

قال : وركب المثنى بعيراً له وسار مع جماعة من أصحابه يريد المدينة إلى عمر بن الخطاب(١) ، فبينا هو يسير إذ غلط عن الطريق هو ومن معه ؛ فبينما هو كذلك إذ سمع هاتفاً يهتف من الجادة وهو يقول أبياتاً من جملتها :

والفرس قد خذلت رايات نصرتها   وأن ملك بني ساسان قد مرجا

قال : فاتبع المثنى الصوت حتى وصل إلى الطريق ، ثم سار مجداً حتى قدم

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٢ / ٧٣ وبعد خروج خالد بن الوليد إلى الشام ، وانشغال أبي بكر بمتابعة الوضع والقتال بالشام فقد : « أبطأ خبره على المثنى فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية ووضع في المسالح سعيد بن مرة العجلي وسار إلى المدينة إلى أبي بكر ليخبره خبر المشركين . . . فقدم المدينة وأبو بكر مريض قد أشفى (وقيل قبل موته بليلة) فأخبره الخبر فاستدعى عمر وقال له : . . . فإذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى (انظر الطبري ٣ / ٤٤٤ ـ ٤٤٥ والبداية والنهاية ٧ / ٢٢) .

على عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنه وهو في مسجد رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار عن يمينه وشماله ؛ فوقف بين يديه وسلم على عمر ، فقال : من أنت أيها الرجل ؟ فقال : أنا المثنى بن حارثة الشيباني ، فقال عمر : مرحباً بك وسهلاً ، حياك الله وقربك وحيا حياً أنت منه ! فلقد سمعت أخبارك بدياً ؛ ولقد كنت أحب أن أراك ؛ فما الذي أقدمك يا مثنى ؟ قال : ما قد تبينت به من الفرس وتعديهم عليّ وعلى قومي ؛ قال : فقال له عمر رضي الله عنه : إني قد سمعت قولك يا مثنى ! فصف لي أرضهم ، فقال : هي أرض كثيرة الزرع والضرع ، ترابها مال وأمرها عال ، قال : فصف لي رجالها ، فقال : هم رجال طوال ، عظام جسام ، شديد كلبهم كثير سلبهم ، ضعيفة قلوبهم لا منعة لهم من صدقهم عليهم .

قال : فنشط عمر لغزوهم فقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2] : أيها الناس ! إن الله عز وجل وعد نبيه محمداً ﷺ أن يفتح عليه فارس والروم ! والله لا يخلف وعده ولا يخذل جنده ، فسارعوا رحمكم الله إلى جهاد أعدائكم من الفرس ، فإنكم بالحجاز في غير دار مقام وقد وعدكم الله عز وجل كنوز كسرى وقيصر ، والمواعيد من الله عز وجل مضمونة وأمر الله تعالى مفعول ، والقول من رسول الله ﷺ مقبول ، وما لم يورثكموه الله عز وجل اليوم يورثكموه غداً ، وإنكم لن تغنموا حتى تغيروا ولن تستشهدوا حتى تقاتلوا ، وهذا المثنى بن حارثة قد أتاكم من العراق يدعوكم إلى جهاد عدوكم ، فسارعوا رحمكم الله إلى ذلك ولا تتغافلوا عن الجهاد في سبيل الله .

قال : فنكس القوم رؤوسهم إجلالاً وإعظاماً لغزو الفرس[3] ، فوثب أبو

---

(١) كذا بالأصل . انظر الحاشية السابقة . قال الطبري : أول ما عمل به عمر أن ندب الناس مع المثنى . . . إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر ، من الليلة التي مات فيها أبو بكر ، ثم أصبح فبايع الناس .

(٢) الطبري ٣ / ٤٤٥ باختلاف .

(٣) قيل في الطبري أن عمراً ندب الناس أربعة أيام ولم ينتدبوا فقد « كان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم » ٣ / ٤٤٤ وانظر ابن الأثير ٢ / ٨٤ ـ ٨٥ البداية والنهاية ٧ / ٣٢ .

عبيد[1] بن مسعود الثقفي فقال : إنا سمعنا كلامك وأنا أول من أجاب إلى هذه الدعوة والجهاد في سبيل الله ، أنا ومن أجابني من قومي وعشيرتي . قال : ثم وثب سليط بن قيس[2] الأنصاري فقال : يا أمير المؤمنين ! إنما كان قعودنا عن هؤلاء الفرس إلى وقتنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، ألا ! وإني قد وهبت نفسي لله ، أنا ومن أجابني من بني عمي ومن اتبعني . قال : فلما سمع الناس كلامه وكلام أبي عبيد[1] ضجوا من جانبي المسجد وقالوا : يا أمير المؤمنين ! ول علينا رجلاً من المهاجرين أو الأنصار[3] حتى نسير معه إلى عدونا . قال عمر : لعمري والله ! ما أجد لها أحق من الذي أندب إليه بدياً ـ يعني أبا عبيد[1] بن مسعود الثقفي ، ولولا أن سليط بن قيس عجول في الحرب لأمرته عليكم[4] ؛ ولكن أبو عبيد[5] هو الأمير وسليط بن قيس هو الوزير ؛ فقال الناس : سمعنا وأطعنا .

قال : ثم تجهز الناس للخروج مع أبي عبيد[1] ، وخرج أبو عبيد[1] من مدينة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) في أربعة آلاف[6] من المهاجرين والأنصار والعبيد والموالي ومعهم المثنى بن حارثة الشيباني حتى نزل القوم بإزاء العراق ، واجتمعت قبائل ربيعة إلى المثنى بن حارثة الشيباني في قريب من ألف رجل ، فصار القوم خمسة آلاف يزيدون قليلاً .

ونزل القوم بإزاء مسلحة وفيها قائد من قواد كسرى يقال له جابان ، فلما رأى جابان أن العرب قد نزلت بساحته جمع نواحيه وضم إليه جيشه[7] وخرج يوماً على

---

(١) بالأصل : أبو عبيدة خطأ . وما أثبتناه عن الطبري . وفي فتوح البلدان ص ٢٥١ أبو عبيد بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف . وهو أبو المختار بن أبي عبيد .

(٢) في فتوح البلدان : « عمرو » خطأ .

(٣) ولم يكن أبو عبيد صحابياً (البداية والنهاية) .

(٤) زيد في الطبري : وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلاّ عن بيان ، والله لولا سرعته لأمّرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث .

(٥) بالأصل : أبو عبيدة خطأ .

(٦) في فتوح البلدان ص ٢٥١ : في ألف . وفي البداية والنهاية ٧ / ٣٢ سبعة آلاف .

(٧) وذلك في نواحي تستر كما في فتوح البلدان ص ٢٥١ وعند الطبري ٣ / ٤٤٨ وابن الأثير ٢ / ٨٥ والبداية والنهاية ٧ / ٣٢ بموضع يقال له النمارق . (بين الحيرة والقادسية) .

فرس له وبين يديه المرازبة وبأيديهم الحراب والقسي والنشاب وغير ذلك من أنواع السلاح ، وطلب البراز وسأل النزال ؛ فخرج إليه ثلاثة نفر أو أربعة نفر من المهاجرين فقتلهم جابان ، فقال أبو عبيد[1] بن مسعود لسليط بن قيس الأنصاري : يا أخا الأنصار ! ما لي أرى قومك قد كاعوا عن القتال ؟ فقال سليط : لا لعمري والله ! ليس قومي [ممن] كاعوا ولا ممن يكرهون الحرب والطعان ولا يقتنون القيان ؛ ثم قال سليط : يا معشر الأنصار ! من ينتدب منكم لهذا الأعجمي ؟ قال : فوثب رجل من الأنصار يقال له مطر بن فضة وكان يدعى بأمه قال : أنا له .

ثم خرج مطرٌ بن فضة نحو جابان فحمل عليه والتقيا ، ونظر إليه جابان بطعنتين طعنه الأنصاري طعنة أرداه عن فرسه ، وبادر إليه مطر بن فضة فقعد على صدره وهم بذبحه ، فقال جابان من تحته : لا إله إلا الله ، فتباطأ مطر في قتله ولم يقتله ، فقال له جابان : لا تقتلني ولك عليّ غلام وجارية دون أصحابك .

قال : فحمله الأنصاري مردفاً على فرسه[2] ، فلما أدخله العسكر قالت له قبائل ربيعة : يا فتى ! هل عرفت أسيرك ؟ قال : نعم هو بعض عدوي ، فقالت : ويحك ! هذا جابان ملك هذه الناحية ، فبماذا أرضاك حتى كففت عنه ولم تقتله ؟ قال : غلام وجارية ، فقالت ربيعة : تربت يداك ! لو طلبت من هذا مائة غلام ومائة جارية لأعطاك ، فقال : ما كنت بالذي أغدر به بعد أن أخذ موثقي وأخذت موثقه . قال : فلما سمع جابان أعطاه غلامين وجاريتين وفرسين وألفي درهم ، وأسلم وحسن إسلامه[3] ؛ فولاه أبو عبيد[1] أرضه .

وبلغ ذلك كسرى يزدجرد بن هرمز بأن جابان قد أسر وقد دخل في دين العرب ، فاغتم لذلك غماً شديداً ، ثم دخل إلى ابنة له يقال لها بوران[4] وكانت

---

(١) بالأصل : أبو عبيدة . وقد صحح في المواضع التالية دون الإشارة إليه .

(٢) وقيل إن مطر أطلقه ، وأمسكه بعض المسلمين وأبوا أن يطلقوه وجاؤوا به الأمير ، الذي أقر أمان مطر بن فضة له وأبى أن يقتله . (الطبري - ابن الأثير - ابن كثير) .

(٣) لم يرد في المصادر السابقة ذلك .

(٤) عن الطبري : ٣ / ٤٥٠ وبالأصل : « بودى » تحريف . وقد صححت في كل المواضع التالية دون الإشارة إلى ذلك .

سيدة بنات الفرس في دهرها ، فلما نظرت إلى أبيها يزدجرد مغموماً فقالت : ما حالك أيها الملك ؟ فخبرها بأن جابان قد أسر ودخل في دين العرب ، فقالت : لا عليك أنا أفرج عنك .

ثم إنها كتبت إلى ملك أذربيجان[١] يقال له مهران بأن العرب قد ظهروا علينا فهلم إلى ما قبلنا بخيلك ورجلك فقاتلهم ، فإن ظفرت بهم زوجتك نفسي ووضعت تاج أبي على رأسك عشر سنين ، فإذا انقضت العشرة رددتك إلى بلادك وضممت إليك أرمينية فجعلتها زيادة على عملك .

قال : فلما ورد كتاب بوران على مهران أجابها في العدة والعدد فخرج من بلاد أذربيجان في ثمانين ألفاً أويزيدون ، ومعه الفيلة مشهورة بأنواع الزينة على ظهورها القباب حتى صار إلى العراق ، ثم دخل إلى يزدجرد ، فأدناه يزدجرد ووعده ومناه .

فلما كان من غد سار مهران إلى حرب المسلمين حتى نزل على شاطىء الفرات في ثمانين ألفاً . قال : ونظرت العرب إلى ذلك وهم من ذلك الجانب ، فقال أبو عبيد بن مسعود لسليط بن قيس : يا أبا عمرو ! ما ترى ؟ قال : أرى أن العرب تكر ولا تفر ، والرأي عندي أن ترحل من هذا الموضع إلى فضاء من الأرض ونجعل للخيل متسعاً وجولاناً ، قال : فقال أبو عبيد : يا أبا عمرو ! إنك فارسها وقد جبنت ؟ فقال سليط بن قيس : قد أمرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تسمع مشورتي ولا ترد نصيحتي ، قال أبو عبيد : ولا قبلت نصيحتك ولأعقدن إليهم جسراً ولأعبرن إليهم لي أم عليّ ؛ فسكت سليط بن قيس .

وعقد الجسر بموضع يقال بانقيا[٢] ، وكان الذي عقده لهم رجل من الدهاقين يقال له برصلوما[٣] ، وعبر أبو عبيد بالمسلمين وهم خمسة آلاف إلى مهران[٤] وهو

---

(١) بالأصل بادربيجان وما أثبتناه عن معجم البلدان .

(٢) كذا ، وفي الطبري ٣ / ٤٥٤ بالمروحة ويقال قس الناطف ويقال: الجسر (الكامل ٢ / ٨٨) ، وقس الناطف : موضع على شاطىء الفرات الشرقي بسواد الكوفة . والمروحة على شاطىء الفرات الغربي (معجم البلدان) .

(٣) في الكامل لابن الأثير : ابن صلوبا . وفي تاريخ خليفة : صلوتا . =

في ثمانين ألفاً أو يزيدون . قال : وتبادرت الفرس فأخذوا السلاح .

ذكر وقعة الجسر
وهي أول وقعة للمسلمين مع الفرس

قال : فكان أول من تقدم إلى حرب الفرس سليط بن قيس الأنصاري ، ثم حمل يقاتل حتى أثخن بالجراحات ، ثم رجع إلى موقفه . قال : وتقدمت قبيلة من الفرس ومعهم فيل لهم يقال له الأصم على ظهره قبة ديباج ، فيها قائد من قواد كسرى يقال له شهريار وهو أخو رستم .

قال : فلما نظرت خيل المسلمين إلى ذلك الفيل كأنها فزعت منه ، ونظر أبو عبيد إلى ذلك الفيل فتهيأ للحملة عليه ثم قال لأصحابه : ويحكم ! ما هذه الدابة ؟ فقيل له : أيها الأمير ! هذا الفيل ، قال : قد علمت أنه الفيل ولكن هل له من مقتل ؟ فقيل : نعم أيها الأمير ! إذا قطع خرطومه مات . قال : فقال سليط بن قيس : أيها الأمير ! ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أحمل على هـذا الفيل حملة وأضـرب خرطومه بسيفي فأقتله إن شاء الله تعالى ! قال سليط : أيها الأمير ! دع عنك هـذا الفيل ، فلك في غيره سعة ، فقال أبو عبيد : ما أريد سواه ولا أقصد غيره ؛ ثم قال أبو عبيد : اقرأ على قبر محمد ﷺ مني السلام ، ثم قال : يا معشر المسلمين ! انظروا إن أنا قُتلت فأميركم من بعدي وهب ابني ، فإن أصيب فابني مالـك ، فإن أصيب فابني جبر ؛ فإن أصيب فسليط بن قيس ، فإن أصيب فأبو محجن الثقفي ، فإن أصيب فالمثنى بن حارثة ؛ فإن أصيب فأمر بعضكم إلى بعض .

ثم تقدم راجلاً بسيفه نحو الفيل ثم حمل على الفيل فضرب خرطومه ضربة فقطعه وذهب ليولي إلى عسكره فعثر على وجهه ووقع عليه الفيل فحطمه ـ رحمة الله عليه ـ !

= (٤) كذا بالأصل ، وفي الطبري وابن الأثير : بهمن جاذويه ، وفي فتوح البلدان : « ويقال اسمه رستم » ، ويقال له : ذا الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه بعصابة ليرفعهما كبر . وفي تاريخ خليفة : بهمن بن خوهر مزمان . وفي البداية والنهاية : بهمس حادويه . وفي تاريخ اليعقوبي : بعث إليهم رستم بذي الحاجب .

قال : وذهب ابنه وهب بن أبي عبيد[1] ليتقدم إلى الحرب . . . .[2] إلى ذلك أبو محجن الثقفي ، فأخذ الراية وتقدم نحو الفرس ثم حمل على الفرس فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم جماعة ثم رجع فدفع الراية إلى وهب بن أبي عبيد ، فأخذ وهب الراية وتقدم ثم حمل ، ولم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه -! وتقدم أخوه مالك بالراية ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه -! ثم تقدم أخوهما الثالث فأخذ الراية ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه -! قال : وتقدم رجل من المسلمين وهو سليط بن قيس الأنصاري ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه -! قال : وتقدم رجل من المسلمين يقال له عبدالله بن مرثد وسيفه في يده فصار إلى حبال الجسر فقطعها ومر الجسر منقطعاً في الفرات[3] . قال : وحمل هذا الرجل عبدالله بن مرثد على الفرس فلم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه -!

قال : واشتبك الحرب وكثر القتل في المسلمين ثم وقعت الهزيمة على الفرس فانهزموا وأخذهم السيف فقتل منهم مقتلة عظيمة وجاء الليل واختلط الظلام ، فرجع المسلمون إلى عسكرهم فدفنوا قتلاهم وباتوا هنالك ، فلما أصبحوا عقدوا الجسر ثانية ثم إنهم عبروا إلى عسكرهم الأول فنزلوا فيه .

وأفلت رجل يقال له معاذ بن حصين الأنصاري[4] فمر على وجهه يقطع البلاد حتى صار إلى المدينة ، فدخل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في المسجد فسلم عليه ثم وقف بين يديه فأنشأ يقول . . . .[5] قال : فقطع عليه عمر فقال : يا أبا الحصين ! دعنا من الشعر ، خبرنا بأمر الناس ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ! أنعي

---

(١) في فتوح البلدان : فأخذ اللواء أخوه الحكم . وفي تاريخ اليعقوبي : وقام بالجيش المثنى بن حارثة الشيباني . وفي الكامل لابن الأثير : وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ثم أخذ اللواء المثنى . (وانظر البداية والنهاية ٧ / ٣٤ والطبري ٣ / ٤٥٧) .

(٢) مطموس بالأصل . انظر الحاشية السابقة .

(٣) في الكامل لابن الأثير ٢ / ٨٩ لما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه بادرهم إلى الجسر فقطعه وقال : أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا .
قال الطبري ٣ / ٤٥٧ : فأخذوه ، فأتوا به المثنى فضربه وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : ليقاتلوا .

(٤) في الطبري ٣ / ٤٥٨ عبد الله بن زيد بن الحصين الخطمي ، وفي البداية والنهاية : عبد الله بن زيد بن عاصم المازني ، وفي فتوح البلدان : عروة بن زيد .

(٥) بياض بالأصل .

إليك أبا عبيد ـ رحمة الله عليه ـ! وأنعي إليك بنيه الثلاثة وهباً ومالكاً وجبراً، وأنعي إليك سليط بن قيس الأنصاري وفلاناً وفلاناً ـ فلم يزل يعد وجوه المهاجرين والأنصار ؛ فقال له عمر : فالمثنى بن حارثة الشيباني ما حاله ؟ فقال : تركته جريحاً يا أمير المؤمنين .

قال : فضج الناس بالبكاء والنحيب ، ثم دعا عمر رضي الله عنه بجرير بن عبد الله البجلي فقال له : ويحك يا جرير ! إنا قد أصبنا بالمسلمين مصيبة عظيمة والمثنى بن حارثة في وجه العدو غير أنه جريح لما به ، فسر نحو العراق فعسى الله عز وجل أن يدفع شر هؤلاء الأعاجم وتخمد بك جمرتهم[1] .

قال : فسار جرير بن عبد الله من المدينة في سبعمائة رجل حتى صار إلى العراق فنزلها[2] ، وبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إليه « أما بعد يا جرير فإنا نحن الذين قدمنا المهاجرين والأنصار من بلدهم ، وأقمنا نحن في نحر العدو نكابدهم ليلاً ونهاراً ، وإنما أنت مدد لنا فما انتظارك ـ رحمك الله ـ لا تصير إلينا ؟ فصر إلينا وكثرنا بأصحابك ، فإن زعمت أنك رجل من أصحاب رسول الله ﷺ لا يلي عليك إلا من كان مثلك فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولى أبا عبيد بن مسعود الثقفي على المهاجرين والأنصار ، فلما حضرته وفاته قد كان ولاني ، ولو علم أني لا أقوم مقامه ما فعل ؛ فرأيك أبا عمرو فيما كتب إليك ـ والسلام » .

قال : فكتب إليه جرير : « أما بعد فقد ورد كتابك عليّ فقرأته وفهمته ، فأما ما ذكرت أنك الذي قدمت المهاجرين والأنصار إلى حرب العدو ، فصدقت وليتك لم تفعل ؛ وأما قولك : إن المهاجرين والأنصار لحقوا ببلدهم[3] ، فإنه لما قتل أميرهم

---

(١) وكان جرير في بجيلة رفضوا إلا المسير إلى الشام ، وعزم عمر أن يسيروا إلى العراق ، ونفلهم ربع الخمس فأجابوا . (الطبري ٣ / ٤٦٠ وابن الأثير ٢ / ٩١) .

(٢) بعث عمر جريراً في بجيلة ، وعصمة بن عبد الله من بني عبد بن الحارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة ، وهلال بن علقمة التيمي مع الرباب ، وابن المثنى الجشمي مع جشم سعد ، وعبد الله بن ذي السهمين مع أناس من خثعم ، وربعي في بعض بني حنظلة ، وربعي بن عامر بن خالد العنود على بعض بني عمرو ، وقرط بن جماح على عبد القيس ، وابن مردى التغلبي في أناس من بني تغلب وأنس بن هلال النمري في بني النمر . كلهم مدداً للمثنى بن حارثة بعدما بلغ عمر ما لاقى المسلمون في وقعة الجسر (راجع الطبري ٤ / ٧٣ بولاق وابن الأثير ٢ / ٩١ وفتوح البلدان ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤) .

(٣) وكان كثير من الناس بعد وقعة الجسر قد هربوا على وجوههم لا يدرى إلى أين رحلوا ، ومنهم من رجع إلى المدينة النبوية مذعوراً (البداية والنهاية ٧ / ٣٤) .

لحقوا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وأما ما ذكرت أنك أقمت في نحر العدو فإن أقمت في بلدك وبلدك أحب إليك من غيره ؛ وأما ما سألتني من المصير إليك فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لم يأمرني بذلك ، فكن أنت أميراً على قومك وأنا أمير على قومي ـ والسلام » .

قال : وجرى بينهما اختلاف وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١) ، فجمع المهاجرين والأنصار وشاورهم في أن يصير إلى العراق بنفسه ، فكل أشار عليه بذلك وقال : يا أمير المؤمنين ! إن جيشاً تكون فيه أنت خير من جيش لم تحضره ؛ وقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه فقال : يا أمير المؤمنين ! إن كل إنسان يتكلم بما يحضره من الرأي ، والرأي عندي أن لا تصير إلى العراق بنفسك ، فإنك إن صرت إلى العراق وكان مع القوم حرب واختلط الناس لم تأمن أن يكون عدو من الأعداء يرفع صوته ويقول : قتل أمير المؤمنين ! فيضطرب أمر الناس ويفشلوا عن حرب عدوهم ويظفر بهم العدو ، ولكن أقم بالمدينة ووجه برجل يكفيك أمر العدو وليكن من المهاجرين والأنصار البدريين . فقال عمر : ومن تشير علي أن أوجه به يا أبا الحسن ؟ قال : أشير عليك أن توجه رجلًا يشرح باليسير ويسر بالكثير ، فقال عمر : من هذا أشير عليّ ؟ قال عليّ : أما أنا فإني أشير عليك أن توجه إليهم سعد بن أبي وقاص ، فقد عرفت منزلته من رسول الله ﷺ ، فقال عمر : أحسنت ! هو لها ، ما لها سواه(٢) .

قال : ثم دعا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما فقال : يا سعد بني وهب ! إن الله تبارك وتعالى إذا أحب خلقاً حببه إلى خلقه ، وأنا موجهك إلى أرض العراق

---

(١) في الطبري ٣ / ٤٧٢ فكتب عمر إلى المثنى : إني لم أستعملك على رجل من أصحاب محمد (ص) ـ يعني جريراً .

(٢) لم يكن إرسال سعد بن أبي وقاص إلى العراق بسبب خلاف جرير والمثنى على أية حال . إنما كان بسبب ما بلغ عمر من حدوث تطورات هامة منها :

ـ تغيير القيادة في فارس ، وتمليك يزدجرد الذي ضبط أمورهم وحسن تدبيره واشتدت المملكة وقوي أمر الفرس .

ـ ارتداد أهل السواد وإخراج المسلمين عن المروج . وخرقوا العهود التي كانت في أيديهم .

ـ ارسال المسلمين إلى عمر يطلبون المدد بعد اجتماع الفرس على ملكهم واطمئنان الفرس واستيثاقهم لقوتهم ، وتباريهم في طاعته (اليعقوبي ٢ / ١٤٣ الكامل لابن الأثير ٢ / ٩٥ الطبري ٣ / ٤٧٧ فتوح البلدان ص ٢٥٥) .

لتكون أميراً على جميع من قدمت عليه ، فسر وقل : لا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلم أني لست أترك أحداً يطيق حمل السلاح إلا وجهت به إليك ، وأنا أرجو أن يفتح الله على يديك ؛ ثم جمع له عمر رضي الله عنه الناس من كل أوب حتى صار سعد في سبعة آلاف[1] ، ثم سار حتى نزل بموضع يقال له شراف[2] ، وجعل عمر لا يقدم عليه أحد إلا وجه به إليه ، فكان أول من قدم عليه عمرو بن معديكرب الزبيدي في زهاء خمسمائة رجل ، وطليحة بن خويلد الأسدي في ثمانمائة فارس ، وشرحبيل بن السمط الكندي في سبعمائة راكب ، وفرات بن حيان العجلي في سبعمائة راكب ، والمغيرة بن شعبة في ثلاثمائة راكب ، وعاصم بن عمرو التميمي في أربعمائة راكب ، وعاصم بن زرارة التميمي في ستمائة راكب ، وخثيم بن عبد الله السلمي في ألف راكب ، والمكشوح المرادي في أربعمائة راكب . قال : وصار إليه جرير بن عبد الله البجلي في ستمائة راكب من بجيلة[3] .

قال : فالتأمت العساكر إلى سعد في جمع عظيم وهو نازل بشراف ، وقد هجم عليه الشتاء وأكبت عليه الأمطار ، والفرس في جمع عظيم وقد بلغهم أن سعد بن أبي وقاص نازل بشراف وقد اجتمعت إليه العساكر وكأنكم به وقد وافاكم عن قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : ثم إن المثنى بن حارثة انتقضت عليه جراحاته التي أصابته يوم الجسر فمرض مرضاً شديداً ومات رحمة الله عليه ، وبلغ ذلك سعد بن أبي وقاص فأرسل إلى امرأته سلمى بنت حفصة[4] التميمية فخطبها وتزوجها بعد أن انقضت عدتها . قال : فكان سعد بن أبي وقاص مقيماً بشراف ينتظر أن ينحسر عنه الشتاء .

ذكر تحرك الروم بأرض الشام من أرض فلسطين

قال : وكبر أمر المسلمين على الروم واشتد عليهم ما كان من فتح دمشق وما قد

---

(١) عند اليعقوبي ٢ / ١٤٣ ثمانية آلاف . البداية والنهاية ٧ / ٣٦ ستة آلاف . ابن الأثير ٢ / ٩٧ أربعة آلاف .

(٢) شراف : بين واقصة والفرعاء ، على ثمانية أميال من الأحساء التي لبني وهب .

(٣) كان قدوم سعد حلاً للتنازع على الامارة بين جرير والمثنى .

(٤) في الكامل لابن الأثير ٢ / ٩٨ سلمى بنت خصفة . وفي الطبري ٣ / ٤٨٩ سلمى بنت خصفة التيمية ، تيم اللات .

اجتمعوا بأرض العراق فهالهم ذلك ورعبهم وأشفقوا على أنفسهم ، فجعلوا يجمعون الجموع ويستمدون من يليهم من نصارى العرب حتى صاروا في ثمانين ألفاً من النصرانية . قال : وبلغ ذلك أبا عبيدة بن الجراح وهو يومئذ مقيم بمدينة دمشق فدعا بعمرو بن العاص فضم إليه سبعة آلاف فارس وأرسله إلى الروم ، واتبعه يزيد بن أبي سفيان في سبعة آلاف فارس ، واتبعه شرحبيل بن حسنة في ستة آلاف فارس ؛ فذلك عشرون ألفاً .

قال : والروم يومئذ بموضع يقال له فحل[1] ، فلما نظروا إلى عساكر المسلمين قد وافتهم في عشرين ألفاً[2] كتبوا إلى هرقل ملك الروم بذلك وسألوه المدد ؛ قال : فوجه إليهم هرقل بصليبين وبطريقين في عشرين ألفاً ، فصارت الروم في مائة ألف ؛ وكتب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة يخبره بذلك[3] ، فأقبل أبو عبيدة على خالد بن الوليد رضي الله عنهما فقال له : أبا سليمان ! هذا كتاب عمرو بن العاص قد ورد علينا يخبر أن الروم قد اجتمعوا بأرض فلسطين في ثمانين ألفاً وهؤلاء جواسيسنا من أنباط الشام قد جاؤوا إليّ خبروني أن أهل بعلبك في عشرين ألفاً ، فما الرأي عندك ؟ فقال : إذاً أخبرك أيها الأمير ! أما فلسطين فقد علمت أن عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة في وجوههم في عشرين ألفاً ، فاكتب إليهم أن لا تعجلوا محاربة القوم حتى أنا أمضي إلى بعلبك فأكفهم إن شاء الله ، فإذا فرغت من أمرهم صرت إلى فلسطين فأعنت المسلمين على قتال عدوهم ، فقال أبو عبيدة : نعم ما رأيت أبا سليمان !

قال : ثم كتب أبو عبيدة إلى عمرو بن العاص ومن معه من المسلمين بأرض

---

(١) فحل بكسر أوله وسكون ثانيه اسم موضع بالشام كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم (معجم البلدان) وقيل : موضع بين طبرية وبيسان بوادي نهر اليرموك ، كانت فيه وقائع كثيرة .

(٢) أضاف الأزدي أنه بعد أن جاء المسلمون بأجمعهم جاءت لخم وجذام وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاعة فدخلوا مع المسلمين فكثر عددهم (ص ١١١) .

(٣) نسخة كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة (عن فتوح الأزدي ص ١٠٧) :
بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الروم قد أعظمت فتح دمشق واجتمعوا من نواحي الأردن وفلسطين ، فتكاتبوا وتواثقوا وتعاقدوا ألا يرجعوا إلى النساء والأولاد حتى يخرجوا العرب من بلادهم ، والله مكذب قولهم وأملهم ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . فاكتب إليّ برأيك في هذا الحدث ، أرشد الله أمرك وسددك وأدام رشدك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فلسطين فأمرهم أن لا يعجلوا بالمحاربة على عدوهم إلى أن يوافيهم خالد بن الوليد .

قال : وخرج خالد بن الوليد من دمشق في خمسة آلاف فارس يريد بعلبك ، وخرج معه أبو عبيدة ليشيعه فجعل يوصيه ويقول له : أبا سليمان ! أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له ، فإذا أنت وافيت القوم فلا تطاولهم فإنهم في حصونهم وديارهم يأكلون ويشربون وينتظرون أن تأتيهم امداد من الروم فيقووا بهم ، وإذا عاينوك وإلى خيلك يخافوك فاتقوا ناحيتك ، فإن أنت ناظرتهم وطاولتهم ذهب الرعب من قلوبهم ورجعت إليهم أنفسهم فأجنوا عليك وعلى أصحابك ، وإن أنت كفيتهم وهزمتهم انقطع رجاؤهم[1] واشتد رعبهم فسر يرحمك الله ! فإن احتجت إلى مدد فابعث إليّ حتى أمدك بنفسي ومن معي من المؤمنين إن شاء الله ولا قوة إلا بالله . فقال له خالد : إني قد قبلت وصيتك أيها الأمير ! فارجع إلى أصحابك راشداً يرحمك الله ! قال : فوادعه أبو عبيدة ورجع إلى دمشق ، ومضى خالد في خمسة آلاف فارس من خيله وأصحابه الذي يعتمد عليهم ويقاتل حتى صار إلى بعلبك .

ذكر الواقعة بمدينة بعلبك

قال : ونظر أهل بعلبك إلى خيل المسلمين قد وافتهم فاستقبلوهم بالعطعطة[2] والنعير ، والتقى القوم فاقتتلوا من ضحوة النهار إلى قريب الظهر ؛ ثم صاح خالد بالناس : أيها المسلمون ! ليس هذا يوم مطاولة وأنا حامل فاحملوا رحمكم الله ! قال : ثم حمل خالد والمسلمون معه فقتلوا من الروم حتى احمرت الأرض من دمائهم وأفلت منهم من أفلت بشر حالة تكون حتى لحقوا ببيسان[3] وصار بعضهم إلى فلسطين وما والاها ، واحتوى خالد بن الوليد على أموال وسلاح وخيل وسبي كثير فوجه به كله إلى دمشق إلى أبي عبيدة بن الجراح وخبره بما فتح الله عز وجل على يديه من أمر بعلبك .

---

(١) عند الأزدي ص ١٠٩ : وسقط في خلدهم ، وساء ظنهم .

(٢) العطعطة : تتابع الأصوات واختلافها في الحرب .
والنعير : الصراخ في حرب أو شر (اللسان) .

(٣) بيسان : بلد من أرض فلسطين شمالي نابلس . وكان الذين توجهوا من بعلبك من جموع الروم وأهل بعلبك ومن وافاهم من دمشق أكثر من عشرين ألفاً .

قال : فكتب أبو عبيدة إليه أن يسير إلى فلسطين معونة لإخوانه المسلمين .

قال : فسار بمن معه من أصحابه حتى وافى أرض فلسطين . قال : ونظرت الروم إلى عساكر المسلمين قد وافتهم من كل أوب فانحازت الروم إلى موضع يقال له فحل ونزلوا هنالك .

قال : ورأى أبو عبيدة من الرأي أن يلحق بأصحابه فيكون معهم وأن لا يغيب عما هم فيه ، فدعا برجل من المسلمين فولاه مدينة دمشق[1] وخرج حتى لحق بأصحابه ، فعلمت الروم أن أبا عبيدة قد وافى بأصحابه .

ذكر رسالة الروم إلى أبي عبيدة وإجابته إياهم على كتابهم

قال : فأرسلت الروم إلى أبي عبيدة : « أيها الشيخ ! اخرج أنت ومن معك من[2] أهل دينك من بلادنا هذه التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب والخير الكثير وارجعوا إلى بلادكم بلاد القحط والجوع والبؤس والفقر وإلا أتيناكم فيما لا قبل لكم به من الخيل والجنود ثم لا ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف وقد أعذر من أنذر » . فقال أبو عبيدة بن الجراح لرسولهم الذي جاء إليه بهذه الرسالة : ارجع إليهم وبلغهم عني ما أقول ، قال الرسول : قل ما تشاء ، فقال : قل لهم عني : أما قولكم أن اخرجوا من بلادنا هذه فلستم لها بأهل فلعمري ما نحن أهلها ، والله تبارك وتعالى هو الذي جاء بنا إليها ولم نكن بالذي نخرج عنها فقد ورثنا الله إياها فأخذناها بأسيافنا وفتحناها عنوة وغنماً ونزعها الله من أيديكم وجعلها في أيدينا ، وإنما البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ، وهو ملك الملوك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ؛ وأما ما ذكرتم من بلادنا أنها بلاد البؤس والشقاء فقد صدقتم أنها لكذلك كما ذكرتم وقد أبدلنا الله عنها ببلادكم هذه ليبلو صبرنا وشكرنا ، ولما رأى الله تبارك وتعالى قلة صبركم وكثرة صبرنا وقلة شكركم وكثرة شكرنا رآنا لهذه البلاد أهلاً وأبدلنا بلاد البؤس والشقاء ببلاد الخير الكثير والعيش الرفيع[3] والجانب الخصيب ، وكنا أحق بها وأهلها لإيماننا

---

(١) عند ابن الأثير ٢ / ٨٣ استخلف يزيد بن أبي سفيان .

(٢) عند الأزدي : ص ١١٣ : من أصحابك ، وأهل دينك .

(٣) عند الأزدي : والسعر الرخيص ، والأنهار الجارية ، والثمار الكثيرة .

بـالله وكفركم بـه ، فلا تحسبـونا تـاركيها ومنصـرفين عنهـا ولا خـارجين منهـا إلى غيرها[1] ، فذروا عنكم تمني الأباطيل والأماني الكاذبة ؛ وأما قولكم بأنكم تأتوننا فيما لا قبل لنا به فوالله لا تأتوننا بجند إلا أتيناكم بمثله أو ضعافه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، فكونوا من ذلك على يقين[2] .

قال : فلما انتهت إليهم هذه الرسالة من أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كأنهم انكسروا لذلك وداخل قلوبهم الرعب والخوف ، فأرسلوا إليه أن ابعث إلينا رجلاً من صلحاء أصحابك حتى نسأله عما تريدون وتطلبون وتسألون ونخبره بما عندنا وندعوكم إلى حظكم ورشدكم .

ذكر مسير معاذ بن جبل إلى الروم
وما كان من كلامه معهم

قال : فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ـ رضي الله عنهما ، فأقبل إليهم معاذ على فرس له أدهم ، على رأسه عمامة له حمراء ، عليه درع له سابغ قد ظاهره بحريرة صفراء وقد تقلد بسيف له يمان . حتى إذا دنا من القوم نزل عن فرسه وأخذ بعنانه وجعل يقوده وهو يمشي إليهم ، فقال بعضهم لبعض غلمانه : اذهب فأمسك عليه فرسه ، فقال معاذ للغلام : إليك عني ! فإني أمسك فرسي ولا أحب أن يمسكه غيري .

قال : ثم دنا منهم فإذا بجماعة من بطارقتهم قعود على فرش ونمارق[3] تكـاد أن يغشى الأبصار حسنها . قال : وتقدم إلى معاذ رجل منهم فقال له : ناولني فرسك أمسكه لك واجلس مع هؤلاء الملوك فإنهم سادات الروم وأشرافها ، فقـال معاذ : لست أحب أن أكلمهم إلا وأنا قائم .

قال : فقال له الترجمان : يا هذا ! إن القوم يكرهون أن يكلموك وأنت قائم ، فقال معاذ : أيها الرجل ! إني لم أقم على رجلي بين أيديهم إعظاماً لهم ، ولكني أكره أن أجلسِ على هذه النمارق[4] لأنها من زينة الدنيا وقد زهد الله عزّ وجلّ عباده

---

(١) زيد عند الأزدي : حتى نفنيكم ونخرجكم عنها .
(٢) عند الأزدي : وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم ، ونتأصل شأفتكم إن شاء الله .
(٣) النمارق جمع نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .
(٤) زيد عند الأزدي ص ١١٦ : التي استأثرتم بها على ضعفائكم واصل ملتهم .

فيها ، ذمها ونهى عن زينتها ، فإن نبينا محمداً ﷺ نبي الهدى والصادق المصدوق قد كان نهى أن لا يقوم لأحد من خلق الله ، ولا يكون قياماً إلا لربنا في الصلاة والعبادة والرغبة والرهبة ، وليس قيامي لكم ولكني أقوم إعظاماً لله عزّ وجلّ فإذ قد أبيتم أن تكلموني وأنا قائم فأنا أجلس ههنا ؛ قال : ثم رفع معاذ طرف البساط وجلس [على] الأرض .

فقال له الترجمان : يا هذا ! إن جلوسك على التراب من جلوس العبيد فلا تزر بنفسك إن كنت عربياً فإن جلوسك مع قومنا على بساطهم هو أكرم لك وأجمل بك من جلوسك على الأرض متنحياً عن البساط كصنع العبد الذليل الذي لا يرى نفسه للكرامة أهلاً ، فلا تفعل أيها الرجل بنفسك هذا واجلس مع القوم على بساطهم ، فليس كل أحد يطمع في ذلك منهم غير أنهم قد بلغهم عنك صلاح وفضل فهم يحبون إكرامك ؛ فقال معاذ : يا هذا ! قد أكثرت عليّ من كلامك هذا ، إن كانت هذه الكرامة التي تدعوني إليها للدنيا فلا حاجة لي فيها ، وأما قولك إني جلست كالعبد فإني إنما أنا عبد من عبيد الله تعالى وإنما جلست على بساط ربي عز وجل[1] .

قال : فقال له الترجمان : إني أظنك أفضل أصحابك ، قال : لا ولكني أخاف أن أكون أشرهم .

قال : وجعل معاذ كلما تكلم بشيء يفسره الترجمان للقوم . قال : ثمّ أقبل عليه الترجمان فقال : إن القوم يقولون لك : ما الذي تطلبون وتريدون وإلى ماذا تدعون ؟ ونريد أن تخبرونا ما الذي أدخلكم إلى بلادنا هذه وتركتم أرض الحبشة وليست منكم ببعيدة ، وتركتم أرض الفرس وهي أقرب إليكم منا[2] ، اعلموا أن بأسنا شديد وشرنا عنيد ، وإنكم إن كنتم فتحتم مدينة من مدننا فاحتويتم عليها ونزلتموها أو مدينتين أو ثلاثة كانت لنا مدن كثيرة ، فإن هزمتم لنا جيشاً كانت لنا جيوش أخر لأن

---

(١) زيد عند الأزدي : ولا أستأثر لشيء من مال الله على إخواني من أولياء الله ، وأما قولكم : إني أزريت بنفسي عن مجلس ، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك . فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك .

(٢) زيد عن الأزدي : وقد هلك ملك فارس ، وهلك ابنه ، وإنما تملكهم اليوم النساء ، ونحن ملكنا حي ، وجنودنا عظيمة كثيرة .

ولد الأصفر في الأرض أكثر من عدد الحصى وأكثر من عدد النجوم في السماء ، فهيهات يا معشر العرب هيهات ما أبعدكم وما تطلبون منا ! وبعد فإنا قد أنكرنا عليكم ما أنتم عليه من استحلالكم لقتالنا وأنتم تزعمون أنكم تؤمنون بكتابنا وبنبينا ، فكيف هذا فاشرحوه حتى نعلم .

قال : فلما فرغ الترجمان من كلامه أقبل عليه معاذ فقال : إني فهمت ما تكلمت به عن لسان القوم ، ويجب عليك أن تفهمهم عني ما أقول ، فقال الترجمان : أفعل ذلك فقل ما تشاء . فقال معاذ : قل لهم عني : أما قولكم : ما الذي أدخلكم إلى بلادنا وتركتم أرض الحبشة وأرض الفرس ، فإن السبيل فيكم وفيهم واحد لأن الله تبارك وتعالى قال لنا في كتابه ﴿ يٰأيها الذين اٰمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾[1] فكنتم أقرب إلينا منهم ، فقدمنا نحن إليكم ، وقد بعث صاحبنا إلى أولئك الذين بالعراق من الفرس طائفة أخرى يقاتلونهم كما نقاتلكم ، ونحن نرجو أن يفتح الله علينا وعليهم إن شاء الله عز وجل !

وأما قولكم : إن بأسكم شديد وإن جندكم كثير وإنكم على عدد النجوم والحصى[2] ، فإن جنودنا وإن كثرت وعظمت فلا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصرة على أعدائنا بكثرتها ، ولكنا نبرأ من الحول والقوة ونتوكل على ربنا تبارك وتعالى ، و﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾[3] وقد رفعها الله عز وجل وأعزها ! وكم من فئة كثيرة قد خذلها وأذلها والله مع الصابرين ! وأما ما ذكرتم لهرقل وتعظيمكم لملككم فإنه سيموت عن قريب ! وملكنا هو ربنا الحي الذي لا يموت وهو الذي قد خلقنا وخلقكم ! وأميرنا رجل منا لا يجور ولا يتعدى ولا يظلم ، فإن هو أطاع الله عز وجل وعمل بكتابه وبسنة نبينا محمد عليه السلام فكان فينا مستقيم الطريقة ، وإلا عزلناه وولينا علينا سواه ، وهو مع ذلك لا يحتجب عنا ولا يتكبر علينا ، ومع ذلك فإنه لو سرق لقطعناه ولو زني لجلدناه أو خان لفضحناه ، ولو شتم رجلاً منا رد عليه كما شتمه ، ولو قتل منا رجلاً ظلماً أقاد من نفسه ، وإن ضربه بغير حق اقتص منه ، وإنه كرجل منا لا يستخف بنا ولا يستأثر بالفيء دوننا ، ولا يتخذ الفرش والبسط

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

(٢) زيد عند الأزدي : وتؤيسونا من الظهور عليكم ، فإن الأمر في ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شيء في قبضته .

(٣) سورة البقرة : ٢٤٩ .

والنمارق ، ولا يتكيء على الكراسي تواضعاً لـربه عـز وجل وخـوفاً من الحسـاب والعقاب .

وأما قولكم : إنا نستحل قتالكم ونؤمن بكتابكم ونبيكم ونأكل ذبيحتكم وننكح فيكم ، فإن نبينا إنما نؤمن به على أنا نشهد عليه أنه عبد من عبيد الله عز وجل ورسول من رسله وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فكان بشراً سوياً ، لا نقول إنه ولد الله تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، ولا نقول إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ، ولا نقول إن لربنا صاحبة ولا ولداً تبارك الله وتعالى ولا إن مع الله إلٰهاً آخر ، وأنتم تقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، ولـو أنكم قلتم في عيسى كمقالتنا وآمنتم بنبوة نبينا ووحدتم الله تعالى كتوحيدنا وأقررتم بما جاء من عند ربنا لما قاتلناكم ولواليناكم وقاتلنا معكم عدوكم ؛ والآن فإنا ندعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى الإيمان بمحمد عبده ورسوله على أنكم تستقبلون قبلتنا وتستنون بسنتنا وتكسرون الصليب وتقتلون الخنزير[1] وتجتنبون الخمر والزنا ، فإذا فعلتم ذلك فأنتم منا ونحن منكم ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، فإن أبيتم ذلك فأدوا الجزية في كل عام واعقدوا منا الذمة حتى نكف عنكم ، فإن أبيتم ذلك فاعزموا على القتال والمناجزة ؛ هذا ما نأمركم به وندعوكم إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : فلما فرغ معاذ بن جبل من كلامه هذا وخبرهم الترجمان بما تكلم به أيسـوا مـن قبله ولم يطمعوا فيه ، ثم أقبل إليه الترجمان على لسان القوم فقال : إن القوم يقولون لك : إنا نرى الأمر متباعداً بيننا وبينكم متفاوتاً جداً ، وقد بقيت خصلة واحدة نحن نعرضها عليكم ، إن قبلتموها فهو خير لكم ، وأن أبيتموها ورددتموها فهو شر لكم ؛ فقال معاذ : فما هذه الخصلة اذكروها حتى أعلمها ؟ فقال الترجمان : نعطيكم أرض البلقاء وما والاها[2] مما غلبتم عليه وتتنحون عن بقية أرضناومدائننا وتكتبون لنا عليكم بذلك كتاباً نسمي فيه خياركم وصلحاءكم ونأخـذ فيه عهـودكم ومواثيقكم أنكم لا تطلبون من أرضنا شيئاً إلا ما صالحناكم عليه ونعطيكم منـا من الوفاء مثل ذلك وتنصرفون عنا ، وعليكم بأرض فارس فقاتلوا أهلها ونحن نعينكم

---

(١) عند الأزدي : وتجتنبوا شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير .
(٢) عند الأزدي ص ١٢٠ : من سواد الأردن .

على ذلك . فقال معاذ : أما ما ذكرتم أنكم تعطونا أرض البلقاء فإن البلقاء وغير البلقاء من أرضكم بأيدينا ، ونحن عازمون على أن نجليكم من جميع أرض الشام وتكون بأجمعها لنا إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(١) .

قال : فغضب الترجمان من كلام معاذ ثم خبر القوم ما قال ، فغضبوا لذلك ثم قالوا له : إليك عنا ! نحن نتقرب إليكم وأنت تتباعد عنا ، أما إذ أبيت العافية فارجع إلى أصحابك ، فإنا نرجو أن يغريكم الله غداً في الجبال لبغيكم وظلمكم ؛ فقال معاذ : أما في الجبال فلا يكون ذلك أبداً ، ولكن والله لنقتلن عن آخرنا أو نخرجكم منها أذلة وأنتم صاغرون .

ثم وثب معاذ واستوى على ظهر فرسه وانصرف إلى أبي عبيدة فخبره الخبر على جهته .

قال : وبعثت الروم إلى أبي عبيدة إنا سألناك أن تبعث رجلاً فأرسلت إلينا رجلاً لا يعلم ما يأتي ولا يذر [و] لا ينصف ولا يقبل النصيحة ولا يبصر الحق ولا يريد الصلح ، فلا ندري أذلك عن رأيك أم لا ، ونحن نريد أن تبعث إلينا غير ذلك الرجل حتى نعرض عليه خصالاً لنا ولك فيهم صلاح ، وإلا بعثنا إليك رجلاً يعرض عليك ما عندنا ، فإن قبلت ذلك وإلا فالحرب بيننا وبينك . قال أبو عبيدة لرسولهم : قل لهم : فليبعثوا من شاؤوا .

ذكر الرومي الذي جاء إلى أبي عبيدة وكلامه

قال : فبعث الروم إلى أبي عبيدة رجلاً منهم أزرق العينين طوالاً مهول المنظر ، فلما دخل العسكر جعل ينظر في وجوه عسكر المسلمين فلم يعرف أبا عبيدة من غيره ، وذلك أنه لم ير عليه زي الأمراء ولم ير له مجلساً يعرف ولا فضل هيئة على أصحابه ، فبقي ساعة متحيراً ثم قال : يا معشر العرب ! أيكم صاحبكم ؟ قالوا : هو ذلك القاعد بين يديك .

قال : فنظر العلج إلى أبي عبيدة بن الجراح عليه درع وهو متقلد بسيفه متنكب قوسه وفي يده سهام يقلبها ، فدنا منه العلج ثم قال : أنت أمير هؤلاء القوم ؟ فقال :

---

(١) عند الأزدي : ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وصفت لكم ما قبلنا .

نعم ، أنا أميرهم فتكلم بحاجتك ، فقال له العلج : يا هذا ! فما يجلسك على التراب ؟ فقال : أريد التواضع لربي ، فقال : يا شيخ ! أرأيت لو كنت جالساً على بساط أو على وسادة أكان ذلك واضعاً لك عند ربك ؟ فقال له أبو عبيدة : يا رومي ! إن الله عز وجل لا يستحيي من الحق ، والله ما أملك وسادة ولا بساطاً ولا أملك إلا درعي هذا الذي تراه عليّ وسيفي ورمحي وقوسي وكنانتي ! ولقد احتجت إلى نفقة فلم تكن عندي حتى استقرضت من بعض أصحابي[١] ، وبعد فلو كان لي بساط لما جلست عليه ، ونحن عباد الله ! نمشي على الأرض ونجلس على الأرض وننام على الأرض ونأكل على الأرض ، وليس ذلك لنا عند ربنا بناقص ، لا بل يعظم الله عز وجل بذلك أجورنا ويرفع به قدرنا[٢] ويوجب لنا به المزيد فيما عنده في الآخرة ! فتكلم بحاجتك يا رومي وبما أرسلت به إلينا ، فقال الرومي : نعم إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا شيء أبغض إلى الله من الإفساد ، وقل ما بغي قوم وأفسدوا إلا عمهم الله تعالى منه بهلاك وضلال ، وقد أتيتكم أعرض عليكم أمراً لكم فيه الحظ إن قبلتموه ! فقال أبو عبيدة : وما ذاك الحظ يا رومي ؟ فقال : إن شئتم نعطي كل واحد منكم دينارين زيوف(؟) ، ونعطي الفارس خمسة دنانير وثوبي بزيون(؟) ، وأنت أمير القوم نعطيك ألف دينار ، ونعطي الأمير الذي كان من قبلك خمسمائة دينار ـ يعني خالد بن الوليد ـ ، ونعطي الأمراء والأجناد مائتي دينار ، ونبعث إلى صاحبكم عمر بن الخطاب بألفي دينار على أن تخرجوا من بلادنا وتنصرفوا عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما والاها من بلاد الأردن وتنصرفون عنا وعن بقية أرضنا ومدائننا سالمين معافين بعد أن نكتب بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض ، فهذا ما عندنا ، فهات ما عندك يا شيخ ! فقال أبو عبيدة : فإني أخبرك ما عندي يا رومي ! إن الله تبارك وتعالى بعث إلينا رسولاً وأنزل عليه كتاباً جعله رحمة للعالمين وحجة على الكافرين ، وقد كان أمرنا نبينا محمد ﷺ فقال : إذا لقيتم الذين كفروا فادعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله ، فمن أجابكم منهم إلى دينكم[٣] فهو أخوكم في دينكم وشريككم في حظكم ، له ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى منهم الإيمان فاعرضوا عليه إذاً الجزية حتى يؤديها عن

---

(١) عند الأزدي : يعني معاذ .

(٢) أزدي : درجاتنا .

(٣) عند الأزدي : فمن آمن وصدق فهو أخوكم في دينكم .

يد وهم صاغرون ، فإن كرهوا أن يؤمنوا وأبوا أن يؤدوا الجزية فقاتلوهم ، فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد في جنان النعيم . وقتيل عدوكم في النار والعذاب الأليم ، فإن صدّقتم يا رومي بما سمعتم وقبلتم ما أعلمتم فحظكم أصبتم والخير أريد بكم ، وإن كرهتم ذلك وأدبرتم عنه وكذبتم فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

قال : فقال الرومي : وقد أبيتم إلا هذا ؟ قال أبو عبيدة : نعم ، قد أبينا إلا ما سمعت ، وما عندنا غيره ، فاعمل أنت وأصحابك على ذلك[1] .

قال : فولى الرومي من بين يدي أبي عبيدة وهو يقول : اللهم اشهد على هؤلاء القوم وانتقم لنا منهم ! فإنا قد أنصفناهم وأعطيناهم الحق وزدناهم فأبوا ذلك ، اللهم انصرنا عليهم ! قال : فصاح به بعض المسلمين أيها العلج ! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال .

قال : فمضى الرومي وخبرهم بما كان من كلامه وكلام أبي عبيدة بن الجراح .

فلما كان من غد زحف الروم نحو المسلمين في ستين ألفاً أو يزيدون ، وعزم أبو عبيدة على حربهم ومناجزتهم ، ثم دعا فيجاً[2] سريعاً من أنباط أهل الشام وقال له : انظر إذا دفعت إليك كتابي هذا فأسرع حتى تأتي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فادفعه إليه ، ثم كتب أبو عبيدة من ساعته كتاباً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3] : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من عامله عامر بن الجراح ، سلام عليك ! أما بعد فإني أخبرك أن الروم قد أقبلت إلينا ونزل أكثرهم بساحتنا وهم نزول بأرض يقال لها فحل وقد سارع أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب المتنصرة ، وكتبت إليك كتابي هذا حين نهضت إليهم وسرت لقتالهم متوكلاً على الله ، راضياً بقضائه ، واثقاً بنصره ، راجياً لأحسن ما عودنا ، ونحن نسأل الله عز وجل أن يكفينا وإياك يا أمير المؤمنين حسد كل حاسد وكيد كل

---

(١) زيد عند الأزدي : فقال له الرومي : أما والله على ذلك ، إني لأراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم .

(٢) الفيج : العداء السريع الذي ينطلق مشياً على قدميه .

(٣) نسخته في فتوح الشام للأزدي ص ١٢٥ والوثائق السياسية عنه وثيقة رقم ٣٥٣ / ز وفيهما زيادة واختلاف .

كائد وبغي كل باغ ، وأن ينصرنا نصراً عزيزاً ، وأن يفتح الله لنا منه فتحاً مبيناً ، وأن يجعل لنا منه سلطاناً نصيراً ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ .

ثم طوى أبو عبيدة الكتاب وختمه ودفعه إلى الفيج ونهض إلى الروم في خيله ورجله ، ونظرت الروم إلى خيل المسلمين وكثرة جمعهم فكأنهم كاعوا عن حربهم يومهم ذلك ورجع الفريقان بعضهم عن بعض .

ومضى الفيج فجعل يسير سيراً عنيفاً حتى قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما دفع إليه الكتاب وقرأه أقبل على الفيج وقال : ويحك ! فهل علمت أو بلغك من أمر المسلمين بعد خروجك عنهم ؟ فإن أبا عبيدة خبرني في كتابه هذا أنه نهض إلى القوم حين دفع إليك الكتاب . قال : فقال الفيج : نعم يا أمير المؤمنين ! إني لم أبرح حتى رجع القوم بعضهم عن بعض ولم يكن بينهم قتال ، وذلك أن الروم كاعوا فلم يحاربوهم ورجع المسلمون عنهم إلى معسكرهم . قال: فأنت‌ما حبسك عندهم وقد دفع إليك الكتاب أبو عبيدة وأمرك أن تعجل به عليّ[1] ؟ فقال الفيج : إذاً أخبرك يا أمير المؤمنين ! إني انتظرت انصراف المسلمين عن الروم وعلمت أنك مسائلي[2] عما سألتني . فقال عمر : ويحك ! إني أراك عاقلاً فما دينك ؟ قال : أنا نصراني ، فقال عمر : فما يدلك عقلك هذا على أن تسلم لله رب العالمين وتعبده ولا تشرك به شيئاً ؟ قال الفيج : فإني قد أسلمت على يدك يا أمير المؤمنين وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ! فقال عمر : الحمد الله الذي يهدي لدينه من يشاء ! جئتني كافراً وتنصرف من عندي مسلماً ، فأحمد الله عز وجل على ما هداك له من دينه .

قال : ثم بره وكساه وأحسن إليه وزوده وكتب معه إلى أبي عبيدة بن الجراح[3] : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، أما بعد فقد جاءني كتابك تخبرني فيه بنفر الروم إليك وبمنزلتهم

---

(١) عبارة الأزدي : قال : فأنت ، ما جلسك يومئذ إلى العشى ، ثم تقبل بالكتاب إليّ وقد دفعه إليك أبو عبيدة أول النهار ؟

(٢) الأزدي : سائلي .

(٣) نسخته في فتوح الشام للأزدي ص ١٢٧ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ / ج ص ٤٦٤ . وفيهما زيادة .

التي نزلوها[1] ، كتابي هذا وأنتم غالبون فكثيراً ما نتذكر من فضل الله تعالى والإحسان ، وإن تأتكم نكبة أو مسكم قرح فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تستكينوا فأنتم الأعلون والله معكم ، فإنما هي دار الله والله تعالى فاتحها عليكم ونازعها من أيدي عدوكم ، فاصبروا إن الله مع الصابرين ـ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ .

ذكر وقعة فحل من أرض فلسطين ومن قتل فيها من المسلمين وغيرهم

قلما : فلما ورد كتاب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة بن الجراح نادى في المسلمين فاستنهضهم إلى حرب الروم .

قال : وعلمت الروم بذلك فرجعوا إلى حرب المسلمين في ستين ألفاً ويزيدون من بين فارس وراجل وقد رفعوا صلبانهم ونشروا أعلامهم وعبوا كراديسهم ؛ قال : وعبى أبو عبيدة أصحابه كما كان يعبيهم من قبل ودنا القوم بعضهم من بعض ، وحملت كتيبة من الروم على يزيد بن أبي سفيان[2] وهو في الميمنة ، فلم يزل هو ولا أحد من أصحابه ؛ وحملت كتيبة من الروم على شرحبيل وهو في الميسرة ، فثبت وثبت الناس معه ؛ وحملت كتيبة أخرى فيها أكثر من عشرة آلاف فارس على خالد بن الوليد وهو في القلب ، فلم يتحلل أحد منهم لكنهم شرعوا الرماح في وجوههم ورشقوهم بالسهام ، فرجعوا إلى ورائهم وعجبوا من حسن وقوف المسلمين وجودة صبرهم لهم .

وصاح أبو عبيدة بن الجراح[3] قال : أيها الناس ! إنه لم يبق من جد القوم إلا ما رأيتهم فاحملوا الآن عليهم حملة صادقة فاستوجبوا من الله النصر بالصبر ، وليبشر كل من قتل منكم بالشهادة ومن بقي بالنصر والغنيمة ، ووطنوا أنفسكم على القتال الشديد ، وعليكم بالضراب والطعان ومنازلة الأقران فإنه لن يدرك ما عند الله عز وجلّ إلا بالطاعة والصبر في المواطن المكروهة وإن الله مع الصابرين .

---

(١) كذا ، وعند الأزدي : ورسالتهم التي أرسلوا ، وبالذي رجعت إليهم فيما سألوك ، وقد سددت بحجتك ، وأوتيت رشدك ، فإن أتاك . . .

(٢) كذا ، وقد تقدم أن أبا عبيدة استخلفه على دمشق .

(٣) عند الأزدي : خالد بن الوليد .

قال : ثم حمل أبو عبيدة وحمل الناس معه وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة وأخذهم السيف فقتل منهم جماعة ، ثم إنهم وقفوا ونعروا وتراطنوا بينهم بالرومية ثم حملوا على المسلمين فخالطوهم واقتتلوا ساعة ، ثم تراجعت الروم إلى ورائها وتقدم إليهم المسلمون بالتكبير والتهليل ، فكان الرجل من المسلمين يتقدم فيقاتل ، فإذا أعيى أو جرح رجع إلى ورائه ، وربما قتل .

قال : وتقدم قيس بن هبيرة المرادي نحو القوم ، قال : ثم حمل علي جميع الروم فلم يزل يطاعن حتى انكسر رمحه ، ثم رجع إلى المسلمين فطلب رمحاً فأعطي ثم حمل على الروم فلم يزل يطاعن فيهم حتى كسر رمحه ، ورجع إلى المسلمين حتى أخذ رمحاً ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى انكسر رمحه وتثلم سيفه ؛ فقيل : إن قيس بن هبيرة المرادي هذا كسر في ذلك اليوم عشرة رماح وانقطع في يده سيفان[1] ، وقتل من الروم جماعة ما فيهم إلا فارس مذكور ، وجرح منهم نيفاً على ثلاثين رجلاً ، وأصابته سبع وأربعون جراحة وسلم فلم يقتل .

قال : ثم نادى خالد بن الوليد : أيها الناس ! كونوا في جوار الله رغبة منكم عن هذه الدنيا وما فيها فإنها إلى فناء وزوال ، ولا تخاذلوا ولا تواكلوا ولا تفشلوا عن أعداء الله ، وأقدموا على الكافة كإقدام الأسود الضارية ، ولا يكن أعداء الله على باطلهم أصبر منكم على حقكم ، واطلبوا بإقدامكم عليه من الله الثواب الكريم والأجر العظيم ، ألا ! وإني حامل فمن شاء فليتبعني ومن شاء فليتخلف عني .

قال : ثم حمل خالد بن الوليد وحمل معه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في زهاء ألف رجل من أهل الصبر واليقين ، فنقضوا تعبية الكفار وكسروا صفوفهم بعضها على بعض ، ثم وقف المسلمون ينظرون إليهم أيرجعون أم لا . قال : وإذا الروم في وقتهم ذلك أشد ما كانوا كلباً على المسلمين .

ثم إنهم تراجعوا في تعبية خلاف التعبية التي كانت لهم في أول النهار ، ثم جعلت صفوفهم تقدم بعضها بعضاً وهم ثمانية[2] صفوف ، بين كل رجلين فارس ،

(١) عند الأزدي : وخرجوا وهم خمسة صفوف ، لا يرى طرفاهم ، وهم نحو من خمسين ألفاً . فأول صف من صفوفهم جعلوا فيه الفارس بين راجلين أحدهما ناشب (يرمي بالنشاب) ، والآخر رامح (يضرب بالرمح) ثم جعلوا مجنبتين ، ثلاثة صفوف أخرى ، رجالة كلهم . (ص ١٣١) .

(٢) عند الأزدي : ثلاثة أسياف وكسر بضعة عشر رمحاً . وكان يقاتل ويقول :

=

وبين كل فارس رامح وناشب ، فجعلوا يزحفون نحو المسلمين والمسلمون يتأخرون عن نشابهم .

قال : ثم صاح خالد بن الوليد : يا أهل الإسلام ! هذا يوم له ما بعده من الأيام وإن كان القوم في ستين ألفاً والرجل منكم يحتاج إلى رجال منهم فغضوا أبصاركم وأقدموا على عدوكم ولا تتشاغلوا عنهم بسلب ولا غنيمة فعند الله مغانم كثيرة .

قال : ثم تقدم عمرو بن سعيد وكان من أفاضل الناس وفرسان المسلمين حتى وقف بين الجمعين ثم رفع صوته وقرأ : ﴿ يٰأيها الذين أمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأوٰه جهنم وبئس المصير ﴾[1] يا أيها الناس اطلبوا الجنة فإنها نعم المأوى ونعم القرار ولنعم دار الأبرار ؟ ولمن هي يا قوم ؟ هي والله لمن شرى نفسه ، وقاتل في سبيل الله ! ثم نادى بأعلى صوته : إليّ إليّ يا أهيل الإسلام ! فأنا عمرو بن سعيد ! ثم حمل هذا عمرو على الروم فقاتل قتالاً حسناً ، ثم رجع إلى المسلمين وقد أصابته ضربة على حاجبه الأيمن والدم يسيل من الضربة حتى ملأت عينه ، فلم يستطع أن يفتح جفن عينه من الدم ، فقال عبد الله بن قرط الثمالي : أبشر يابن أبي أجنحة[2] ! فإن الله معافيك من هذه الضربة وموجب لك بها الجنة ومنزل نصره عليك وعلى المسلمين إن شاء الله ، قال : فقال عمرو بن سعيد : أما النصر على الإسلام وأهله فقد أنزله الله تبارك وتعالى إن شاء الله ، وأما أنا فجعل الله هذه الضربة شهادة وأهدى[3] إليّ مثلها أخرى ، فوالله إن هذه الضربة أحب إليّ من مثل جبل أبي قبيس ذهباً أحمر ! قال : ثم حمل عمرو بن سعيد هذا فلم يزل يقاتل حتى قتل ـ[4] رحمة الله عليه ـ .

قال : ثم تقدم خالد بن الوليد ومعه نخبة عسكر أبي عبيدة حتى وقف في القلب

= لا يبعدن كل فتى كرار ماضي الجنان خشن صبار
حبوتهم بالخيل والأدبار تقدم إقدام الشجاع الضاري

(١) سورة الأنفال : ١٥ ـ ١٦ .

(٢) كذا بالأصل ، والصواب ابن أبي أحيحة (الأزدي) .

(٣) عند الأزدي : وأهوى إلى أخرى مثلها .

(٤) قتل وبه أكثر من ثلاثين ضربة ، قطعوه بسيوفهم وكانوا حنقوا عليه . (الأزدي) . وقيل مات بأجنادين ، وقيل مات بمرج الصفر (الإصابة) وذكرت فيه قصة عبد الله بن قرط يوم أجنادين . وفي الاستيعاب : والأكثر على أنه قتل بأجنادين وانظر تاريخ خليفة .

وقد أوقف الناس في الميمنة والميسرة فأوصاهم وعهد إليهم ثم قال : أيها الناس ! انظروا إذا سمعتم تكبيري فاعلموا أني حملت فاحملوا واذكروا الله وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الناس : سمعنا وأطعنا فاحمل إذا شئت يرحمك الله ! قال : فعندها حسر خالد عن رأسه ، وكانت علامته إذا أراد أن يحمل قال : الله أكبر الله أكبر ، الله أخرجهم لكم من ديارهم وحصونهم ، شدوا عليهم على بركة [الله] وعونه ، ثم حمل وحمل الناس معه بأجمعهم على عساكر الروم ورفعوا أصواتهم بالتكبير ، فانكشفت الروم من بين أيديهم ، وأخذهم السيف فقتل منهم في هذه الحملة نيف على سبعة آلاف ، منهم ألفا بطريق أو يزيدون وخمسة آلاف تابع ما فيهم إلا فارس مقنع بالحديد أو راجل ذو بأس شديد ، وقتل من المسلمين بضعة عشر رجلاً : أربعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار وستة من التابعين .

قال : وتبعهم المسلمون فاستأسروا منهم خلقاً كثيراً فقتلوهم بالسيف صبراً واحتووا على غنائم لهم كثيرة ، فأخذها أبو عبيدة وأخرج منها الخمس وقسم باقي الغنائم على المسلمين .

قال : ومرت الروم على وجوهها عباديد مشردين في البلاد ، فمنهم من صار إلى فحل وهي مدينة مطلة على موضع من بلد الأردن يقال له « الأهويه »[1] والماء يجري من تحتها ، فتحصنت الروم بفحل ، ومر الباقون على وجوههم مشردين ، فمنهم من صار إلى هرقل ملك الروم ومنهم من صار إلى حصون الشام فتحصنوا فيها .

قال : فبعث أبو عبيدة بالخمس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتب إليه[2] : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عامر بن الجراح ، سلام عليك ! أما بعد فإني أخبر أمير المؤمنين - أسعده الله -[3] بأنا التقينا نحن وأعداؤنا من الروم بموضع من بلد الأردن يقال له : فحل ، وقد جمعوا لنا الجموع العظام وجاؤونا من رؤوس الجبال وسواحل البحار في نيف على ستين ألفاً

---

(1) قال الأزدي في فتوح الشام ص ٢٣١ هي الواقوصة (قرب اليرموك) .

(2) نسخة الكتاب في فتوح الشام للأزدي ص ١٣٩ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ / ط ص ٤٦٤ . باختلاف بعض الألفاظ .

(3) عند الأزدي : أصلحه الله .

قادرين مقتدرين في أنفسهم يظنون أن لا غالب لهم من الناس ، ثم إنهم برزوا إلينا وأظهروا البغي علينا ، فتوكلنا على ربنا ورفعنا إليه رغبتنا فرزقنا الله عليهم الظفر ، فقتلنا منهم خلقاً كثيراً وأغنمنا الله عزّ وجلّ أموالهم وما كان في عسكرهم ، وقد أهدى الله الشهادة إلى رجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد بن أبي أجنحة[1] وسعيد بن عمرو بن قيس بن الحارث وفلاناً وفلاناً[2] ، وصرف الله وجوه المشركين وتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى اعتصموا بحصنهم فحل ومضى فلّهم في البلاد مشردين ، وأفاء الله على المسلمين عسكرهم فحووا ما كان فيه واحتووا على بلادهم ، وأنزلهم الله من صياصيهم[3] وقذف الرعب في قلوبهم ، فأحمد الله يا أمير المؤمنين على إعزاز دينه وإظهار حجته ! وادع لنا بالنصر وإتمام النعم وإظهار الفلح وإلهام الشكر ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ .

قال : فلما ورد كتاب أبي عبيدة على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقرأه وفهم ما فيه فرح بذلك واستبشر ، وفرح المسلمون واستبشروا بما فتح الله عز وجل على إخوانهم من أرض الشام ؛ ثم قسم عليهم عمر بن الخطاب ذلك الخمس الذي وجه به إليه أبو عبيدة بن الجراح ؛ ثم كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح يأمر بأن يتمسك بما فتح الله عزّ وجلّ على يديه ولا يحارب أحداً من الروم إلى أن يفرغ سعد بن أبي وقاص مما هو فيه من أمر العراق .

قال : فلما ورد الكتاب إلى أبي عبيدة رحل من بلد الأردن حتى صار إلى دمشق فنزلها وفرق أصحابه في البلاد التي فتح الله عز وجل على يده .

قال : وأنجز الشتاء عن سعد بن أبي وقاص ، وكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالمسير إلى العراق والمناجزة للعدو .

ذكر مسير سعد بن أبي وقاص إلى القادسية ونزوله عليها ومحاربتهم

قال : فسار سعد بن أبي وقاص حتى نزل بالقادسية ، واجتمعت إليه العساكر

---

(١) كذا ، وقد أشرنا إليه قريباً .

(٢) عند ابن الأثير ٢ / ٨٣ وممن قتل في هذه الحرب السائب بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي ، له صحبة .

(٣) الصياصي : جمع صيصة وهي الحصن ، وكل ما امتنع به .

من كل ناحية فصار سعد في جمع عظيم ، وبلغ ذلك يزدجرد بن هرمز ملك الفرس فوجّه إلى سعد بن أبي وقاص يسأله أن يوجه إليه بجماعة من أصحابه يسألهم عما يريد[1] .

قال : فدعا سعد بن أبي وقاص بهؤلاء العشرة من أصحابه منهم عمرو بن معديكرب الزبيدي ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، وجرير بن عبد الله البجلي ، والمغيرة بن شعبة الثقفي ، وعاصم بن عمرو التميمي ، وشرحبيل بن السمط الكندي ، والمنذر بن حسان الضبي ، وفرات بن حيان العجلي ، وإبراهيم بن حارثة الشيباني[2] ، فقال لهم سعد : إن هذا الكافر بعث إليّ يسألني أن أوجه بقوم منكم يسألهم عما يريد ، فسيروا إليه وانظروا ما قد عزم عليه ، فلعله أن يجيب إلى دين الإسلام فنكفى حربه .

فسار القوم حتى صاروا إلى الفرات ، ثم عبروا الفرات وساروا حتى صاروا إلى الدجلة ، فقعدوا في الزوارق وعبروا إلى ناحية يزدجرد ، وهو يومئذ بالمدائن[3] وبها قصره ، فوقف القوم على بابه ثم استأذنوا عليه فأذن لهم ، فدخلوا عليه فإذا هو جالس على سرير له من العاج والأبنوس صغير ، والملوك وأبناء الملوك عن يمينه وشماله على الكراسي ، وقد كان قبل أن تدخل العرب عليه يشرب خمراً ؛ فلمّا رأى العرب من بعيد أمر بالشراب فرفع ، وقدم المسلمون حتى وقفوا بين يديه ، فأمرهم بالجلوس فجلس منهم تسعة وظفر المغيرة بن شعبة فقعد معه[4] على السرير ؛ قال : فلمّا جلس المغيرة وكان رجلاً جسيماً مال السرير حتى كاد أن يقع يزدجرد من سريره ، فصار المغيرة في وسط السرير ويزدجرد عن يساره ، قال : فغضب يزدجرد واغتاظ

---

(١) في الطبري ٣ / ٤٩٥ وابن الأثير ٢ / ١٠٠ أن عمر ـ بعد أن بلغته أخبار حشود فارس ـ كتب إلى سعد : لا يكربنك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجالاً من أهل المناظرة (المنظرة) والرأي والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم .

(٢) في الأسماء التي أرسلت إلى رستم اختلاف : الطبري ٣ / ٤٩٦ ابن الأثير ٢ / ١٠١ البداية والنهاية ٧ / ٣٨ فتوح البلدان ص ٢٥٧ .

(٣) المدائن : سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة . بالفارسية توسفون افتتحها سعد سنة ١٦ (معجم البلدان) .

(٤) أنه قعد مع رستم وليس مع يزدجرد . (فتوح البلدان ـ وفي رواية للطبري عن أبي وائل . وفي رواية فكالأصل) .

لذلك ، وجاء غلام من غلمان يزدجرد وقال : تنحّ ! فلم يتنحّ ، والمغيرة يومئذ عليه ثياب العرب ودراعه من فوق ثيابه وهو مقلد بسيف له وسوطه معلق في يده وعليه برد له يمانية وقد اتّشح بها من فوق ثيابه وكان المغيرة قال لأصحابه : من يكلم هذا الملك إذا دخلنا إليه ؟ قالوا له : اكفنا أمره والكلام معه .

فعزم المغيرة على ذلك وجعل يزدجرد ينظر إلى البردة التي على المغيرة وكانت بردة يمانية مثمّنة ، فقال يزدجرد لترجمان له قائم بين يديه يقال له عبود فكلّمه بالفارسية وقال : ما اسم هذا الثوب الذي على هذا الرجل ؟ قال : أيها الملك اسمه برد ، فتطير يزدجرد من ذلك ، ثم قال : بردند جهان را ـ يردّدها ، فأقبل المغيرة على رجل قائم بين يديه من الفرس فقال : ملككم هذا يفهم عني ما أقول وإلاّ فأتوني بترجمان يؤدّي عنّي ما أقول ؛ قال : وكان يزدجرد فصيحاً بالعربية فقال له : يا هذا ! فأنت من فصاحتك وإعجابك بنفسك جلست معي على سريري بغير إذني ! قال له المغيرة : وما الذي أنكرت من ذلك ؟ قال : أنكرت من ذلك أنّك أنت الدّاخل عليّ في مجلسي ، إنما يجب عليك أن تجلسَ في الموضع الذي آمرك به ، فقال المغيرة : صدقت وإن جلوسي معك على سريرك لم يزدني شرفاً ولكنني لم أجد لنفسي موضعاً أرتفع عليه إلا هذا ، فذر عنك هذا وتكلّم أنت بما تريد ؛ قال : فأقبل عليه يزدجرد فقال[1] : أما أنكم يا معشر العرب كنتم تأتون بلادنا هذه ما بين وافد وتاجر وابن سبيل ، وكنّا نحسن إليكم فتأكلون من طعامنا وتشربون من شرابنا العذوب وتلبسون من لباسنا اللين ، ثم إنّكم حسدتمونا على ذلك ، فانطلقتم إلى قومكم فجئتم بهم لتضايقونا في نعمتنا وتضادّونا في ملكنا ! ما أعرف لي ولكم مثلاً إلا [مثل ـ][2] رجل كان له كرم فدخل ثعلب فأكل منه وأفسد ، فلمّا رأى الثعلب أنه ليس له مانع خرج فجمع الثعالب ثم أقبل بها إلى الكرم ، فلما رأى صاحب الكرم تلك الثعالب سدّ عليها أبواب الجحر ثم دخل عليها فقتلها عن آخرها ، فهذا مثلي ومثلكم ؛ ولو أردت أن أفعل بكم ذلك لفعلت غير أني أعلم أنما حملكم على المصير إلى بلدي هذا ما أنتم عليه من الجوع والجهد والبؤس والضنك ، فإن كان ذلك كذلك فخبّروني حتى أحسن إليكم وأوقر إبلكم هذه التي معكم طعاماً[3] وكسوة وزاداً

---

(١) قارن مع رواية الطبري عن ابن إسحاق ٣ / ٥٧٤ بين رستم والمغيرة بن شعبة .

(٢) عن الطبري .

(٣) عند الطبري : قمحاً وتمراً ، ونأمر لكم بكسوة .

وأحسن إليكم جهدي وطاقتي وتنصرفون إلى بلادكم سالمين ، وإن كنتم إنما قصدتم بلدي هذا لزوال ملكي فأعلموني ذلك حتى أبغي لكم الغوائل وأنصب لكم الحبائل .

قال : فقال المغيرة بن شعبة : أفرغت من كلامك ؟ قال : نعم ، فقل ما أحببت ، فقال المغيرة : إنك لم تذكر شيئاً من البؤس والضنك والجهد إلا وقد كنا في أعظم منه ، وذلك أنّا كنّا نأكل الميتة والضب والقنافذ وأشباه ذلك ، وكان[1] أحسننا حالاً الذي يثب على ابن عمه فيقتله ويأخذ ماله ، وكان لباسنا مما يُخز من أغنامنا وإبلنا فتغزله لنا نساؤنا وتنسجه ، فمنه لباسنا ، فكنّا كذلك لا نعرف حلالاً ولا ننكر حراماً حتى بعث الله عزّ وجلّ نبينا محمداً مباركاً هدانا به من الضلالة وبصرنا به من الجهالة وأنزل إليه كتاباً سماه قرآناً عربياً بيّن فيه الحلال والحرام والبراء من الآثام ، صدّقه منّا مصدّقون وكذّبه منّا مكذبون ، فقاتل المكذّبين بالمصدّقين ، حتى دخلوا في دينه طائعين وكارهين[2] ، وقد كان خبرنا قبل وفاته بكل البلاد التي يفتحها الله عزّ وجلّ على أيدينا ، وإن بلدك منها وقصرك ، وإنا نعرض عليك خصالاً ثلاثاً فاختر أيّهن شئت . قال يزدجرد : قل حتى أسمع ، قال له المغيرة : أمّا واحدة فتقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ، فإذا أنت قلتها أقررناك في بلدك وانصرفنا عنك ، لا يدخل بلدك هذا أحد إلا بإذنك ، وعليك الخراج الخمس والزكاة تؤدّيها إلى بيت مال المسلمين ؛ وإن أبيت ذلك فأداء الجزية عن يد وأنت صاغر وأعتق منا دمك ؛ وإن أبيت ذلك فأذن بحرب من الله ورسوله وجهاد في سبيله ؛ قال : فقال له يزدجرد : أما ! إني قد فهمت كلامك ، ولكن خبّرني ما الصاغر ؟ فإني لا أعرف الصاغر من كلامكم ، قال : الصاغر أن تؤدي الجزية وأنت قائم والسوط على رأسك .

قال : فغضب يزدجرد ثم قال : ما ظننت أن أعيش حتى أسمع من أمثالكم هذا ، أما ! إني قد كنت عزمت على برّكم والإحسان إليكم في وقتي هذا ، فلمّا إذ تلقيتموني بمثل هذا الكلام فما لكم عندي إلا التراب[3] . قال : ثم رفع رأسه إلى

---

(١) عند الطبري : أفضلنا في أنفسنا عيشاً الذي يقتل . . .

(٢) في الطبري : فأمرنا أن نقاتل من خالفنا ، وأخبرنا أن من قتل منا على دينه فله الجنة . ومن عاش ملك وظهر على من خالفه .

(٣) زيد في الطبري ٣ / ٥٠٠ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي (فتوح البلدان ص ٢٥٨) .

غلام له بين يديه فكلّمه بالفارسية فقال : شوانشان خاك بياور ؛ فذهب الغلام فجاء بزنبيل ملآن تراباً فقال : خذوه الآن وضعوه على رأس أكبركم وأفضلكم وارجعوا إلى صاحبكم فخبّروه بأنّي سأوجّه إليكم من يدفنه ويدفن أصحابه في خندق القادسية .

قال : فوثب عاصم بن عمرو التميمي(١) وكان أصغر القوم فأحبّ أن يوقر المشايخ فحمل التراب ، ونزل المغيرة عن سرير يزدجرد ؛ وخرج القوم فركبوا دوابهم وساروا حتى صاروا إلى سعد بن أبي وقاص فخبروه بما كان من كلامهم وكلام يزدجرد .

قال : ثم أقبل يزدجرد على وزيره الأكبر رستم فقال له : إن الشتاء قد انحسر عنّا وعن هؤلاء القوم ، والأرض قد أعشبت والأشجار قد أينعت ، فسر إليهم بخيلك ورجلك وجاهدهم أبداً حتى تردهم على أدبارهم من حيث جاؤنا . قال : فعندها عرض رستم من كان بحضرته من الفرس ، فكانوا عشرين ومائة ألف فارس وثلاثين ألف راجل ؛ فسار هؤلاء القوم حتى نزلوا بإزاء المسلمين بأرض القادسية ، وكتب يزدجرد إلى جميع البلاد التي كانت في يده فاستنهضهم إلى حرب المسلمين ، فأجابوه على كل صعب وذلول ، فكان أول من أجابه إلى ذلك بهرام صاحب همذان في خمسة وعشرين ألفاً من فارس وراجل ، وأجابه شيرزاد صاحب قم وقاشان في مثل ذلك ، وأجابه البندوان صاحب أصفهان في مثل ذلك ، وأجابه خرشيد صاحب الري في قريب من ذلك ؛ فاجتمعت العساكر إلى رستم بالقادسية في جمع عظيم ؛ فتواعد القوم للحرب ودنا القوم بعضهم من بعض ؛ وكانت حروبهم أربعة أيام : يوم أرماث(٢) ويوم أغواث ويوم السواد ويوم النفاذ .

---

(١) في فتوح البلدان ص ٢٥٧ : عمرو بن معدي كرب .

(٢) بالأصل رفاث تحريف وليلة أرماث تدعى الهدأة .

وليلة أغواث تدعى السواد ، واليوم الثالث يوم عماس (بكسر العين ، ولا أدري أهو موضع أم هو من العمسس مقلوب المعسس . قاله ياقوت في المعجم) وليلة اليوم الرابع تدعى ليلة الهرير ، واليوم الرابع يوم القادسية . قال ابن الأثير ٢ / ٤٧٩ وسميت ليلة الهرير بذلك لتركهم الكلام ، إنما كانوا يهرون هريراً .

وفي الفتوح البلدان ص ٢٥٩ : كان قتال القادسية : يوم الخميس والجمعة وليلة السبت وهي ليلة الهرير .

[يوم أرماث]

وعبّى سعد بن أبي وقاص أصحابه ، فكان يومئذ في قريب من أربعين ألفاً ، وقد كان عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما فأمدّهم بعشرين ألفاً من أهل الشام ، فصار سعد في ستين ألفاً . فلما كان ذلك اليوم وعزم على محاربة الفرس جعل على ميمنته عمرو بن معدي كرب الزبيدي وجرير بن عبد الله البجلي في عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وجعل على ميسرته إبراهيم بن حارثة الشيباني(1) ، وعلي بن جحش العجلي في عشرة آلاف من بين فارس وراجل ، وجعل في القلب طليحة بن خويلد الأسدي والمنذر بن حسان الضبي في عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل . وفرق من بقي منهم في الأجنحة والكمناء ؛ فكان أول من تقدم يومئذ من الفرس مهران صاحب أذربيجان وعليه قباء حرير وقُرْطَق ديباج ، وفي وسطه منطقة من الذهب مرصعة بالجوهر ، وفي أذنه قرطان من الذهب في كل قرط حبتان من بنات الدر ، وتحته فرس له أشقر ، وفي يده سيف له حسام قاطع ؛ فجعل يقول بالعربية : ندقّ العرب دقاً دقاً ! فقال له رجل من أصحابه : قل إن شاء الله ، فقال : إن شاء الله وإن لم يشأ(2) . فقال سعد بن أبي وقاص : أيها المسلمون ! قد طغى وبغى فاخرجوا إليه ! فخرج إليه المنذر بن حسان الضبي وحمل عليه وطعنه طعنة أرداه عن فرسه ، فذهب مهران يقوم فبادر إليه المنذر بن حسان فرمى بنفسه عن فرسه وشد على مهران ليضربه بسيفه فالتقاها برجله ، فضرب المنذر بن حسان رجل مهران فقطعها وغار فرس المنذر فعدا إليه ليأخذه وأمعن الفرس في الركض ؛ فبادر جرير بن عبد الله إلى مهران فنزل إليه فأخذ بلحيته واحتز رأسه ، وأخذ ما كان عليه من الثياب ؛ ولحق المنذر بن حسان فرسه فأخذه ثم رجع إلى مهران ليسلبه فإذا جرير بن عبد الله قد سبقه وأخذ سلبه ثم قال له المنذر: أبا عمرو ! أنا قتلت مهران وسلبه لي ولا حق لك فيه ، وإنما شغلني عنه فرسي ، ولقد كنت سيداً في الجاهلية وأنت اليوم سيد في الإسلام ، ولا يجمل بك أن تأخذ ما ليس لك ، فاردد عليّ السلب ؛ قال جرير : فادفع إلى المنطقة وخذ باقي السلب ؛ فقال

---

(1) في البداية والنهاية ٧ / ٥٠ قيس بن مكشوح . قال في فتوح البلدان ص ٢٥٩ ويقال إن قيس بن مكشوح لم يحضر القتال بالقادسية ولكنه قدمها وقد فرغ المسلمون من القتال ، وفي الطبري ٤ / ١٢٦ انه قدم مع هاشم بن عتبة يوم عماس .

(2) نسب هذا القول في الطبري ٣ / ٥٣٠ إلى رستم .

المنذر بن حسان : إذاً لا أفعل لأني أنا طعنت مهران وأنا صرعته عن فرسه وأنا قطعت رجله ، فإن أبيت أن تعطيني السلب فالله بيني وبينك - والسلام ؛ فلما سمع جرير هذه المقالة من المنذر بن حسان استحيى من ذلك فصالحه أن يأخذ السلب ويدفع إليه المنطقة ، فرضي المنذر بذلك فأخذ المنطقة وسلم إلى جرير السلب ؛ فقوم السلب فكانت قيمته بضعة عشر ألف درهم ، وقومت المنطقة فكانت قيمتها ثلاثين ألف دينار .

[يوم أغواث]

قال : واقتتل القوم قتالاً شديداً إلى أن جاء الليل فحجز بين الفريقين . فلما أصبح القوم[1] دنا بعضهم من بعض ، وهذا اليوم يوم أغواث ، فأول من تقدم من الفرس رجل يقال له فيروز[2] على فيل مزين مشهر بغاية الشهرة والفرس عن يمينه وشماله . قال : ونظر إلى ذلك الفيل رجل من بني أسد يقال له أسد ويكنى أبا الموت ولقبه زبيبل وكان فارساً بطلاً ، فعزم على الخروج إلى هذا الفيل ، ثم أحمى فرسه حتى أقامه على سَنابِكه ، ثم حمل على الفيل فضرب خرطومه ضربة قطعه ، ورماه سائس الفيل بحربة كانت في يده فقتلته - رحمة الله عليه - . قال : وسقط الفيل ميتاً وسقط فيروز عن ظهره ، فحمل المسلمون عليه فقتلوه .

ثم حمل المسلمون بأجمعهم حملة واحدة من القلب فكشفوا الفرس وهزموهم عن القادسية وما يليها ، وصار قصر القادسية في أيدي المسلمين فأصابوا منه سلاحاً كثيراً وأموالاً ليست بكثيرة وأطعمة كثيرة وكان قصراً عالياً مشرفاً له مناظر ونزله سعد بن أبي وقاص ، ونظرت الفرس إلى القصر وقد أخذ منهم ، اغتموا لذلك غماً شديداً وباتوا ليلتهم يدبرون أمرهم بينهم .

---

(١) في صبيحة يوم أغواث وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم إلى العذيب فسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم ، وأما القتلى فدفنوا هنالك على مشرق .
وانضم في صبيحة هذا اليوم أيضاً خيل الشام التي أمدها أهل العراق أبو عبيدة بن الجراح بعد معركة دمشق ، وكان عمر قد أرسل إلى أبي عبيدة بإرسال المدد إلى سعد بن أبي وقاص . وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (الطبري ٣ / ٥٤٣ ابن الأثير ٢ / ١١٣) .

(٢) لعله الفيروزان (اليعقوبي) ، أو البيرزان (الطبري) . أو الفيرزان (ابن الأثير) .

[يوم السواد][1]

فلما كان من غد دنا القوم بعضهم من بعض وهذا يوم السواد[1] ، وقدمت الفرس الفيلة عن أيمانها وعن شمائلها وبين أيديهم ، ونظرت خيل المسلمين إلى الفيلة ففزعت لذلك فزعاً شديداً وتراجعت إلى ورائها ، فلما نظر المسلمون إلى ذلك نزلوا عن الخيل وأصلتوا السيوف ومضوا نحو الفيلة رجالة واشتبكت الحرب ، وجعل المسلمون يحملون على الفيلة فيضربون مشافرها بالسيوف حتى أفنوها عن آخرها .

قال : فتقدم رجل من كبار الفرس وساداتها يقال له شاهنشاه حتى وقف بين الجمعين على فرس له على رأسه تاج من ذهب وعليه جوشن من ذهب فسأل البراز فخرج إليه رجل من المسلمين فقتله شاهنشاه ثم خرج إليه آخر فقتله فلم يزل كذلك حتى قتل أربعة من فرسان المسلمين ، فصاح المسلمون بعمرو بن معديكرب الزبيدي فقالوا : يا أبا ثور هل فيك بقية من غنى فتكفينا أمر هذا الأعجمي ؟ فقال فتى من تميم يقال له عبد الله بن حابس : وأي بقية تكون في مثله وهو شيخ كبير على ما ترون ؟ فقال له عمر : يابن أخي ! إن بقيتي على ضعفي خير من شباب مثلك . قال : فأقبل على عمرو من كان من قومه وعشيرته فقالوا : سألناك يا أبا ثور ألا كفيتنا أمر هذا الأعجمي إن علمت أنك تقوم به ، قال : نعم ، آتوني براحلة ، فقالوا : تزيد أن تقاتل على راحلة ؟ فقال : ائتوني ولا تسألوني ، قال : فأتوه بناقة عليها رحلها فأبركها بين يديه ثم ركبها وقال : يا بني أخي ! أصلحوا على عمكم ثيابه ؛ قال : فأدخلوا أيديهم تحته ليصلحوا ثيابه فقعد على أيديهم وأثار الراحلة فبقي القوم معلقين بأيديهم فصاحوا : يا عم ! أيدينا أيدينا ، فتجافى عمرو عن الراحلة فسقطوا إلى الأرض ، فقال : يا بني أخي ! ما بقي من قوة عمكم إلا ما ترون . ثم أقبل على بني عمه فقال : إن فرسي هذه لست منها في شيء ولكن ائتوني بحصان ، قال : فأتوه بحصان مشرف كأنه الكثيب المبني ، فأخذ بذنبه فألزم عرقوبيه إلى الأرض ثم قال : ضعيف ائتوني بغيره ، فأتوه بفرس آخر ، فأخذ بذنبه فجذبه فألزم عرقوبيه الأرض وقال : ضعيف غير أنه خير من الأول ؛ ثم قال : يا بني زبيد ! اعلموا

---

(١) كذا ، وقد تقدم أن ليلة أغواث تدعى السواد ، وهذا اليوم هو يوم عماس (الطبري - ابن الأثير - ابن كثير - معجم البلدان) .

أني حامل على هذا الأعجمي ، فإن بدرته بالصمصامة[1] فهي نفسه لا شك في ذلك ، وإن بدرني بسيفه فصرعني عن فرسي فلا عليكم ، ذروني وإياه فإنه لا يصل إليّ حتى أقتله على كل حال .

قال : ثم استوى على الفرس وخرج نحو الأعجمي فنظر إليه شاهنشاه فحمل عليه ، والتقيا بضربتين وقعت ضربة شاهنشاه في دَرَقة[2] عمرو ، ووقعت ضربة عمرو في رأس شاهنشاه فقطع تاجه مع هامته فجدله قتيلاً . قال : ثم نزل إليه عمرو فسلبه تاجه وما كان عليه من ثيابه وسلاحه ، ثم استوى على فرسه .

قال : فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن جاء الليل ، فحجز بين الفريقين . فلما كان من غد دنا القوم بعضهم من بعض ، وأقبلت خنساء على أربعة أولادها رجال جلاد فقالت لهم[3] : يا بني ! أنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ووالله ما هجنت حسبكم ولا فضحت خالتكم[4] ، وقد ترون ما أعدت الأعاجم للمسلمين ، فإذا دنوتم من الحرب فباشروا خميسها ويمموا وسيطها وجالدوا رائسها تظفروا بالغنم والسلامة والزلفة والكرامة في دار الفوز والمقامة ! قال : فقبل بنوها قولها . فلما دنا القوم بعضهم من بعض تقدم ابنها الأول ثم حمل[5] ، فلم يزل يقاتل حتى قتل ـ رحمة الله عليه ـ ؛ ثم تقدم الثاني

---

(١) كذا بالأصل . وفي الصمصامة قال ابن الكلبي : إن النبي كان قد وجه خالد بن سعيد بن العاص إلى اليمن فمر برهط عمرو بن معدي كرب فأغار عليهم فسبى امرأة عمرو وعدة من قومه ، ثم منّ عليها وأطلقها بعد أن وهبه عمرو سيفه الصمصامة . وقد استشهد خالد يوم المرج وفي عنقه الصمصامة فأخذ معاوية السيف من عنقه فكان عنده ، ثم نازعه فيه سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية فقضى لديه عثمان فلم يزل عنده . . . إلى أن صار إلى المهدي ثم صار إلى موسى الهادي (فتوح البلدان ص ١٢٦) .

(٢) الدرقة : الحجفة وهي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب والجمع درق وأدراق ودراق (اللسان) .

(٣) الاستيعاب ٤ / ٢٩٦ أسد الغابة ٥ / ٤٤٢ الإصابة ٤ / ٢٨٨ . باختلاف بين النصوص .

(٤) في الاستيعاب وأسد الغابة : خالكم ، وفي الإصابة : أخوالكم .

(٥) وهو يرتجز ويقول : (الاستيعاب ـ الإصابة) :

يا إخوتي إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة ... فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة ... من آل ساسان الكلاب النابحة

ثم حمل[١] ، فلم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه - ؛ ثم تقدم الثالث ثم حمل[٢] ، فقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه - ؛ ثم تقدم الرابع ثم حمل[٣] ، فلم يزل يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه - ؛ قال : فقتل أولاد الخنساء هؤلاء الأربعة وما دمعت لها عين ، وذلك يوم النفاذ .

قال : واشتدت الحرب واقتتلوا قتالاً شديداً ليس بالدون ، وارتفع التكبير من المسلمين والعطعطة والنعير من الكافرين ، وكان أبو محجن الثقفي محبوساً في قصر القادسية ، وذلك أن سعد بن أبي وقاص هو الذي حبسه ، وكان السبب في ذلك أن أبا محجن كان لهجاً بشرب الخمر .

خبر أبي محجن الثقفي وحبسه وتوبته

وقد كان سعد بن أبي وقاص أقام عليه الحد مراراً ، وكان السبب في هذا الحبس أنه أشرف عليه يوماً وأظنه كان متنبذاً فسمعه يتكلم ، قال : فلما سمعه سعد بن أبي وقاص يقول أبياتاً[٤] دنا منه ثم قال : يا أبا محجن ! إنك لفي ضلالك القديم ، ثم أمر به فقيد ، وحبسه معه في القصر بالقادسية . فلما كان ذلك اليوم

---

(١) وكان يرتجز (الاستيعاب - الإصابة) :

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد ... نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد ... إما لفوز بارد على الكبد

(٢) وكان يرتجز :

والله لا نعصي العجوز حرفا ... قد أمرتنا حرباً وعطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا ... حتى تلفوا آل كسرى لفا

(٣) وكان يرتجز :

لست لخنساء ولا للأخرم ... ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ... ماضٍ على الهول خضم خضرم

(٤) في مروج الذهب ٢ / ٣٤٨ عن أبي محجن قال : والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فأصف القهوة . . فألتذ بمدحها . فلذلك حبسني لأني قلت فيها :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

(وانظر الكامل لابن الأثير ٢ / ١١٥) .

وسمع أبو محجن التكبير والنعير التفت إلى أمة لسعد يقال لها : زبراء ، فقال : ويحك يا زبراء ! ما حال المسلمين ؟ فقالت : أظن والله الدائرة على المسلمين وقد قتل منهم جماعة ، فقال أبو محجن : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أخاف أن يذهب الناس بشرف هذا اليوم ، فينالون الدنيا والآخرة وأنا موثق بهذا الحديد ، فلعن الله الخمر ولعن أبا محجن إن شربها بعد هذا اليوم ؛ قال : ثم أقبل على سلمى امرأة سعد وجاريته زبراء فقال : أطلقاني ولكما الله عليّ راعٍ وكفيل إن أنا سلمت ولم أقتل أن أرجع إليكما وأضع رجلي في هذا القيد كما كانت ؛ قال : فلما سمعت المرأتان يمينه وما أعطاهما من العهد والميثاق أطلقتاه فأخرجتا رجله من القيد ، فقال لهما : أعطياني اليوم هذا الفرس البلقاء وأعطياني سلاح سعد حتى أخرج فأقاتل وأرجع إليكما إن شاء الله عز وجل إن لم يحدث عليّ حدث ؛ قال : فدفعتا إليه فرس سعد البلقاء(1) فأسرجها وألجمها ودفعتا إليه درعاً ومغفراً وسيفاً ورمحاً ، فتقلد بالسيف وتناول الرمح واستوى على الفرس وسار حتى اختلط بالمسلمين متلثماً لا يعرف ، ثم ضرب بيده إلى سيفه فاستله ثم حمل ، فلم يزل يقاتل بالسيف مرة ، ويطعن بالرمح مرة ، وتارة يحمل على القوم فيقاتل قتالاً شديداً لم يسمع الناس بمثله ، والمسلمون لا يعلمون من هو ، غير أنهم عجبوا من قتاله ، وسعد بن أبي وقاص على سطح القصر ينظر إلى فعله فالتفت إلى من كان معه من مشايخ العسكر فقال : يا هؤلاء ! أترون إلى فعل صاحب البلقاء ؟ لئن كان الخضر عليه السلام شهد شيئاً من هذه الوقائع فهذا هو الخضر لا شك فيه ! قال : ثم تقارب أبو محجن من ناحية القصر وجعل سعد بن أبي وقاص يتأمل البلقاء ويلتفت إلى من كان عنده فيقول : أما البلقاء فهي بلقائي ، وأما السلاح سلاحي لا شك فيه ، وأما الحركات فكأنها حركات أبي محجن الثقفي ، ولولا أن أبا محجن معي في القصر لقلت : هذا أبو محجن . قال : ثم حمل أبو محجن وحمل الناس فاختلطوا ، ورجع أبو محجن إلى باب القصر فقرعه برمحه وفتح له الباب ودخل ، فنزل عن البلقاء فحط عنها السرج واللجام وأقامها على

---

(1) في مروج الذهب ٢ / ٣٤٥ والكامل ٢ / ١١٥ أن سلمى زوجة سعد هي التي أطلقته وأعطته فرس البلقاء وليس فيهما ذكر لزبراء أمة سعد وصحح البلاذري في فتوح البلدان أن زبراء هي التي أعطته الفرس قال المسعودي : وقد تنوزع في البلقاء فمنهم من قال : أنه ركبها عرياً ، ومنهم من قال : بل ركبها بسرج .

مذودها[1] ونزع السلاح فرده على المرأتين ودعا بالقيد فقيد رجله كما كان . قال : فصاحت به سلمى من جوف الخدر : أبا محجن ! ما حال الناس ؟ فقال : بكل خير، وقد كان مني في هذا العدو ما كان ، وأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى قد جعل لك أيتها المرأة في ذلك الثواب نصيباً .

قال : فأرسلت سلمى إلى سعد بن أبي وقاص وسألت أن يصير إليها ، قال : فنزل سعد من السطح على عيلته حتى دخل عليها ، فقالت : أيها الأمير ! ما حال الناس ؟ قال : ويحك يا سلمى ! لقد كانت الدائرة على المسلمين غير أن الله تبارك وتعالى منّ علينا بفارس لا أدري من الآدميين أم من الملائكة فأعطى الله المسلمين به الظفر بعد الإياس، قالت : فهل عرفت الرجل؟ قال : لا ولكني شبهت بلقاء كانت تحته ببلقائي وسلاحاً كان عليه بسلاحي ، فقالت : والله انه أبو محجن الثقفي ، فعل كذا وكذا ؛ قال : فخرج سعد من عندها حتى دخل على أبي محجن ثم وقف عليه ثم قال : لقد عجبت أن يكون ذلك الفعل لك ، ولست أقيم بعد ذلك عليك حداً بعد أن قد رأيت منك ما رأيت ؛ قال : ثم فك القيد عنه وقال : يا هذا ! انظر لنفسك وفكر في معادك إلى ربك ، قال فقال له أبو محجن : أيها الأمير ! إنما كنت أشرب الخمر حين كنت تقهرني عليها ، فأما إذ قد أبيت أن تقيم عليّ الحد فوالله لا ذقتها حتى ألقى الله تعالى ! قال : ثم ترك الخمر ولم يشربها بعد ذلك ، وكان إخوانه الذين ينادمونه عليها يقولون : أبا محجن ! أتركت القهوة وصبرت عنها ؟ فكان يقول : ما تركتها إلا لله خالصاً لا لغيره ـ ثم رجعنا إلى الحديث[2] .

قال : وبات الفريقان ليلتهم تلك وقد قتل من الفرس مقتلة عظيمة ، فلما كان من غد وثب القوم كتعبيتهم في الأول ونزل إليهم سعد وهو متكىء من قروح قد خرجت في باطن فخذيه[3] ، فركب فرساً لين العريكة ، ثم خرج على الناس فأحاطوا به من كل جانب فقالوا : أيها الأمير ! لو لم تخرج إلينا لكنت معذوراً لما علمنا من علتك فارجع إلى موضعك فإنا نكفيك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

---

(١) المذود : المعلف .

(٢) خبر أبي محجن رواه الطبري ج ٣ / ٥٧٥ وفتوح البلدان ص ٢٥٨ ومروج الذهب ٢ / ٣٤٥ وما بعدها وابن الأثير ٢ / ١١٤ ـ ١١٥ والواقدي في فتوح الشام ٢ / ١٦١ .

(٣) في الطبري ٣ / ٥٣٠ كان سعد لا يستطيع أن يركب ولا يجلس ، به حبون (دماميل) فإنما هو على وجهه في صدره وسادة ، هو مكب عليها .

قال : فقال لهم : أيها المسلمون ! لقد علمت العرب قاطبة عنائي في الحرب ، إذ أنا شهدتها والله يعلم ما بي من العلة ولا أريد أن يؤمنكم لقتال عدوكم فقد مضت أربعة أيام وأنا أرجو أن يكون هذا اليوم يوم الفتح إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : ثم رجع سعد ودخل القصر ، ثم صعد على السطح فقعد ، ثم جعل ينظر إلى حرب المسلمين ، ودنا القوم بعضهم من بعض ودنت الفرس براياتها وأعلامها في تعبية يا لها من تعبية .

قال : فكان أول من تقدم إلى الحرب من المسلمين جرير بن عبد الله الجبلي ، ثم حمل فقاتل فأحسن القتال ، وحمل على أثره علي بن جحش العجلي ، ثم حمل في أثره إبراهيم بن الحارثة الشيباني ، ثم تقدم عمرو بن معديكرب الزبيدي .

قال : فجعل القوم يقتتلون قتالاً شديداً حتى قتل من الفريقين مقتلة عظيمة وأثخنوا بالجراحات ؛ وإذا بعسكر لجب قد أقبل من ناحية الشام[1] ، فلما نظر المسلمون إليه فزعوا وظنوا أنه كمين للفرس وإذا هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص قد جاء من الشام بكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجه به أبو عبيدة بن الجراح في عشرة آلاف . فلما أشرف هاشم بن عتبة على عسكر عمه سعد بن أبي وقاص عبى من كان معه عشرة كراديس ، في كل كردوس ألف فارس ؛ وأقبل هاشم في الكردوس الأول وجعلت الكراديس تأتي كردوساً بعد كردوس ويختلطون بالمسلمين ، فلما نظرت الفرس إلى ذلك فزعوا وامتلأت قلوبهم خوفاً وفزعاً ورعباً ، وأقبل القعقاع بن عمرو بن الضبي في آخر الكراديس ، فحمل على الفرس قريباً من ثلاثين حملة ليس منها حملة إلا وهو يقتل فيها الرجل والرجلين والثلاثة ؛ فلما نظر إلى ذلك شهريار أخو رستم خرج إلى القعقاع بن عمرو فحمل عليه ، وحمل عليه القعقاع فطعنه طعنة في خاصرته جدله قتيلاً .

قال : وصاح رجل من المسلمين : أيها الناس ! إنه من يسره أن يشهد يوماً مثل

---

(١) في مروج الذهب ٢ / ٣٤٣ في اليوم الثاني أشرف على الناس خيول المسلمين من الشام (وانظر ما لاحظناه ص ١٦١ حاشية رقم ١) .

يوم بدر وأحد فهذا شبه ذلك اليوم ؛ فجعل عمرو بن معديكرب يرتجز .

قال : ثم اجتمع وصاح بعضهم ببعض وجعلوها واحدة وجعلوا يطردون الفرس من بين أيديهم كما ترد الكلاب حتى بلغوا بهم إلى شاطىء الفرات ، وقد قتل منهم زيادة على عشرة آلاف فارس ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة من دواب وسلاح وآلة ، ثم رجع المسلمون عنهم إلى القادسية .

قال : ومرت الفرس على وجوهها حتى تقاربوا من المدائن فنزلوا هنالك وظنوا أنهم قد أمنوا ، فلما أصبح سعد بن أبي وقاص نادى في المسلمين ثم رحلوا في طلب الفرس ، والتفتت الفرس فنظروا إلى المسلمين فولوا بين أيديهم ولحقوهم وخالطوهم ، وحمل رجل من المسلمين يقال له هلال بن علقمة العقيلي[1] على رستم ليضربه بسيفه وقد عرفه ، فرماه رستم بسهم فشك قدم المسلم مع ركابه ، وضربه المسلم ضربة فجدله قتيلاً ، ثم أخرج السهم من رجله ونزل إلى رستم فأخذ التاج وما كان على رستم وتركه قتيلاً عرياناً واستوى على فرسه .

قال : وصارت الفرس إلى المدائن فاتخذوا طعاماً ومزجوه بالسموم لكي يقتلوا بذلك المسلمين إذا نزلوا ساباط المدائن ، قال : وعبرت الفرس الدجلة إلى الناحية التي فيها قصر يزدجرد ثم قطعوا الجسور لكيلا يدخل إليهم أحد من المسلمين ؛ قال : وأقبل المسلمون حتى نزلوا ساباط المدائن وقد أضرَّ بهم الجوع والعطش فنظروا إلى طعام كثير وماء صاف قد ملئت به الحياض ، فأكلوا وشربوا فلم تضرهم السموم شيئاً ، وقد ذكر ذلك بعض المسلمين . قال : وأصاب المسلمون هنالك خزائن يزدجرد مقفلة فكسروا الأقفال ودخلوا الخزائن إذا هم بأسلحة وأموال ، فغنم المسلمون ذلك كله ، ثم إنهم نزلوا ساباط المدائن وحطوا أثقالهم وأمتعتهم هنالك ؛ ثم أقبلوا حتى وقفوا على شاطىء دجلة والماء يومئذ في منتهى الزيادة ، فقال سعد بن

---

(١) في مروج الذهب ٢ / ٣٤٩ من تيم الرباب . وفي الكامل ٢ / ١١٨ : هلال بن علقمة . وفي تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٤٥ والطبري ٤ / ١٣٤ هلال بن علفة . وفي رواية فتوح البلدان ص ٢٥٩ : لم يعلم من قاتله . قيل إن زهير بن عبد شمس البجلي قتله وقيل عوام بن عبد شمس وقيل إن قاتله هلال بن علفة التيمي . وفي مروج الذهب : ومنهم من رأى أن قاتله رجل من بني أسد . وفي ذلك يقول شاعرهم عمرو بن شأس أبياتاً منها :

قتلنا رستماً وبنيه قسراً ... تثير الخيل فوقهم الهيالا

أبي وقاص : أيها المسلمون ! انزلوا الآن ههنا حتى نعقد جسراً ونعبر ، فقال له بعض المسلمين : أيها الأمير ! إن الذي حملنا في البر هو قادر على أن يحملنا في البحر ؛ فقال سعد : صدقت أيها الرجل ولكن الماء في منتهى الزيادة على ما ترى ، فقال له الرجل : أنا أقتحم أيها الأمير هذه الدجلة بفرسي واثقاً بربي ؛ قال : ثم صاح ذلك الرجل بفرسه واقتحم الماء(١) .

ذكر عبور المسلمين الدجلة

قال : ثم اقتحم في أثره الهلقام بن الحارث العتكي ، قال : ثم اقتحم في أثره عمرو بن معدي كرب ؛ قال : فلما نظر أهل العسكر بأجمعهم إلى هؤلاء قد اقتحموا الدجلة اقتحموا الدجلة بأجمعهم ورفعوا أصواتهم بالتكبير وجعلوا يقولون : اللهم لا جسر إلا جسرك ! وجعلوا يشقون الماء شقاً فما ذهب لأحد منهم شيء حتى عبروا بأجمعهم ؛ وعبر سعد بن أبي وقاص معهم .

قال : وكان يزدجرد ملك الفرس ينظر إليهم من منظرة له ، فلما رآهم يشقون الماء شقاً جعل يقول لوزير من وزرائه : ما هؤلاء من الإنس ولا من الجن وما هم عندي إلا مردة الشياطين ! قال : ثم بادر ونزل من منظرته وقد كان قدم أمواله وحرمه وقليله وكثيره إلى جلولاء(٢) فاستوى على فرسه وخرج الناس معه ومروا على وجوههم هاربين حتى صاروا إلى الدسكرة إلى جلولاء فنزلوها ؛ واشتغل المسلمون عنهم بعبور الدجلة .

قال : ثم إن المسلمين عقدوا جسراً ما بين ساباط المدائن إلى سبادس(٣) وعبروا [فأخذوا] ما كانوا خلفوه في ساباط المدائن من الخيل والبغال والحمير والأمتعة . وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يخبره

---

(١) في فتوح الشام للواقدي ص ٢٠٠ : أول من نزل في الماء عاصم بن ولاد ، وفي الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٩ عاصم بن عمرو : (البداية والنهاية ٧ / ٧٥ وفي فتوح البلدان ص ٢٦٣ انتدب رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسبح المسلمون . وفي تاريخ خليفة ص ١٣٤ أن أول من أقحم فرسه في دجلة سعد ، وقيل : إن أول من عبر هلال بن علفة . ويقال : أول من عبر رجل من عبد القيس) .

(٢) جلولاء طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، قيل سميت جلولاء لما جللها من قتلى فارس (معجم البلدان) .

(٣) كذا بالأصل ، ولم نجده .

بفتح القادسية والمدائن وسلامة المسلمين وهرب يزدجرد وأصحابه إلى الدسكرة وجلولاء وما والاهما وأنا نازل بالمدائن منتظر ما تأمر به .

قال : فلما ورد كتاب سعد على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فرح لذلك فرحاً شديداً وكبر المسلمون ، ثم كتب إليه عمر يأمره أن لا يبرح عن المدائن حتى يأتيه أمره وأن يرد الجيش الذي ورد عليه من الشام إلى مواضعهم [1] ، وخبره في كتابه بأن الروم قد تحركوا بأرض حمص وأمره أيضاً في كتابه أن لا يحدث حدثاً وأن لا يتحرك عن المدائن إلى أن يأتيه الخبر من الشام . ثم إنه رد الجيوش التي جاءته من الشام إلى أبي عبيدة بن الجراح .

ذكر فتح المسلمين مدينة حمص من أرض الشام واجتماع المسلمين عليها

قال : فلما أن كان بعد فتح المدائن جعل أهل حمص يحصنون مدينتهم ويجمعون الجموع لحرب المسلمين ، ثم إنهم كتبوا إلى هرقل ملك الروم فأمدهم بعشرين ألفاً من أنطاكية ، وأهل حمص يومئذ في نيف على عشرة آلاف . قال : وبلغ ذلك أبا عبيدة بن الجراح ، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فكتب إليه عمر أن ناجز القوم فقد فرغنا من أمر القادسية والمدائن [2] ، وأن الذي نصرنا على هؤلاء الفرس هو الذي ينصرنا على الروم وغيرهم من أصناف الكفرة ، فثق بالله عز وجل واستعن به وناجز القوم وطالعني بأخبارك حتى كأني شاهد بجميع ما أنت فيه .

قال : فعندها نادى أبو عبيدة في الناس بالرحيل إلى حمص ، فرحل ورحل المسلمون حتى وافوا مدينة حمص ، فنزلها وأحاط بها من كل جانب وناحية ، فضيقوا عليهم ومنعوا الميرة عنهم ، فلما أضر بهم خرجوا إلى حرب المسلمين في تعبية حسنة وجيش لجب .

---

(١) في الطبري ٤ / ١٩٥ والكامل لابن الأثير ٢ / ١٥٢ لما سمع عمر الخبر (يعني خبر توافد الروم إلى حمص) كتب إلى سعد أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به . . . فمضى القعقاع في أربعة آلاف نحو حمص .

(٢) تقدم أن عمر أرسل إلى سعد يستعجله إرسال جيش الشام ، الذي أمده به أبو عبيدة إلى حمص .

قال : ودنا القوم من القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ؛ قال : ثم حسر خالد بن الوليد عمامته عن رأسه ثم قال : أيها المسلمون ! إني حامل فاحملوا ، ثم حمل وحمل المسلمون معه من ناحية شرقية ، وحمل أبو عبيدة بن الجراح من ناحية باب الرستن[1] ، وحمل عمرو بن العاص من جانب آخر ، وخرج عليهم يزيد بن أبي سفيان[2] من ورائهم ووضع فيهم السيف ؛ فقتل منهم بشر كثير وولوا الأدبار حتى دخلوا المدينة وقد ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب والخوف .

فلما كان من غد أرسلوا إلى أبي عبيدة بن الجراح يسألونه الصلح وذلك أنهم اتقوا الحصار وخافوا على أنفسهم أن يُسبوا كما سبي غيرهم ، فصالحهم أبو عبيدة على سبعين ألف دينار[3] عاجلة ، وعلى أداء الجزية عن كل محتلم في كل سنة أربع دنانير ، وعلى أنهم يضيفون المسلم إذا نزل بهم ، وعلى أنهم لا تهدم كنائسهم ولا يخرجون من مدينتهم ، فرضوا بذلك ، وكتب لهم أبو عبيدة بهذا الصلح كتاباً وأشهد عليه صلحاء المسلمين ودفعه إليهم . قال : وفتح القوم باب المدينة فدخلها المسلمون صلحاً قد أمن بعضهم من بعض ، فنزل أبو عبيدة مدينة حمص وبث خيله في الغارات يمنة ويسرة . ثم كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم .

ذكر كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[4]

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من عامر بن الجراح ، سلام عليك ! أما بعد فالحمد لله الذي فتح[5] علينا وعليك أفضل كورة بأرض الشام[6] وأكثرها خراجاً ونفعاً وأعظمها على المسلمين فتحاً ، أخبرك يا أمير المؤمنين إنا قدمنا بلاد حمص وبها من الكفار عدد كثير ، فلما حللنا بساحتهم أوهن

(١) الرستن : بلدة بين حماة وحمص .
(٢) في فتوح البلدان ص ١٣٧ استخلفه أبو عبيدة على دمشق وقدم إلى حمص .
(٣) في فتوح الأزدي ص ١٤٦ وفتوح البلدان ص ١٣٧ مائة ألف وسبعين ألف دينار .
(٤) نسخته في فتوح الأزدي ص ١٤٦ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ / ن ص ٤٦٨ .
(٥) الأزدي : أفاء .
(٦) الأزدي : أهلاً وقلاعاً . وأكثرهم عدداً وجمعاً وخراجاً ، وأكبتهم للمشركين كبتاً ، وأيسرهم على المسلمين فتحاً .

الله عز وجل كيدهم ، وقلم أظفارهم وألقى الرعب في قلوبهم ، فطلبوا منا الصلح وأذعنوا لنا بالجزية ، فقبلنا ذلك منهم وكففنا عن قتالهم وصالحناهم على سبعين ألف دينار عاجلة وأداء الجزية بعد ذلك ، ثم فتحوا لنا الأبواب واكتتبوا منا الأمان ، فأخرجت من ذلك المال الخمس ووجهت به إلى أمير المؤمنين ليقسمه هنالك في حقه وقسمت باقي ذلك على المسلمين ، وقد وجهت الجنود في النواحي التي فيها ملكهم وجنودهم الكثيرة ، ونحن نسأل الله عز وجل ملك الملوك وناصر الجنود أن يعز بنصره المسلمين وأن يخص بالذل المشركين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما ورد كتاب أبي عبيدة على عمر رضي الله عنهما أخذ ذلك الخمس فقسمه على المسلمين ثم كتب جوابه(١) : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عامر بن الجراح ، أما بعد فقد ورد كتابك تأمرني فيه بحمد الله على ما أفاء علينا من الأرض ، وفتح علينا من القلاع والحصون ومكن لنا في البلاد ، وصنع لنا ولكم ، وأبلانا وإياكم البلاء الحسن ، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ليس له نفاد ولا يحصى له تعداد ، وذكرت أنك وجهت جنودك في البلاد التي فيها ملك الروم وطاغيتهم ، فلا تفعل ! فليس ذلك برأيي ، وابعث إلى خيلك واضممها إليك ، وأقم مكانك الذي أنت فيه حتى يمضي باقي هذا الحول، ونرى من رأينا ونستعين بالله ذي الجلال والإكرام على أمورنا كلها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما ورد كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي عبيدة بن الجراح أقبل على أمراء أجناد المسلمين فقال : قد علمتم أني وجهت ميسرة بن مسروق العبسي إلى ناحية من مدينة حلب والدروب والإقدام على ما هنالك من أرض الروم ، وهذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني فيه أن أصرف الخيل إلى ما قبلي ، وإني أتربص باقي هذا الحول حتى يرى أمير المؤمنين رأيه ، فهاتوا ما عندكم من الرأي ، فقال المسلمون : ما الرأي إلا ما رآه أمير المؤمنين ، فلا تعد دون ما أمرك به .

قال : فوجه أبو عبيدة بكتاب إلى ميسرة بن مسروق العبسي(٢) : أما بعد فإذا(٣)

---

(١) فتوح الشام للأزدي ص ١٤٧ والوثائق السياسية وثيقة ٣٥٣ / س صفحة ٤٦٩ .
(٢) الأزدي ص ١٤٨ الوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ /ع .
(٣) الأزدي : فإذا لقيك رسولي فأقبل معه ، ودع . .

أتاك كتابي هذا فأقبل إليّ وذر ما كنت وجهتك له إلى أن نرى ما رأينا وننظر ما يأمرنا به أمير المؤمنين ، والسلام .

قال : فورد كتاب أبي عبيدة على ميسرة وقد شارف أرض حلب ، فلما نظر إلى الكتاب أقبل راجعاً إلى أبي عبيدة بن الجراح حتى نزل معه مدينة حمص .

ذكر مصير الروم إلى هرقل ملك الروم
وكلامهم له وكلامه لهم وإجماع الروم على المسلمين
وسيرهم إلى ما قبلهم وهي وقعة اليرموك

قال : وانطلقت البطارقة من أهل حمص إلى هرقل ملك الروم وهو يومئذ بمدينة أنطاكية فخبروه بأنه قد أخذت حمص من أيديهم وقد نزلها العرب ، فاغتم لذلك هرقل غماً شديداً ثم أقبل على بطارقته فقال لهم : خبروني عن هؤلاء العرب أليس هم بشر مثلكم ؟ فقالوا : بلى أيها الملك ! قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم بأضعاف كثيرة ، قال : فما بالكم تنهزمون من بين أيديهم ولا تثبتون لهم ؟ قال : فسكتوا ولم يخبروا جواباً . وتكلم شيخ من عقلائهم فقال : أيها الملك ! أنا أخبرك من أين نؤتى ، قال : هات فخبرني ، فقال : أيها الملك ! هؤلاء العرب قوم صالحون ونحن قوم طالحون ، فإذا حملنا عليهم فنكذب وهم إذا حملوا علينا لم يكذبوا ؛ قال هرقل : ولم تفعلون ذلك وأنتم أكثر منهم عدداً وجمعاً وتزعمون أن الحق في أيديكم ؟ فقال له الشيخ : أيها الملك ! نفعل ذلك لأنهم أفضل أعمالاً عند ربهم ، وذلك أنهم يصومون النهار ويقومون الليل ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(١) ، ونحن أيها الملك ! نظلم الناس وننقض العهد ، ونشرب الخمر ونركب الحرام ، ونعمل بالمعاصي ونفسد في الأرض ، ونأمر بما يسخط الله عز وجل ، وننهى عما يرضي الله عز وجل ؛ قال : فقال هرقل : لعمري يا شيخ ! إنه لعلى ما تقول ، وما صدقني أحد سواك ، وليس الرأي عندي إلا أن أخرج عن هذا البلد وأصير إلى غيره فإني أعلم أنه ما لي في أمثالكم من خير إذ كنتم تفعلون هذه الفعال القبيحة ؛ قال : فقال له : أيها الملك ! أتترك سورية بلد

(١) زيد عند الأزدي ص ١٤٩ : ولا يظلمون أحد ، ويتناصفون فيما بينهم . وانظر مقابلة هرقل لبطارقته وقواده فتوح الشام للواقدي ص ١٦١ .

الشام وهي جنة الدنيا لهؤلاء العرب وتخرج عنها بلا قتال ولا تعذر وتجتهد ؟ فقال له : ويحك يا شيخ ! فإلى كم تقاتلهم وأنت تعلم أنا قد قاتلناهم بتدمر وبأجنادين ومرج الأصفر وببعلبك ودمشق وفحل وبلد الأردن وأرض البلقاء[1] حتى أخذوا منكم مدينة مثل مدينة حمص وهي أفضل كورة لكم بالشام ، فقال له الشيخ : أيها الملك ! إنه ربما كان ذلك والعساكر تهزم وتهزم ، ولكن أشير عليك أن تبعث إلى جميع البلاد ممن هو على دينك فتحشرهم إليك ثم تلقى هؤلاء العرب بجيش عظيم لم تلقهم بمثله فيما مضى من الأيام التي مضت ، فإن ظهرت فذلك الذي تريد ، وإن تكن الأخرى وهزمت علمت الروم أنك قد أبليتَ عذراً فلا يضعفون لك رأياً .

قال : فعندها كتب هرقل إلى القسطنطينية[2] وإلى رومية[3] وعمورية ولهوانة واليعقوبية والسماوية والمسيحية وجماعة مدائن الروم فأمرهم بالمصير إليه . ثم كتب إلى أهل بيت المقدس وإلى قيسارية[4] وإلى أهل أرمينية والجزيرة أن لا يبقى أحد منهم ممن أدرك الحلم وحمل السلاح وكان على دين هرقل إلا صار إليه ؛ فأجابته أهل دين النصرانية من جميع البلاد من أرض الشام وبلاد الشام وكور أرمينية وأرض الجزيرة ، فصار في خلق عظيم لا يحصيهم إلا الذي خلقهم ؛ ثم دعا بوزيره الأعظم واسمه ماهان[5] فتوجه بتاج ووصله بمائة ألف درهم وضم إليه مائة ألف من خواص جيشه ومن الذين يعتمد عليهم ثم قال له : اعلم يا ماهان !

ذكر وصية هرقل ملك الروم
لوزيره الأكبر ماهان في أمر سفره إلى حرب المسلمين

قال : ثم أقبل هرقل إلى ماهان فقال له : اعلم أني اخترتك مقدماً على جميع

---

(١) عند الأزدي ١٥١ : وفي غير موطن من المواطن ، كل ذلك تنهزمون وتفرون وتغلبون .

(٢) قسطنطينية : كانت دار ملك الروم ، بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح ، وبينها وبين عمورية ستين ميلاً ، وعمورية دون الخليج .

(٣) رومية : هناك روميتان ، احداهما بالروم ، والأخرى بالمدائن .
ورومية الروم هي مدينة رياستهم وعلمهم وهي شمالي وغربي القسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يوماً .

(٤) قيسارية : على ساحل بحر الشام ، تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام .

(٥) بالأصل باهان ، وما أثبتناه عن فتوح الشام للواقدي ١ / ١٦٠ . وقد ورد في كل مواضع الأصل « باهان » وعند الأزدي وابن الأثير « باهان » .

أهل دين النصرانية[1] فاعمل بما أوصيك به في حق أجنادك ، وعليك بالعدل فيهم ، والإشفاق عليهم ، والاحتراز من عدوهم ، والمسارعة لما يقربهم من مقصدهم ، وعدم التشاغل عند الفرصة ، والتثبيت عند الحملة ، والجهد في صائب الرأي ، والحزم فيما يشكل من الأمور ، والعمل بما يقتضيه حكم كتابكم ، والوفاء بما يمكن فيه الصدق ، والعزم على ما يكون فيه الصواب ؛ واعلم بأن النصر مع الثبات والنجاة مع الميل إلى الحق ، وعليك بالعمل بما أوصيك به في الرجال أن توقر كبيرهم ولا تحقر صغيرهم وتكون لهم كالأب الشفيق ؛ واعلم أنه أحق بالذل من سمع وصايا الخير ولم يعمل بها وأنه لجدير أن يكون حقيراً في ملكوت السماوات ، وقد تبين لكم أن هؤلاء العرب لم ينصروا على سائر الناس إلا بقبول وصايا الخير والرجوع إلى مشورة الأكابر والعقلاء منهم ، فهي الوصلة إلى العاجل في تحصيل المطلوب وفي الآجل إلى الفوز من عالم القديسين ، وانكم لن تجتمعوا إن هزموكم هؤلاء والعياذ بالله من ذلك ! وكل مقضى كائن ، وقد أوصيتك بما لم يوصه ملك من قبل ، فإياك ومخالفتي ! وإياك وهوى النفس ! فإنه أعظم المصائب وبه يدخل على سائر الخلق الآفات والنوائب ، وألن جانبك لهم فإنك بهم تصول على أعدائك .

قال : فلما سمع ماهان وصية هرقل خرج من بين يديه ، واستعرض الجيش الذي قدمه هرقل عليه وعسكر بهم ظاهر مدينة أنطاكية لتكامل عدتهم ، فكان عدة القوم مائة ألف من النصرانية .

ودعا بوزير له آخر يقال له الديرجان[2] ، فتوجه بتاج ووصله بمائة ألف درهم ، وضم إليه مائة ألف من النصرانية[3] ؛ ثم دعا بوزير آخر يقال له قناطر[4] ، فتوجه ووصله بمائة ألف درهم ، وضم إليه مائة ألف رجل . ثم جعل ماهان أميراً على جميع أجناده ، وأمر الوزراء والبطارقة والأساقفة أن لا يقطعوا أمراً دونه .

قال : وترك هرقل باقي الجنود عنده بأنطاكية ، ثم أقبل على بطارقة الروم

---

(١) وكان قد أجابه ملك الروسية قناطير ، وملك عمورية جرجير وصاحب القسطنطينية الديرجان وجبلة بن الأيهم الغساني في العرب المتنصرة .

(٢) وهو صاحب القسطنطينية (فتوح الواقدي) . قال الواقدي : عقد له بلواء من الدستري الملون وعليه صليب من الذهب الأحمر .

(٣) عند الواقدي : من المغليط والافرنج والقلن .

(٤) عند الواقدي : قناطير ملك الروسية .

فقال : ألا تسمعون ! فقالوا : أيها الملك ! قل نسمع وننتهي إلى أمرك ، فقال[1] : قد علمتم أن هؤلاء العرب قد ظهروا عليكم وغلبوا على أرضكم وأنهم ليسوا يرضون بالأرض والمدائن والقرى ولا الحنطة والشعير ولا الذهب ولا الديباج والحرير ، ولكنهم يريدون سبي الأمهات والأخوات والأزواج والبنين والبنات ، وأن يتخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيداً ، والآن فانصروا دينكم ، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم وأموالكم ، وامنعوا عن سلطانكم ودار ملككم .

ذكر المشورة التي كانت بين أبي عبيدة بن الجراح وبين المسلمين في أمر الروم

قال : فجعل هرقل يوصي أصحابه وبلغ ذلك أبا عبيدة بن الجراح فأرسل إلى وجوه عسكره من أهل الصلاح والرأي والمشورة . ثم قال[2] : أيها المسلمون ! إن الله عزّ وجلّ قد أبلاكم أحسن البلاء ، وصدقكم الوعد وأراكم في جميع المواضع ما تحبون[3] ، ولعله قد بلغكم ما قد جمع هرقل عليكم في هذا الجمع الخطير والعدد الكثير ، وهذا ماهان وقناطر والديرجان قد توجهوا نحوكم في ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، وقد أحببت أن لا أغركم من نفسي وأن لا أطوي عنكم خبراً من عدوكم ، وإني أنا كأحدكم ، فهاتوا ما عندكم من الرأي حتى أعلم ما تقولون وبما تشيرون .

قال : فتكلم يزيد بن أبي سفيان فقال[4] : أصلحك الله ! إني مشير عليك برأي فإن يكن صواباً فذلك أردت وطلبت ونويت ، وإن تكن الأخرى فإني لم أتعمد إلا صلاح المسلمين غير أني أرى أن تعسكر على باب حمص في جماعة المسلمين وتدخل النساء والأولاد داخل المدينة وتجعل المدينة من وراء ظهورنا ، وتبعث إلى أجنادك من المسلمين الذين فرقتهم بأرض فلسطين وبلاد الأردن فتأمرهم أن يقدموا عليك ، فإن سار القوم إلينا قاتلناهم واستعنا بالله عليهم ، والسلام .

---

(١) فتوح الأزدي ص ١٥٢ باختلاف بعض الألفاظ . وفتوح الشام للواقدي ص ١ / ١٦٣ .

(٢) فتوح الأزدي ص ١٥٣ . فتوح الشام للواقدي ١ / ١٦٤ باختلاف بين النصوص .

(٣) الأزدي : وأعزكم بالنصر ، وأراكم في كل موطن ما تسرون . الواقدي : وأيدكم بالنصر في مواطن كثيرة .

(٤) فتوح الأزدي ص ١٥٤ .

قال : ثم تكلم شرحبيل بن حسنة فقال[1] : هذا وقت[2] لا بدّ فيه من الرأي والنصيحة للمسلمين ، فإن خالف الرجل أخاه في الرأي فإنما على كل إنسـان أن يجتهد في النصيحة ، وقد رأيت غير الذي رأى يزيد بن أبي سفيان ، على أن يزيد والله عندي من الناصحين لجميع المسلمين ولكن رأيت أن لا نجعل نسواننا وأولادنا مع أهل حمص فإنهم على دين عدونا هؤلاء الذين أقبلوا إلينا ، ولسنا نأمن إن وافانا عدو واستقبلنا لقتالهم أن تنقض أهل حمص عهـدنا وميثـاقنا فيحتـووا على نسائنـا وأموالنا ، فيتقربون بهم إلى عدونا .

فقال أبو عبيدة : ويحك يا شرحبيل ! إن الله تبارك وتعالى قد أذل أهل حمص بالرعب الذي ألقاه الله عزَّ وجلّ في قلوبهم وسلطاننـا اليوم أحب إليهم من سلطان عدونا وإن كانوا على دينهم ، فأما إذ قد ذكرت ما ذكـرت وخوفتنـا منهم بما خوفت فإني قد رأيت أن أخرج أهل حمص من مدينتهم وندخل نساءنا وذرياتنا المدينة ونأمر رجالاً من المسلمين أن يقوموا على سورها وأبوابها ، ونقيم نحن بمكاننا هذا ونكتب إلى إخواننا فيقدمون علينا . قال : فقال له شرحبيل بن حسنة : أيها الأمير ! أصلحك الله عزَّ وجلّ ! إنه ليس لنا أن نخرج أهل حمص من مدينتهم وقد صالحناهم وكتبنا لهم من أنفسنا كتابـاً بالصلح[3] ولكن[4] نقيم في مـواضعنا هـذه ونكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً نعلمه فيه بنفر الروم إلينا ، فلعله أن يمدنا بإخواننا من أهل المدينة . قال : فقال أبو عبيدة : ويحك يا شرحبيل ! إن الأمر أجلّ وأعجل من ذلك ولا أظن إلا أن الروم سيعاجلوننا من قبل أن يصل خبرنا إلى أمير المؤمنين .

قال : فوثب ميسرة بن مسروق العبسي فقال[5] : أيها الأمير ! إنا لسنا بأصحاب قلاع ولا حصون وإنما نحن أصحاب البر : البلد القفر فسر بنا من هذه المدينة إلى دمشق فإنا أوثق بأهلها منا بأهل حمص ، فإذا صرت إليها فاضمم قواصيك واكتب إلى أمير المؤمنين بخبر عدونا وسله المدد فذاك الذي تريدون ، وإن تكن الأخرى وعاجلنا

---

(١) فتوح الأزدي ص ١٥٤ .

(٢) الأزدي : مقام .

(٣) راجع ما ذكر في كتاب الصلح لأهل حمص ، وقد مرّ قريباً .

(٤) من هنا نسب هذا القول عند الأزدي إلى جماعة قال : فقالوا :

(٥) الأزدي ص ١٥٥ .

عدونا عاجلناهم واستعنا عليهم بالله العظيم ، والنصر من عند الله القوي العزيز .

قال : فقال الناس : إنه قد صدق ميسرة والرأي ما رأى ، فاكتب إلى أمير المؤمنين وارحل بنا إلى دمشق .

ذكر كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يخبر جمع الروم

قال : فعندها كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[1] : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عامر بن الجراح ، سلام عليك ! أما بعد فإن عيوني قدموا عليّ من أرض أنطاكية فخبروني بأن هرقل عدو الله قد أمر بعساكر فصرفت إلى ناحيتنا وقد توجهوا إلينا وزحفوا إلى ما قبلنا ، وأنهم قد جمعوا من الجموع ما لم يجمعه أحد قط لأمة من الأمم إلا ذو القرنين فيما مضى من الدهر الأول[2] . وقد بعثت إليك رجلاً خبيراً بما نحن فيه ، فسله عن ذلك يخبرك الخبر عن جهته ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : ثم دفع أبو عبيدة كتابه إلى سفيان بن عوف بن معقل الأزدي وقال له : صر إلى أمير المؤمنين وأقرئه مني السلام وخبره بما عاينت وما جاءتنا به العيون من خبر عدونا وبما قد استقر عندك .

قال : فسار سفيان بن عوف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأصبح أبو عبيدة فنادى في المسلمين بالرحيل وسار بهم إلى دمشق فنزلها .

وقدم سفيان بن عوف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسلم عليه ودفع الكتاب إليه ، فلما فضه عمر وقرأه أقبل عليه وقال : ويحك يا سفيان ! ما فعل المسلمون ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! إني خرجت من عندهم ليلاً من مدينة حمص وسمعتهم يقولون : نصلي الغداة ونرحل إلى مدينة دمشق فإنا نخاف أن يفاجئنا العدو ، ولست أشك إلا أنهم بدمشق في وقتنا هذا ؛ قال : فتبينت الكراهة في وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم قال : ويحك ! ولم يتنحون من بين يدي عدوهم

---

(١) فتوح الأزدي ص ١٥٧ الوثائق السياسية ص ٤٧٠ .

(٢) عند الأزدي : وقد دعوت المسلمين . وأخبرتهم الخبر ، واستشرتهم في الرأي . فأجمع الرأي على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك .

وقد أظفرهم الله بهم في غير موطن من مواطنهم حتى لم يتركوا لهم أرضاً إلا وأخذوها واحتووا عليها وصارت في أيديهم ، وإني أخاف أن يكونوا أساؤوا الرأي وجاؤوا بالعجز وجردوا[1] عليهم عدوهم ؛ فقال له سفيان بن عوف : يا أمير المؤمنين ! إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، إن صاحب الروم قد جمع لنا جموعاً لم يجمعها أحد كان قبله لأحد كان قبلنا ، ولقد حدثنا بعض عيوننا أن عسكراً واحداً من عسكرهم نزل في موضع من البرية وقد هبطوا من ثنية من أول النهار فما تكاملوا في موضع حتى أمسوا وذهب أول الليل ، وهذا عسكر واحد من عساكرهم فما ظنك بباقيهم يا أمير المؤمنين[2] ! [قال : فقلت] ولكن أشدد أعضاد المسلمين بمدد من عندك قبل الوقعة ، فإني أظن أن هذه الوقعة هي الفصل بيننا وبينهم ، فإن أظفرنا الله عزَّ وجلّ بهم هذه المرة فقد هلكت الروم هلاك عاد وثمود . فقال عمر رضي الله عنه : أبشر يا سفيان بما يسرك الله به وجميع المسلمين واعلم أن عامر بن حذيم[3] قادم عليهم بالمدد سريعاً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ذكر كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح

أما بعد[4] فقد بلغني خروجك من أرض حمص وترككم بلاداً فتحها الله عزَّ وجلّ عليكم ، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم ، غير أني سألت رسولكم عن ذلك فذكر أن ذلك كان من رأي خياركم وذوي النهي منكم ، فعلمت أن الله تبارك وتعالى لم يكن بالذي يجمع آراءكم إلا على توفيق وصواب ، وقد سألني المدد فأجبته إلى ذلك ولن تقرأ كتابي هذا حتى يأتيكم المدد ، وكل ما تحبون مما فيه قوتكم إن شاء الله عزَّ وجلّ ، غير أني أعلمكم أنه ليس بالجمع الكثير والجيش الكثيف تهزم الجموع وينزل النصر ، وربما أخذل الله عزَّ وجلّ الجموع الكثيرة فهزمت وفلت فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، وربما نصر الله عزَّ وجلّ العصابة القليلة عددها وعُددها وأظفرهم

---

(١) في الأزدي : وجرأوا .

(٢) زيد عند الأزدي : فقال : لولا أني ربما كرهت الرأي من رأيهم ، والشيء من أمرهم ، فأرى الله يخير لهم في عاقبة ذلك لكان هذا الرأي منهم أنا له كاره .
ثم قال لي : أخبرني ، أجمع رأي جميعهم على التحويل ؟
قال : الحمد لله على ذلك ، فإني أرجو أن يكون الله جمع رأيهم على الخير إن شاء الله .

(٣) عند الأزدي : سعيد بن عامر بن حذيم .

(٤) فتوح الأزدي ص ١٥٩ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ / ص باختلاف بين النصوص .

وأظهرهم على عدوهم ، فأبشروا وطيبوا نفساً وتوكلوا على الله فإنه نعم المولى ونعم النصير ، أنزل الله عليكم نصره وأيدكم بعزه وألهمكم صبره وأمدكم بملائكته وباعد من المسلمين بأسه وزجره ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال : فورد الكتاب على أبي عبيدة وهو يومئذ بدمشق ، فلما قرأه أقبل على الناس فقال[1] : صدق والله أمير المؤمنين ! لم يكن الرأي أن نتنحى عن مدينة حمص حتى نناجز عدونا بها ، ولكن قد اجتمعت آراؤكم على الرحيل إلى ما ههنا وأرجو أن يكون الخير فيه إن شاء الله .

قال : واجتمعت عساكر المسلمين بدمشق في سبعة وثلاثين ألفاً ، وقد قدم عليهم عامر بن حذيم في ثلاثة آلاف فارس ، فصار المسلمون في أربعين ألفاً .

ودعا أبو عبيدة بعمرو بن العاص فضم إليه أربعة آلاف فارس وقال له : سر إلى بلاد الأردن فانزل هناك وارعد وابرق وهول على العدو ما استطعت حتى ننظر في أمر هذا العدو . قال : فسار عمرو بن العاص حتى نزل بلاد الأردن[2] ، ثم ارسل إليهم أن اخرجوا الأسواق وبرئت الذمة من رجل كان مقيماً على صلحنا ولم يخرج إلينا بسلاحه فيكون معنا في عسكرنا ؛ قال : وبلغ ذلك أهل بيت المقدس وأهل قيسارية ، فظنوا أن عمرو بن العاص يريد الخروج إليهم ، فجزعوا لذلك جزعاً شديداً .

قال : وبلغ أبا عبيدة بأن ماهان وزير هرقل أقبل في عساكره حتى نزل مدينة حمص في مائة ألف ، فاغتم لذلك ثم دعا بجاسوس من جواسيسه فقال له : سر متنكراً حتى تأتي أرض حمص . قال : فأقبل الجاسوس حتى صار إلى حمص وإذا ماهان قد أقبل في ذلك اليوم حتى نزل أرض حمص في مائة ألف فارس ، ثم دعا أهلها فشتمهم وخوفهم ثم قال لهم : بماذا سلمتم هذه المدينة للعرب ، هلا قاتلتم حتى تموتوا كراماً عن آخركم ! قال : فقال له أهل حمص : أيها الوزير ! أما نحن فقد قاتلناهم أشد القتال ولم يكن لنا بهم طاقة ، وأنتم أولى باللائمة منا لأنكم ملوكنا وساداتنا وكبارنا قد رأيناكم قد وثبتم وعجزتم ووهنتم عن دينكم وضيعتمونا

---

(١) نقل الأزدي هذا القول ونسبه إلى خالد بن الوليد .

(٢) خبر عمرو بن العاص في فتوح الشام للأزدي ص ١٦٤ وما بعدها باختلاف وتفاصيل وافية .

وتركتمونا للعرب ، فلما علمنا أنه لا طاقة لنا بهم رضينا وسلمنا ؛ فقال ماهان : لا عليكم فسيبلغكم ما يمر بهم من هذه الجيوش التي معي .

قال : فرجع الجاسوس إلى أبي عبيدة بن الجراح فخبره بذلك ، فدعا برؤساء العسكر فقال : هاتوا رأيكم فإن القوم قد نزلوا أرض حمص ، قال : فتكلم خالد بن الوليد فقال[1] : أيها الأمير ! إن من الرأي أنا إن كنا نقاتل هؤلاء القوم بالكثرة والقوة فهم أكثر منا وأقوى ، وإن كنا نقاتلهم بالله وحده لا شريك له ونحن على هذا الذي نحن عليه فما تغني كثرتهم ولا جموعهم من الله شيئاً . قال : ثم تكلم قيس بن هبيرة المرادي فقال[2] : أيها الأمير ! هذا وقت رأي نشير به عليك أترانا نرجع إلى بلادنا ومساقط رؤوسنا ونترك لهؤلاء الروم حصوناً وديارا وأموالاً قد أفاءها الله علينا ونزعها من أيديهم فجعلها في أيدينا ، إذاً لا ردنا الله إلى أهلنا أبداً إن تركنا هذه العيون المتفجرة والأنهار المطردة والزرع والنبات والكروم والأعناب والذهب والفضة والديباج والحرير والحنطة والشعير ونرجع[3] إلى أكل الضب ولبوس العباءة ونحن نزعم أن قتيلنا في الجنة يصيب نعيماً مقيماً وقتيلهم في النار يلقى عذاباً أليماً ! أثبت أيها الأمير وشجع أصحابك وتوكل على الله وثق به ولا تيأس من النصر والظفر . قال : فقال أبو عبيدة : أحسنت يا قيس ! ما الرأي إلا ما رأيتَ وأنا زعيم لك ولا أبرح هذه الأرض حتى يأذن الله لي وهو خير الحاكمين .

ذكر مسير الروم إلى اليرموك ونزولهم هنالك

قال : ثم سار ماهان من أرض حمص في مائة ألف فارس حتى نزل اليرموك وهو نهر من أنهار بلد الأردن ، فلما استقر به الموضع إذا قناطر قد أقبل في مائة ألف فارس حتى نزل به مع ماهان ؛ قال : وإذا بطريق من بطارقة الروم يقال له جرجيس[4] قد أقبل من عند ملك الروم مدداً لماهان في مائة ألف فارس ؛ قال : فصار ماهان في أربعمائة ألف فارس .

---

(١) فتوح الأزدي ص ١٧٠ وذكر له في فتوح الواقدي قولاً آخر ١ / ١٦٥ .

(٢) فتوح الشام للواقدي ١ / ١٦٤ وفتوح الشام للأزدي ص ١٧١ .

(٣) عند الواقدي : ونرجع إلى قحط الحجاز وجدبه ، وأكل خبز الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش الرغد .

(٤) فتوح الأزدي ص ١٨٠ وفتوح الشام للواقدي ١ / ١٧٧ باختلاف النصوص وفيهما زيادة عن الأصل .

وبلغ ذلك أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين فنزل بهم أمر عظيم . وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كتاباً وفيج إليه فيوجاً وفيه كتابه إليه[٢] : أما بعد فإني أخبر أمير المؤمنين أن الروم قد نفرت إلينا براً وبحراً وسهلاً وجبلاً ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا وقد أخرجوا معهم الأساقفة والقسيسين ، وقد نزل إليهم الرهبان من الصوامع ، ومعهم أهل أرمينية وأهل الجزيرة وجميع من هو على دينهم من المستعربة . وقد زحفوا إلينا ونزلوا بموضع يقال له اليرموك في أربعمائة ألف فارس وراجل ؛ فالله الله يا أمير المؤمنين ! عجل علينا بالخيل والرجال وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله عزَّ وجلّ بملائكته أو يأتيهم الغياث من عنده ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقرأه لم يتمالك أن بكى وبكى المسلمون بالمدينة[١] ثم قالوا : يا أمير المؤمنين ! ابعث بنا إلى إخواننا وأمر علينا وإلا فسر أنت فوالله لئن أصيب إخواننا هنالك فما لنا في العيش من بعدهم أرب . قال : فهم عمر أن ينفر إلى الروم بنفسه ثم إنه لم ير ذلك صواباً وأشار عليه الناس أن يجهز إليهم جيشاً ويقيم هو بالمدينة .

قال : ثم أقبل على الرسول الذي جاءه بالكتاب[٢] فقال له : خبرني كم كان بين الروم والمسلمين يوم خرجت إلى ما قبلي ؟ فقال : إذا أخبرك يا أمير المؤمنين ! بين أدناهم وبين المسلمين مسيرة ثلاثة أيام أو أربع ليال وبين جماعتهم وبين المسلمين خمس ليال . فقال عمر : هيهات ! متى يأتي هؤلاء غياثنا ؟

ذكر جواب كتاب أبي عبيدة بن الجراح
من عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[٣]

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليكم ! أما بعد فقد ورد عليَّ كتابك يخبرني بنفر الروم إليكم براً

---

(١) زيد في فتوح الأزدي : ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله ، أن ينصرهم ويعافيهم ، وأن يدفع عنهم .

(٢) هو عبد الله بن قرط الأزدي (فتوح الواقدي ـ فتوح الأزدي) .

(٣) فتوح الأزدي ص ١٨٢ فتوح الشام للواقدي ١ / ١٧٨ . باختلاف النصوص .

وبحراً وسهلاً وجبلاً وما قد اجتمع إليهم من أساقفتهم وقسيسيهم والرهبان ، والمسلمون حيث بعث الله إليهم نبيهم محمداً ﷺ فأعزه بالنصر ونصره بالرعب قال الله عزَّ وجلّ وهو لا يخلف الميعاد : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[1] ، وقد علمت يا أبا عبيدة أنه لم تكن شدة قط إلا وجعل الله بعدها فرجاً ، فلا يهولنك كثرة من جاءك من الكفار فإن الله تعالى منهم بريء ومن بريء الله منه فلا ناصر له ومن لا ناصر له فقد خذله الله ووكله إلى نفسه ، فلا يوحشنك قلة المسلمين وكثرة المشركين ، فليس بقليل من كان الله عزَّ وجلّ معه ، فأقم مكانك الذي أثرته وناهض عدوك وكفى بالله ظهيراً ووليا ونصيراً ، وقد فهمت مقالتك إذ قلت في كتابك أن احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا أو دينهم إن هم انهزموا ، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله عزَّ وجلّ بغياث من عنده ، وليس الأمر كما ذكرت ، رحمك الله يا أبا عبيدة ! لأنك قد علمت بأن المسلمين إن هم أقاموا وصبروا ثم قتلوا فما عند الله خير للأبرار ، وقد قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** ﴾[2] وأنتم بحمد الله منصورون على كل حال إن شاء الله ، فأخلصوا نيّاتكم لله عزَّ وجلّ وارفعوا إليه رغباتكم واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

قال : ثم دفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابه إلى عبد الله بن قرط الثمالي وقال له : عجل السير وأسرع ما قدرت ، فإذا قدمت على أبي عبيدة فأقرئه مني السلام وأعلمه أني موجّه إليه بجيش قبل أن يواقع العدوّ إن شاء الله ولا قوّة إلاّ بالله .

قال : ثم جمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كان بالمدينة ممن يصلح أن يوجّه به إلى العدوّ وعرضهم فكانوا ثلاثة آلاف فارس فضمّهم إلى سويد بن الصامت الأنصاري[3] وأمره بالمسير إلى أبي عبيدة ، ثم أوصاه فقال له : يا سويد ! إنك قد ولّيت أمر هؤلاء القوم ولست بخير رجل منهم إلاّ أن تكون أتقى منه فاتق الله عزَّ وجلّ

---

(١) سورة الأعراف : ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٢ .

(٣) في فتوح الأزدي ص ١٨٦ وفتوح الشام للواقدي ١ / ١٨٠ سعيد بن عامر بن حذيم . وانظر فيهما قول عمر بن الخطاب له .

فيهم ولا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم[1] ووقِّر كبيرهم ولا تحقر صغيرهم ، وكن للحق تابعاً فإنّه إن بلغني عنك ما أحبّ فكن بعزمك مني ما تحبّ ؛ فقال سويد بن الصامت : يا أمير المؤمنين ! قد أوصيتني فسمعت وأنا أوصيك فاسمع ! فقال عمر : هات ما بدا لك يا سويد ! فقال سويد[2] : خف الله عزَّ وجلّ في الناس ولا تخف الناس في الله ، وأحبب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحبّه لنفسك[3] ، وألزم الخصم الحجّة يكفيك الله عزَّ وجلّ همّك ، ويعينك على ما أولاك ، ولا تقض في أمرك بقضاء فتلبس الحق بالباطل ويشتبه عليك الأمر ، وخض الغمرات[4] حيث كانت ، ولا يأخذك في الله لومة لائم . فقال عمر : ويحك يا سويد ! من يستطيع هذا العمل ؟ قال : يستطيعه من وضع الله في عنقه مثل الذي وضعه في عنقك[5] .

قال : ثم نادى سويد بن الصامت هذا في الناس فقال : تهيئوا للمسير إلى إخوانكم المسلمين بأرض الشام ، فإما أن تدلجوا وإما أن تصلوا وترحلوا فإنّي راحل إن شاء الله ولا قوّة إلّا بالله .

قال : وسار سويد بن الصامت في هؤلاء الثلاثة آلاف حتّى قدم على أبي عبيدة بن الجرّاح قبل أن يقدم عليه كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فسرّ المسلمون بقدوم سويد بن الصامت عليهم سروراً شديداً ، فصار أبو عبيدة في ثلاثة وأربعين ألفاً .

وبلغ ذلك ماهان صاحب الجيش فأرسل إلى بطارقته ورؤساء أصحابه ثم قال[6] : يا معشر ولد الأصفر ! اعلموا أن هؤلاء القوم قد نزلوا بلادكم وركبوا دوابكم وأكلوا من طعامكم ولبسوا لباسكم ، فالموت عليهم أيسر من أن يفارقوا ما قد تطعموا به من عيشكم الرفيع ودنياكم التي لم يروا مثلها ، واعلموا أنكم إنما بليتم بهؤلاء

(١) بالأصل : أيشارهم ، وما أثبتناه عن فتوح الأزدي ، والأبشار جمع بشر بالفتح وهو الإنسان ذكراً أو أنثى .

(٢) فتوح الأزدي ص ١٨٦ .

(٣) زيد عند الأزدي : واكره لقريب المسلمين وبعيدهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك .

(٤) عند الأزدي : خض الغمرات إلى الحق حيث علمته .

(٥) زيد عند الأزدي : فهو جدير عليك ألا تفعل ، إنما عليك أن تأمر فيطاع أو يعصى ، فتبوء بالحجة ، ويبوء القوم بالمعصية .

(٦) انظر مقالته في فتوح الأزدي ص ١٧٤ باختلاف النص .

العرب ودخولهم إلى بلادكم بترككم وصية المسيح عيسى ابن مريم، لأنه قد كان أوصاكم بأن لا تظلموا الناس وأنتم تظلمون الناس ، ونهاكم عن الفجور وأنتم تفجرون ، ونهاكم عن الكذب وأنتم تكذبون ، ثم إنّكم نزلتم بقوم أعززتم عليهم فأخذتم أموالهم وفجرتم بنسائهم ، فخبّروني ماذا يكون عذركم عند ربّكم ؟ وماذا تقولون للمسيح عيسى ابن مريم وقد تركتم أمره وضيّعتم وصيته وما كان يتلو عليكم من كتاب ربّكم ؟ وبعد فهذا عدوّكم قد نزل بساحتكم ويريد قتلكم واستئصالكم وسبي نسائكم وأولادكم وأخذ أموالكم ، فإن نزع سلطانكم من أيديكم وأظهر عليكم عدوكم فلا تلوموا إلا أنفسكم[1] ؛ وبعد فقد بلغني المظلوم منكم يأت الرجل من بطارقتكم وساداتكم فيستعديه على ظالمه فلا يعديه ، ويتظلّم إليه فلا ينصره عليه لكنّه يأمر بضربه وربّما أمر بقتله[2] ، فعجباً لأفعالكم هذه كيف لا تنهدّ لها الجبال وتزلزل منه الأرض وترعد السماوات بخطاياكم هذه العظام ! واعلموا يا ولد الأصفر أن هؤلاء المظلومين ينصرهم الله وينتصف لهم ، فإن فعل ذلك في الدنيا وإلّا ففي الآخرة ، لأنّه لا يفوته ظلم ظالم ولا يعزب عن علمه برّ ولا إثم ، فإن أنتم كففتم عن الظلم وارتدعتم عن الفجور وقبلتم ما أمركم به المسيح عيسى ابن مريم رجوت لكم أن تنصروا هؤلاء العرب وإلّا فأيقنوا بالذلّ والهوان ، واعلموا أنكم إن لم تؤمنوا بما أقول لكم فأنتم عندي أشرّ من الكلاب والخنازير وأسوء حالاً من البغال والحمير ، ولقد سخط الله عزّ وجلّ على أعمالكم وأنا منكم بريء ، وسترون عاقبة الظلم إلى ماذا يوردكم وإلى أي شيء مصيركم يؤول !

فضجّت البطارقة من كل ناحية وقالوا : أيّها الوزير ! فإنّا بعد هذا اليوم سامعون مطيعون لا نخرج لك عن أمر تأمرنا به ، فأشر علينا برأيك وامرنا بما تحبّ من أمرك . فقال ماهان : أما في وقتي هذا فقد رأيت أن أبعث إلى هؤلاء العرب فأسألهم أن يبعثوا إلينا رجلاً منهم يكون له فهم وعقل ورأي يعلم ما يقول ويقال له فنكلمه ، ونطمعهم في شيء من أموالنا نعطيهم إياه فيأخذونه ويرجعون إلى صاحبهم الذي بعثهم إلى حربنا ، فإن أجابوا إلى ذلك وقبلوه كان الذي يأخذونه منّا قليلاً عند ما نخاف على أنفسنا من هذه الوقعة التي لا ندري ألنا تكون أم علينا ؛ فقالت البطارقة :

---

(١) زيد عند الأزدي : فمن الظالم إلا أنتم ؟ فاتقوا الله وانزعوا عن ظلم الناس .

(٢) وكان قد بلغه أن الروم أقبلت وجعلوا يفسدون في الأرض ، ويسيئون السيرة ، وجعلوا لا يفيقون من شرب الخمر والزنا (ذكر الأزدي بعض أفعالهم ومساوئهم ص ١٧٥ وما بعدها) .

أصبت وأحسنت أيها الوزير فاعمل برأيك .

قال : فلم يشعر المسلمون إلّا ورجل من الروم قد وافاهم ، فلمّا نظروا إليه في عسكرهم أنكروه ثم دنوا منه فقالوا : من أنت ومن أين أقبلت ؟ فتكلم بالعربية فقال : أنا رجل من الروم من أهل عمّورية ، بعثت إليكم فأين أميركم أبو عبيدة بن الجراح ؟ فقالوا : هو ذاك ، وأقبلوا به إلى أبي عبيدة حتى أوقفوه بين يديه ، فقال له أبو عبيدة : اجلس وتكلم بحاجتك .

قال : فجلس الرومي فقال : أنا رسول ماهان إليكم وزير ملك الروم وعامل على بلاده وقائده على جميع جنده ، بعثني إليكم وهو يسألكم أن تبعث إليه بالرجل الذي كان أميراً قبلك ثم عزل ووليت أنت من بعده الذي يقال له خالد بن الوليد(١) ، فقد بلغه عنه أنّه رجل له حسب وقد علمنا أن ذوي الأحساب أفضل من غيرهم ، فنحن نحبّ أن نخبره بما نريد ونسأله عما تريد ، فإن وقع بيننا وبينكم اتفاق لنا ولكم فيه صلاح ورضى أخذنا به وحمدنا الله عزّ وجلّ على ذلك ، وإن لم يتفق بيننا وبينكم شيء كان الحرب(٢) من وراء ذلك بعد الإعذار والإنذار .

قال : فدعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد فخبره بذلك(٣) ، فقال خالد بن الوليد : فإني صائر إليه غداً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : وحضرت صلاة المغرب فأذّن المؤذن من كل ناحية وصلّوا ، حتى إذا فرغوا من صلاتهم قال خالد : عليّ بالرسول ، فأتوا به فقال له : هـذا وقت مساء ولكن إذا كان غداً غدوت إلى صاحبك إن شاء الله فارجع إليه وأعلمه ذلك . قال : فقعد الرومي عند القوم ولم يبرح وجعل ينظر إليهم كيف يصلّون ويدعون ويستغفرون

---

(١) عند الواقدي في فتوح الشام ١ / ١٨٤ أن مهمة جرجة الأساسية كانت تنحصر في محاولة إدخال خالد بن الوليد على معسكر الروم بعدما نقل جبلة بن الأيهم إلى ماهان أنه أدهى وأخطر القواد المسلمين وأنه هو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي وهو الذي كسر عساكر الروم في شتى المواضع والمواطن .

(٢) عند الأزدي : القتل .

(٣) زيد عند الأزدي ص ١٩٥ وقال لخالد : القهم ، فادعهم إلى الإسلام فإن قبلوا فهو حظهم . . . وإن أبوا فأعرض عليهم الجزية بأن يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، وأن أبوا فأعلمهم أننا نناجزهم ونستعين الله عليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين (وانظر فتوح الشام للواقدي ١ / ١٨٥) .

ويتضرعون ، فأعجبه ذلك منهم . فقال عمرو بن العاص : أيّها المسلمون ! إنّ الرسول قد وقع في قلبه حبّ الإيمان ، وقال أبو عبيدة : والله ! إني لأرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد قذفه في قلبه وحبّبه إليه وعرّفه فضله .

قال : ثم أقبل الرومي على أبي عبيدة فقال : يا شيخ ! خبرني متى دخلتم في هذا الدين ومتى دعيتم إليه ؟ قال : منذ بضع وعشرين سنة . قال الرومي : إنّ كلكم دخلتم في هذا الدين في وقت واحد ؟ قال أبو عبيدة : لا ، ولكن منّا من دخل فيه حين دعاه الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلم ومنّا من دخل فيه بعد ذلك ؛ قال : فخبّرني هل كان نبّيكم خبّركم أن يكون بعده نبي رسول ؟ قال أبو عبيدة : لا ، ولكن خبّرنا أنّه لا نبي بعده ، وخبّرنا أيضاً أن عيسى ابن مريم قد بشّر به قومه ؛ فقال الرومي : وأنا أشهد على عيسى ابن مريم أنّه قد بشّر في الإنجيل براكب الجمل الأحمر ولا أظنه إلا صاحبكم ولكني أحبّ أن أعلم ما تقولون في عيسى ابن مريم! فقال أبو عبيدة : نقول فيه كما قال الله عزّ وجلّ لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلم وآله ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[1] ، وقد خبّرنا نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلم فيما أنزل عليه من ربّه أنّه قال جلّ وعزّ : ﴿ **يٰأهل الكتٰب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقّ** ﴾[2] - إلى قوله تبارك وتعالى ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله [ولا] الملائكة المقربون** ﴾[2] ؛ قال الرومي : أنا أشهد لنبيّكم أنّه صادق[3] وأنّكم صادقون ولكن إن أنا أسلمت وجاهدت معكم تضمنون لي الجنّة ؟ فقال له أبو عبيدة : أو تعرف الجنّة يا رومي ؟ قال : وكيف لا أعرفها وقد وصفها لنا عيسى ابن مريم في الإنجيل! قال أبو عبيدة : فنحن نضمن لك على الله تبارك وتعالى أنك إن أسلمت وصلّيت وصمت وجاهدت ولم تغيّر ولم تبدّل فإنّك من أهل الجنة إن شاء الله تعالى ؛ قال الرومي : اشهدوا عليّ بأجمعكم[4] أني من المسلمين . فقال أبو عبيدة : إنك إن أقمت عندنا الليلة ومضى رسولنا إليهم غداً احتبسوه عندهم لأجلك ولكن انطلق إليهم واكتمهم إسلامك

(١) سورة آل عمران : ٥٨ .

(٢) سورة النساء آية ١٧٠ وآية ١٧١ .

(٣) زيد عند الأزدي : وأنه الذي بشرنا به عيسى .

(٤) وكان الرومي قد دعا أبا عبيدة لأن يحضر إليه رجلين من أفضل أصحابه فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

حتى يمضي رسولنا إليهم وننظر علام تنصرم الأمور بيننا وبينهم ، فإذا رجع رسولنا إلينا رجعت بعد ذلك إلينا فما أكرمك علينا وأرغبنا في مثلك [وما أنت عند كل امرىء منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه][1] .

قال : فمضى رسولهم إلى ماهان فقال : أيها الوزير ! قد أبلغتهم رسالتك وغداً يأتيك رسولهم .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى ماهان [وزير] ملك الروم وما كان بينهما

قال : فلما أصبح خالد بن الوليد وعزم على المسير إلى ماهان أمر بقبّة حمراء[2] اشتراها بثلاثمائة ألف درهم ، فضربت له قريباً من معسكرهم ، ثم ركب خالد وركب معه ميسرة بن مسروق العبسي وسارا جميعاً[3] حتى نزلا على باب القبّة ، ثم دخل خالد إلى قبّته فجلس وجلس معه ميسرة بن مسروق ، ووقف غلام ميسرة على باب القبّة يمسك فرسيهما .

قال : وأمر ماهان أن يصف لخالد عشرة صفوف من الروم عن يمينه وشماله مقنعين في الحديد وعليهم الدروع والمغافر والجواشن[4] والبيض[5] والسواعد لا يرى منهم إلا الأحداق[6] ؛ قال : وقعد ماهان على كرسي من ذهب ، على رأسه تاج من ذهب مرصع بالجوهر ، وقد فرشت بين يديه البسط والنمارق ، وعلى رأسه غلمان من أبناء الروم في أيديهم أعمدة الذهب والفضة .

قال : ثم أرسل إلى خالد فدعاه ، فخرج خالد من قبّته وجعل يمشي ويسحب

---

(١) زيادة عن فتوح الأزدي ص ١٩٨ . وانظر قصة إسلام جرجة في الطبري باختلاف ٣ / ٣٩٩ .

(٢) وكانت من الأديم الطائفي وفيها شمعات من الذهب الأحمر وحليتها من الفضة البيضاء (فتوح الشام للواقدي ص ١٨٥) .

(٣) في فتوح الشام للواقدي : استركب معه مئة فارس من المهاجرين والأنصار ، وذكر أسماء بعضهم (١ / ١٨٥) .

(٤) الجواشن : الدروع .

(٥) البيض : السيوف .

(٦) قال الأزدي : إنما أراد بذلك أن يريه حدة الروم وعددهم ليرعبه بذلك ، وليكون ذلك أسرع إلى ما يريد أن يعرض عليه .

سيفه ، وميسرة بن مسروق العبسي عن يساره . قال : وكان خالد رجلاً طويلاً مهيباً جميلاً لا ينظر إليه أحد من الناس إلاّ هابه .

قال : فأقبل حتى إذا دنا من ماهان قام إليه ماهان فقرّبه وأدناه وأجلسه إلى جنبه ، وجلس ميسرة بن مسروق إلى جانب خالد فقال ماهان : من هذا الذي أراه معك ؟ قال خالد : هو بعض إخواني جئت به معي أستشيره في أمري .

قال : فكلّمه ماهان بلسان عربي فصيح مبين[1] ، فقال[2] : يا خالد ! إني إنما اخترتك من أصحابك لأنّك من ذوي الأحساب فيما بلغني ، وإن لك عقلاً كاملاً والعاقل ينتفع بكلامه ويوثق بعهده ؛ فقال خالد : إن نبيّنا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم قد أخبرنا في بعض أخباره أن حسب الرجل دينه ومن لا دين له لا حسب له ، وأمّا قولك إني قد أوتيت عقلاً كاملاً ، فإنّ المنّة والطول لله عزّ وجلّ علينا بذلك وهو المحمود عندنا وقد خبرنا نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلم وآله أنّه ما خلق الله عزّ وجلّ شيئاً هو أحبّ إليه من العقل ، وبالعقل تنال طاعة الله عزّ وجلّ وبه يدخل أهل الجنة الجنة ، ومن لا عقل له فلا وفاء له .

قال : فقال له ماهان : يا خالد ! أنت بهذا عندي أعقل الناس[3] ، لا يتكلم بهذا الكلام ولا يفطن له إلا كل كامل العقل ، فكيف جئت بهذا الرجل تريد أن تستشيره في الأمر ؟ فقال له خالد : لا تعجب من ذلك ، ففي عسكرنا أكثر من ألف[4] رجل لا يستغنى عن رأيه ومشورته ؛ فقال ماهان : ما كنا نظن أن ذلك يكون عندكم ، قال خالد : ليس كلّما تظنّونه ونظنّه صواباً ، فقال ماهان : صدقت يا خالد ! وإني أوّل ما أكلّمك به إني أدعوك إلى خلتي ومصافاتي ، قال خالد : وكيف يتّفق ذلك وبيني وبينك الحرب وقد جمعتني وإياك بلدة ؟ ولا بد من القتال عليها أمداً أو تصير إلى أحدنا ! فقال ماهان : صدقت ! ولكن عسى الله أن يصلح ذات بيننا فلا يراق بيننا دم ولا يقتل بيننا أحد ، قال خالد : إن شاء الله أن يفعل ذلك فعلا . قال

---

(١) عند الأزدي : كان بينهما ترجماناً . وعند الواقدي فكالأصل .

(٢) خبر لقائهما عند الأزدي ص ٢٠٠ باختلاف بسيط . وعند الواقدي ١ / ١٨٦ وفيه اختلاف كبير . وزيادة .

(٣) عند الأزدي : أعقل أهل الأرض .

(٤) عند الأزدي : « ألفي » وعبارة الواقدي ١ / ١٨٨ نعم بهذا أمر الله عزّ وجلّ نبينا (ص) فقال الله تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وقال (ص) : ما ضاع امرؤ عرف قدره ، ولا ضاع مسلم استشار .

ماهان : فإني أريد أن ألقي الحشمة بيني وبينك فأكلّمك بكلام الأخ لأخيه ، قال خالد : قل ما تشاء ؛ قال : إنّ قبّتك قد أعجبتني جداً فأنا أحبّ أن تهبها لي وتسألني ما أحببت فإنّها أشرف شيء رأيته عندكم ، قال خالد : فإني قد وهبتها لك ولست أريد منك شيئاً .

فأرسل ماهان غلمانه إلى القبة فأخذوها ؛ ثم أقبل على خالد فقال : إن شئت تكلّمنا بما تريد وإن شئت نكلّمك بما نريد ، فقال خالد : أما أنا فإني لا أسألك إلا وقد علمت ما أريد ، لأنه ليس يخفى عليك ولا على صاحبك هرقل ما لقيت أجنادكم منّا بأجنادين ومرج الصفر ودمشق وفلسطين وفحل وحمص وبعلبك وغير ذلك ، وأمّا أنت فلست أريد ما تريد ، فتكلم بما أحببت إن شئت ذلك ؛ فقال ماهان[1] : الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم ؛ قال : فقطع عليه خالد كلامه وقال[1] : الحمد لله الذي نؤمن بنبيّنا ونبيّكم ونقرّ بكتابنا وكتابكم وجعل الأمير الذي علينا كبعضنا، فلو زعم أنه ملك علينا لعزلناه ولسنا نرى له فضلاً علينا إلا أن يكون أتقى منّا وأبر ، والحمد لله الذي جعلنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ونقرّ بالذنب ونستغفر الله عزّ وجلّ منه ، ونعبد[2] الله عزّ وجلّ ولا نشرك به شيئاً .

قال : فتغيّر وجه ماهان ثمّ قال : الحمد لله الذي أبلانا أحسن البلاء ، وأغنانا من الفقر ، ونصرنا على الأمم ، وأعزّنا فلا نذل ، ومنعنا من الضيم فلا تباح لنا حرم ، ولسنا في ذلك بطرين ولا مرحين ولا على الناس باغين ، وقد كان لنا منكم يا معشر العرب جيران صدق ، وكنا نحسن جوارهم ، ونعظم أقدارهم[3] ، ونتفضّل عليه[4] ، ونفي لهم بالعهد[5] ، فينزلون في بلادنا حيث شاؤوا آمنين ويرحلون آمنين ، وكنّا نظن أن جميع العرب ممن لا يجاورونا يشكرون لنا ذلك لما كنا نأتي من الإحسان إلى إخوانهم ، وأنتم من العرب فلم تشكروا فعلنا بإخوانكم واصطناعنا لهم ، لكنكم فاجأتمونا بالخيل والجنود ، فقاتلتمونا عن حصوننا وديارنا ، وتريدون أن

---

(١) الأزدي ص ٢٠٢ ، فتوح الشام للواقدي ١ / ١٨٦ .
(٢) الأزدي : وتعهد (أي أمتنا) .
(٣) الأزدي والواقدي : قدرهم .
(٤) الأزدي والواقدي : عليهم .
(٥) الواقدي : بالوعد .

تغلبونا على بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً وعدداً ، وأقوى منكم جيشاً وجنداً ، فرددناهم منا على أعقابهم فلم ينقلبوا منا إلا وهم من بين قتيل وأسير وشريد وطريد ، ولقد أرادت منا هذا الذي تريدون أنتم منّا ، فلعلّه قد بلغكم ما نزل بهم منّا ؛ وبعد فإنه لم تكن أمة من الأمم من أهل المشرق والمغرب أقلّ(١) منكم عندنا شأناً ولا أصغر أقداراً وأخطاراً ، لأنكم رعاة الشاة والإبل وأهل الصخر والحجر والصوف والوبر ، وأنتم الآن في ذلك تطمعون أنفسكم أن نخلي(٢) لكم البلاد ، فبئس ما ظننتم ، ولقد كنّا نظن أنكم إنما أتيتمونا إلى هذا البلد لجهد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر ، فإذا أنتم قد استوطنتم بلادنا ، وركبتم مراكبنا الذي ليست كمراكبكم ، ولبستم ثيابنا الذي ليست كثيابكم ، وأصبتم نساء ليست كنسائكم السود المهازيل لكنهم بنات الأصفر البيض الخدود الكريمات الجدود التي وجوههن كأنهن صفائح الفضة البيضاء ، ثمّ إنّكم طعمتم طعاماً ليس كطعامكم وملأتم أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر من الحرير والديباج وغير ذلك ؛ وبعد فهذا كلّه لنا في أيديكم ونحن نسلّمه لكم ، فخذوه وانصرفوا إلى بلادكم ، وإن أنتم أبيتم ذلك وشرهت أنفسكم إلى غير ذلك فإنّا نزيدكم من بيوت أموالنا ما نقوي به الضعيف منكم ونرى الغائب منكم قد رجع إلى أهله بخير ، نأمر(٣) لأميركم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار ، ولأميركم أبي عبيدة بخمسة آلاف دينار ، ولك بمثل ذلك ، ونأمر لمائة رجل من رؤسائكم لكل رجل منهم بألف دينار ، ولسائر من معكم من الجنود بمائة دينار ، ولرجالتكم لكل رجل منهم بخمسين ديناراً على أن نأخذ عليكم العهود والمواثيق والأيمان المغلظة ، وأنّكم تنصرفون عنّا ولا ترجعون إلى بلادنا أبداً ، فهذا ما عندي وقد عرضت عليك ما عندي ، فهات ما عندك الآن وقل ما بدا لك وإياك الاشتطاط .

ذكر كلام خالد بن الوليد لماهان وجوابه

قال خالد : الحمد لله ! قال ماهان : نعم ما قلت ! قال خالد : وأشهد أن لا إله إلا الله ! قال ماهان : نعم ما قلت ! قال خالد : وحده لا شرك له ! فسكت ماهان

(١) الأزدي : أرق عندنا منكم ؛ الواقدي : أحقر شأناً .
(٢) الأزدي : نجلي لكم عن بلادنا ، بئس ما طمعتم فيه منها .
(٣) ثمة اختلاف بين نصي الأزدي والواقدي ، في الأعطيات ، عن الأصل .

ولم يقل شيئاً ؛ قال خالد : وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ! قال ماهان : والله ما أدري أمحمّد رسول الله أم لا ، ولعلّ ذلك كما تقول ؛ قال خالد : وبعد فإني فهمت كلامك ولم يخف عليّ منه شيء فأمّا ما ذكرت به قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن في البلاد فنحن به عارفون ؛ وأمّا ما ذكرت من إنعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه منكم وإنما كان ذلك أمراً تصلحون به دنياكم ، وإحسانكم إليهم إنما كان زيادة في ملككم(1) لأنّ عامّتهم قد دخلوا في دينكم فهم يقاتلون معكم ، وهذا جبلة بن الأيهم الغساني هو رجل من العرب غير أنّه مقيم معكم في جميع بني عمّه المتنصرة فهو أشدّ علينا منكم ؛ وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والشاة فليس فينا أحد يكره ذلك وليس لمن لم يرع عندنا فضل على من رعى ؛ وأما ما ذكرتنا به من الصخر والحجر والصوف والوبر فحالنا والله كما ذكرت(2) ، ولقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت وأقلّ وأذلّ في عيون الناس ، وذلك أن الله عزّ وجلّ أنزلنا أرضاً ليس بها أنهار جارية ولا زرع ولا خير ، وإنما هي مهامه(3) وقفار ؛ وكنّا كما ذكرت أصحاب حجر وصخر وشاة وبعير ، وعيش نكد وفقر شديد ، نقسم بالأزلام ونسجد للأصنام ، نقطع أرحامنا ونسيء إلى إخواننا ، ونقتل أولادنا خشية إملاق ، ونعبد من دون الله أوثاناً نتخذها بأيدينا من الحجارة التي نتخيرها على أعيننا وهي لا تضرنا ولا تنفعنا ولا تنصرنا ولا تسمع ولا تبصر ونحن عليها عاكفون(4) ولها مطيعون ؛ فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار من مات منا كان مشركاً بربه قاطعاً لرحمه صار إلى النار ومن بقي بقي على سخط من الجبّار إذ بعث الله عزّ وجلّ رسولاً من أنفسنا وصميمنا وأشرافنا وكرمائنا وأخايرنا ، فدعانا إلى الله عزّ ذكره وحده لا شريك له وأمرنا أن نخلع الأنداد التي نعبدها من دونه ، وأن لا نجعل لربنا صاحبة ولا ولداً ولا نشرك معه أحداً ولا نعبد من دونه ناراً ولا حجراً ولا شمساً ولا قمراً ، وأمرنا أن نقاتل من زعم أنه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ؛ فإن قلتم ذلك فقد حرمت علينا دماؤكم

---

(1) زيد عند الأزدي : وعزّا لكم . وعبارة الواقدي : وإنما فعلتم ذلك إبقاء لنعمتكم ونظراً منكم لأنفسكم وذراريكم وزيادة لكم في مالكم وعزاً لكم .

(2) الأزدي : كما وصفت .

(3) المهامه جمع مهمه ، وهي المغارة البعيدة والبلد القفر .

(4) الأزدي : مكبون . الواقدي : عليها مكبون ولها حاملون .

وأموالكم إلا بحقها وأنتم إخواننا في ديننا وشركاؤنا في حظّنا ، وإن أنتم أبيتم ذلك فأدوا الجزية عن يـدٍ وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم ذلك فقاتلناكم على بصيرة ويقين أنه من قتل منا كان حياً عند الله شهيداً مرزوقاً ومن قتل منكم كان كافراً وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً ؛ فاختر الآن يا ماهان ما أحببت[١] واعلم أنـه قد جـاءك قوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة فاخرجوا بنا على بركة الله حتى نحاكمكم إلى الله فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

قال : فقال ماهان : يا خالد ! أما ما ذكرت أنا ندخل في دينكم فهذا ما لا يكون أبداً ، فلا تطمع نفسك في ذلك ، فما أبعدكم أن تروا ولد الأصفر وقد تركوا دينهم ودين آبائهم ودخلوا في غيره ؛ وأما ما ذكرت أنا نؤدي الجزية فإنه سيموت من ترى من هذا الخلق قبل أن يؤدوا الجزية ، وكيف يؤدونها وهم يأخذونها من الناس على الصغر والقمأة ؛ وأما قولك : اخرجوا حتى نتحاكم إلى الله ، فلعمري ما جاءك هذا الخلق إلا ليحاكموك إلى الله ؛ وأما قولك إن الأرض لله يورثها من يشاء ، فقد صدقت يا خالد ! إنما كانت هذه الأرض لأمة كانت من قبلنا قاتلناهم عليهـا حتى أخذناها منهم واحتوينا عليها ، وكذلك تصير هذه الأرض إلى غيرنا ، فابرزوا على بركة الله فإنا خارجون إليكم إذا عزمتم[٢] .

قال : فوثب خالد بن الوليد من بين يدي ماهان فاستوى على فرسه وانطلق إلى أبي عبيدة بن الجراح ومعه ميسرة بن مسروق . فقصّ على أبي عبيدة ما كان من كلامه وكلام ماهان ، ثم قال للمسلمين : استعدوا للقتال ، قتال أعداء الله فقد قرب الأمر وليكن معولكم على الله وحده لا شريك له فيه ، فاعتصموا وعليه فتوكلوا .

قال : وكتب ماهان من ساعته إلى ملك الروم يخبره بخبر خالد وحال المسلمين وما جرى بينه وبين خالد بن الوليد من الكلام ، وفي كتابه : أيهـا الملك ! إني[٣] أرغبتهم فليس يرغبون وأطمعتهم فليس يطمعون وخـوفتهم فليس يخافـون ، وليس

---

(١) في الواقدي والأزدي زيادة فيها يعرض خالد على ماهان الإسلام وأن أبى فالجزية وان أبي فالحرب .

(٢) راجع فتوح الشام للواقدي ص ١٨٩ - ١٩٠ ففيه يتحدث عن نهاية اللقاء بين خالد وماهان والتوتر الذي خيم على وداعهما .

(٣) عند الأزدي ص ٢٠٨ هذا قول ماهان لأصحابه عندما جمعهم يستشيرهم بالأمر . وهو ما كتب إليه به في كتاب مطول انظر ص ٢٠٩ .

يريدون إلا استئصالنا وذهاب سلطاننا وأخذ أموالنا وسبي نسائنا وأبنائنا وليس في عسكري أحد أيها الملك إلا هو طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه .

قال : ثم وجه ماهان بكتابه إلى ملك الروم ، وأقبل على بطارقته وقال لهم : كيف الرأي عندكم اليوم في قتال هؤلاء العرب ؟ فقال له بعض بطارقته : أيها الوزير ! أنت تعلم أن جاسوسك قد أقبل من عندهم فأخبرك أنهم في أربعين (١) ألفاً ويزيدون قليلاً ونحن أكثر منهم (٢) بأضعاف كثيرة لأننا نزيد على أربعمائة ألف ، والرأي عندي أن نخرج إليهم في كل يوم مائة ألف رجل منا يقاتلونهم (٣) ، فإذا كان من غد خرج إليهم غير أولئك الذين قاتلوهم بالأمس يقاتلونهم هؤلاء ويستريح هؤلاء فيراح عليهم أبداً ونفنيهم عن آخرهم ، إن انهزم منا مائة ألف كان وراءهم مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف على هذا الشأن . فقال ماهان : قولوا غير هذا ، فقال بطريق آخر : عندي مشورة أوجز من هذه ، فقال ماهان : قل حتى أسمع ، فقال : الرأي عندي أن نخرج إليهم بأجمعنا إذا خرجوا إلينا وصافقونا خرج إلى كل واحد منهم عشرة منا فنأخذه أخذاً ؛ فقال : ويحك ! فكيف ينفرد الرجل من أصحابه حتى يؤخذ ؟ هذا لا يكون ؛ ولكني قد رأيت أن نخرج إليهم بأجمعنا خرجة واحدة ثم نضاربهم ونناجزهم فلا نرجع حتى يحكم الله عزّ وجلّ بيننا وبينهم ؛ فقال عامة البطارقة : الرأي ما رأيت أيها الوزير .

فعزم ماهان على ذلك ثم كتب إلى هرقل ملك الروم (٤) : أما بعد أيها الملك ! إن أصحابي بأجمعهم قد أجمعوا على مناجزة العرب وقد اجتمع رأيي على النهوض إليهم في يوم كذا وكذا ، وهو يوم لنا فيه الخيرة ، وإني أخبرك أيها الملك أني رأيت في منامي كأن آتياً أتاني فقال لي : يا ماهان ! لا تقاتل هؤلاء العرب (٥) فإنك إن قاتلتهم هزموك وأهلكوك ؛ فلما انتبهت علمت أن ذلك من قبل الشيطان فأخسأته ولم ألتفت إليه ، وبعد أيها الملك فإني أشير عليك أن توجه أموالك وحرمك إلى قسطنطينية وتثبت أنت بمدينة أنطاكية وتكون مخفاً وتنتظر وقعتنا هذه ، فإن أظهرنا الله

---

(١) عند الأزدي : ثلاثين ألفاً أو أقل أو أكثر قليلاً .

(٢) عند الأزدي : عشرة أضعافهم .

(٣) عند الأزدي : وتستريح البقية وتسرح بعيالنا وأثقالنا إلى البحر فلا يكون معنا شيء يهمنا ولا يشغلنا .

(٤) نسخة الكتاب عند الأزدي ص ٢٠٩ .

(٥) الأزدي : القوم .

عزَّ وجلّ على العرب وظفرنا بهم حمدت الله سبحانه وتعالى على ذلك إذا أعز دينك ومنع سلطانك ، وإن هم ظهروا علينا فارض بقضاء الله وقدره واعلم أن الدنيا كما زالت عمن كان قبلك فإنها تزول عنك فلا تأسفن منها على ما فاتك والحق بدار ملكك ومعقلك وأحسن إلى رعيتك يحسن الله إليك وارحم الضعفاء والمساكين وتواضع لله عزَّ وجلّ وإياك والتكبر في الأرض فإن الله لا يحب المتكبرين .

قال فبعث هرقل أمواله وحريمه وكل ما يعز عليه إلى القسطنطينية ، وجعل يتجسس أمر العرب ويكتب إلى وزيره ويحرضه على القتال ويوصيه بأمر أصحابه من الروم ويذكرهم ما مضى لهم مع العرب من الوقائع الأول ويقول لهم إن أنتم هزمتم منهم فلن تسكنوا الشام بعدها واحذروا أن تبغوا على ضعفائكم بظلم ، واعلموا أن النصر مع الصبر وأن العاقبة لأهل الدين القديم ، وأنا أقسم بما أعتقده أن العرب إنما [لم] ينصروا إلا بما أظهرتم من القبائح والمظالم ، ولو تبصرتم لعلمتم أنما خذلكم سوء أعمالكم لا غير .

قال : فلما بلغ ذلك إلى وزيره ماهان أخذ في تعبية جيشه ، ولما فرغ ماهان من تعبية الجيش وقد رتّب طلائعه[1] ودرّاجته ثم أمر له بمضرب ، فضرب له على كثيب عالٍ إلى جانب اليرموك يشرف منه على عسكره وعسكر أصحاب رسول الله ﷺ وأوقف عن يمينه ألفي فارس من حماة الروم في سوابغ السلاح وألفي فارس عن يساره وعليهم الديباج الأحمر المنسوج بالذهب لا يرى منهم إلا حماليق الحدق وهم أصحاب السرير ، وأمرهم باليقظة وقال لهم : إني قد كدت العرب بهذه الفعال لأنكم على أهبة ، فإذا طلعت الشمس ورأيتم المسلمين على غير أهبة وتعبية الحرب فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان .

قال : حدّثني جعال بن أسيد السكاسكي عن أبيه أسيد بن علقمة[2] وكان من أصحاب عياض بن غنم الفهري[3] قال : لما رأيت ماهان قد عبّى أصحابه وعسكره

---

(١) صف له عشرين صفاً لا يرى طرفاهم ، ثم جعل على ميمنته وميسرته فجعل ابن قناطير على ميمنته ، وجعل معه جرجير في أهل أرمينيا وجعل الدرنجار في ميسرته . (الأزدي ص ٢١٠ وانظر فتوح الشام ١ / ١٩٢ - ١٩٣) .

(٢) الخبر في فتوح الأزدي ص ٢١٢ عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي .

(٣) عن ابن سعد وانظر أسد الغابة ٤ / ١٦٥ وبالأصل الأشعري تحريف .

كنّا نحن في عسكرنا وليس عندنا مما صنع الكافر خبر ، قال : فلما انشق الفجر وتقدم أبو عبيدة وصلى بالناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهان فقرأ في الركعة الأولى ﴿ والفجر * وليال عشر ﴾ ، حتى أتى إلى قوله ﴿ إنّ ربك لبالمرصاد ﴾[1] ، فهتف به هاتف : ظفرتم بالقوم وربِّ الكعبة ! وما يغني عنهم كيدهم شيئاً وما أجرى الله هذه الآية على لسان أميركم إلا بشارة لكم ، فلما سمع المسلمون الهاتف عجبوا ؛ ثم قرأ في الركعة الثانية ﴿ والشمس وضحٰها ﴾ إلى قوله ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فَسَوَّها ﴾[2] وإذا الهاتف يقول : تم الفأل وصحّ الزجر ، هذه علامة النصر ، فلما فرغ أبو عبيدة من الصلاة قال : معاشر المسلمين ! هل سمعتم من الهاتف ما سمعت ؟ قالوا : سمعنا قائلاً يقول كذا وكذا ، قال أبو عبيدة : هذا والله هاتف النصر وبلوغ الأمر ، فأبشروا بنصر الله ومعونته ، فوالله ! لينصرنكم الله العظيم عليهم .

ثم قال : معاشر المسلمين ! اعلموا أني رأيت البارحة رؤيا تدلّ على النصر على الأعداء والنصر من إله السماء ، فقالوا : ما الذي رأيت ؟ قال : رأيت كأني واقف بإزاء عدوّنا من الروم فحينئذ مرّ بي رجال عليهم ثياب بيض لم أر مثلهم ، وحسن بياضهم وإشراق نورهم يغشى الأبصار ، وهم على خيول شهب . فلما أخذوا مصافهم قالوا للرجال منّا ـ منهم من أعرف ومنهم من لا أعرف ـ : تقدّموا إلى عدوّكم ولا تهابوهم فإنكم الأغلبون[3] والله ناصركم ، ودعوا برجال منكم وسقوهم من كأس معهم فيه شراب ، وكأني أنظر إلى عسكرنا وقد دخلوا إلى عسكر الروم ، فلما رأونا ولّوا بين أيدينا منهزمين . فقال المسلمون : أصلح الله الأمير وبشرك بالخير .

فقام رجل من خولان[4] فقال : أصلحك الله أيها الأمير ! وأنا أيضاً رأيت البارحة رؤيا كأننا خرجنا نحو عدوّنا فضايقناهم في الحرب وإذا قد انقضت عليهم من السماء طيور[5] لها أجنحة خضر ومخاليب كمخاليب العقبان[6] ، فجعلت تنقض

---

(١) سورة الفجر الآيات من ١ ـ ١٤ .

(٢) سورة الشمس الآيتان : ١١ و١٢ .

(٣) عند الأزدي : الأعلون . وعند الواقدي : فإنكم غالبون .

(٤) عند الأزدي ص ٢١٣ : أبو مرثد الخولاني (ذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدراً وانه سكن الشام) . وعند الواقدي : فقال رجل من المسلمين .

(٥) الأزدي : طيراً بيضاً عظاماً . وعند الواقدي : طيور بيض لها أجنحة خضر .

(٦) الأزدي : « الأسد » عند الواقدي : « النسور » .

عليهم انقضاض العقبان ، فإذا جاءت الطيور واحداً منهم ضربته فقطعته قطعاً ؛ ففرح المسلمون بتلك الرؤيا وقال بعضهم لبعض : أبشروا فقد أمنكم من عدوّكم بالنصر وأيّدكم بالملائكة تقاتل معكم كما فعلت بكم يوم بدر .

وفرح أبو عبيدة وقال : هذه رؤيتان حسنتان وهو حقّ يقين . فقال له رجل من المسلمين : أيها الأمير ! ما وقوفك عن هؤلاء الأعلاج الكلاب وأيش انتظارك بالحرب ، وعدونا قد كادنا بمطاولته وما تأخر عنا إلا ليلة يريد أن يوقعنا فيها ، فقال أبو عبيدة : إن الأمر أقرب من هذا وما تظنون .

قال سعيد بن رفاعة الحميري : وكنت رجلاً ما كنت قدمت على النبي صلّى الله عليه وسلم ولا كنت نظرت إليه ، فلما أتاني داعي أبي بكر الصديق رضي الله عنه استنفرنا للقتال والغزاة للروم ، فنفرت فيمن نفر وقدمت إلى المدينة مع قومي من حمير ونظرت إلى أبي بكر وهو يصلي بالناس في محراب رسول الله ﷺ ، فلزمت الصلاة معهم ولم أسر إلى قتال الروم ، فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرّض على الجهاد ، فسرت إلى قتال الروم وشهدت وقعة اليرموك ، وذلك أني كنت لا أفارق أبا عبيدة رضي الله عنه ، فصلى بنا صلاة الفجر وإذا بالهاتف قد هتف ، إذ سمعنا بأصوات قد علت والزعقات من كل جانب ومكان قد ارتفعت وان الروم قد رجفت إلينا ، فعلم أبو عبيدة أن المسلمين قد كبسوا في وجه السحر ، فقام وقمنا وكان على الحرس تلك الليلة سعيد إذا أقبل وهو ينادي : النفير النفير ! حتى وقف أمام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنصّرة ، فقال : أيها الأمير ! إن ماهان قد كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب وها هو قد عبى عسكره وصف جيوشه[1] وزحف إلينا زحف يريد الكبسة لنا ونحن على غير أهبة ولا عدة وها هو قد أقبل إلينا زاحف ، وقد أتانا رجل راغب فينا يحذر الناس من بأسه ويزعم أن ماهان قد أقبل بجيوشه وقد اتفق مع بطارقته أنهم يقاتلونا[2] ، كل يوم ملك من ملوكهم بمن معه يؤم هذا ، وقد نظر المسلمون إلى راياتهم والقوم قد قربوا منهم والصلبان تدنو .

فقال أبو عبيدة : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إنا لله وإنا إليه

---

(١) راجع ص ١٩٥ حاشية رقم ١ .

(٢) تقدم أن ماهان اتفق مع بطارقته وأصحابه على أن يخرجوا خرجة واحدة فيناجزوا المسلمين فيها ثم لا يرجعون عنهم حتى يحكم الله بينهم .

راجعون ، ثم قال : أين أبو سليمان خالد بن الوليد ؟ فأجابه بالتلبية ، فقال : أنت يا أبا سليمان أبرز إلى الكفار في أبطال المسلمين وصد عن الحريم إلى أن تأخذ الرجال صفوفها ويستعدوا للحرب (١) ، فقال : حباً وكرامة .

ثم إنّ خالداً صاح بأبطال المسلمين المذكورين ، وجعل يدعو برجل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ممّن شهد معه المواطن والمواضع المفضّلة وأصحاب التقدمة ، حتى دعا بخمسمائة فارس من أصحاب رسول الله ﷺ لا يخافون لومة لائم ؛ ثم استقبلوا جيوش المشركين بأسنّة الرماح وأشعلوا الحرب بنارها ، واشتغل أبو عبيدة بترتيب الجيوش وتعبية العسكر .

وأقبل أبو سفيان إلى أبي عبيدة وقال : أيها الأمير ! مر النساء يعلون على هذا التلّ ، فأمرهن أبو عبيدة بذلك فعلت النساء على التلّ ومعهن الأطفال والصغار ، وقال لهن أبو عبيدة : خذن بأيديكنّ أعمدة السيوف وأعمدة البيوت والفساطيط واجمعن الحجارة بين أيديكن وحرّضن المؤمنين على قتال المشركين ، فإن كان الأمر لنا فكنّ على ما أنتنّ عليه ، وإن رأيتنّ أحداً من المسلمين منهزماً فاضربن وجهه بأعمدة البيوت واضربنه (٢) بالحجارة وادفعن إليه أولاده وقلن له : قاتل عن ولدك وعن بيعة الإسلام ؛ فقالت النساء : أيها الأمير أبشر بما يسرّك .

قال (٣) : ولما حصن أبو عبيدة النساء بالتلّ أقبل يعبي جيشه ، وقد ابتدر المسلمون للقتال بعد أن عبّاهم ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين ، وقدم أصحاب الرايات ، وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها بياض وخضرة وسواد ، وسائر القبائل

---

(١) عند الواقدي ١ / ١٩١ قال أبو عبيدة لخالد : قد وليتك على الخيل والرجل فولِ أمر الرجالة من شئت .
وقد قرر المسلمون ألا يخرجوا إلى الروم إلا أن يأتوهم حتى يلطوا بعسكرهم أو يضطروهم إلى ذلك .
وكانوا قد رأوهم كأنهم الجراد قد ملأوا الأرض ، فنهضوا عندئذ إلى راياتهم دون تعبئة . ثم راح أبو عبيدة وأصحابه يعبئون الناس وصفوفهم ولم يزالوا كذلك حتى أصبحوا . وقال الأزدي ص ٢١٧ وجعل (أبو عبيدة) على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته قباث بن أسيم ، وجعل على الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وجعل على الخيل خالد بن الوليد . (وانظر فتوح الشام للواقدي ١ / ١٩١ - ١٩٢ وما قاله الطبري في تعبئة المسلمين يوم اليرموك ٣ / ٣٩٦) .

(٢) عند الواقدي ١ / ٢٠٣ واحصبنه .

(٣) خبر تعبئة أبي عبيدة للمسلمين في فتوح الشام للواقدي ١ / ٢٠٣ .

راياتهم مختلفة الألوان ؛ وجعل المهاجرين والأنصار في القلب وأظهر المسلمون السلاح ، وجعل العسكر ثلاثة صفوف : صفّ فيه الرماة من أهل اليمن ، وصفّ فيه أصحاب السيوف والحجف ، وصفّ فيه الرماح والخيل والعدّة ؛ وقسم الخيّالة ثلاثة صفوف وقدم عليهم ثلاثة من فرسان المسلمين : أحدهم غياث بن حرملة العامري ، والآخر نبلة[1] بن سيف اليربوعي ، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي ، ووقف المسلمون تحت راياتهم ، ووقف أبو عبيدة رضي الله عنه في القلب تحت رايته التي عقدها أبو بكر الصديق له يوم مسيره إلى الشام وهي راية رسول الله ﷺ[2] ، وكان خالد بن الوليد تحت رايته العقاب وكانت سوداء ؛ وكان على الدراجة شرحبيل بن حسنة ، وعلى الميمنة يزيد بن أبي سفيان ، وعلى جناح الميسرة قيس بن هبيرة المرادي ؛ وكانت الأزد في ذلك اليوم في القلب ، وحمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم وكنانة وقضاعة ولخم وجذام وحضرموت ميمنة وميسرة ، ولم يكن فيهم تيم ولا ربيعة[3] لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص .

فلما ترتبت الصفوف سار أبو عبيدة بين الصفوف وجعل يحرّض الناس على القتال ويقول[4] : إن تنصروا الله ينصركم ، فلازموا الصبر فإنّ الله يحبّ الصابرين ، ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم ؛ ثم رجع إلى مقامه ووقف في القلب . وخرج من بعده معاذ بن جبل فطاف محرضاً للناس ويقول[5] : يا أهل الدين ! اعلموا رحمكم الله ! إنه لا تنال الآخرة إلاّ بالعمل والنّية ، وجعل يقول : أيها الناس ! غَضّوا أبصاركم واجثوا على الركب وشرعوا الرماح ، وإذا حملوا عليكم فامهلوهم وإذا ركبوا أطراف الإسنة فثبوا في وجوههم وثوب الأسد إلى فريستها ، ولا يهولنّكم جموعهم ولا عددهم ؛ ثم إنه عاد فوقف في مكانه .

ولم تغن مكيدة ماهان شيئاً ، ورجعت الروم إلى ورائها حين نظروا إلى خالد بن الوليد وقد زحف إليهم في خمسمائة فارس من أصحاب رسول الله ﷺ فحاروا لذلك ورجعوا .

---

(١) عند الواقدي : مسلمة .

(٢) زيد عند الواقدي : الصفراء التي سار بها يوم خيبر .

(٣) في فتوح الأزدي ص ٢١٨ : لم يحضرها يومئذ أسد ولا تميم ولا ربيعة .

(٤) قارن مقالته مع فتوح الشام للأزدي ص ٢١٨ وفتوح الواقدي ١ / ٢٠٣ .

(٥) قارن مع الأزدي ص ٢١٨ والواقدي ١ / ٢٠٣ .

ولما اصطفّت الصفوف صرخ ماهان في الروم صرخةً عظيمة وقال : ويلكم ! ما يوقفكم عن الحرب والقتال ؟ ازحفوا إليهم ! فحملت الروم على المسلمين .

ونظر خالد بن الوليد إلى جيش عظيم عرَمْرَم وجواشن تلمع وسيوف تشرع ؛ وكان قد انفرد منهم ثلاثون ألفاً من عظماء الروم وفرسانهم ، وحفروا لهم في الميمنة حفائر ونزلوا فيها وشدّوا خيلهم بالسلاسل ، واقترن كل عشرة في سلسلة التماساً للحفيظة[1] وأن لا يفروا وحلفوا بعيسى ومريم والصليب أن لا ينهزموا أو يقتلوا العرب عن آخرهم .

فلما نظر خالد بن الوليد إلى ما صنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف : هذا يوشك أن يكون يوماً عظيماً[2] ، ثم قال : اللّهم ! أيد المسلمين بالنصر وافرغ عليهم الصبر . ثم أقبل إلى أبي عبيدة وقال : أيها الأمير ! إن الروم قد اقترنوا بالسلاسل وزحفوا إلينا بالعمد والقواضِب ، قال أبو عبيدة : اعلم أن عدد القوم كثير وما ينجيكم إلا الصبر .

ثم قال لخالد : ما الذي تراه من الرأي يا أبا سليمان ؟ فقال : اعلم أن ماهان قد قدم حامية أصحابه أمام جيشه وصفهم أمام المسلمين ، قال : وكان ماهان قد قدم أمام الروم من ذكرت شجاعته وعرفت براعته واشتهر في بلادهم بالثبات وهم مائة ألف فارس ، فلما رآهم خالد بن الوليد وشاهد تعبيتهم ونظر إليهم شهد لهم أنهم من أهل الشدة[3] ؛ قال لأبي عبيدة : إن من الرأي أن توقف في مكانك الذي أنت فيه سعيد بن زيد وقف من ورائه بإزائه في ثلاثمائة من أصحابك فإذا علم المسلمون أنك من ورائهم استحيوا من الله تعالى ثم منك أن لا ينهزموا .

قال : فقبل أبو عبيدة مشورة خالد ودعا بسعيد بن زيد ـ وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي تحت الشجرة ـ فأوقفه مكانه . ثم انتخب أبو عبيدة مائتي فارس من فرسان المسلمين وفيهم رجال من المهاجرين[والأنصار][4] ، ووقف بهم من وراء الصف بحذاء سعيد بن زيد .

---

(١) عند الواقدي ١ / ٢٠٤ التماساً لحفظ عسكرهم .

(٢) بالأصل : يوم عظيم .

(٣) عند الواقدي : شهد لهم بالفروسية وأنهم من أهل الشدة .

(٤) عن الواقدي ١ / ٢٠٥ .

قال ورقا بن مهلهل [التنوخي][1] وكان صاحب راية أبي عبيدة : أول من فتح باب الحرب يوم جيش السلاسل غلام من الأزد حدث السن ، فقال لأبي عبيدة : أيها الأمير ! إني قد أردت أن أشفي قلبي وأجاهد عدوي وعدو الإسلام وأبذل نفسي في طاعة الله عزّ وجلّ لعلي أرزق الشهادة فهل تأذن لي في ذلك ؟ وإن كان لك حاجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بها ؛ فبكى أبو عبيدة رضي الله عنه وقال : أقرىء محمداً عني السلام وخبّره أنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

قال : فألوى الغلام الأزدي رأس جواده وحمل يريد الحرب . فحمل عليه علج من الروم تامّ من الرجال على فرس أشهب ، فلمّا رآه الغلام دلف[2] نحوه ، وقد حبس نفسه في سبيل الله تعالى ، فلمّا قرب منه حمل عليه[3] الغلام الأزدي حملة منكرة ، فطعنه في صدره خرج السنان من ظهره ، وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك إلى رجل من قومه ثم إنه عاد وطلب البراز ، فخرج إليه ثان فقتله ، وثالث ورابع فقتلهم ، وخرج إليه خامس فقتل الأزدي رحمة الله عليه .

فغضبت الأزد عند ذلك لأجل قتل صاحبهم ودنوا من صفوف الروم ، فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ ، عندها نادى معاذ بن جبل[4] : معاشر المسلمين ! إن أعداء الله وأعداءكم قد زحفوا إليكم فتأهبّوا للحملة ، واعلموا أن الله معكم فثبتوا أنفسكم بالصبر والصدق واللقاء والنصر من الله تعالى ؛ ثم لحظ السماء بطرفه وقال : اللهمّ إيّاك نعبد وإياك نستعين ، ولك نوحّد ولا نشرك بك شيئاً ، وإنّ هؤلاء الأعداء يكفرون بك وبآياتك ، اللهمّ فانصرنا عليهم يا من قال في كتابه العزيز ﴿ **واعتصموا بالله هو مولـٰكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾[5] .

قال : فبينما معاذ بن جبل[4] يدعو إذ حملت ميمنة الروم على المسلمين وذلك

---

(١) عن الواقدي . وانظر فيه خبر الغلام الأزدي ١/ ٢٠٥ .

(٢) عند الواقدي : قصد .

(٣) زيد عند الواقدي : قال :

لا بد من طعن وضرب صائب ... بكل لدن وحسام قاضب

عسى أنال الفوز بالمواهب ... في جنة الفردوس والمراتب

(٤) عند الواقدي ١ / ٢٠٥ : فقال أبو عبيدة .

(٥) سورة الحج : آية ٧٨ .

أن ماهان بعث إلى ميسرة الروم ـ وكان على الميسرة الديرجان ـ وقال له : الملك يقول لك : احمل على ميمنة المسلمين بأصحابك ، قال : فحمل على الميمنة وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموت [وخولان][1] ، فصبر المسلمون وقاتلوا قتالاً شديداً ، وثبتوا احتساباً ، فحملت عليهم كتيبة ثانية ، فصبروا لهم صبراً جميلاً ، فحملت عليهم كتيبة ثالثة ، فزال المسلمون عن الميمنة ؛ وانكشفت طائفة من الناس إلى العسكر[2] وثبتت منهم طائفة ثباتاً حسناً ، قاتلوا تحت راياتهم .

وانكشفت[3] لهم يومئذ زبيد وهم في الميمنة وعليهم الحجّاج بن عبد يغوث قال عكاشة بن مازن : وكان عليهم قيس بن هبيرة ؛ وزبيد قد انهزمت ، فابتدر عمرو بن معدي كرب وهو مقدم على زبيد ، وهو الأمير فيهم وهم يعظّمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية ، وكان يوم اليرموك قد مرّ له من العمر مائة وعشرون سنة إلا أن همة الشجاعة فيه متيقظة . قال : فلمّا نظر إلى قومه قد انكشفوا صاح فيهم : يا آل زبيد ! يا آل زبيد ! أتفرّون من الأعداء أترمون أنفسكم بالعار والذلة والشنار ؟ فما هذا الانزعاج من كلاب أعلاج ؟ أما علمتم أنّ الله يطلع على المجاهدين الصابرين . فإذا نظر إليهم قد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدّهم بنصره وأيدّهم به ، فأين تهربون من الجنة ؟ أرضيتم بالعار وغضب الجبار [ودخول النار][4] .

فلما سمعت زبيد كلام سيدها عمرو بن معدي كرب الزبيدي تراجعوا[5] إليه كعطفة الأم ؛ واجتمعوا من حوله وحملوا على الروم حملة واحدة ، وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان ، فأزالوا الروم عن مواضعهم ؛ وحملت دوس على المشركين مع قيس بن هبيرة[6] ، فهزّ رايته وجعل يحرّض الناس على القتال[7] هذا ودوس حملت حملة ودارت الحرب كما تدور الرحى وتكاثفت جموع الروم على

---

(١) عن الأزدي والواقدي .
(٢) عند الأزدي : المعسكر .
(٣) عند الأزدي : « ولم تنكشف » . وسياق الخبر يظهر انكشافهم وانظر الواقدي ١ / ٢٠٥ .
(٤) عن الواقدي .
(٥) عند الواقدي : رجعوا إليه وعطفوا عليه عطفة الإبل على أولادها .
(٦) عند الواقدي ١ / ٢٠٦ مع أبي هريرة .
(٧) انظر مقالته عند الواقدي ١ / ٢٠٦ والأزدي ص ٢٢٥ .

المسلمين على ميمنتهم ، فألقوهم إلى القلب ، فصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً .

قال : ودفعت عليهم كتيبة أخرى فانهزمت ميمنة المسلمين راجعة على أعقابها والخيل ناكصة بأذنابها ، فخرجت راجعة مكسورة على رأسها ونظرت النسوان إلى خيول المسلمين منهزمة فنادت النساء : يا بنات العربيات ! دونكن والرجال ، ردّوهم عن الهزيمة والكسرة ! .

قالت سعداء[1] بنت عاصم الخولاني : كنت مع النساء يومئذ على التلّ ، فلما انكسرت الميمنة صاحت بنا لبنى بنت جرير الحميرية[2] وكانت من المترجلات البازلات ، نادت بالنساء : يا بنات العربيات ! دونكن والرجال ، فاحملن أولادكن على أيديكن ، واستقبلتهن بالصياح والتحريض . قال : فأقبلت النساء يرمين الدوابّ بالحجارة ، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادي : قبّح الله وجه رجل يفر عن خليلته ! وجعلت النساء يقلن لبعولتهن : لستم لنا ببعول إن لم تمنعوا عنّا الأعلاج .

قال : وكانت خولة بنت الأزور وخولة بنت ثعلب[3] الأنصاري ولعوب[4] بنت مالك بن عاصم وسلمى بنت هاشم ونعيمة[5] بنت فياض وهند بنت عتبة بن ربيعة وابانة[6] بنت جرير الحميرية وهي أمام النساء والمزاهر معهن وهنّ يقلن هذه الأبيات :

يا هارباً عن نسوة ثقات ... لهم[7] جمال ولهم[7] ثبات
تسلمهم طرا إلى الهنات ... تلك نواصيهم[8] مع البنات
أعلاج سوء فسق عتات ... ينلن منا أعظم الشيات[9]

---

(١) عند الواقدي ١ / ٢٠٦ : سعيدة .
(٢) عند الواقدي : عفيرة بنت غفار .
(٣) الواقدي : ثعلبة الأنصارية . وهي خولة بنت ثعلبة بن مالك بن الدخشم (في الإصابة : الأجشم) .
(٤) الواقدي : كعوب .
(٥) الواقدي : نعم .
(٦) الواقدي : لبنى .
(٧) الواقدي ١ / ٢٠٦ لها .
(٨) الواقدي : تسلموهن إلى . . تملك نواصينا .
(٩) الواقدي : الشتات . وعند الأزدي ص ٢٢٣ .

يا هارباً عن نسوة تقيات ... رميت بالسهم وبالمنيات
فعن قليل ما ترى سبيات ... غير حظيات ولا رضيات

قال : وجعلن يحرّضن على القتال ، فرجع المسلمون رجعة عظيمة عند ما سمعوا من تحريض النساء .

قال : وصرخت هند بنت عتبة وفي يدها مزهرها بين الصفّين تحرّض المسلمين على القتال وهي تقول الشعر الذي قالته في يوم أحد وهي هذه الأبيات :

نحن بنات طارق   نمشي على النمارق
مشي القطا الموافق   أن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق   فراق غير وامق
كلّ كريم عاشق   يحمي عن العواتق

تعني بقولها « بنات طارق » النجم زحل ؛ وتقول في قولها : نحن المخدرات اللواتي لا نبرز من البيوت إلا بالفسق .

ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فرأتهم منهزمين فصاحت بهم : إلى أين تفرّون من الله وجنته وهو مطّلع عليكم ؟ ونظرت إلى أبي سفيان وهو منهزم فضربت وجه حصانه بعمودها ، وقالت : إلى أين يابن صخر ؟ ارجع إلى القتال وابذل مهجتك حتى يمحص الله عنك ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ . قال الزبير بن العوام : لما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله ﷺ وهي تحرّض المشركين بهذا الشعر على قتال المسلمين ، فتعجبت من ذلك وقلت : لك الحمد ، اللّهم تفعل ما تشاء ، سبق علمك في خلقك ولا يعلم الغيب غيرك . قال : فعطف أبو سفيان عندما سمع من كلامها وعطف المسلمون معه ونظروا النساء قد حملن معه ، فلقد رأيتهن وهنّ يسابقن المسلمين وهنّ بين أرجل الخيل ؛ ولقد رأيت الامرأة تقبل إلى العلج العظيم وهو على فرسه متعلق به فلا تفارقه حتى تنكسه عن الجواد ثم تقتله ، وتقول : هذا بيان نصر الله . قال الزبير : فحمل والله المسلمون حملة صعبة لا يريدون بها غير وجه[1] الله عزّ وجلّ ، وقاتلت الأزد مع أبي هريرة رضي الله عنه قتالاً شديداً حتى فشا فيهم القتل فأصيب منهم خلق كثير إلا أنهم لقوا الصدمة بأنفسهم ، فاستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم من القبائل .

---

(١) عند الواقدي ١ /٢٠٧ رضا الله .

قال سعيد بن زيد بن عمرو : كان القتال في الميمنة شديداً ، ننهزم مرة ونعود ساعة ونصبر ساعة [و] نتأخر .

قال : فنظر خالد بن الوليد إلى الميمنة وقد مالت إلى القلب ، فصاح بمن معه من الخيل ومال عليها وهو في زهاء ستة آلاف فارس فكبر وكبروا وحملوا على الروم ؛ فأنكى فيهم خالد نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله المشركين عن الميمنة والقلب إلى مواضعها من قومه دون خمسمائة فارس ، وجعل يحمل حملات متداركات ويضرب ضربات هائلات وهو ينادي(١) : يا أهل الإيمان(٢) ! أفراراً من الموت ؟ الصبر الصبر ! فتراجع أصحابه(٣) إليه وحمل عند رجعتهم على الأرمن فردّهم على أعقابهم ، وجعلوا يضربون وجوههم بالسيوف ، ويطعنون فيهم بالرماح ويرشقونهم بالنبال حتى أصابوهم .

ثم رجع شرحبيل إلى مكانه ودار(٤) به أصحابه وأقبل بعضهم على بعضهم يقولون : ما لكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرة وأنتم البررة أهل القرآن وعباد الرحمن ؟ أما سمعتم قول الله في كتابه العزيز ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره إلّا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله** ﴾(٥) الآية .

قال : ونظر قيس بن هبيرة إلى خيل شرحبيل قد ارتجفت(٦) ، فخرج فيمن معه وحمل على العدو وهو ينادي بشعاره ، فسمع خالد بن الوليد شعار قيس وأصحابه ، فخرج خالد من وراء الجموع ونادى هو وأصحابه بشعارهم ـ وكان شعارهم : يا نصر الله انزل ! يا نصر الله انزل ! وكان هذا شعار المسلمين يوم أحد ؛ وحمل خالد على الروم من ذات الشمال ، فقتل منهم مقتلة عظيمة وجال المسلمون في الروم جولة منكرة ، فلله در الزبير بن العوام وهاشم [بن المرقال] وخالد بن الوليد [لقد] حملوا حملة شديدة حتى قربوا من سرادق ماهان وخيامه .

---

(١) جاء نداء خالد بن الوليد بعدما نظر إلى فرسانه ورآهم متبددين . انظر نداءه عند الواقدي ١ / ٢٠٧ .

(٢) كذا بالأصل ، وهذا النداء عند الواقدي هو لشرحبيل بن حسنة نادى به لما حمل عليه وعلى أصحابه جرجير الأرمني في ثلاثين ألفاً (فتوح الشام للواقدي ١ / ٢١٣) .

(٣) أي أصحاب شرحبيل (الواقدي) وهذا ما يوضحه سياق الفقرة التالية .

(٤) بالأصل : وداروا .

(٥) سورة الأنفال : الآية ١٦ .

(٦) الواقدي : تراجعت .

فلمّا نظر ماهان إلى ذلك ولّى هارباً عن سريره وصاح بالروم وعنفهم ، فرجعوا يطلبون القتال ؛ وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحمل بمن معه وهم ينادون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يا منصور أمت ! يا نصر الله انزل ! وحملوا عليهم بأجمعهم حملة واحدة ، وقد أنزل الله تعالى نصره على المسلمين وأقبلوا يقتلون في الروم قتلاً ذريعاً ، فبينا الناس في حملتهم إذ سمعوا قائلاً يقول : يا نصر الله انزل ! يا نصر الله انزل واقرب ! أيها الناس الثبات ! .

قال عامر بن مسلم[1] : فتأمّلنا فإذا به أبو سفيان تحت راية ابنة يزيد وشدّت الأمراء بأجمعهم على من يليهم ، وقاتلوا قتالاً شديداً ؛ ولم يكن في الروم أثبت من أصحاب السلاسل فإنهم ثبتوا في أمكنتهم يبتغون[2] من أتاهم ، وأما الرماة من الأرمن فإنهم كانوا في القلب من عساكر الروم وهم مائتا ألف[3] ، وكانوا إذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس ، فلولا نصر الله والمعونة منه لكان المسلمون قد هلكوا ، وانفصل المسلمون فرحين بالنصر . وقد هلك من المشركين أكثرهم .

فلمّا أصبح الصباح اصطفّ الفريقان للقتال ، وكان المسلمون أسبق ، فخرج من الروم فارس فخرج إليه الزبير بن العوام فقتله ؛ ثم برز من الروم ثان وثالث ورابع فقتلهم .

فقال خالد لأبي عبيدة[4] : إن الزبير قد جرد نفسه للقوم حبّاً في الله ورسوله وإنا نخاف عليه ، فصاح أبو عبيدة بالزبير وحلف عليه أن يرجع ، فرجع إلى مكانه ؛ وخرج خامس من الروم فخرج إليه خالد بن الوليد فقتله ـ وكان ملك الروسية[5] ـ وأخذ سلبه وتاجه وصليبه ودرعه وعصابته ، فقوّم الجميع فكان بخمسة عشر ألف درهم . قال : وأخبر ماهان بذلك ، فغضب غضباً شديداً وقال : هذان ملكان قد قتلا ، وإني أظن أن المسيح لا ينصرنا ؛ ثم إنه أمر الرماة من الروم أن يرموا على المسلمين يداً واحدة ، فرموا سهامهم وأطلقوا نحو المسلمين مائة ألف سهم من

(١) الواقدي ١ / ٢١٤ : أسلم .
(٢) الواقدي : يمنعون .
(٣) الواقدي : مائة ألف .
(٤) الواقدي ١ / ٢١٦ .
(٥) وكان زوج بنت ملك اللان ، وقد قتله ضرار ؟ (الواقدي ١ / ٢١٦ ـ ٢١٧) .

كبدة واحـدة ، فكانـت تقع كسقوط البرد في عسكر المسلمين من السماء وكالوابل المتدارك ، وكثر القتل في المسلمين والجراح وعور من المسلمين سبعمائة عين ، وسمي ذلك اليوم يوم التعوير ؛ وكان ممن أصيب بعينه ذلك اليوم المغيرة بن شعبة وسعيد بن زيد وبكير بن عبد الله وأبو سفيان وراشد بن سعد[1] ، هؤلاء المقـدمون وباقي سبعمائة من المسلمين ؛ وكان الرجل يلتقي بالرجل بعد ذلك اليوم فيقول له : ما الذي أصابك في عينك ؟ فيقول الآخر : لم تقول : مصيبة ؟ بل قل : منحـة[2] من الله عزَّ وجلّ .

قال : وعظم وقع السهام في المسلمين حتى ما كنت تسمع إلا من يصيح : واعيناه ! واحدقتاه ! واضطرب المسلمون اضطراباً شديداً ونفضت العرب أعنة خيلها راجعة على أعقابها ؛ ونظر ماهان إلى اضطراب المسلمين فحرّض الرماة وزحف نحو المسلمين ، وزادت الرماة في رميها ، وزحفت المسلسلة بحديدها والبيارق تلمع في أكف الرجال كأنها قبس النيران .

قال عامر[3] : فنظرتُ جيوشِ الروم نحونا سائرة وفرسان المسلمين متأخرة ، فقلت : لا حول ولا قوّة إلّا بالله ، اللّهم أنزل علينا نصرك وصبرك الذي نصرتنا به في المواطن كلها ! ثم صحتُ في رجال حمير : أتهربون من الجنّة إلى النار ؟ ما هذا الفرار ؟ أما تخافون العار ؟ وجعلت أهتف بقبائـل العرب وكـلّ قد شغـل بنفسه ، فجعلت أكثر من قول : لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم ، فما كان غير بعيد حتى نزل النصر من السماء ، وكان المسلمون قد أقبلوا[4] راجعين نحو النساء ، ولم يثبت قدام المشركين غير أصحاب الرايات .

قال عبد الله بن قرط الأزدي : شهدت قتال الشام كلّه فلم أشهد في يوم اليرموك أشدّ من يوم التعويـر ، وقـد رجعت خيل المسلمين على أعقـابها وقـاتلت الأمراء بأنفسها والرايات في أيديها ، فقلت في نفسي : وكم جهد ما يقاتل هؤلاء الأمراء وهم في نفر يسير حتى أسعـدنا الله بحملة النسـاء اللاتي شهـدن مع رسـول الله ﷺ

---

(1) الواقدي : سعيد .
(2) الواقدي : محنة .
(3) يريد عامر بن مسلم (أسلم) وقد تقدم . وعند الواقدي ١ / ٢١٧ : عبادة بن عامر .
(4) الواقدي : انقلبوا .

المواطن[1] ، قال : وتراجع المسلمون إلى القتال حين نظروا إلى النساء يقاتلن قتال الموت[2] ، فللّه در النساء يوم اليرموك ! وكانت وقعة اليرموك في رجب سنة ستة عشرة من الهجرة[3] .

قال : ولم تزل الحرب من أوّل النهار إلى أن دخل الليل وأبو عبيدة يقاتل برايته والأمراء يفعلون كفعله وانفصل بعضهم عن بعض .

قال : فلمّا طلعت الشمس صفّ أبو عبيدة أصحاب الرايات وعبى عسكره تعبية حسنة .

قال : وبرز جرجيس[4] ودعا بالبراز وقال : لا يبرز إليّ إلاّ أميركم ! فسمعه أبو عبيدة فسلم الراية إلى خالد بن الوليد وقال له : أنت لها ، فإن عدت أنا من قتال هذا الكافر فالراية لي ، وإن هو قتلني الراية لك[5] ؛ فقال خالد : أنا أقاتله دونك ، فقال أبو عبيدة : لست أفعل ذلك ولا بدّ لي من الخروج إليه وأنت شريكي في الأجر ؛ وبرز أبو عبيدة والمسلمون كارهون ذلك فلم يفعل ؛ فلمّا قرب منه قال له : أنت أمير الجيش ؟ قال : نعم ، فدونك والحرب ، فما بقي لهزيمتكم إلا القليل ثم أقتلك وأقتل ماهان بعدك ؛ ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه وطال بينهما القتال ، فولّى الكافر بين يدي أبي عبيدة فتبعه وهو واثق بالنصر والسلامة ، فعند ذلك عطف عليه كالبرق الخاطف ، والتقيا بضربتين فكان أبو عبيدة أسبق بالضربة فوقعت على عاتقه

---

(1) الواقدي : المشاهد .

(2) ومن النساء اللاتي خرجن يقاتلن : خولة بنت الأزور وأم حكيم بنت الحرث وسلمى بنت لؤي وأسماء بنت أبي بكر (عن الواقدي ١ / ٢١٨) وذكر الطبري ٣ / ٤٠١ أن النساء قاتلن يوم اليرموك في جولة ، فخرجت جويرية بنت أبي سفيان وأصيبت بعد قتال شديد .

(3) كذا بالأصل . وذكر سيف بن عمر يوم اليرموك سنة ١٣ قبل فتح دمشق وتبعه على ذلك الطبري ثم تبعه ابن الأثير . وقال ابن كثير : وأما ابن عساكر فإنه نقل عن ابن أبي عبيدة والوليد وابن لهيعة والليث وأبي معشر أنها كانت سنة ١٥ بعد فتح دمشق . وقال ابن إسحاق كانت في رجب سنة ١٥ ، وقال خليفة بن خياط : قال ابن الكلبي : كانت وقعة اليرموك الاثنين لخمس مضين من رجب سنة ١٥ . قال ابن عساكر : وأما ما قاله سيف من أنها كانت قبل فتح دمشق سنة ١٣ فلم يتابع عليه . وانظر فتوح البلدان ص ١٤٢ وتاريخ اليعقوبي ٢ / ١٤١ .

(4) الواقدي : جرجير .

(5) زيد عند الواقدي : حتى يرى عمر رأيه .

الأيسر [و] خرجت من[1] عاتقه الأيمن ، فعند ذلك كبّر المسلمون ، وناداه خالد : لله درّك أيّها الأمير ! ارجع إلى رايتك فقد قضيت ما عليك ؛ فلم يرجع فأقسم عليه المسلمون أن يرجع إلى مقامه فرجع وأخذ الراية من خالد .

فنظر ماهان إلى جرجيس[2] قد قتل فعظم عليه ذلك ، فصاح بقومه وجمعهم إليه وقال : اعلموا أني ما تركت جهداً في نصرة هذا الدين وقد حاميت جهدي ، وما أقدر أغالب ربّ السماء ، لأنّه قد نصر العرب علينا وملّكهم بلادنا ، فما لي وجه أرجع به إلى هِرَقل حتى أني أخرج إلى الحرب بنفسي وقد عزمت أن أسلّم الصليب إلى أحدكم وأبرز إلى قتال المسلمين ، فإن قتلت استرحت من العار ومن توبيخ الملك[2] .

قال : وبرز ماهان فخرج إليه رجل من دوس[3] فقتله ماهان ، وخرج إليه ثان فقتله ، وجال ماهان وقوي قلبه ودعا بالبراز ، فسارع المسلمون إليه وكلٌ يقول : اللّهم اجعل قتله على يدي ! فكان أوّل من برز إليه مالك النخعي ثم حاوله في ميدان الحرب ، فقال له ماهان : أنت صاحبي خالد بن الوليد ؟ قال : لا ، أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ ، فحمل على مالك ، ضربه بعموده على بيضته فغاصت البيضة في جبهته فشترت عينه ، فمن ذلك اليوم سمي « الأشتر » وكان من فرسان العرب المذكورة ، فصبر نفسه وحمل على ماهان والدم يسيل من جبهته ، وأخذته أصوات المسلمين فقوي عزمه . قال مالك : فاستعنت عليه بالله عزَّ وجلّ وصلّيت على محمّد ﷺ وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن ، فلمّا حسّ بحرارة الضربة ولى منهزماً ، فصاح خالد بالمسلمين : يا أهل الصبر[4] والبأس ! احملوا على القوم ما داموا في دهشتهم ، ثم حمل خالد ومن معه وحملت الأمراء بمن معهم وتبعهم المسلمون بالتكبير والتهليل ، فصبرت لهم الروم بعض الصبر وغابت الشمس وانكشفت الروم منهزمة وأخذهم السيف من ورائهم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة زهاء مائة ألف ، وأسروا أربعين ألفاً ، وغرق منهم في الماء غوصة

---

(١) الواقدي : من علائقه .

(٢) زيد عند الواقدي ١ / ٢٢٤ وإن رزقت النصر وأثرت في المسلمين أثراً ورجعت سالماً علم الملك أني لم أقصر عن نصرته . . . ثم دعا بابن له فدفع إليه الصليب .

(٣) عند الواقدي : من الأوس .

(٤) عند الواقدي : النصر .

أمم لا تحصى ، وتمزقوا[1] في الجبال والأودية وخيول المسلمين تأخذهم يقتلون ويأسرون حتى مضى من الليل جزء كبير ؛ فنادى أبو عبيدة في الناس أن يتراجعوا ، فتراجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى وآنية الذهب والفضة والنمارق والسرادقات وجمعت الغنائم وبات المسلمون فرحين بنصر الله عزَّ وجلّ .

فلما أصبحوا فلم يجدوا من الروم أحداً ، فأراد أبو عبيدة أن يحصي عدد القتلى من الروم ، فلم يقدر [أن] يحصي ذلك إلاّ بالقصب ، فأمر بقطع القصب ، وجعل على كل ألف قصبة ، وعدّ القصب فكان عدد القتلاء مائة ألف وخمسة آلاف[2] ، وأسروا أربعين ألفاً . وقتل من المسلمين المجاهدين رحمة الله عليهم أجمعين أربعة آلاف[3] ونيف ، ثم أمر بها فجمعت ، وقدموا بين يديه فصلى عليهم ودفنوا ـ رحمهم الله ـ .

وانبثّ المسلمون في الجبال والأودية يطلبون الروم ، فإذا هم براعٍ قد استقبلهم ، فقالوا له : هل مر بك أحد من الروم ؟ قال : نعم مر بي بطريق ومعه زهاء أربعين ألف فارس ـ وكان ذلك ماهان ـ، فأتبعه خالد بن الوليد ، فأدركهم على حمص[4] ، فلما أشرف عليهم كبر وكبر المسلمون معه وحمل عليهم ووضع فيهم السيف ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان ماهان قد ترجل عن جواده وقال إنه سيسلم ، فأقبل إليه رجل من المسلمين بالسيف ، فمانع عن نفسه فقتله الرجل ـ فكان القاتل لماهان النعمان بن جُلْهُمة[5] الأزدي ، وقيل عاصم بن جوال اليربوعي ، وقد اختلفوا فيه فالله أعلم .

وبلغ الخبر إلى أبي عبيدة أن خالد بن الوليد نزل حمص ، فسار بمن معه حتى التقى بخالد فأخبره بما تم له وقتل ماهان ، وبشر المسلمون بعضهم بعضاً بالسلامة . وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب فأخبره بذلك[6] ، وأنه قد قسم الغنائم وأخرج

---

(١) في الواقدي : وتفرق منهم .

(٢) في فتوح البلدان ص ١٤١ زهاء سبعين ألفاً .

(٣) في الطبري ٣ / ٤٠٢ وابن الأثير ٢ / ٧٢ ثلاثة آلاف .

(٤) عند الواقدي ١ / ٢٢٦ على دمشق .

(٥) عند الواقدي : جهلة .

(٦) قارن مع نسخة للكتاب في كل من فتوح الشام للأزدي ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ وفتوح الشام للواقدي ١ / ٢٢٦ ـ =

الخمس ، وهو منتظر أمر أمير المؤمنين .

فلما قدم الكتاب على عمر سجد شكراً لله تعالى ، وكذلك المسلمون شكروا لله رب العالمين على ذلك ؛ ثم دعا عمر بن الخطاب بدواة وبياض وكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح كتاباً(١) : أما بعد ، إذا وصل إليك كتابي هذا فاشكر للمسلمين صبرهم وفعالهم ، وأقم بموضعك حتّى يأتيك أمري ـ والسلام .

قال : وأصاب الفارس من الذهب الأحمر أربعة وعشرين ألفاً والراجل ثمانية آلاف ، وكذلك من الفضة ، وأعطي الهجين سهماً والعربي سهمين .

قال : ولمّا هزم الله عزَّ وجلّ الروم في وقعة اليرموك وبلغ ذلك هرقل قال : قد علمت أن الأمر يجيء إلى هذا ، ثمّ أقام ينتظر ما يكون من المسلمين .

ثمّ رجعنا إلى ما كان من أمر العراق

قال : واجتمعت الفرس بجلولاء في ثمانين ألف فارس وعزموا على المسير إلى سعد بن أبي وقاص ، فبلغه ذلك ، فعندها جمع أمراءه واستشارهم فيما يصنع ، فأشاروا عليه بالمسير إليهم ومحاربتهم ، ففكّر في ذلك وأقبل عليهم وقال لهم : اعلموا والله أنّي عازم على ذلك إلا أني في جمع قليل والفرس في ثمانين ألفاً وأنا والله أتّقي عليكم منهم . فقال عمرو بن معد يكرب : أيّها الأمير ! فإنّا لا نحبّ أن تتقي علينا فإن الذي نصرنا عليهم بالأمس هو الذي ينصرنا عليهم اليوم ! وقد بلغنا أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح وأمره أن يمدّنا بجيش ونحن عنه مستغنون ، وقد علمنا أنّ الله عزَّ وجلّ إذا كتب على قوم القتل فلا بدّ لهم ممّا كتب لهم ، وإن كتب الموت على قوم فهم يموتون ، فلسنا نشكّ أن القتل في سبيل الله أفضل من الموت على وثير الفرش ، فطوبى لمن قتل في سبيل الله صابراً يريد بذلك ما عند الله من الثواب الجزيل !

قال : فإذا بمكشوح المرادي قد قدم عليهم من عند سعد في ألفي فارس ، وهشام بن عتبة بن أبي وقاص في ثلاثة آلاف فارس ، وحجر بن عدي الكندي في

= ٢٢٧ والوثائق السياسية وثيقة ٣٥٣ / بب وأرسل الكتاب مع حذيفة بن اليمان (الواقدي ـ اليعقوبي ٢ / ١٤١) .

(١) نسخة الكتاب في فتوح الشام للأزدي ص ٢٤٤ فتوح الشام للواقدي ١ / ٢٢٧ باختلاف النصوص .

ألفي فارس ، والمنذر بن حسان الضبي في ثلاثة آلاف فارس ، وجرير بن عبد الله في أربعة آلاف فارس ؛ قال : وصار المسلمون بجلولاء في أربعة وعشرين ألفاً ويزيدون .

قال : وتحرّشت الفرس بالمسلمين وطلبوا الحرب ، وكتب سعد بن أبي وقاص إلى ابن أخيه هاشم بن عتبة فجعله أمير المسلمين وأمر أصحابه بمحاربة الفرس .

قال : فعندها وثب هاشم بن عتبة فعبّى أصحابه[1] ، فكان على ميمنته جرير بن عبد الله البجلي ، وعلى ميسرته حجر بن عدي الكندي ، وعلى الجناح المكشوح المرادي ، وجعل عمرو بن معد يكرب على أعنة الخيل ، وطلحة بن خويلد الأسدي على الرجالة .

قال : وعبّت الفرس جيوشها ، فكان على ميمنتهم رجل من قواد الأعاجم يقال له خُرَّزاذ بن وهرز[2] ، وعلى ميسرتهم فيروز بن خسرو ، وفي القلب الهرمزان بن أنوشروان صاحب بلاد الأهواز .

قال : ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا في موطن بمثله من مواطنهم التي سلفت ، وذلك أنهم رموا بالسهام حتى أنفدوها ، وتطاعنوا بالرماح حتى قصفوها ؛ ثم صاروا إلى السيوف والعمد[3] فاقتتلوا بها من وقت الضحى إلى أن زالت الشمس وحضر وقت الصلاة فلم تكن الصلاة في ذلك اليوم إلا بالتكبير والإيماء نحو القبلة .

قال : ونظر هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى رجل من المسلمين يقال له سعد بن عبيد الأنصاري وقد فصل من الصف فقال له : ما وقوفك يا سعد ؟ فقال : أيها الأمير ! وقوفي والله اني أفكر في فعلة فعلتها يوم الجسر يوم قتل أبو عبيد بن مسعود الثقفي أنا نادم عليها وذلك أني فررت يومئذ من الزحف وقد عزمت اليوم أن أجعل توبتي من فراري . أن أشتري لله نفسي فلعله تبارك وتعالى أن يتجاوز عني ما

---

(1) قارن مع رواية الطبري ٤ / ١٨٠ وابن الأثير ٢ / ١٤٤ وفتوح البلدان ص ٢٦٤ والبداية والنهاية ٧ / ٧٩ .

(2) في الطبري ٤ / ١٨١ خرزاذ بن خرهرمز وكان على خيل الأعاجم . وفي فتوح البلدان ص ٢٦٤ وعلى الأعاجم خرزاذ أخو رستم .

(3) في الطبري ٤ / ١٨١ والطبرزينات .

قد مضى قال : ثم تقدم بسيفه نحو الفرس فقاتل قتالاً عجب منه الفريقان جميعاً فلم يزل كذلك حتى قتل منهم جماعة وقتل ـ رحمة الله عليه ـ .

قال : ثم أقبل جرير بن عبد الله البجلي على بني عمه فقال : يا معشر بجيلة ! اعلموا أن لكم في هذه البلاد إن فتحها الله عليكم حظاً سنياً ، فاصبروا لقتال هؤلاء الفرس التماساً لإحدى الحسنيين : إما الشهادة فثوابها الجنة ، وإما النصر والظفر ففيهما الغنى من العيلة ، وانظروا ، لا تقاتلوا رياء ولا سمعة ، فحسب الرجل خزياً أن يكون يريد بجهاده حمد المخلوقين دون الخالق ، وبعد فإنكم جربتم هؤلاء القوم ومارستموهم وإنما لهم هذه القسي المنحنية وهذه السهام الطوال ، فهي أغنى سلاحهم عندهم ، فإذا رموكم بها فتترسوا ، والزموا الصبر وصابروهم ، فوالله إنكم الأنجاد الأمجاد الحسان الوجوه في اقتحام الشدائد ! فاصبروا صبراً يا معشر البجيلة ! فوالله إني لأرجو أن يرى المسلمون منكم اليوم ما تقرّ به عيونهم ! وما ذاك على الله بعزيز ؛ ثم أنشأ جرير في ذلك يقول ـ شعر :

تلكم بجيلة قومي إن سألت بها	قادوا الجياد وفضّوا جمع مهرانِ
وأدركوا الوتر من كسرى ومعشره	يوم العروبة وتر الحي شيبان
فسائل الجمع جمع الفارسي وقد	حاولت عند ركوب الحي قحطان
عز الأولى كان عزاً من يصول بهم	ورمية كان فيها هلك شيطان
كان الكفور وبئس الفرس أن له	آباء صدق نموه غير ثبيان

قال : ثم حمل جرير بن عبد الله على جميع أهل جلولاء فلم يزل يطاعن حتى انكسر رمحه وجرح جراحات كثيرة فأنشأ بعض بني عمه يقول في ذلك ـ شعر :

تواكلت الأمور فلم تواكل	أخو النجدات فارسها جريرُ
جرير ذو الغنى [و] بما تولى	أحق إذا تقسمت الأمور
أغاث المسلمين وقد تواصوا	وقدر الحرب حامية تفور
أبا حفص سلام الله منا	عليك ودوننا بلد شطير
حمدنا فعل صاحبنا جرير	ولم نحمد لك الوالي العطير
فلا تغفل بجيلة إن فيها	دواء الداء والحبر الكبير

قال : وتقدم رجل من المرازبة يقال له رستم الأصغر حتى وقف بين الجمعين فجعل يقاتل أشد القتال ، قال : وانبرى له رجلان من المسلمين أخوان : أحدهما

يقال له عوام والآخر يقال له زهير ابنا عبد شمس[1] ، قال : فحملا عليه وحمل عليهما فجاولهما في ميدان الحرب ساعة ثم داخله زهير فطاعنه ، فطعنه طعنة أثخنه منها ، حتى كاد رستم أن يسقط عن فرسه ، ثم جال زهير في ميدان الحرب ساعة وهو يرتجز ويقول :

أنا زهير وابن عبد شمس　　　طعنت ذا التاج رئيس الفرس
رستم ذا الثروة والدمقس　　　فقد شفيت اليوم منه نفسي

قال : وجعل رستم يجول في ميدان الحرب فمرة يحمل على زهير ومرة يحمل على عوام . قال : ونظر إلى ذلك رجل من المسلمين يقال له جابر بن طارق النخعي ، فخرج إلى زهير والعوام ليعينهما على رستم ؛ قال : ونظر رستم إلى جابر بن طارق فحمل عليه ، وصاح زهير بجابر بن طارق : إليّ إليّ يابن عم ! لا تنفرد لهذا الكلب فيقتلك ، قال : وجعل رستم يجول على هؤلاء الثلاثة في ميدان الحرب ، فكلما حمل على واحد حمل عليه اثنان . قال : ثم اعتوره زهير والعوام وحمل عليه جابر بن طارق النخعي فضربه ضربة على تاجه فقدّ التاج وهامته فخر رستم صريعاً ، ثم نزلوا إليه فسلبوه ؛ وكانت قيمة سلبه ألف دينار ، وأنشأ جابر بن طارق يقول في ذلك ـ شعر :

دعاني زهير والفوارس ترتمي　　　إليّ إليّ يابن عم فهل ترى
فقلت له لبيك عند دعائه　　　أتيتك أني قاصد دونك العرى
بنفسي أني لا أبالي بحتفها　　　بنفسك فاقصد عامداً حيث انتهى
واضربه بالسيف قمة رأسه　　　فخر صريعاً في العجاجة قد هوى[2]
فغادرته عيداً لطير سواغب　　　وجالت بناخيل وذو الغدر قد مضى
فذاك رئيس الفرس رستم سل به　　　زهيراً وعواماً وجابر ذا النهى

قال : فبينما المسلمون كذلك في أشد ما يكون من الحرب وذلك في وقت العصر إذا هم بكتيبة للفرس جامة حسناء قد خرجت إليهم ، فكأن الناس هالتهم تلك

---

(١) أشرنا سابقاً إلى رواية اليعقوبي ٢ / ١٤٥ أن فيمن قتل رستم يوم القادسية زهير بن عبد شمس وهو ابن أخي جرير بن عبد الله (انظر صفحة ١٦٩ حاشية رقم ١) .

(٢) العجاجة : الغبار .

الكتيبة فاتقوها ؛ فقال عمرو بن معدي كرب : يا معشر المسلمين ! لعله قد هالتكم هذه الكتيبة ؟ قالوا : نعم والله يا أبا ثور لقد هالتنا ! وذلك أنك تعلم أنا نقاتل هؤلاء القوم من وقت بزوغ الشمس إلى وقتنا هذا ، فقد تعبنا وكلّت أيدينا ودوابنا وكاعت رجالنا وقد والله خشينا أن نعجز عن هذه الكتيبة إلا أن يأتينا الله بغياث من عنده أو نرزق عليهم قوة ونصراً . قال : فقال عمرو : يا هؤلاء ! إنكم إنما تقاتلون عن دينكم وتذبون عن حريمكم وتدفعون عن حوزة الإسلام ، فصفوا خيولكم بعضها إلى بعض وانزلوا عنها والزموا الأرض واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فإنكم بحمد الله صبراء في اللقاء ، ليوث عند الوغى ، وهذا يوم كبعض أيامكم التي سلفت ، و والله إني لأرجو أن يعز الله بكم دينه ويكبت بكم عدوه . قال : ثم نزل عمرو عن فرسه ونزل معه زهاء ألف رجل من قبائل اليمن ، ما فيهم إلا فارس مذكور ، ونزل معه أيضاً من كان [من] قومه وعشيرته . قال : ثم تقدم عمرو حتى وقف أمام المسلمين شاهراً صمصامته(١) وقد وضعها على عاتقه وهو يقول - شعر :

لقد علمت أقيال مذحج أنني ... أنا الفارس الحامي إذا القوم أضجروا
صبرت لأهل القادسية معلماً ... ومثلي إذا لم تصبر الناس يصبر
وطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا ... وضاربتهم بالسيف حتى تكسروا
بذلك أوصاني أبي وأبو أبي ... بذلك أوصاه فلست أقصّر
حمدت إلهي إذ هداني لدينه ... فللّه أسعى ما حييت وأشكر

قال : وحملت تلك الكتيبة الحامة على عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأصحابه فلم يطمعوا منهم في شيء . قال : وحمل جرير بن عبد الله من الميمنة ، وحجر بن عدي من الميسرة ، والمكشوح المرادي من الجناح ، وعمرو بن معد يكرب من القلب ، وصدقوهم الحملة فولوا مدبرين ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، فقتل منهم من قتل ، وانهزم الباقون حتى صاروا إلى خانقين(٢) . وأمسى المسلمون فلم يتبعوهم(٣) ، لكنهم أقاموا في موضعهم حتى أصبحوا وأقبلوا حتى دخلوا جلولاء ،

---

(١) مر قريباً خبر الصمصامة (سيف عمرو بن معدي كرب) ، راجعه .

(٢) خانقين : بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد .

(٣) في الطبري ٤ / ١٨٢ وابن الأثير ٢ / ١٤٥ سار القعقاع بن عمرو في طلب المنهزمين حتى بلغ خانقين .

فجعلوا يجمعون الأموال والغنائم حتى جمعوا شيئاً كثيراً لم يظنوا أنّه يكون هناك ، قال : فقال رجل من المسلمين : رحم الله المثنى بن حارثة الشيباني ! أما أنه لو كان حياً لقرت عيناه بهذا الفتح ، فإني كنت أسمعه مراراً يقول : وددت أني قد رأيت فتح جلولاء ولو قبل موتي بيوم واحد ! قال : فقال عبيد بن عمرو البجلي : نعم فرحم الله المثنى بن حارثة ! إنه وإن كان قد مضى لسبيله لم تقر عينه بفتح جلولاء لقد قرت عيناه بالجنة إن شاء الله وقد قدم على ما قدم من الثواب الوافر ، ثم أنشأ عبيد بن عمرو البجلي يقول في ذلك ـ شعر :

أبشر مثنى فقد لاقيت مكرمة ... يوم التغابن لما ثوّب الداعي
سل أهل ذي الكفر مهراناً وأسرته ... يوم البجيلة إذ خلوا عن القاع
وأسلموا ثم مهراناً ببلقعه ... يوم العروبة مطروحاً بجعجاع
وفي جلولا أثرنا كل ذي بدع ... بكل صاف كلون الملح لماع
في كف كل كريم الجد ذو حسب ... حامي الحقيقة للأواء دفاع

قال : ثم رجع هاشم بن عتبة بغنائم جلولاء فوجه بها إلى المدائن إلى عمه سعد بن أبي وقاص .

ذكر مسير المسلمين بعد فتح جلولاء إلى خانقين وغيرها

قال : ثم سار المسلمون يريدون خانقين[1] وعلمت الفرس بذلك فرحلوا من خانقين إلى قصر شيرين[2] فمروا بها ولم يقيموا حتى صاروا إلى حلوان وبها يومئذ يزدجرد ملك الفرس في جماعة من الأساورة والمرازبة ، فلما بلغه هزيمة أصحابه بجلولاء وأنهم قد وافوه بحلوان دعا رجلاً من قواده من الأعاجم يقال له منوشهر بن هرمزدان[3] فاستخلفه على حلوان ثم رحل فيمن كان معه من أصحابه هارباً حتى صار

---

(١) قصر شيرين على ستة فراسخ من خانقين ، بلد من نواحي السواد . ومن قصر شيرين إلى حلوان ستة فراسخ .

(٢) في فتوح البلدان ص ٢٦٤ أتى جرير بن عبد الله خانقين وبها بقية من الأعاجم فقتلهم .
ثم تقدم القعقاع بن عمرو نحو قصر شيرين (الطبري ٤ / ١٨٥) .
ووجه سعد جرير نحو حلوان في ثلاثة آلاف ، ففتحها جرير صلحاً (فتوح البلدان ص ٢٩٩ وفي الطبري ٤ / ١٨٦ القعقاع بن عمرو) .

(٣) في الطبري ٤ / ١٨٥ وابن الأثير ٢ / ١٤٥ خسروشنوم .

إلى نهاوند[1] ، فنزلها وأمر بخيله فنزلت بأرض همذان وما والاها من نواحيها .

قال : ورحل المسلمون من جلولاء إلى خانقين فنزلوها يومهم ذلك ، ثم رحلوا منها إلى قصر شيرين فنزلوها ، وكتبوا إلى سعد بن أبي وقاص يستأذنونه في التقدم إلى حلوان ويحثونه على المصير إليهم ليكون لهم ملجأ وسنداً يلجؤون إليه ويشاورونه في أمورهم ، وقد كان سعد عليلاً فتباطأ عنهم ولم يصر إليهم وكتب إليهم يأمرهم بالتقدم إلى حلوان[2] .

قال : فغضب المسلمون لقعود سعد عنهم وإبطائه عن نصرتهم ، ثم أنشأ إبراهيم بن حارثة الشيباني يقول في ذلك ـ شعر :

أما بال سعد خام عن نصر جيشه ... لقد جئت يا سعد ابن زهرة منكرا
وأقسم بالله العلي مكانه ... لو أن المثنى كان حياً لأصحرا
وقاتل فيها جاهداً غير عاجز ... وطاعن حتى يحسب الجون أحمرا
كشدّاته يوم البجيلة معلماً ... يريد بما يبلي الثواب الموفّرا
وضارب بالسيف الحسام مقدّما ... جموع الأعادي خشية أن يعيّرا
ولكن سعداً لم يرد أجر يومه ... ولم يأتنا في يوم بأس فيعذرا

قال : فبلغت سعداً هذه الأبيات فكأنه تحرك للمسير على علته ، ثم دعا سلمان الفارسي فاستخلفه على المدائن وأوصاه بحفظ الغنائم وصار فيمن معه من أصحابه حتى لحق بالمسلمين وهم يومئذ نزول بقصر شيرين فنزل معهم يومهم ذلك .

فلما كان من غد نادى في الناس بالرحيل إلى حلوان فرحل ورحل الناس معه ، وبلغ ذلك منوشهر بن هرمزدان[3] المقيم بحلوان ، فخرج عن حلوان هارباً حتى لحق بيزدجرد وهو في جميع أصحابه ؛ وأقبل سعد بن أبي وقاص وعلى مقدمته جرير بن عبد الله البجلي[4] حتى دخل حلوان فأنشأ عبد الله بن قيس الأزدي يقول ـ شعر :

فأبلغ أبا حفص بأن خيولنا ... بحلوان أضحت بالكماة تجمجم

---

(١) في الطبري : نحو الجبال ، وفي رواية : نحو الري ، وفي فتوح البلدان : هرب إلى ناحية أصبهان .
(٢) انظر الصفحة السابقة الحاشية رقم ٢ .
(٣) انظر ما جاء فيه قريباً .
(٤) مر أن سعد أمر جريراً بالتوجه إلى حلوان وقد افتتحها صلحاً على أن كف عنهم وأمنهم على دمائهم وأموالهم وجعل لمن أحب منهم الهرب أن لا يعرض لهم (فتوح البلدان ص ٢٩٩) .

ونحن دهمناها صباحاً بفيلق — جرير علينا في الكتيبة معلم
ونحن أبدنا الفرس في كل موطن — بجمع كمثل الليل والليل مظلمَ
نقاتل حتى أنزل الله نصره — وسعد بباب القادسية معصم[1]
فابنا وقد أيمت نساء كثيرة — ونسوة سعد ليس فيهن أيم
أولئك قومي إن سمعت بمعشري — وموضع أيساري إذا نيل مغنم

قال : واحتوى سعد بن أبي وقاص على جميع ما كان للفرس بأرض حلوان ، ثم دعا بالمكشوح المرادي فضم إليه عشرة آلاف رجل من المسلمين ووجه به إلى ماسبذان[2] وما والاها ، ووجه أيضاً بخيل له في عشرة آلاف مع عروة بن زيد الخيل الطائي إلى شهر زور[3] وما يليها ؛ فغنم المسلمون غنائم كثيرة لا تحصى ورجعوا إليه في أسرع وقت وأعجله .

ذكر ما كان من زريب بن برثملا[4] وكلامه للمسلمين ونضلة بن معاوية الأنصاري

قال : ثم دعا سعد بن أبي وقاص برجل من الأنصار يقال له نضلة بن معاوية فضمّ إليه ثلاثمائة فارس وأمره بالغارة على جميع رساتيق حلوانْ ؛ قال : فمضى نضلة حتى انحاز إلى رساتيق حلوان فلم يترك لهم باعثة ولا راعية إلا استاقها .

قال : فبينا المسلمون يسوقون الغنائم بين جبلين من جبال حلوان يريدون سعد بن أبي وقاص إذ حضرتهم الصلاة صلاة العصر ، فصرفوا الغنائم إلى سفح الجبل ، وتقدم نضلة بن معاوية يؤذن ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر ! إذا بهاتف يهتف من الجبل وهو يقول : كبرت كبيراً يا نضلة ! فلما قال : أشهد أن لا إله إلا

---

(١) البيت والذي يليه في الطبري ٤ / ١٤٠ وفتوح البلدان ص ٢٦١ دون نسبة .

(٢) عن الطبري ٤ / ١٨٧ وفتوح البلدان ص ٣٠٤ وبالأصل ما سيذان خطأ . وهي عدة مدن بين جبال كثيرة وماؤها يخرج إلى البندنيجين (معجم البلدان) وفي الطبري والكامل : ضرار بن الخطاب الفهري كان على الجيش ، وفي فتوح البلدان ص ٣٠٤ فتح ما سبذان أبو موسى الأشعري .

(٣) شهرزور : كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان (معجم البلدان) فتحها عتبة بن فرقد (الكامل لابن الأثير ٢ / ٢٠٢ وفتوح البلدان ص ٣٢٩) .

(٤) عن دلائل النبوة لأبي نعيم ، وبالأصل : برثلثا ، وفي الإصابة : ثرملا . وقد صححت في كل المواضع .

الله ! أجابه الهاتف يقول : أخلصت إخلاصاً يا نضلة ! فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله ! أجابه الهاتف وهو يقول : ذلك نبي الرحمة بعث لا نبي بعده ، فلما قال : حي على الصلاة ! أجابه الهاتف وهو يقول : فريضة فرضت فطوبى لمن حفظها وواظب عليها ، فلما قال : حي على الفلاح ! أجابه الهاتف وهو يقول : الفلاح لأهل الفلاح والصلاح لأهل الصلاح ؛ قال : وفرغ نضلة من أذانه ، فلما أخذ في الإقامة وقال : قد قامت الصلاة ! أجابه الهاتف وهو يقول : البقاء لأمة محمد عليه السلام وعلى رؤوسهم تقوم الساعة؛ قال: وصلى نضلة بالمسلمين .

فلما فرغ من صلاته وثب قائماً على قدميه ثم نادى بأعلى صوته : أيها الهاتف بالخير والكلام . . .[1] إنا قد سمعنا كلامك وفهمنا جوابك ، فإن كنت من ملائكة الله فصلى الله عليك ، وإن كنت من الجن فمرحباً بك وأهلاً ، وإن كنت من الإنس فابرز إلينا حتى نراك ، فإنا وفد الله ووفد رسوله محمد (صلّى الله عليه وسلم وآله) ووفد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ قال : فلم يشعر نضلة بن معاوية ومن معه من المسلمين إلا وشيخ قد برز لهم من شعب الجبل أبيض الرأس واللحية ، إلى الطوال ما هو ، عليه ثوبان من صوف أبيض ، وقد حسر عن هامة له عظيمة وفي يده عصا عكاز يتوكأ عليها ، فقال نضلة : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ! من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا زريب بن برثملا وصي العبد الصالح عيسى ابن مريم ﷺ ، دعا لي بالبقاء إلى وقت نزوله من السماء ، فاقرأوا على عمر بن الخطاب مني السلام وقل له : فليثبت على ما هو عليه ويقارب ويسدد فقد اقترب الأمر ، وإن ظهرت في أمة محمد (صلّى الله عليه وسلم وآله) خصال لا خير فيها فالهرب الهرب ! قال نضلة بن معاوية : أخبرنا رحمك الله بهذه الخصال لنعرف بها ذهاب دنيانا وإقبال آخرتنا ، فقال : نعم إذا اكتفت رجالكم برجالكم ونساؤكم بنسائكم ، وركن علماؤكم إلى أمرائكم فأفتوهم بالذي يحبون ، وكثر طعامكم فلم يزد سعركم إلا غلاء ، وكان مستشاركم يومئذ عبيدكم وخصيانكم ، وقتل البريء بغير ذنب ليوعظ به العامة ، وقل العطاء فلم يأخذه إلا الأسقاط والسفل ، وقلّت الصدقة فيكم حتى يطوف المسكين فيكم من الحول إلى الحول فلا يصيب عشرة دراهم ، واتخذتم القرآن ألحاناً ومزامير ، وزخرفتم المساجد وطولتم المنار ، وكثرت بينكم شهادات

---

(١) مطموس بالأصل .

الزور . . . .[1] المطر فلم يكن إلا غيظاً ، واستحللتم الزنا وأكلتم الربا ؛ فإ[ذا شهدتم] ذلك فتوقعوا ذهاب الصولة وغضب ربكم .

قال : ثم رجع زريب بن برثملا إلى موضعه من الجبل ، وسار المسلمون بالغنائم إلى سعد بن أبي وقاص ، فخبروه بما كان من أمر زريب .

قال : فكتب سعد بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخبره أنه مقيم بأرض حلوان . قال : فكتب عمر : لله در أبيك يابن أبي وقاص ! انظر إذا ورد عليك كتابي هذا فسر أنت بنفسك حتى تأتي ذلك الجبل فتفحص لي عن أمر هذا الرجل وتكتب لي خبره ـ والسلام .

قال : فلما ورد كتاب عمر إلى سعد ركب إلى ذلك الموضع الذي نظروا فيه زريب بن برثملا ، فأذن سعد وأمر الناس بالأذان من كل جانب فلم يجبهم أحد ، ثم أمر بالخيل فطافت في جبال حلوان أياماً كثيرة يهتفون بزريب بن برثملا ويطلبونه ، فلم يقفوا له على خبر ، فرجع سعد إلى حلوان وكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك ؛ ثم دعا بجرير بن عبد الله البجلي فضم إليه ألف رجل من بجيلة وغيرهم و . . . . .[2] اليمن وسائر العرب وأمره أن يقيم بحلوان فيكون رَدْساً للعرب ومصلحة للمسلمين إلى أن يأتيه أمره وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال : ثم جمع سعد غنائم حلوان وغنائم جلولاء وخانقين وغنائم المدائن والقادسية وأخرج من ذلك الخمس ليوجه به إلى عمر بن الخطاب وقسم باقي الغنائم في المسلمين .

قال : فتقدم إلى سعد رجل من خثعم يقال له بشر بن ربيعة وكان من الفرسان المعدودين ، فطلب من سعد زيادة فلم يزده شيئاً فغضب الخثعمي لذلك ، ويقال إنه هجا سعد بن أبي وقاص فأنشأ يقول ـ شعر :

ينوب عن القوم الكرام بجمعهم ... وفضل سعد بالعطية خالدا
فإن تكرم العذري بالقسم واصلاً ... فأجدر برأي السوء للجور زائدا
أتنهب جهلاً لا أبا لك حقنا ... لقد ضقت ذرعاً عن مدى الحق حائدا

---

(١) موضع النقاط غير واضح .

(١) غير واضح بالأصل .

متى كان ميراث ابن خثعم قل لنا　　لخالد يا للناس لا كنت جاهدا
لعمري لئن كانت قريش تعطفت　　عليك أبا وهب فألفيت رافدا
لقد غمرت آباؤك اللوم دهرها　　وألفيت في فهر تحل الوصائدا

قال : فعلم سعد أنه هجاه فدعا به فحمله على حجرة له كريمة ووصله بألف درهم وضم إليه الغنائم ووجه به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال : فوردت الغنائم وخرج المسلمون فنظروا إليها وعجبوا من كثرتها ، فقال رجل من المسلمين : يا أمير المؤمنين ! أتدخل هذه الغنائم إلى بيت المال ؟ فقال : لا ، لعمري لا يظلها سقف بيت حتى تقسم في حقها ؛ ثم أمر الغنائم فأدخلت إلى مسجد رسول الله ﷺ ، ثم أمر قوماً أن يحرسوها ليلتهم تلك .

فلما أصبح عمر رضي الله عنه نادى في المهاجرين والأنصار فجمعهم ثم جعل يعطي الناس على أقدارهم ويفضل من شاء أن يفضل ويعطي كل ذي حق حقه . قال : فتقدم إليه بشر بن ربيعة الخثعمي الذي جاء بالغنائم فقال : يا أمير المؤمنين ! أعطني من هذه الغنائم كما تعطي غيري ، قال عمر : أو لم يعطك سعد حقك هناك ؟ فقال : بلى ، فقد أعطاني ، غير أني أنا الذي حفظت هذه الغنائم حتى قدمت بها عليك ، وأريد منك الزيادة ؛ فقال عمر : بل الله حفظها لا أنت ، قال : ثم أمر له بشيء يسير ، فغضب لذلك ولم يرض بما أعطاه عمر رضي الله عنه ، قال : فقال له عمر : إنك لشاعر جزل ، وأنت لا شك فارس بطل ، وأراك واجداً على أميرك سعد بن أبي وقاص ، فلماذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! لأنه فضل عليّ من لا يدانيني وهو لا ينظر لي ، فقال عمر : فما يؤمنني أنك تهجوني بما ليس فيّ . قال : ثم أمر له عمر رضي الله عنه بصلة سنية فأرضاه ثم قال : اللهم خلص عمر مما قلدته سليماً غير موزور .

قال : ثم كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يولي سلمان الفارسي المدائن وما والاها ويرجع هو إلى الكوفة ويأمر الناس بالبنيان والعمارة .

قال : فلما ورد كتاب عمر بن الخطاب على سعد دعا سلمان فولاه المدائن وضم إليه نفراً من المسلمين ؛ ثم إنه رجع إلى أرض الكوفة[1] وأمر الناس بالبنيان ،

(١) كان ذلك في المحرم سنة ١٧ ، وقال الواقدي : آخر سنة ١٧ (الطبري ٤ / ١٩٠) .

فبنى الناس بها الدور واختطوا الحيطان لقبائل العرب ، قال : فسكنت العرب الكوفة من ذلك اليوم والدهر ؛ وأرسل عمر إلى سعد بن أبي وقاص فأمره بعمارة مسجدها .

ذكر ما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مسجد الكوفة

قال القاسم بن الوليد سمعت أبي يقول[1] : كنت ذات يوم في مسجد الكوفة قاعداً إذ رأيت رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ! إني رجل خلو لا أهل لي ولا ولد ، وقد قضيت ما وجب عليّ من الحج وقد تزوّدت زاداً وابتعت راحلة أأرتحل إلى بيت المقدس فأكون فيه إلى أن يأتيني الموت أم ألزم هذا المسجد ؟ فقال له علي عليه السلام : كل زادك وبع راحلتك وعليك بهذا المسجد فالزمه فإنّه أحد المساجد الأربعة ، ركعتان فيه تعدلان عشراً فيما سواه من المساجد ، والبركة بها على عشرة أميال[2] من حيث ما أتيته وقد نزل أسد ألف ذراع ، [و] في زاويته [فار التنور ، و ـ][3] عند السارية[4] الخامسة صلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وفيه مصلى إدريس ونوح عليهما السلام ، وفيه عصا موسى بن عمران عليه السلام ، وقد صلى فيه ألف نبيّ وألف وصي ، وفيه هلك يغوث ويعوق وهو الفاروق ، ومنه سير جبل الأهواز ، ويحشر منه يوم القيامة كذا وكذا ألف[5] من الناس ليس عليهم حساب ولا عقاب ، ووسطه على روضة من رياض الجنة ، وفيه ثلاث أعين . . . .[6] تظهر للمسلمين آخر الزمان : عين [من] ماء وعين من لبن وعين من دهن ، جانبه الأيمن ذكر وجانبه الأيسر أنثى ، ولو يعلم الناس ما فيه من الفضل لأتوه ولو حبواً . ثم قال : أيها الناس ! لا تسبوا الكوفة فإن بها مصابيح الهدى وعمار الذكرى ، فيهم يدق الله عزَّ وجلَّ جناح كل فاجر وكافر في آخر الزمان .

---

(١) الخبر في معجم البلدان عن حبة العرني . (الكوفة) .
(٢) في معجم البلدان : اثني عشر ميلاً .
(٣) زيادة عن المعجم .
(٤) في المعجم : الاسطوانة .
(٥) في المعجم : سبعون ألفاً .
(٦) غير واضح بالأصل ، وفي المعجم : ثلاث أعين من الجنة تذهب الرجس وتطهر المؤمنين .

قال : وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : الكوفة قبة الإسلام وكنز الإيمان وجماجم العرب ورمح الله الأطول وبهم يدق الله عزَّ وجلّ أجنحة المنافقين .

قال : فلما استقر سعد بن أبي وقاص بالكوفة وجه بخيله إلى ناحية الأنبار وما يليها وهيت[1] وما والاها إلى أرض غابات إلى ما سقى الفرات فافتتح ذلك إلا قليلاً .

قال : ثم كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح بالشام يأمره بالمسير إلى أهل بيت المقدس[2] ويأمره بمحاربتهم ومحاربة من يليهم من الكفار .

ذكر فتح بيت المقدس على يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال : فلمّا ورد كتاب عمر على أبي عبيدة رضي الله عنهما دعا بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فولاه دمشق ، ثم خرج بمن معه من المسلمين حتى صار إلى بلاد الأردن فنزل هنالك[3] ثم كتب إلى أهل بيت المقدس كتاباً فيه[4] : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكّانها ، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله العلي الأعلى ؛ أمّا بعد ! فإني آمركم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمّداً عبده ورسوله عليه السلام ، وأنّ ما جاء به من عند الله عزَّ وجلّ حقّ ، والجنّة حقّ والنار حقّ ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأنّ الله يبعث من في القبور ؛ فإذا شهدتم بذلك فقد حرمت علينا دماؤكم وأموالكم إلا بحقّها ، وأنتم إخواننا في ديننا وشركاؤنا في حظّنا[5] ، وإن أبيتم ذلك سرت إليكم بقومٍ هم أحبّ للموت . . . .[6] لشرب الخمور وأكل لحم الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم أبداً إن شاء الله تعالى حتى أقتل مقاتلتكم وأسبي ذريتكم وأقسم أموالكم ؛ فاختاروا

---

(١) هيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار .

(٢) نسخة الكتاب في فتوح الشام للواقدي ١ / ٢٢٩ .

(٣) زيد عند الأزدي ص ٢٤٢ : فعسكر بها . وبعث إلى أهل إيلياء الرسل . وقال : اخرجوا إليّ أكتب لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم ، ونف لكم كما وفينا لغيركم . فتثاقلوا وأبوا .

(٤) نسخته في فتوح الأزدي ص ٢٤٣ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ / يا . ص ٤٧٩ .

(٥) عند الأزدي : وإن أبيتم فأقروا لنا بإعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون .

(٦) بياض بالأصل ، وعند الأزدي : « منكم للحياة و » .

واحدة من اثنتين، اعلموا أني في أثر كتابي هذا إليكم إن شاء الله ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم » .

قال : ثمّ وجّه أبو عبيدة كتابه هذا إلى أهل إيلياء ، فلما قرأوه أبوا ما عرض عليهم من الإيمان ولم يجيبوه إلى شيء ، فسار أبو عبيدة إليهم حتى نزل بساحتهم .

قال : وخرج أهل إيلياء إلى حرب المسلمين فاقتتلوا ، ووقعت الهزيمة على أهل إيلياء ، فقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً حتّى أدخلوهم مدينتهم .

قال : ودام الحرب بينهم أياماً كثيرة[1] ، فلمّا لم يجدوا حيلة ولم يكن لهم بالمسلمين طاقة بعثوا إلى أبي عبيدة : إنّا قد أحببنا مصالحتكم ولسنا نثق بكم ولكن اكتبوا إلى صاحبكم عمر بن الخطاب حتى يقدم فيكون هو الذي يعطينا الأمان ويكتب لنا العهد فإنّا به واثقون وإليه نميل .

قال : فقال أبو عبيدة لأصحابه : ما ترون فيما يقول هؤلاء القوم ؟ فقال معاذ بن جبل : أرى أن تكتب إلى أمير المؤمنين وتسأله القدوم إليك فلعله إذا قدم أن يصلح الله عزّ وجلّ به باقي بلد الشام إن شاء الله تعالى[2] .

ذكر كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بأمر أهل بيت المقدس

فكتب إليه[3] : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من عامر بن الجراح ، سلام عليك ، أما بعد ! فإني أخبرك يا أمير المؤمنين أني صرت إلى أهل إيلياء في جماعة من المسلمين حتّى نزلت بهم وحللت بساحتهم ، ثم واقعناهم وقائع كثيرة كانت عليهم لا لهم ، وطاولناهم فلم يجدوا في

---

(١) انظر تفاصيل أوردها الواقدي في فتوحه ١ / ٢٣٢ وما بعدها .

(٢) ذكر الأزدي أن أبا عبيدة لم يكتب إلى الخليفة إلا بعد أن أخذ على أهل ايلياء الأيمان المغلظة أنه إن قدم عمر وأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك ويؤدون الجزية ويدخلون فيما دخل فيه أهل الشام . ففعلوا ذلك .

(٣) نسخته في فتوح الأزدي ص ٢٤٨ وفتوح الشام للواقدي ١ / ٢٣٥ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٣ / بز .

مطاولتهم إيانا فرجاً[1] ، ولم يزدهم الله تعالى بذلك إلا ضعفاً ونقصاً وذلاً وهولاً ، فلما طال بهم ذلك واشتد عليهم الحصار سألوا الصلح وطلبوا الأمان على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين فيكون هو الموثوق به عندهم والكاتب لهم كتاباً بأمانهم ، ثم إنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين فيغدروا بعد ذلك ويرجعوا[2] ، فأخذنا عليهم العهود والمواثيق والأيمان المغلظة أنهم لا يغدرون ولا ينكثون ، وأنهم يؤدون الجزية ويدخلون فيما دخل فيه أهل الذمة ، فأقروا لنا بذلك ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل ، فإن في قدومك من الأجر والثواب ما لا يخفى عليك ، آتاك الله رشدك ويسر أمرك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

ذكر المشورة التي أشاروا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة

قال : فلمّا ورد كتاب أبي عبيدة على عمر رضي الله عنهما[3] وقرأه أرسل إلى وجوه المهاجرين والأنصار المقيمين معه بالمدينة واستشارهم في الخروج إلى الشام .

قال : فقال له عثمان : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعالى قد أذل الروم وأدال عليهم ، وأبو عبيدة قد حصرهم وضيق عليهم فهم يزدادون في كل يوم نقصاً وذلاً وضعفاً ووهناً ، فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك مستخف بأمرهم ، مستصغر لشأنهم ، حاقر لجنودهم ، فلا يلبثون إلا يسيراً حتى ينزلوا على الحكم أو يؤدون الجزية[4] .

فقال عمر : هل عند أحد منكم غير هذا الرأي ؟ فقال علي بن أبي طالب عليه السلام[5] : نعم عندي من الرأي ، أن القوم قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار ، ونزولهم على حكمك عز لك وفتح للمسلمين ، ولك في ذلك الأجر العظيم في كل ظمأ ومخمصة ، وفي قطع كل واد وبقعة حتى تقدم على أصحابك

---

(١) زيد عند الأزدي : ورجاء .

(٢) زيد عند الأزدي : فيكون سيرك ـ أصلحك الله ـ عناء وفضلاً .

(٣) ورد الكتاب إلى عمر مع ميسرة بن مسروق العبسي (فتوح الواقدي ١ / ٢٣٥) .

(٤) قارن مقالة عثمان في فتوح الواقدي ١ / ٢٣٦ والأزدي ص ٢٤٩ وبين النصوص اختلاف .

(٥) قارن مع الأزدي ص ٢٥٠ وفتوح الشام للواقدي ١ / ٢٣٦ .

وجندك ، فإذا قدمت عليهم كان الأمر[1] والعافية والصلح والفتح إن شاء الله ؛ وأخرى فإني لست آمن الروم إن هم أيسوا من قولك الصلح وقدومك عليهم أن يتمسكوا بحصنهم ويلتئم إليهم إخوانهم من أهل دينهم فتشتدّ شوكتهم ويدخل على المسلمين من ذلك البلاء ويطول أمرهم وحربهم ويصيبهم الجهد والجوع ، ولعل المسلمين أن يقتربوا من الحصن فيرشقونهم بالنشاب أو يقذفونهم بالحجارة ، فإن أصيب بعض المسلمين تمنيت أن تكون قد افتديت قتل رجل مسلم من المسلمين[2] بكل مشرك إلى منقطع التراب ؛ فهذا ما عندي والسلام .

فقال عمر رضي الله عنه : أما أنت يا أبا عمرو ! فقد أحسنت النظر في مكيدة العدو ، وأما أنت يا أبا الحسن ! فقد أحسنت النظر لأهل الإسلام ، وأنا سائر إلى الشام إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : ثم دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فأمره أن يعسكر بالناس . قال : فعسكر العباس خارج المدينة ، واجتمع المسلمون من وجوه المهاجرين والأنصار وسادات العرب .

فلما تكامل العسكر وعزم عمر على المسير إلى الشام قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إني خارج إلى الشام للأمر الذي قد علمتم ، ولولا أني أخاف على المسلمين لما خرجت ، وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمدينة ، فانظروا إن حزبكم أمر عليكم به ، واحتكموا إليه في أموركم واسمعوا له وأطيعوا ، أفهمتم ما أمرتكم به ؟ فقالوا : نعم ، سمعاً وطاعة . فقال عمر[3] : الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، وخصنا بالقرآن ، ورحمنا بنبيه محمد ﷺ فهدانا به من الضلالة ، وبصرنا به من الجهالة ، ورفعنا به من الخمولة ، وجمعنا به بعد الشتات والفرقة ، وألف بين قلوبنا ، ونصرنا على أعدائنا ، ومكن لنا في البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابين ، فاحمدوا الله عباد الله ! على هذه النعمة ، وسلوه المزيد فيها والشكر عليها ، فإن الله يزيد المستزيدين

---

(١) في المصدرين : الامن .

(٢) عند الأزدي : من المسلمين بمسيركم إلى مقطع التراب .

(٣) الأزدي ص ٢٥٠ - ٢٥١ . وفتوح الواقدي ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ وفيه أنه كان إذا نزل منزلاً لا يبرح منه حتى يصلي الصبح فإذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال :

الراغبين ، ويتم نعمته على الشاكرين ، ألا ! وإني راحل غداً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

قال : ثم نزل عن المنبر وأمر الناس بالجهاز ، وخرج على بعير له ، وعلى البعير غرارتان : في إحداهما سويق شعير وفي الأخرى تمر ، وبين يديه قربة الماء ، ومن خلفه جفنة يصب فيها أحياناً من ذلك السويق ويبلّه بالماء ، وهو مع ذلك صائم ، فإذا كان الليل ونزل الناس نزل عمر رضي الله عنه في آخر العسكر كواحد من الناس ليس له زاد أكثر من سويق الشعير والتمر .

فلم يزل كذلك حتى إذا دنا من أرض الشام بلغ ذلك أبا عبيدة والمسلمين ، فاستقبلوه ، فإذا هو على بعير له وعليه جبة من صوف وعباءة قطوانية قد تقلد بسيفه وتنكب قوساً له عربية ؛ فلما نظر إليه أبو عبيدة نزل عن فرسه إجلالاً له ، قال : ونظر عمر إليه أنه قد نزل عن فرسه فأناخ بعيره ونزل عنه ، ومشى كل واحد منهما إلى صاحبه ، فلما دنا منه أبو عبيدة أهوى عمر بيده إليه ليصافحه ، فأخذ أبو عبيدة يد عمر ليقبّلها تعظيماً له في العامة ، فلما أهوى أبو عبيدة ليقبّل يد عمر أهوى عمر ليقبّل رجل أبي عبيدة ، فتنحى أبو عبيدة سريعاً وقال : مه يا أمير المؤمنين ! فتعانقا جميعاً ثم افترقا وركبا ، فتسايرا وسار الناس معهما حتى صار عمر إلى دمشق فنزل على باب الجابية .

قال : وأقبل إليه الناس قبيلة بعد أخرى ، فجعلوا يسلمون عليه ؛ وفيمن أقبل إليه يومئذ بلال وأبو هريرة وأبو الدرداء أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وسلم وآله) ، فأقبل عليه أبو عبيدة فقال : يا أمير المؤمنين ! لو ألقيت عنك هذا الصوف ولبست البياض من الثياب لكان أهيب لك في قلوب هؤلاء الكفار ، فقال عمر : لا أحب أن أعوّد نفسي ما لم تعتده ، فعليكم يا معشر المسلمين بالقصد ! وإياكم وهذه الخيل الهماليج ! فإنه ما ركبها أحد قط إلا أعجبته نفسه ، وعليكم بهذه الإبل التي أعزّكم الله بها ونصركم ببدر وأنتم تقاتلون عليها . قال : ثم أقبل عمر على أبي عبيدة رضي الله عنهما فقال : ما فعل يزيد بن أبي سفيان ! ما فعل معاذ بن جبل ! أين جماعة المسلمين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! العسكر كله نازل على إيلياء ونحن محاصرون أهلها ، فقال عمر : ارحلوا إليهم على بركة الله .

قال : فرحل الناس معه إلى إيلياء ومعهم عمر حتى إذا قارب منها استقبله أجلّ

الناس وفرسان المسلمين[1] عليهم الدّيباج مما قد أصابوا من غنائم الروم[2] ، فلمّا نظر إليهم عمر رضي الله عنه على تلك الحالة أمر بهم فنزلوا عن دوابهم ، ثم أمر بالتراب فحثي عليهم ، وأمر بما عليهم من الديباج فمزّق ، ثم قال : أتلبسون الديباج وهو عليكم حرام ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ! إنا في جهاد وهذا من آلة الحرب ، قال : فلا بد لكم من الصلاة والصلاة فيه حرام ، إلا أن تلبسوه في وقت الحرب فإذا أردتم الصلاة فانزعوه ، فإن نبيكم محمداً (صلّى الله عليه وسلم وآله) قد نهى عن ذلك ، قال : إن الذهب والحرير حرام على ذكور أمتي ، حلال لإناثهم .

قال : وأقبل إليه يزيد بن أبي سفيان فقال[3] : يا أمير المؤمنين ! إنا في بلد الخصب والدعة ، والسعر عندنا بحمد الله رخيص ، والخير عندنا كثير من الأموال والدواب والعيش الرفيع ، وحال المسلمين كما تحب ، فالبس ثياباً بياضاً واكسها الناس واركب الخيل[4] واحمل الناس عليها ، فإنه أعظم لك في عيون الكفار ، وألقِ عنك هذا الصوف ، فإنه إذا رآك العدو على هذا الحال ازدراك ؛ فقال عمر : يا يزيد[5] ! ما أريد أن أتزيا للناس بما يشينني عند الله عزَّ وجلّ ، ولا أريد أن يعظم أمري عندالناس ويصغر عند الله عزَّ وجلّ ، فلا تراذّني بعدها في شيء من هذا الكلام .

قال : ثم أقبل حتى نزل على باب مدينة بيت المقدس وأرسل إليهم يأمرهم أن ينزلوا على حكمه وأن يوجهوا إليه من يثقون به حتى يكتب لهم الأمان ؛ قال : فأقبل إليه رجل من المستعربة يكنى أبا الجعيد[6] فصالحه عن القوم على أداء الجزية والإقرار في البلد ، فأجابه عمر رضي الله عنه إلى ذلك وكتب لهم كتاباً[7] يتوارثونه

---

(١) ومنهم أبو الأعور السلمي (فتوح الأزدي ص ٢٥٣) .

(٢) في فتوح الواقدي : مما أخذوا من اليرموك .

(٣) فتوح الواقدي ١ / ٢٣٩ وفتوح الأزدي ص ٢٥٣ باختلاف النصوص .

(٤) الأزدي : وركبت من هذه الدواب الغرّة .

(٥) زيد عند الأزدي : « لا والله . لا أدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبي » وكان عمر لم يترك هيئته على الأمر الذي كان عليه في حياة رسول الله (ص) وحياة أبي بكر (رض) حتى خرج من الدنيا .

(٦) كذا بالأصل وفتوح الواقدي ، وفي فتوح الأزدي ص ٢٥٤ : ابن الجعيد . وفي الطبري ٤ / ١٦٠ والكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٢ : صالحه العوام من أهل إيليا .

(٧) نسخة كتاب عهد عمر في الطبري ٤ / ١٥٩ ومختصراً في تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٤٧ والوثائق السياسية وثيقة ٣٥٧ / ألف .

إلى يومنا هذا ـ والله أعلم .

ذكر إسلام كعب الأحبار(١)

قال : ثم دخل عمر رضي الله عنه إلى بيت المقدس ونزل في كنيستها العظمى . قال : وأقبل إليه كعب الأحبار يريد الإسلام فعرض عليه عمر الإسلام وقرأ عليه ﴿ **يٰأيها الذين أوتوا الكتٰب آمنوا بما نزلنا مصدّقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً** ﴾(٢) ؛ فلمّا سمع كعب ذلك أسلم من ساعته . ثم قال : يا أمير المؤمنين ! مكتوب في التوراة « إن هذه البلاد التي كانت بنو إسرائيل أهلها يفتحها الله عزَّ وجلّ على يد رجل من الصالحين ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، سره مثل علانيته [وعلانيته مثل سره] ، قوله لا يخالف فعله(٣) ، القريب والبعيد عنده في الحق سواء ، أتباعه قوم من أهل التوحيد رهبان الليل فرسان(٤) النهار ، متراحمون متواصلون متباذلون ، يغسلون فروجهم ويتزرون على أوساطهم ، أناجيلهم في صدورهم وصدقاتهم في بطونهم ، ألسنتهم رطبة بالتكبير والتقديس والتهليل ، وهم الحامدون الذين يحمدون الله عزَّ وجلّ على كل حال ، وفي سهول الأرض والجبال ، أول أمة تدخل الجنة يوم القيامة » . قال فقال عمر : ويحك يا كعب ! أحق ما تقول ؟ فقال كعب : إي والذي يسمع ما أقول . قال : فخرّ عمر رضي الله عنه ساجداً ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذي أعزنا وأكرمنا ورحمنا وشرفنا بنبينا محمد صلى الله عليه وآله، ثم أقبل عمر على الناس فقال : يا أهل الإسلام ! أبشروا فإن الله عزَّ وجلّ قد صدقكم الوعد ونصركم على الأعداء وأورثكم البلاد ، فلا يكونن جزاؤه إلا الشكر ، وإياكم والمعاصي والعمل بها ، فإن العمل بالمعاصي يدل على كفر النعمة ، وليس من قوم كفروا النعمة ثم لم ينزعوا إلى التوبة إلاّ سلبهم الله عزهم وسلط عليهم عدوّهم .

قال : فأقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمدينة بيت المقدس أياماً ، وأقبل

---

(١) قارن مع فتوح الشام للواقدي ١ / ٢٤٢ وفتوح الأزدي ص ٢٥٩ باختلاف النصوص وزيادة .
(٢) النساء : ٤٧ .
(٣) الأزدي : قلبه .
(٤) الأزدي : أسد .

إليه عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ! إن أهل هذا البلد يأتوننا بعصير لهم قد عصروه من العنب ، ثم يأتوننا به مطبوخاً حلواً قبل أن يغلي كأنه الرُبّ من شدة حلاوته ؛ قال عمر : قل لهم : فليأتونا بشيء منه حتى ننظر إليه . قال : فأتي بشي منه في إناء من قوارير حتى وضع بين يديه ، قال : فشمه عمر رضي الله عنه ثم قال لأهل البلد : كيف تصنعون بهذا ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ! نعصره في كرومنا ثم نصبّه في القدور من ساعته فنطبخه أبداً حتى يذهب منه الثلثان ويبقى الثلث ؛ فقال عمر : إن كان هذا على ما وصفتم فقد ذهب حرامه وبقي حلاله ؛ قال : ثم أدخل عمر اصبعه فيه وذاقه ثم قال : هذا الذي لا شك في حله فاشربوا على بركة الله وكلوا منه ما دام حلواً ، فإذا علمتم أنه قد غلي فلا تشربوه .

قال : ثم رفع عمر رضي الله عنه رأسه فجعل ينظر إلى القسيسين والرهبان واجتهادهم فيما هم فيه من العبادة وعليهم المسوح والبرانس ، فقال[1] : الحمد لله الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، قال : فسمعه بعض القسيسين قال : إن الله لا يضل أحداً ، قال : فلم يفهم عمر ما تكلم به ، فأعاد الكلام فقال : الحمد لله الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ؛ فقال القس : إن الله لا يضل أحداً ؛ قال : فسمعه عمر فقال : يا عدو الله ! أما والله لولا العهد والميثاق الذي كتبته لكم إذاً لضربت عنقك ! أتزعم أن الله لا يضل أحداً ؟ بلى ! قد أضلك وختم على قلبك وجعل على بصرك غشاوة ثم إنه يدخلك النار غير ظالم لك ؛ قال : فسكت القس ولم ينطق بشيء خوفاً من عمر .

قال : ثم نادى عمر رضي الله عنه في أصحابه بالرحيل على أن يرجع إلى المدينة ، ثم خرج وخرج معه أبو عبيدة وجماعة من المسلمين يشيعونه ، حتى إذا خرج من حدود الشام فأمرهم بالرجوع ، فرجعوا عنه .

وسار عمر رضي الله عنه يريد المدينة ؛ فبينا هو كذلك إذ مر بماء من مياه العرب من بني جذام[2] يقال له ذات المنار[3] فنزل عمر هنالك ، فأقبل إليه أهل ذلك

---

(١) جاء قوله هذا خلال خطبة ألقاها بعد وصوله إلى الجابية . انظر فتوح الشام للأزدي ص ٢٥١ وفتوح الشام للواقدي ١ / ٢٣٨ وكان ذلك قبل اتمام صلح بيت المقدس .

(٢) عند الأزدي ص ٢٦٢ « يقال لهم حُدس » والخبر في فتوح الواقدي ١ / ٢٣٧ وذكره لما سار عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام .

(٣) ذات المنار : موضع في أول أرض الشام من جهة الحجاز .

الماء فسلموا عليه ورحبوا به وعرضوا عليه فقال عمر رضي الله عنه : ما لي إليكم من حاجة ، ولكن إن كانت لكم قبلي حاجة فقولوا ! فقال رجل منهم : يا أمير المؤمنين ! عندنا ههنا رجل له امرأتان وهما أختان أفيحل ذلك ؟ فاشمأز[1] عمر من قوله ثم قال : ويحك وكيف يحل ذلك وقد قال الله عزَّ وجلّ ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف** ﴾[2] ثم قال عمر رضي الله عنه : عليّ بهذا الرجل ، فأتي به فقال له عمر رضي الله عنه : ما هاتان المرأتان اللتان عندك ؟ فقال الرجل : هما امرأتاي ، فقال عمر : فهل بينهما قرابة ؟ قال : نعم ، هما أختان ، فقال عمر رضي الله عنه : فما دينك ألست مسلماً ؟ قال : بلى ! قال عمر : أفعلمت أن هذا عليك حرام ؟ فقال الرجل : لا والله ما علمت ، وما هما عليّ حرام ؛ فقال له عمر رضي الله عنه : كذبت والله يا عدو نفسه وإنه لحرام عليك ! ولتخلين إحداهما أو لأضربن عنقك من قبل أن أكلمك كلمة ولكنه إنما حقنت دمك بقولك إنك لا تعلم أنه حرام ؛ قال : فقال له الرجل : أجاد أنت في قولك يا عمر ؟ فقال عمر : والله الذي لا إله إلا هو إني لجاد فيما تسمعه ! ولتخلين إحداهما أو لأضربن عنقك ، فقال الرجل : نزح[3] الله هذا من دين ، فوالله ما أصبت منه خيراً منذ دخلت فيه ، قال : فقال عمر : قربوه مني ، فأدنوه منه ، فخفق عمر رأسه بالدرة خفقات ثم قال : يا عدو الله ! أتشتم دين الله ارتضاه لنفسه وملائكته وأنبيائه ورسله وخيرته من خلقه ، خل سبيل إحداهما وإلا قتلتك ؛ قال الرجل : فأيتهما أخلي ؟ قال : اقرع بينهما سهمين لكل منهما سهم ثم اضرب ، فإذا خرج سهم إحداهما فامسكها عندك وخل سبيل الأخرى .

قال : ففعل الجذامى ما أمر به عمر ، فلما خلى سبيل إحداهما دعا به عمر رضي الله عنه فقال : اسمع مني ما أخبرك به ، إذا أسلم الرجل ودخل في ديننا هذا ثم رجع عنه قتلناه ، فإياك أن يحملك الغضب لما أمرتك أن تفارق الإسلام فتقتل[4] ، وإياك أن يبلغني عنك أنك دخلت إلى هذه المرأة التي فارقتها أو دنوت

(١) الواقدي : فغضب .
(٢) النساء : ٢٣ .
(٣) الأزدي : قبح .
(٤) في رواية ابن مسعود عن رسول الله (ص) قال : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

منها بعد إذ فرقت بينكما فإنه إن بلغني عنك ذلك رجمتك ؛ فقال الجذامي : قد قبلت وصيتك يا أمير المؤمنين .

قال : ثم سار عمر من هنالك حتى صار إلى وادي القرى[1] ، فلما نزل هنالك أقبل إليه أهل البلد فقالوا : يا أمير المؤمنين ! عندنا ههنا امرأة قد كنا نعرف لها زوجاً واحداً وكان شيخاً كبيراً واليوم لها زوج آخر ، وهما جميعاً يغدوان إليها ويروحان ؛ قال : فتبين الغضب في وجه عمر رضي الله عنه ثم قال : عليّ بهما وبالمرأة ؛ فأتي بهم فلما وقف الرجلان بين يدي عمر سأل عن دينهما فقالا : مسلمان ، قال : فالمرأة ؟ قالا : مسلمة ، قال : فما الذي بلغني عنكما وعن هذه المرأة أنكما جميعاً تغدوان إليها وتروحان ؟ أما علمتما أن هذا عليكماحرام؟ فقالا : لا والله ما علمنا أن هذا حرام علينا ؛ فقال عمر للمرأة : أيهما زوجك الأول ؟ فقالت : هذا الشيخ ، فقال له عمر : ويحك يا شيخ ! ما حملك على ما صنعت وما هذا الأمر القبيح لم أسمع ببر ولا فاجر فعل مثله ؟ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ! أنا شيخ كبير كما ترى وقد ضعفت ورق جلدي ودق عظمي ، وكانت لي إبل كثير فضعفت عن رعيها وسقيها ولم يكن لي ولد ولا أحد أتكل عليه وأثق به في أمرها ، فجاءني هذا الشاب يسألني أن أجعل له معي في هذه المرأة نصيباً يكون له يوماً وليلة ويكفيني رعي إبلي وسقيها ، فقلت في نفسي : هذا رجل له على الرعي والسقي قوة وجلد وأنا ضعيف لا أقدر على ذلك ، فكان يكفيني رعي إبلي وله من المرأة ما خبرتك ، فإذ قد خبرتني أنه حرام فإني لا أعود إلى ذلك ولا أفعله أبداً ؛ فقال له عمر : أيها الشيخ ! خذ امرأتك فإنها لك وليس لأحد معك فيها نصيب ولا له عليها سبيل ؛ قال : ثم أقبل عمر رضي الله عنه إلى الشاب فقال : أما أنت فقد حلفت أنك لم تعلم أن هذا عليك حرام ولكن انظر ما آمرك به ، إياك أن يبلغني عنك أنك نازلت هذا الشيخ على ماء من المياه ! فوالله لئن بلغني أنك نازلته على ماء أو دنوت من هذه المرأة بعد هذا اليوم لأضربن عنقك ؛ قال فقال الفتى : لست أنزل معهم ولا أقربهم يا أمير المؤمنين .

قال : ورحل عمر بن الخطاب رضي الله عنه من وادي القرى حتى صار إلى المدينة وتلقاه المسلمون يهنئونه بقدومه وسلامته وما أفاء الله عزَّ وجلّ عليه من أمر فلسطين وما والاها .

---

(١) وادي القرى : وادٍ بين المدينة والشام ، من أعمال المدينة كثير القرى .

ذكر خبر جبلة بن الأيهم الغساني وما كان من إسلامه ورجوعه عن دين الإسلام

قال : بعد قدوم عمر بن الخطاب من أرض الشام قدم عليه جبلة بن الأيهم الغساني في سبعين ومائة[1] رجل من قومه المتنصرة يريد الإسلام ، حتى إذا قرب من مدينة رسول الله ﷺ أمر بني عمه من آل جفنة فركبوا الخيل العتاق وقلّدوها قلائد الفضة وعقدوا في نواصيها عقود الجوهر وفي أذنابها ذوائب الحرير ؛ وجبلة يومئذ على فرس له قد زيّن بمثل تلك الزينة ، وعلى رأسه تاج ، وفي تاجه يومئذ قرط مارية ، ومارية جدته أم أبيه .

قال : وبلغ أهل المدينة قدوم جبلة بن الأيهم عليهم فاستبشرت الأنصار لذلك وتهيئوا لاستقباله واستأذنوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فأذن لهم ؛ قال : ولم يبق بالمدينة بكر ولا ثيب[2] إلا خرجت للنظر إلى جبلة . قال : وأشرف جبلة على المدينة في موكب لم ير مثله ، ثم إنّه دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشهد بشهادة الحق ، فقرّبه عمر وأدنى مجلسه ورفع منزلته وفرح بإسلامه ، وأمر الأنصار ببره وكرامته ففعلوا ذلك .

قال : وأقام جبلة بالمدينة إلى أن حضر وقت الحج ، فخرج الحاج وخرج معه عمر ليقيم لهم أمر الحج ، قال : وخرج جبلة أيضاً فيمن خرج إلى الحج ، ثم أمر بقبة له ديباجة صفراء فضربت له خارج الحرم ، وكان زيه مشهوراً بمكة لا ينظر إليه أحد إلا بعين الجلالة .

قال : فبينا جبلة ذات يوم يطوف بالبيت كما يطوف غيره إذ وطىء رجل من فزارة على إزاره فانحلّ الإزار ، والتفت إليه جبلة فضربه بكفه ضربة على وجهه هشم أنفه ؛ فأقبل الفزاري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودمه يسيل من أنفه ، فخبره بقصته .

قال : وبعث عمر إلى جبلة فأحضره ثم قال له : ويحك ! ما حملك على ما

---

(١) في الأغاني ١٥ / ١٦٣ « ألف من أهل بيته » وفي رواية أخرى في الأغاني والعقد الفريد ٢ / ٥٦ في خمسمئة .

(٢) في الأغاني : « عانس » وفي العقد : النساء والصبيان .

فعلت بهذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! إنه اعتمد حلّ إزاري ليبدي سوأتي ، ولولا حرمة[1] هذا البيت لضربته بسيفي ؛ فقال له عمر : أما أنت فقد أقررت بما فعلت ولكن ارض الرجل في حقه وإلا أقدته منك ، قال جبلة : أو تفعل هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم والله أفعله ؛ قال جبلة : إنه رجل من السوقة وأنا ملك ابن ملك ، والله لقد ظننت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية ؛ قال فقال له عمر : إن الإسلام وعدله بخلاف الجاهلية فأرضه من نفسك ، قال جبلة : فإن لم أرضه ؟ قال عمر : فإن لم ترضه أمرته أن يهشم أنفك كما هشمت أنفه قصاصاً كما فعلت . فإن الإسلام جمعك وإياه ، فما تفضله بشيء إلا بالتقوى . قال : فلما رأى جبلة أن عمر لا يأبى إلا القصاص لم يجد بداً من الاستخذاء في وقته ذلك فقال[2] : نعم يا أمير المؤمنين ! غير أني ناظر في أمري ليلتي هذه ؛ فقال عمر : ذلك إليك .

قال : فانصرف جبلة يومه ذلك ، فأقبلت الأنصار إلى عمر فقالوا : يا أمير المؤمنين ! نحن نرضي هذا الفزاري عن جبلة فإنه رجل من سادات غسان ، ونحن نقتدي هذه اللطمة ؛ فقال عمر : والله ! لا يقتص الفزاري إلا من جبلة .

قال : فانصرف الناس عن عمر رضي الله عنه ، حتى إذا نامت العيون وسكنت الحركات خرج جبلة في قومه الذي قدموا معه وهم سبعون ومائة[3] إنسان ومضى متوجهاً نحو الشام ، فأصبحت مكة منه ومن بني عمه بلاقع .

قال : ومضى جبلة في قومه الذين قدموا معه إلى بني عمه الذين هم بالشام مقيمون ، فخبرهم بذلك ثم أمرهم بالرحيل معه ، فرحل القوم وهم خلق كثير ، فسار بهم جبلة حتى دخل بهم بلاد الروم ثم أقبل قاصداً إلى القسطنطينية ، فدخل على هرقل ملك الروم فتنصر هو وجميع من كان معه من بني عمه ، قال : ففرح به هرقل فرحاً شديداً ورأى أنه فتح فتحاً عظيماً ، ثم إنه أقطعه وأقطع بني عمه حيث شاؤوا من أرض الروم ، ثم إنه جعل جبلة من خواصه ووزيره وصاحب أمره ؛ فأقام جبلة عند

---

(١) الأغاني : لولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف . وعبارة العقد : لولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي عيناه .

(٢) الأغاني والعقد : قال : إذن أتنصر . قال : إن تنصرت ضربت عنقك لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك ، فلما رأى جبلة الصدق من عمر . . .

(٣) انظر ما مرّ في ذلك .

ملك الروم في أرفع المنازل وأجلها .

قال : ودعا عمر بن الخطاب بحذيفة بن اليمان[1] فكتب معه كتاباً إلى ملك الروم يدعوه إلى دين الإسلام ويرغبه فيه .

قال : فسار حذيفة[1] من المدينة إلى الشام ، ثم صار من أرض الشام إلى أرض الروم ؛ قال : وعلمت الروم أنه رسول فكانوا يبذرقونه من موضع إلى موضع حتى بلغ إلى القسطنطينية ، ثم دخل على هرقل فدفع إليـه الكتاب وأبلغه رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأبى هرقل أن يجيب إلى شيء من ذلك ، ثم أقبل على حذيفة فقال له : يا عربي ! هل أتيت ابن عمك هذا الذي جاءنا راغباً في ديننا زاهداً في دينكم ؟ فقال حذيفة : لا ما أتيته بعد ، فقال هرقل : فأته فانظر إلى ما هو عليه ، فلعل قلبك يصبو إلى ما صبا إليه .

قال حذيفة : فخرجت من عند هرقل حتى أتيت باب جبلة فلم أكن رأيت بباب هرقل ما رأيت بباب جبلة من العبيد والحشم ، ثم استأذنت عليه فأذن لي فدخلت عليه فإذا هو جالس على سرير من جوهـر الزجـاج وللسرير أربعة أركان من الذهب وأربع قوائم من الفضة ، وعلى رأسه تاج من الذهـب كثير الزبرجد والياقوت ، قال : وإذا هو أصهب ذو سبال[2] وعثنون طويل ، وإذا قد وخطه الشيب ، وقد أمر بالذهب الأحمر فسحل[3] ورمي في لحيته ، وقد استقبل عين الشمس بوجهـه ، فما رأيت منظراً أبهى ولا أحسن منه .

قال حذيفة : فلما رآني حياني ورحب بي وأدناني ، ثم إنه عاتبني على تركي النزول عليه ؛ ثم سألني عن أمر الناس وألح عليّ في المسألة عن عمر بن الخطاب خاصة ، فجعلت أخبره بما أرجو عطفه ورجوعه إلى دين الإسلام ؛ قال : فرأيته وقد تنفس الصعداء وعرفت الحزن في وجهه . ثم قال : اجلس يا حذيفة ! فجلست على شيء لم أتبينه بديًا ، فلما تأملت فإذا هو كرسي من ذهب ، قال : فانحدرت عنه ، وتبسم جبلة ثم قال : إذا طهّرت قلبك فلا تبال ما لبست وعلام جلست ؛ قال فقلت :

---

(١) في الإصابة : جثامة بن مساحق بن ربيع بن قيس الكناني . (الأغاني ١٥ / ١٦٤) .

(٢) السبال جمع سبلة (بالتحريك) ، وهي ما على الشارب من الشعر ، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية كلها ، أو مقدمها خاصة .

(٣) سحالة الذهب : ما سقط منه إذا برد .

إن رسول الله ﷺ كان يكره الذهب وقد نهى عنه ، ولكن ويحك يا جبلة ! ما الذي أخرجك عن قومك وملكك وبلادك بعد الذي كان منك من الإسلام والحج إلى بيت الله الحرام وقراءة القرآن ؟ فقال : ويحك يا حذيفة ! أو ما بلغك الذي كان من أمر عمر ؟ أراد أن يقتص مني لرجل من السوقة ! فقلت : بلى ، لعمري لقد بلغني ذلك ، وهذا الأشعث بن قيس الكندي وطليحة بن خويلد الأسدي قد كانا أسلما ثم رجعا عن دين الإسلام ومنعا الزكاة وحاربا وقتلا من المسلمين ثم إنهما رجعا تائبين إلى دين الإسلام ، قبل ذلك منهما ؛ فقال جبلة : ذر عنك هذا يا حذيفة !

ثم أشار إلى خادم واقف بين يديه فخرج الخادم ولم أشعر إلا وغلمان قد أقبلوا يحملون صناديق الأطعمة حتى وضعت ، ثم وضعت مائدة من ذهب بين يدي سريره ؛ فنزل عن السرير وجلس على بساط بين يدي السرير ثم دعاني ، فاستعففت من ذلك وأن آكل على مائدة من الذهب ؛ فأمر لي بمائدة من الخلنج[1] فوضعت بين يدي ، ثم سعى إلينا بكل حار وبارد من طعام ما رأيت ولا سمعت بمثله . قال حذيفة : فكان يوضع بين يديه صحفة من ذهب ، ويوضع بين يدي قصعة من خلنج أو جام من قوارير[2] وفيه من ذلك الطعام الذي يوضع بين يديه ؛ قال : ثم أتي بالخمر ، فقلت له : إني رأيت أن تعفني من دورها على المائدة ، ففعل ؛ ثم رفعت المائدة وأتي بالوضوء فقدم إليه طشت من ذهب ، فلمّا أخذ في غسل يده قمت فغسلت يدي ناحية من الدار على الأرض ـ أو قال : في بركة ماء كانت في الدار ، ثم رجعت إلى موضعي فجلست فيه .

قال : فدعا بقدح إلى أطول ما هو ، فشرب فيه خمساً أو ستاً أعد ذلك عليه ؛ ثم أشار بعينه إلى خادم له واقف بين يديه ، قال : فخرج الخادم فما كان بأسرع أن نظرت إلى عشر جوارٍ قد أقبلن كأنهن التماثيل يحملن كراسي العاج والآبنوس مغشاة بجلود النمور وجلود الجرو السمور حتى وضعت عن يمينه ويساره ، ثم نظرت وإذا بعشر جوار عليهن الوشي والديباج المذهب وهن يتبخترن في الذهب والجوهر ، فأقبلن حتى جلسن على تلك الكراسي وعيدانهن في حجورهن ؛ قال : وإذا بجارية أخرى قد أقبلت وفي يدها إناء من ذهب مملوء بالمسك والعنبر والكافور المسحوق ،

---

(١) الخلنج شجر تتخذ من خشبه الأواني ونحوها .

(٢) جام : إناء ، وهو كما ذكر اللغويون من فضة . والقوارير : الزجاج .

وفي يدها اليسر جام من فضة مملوء بماء الورد على رأسها طائر أبيض كأنه الثلج بياضاً ، حتى وقفت بين يدي جبلة ، ثم صفرت للطائر فانفض من فوق رأسها حتى سقط في جام ماء الورد ، فأخذ ما فيه بريش ذنبه وجناحه ، ثم صفرت ثانية فطار حتى سقط في جام المسك والعنبر فأخذ ما كان فيه ، ثم صفرت ثالثاً فطار الطائر حتى سقط على صليب في تاج جبلة ، ثم جعل يذر ما بريشه وجناحيه على تاج جبلة ورأسه ووجهه ولحيته ، ثم رجع إلى موضعه وتنحت الجارية .

ثم دعا جبلة بكأس عظيم مترع بالخمر فشربه ، فلما استوفاه التفت إلى الجواري اللاتي كن عن يمينه فقال لهن : هاتن فأطربنني ؛ قال : فخطفن[١] عيدانهنّ فاندفعن بصوت واحد . قال : وكان جبلة كلما سمع بيتاً من الشعر[٢] فرح واستبشر وتهلّل وجهه ثم قال : لله در قائل هذا الشعر ! ولله موضع قوم وصف .

قال : ثم دعا بكأس مترع من الخمر فشربه ، فلما استوفاه التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره ، فقال : هاتن فأحزنني ، قال : حركت الجواري . أوتار عيدانهن وأمسكن من ضرب عيدانهن ، فبكى جبلة حتى تحدرت دموعه على لحيته وخده ؛ وإذا بجارية قد أقبلت ومعها منديل من ديباج أو حرير فمسحت وجهه ولحيته ثم تنحت .

قال حذيفة : فأقبل علي جبلة فقال : يا حذيفة ! أتعرف هذه المنازل اللاتي ذكرن هؤلاء الجواري[٣] ؟ قال فقلت : أعرف بعضها وأنكر بعضها ، فقال : هذه والله منازلنا[٤] بالغوطة من أرض دمشق ! ولكن هل تعرف الشعر الأول والثاني ؟ فقلت : لا ، قال : هذا شعر حسان بن ثابت الأنصاري ، كان كثيراً ما يزورنا في

---

(١) في الأغاني : فخفقن بعيدانهن .

(٢) الشعر في الأغاني ١٥ / ١٦٦ والعقد ٢ / ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) ومما غنين : (عن الأغاني ١٥ / ١٦٦ والعقد ٢ / ٦٠) :

لمن الدار أقفلت بمعان ... بين شاطىء اليرموك فالصمان
فحمى جاسم فأبنية الصـ ... ـفر مغنى قنابل وهجان
فالقريات من بلاس فدار ... يا فسكاء فالقصور الدواني
ذاك مغنى لآل جفنة في الد ... ار وحق تعاقب الأزمان
قد أراني هناك حقاً مكيناً ... عند ذي التاج مقعدي ومكاني

(٤) في الأغاني : في ملكنا بأكناف دمشق .

سالف الدهر ؛ قال حذيفة : فقلت : ما أكثر ذكره لك ؟ فقال : ويحك أيعيش حسان ؟ فقلت : نعم وقد كف بصره فليس يهتدي براً ولا بحراً ؛ قال : فدعا بخمسمائة دينار وخمس ديباجات وخمسة أثواب حرير ومثلها بُزْيُون[١] فقال : أحبّ أن توصل هذه إلى حسان ، قال : وأراد أن يأمر لي بمثل ذلك فأبيت عليه ؛ فلما أردت الرحيل أقبلت حتى دخلت عليه فقلت : يا جبلة ! هل توصيني بشيء أبلغه عنك أمير المؤمنين ؟ فقال جبلة : وما عسى أن تكون وصيتي وحاجتي إلى عمر وقد أراد أن يقتصّ مني بلطمة لرجل من السوقة ! قال فقلت : إنّ عمر أراد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، وإنما أراد أخذ الحق ، فقال : صدقت يا حذيفة ولكن اللجاج والشقاء غلب عليّ فأحلني هذا المحلّ ، ولوددت أني متّ قبل ذلك ، ولوددت أني في ديار قومي في أسوء حالة تكون .

قال : فحفظت عنه أبياتاً[٢] ، ثم رحلت إلى بلاد الشام ، ثم صرت إلى المدينة فحدّثت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما كان من مردّ هرقل ملك الروم عليّ ، ثم حدثته بما كان من أمر جبلة بن الأيهم وأنشدته ما سمعته من شعره ؛ قال : ويحك يا حذيفة ! ورأيته يشرب الخمر بعد الإسلام والحج والقرآن ؟ فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ! قال : ورأيت الصليب على رأسه ؟ فقلت : نعم ؛ فقال عمر : أبعده الله ! فقد تعجل فانية بباقية فما ربحت تجارته فضلّ فما اهتدى .

قال فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنه قد بعث معي إلى حسان بن ثابت بكذا وكذا ، ثم جئته به حتى وضعته بين يديه ، فقال عمر لرجل من المجلس : انطلق فادع لنا حساناً ولا تعلمه بشيء من هذا ، قال : فمضى الرجل فما كان بأسرع أن أقبل حساناً وقائده يقوده ؛ فلما دخل قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! إني لأجد ريح آل جفنة بين يديك ، قال : فتبّسم عمر وأهل المجلس ثم قال : نعم يا أبا الوليد ! لقد آتاك الله عزّ وجلّ منه بمعونة وبر حسن على رغم أنفه ،

---

(١) بالأصل بربون . والبزيون : الديباج الرقيق . وفي العقد : فأمر لي بكسوة ومال ، ونوق موقرة براً ، ثم قال : فادفع إليه هذه الهدية وإن وجدته ميتاً ،فادفعها إلى أهله وانحر الجمال على قبره .

(٢) منها : (الأغاني ـ العقد) .

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وكان فيها لو صبرت لها ضرر
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى الأمر الذي قال لي عمر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

فاحمد الله تعالى على ذلك واشكره إذ نزع لك هذا منه ؛ قال : فقبض حسان ذلك .

ذكر الطاعون الذي وقع بالشام ومن مات هنالك من المسلمين

قال : ثم وقع الطاعون بالشام بأرض يقال لها عَمَواس[1] من بلاد فلسطين ، قال : وعمواس قرية من قرى مدينة الرملة ؛ قال : فمات من ذلك بشر كثير من المسلمين ممن كان مع أبي عبيدة بن الجراح من أمراء الأجناد وغيرهم ؛ قال : ونزل بأبي عبيدة ما نزل بغيره ، فلما حضرته الوفاة بعث إلى وجوه المسلمين فدعاهم ، فلما دخلوا عليه وجلسوا إليه أقبل عليهم بوجهه فقال : أيها الناس ! إني موصيكم بوصية فاقبلوها فإنكم لم تزالوا بخير ما بقيتم متمسكين بها وبعد موتكم ، أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا وتصدّقوا وحجّوا وتواضعوا وتباذلوا وتواصوا وانصحوا[2] أمراءكم ولا تغرنكم الدنيا[3] ، فإنّ أحدكم لو عمر ألف سنة ما كان له بد من أن يصير إلى مثل مصيري[4] هذا الذي ترون ، لأن الله عزَّ وجلّ قد كتب الموت على بني آدم فهم متوفون ، وأكيسهم أطوعهم لربه وأعملهم ليوم معاده .

قال : ثم التفت أبو عبيدة إلى معاذ بن جبل فقال : أبا عبد الرحمن ! صلّ بالنار رحمك الله ! فقد استخلفتك عليهم من بعدي . قال : ثم توفي أبو عبيدة رحمة الله عليه بالأردن من أرض الشام ، وبها قبره .

قال : وقام معاذ بن جبل بعد أبي عبيدة بأمور المسلمين ، فخطب الناس بعد وفاة أبي عبيدة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، فليس من عبد يلقى الله وهو غير تائب من ذنبه إلا كان حقيقاً على الله أن لا يغفر له إلا أن تتداركه الرحمة ؛ وانظروا ! من كان عليه منكم دين فليقضه ، فإن العبد

---

(١) عمواس : رواه الزمخشري بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، وهي كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس . وضبطها ياقوت بكسر أوله وفتح ثانيه : وقيل هي قرية صغيرة بين القدس والرملة .

(٢) عند الأزدي ص ٢٦٧ واصدقوا أمراءكم ، ولا تغشوهم .

(٣) الأزدي : ولا تلهكم الدنيا .

(٤) الأزدي : مصرعي .

مرتهن بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجراً[1] لأخيه المسلم فليلقه وليصافحه ، فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام[2] ؛ أيها الناس ! إنكم قد فجعتم برجل ، والله ما أعلم أني رأيت عبداً من عبيد الله أعلن[3] أمراً ولا أبر صدراً ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حباً للعافية ولا أنصح لعامة المسلمين[4] منه ، فرحمة الله على أبي عبيدة ! فوالله[5] لأثنينّ عليه ما حييت ثناءً صادقاً ، ولا أقول فيه باطلاً ، ولا أخاف أن يلحقني في ذلك من الله تبارك وتعالى مقت ولا غضب ، كان والله ـ ما علمت ـ من المخبتين المتواضعين الذين يرحمون اليتيم والمسكين ويبغضون الجبارين والمتكبرين .

قال : فقال عمرو بن العاص لرجل كان إلى جنبه : لعمري لقد استعمله أبو عبيدة فرضي عنه وأحسن الثناء عليه ، قال : فجاء ذلك الرجل إلى معاذ فخبره بمقالة عمرو ؛ فأرسل إليه معاذ فدعاه ثم قال : يا عمرو ! أتزعم أن ثنائي على أبي عبيدة بن الجراح لأنه ولاني هذا الأمر من بعده ؟ إن كنتُ صادقاً فأماتك الله بمثل هذه الموتة التي [توفي] فيها أبو عبيدة ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله قد خبرنا أنها ميتة الصالحين[6] ؛ وإن كنتُ كاذباً فأماتني الله بها وأبقاك إلى الفتنة فإنك تحب الإمارة جداً ولعلّك أن تعطي فيها سؤلك يا عمرو ! قال : فقال عمرو بن العاص : أقسمت عليك أبا عبد الرحمن أن لا تغضب ولا تقل إلا خيراً ! فوالله ما أردت بك مساءة قط ! قال : فسكت معاذ فلم يرد عليه .

ثم كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً فيه[7] : بسم الله الرحمن

---

(١) الأزدي : مصارماً مسلماً فليلقه وليصالحه إذا لقيه ويصافحه .

(٢) زيد عندالأزدي : والذنب في ذلك عظيم عند الله .

(٣) الأزدي : أقل غمراً .

(٤) زيد عند الأزدي : ولا أشد عليهم تحنناً وشفقة .

(٥) هذا القول لمعاذ جاء عند الأزدي ص ٢٦٨ بعدما دفن أبو عبيدة ، انظر مقالته كاملة عنده بعدما وضعوه في قبره وسفوا عليه التراب .

(٦) إشارة إلى حديث رواه أحمد في مسنده ٣ / ٤٣٧ قال (ص) : اللهم اجعل فناء أمتي في سبيلك بالطعن والطاعون . وفي رواية أخرى عنده ٤ / ٣٩٥ قال (ص) : اللّهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون .

(٧) نسخة كتابه في فتوح الأزدي ص ٢٧٣ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٧ / ج ص ٤٨٩ .

الرحيم[1] ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من معاذ بن جبل ، سلام عليك ، أما بعد ! فإنا ننعي إليك رجلاً عندنا أميناً ، وكان الله عزَّ وجلّ في عينه عظيماً ، وكان عليك وعلينا عزيزاً ، أبا عبيدة بن الجراح ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وعند الله عزَّ وجلّ نحتسبه ونحتسب أنفسنا من بعده ؛ وكتبت إليك يا أمير المؤمنين كتابي هذا وقد فشا هذا الموت في الناس وكثر الوباء جداً ، ولن يخطىء الموت أحداً ، ومن لم يمت فسوف يموت ، جعل الله عزَّ وجلّ ما عنده خيراً من هذه الدنيا الدنية ![2] وجزاك الله عن خاصتنا وعامتنا خير الجزاء ! فنعم أخو الإسلام أنت لنا شاهداً وغائباً ، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما ورد كتاب معاذ بن جبل على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقرأه استعبر باكياً ، ثم نعاه إلى جلسائه فجزعوا عليه وبكوا بكاءً شديداً وترحموا على أبي عبيدة .

قال : واشتد الطاعون بالشام وفشا الموت في الناس ، فقال عمرو بن العاص : أيها الناس[3] ! إن هذا الوباء قد وقع فيكم . إنما هو وخز من الجن ، فمن أقام به هوى ومن انحاز عنه نجا .

قال : فبلغ قوله معاذ بن جبل فكأنه غضب لذلك ثم قال : ويح عمرو بن العاص ! إنه ليقول ما ليس له به علم ، أتراه قد صار ؟

ثم نادى معاذ بن جبل في المسلمين فجمعهم حتى تكاملوا عنده ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه قد بلغني كلام عمرو بن العاص في هذا الوباء الذي يبتلي الله عزَّ وجلّ به من يشاء من خلقه ؛ والله لقد أسلمنا وصلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وان عمراً يومئذ لأضل من حمار شارد عن أهله ، وليس الأمر في الوباء كما قال عمرو بن العاص ، لكنها رحمة من ربكم ودعوة نبيه صلى الله عليه وسلم وميتة الصالحين من قبلكم[4] . ثم قال : اللهم ! أعط معاذاً وآل معاذ من هذا

---

(١) سقطت البسملة عند الأزدي والوثائق .

(٢) عند الأزدي : وإن أبقانا أو أهلكنا فجزاك . .

(٣) في الطبري ٤ / ٢٠٢ إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار . وعند الأزدي ص ٢٦٩ إن هذا الطاعون هو الرجز الذي عذب الله به بني إسرائيل مع الجراد والقمل والضفادع والدم .

(٤) راجع الصفحة السابقة حاشية رقم ٦ . وانظر مسند أحمد ٤/١٩٥ ـ ١٩٦ .

الوباء الحظ الأوفر ، إنك على كل شيء قدير .

ذكر وفاة معاذ وولده عبد الرحمن

قال : ثم انصرف معاذ بن جبل إلى منزله فإذا بابنه قد نزل به الطاعون ، فلما نظر إليه معاذ على تلك الحالة[1] قال : يا بني ! ﴿ **الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ ؛ فقال عبد الرحمن : يا أبة ﴿ **ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾[1] . قال : ثم مات عبد الرحمن بن معاذ رحمة الله عليه ، فأمر بغسله وكفنه وحنوطه ، ثم صلى عليه ودفنه .

فلما رجع إلى منزله نزل به ما نزل بابنه من الطاعون ، فسقط على فراشه ، فجعل المسلمون يختلفون إليه ويدعون له بالسلامة والعافية ويخافون عليه من الموت ؛ فكان لا يدخل عليه قوم منهم إلا وعظهم وقال : أيها الناس ! اعملوا وأنتم[2] تستطيعون العمل[2] من قبل أن تتمنوا العمل فلا تجدون إلى ذلك سبيلاً ، أيها الناس ! أنفقوا مما عندكم ليوم معادكم من قبل أن تهلكوا وتذروا ذلك كله ميراثاً ، واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أكلتم فأفنيتم ، ولبستم فأبليتم ، وأنفقتم وأعطيتم ما مضيتم ، وما سوى ذلك فللوارثين .

قال : فقال رجل من الصحابة : يا أبا عبد الرحمن رحمك الله ! عظني[3] موعظة لا أحتاج فيها إلى غيرك ، فقد علمت أني لا أذهب إلى أحد مثلك ، قال : فنظر إليه معاذ وقال : يا هذا ! إن صلحاء المسلمين كثير ، ولن يضيع الله عزَّ وجلَّ أهل هذا الدين ، ولكن خذ عني ما آمرك ، كن من الصائمين بالنهار ، القائمين بالليل ، المستغفرين بالأسحار ، الذاكرين الله كثيراً على كل حال ، ولا تشرب الخمر ، [ولا تزنينّ] ولا تعق والديك ، ولا تأكل مال اليتيم ، ولا تقذف المحصنات ، ولا تفرّ من الزحف ، ولا تأكل الربا ، ولا تدع الصلاة المكتوبة ، ولا تمنع الزكاة المفروضة ، وصل رحمك ، وكن بالمؤمنين رحيماً [ولا تظلم مسلماً ، وحج ، واعتمر ، وجاهد][4] ؛ فإذا فعلت ذلك فأنا زعيم لك بالجنة .

---

(١) سورة آل عمران : ٦٠ .

(٢) عند الأزدي ص ٢٦٩ وأنتم في مهلة وحياة ، وفي بقية من آجالكم .

(٣) الأزدي : علمني شيئاً ينفعني الله بك قبل أن تفارقني فلا أراك ولا تراني ، ولا أجد منك خلفاً ، ثم لعلي أن أحتاج إلى سؤال الناس عما ينفعني بعدك .

(٤) ما بين معكوفتين زيادة عن الأزدي .

قال : ثم غمي عليه ساعة ، فإذا أفاق من غشيته قال : اللَّهم اغفر لي ذنوبي فيما مضى من عمري ! فأنا أشهد أنك تعلم أني أحبك .

قال : وأغمي عليه ثانية فقام الناس وخرجوا من عنده ، وجاءه الليل واشتدّ به الأمر فقال لجاريته : يا فلانة ! انظري هل أصبحنا ، فنظرت الجارية ثم قالت : لا ، فسكت ساعة ثم قال : يا جارية ! انظري هل أصبحنا ، فنظرت الجارية وقالت : لا ، فسكت ساعة ثم قال : يا جارية ! انظري هل أصبحنا ، فنظرت ثم رجعت فقالت : نعم ، فقال معاذ : أعوذ بالله من ليلة يكون صباحها إلى النار ! ثم قال : مرحباً بالموت ! مرحباً به زائراً جاء على فاقة ! لا أفلح بعد الممات من ندم ، اللهم ! إنك تعلم أني لم أكن أحب هذه الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن[1] كنت أحبها لمكابدة الساعات[1] وظمأ الهواجر ومزاحمة العلماء في حلق الذكر .

فقال له رجل من الصحابة[2] : يا أبا عبد الرحمن ! زدنا رحمك الله ! زدنا من مواعظك وأوصنا بوصية نأخذها عنك ، فإنا لا نلتقي في هذه الدنيا ؛ فقال معاذ : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها ليست ساعة الكذب هذه الساعة ، إنه لا يموت عبد من عبيد الله وهو يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور[3] إلا وأدخله عزَّ وجلّ الجنة وحرم عليه النار .

قال : فقال له عبد الرحمن بن غنم الثمالي : زدنا رحمك الله ! فقال معاذ : نعم ، عليكم بطلب العلم ، فاطلبوه وتعلموه ، فإن طلبه عبادة ، وتعلمه لله خشية ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل الجنة ، والأنس في الوحشة والمحدث في الخلوة ، والصاحب في الغربة ، والسلاح على الأعداء ، والتزين عند الأخلاء ، والتقرب والدليل على السراء والضراء ، يرفع الله عزَّ وجلّ به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم ، وأئمة في الخير يقتص آثارهم ويهتدى بهدايتهم وأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، [و] بأجنحتها

---

(١) عند الأزدي ص ٢٧١ : ولكني كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل وطول الساعات في النهار .

(٢) هو عبد الله بن الديلمي كما في فتوح الأزدي ص ٢٧١ .

(٣) زيد عند الأزدي : ويؤمن بالرسل ، وبما جاءت به أنه حق ، ويؤمن بالجنة والنار .

تمسحهم ، وفي صلاتها يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامّه وسباع البر وأنعامه ؛ لأنّ العلم حياة القلب من العمى ، و[نور] الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ؛ يبلغ العبد بالعلم منار الأبرار ومنازل الملوك والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ؛ الفكرة فيه تعدل بالصيام ومدارسته تعدل بالقيام ، به يطاع ربنا ويعبد ، وبه يعمل له ويحفد ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال من الحرام ، يرزقه الله عزّ وجلّ السعداء ويحرمه الأشقياء ؛ ألا ! وإن المتقين سادة ، والفقهاء قادة ، والنظر إليهم عبادة ، والجلوس إليهم بركة وزيادة .

قال : ثم شهد معاذ بن جبل شهادة الحق وتوفي - رضي الله عنه -. وقد استخلف على المسلمين عمرو بن العاص ، وهو الذي صلى عليه وأدخله قبره في رجال . فلمّا خرجوا وحثوا عليه التراب قال عمرو بن العاص : رحمة الله عليك يا معاذ ! فلقد[1] كنت ناصحاً للمسلمين عظيم الغنى عن جماعتهم[1] ، كنت مؤدّباً للجهال ، شديداً على الفاجر [رحيماً بالمؤمنين][2] وأيم الله لم نجد بعدك مثلك أبداً .

قال : ثم كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[3] : بسم الله الرحمن الرحيم[4] ، لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، أما بعد ! فإنه قد حدث من قضاء الله الذي كتبه على عباده أن توفي معاذ بن جبل رحمة الله عليه ، فعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في معاذ وأجرنا معك ! وقد استأذنني المسلمون في التنحي عن القرى والمدن إلى البراري والفلوات فأذنت لهم في ذلك وعلمت أن إقامة المقيم لا يفوته شيء من أجله ، وكذلك الهارب لا[5] يفوت ربّه ولا[6] يتعدى ما قدّر عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[7] .

---

(١) عند الأزدي ص ٢٧٢ فقد كنت ما علمناك من فصحاء المسلمين ، ومن خيارهم ومن أعلامهم .
(٢) عن الأزدي .
(٣) نسخته في فتوح الأزدي ص ٢٧٣ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٧ / د . ص ٤٩٠ .
(٤) سقطت البسملة عند الأزدي والوثائق .
(٥) عند الأزدي : لا يباعده من أجله .
(٦) عند الأزدي : ولا يدفع به قدره .
(٧) من هنا سقطت العبارة من الأصل وقد أثبتنا بين معكوفتين ترجمة الفارسية لهذا الكتاب ص ٧٣ - ٧٦ .

[وحين وصلت رسالة عمرو بن العاص إلى عمر رضي الله عنه حول وفاة معاذ بن جبل الذي قضى على إثر أبي عبيدة ، بكى كثيراً[١] ، كما تحسر المسلمون على ذلك . ثم قال عمر : رحم الله معاذاً فقد كان رجلاً عالماً وزاهداً ، ولقد كانت وفاته أوجدت ثغرة كبيرة في المسلمين ، وقد حرم الناس من علمه وفضله فقد كانوا يشاورونه في أمهات المسائل وكان يفيدهم بعلمه وفضله الشيء الكثير . جعل الله جزاءه أفضل ما جازى به العباد الصالحين وجعل مقره في جنات النعيم . ثم رأى أمير المؤمنين أن المصلحة في تفويض الإمارة ليزيد بن أبي سفيان على سائر المدن التي فتحها المسلمون وجميع الجيوش الموجودة في الشام وأن يفعل ما يراه صالحاً ثم كتب له رسالة بهذا المضمون[٢] :

بسم الله الرحمن الرحيم . . .[٣]

من أمير المؤمنين عمر إلى يزيد بن أبي سفيان :

اعلم أنه بعد أن مات كل من الأمراء : أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل وخالد بن الوليد ، فإن زمام أمور جيش المسلمين قد سلمت لك . فنفّذ ما جاء في هذه الرسالة كما هو معهود بك من شهامة كاملة وحصافة في الرأي حتى يفرغ بالنا عن هذا الثغر ، ولقد أرسلت الرسائل إلى بقية وجوه الجيش بأن يتبعوا يزيد بن أبي سفيان[٤] وأن لا يخالفوه في قول أو فعل . وحين تصل إليك هذه الرسالة ، اجمع الجيش ثم انطلق به وبأصحابك نحو قيسارية واجتهد بألّا تغادر تلك المدينة حتى تفتحها ، فإنك بذلك تقطع طمع هرقل في ولاية الشام ، فأدرك هذا المعنى ثم سر على بركة الله .

ولما وصلت رسالة أمير المؤمنين إلى يزيد بن أبي سفيان والأمراء وقادة

---

(١) عند الأزدي : جزع عليه جزعاً شديداً ، وبكى عمر رحمه الله والمسلمون ، وحزنوا حزناً شديداً .

(٢) نسخة الكتاب في فتوح الأزدي ص ٢٧٦ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٧ / و ، ز باختلاف النصوص .

(٣) سقطت البسملة عند الأزدي .

(٤) نص رسالة عمر إلى أمراء الأجناد ـ نسخة واحدة عن الأزدي ص ٢٧٦ أما بعد ، فقد وليت يزيد بن أبي سفيان أجناد الشام كله ، وأمرته أن يسير إلى قيسارية ، فلا تعصوا له أمراً ولا تخالفوا له رأياً ، والسلام .

الفرسان ، اطلعوا على مضمونها . سُرّوا بإمارة يزيد وأطاعوا أمر أمير المؤمنين وبناء على إشارة أمير المؤمنين[1] جمع الجيش واتجه صوب قيسارية ، ثم نزل في منزل يقال له « الكسوة » من أطراف دمشق . وأقاموا هناك عدة أيام حتى تجتمع الجنود . ثم وقف يزيد بن أبي سفيان خطيباً في الجيش فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال[2] : أيها الناس ، إن أمر أمير المؤمنين قد وصل إلي وفيه يأمرني بأن أسير بكامل الجيش نحو قيسارية وأن أدعو أهل تلك المنطقة إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . فإن قبلوا الإسلام والإيمان فهو المراد وإلا فسنحاربهم ونستعين بالله على فتح تلك البلدة . هذا هو الحال لتعلموا وتوطنوا قلوبكم على الغزو والجهاد ، وتستبشروا بالغنيمة والفتح والثواب والشهادة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحين فرغ يزيد من خطبته ، اتجه الجيش إلى قيسارية ، وحين وصلوها وجدوا كبار الروم وبطارقتهم وقواد هرقل مع جيش كثيف فانطلق حبيب بن مسلمة الفهْري الذي كان على مقدمة جيش يزيد بن أبي سفيان ونزل قرب قلعة قيسارية وأخذ في الحصار . فرأى أن الجيش قد خرج من القلعة واتجهوا للقتال ضده وحملوا على حبيب وجيشه وهزموهم إلى معسكر يزيد . وحين رأى يزيد الحال أخذ في تعبئة الجيش فأعطى الميمنة[3] للأشتر النخعي وجعل على الميسرة الضحاك بن قيس الفهري ، كما أعطى الجناح لعبادة بن الصامت ، وعلى هذا الأساس انطلق حتى وصلوا إلى بوابة قلعة قيسارية فخرج إليهم جيش الروم والتحموا معاً حتى التقت رؤوس الخيل فنادى يزيد بن أبي سفيان : أيها المسلمون : اثبتوا وحاذروا من الفرار الذي يوصل الإنسان إلى نار جهنم ، وبالخسارة للدنيا والآخرة . وحين سمع المسلمون هذا الكلام اشتدت عزيمتهم على الحرب وظلوا يحاربون من طلوع الشمس إلى غروبها حتى أظفرهم الله على عدوهم ، فهرب الروم من أمامهم فلحق بهم المسلمون فقتلوا منه خلقاً كثيراً وبعضهم التجأ إلى القلعة فنزل يزيد على بوابتها

(١) كتب يزيد بن أبي سفيان إلى أمراء الأجناد ـ نسخة واحدة (عن الأزدي ص ٢٧٦) : أما بعد فإني قد ضربت على الناس بعثاً ، أريد أن أسير بهم إلى قيسارية فأخرجوا من كل ثلاثة رجلاً ، وعجلوا اشخاصهم إليّ ، والسلام .

(٢) قارن مع الأزدي ص ٢٧٨ وفيه اختلاف .

(٣) عند الأزدي : عبادة بن الصامت الأنصاري على الميمنة . وورد حبيب بن مسلمة على الخيل .

وأخذ يناوشهم ، وهكذا قاتل الروم أكثر من مرة وكان النصر حليفاً للمسلمين . ولما رأى الروم أن الحرب تجري على منوال واحد لم يخرجوا من القلعة . فجمع يزيد بن أبي سفيان عدة من وجوه الجيش وذوي الرأي وشاورهم حول الموقف قائلاً : إننا في هذا المكان نعاني من قلة العدد في الدواب وجيشنا كبير ونحن عاجزون عن تأمين العلف ويتعذر علينا البقاء هنا وليست هناك حاجة لجميع الجيش فالرأي عندي أن يبقى جماعة من الجيش على حصار هذه القلعة فإن خرجوا إليهم قاتلوهم وإلا ظلوا محبوسين داخل القلعة ، ثم يذهب القسم الآخر إلى دمشق فأجابوه : الرأي هو ما رأيت ولا نزيد عليه شيئاً . حينئذ دعى يزيد شقيقه معاوية وسلمة أربعة آلاف فارس من خيرة الجنود وأمره بأن يقيم حول القلعة فإن خرج إليه أحد من أهلها قاتله وإلاّ فإنهم يظلون محصورين إلى أن يأذن الله بوسيلة لهذا الأمر . فقبل معاوية ذلك فتركه يزيد هناك وانطلق ببقية الجيش نحو دمشق . وحين رأى جيش الروم أن يزيد قد عاد وأن معاوية ليس معه سوى عدد قليل من الجند ، رأوا أن الوقت قد حان لإزالتهم . فغلبهم الطمع وخرجوا من القلعة بجيش مرتب وعدد كبير وشرعوا بالحرب فقابلهم معاوية بجيشه ووقعت حرب شديدة ولكن العاقبة كانت لصالح المسلمين ، وقتل من الروم أكثر من عشرة آلاف وفر الباقون والتجأوا إلى القلعة ، ثم فكروا بأنهم لا طاقة لهم بالحرب فالمسلمون أشجع منهم وشوكتهم وقوتهم أكثر منهم . والدولة أيضاً لهم ، وأن المصلحة في إجراء الصلح معهم .

في اليوم الثاني أرسلوا شخصاً إلى معاوية وطلب الصلح على أساس أن يترك معاوية البلد ويقدموا له عشرين ألف دينار نقداً ويقدموا الجزية وبعد ذلك يصبحون مطيعين : فكتب معاوية إلى أخيه رسالة شرح له فيها الوقائع التي حصلت ومطلب أهل قيسارية حول الصلح فأجابه يزيد بالموافقة على الصلح . حينئذ ، كتب معاوية عهد الصلح[1] ثم أدّى أهل البلد المبلغ المقرر ، ثم سار معاوية مع الجيش إلى

(١) كذا بالأصل ، وفتوح البلدان ص ١٤٦ . أما بالنسبة إلى قيسارية فقد اختلفوا في سنة فتحها وعلى يد من فتحت ؟

قيل فتحت سنة ١٥ وقيل سنة ١٩ وقيل سنة ٢٠ وقد ذكر الطبري وابن الأثير فتحها سنة ١٥ . وذكر اليعقوبي فتحها سنة ١٨ .

وفيمن فتحها أقوال : فالطبري وابن الأثير واليعقوبي وابن كثير فتحها معاوية بن أبي سفيان بأمر مباشر من عمر بن الخطاب . وذكر في الطبري ٤ / ١٥٦ كتاب عمر إليه : أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر =

دمشق وانتهى أمر قيسارية على هذا النحو . ثم كتب يزيد رسالة إلى أمير المؤمنين[1] ، عمر ، رضي الله عنه ، ذكر فيها الوقائع التي جرت مع أهل قيسارية والصلح الذي انتهوا إليه كما أرسل إليه خمس المال . وحين اطلع أمير المؤمنين على ما جرى ، سر سروراً عظيماً وشكر الله على ذلك وأجاب على رسالة يزيد بما يلي[2] :

أما بعد ، فاعلم بأن رسالتك قد وصلت وفهم مضمونها وسررت بخبر فتح قيسارية وحمدت الله على ذلك الذي أراح بالي من هذه المهمة ووسع عليكم في الرزق وقهر عدوكم وحقق آمالكم فاشكروا الله على نعمه الذي تزداد نعمه بالشكر ، وتدوم السعادة ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ . والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم جاء الخبر إلى أمير المؤمنين بأن الروم قد جمعوا جيشاً عظيماً في منطقة الجزيرة . وقد اجتمعت عدة عظيمة من الفرسان والرجّالة ومعهم الآلات والعدد الوفيرة ، فجمع أمير المؤمنين الأنصار والمهاجرين وكبار الصحابة وأخبرهم بما جرى وقال : إن بلاد الشام لا يمكن فصلها عن منطقة الجزيرة ، وما لم نحكم الجزيرة فلن يحصل لنا مقصود وعيشنا سيكون منغصاً ، وقد التقى الروم هناك وقد عزموا على التحرك ، وإني قد دعوتكم لتفكروا بهذا الأمر وأن تخبروني بما تروه صالحاً وصائباً في هذا الموضوع . ومن ترونه أهلاً للقيام بهذا الأمر حتى يستريح خاطرنا من هذه الجهة فلقد توفي في الشام معظم القادة العظام الذين كانوا هناك ولم يبق منهم سوى يزيد بن أبي سفيان وهو من رجال المهمات العظيمة وهو الآن في دمشق . وتلك

= إليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير .

وقال الواقدي : اختلف علينا في أمر قيسارية ، فقال قائلون : فتحها معاوية ، وقال آخرون بل فتحها عياض بن غنم ، وقال قائلون : بل فتحها عمرو بن العاص ، (انظر فتوح الشام للواقدي ٢ / ٣٥ وفتوح البلدان ص ١٤٦) .

قال الواقدي : صالح أهل قيسارية عمرو بن العاص على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه إلى ذلك ، وكتب لهم كتاب الصلح . ودخلها يوم الأربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة تسع عشرة . وهو الثبت قاله البلاذري .

(١) نسخة الكتاب في الوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٥٧ / ط ، ي ص ٤٩٢ - ٤٩٣ باختلاف ، وبعث الرسالة مع رجلين من جذام (اليعقوبي ٢ / ١٥١) .

(٢) الوثائق السياسية وثيقة ٣٥٧ / ط ، ي .

الولاية منضبطة بسببه ولا يمكن تركها بدون أن يقوم بأمورها شخص رشيد مثله . فسموا لي رجلًا موصوفاً بالشجاعة والعقل والتقوى ويكون قادراً على إنجاز هذه المهمة لكي أبعث به لفتح بلاد الجزيرة . وبعد التفكر الدقيق قرّ رأيهم على أن عياض بن غنم الفهري هو الشخص المطلوب لمثل هذه المهمة ، فهو رجل فارس مشهور وتقي فقبل به عمر ورآه رجل الساعة ، ومن ثم أرسل له رسالة(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم . . .

هذا كتاب من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين إلى عياض بن غنم الفهري أما بعد ، سلام عليك .

لقد وجدناك حريصاً على مصلحة المسلمين ورأيناك تنصح المسلمين وتحرضهم على اتباع طريق الخير وإحياء معالم الطاعة ، كما أن أسلافك على نفس هذا النهج الممدوح المقبول ، فبشرى لك بالثواب الجزيل والثناء الجميل في الدنيا والآخرة وبما أن سيرتك وسريرتك على هذا الأساس فإني أرجو لك أن تحقق آمالك في الدين والدنيا وأن يكون ذكرك حسناً وخالداً إن شاء الله . واعلم الآن بأن قواد الروم قد اجتمعوا في بلاد الجزيرة ، لذا فإنني عازم على إرسال جيش لمقابلتهم وأحتاج إلى قائد شجاع وعاقل يخاف الله وقد تذاكرنا حول هذا الموضوع وتشاورنا مع وجهاء الصحابة فأجمعت الآراء على انتخابك أنت لهذه المهمة ، وظننا أنك كفوء لهذا الأمر . فمتى وصلك كتابي هذا ، اختر قسماً من جيش يزيد بن أبي سفيان ، ثم توجه إلى بلاد الجزيرة واجعل التقوى شعارك . واتق الله في السر والعلن ، واجعل في الأمور المهمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسنة خليفته الصديق إماماً لك في جميع أمورك] انتهى(٢) .

بكتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه محمّد ﷺ وسنّة الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد رأيت وشاهدت ما فتح الله عزَّ وجلّ من أرض الشام في

---

(١) كذا . وعند الطبري ٤ / ١٩٦ أن عمر بن الخطاب أرسل كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص أن يرسل جيشاً إلى الجزيرة ويؤمر عليهم أحد ثلاثة . . . أو عياض بن غنم . . . فخرج عياض إلى الجزيرة .
وفي فتوح الشام للواقدي ٢ / ٩٧ أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي عبيدة كتاباً وفيه . . . فاعقد عقداً لعياض بن غنم الأشعري ! وجهز معه جيشاً إلى أرض ربيعة وديار بكر .

(٢) إلى هنا ينتهي ما سقط من الأصل واستدركناه عن الترجمة الفارسية .

القلة والكثرة من عدوكم ؛ وقد سمعت ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق إذ أقبل علينا فقال : « ليفتحن عليكم أرض كسرى وقيصر وليغنمنكم الله أموالها »[1] ؛ فقد رأيت ذلك يا عياض وشهدت منه ما شهدت ، وقد صدق الله عزَّ وجلّ قول نبيه عليه السلام في ذلك وأظهركم على عدوكم ، فصاروا ذمة لكم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقد هرب رئيس الكفرة هرقل صاحب الروم خائفاً وجلاً منكم ، حتى صار إلى أقاصي الروم فزعاً مرعوباً شريداً طريداً ، وذلك بفضل الله ونعمته وحوله وطَوله ، فإني قد كتبت إلى يزيد بن أبي سفيان أن يمدّك بجند تقوى بهم إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله .

فلمّا ورد كتاب عمر على عياض بن غنم نادى في المسلمين وأقرأهم الكتاب ثم ندبهم إلى المسير إلى بلاد الجزيرة ، فأجابوه إلى ذلك سراعاً . قال : فانتخب عياض خمسة آلاف رجل من عسكر يزيد بن أبي سفيان من أهل البأس والشدّة على دواب فُرُه وسلاح شاك وعدة كاملة وتعبية حسنة ، ثم خرج من الشام يوم الخميس للنصف من شعبان[2] ، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي ، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم ، وعلى ميسرته[3] عبد الله بن سعيد السعدي ، وعلى ساقته صفوان بن المعطل السلمي ؛ وسار حتى صار إلى الرقة[4] .

ذكر فتح مدينة الرقة من بلاد الجزيرة

قال : وبالرقة يومئذ جمع من الروم عظيم ، فنزل عياض بن غنم قريباً من سورها ، ثم بث السرايا حولها ، فغنم المسلمون غنيمة حسنة .

قال : وأشرفت الروم من حيطان الرقة ، فجعلوا يرمون بالحجارة والنشاب ؛

---

(١) روى أحمد في مسنده روايتين بهذا المعنى ٤ / ١٢٨ و ٥ / ٢٨٨ .

(٢) وذلك سنة ١٨ كما في فتوح البلدان ص ١٧٧ . وفيما نقله الطبري عن سيف بن عمر سنة ١٧ ، وقال ابن إسحاق سنة ١٩ .

(٣) في فتوح البلدان : على ميسرته صفوان بن المعطل السلمي وكان خالد بن الوليد على ميسرته (كذا) ويقال إن خالد لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة (فتوح البلدان ص ١٧٧) .

(٤) الرقة : مدينة مشهورة على الرقة . قال ياقوت : أرسل سعد والي الكوفة في سنة ١٧ جيشاً عليه عياض بن غنم فقدم الجزيرة ، فبلغ أهل الرقة خبره . . . فبعثوا إلى عياض في الصلح فقبله منهم (معجم البلدان) .

فلمّا كان الليل خرج عياض بن غنم في قريب من ثلاثمائة فارس ، حتى صار إلى باب يقال له باب جروان[1] ، وذلك بعد ثلاث ساعات من الليل أقل أو أكثر . قال : وإذا بجماعة من الروم على ذلك الباب وقد أوقفهم صاحب الرقة عليه وأمرهم بحفظه ؛ قال : وقد شرب القوم شراباً فسكروا . فلما أشرفت عليهم خيل المسلمين في جوف الليل فزعوا لذلك ثم وثبوا إلى أسلحتهم ودوابهم ، وعاجلهم المسلمون فقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا الباقين فكتفوهم وأتوا بهم إلى عسكرهم في وقت السحر .

قال : وأصبحت الروم وقد بلغهم ذلك ، فأشرفوا على أبراج المدينة ، فنظروا إلى أصحابهم مأسورين وقد قتل منهم من قتل ، فجزعوا لذلك جزعاً شديداً .

قال : ثم أرسل بطريق الرقة إلى عياض بن غنم : إن رأيت أن تأذن لي في كلامك ! فأرسل إليه عياض بن غنم : إن أردت كلامي فانزل إليّ وكلمني ؛ قال البطريق : إني أخاف أن أقتل من قبل أن أصل إليك ، فأرسل إليه عياض : إنك آمن على نفسك حتى ترجع إلى مأمنك ؛ قال : فاكتب لي أماناً يكون لي ولعشرة معي ، قال : فكتب له عياض أماناً وبعث إليه منشوراً قد ختمه بخاتمه .

قال : فنزل بطريق الرقة ومعه عشرة من بطارقته ، عليهم الحرير والديباج ، وفي أوساطهم مناطق الذهب المرصعة بالجوهر ، حتى وقفوا بين يدي عياض قال : فرفع عياض رأسه فنظر إلى بطريق الرقة في زيه ذلك ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : اسمي بنطس[2] ؛ فقال عياض : قل ما تشاء وسل ما بدا لك ! قال بنطس : أيها الأمير ! ما اسمك ؟ قال : اسمي عياض ، قال : ابن من ؟ قال : ابن غنم : قال : فحرك البطريق رأسه ثم نظر إلى أصحابه وتبسم ؛ ثم قال : إلى ما تدعو ؟ قال عياض : أدعو إلى قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا قلتم ذلك وصمتم وصليتم وأديتم زكاة أموالكم وأحللتم ما أحل الله لكم وحرمتم ما حرمه عليكم فقد حرمت علينا دماؤكم وأموالكم إلا بحقها ، وحسابكم على الله . قال بنطس : فإن لم نقل ذلك ؟ قال عياض : فإن لم تقولوا ذلك فأدّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وكونوا لنا ذمة وقروا في دياركم على دينكم ونحن نذب عنكم من بغاكم من أعدائكم ؛ قال بنطس : أيها الأمير ! فإني أقيم على ديني ولا أفارقه

---

(١) كذا ، ولم نجده .

(٢) في فتوح الشام للواقدي ٢ / ٩٨ « يوحنا » .

وأصالحك على ما تريد .

قال : فصالحه عياض على عشرين ألف دينار عاجلة ، وعلى أنه وضع على كل محتلم منهم في كل سنة أربعة دنانير[١] ، وكلما أدرك منهم غلام يلحق بالجزية ، وعليهم بعد ذلك العشر في مواشيهم ، وعليهم الضيافة للمسلمين إذا نزلوا بهم ثلاثة أيام ، فما كان بعد ذلك فلا يؤخذ منهم شيء إلا بثمنه . قال : فرضي بذلك بنطس بطريق الرقة بما صالحه عليه ، وأشهد عليه المسلمين وختمه بخاتمه ودفعه إليه[٢] .

ثم قال لبنطس : أسألك عن شيء فخبرني ! قال بنطس : وما ذاك أيها الأمير ؟ فقال : رأيتك سألتني عن اسمي وأخبرتك ، ثم استخبرتني عن اسم أبي فأخبرتك ، فالتفت إلى أصحابك وتبسمت . فلماذا كان ذلك ؟ قال بنطس : إن الصدق لا يعدله شيء ، والكذب عندنا أقبح الأشياء ، أيها الأمير ! إني أنا بطريق هذه المدينة وابن بطارقتها ، وكذلك آبائي وأجدادي ما زالوا يتوارثون بطرقة هذه المدينة في الزمن القديم ، غير أن الفرس قد كانوا تغلبوا علينا وقهرونا وتولوا علينا في مدينتنا هذه ، وقد كان غضب علينا هرقل ملك الروم فأرسل إلينا القبط ، فنزلوا علينا وآذونا غاية الأذى ، وقد كنا على يقين أن ملكنا يعود إلينا للذي أصبناه في كتبنا أن مدينتنا هذه لا يغلب عليها أحد ولا يعطون لأحد الطاعة إلا لرجل عربي يقال له غنم أو ابن غنم ، فلما سألتك عن اسمك وخبرتني به ظننت أنك صاحبنا فأشرت إلى أصحابي وخبرتهم بما يعلمون ؛ فقال له عياض : ويلك يا بنطس ! فأنتم أهل كتاب وعلم وتجدون عندكم نعت نبينا محمد (صلّى الله عليه وسلم وآله) وصفته أفلا تتبعونه ؟ قال : فقال بنطس : إي والمسيح ابن مريم! لقد بشرنا في الإنجيل باسم محمد [صلى الله عليه] وآله وصفته ، وإنه لعربي وهو خير الأنبياء ، وأمته خير الأمم يوم القيامة ، وهو الذي يركب الحمار ويلبس الشملة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وما نظنه إلا من بني إسرائيل ؛ فقال عياض : تظنونه من بني إسرائيل وأنتم تجدونه في كتبكم عربياً ؟ قال بنطس : إنا ظننا أنه يتكلم بالعربية ولا يكون عربياً ؛ وأعلمك أيها الأمير أني دعوت

---

(١) في فتوح البلدان ص ١٧٧ : دينار في كل سنة ، ويقال : أربعة دنانير .

(٢) نسخة كتاب عهد عياض إلى أهل الرقة (عن فتوح البلدان ص ١٧٨) :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيلة وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً . شهد الله . وكفى بالله شهيداً .

قومي هؤلاء من أهل الرقة إلى دينكم فأبوا عليّ وقالوا : إن قلت هذا الكلام قتلناك ، فلذلك خفتهم على نفسي ، فهذه قصتي وهذا حالي . فعجب عياض بن غنم من صدق البطريق ، وأقام بالرقة أياماً ثم رحل منها .

ذكر فتح مدينة الرُّهاء من بلاد الجزيرة

قال : وأهل الرهاء[1] قد بلغهم يومئذ خبر عياض بن غنم وفتح الرقة فجزعوا لذلك جزعاً شديداً وقد جمعوا الأطعمة والأشربة والعلوفة إلى مدينتهم وهم على خوف شديد من المسلمين ، قال : وقد هيئوا العرّادات على أبرجة المدينة وقد جمعوا الحجارة وعزموا على حرب المسلمين .

قال : فلم يشعروا إلا والخيل قد وافتهم بالتكبير والتهليل ، فلما سمع أهل الرهاء ذلك أخذهم الخوف وهم في ذلك يتجلّدون ويتشجعون ؛ قال : وتقاربت خيل المسلمين من المدينة ، قال : وتقدمت الرايات والألوية ، فجعل أهل الرهاء يقول بعضهم لبعض : القوم في عشرين ألفاً أو يزيدون وما نظن أن لنا بهم طاقة .

قال : وأقبل عياض بن غنم والكتائب عن يمينه وشماله يتلو بعضهم بعضاً ، حتى نزل وضرب عسكره على الباب الأعظم من أبواب الرُّهاء ـ وهو الباب الذي يخرج منه إلى أرض الروم ـ. قال: والتحم الأمر بين الفريقين، فاقتتلوا خمسة عشر يوماً لا يقرّون ليلاً ولا نهاراً . قال : وجعل أهل الرهاء ينظرون إلى رجال أبطال فرسان في متون الخيل ، فعلموا أنه لا طاقة لهم بالمسلمين ، فاستغاثوا إلى بطريقهم الأكبر ـ واسمه ميطولس ـ فقالوا : أيها البطريق ! إنه لا طاقة لنا بهؤلاء العرب ، فإما أن تصالحهم كما فعل أهل الرقة وإلا سلّمنا إليهم المدينة .

قال : فلما نظر البطريق إلى الجزع والفشل أرسل إلى عياض بن غنم يسأله الصلح على أن يعطيه ما أعطاه أهل الرقة ؛ فأجابه عياض إلى ذلك ، فكتب له[2] ولأهل المدينة كتاباً بالصلح[3] وأشهد عليه المسلمين . ثم نادى عياض في عسكره :

---

(١) الرهاء : بضم أوله ، والمد ، والقصر ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٢) نسخة كتاب عياض بن غنم لأسقف الرها في فتوح البلدان ص ١٧٨ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٦٠ .

(٣) نسخة كتاب عياض بن غنم لأهل الرها في فتوح البلدان ص ١٧٩ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٦١ .

ألا ! إن أهل الرهاء في ذمتنا وعهدنا ، فلا تؤذوهم ولا تدخلوا عليهم في منازلهم إلا بإذن . قال : فكفّ المسلمون عن محاربة أهل الرهاء ، وأخذ عياض منهم ما صالحهم عليه ؛ وأعجبته المدينة وأقام بها أياماً .

قال : واصطنع له ميطولس بطريق الرهاء طعاماً كثيراً ثم جاء إليه فقال : أيها الأمير ! إني قد فرشت الكنيسة العظمى وقد أحببت أن تتغذى عندي أنت ومن شئت من قومك ، وتكرمني بإجابتك إياي إلى طعامي ، حتى ترى أصحابي إكرامك لي ؛ قال فقال عياض : يا ميطولس ! لو فعلت ذلك بأحد من أهل دينك لفعلته بك ، غير أني رأيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل بيت المقدس اصطنع له البطريق طعاماً ودعاه إليه فلم يجبه عمر إلى ذلك ، وأنا أيضاً لا أحب أن أفعل ما لم يفعله عمر ؛ قال ميطولس : أيها الأمير ! فمر أصحابك يجيبوني إلى ذلك ؛ قال : ما كنت بالذي آمرهم ولا أنهاهم .

قال : فبقي الطريق واقفاً بين يدي عياض لا يدري ما يقول ، فقال له عياض : أيها البطريق ! إنما أنت تفعل بنا ذلك خوفاً على أرضك ، وإنما يجب عليك أن تفعل هذا بمن يأتيك من بعدنا ، فأما نحن فقد وفينا لك بالصلح ، فلا تخف منا ظلماً ولا أن نحملك ما لا تطيق ! قال : فانطلق البطريق إلى أصحابه وهو يقول : هذا أفضل رجل يكون .

قال : وإذا امرأة نصرانية قد أقبلت على عياض بن غنم مع ابن عم لها فاختصمت إليه في شيء كان بينهما ، قال : فقضى عياض للرجل على المرأة بالحق ؛ ثم إنه نظر إليها وتأملها فرأى لها حسناً وجمالاً فقال لها : لكِ زوج ؟ فقالت : لا ، فقال : هل لك في زوج ؟ فقالت : ما أحوجني إلى ذلك إن كان الزوج على ما أريد ؛ قال عياض : فإن كان الزوج على ما تريدين أتخرجين من دين النصرانية وتدخلين في دين الإسلام ؟ فقالت له : ما أفارق دين النصرانية أبداً ، وما على الزوج مني ؟ له دينه ولي ديني ، قال : فهمّ عياض أن يتزوجها ، ثم قال : أمير قوم يتزوج بكافرة ، هذا ما لا يحسن ، فأعرض عنها وتركها . فجاءها رجل من أصحاب عياض فخطبها ، فقالت : أنا خطبة أميرك وليس لي في غيره من حاجة ؛ قال : ثم إن هذه المرأة اصطنعت لعياض طعاماً كثيراً وأرسلت به إليه ، فقبله منها ووهب لها جارية مما صار إليه من سهمه .

خبر بسر[1] بن أرطأة وعياض بن غنم

قال : فبينما عياض بن غنم بالرهاء وقد فتحها ووضع الجزية عليها والناس آمنون والسوق قائمة إذ وقعت الصيحة ، ففزع الناس وبادر عياض إلى سلاحه فلبسه وركب فرسه ، ونادى في الناس ، فلبسوا أسلحتهم واستووا على خيولهم وخرجوا من المدينة ، فإذا عسكر لجب وراية بيضاء ، فظن المسلمون أنهم من طاغية الروم ، وإذا هم مدد وجه بهم يزيد بن أبي سفيان من الشام بكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهم ألف رجل أميرهم يومئذ بسر بن أرطأة الفهري ، فنزلوا وقالوا : أشركونا في المغانم ، فقال : أما ما فتحه المسلمون وأحرزوا غنائمه فلا حق لكم فيه ، وأما ما بقي من البلاد التي تفتح فأمرنا وأمركم فيه واحد ، ما غنمنا من شيء فهو لنا ولكم ؛ قال : فلم يرض القوم وغالظ بسر[1] بن أرطأة عياض بن غنم وتطاول عليه ، فقال له عياض : أيها الرجل ! اكفف عنا أذاك والحق بصاحبك ، فما أغنانا عنك .

قال : فغضب بسر بن أرطأة ورجع إلى الشام وأصحابه ؛ فخبر يزيد بن أبي سفيان بما كان من عياض .

قال : وكتب عمر إلى يزيد بن أبي سفيان أن إياك والتعرض إلى عياض بن غنم فيما يفعله ، فإن عياضاً له من الإسلام مكاناً ينبغي لك ولنا أن لا نضيعه - والسلام . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عياض بن غنم الفهري .

ذكر كتاب عمر بن الخطاب إلى عياض[2]

[كتب أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، رسالة لعياض بن غنم، بأنه قد بلغني أن يزيد بن أبي سفيان قد أرسل إليك مدداً بقيادة بشر[3] بن أرطأة من الشام فأعدتهم من حيث أتوا وإن الغرض من إرسال هذا الجيش نحوك إنما كان من أجل إمدادك وزيادة عسكرك وجاهك وشأنك . ولكي يعلم العدو أن الأمداد متواترة إليك فتنكسر قلوبهم ويسارعون إلى طاعتك . فلا أعلم لماذا رددت ذلك الجيش ويلزم أن

(١) بالأصل : بشر . وما أثبتناه عن أسد الغابة ١ / ١٧٩ وبسر بضم الباء وسكون السين . واسم أرطأة (قيل أبي أرطأة) عمرو وقيل عمير . وقد صحح « بسر » في الخبر كله .

(٢) من هنا سقطت العبارة من الأصل . وقد أثبتنا ترجمة النص الفارسي المأخوذ من المخطوطة الموجودة في مكتبة سالارجنك رقم ١٤٤ و١٤٥ تاريخ .

(٣) كذا بالترجمة الفارسية ، انظر ما مر بشأنه .

تخبرني بوجهة نظرك حتى أقف على حقيقة الأمر ، والسلام . وحين وصل خطاب أمير المؤمنين إلى عياض بن غنم ووقف على مضمونه كتب إليه رسالة بما يلي :

إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عياض بن غنم :

سلام عليك ، أما بعد ، فقد وصلني خطابك وفهمت محتواه . فإنه قبل وصول بسر بن أرطأة قد تم فتح المدينة الرقة والرها على يد المسلمين وقد وزعت الغنائم بينهم وتصرف كل بنصيبه منها فطالبني بسر بجزء من تلك الغنائم فأجبته بأن هاتين المدينتين قد فتحتا قبل وصولك فلا حق لك بالغنائم فإذا يسّر الله لنا الفتوح في مكان آخر فنحن شركاء فيما نغنمه معاً . فلم يرضَ بُسر بهذا وخشيت أن يحصل شيء من التمرد أو تختلف قلوب العساكر ولما كنت غنياً عن مدده ، اعتذرت إليه وأمرته بالعودة . هذا هو السبب في إعادته جعل الله تعالى السعادة قرينة لأحوال أمير المؤمنين . وحين عاد جواب عياض بن غنم إلى أمير المؤمنين عمر . أثنى على حصافة رأيه وكتب إليه .

لقد وصلت رسالتك وفهم مضمونها وعلمنا السبب في إعادة بسر بن أرطأة وجيشه إلى الشام وكان ذلك صواباً ، جزاك الله خيراً عن الإسلام والمسلمين . وأرجو الله تعالى أن لا تعزل عن عملك ما دمت حياً . وإنني أوصي الخليفة من بعدي بأن لا يغيرك عن موضعك ولا يعزلك عن عملك . أقر الله عينك . واستمر على ما أنت فيه من الجهاد والسلام .

ولما وصل خطاب أمير المؤمنين إلى عياض وقرأه ، حمد الله وقال : يا رب لا أطلب مزيداً من الحياة بعد عمر فإن هو مات وبقي في أجلي شيء فلا تمهلني أكثر من يوم واحد بعد . إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

ذهاب عياض بن غنم نحو حران(١)

في هذه الأثناء سمع عياض بن غنم أن الروم قد جمعوا جيشاً في « حران » يقدر بعشرين ألف رجل فأمر منادياً ينادي في الجيش بالاستعداد ثم سار به إلى أطراف حرّان فوقع الرعب في قلوب الأهالي فأرسلوا إليه شخصاً يطلب الصلح فأجابهم إليه

(١) حران : قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان .

على النحو الذي صالح به أهل الرقة والرها . وكتب لهم بذلك عهداً ثم فتحت بوابة حرّان ودخل المسلمون البلد . وقد حصلت هذه الواقعة يوم الاثنين في شهر محرم عند صلاة العصر(١) . وبقي عياض بضعة أيام هناك وقبض الأموال المقررة ثم توجه نحو بلدة رأس العين(٢) . ويقال إن أهل رأس العين كان لديهم رجل حاد النظر يستطيع أن يرى من مسيرة يوم ومن حسن الاتفاق أن جيش المسلمين حين اقترب من تلك المدينة ، وأصبح على مسافة يوم منها قد ظهر غبار أسود وغيوم مظلمة فلم ير ذلك الرجل شيئاً فسأله أهل البلد ، هل ترى أثر جيش غريب فقال الحارس : بسبب الغبار وظلمة الجو لا يبدو لي شيء ، فإن أردتم أخرجوا دوابكم إلى الصحراء . فإنني إن كنت بسبب الضباب لا أرى أثر الجيش ولكن يمكنني أن أدركه بسبب الجلبة التي يحدثونها فأخبركم . فأخرج أهل البلد جميع مواشيهم من الخيول والجمال والبقر والغنم إلى الصحراء وحين وصل عياض بن غنم مع جيش المسلمين قرب رأس العين صار الهواء صافياً وظهرت الشمس وإذ وجدوا تلك المواشي استولوا عليها فصاح الحارس وأخبر الناس الخبر فأغلقت أبواب المدينة ، وصعدوا إلى الأبراج ووصل جيش المسلمين قرب جدار القلعة وشرع أهل البلد بإلقاء الحجارة والسهام على المسلمين فمات منهم عدة أشخاص . ثم صعد أحد البطارقة على جدار القلعة وأخذ يشتمهم ويقول :

يا من تأكلون خبز الشعير وتلبسون الصوف لا تظنوا أننا مثل أهالي الرقة والرها وحران فأولئك قوم ضعاف ولقد جئتم بأنفسكم لاستقبال الموت هنا ، فاقترب منه أحد المسلمين وقال له : لا تهرف بما لا تعرف فلقد استولينا على عدد من القلاع الحصينة قبل الرقة والرها وحران وقاتلنا اليهود وعباد الأصنام والمجوس واستنزلناهم من قلاعهم وأرسلناهم إلى جهنم . وإن مثلك ومثل هذه القلعة بالنسبة إلينا كمثل أعرابي استظل

---

(١) وذلك في سنة ١٩ . وعلى رواية سيف بن عمر يكون فتحها تم سنة ١٨ . (انظر ما سبق بشأن توقيت توجه عياض بن غنم إلى الجزيرة) .

(٢) رأس العين : مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين بين رأس العين ونصيبين ١٥ فرسخاً . في فتوح البلدان ص ١٨١ أن عمر بن الخطاب أمر عياض أن يوجه عمير بن سعد إلى عين الوردة (وهي رأس العين) . وفي الطبري ٤ / ١٩٧ وجه عياض عمر بن سعد إلى رأس العين في خيل ردأ للمسلمين .
وقيل إن عمر أرسل أبا موسى الأشعري إلى رأس عين بعد وفاة عياض .

بظل خيمة من شعر الغنم وجلس تحتها والتجأ إليها وأنت أيها العلج ليس عندك خبر عن أحوالنا فقل ما يشاء وسترى بعد ساعة أن الحقيقة غير ما تظن ولن ينفعك الندم عند ذلك شيئاً فغضب البطريق وقال لمن حوله : أنزلوني للأسفل لكي أقابل هؤلاء الصغار . فأنزلوه في زمبيل حتى وصل إلى الأرض ثم خرج وقد لبس الدرع ووضع على رأسه قلنسوة مطرزة بالذهب وقد وضع نطاقاً على وسطه من الذهب وحمل بيده سيفاً لماعاً ووقف على باب القلعة ثم طلب المبارزة فبرز إليه رجل من بني مزينة حسن الصورة ومعه ترس من ليف النخل وبيده سيف وعلى رأسه عمامة بالية سوداء فنظر إليه البطريق بعين الاحتقار ثم حمل عليه وألقى عليه السيف فتلقاه المزني بترسه ثم ضربه بنفس السيف على ساقيه فقطع ساقيه فأسرع إليه العربي واحتز رأسه وأخذ في سلبه . وانهالت عليه الحجارة من أعلى القلعة فلم يبال بها حتى جمع سلاح ولباس البطريق وتركه في مكانه مجرداً ، ثم رجع سالماً غانماً .

وبما أن البطريق قد أصيب على تلك الحال ، خاف أهل البلد وتوقفوا عن الحرب ذلك اليوم .

في اليوم الثاني خرجوا من البلد وحاربوا بكل شدة حتى أنه استشهد من المسلمين عدة رجال ، فأمر عياض الجيش بأن يتراجع قليلاً لكي يتوهم العدو بأنهم قد هزموا ، حينئذ لحق بهم أهل البلد إلى مسافة معينة ثم أمر عياض الجيش بالكرّة عليهم فقتلوا منهم جمعاً كثيراً ومن بقي منهم التجأ إلى القلعة حينذاك أيقنوا بأنه لا يمكنهم مقاومة جيش المسلمين ، فأرسلوا شخصاً بطلب الصلح إلى عياض فأجابهم إليه بشرط أن يدفعوا نقداً ثلاثين ألف دينار وعلى كل شخص منهم الجزية أربعة دنانير تؤدى في وقتها . وعلى هذا تم الصلح وكتب لهم بذلك وثيقة(١) .

إرسال عياض بن غنم لميسرة بن مسروق العبسي إلى أطراف ولاية الخابور

وبعد ذلك استدعى عياض بن غنم ميسرة بن مسروق العبسي(٢) وسلمه ألف

---

(١) في فتوح الشام للواقدي ٢ / ١٥٢ « ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين » . وبعد الاستيلاء على رأس عين أخرج عياض الخمس من المال وأرسله إلى الخليفة عمر وكتب إليه كتاباً (نسخته في فتوح الشام للواقدي ١٥٣/٢ يعلمه فيه عن فتوحاته) وأرسله مع عبد الله بن جعفر الطيار .

(٢) في فتوح البلدان ص ١٨٠ وجه عياض حبيب بن مسلمة الفهري إلى قرقيسيا وفي معجم البلدان =

فارس من نخبة الجيش وأرسله إلى ولاية الخابور . فسار ميسرة إلى تلك الناحية وفتح المواضع التي في طريقه وأرسل الأموال التي حصل عليها إلى عياض حتى أتم فتح تلك الناحية ووصل إلى سواحل الفرات ونزل عند مدينة قرقيسياء ووقعت معارك بينه وبين أهل القلعة وقتل من الطرفين عدة رجال . وفي النتيجة استولى على البلد وقتل المقاتلة وسبى النساء والذراري ثم عفى عنهم وقبض منهم ثلاثة آلاف دينار وقرر عليهم الجزية على القاعدة المعروفة(١) وترك لهم البلد وعاد إلى عياض ومعه الأموال والغنائم فسلمها إليه . عند ذلك انتقل عياض من مكانه وسار نحو نصيبين ففر الروم من أمامه والتجأوا إلى قلعة نصيبين . وأمر الجيش بمحاصرة البلد من جهاتها الأربع وكان لها أربعة أبواب ، يسمى الباب الأول ، بوابة الجبل ، والثاني بوابة السوق والثالث بوابة سنجار والرابع بوابة الروم . وعلى كل بوابة استقر فوج من المدافعين فأنشبوا معهم الحرب واجتهد الطرفان في الحرب . ولما رأى عياض أن القلعة حصينة وقد عجز عن فتحها(٣) . قرر الإقامة هناك . ومن ثم أرسل عمير بن سعد الأنصاري إلى مدينة سنجار(٤) لفتحها فذهب عمير إلى هناك وقاتل أهل سنجار لمدة يوم واحد ثم طلب منه أهلها الأمان فصالحهم على ثلاثة آلاف دينار نقداً وعلى أن يدفع كل رجل منهم أربعة دنانير . وعاد بعد ذلك إلى عياض . ثم أرسل عياض مالك الأشتر

= (قرقيسياء) : وجه سعد سنة ١٦ إلى هيت وقرقيسياء، جيشاً رئيسهم عمرو بن مالك الزهري ، وفيه رواية أخرى تبع فيها البلاذري .

وفي فتوح الشام للواقدي : ٢ / ١٠٧ أمر عياض عبد الله بن غسان وسهل بن عدي أن ينزلا على قرقيسياء .

(١) في فتوح البلدان ص ١٨٠ فتحها صلحاً على مثل صلح الرقة . وفي معجم البلدان فتحها ـ كما مر ـ عمرو بن مالك الزهري فقال عند ذلك ـ ويفهم من قوله أنه فتحها صلحاً :

وسرنا على عمد نريد مدينة	بقرقيسيا سير الكماة المساعر
فجئناهم في دارهم بغتة ضحى	فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر
فنادوا إلينا من بعيد بأننا	ـندين بدين الجزية المتواتر
قبلنا ولم نردد عليهم جزاءهم	وحطناهم بعد الجزا بالبواتر

(٣) في الطبري / ١٩٧ وابن الأثير أن عبد الله بن عبد الله بن عتبان عبر حتى أتى نصيبين فلقوه بالصلح كما صنع أهل الرقة . (وانظر فتوح البلدان ص ١٨٠) وفي تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٠ كان فتح نصيبين على يد عياض صلحاً .

(٤) سنجار : بكسر أوله . مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام (معجم البلدان) .

النخعي وأعطاه ألف فارس وأرسله إلى ناحية « آمد » و « ميافارقين » .

مسير الأشتر النخعي نحو « آمد » و « ميافارقين »

وحين وصل مالك مع الجيش إلى آمد(١) تبين له أن القلعة حصينة جداً فأخذ يفكر بالأمر وأن مقامه سيطول هناك . ولما اقترب من آمد وعاين بنفسه قوة الحصن ، أمر الجيش بأن يكبروا معاً تكبيرة واحدة بأعلى صوت . فخاف أهل آمد وتزلزلت أقدامهم وظنوا أن المسلمين يبلغون عشرة آلاف وأنهم لا قبل لهم بحربهم فأرسلوا شخصاً إلى الأشتر فأجابهم الأشتر إلى الصلح وتقرر أن يدفعوا خمسة آلاف دينار نقداً وعلى كل رجل أربعة دنانير جزية ورضي حاكم البلد بهذا الصلح وفتحوا الأبواب ودخلها المسلمون صباح يوم الجمعة ، فطافوا فيها ساعة ثم خرجوا وأقاموا على بوابة البلدة . وبعد أن قبض الأشتر المال اتجه نحو « ميافارقين »(٢) ولما وصل إليها أرسل إليه بطريق البلد ويسمى فطوس(٣) . أرسل شخصاً إلى الأشتر يلتمس الصلح على أن يدفع ثلاثة آلاف دينار نقداً والجزية المقررة فصالحه الأشتر على ذلك وكتب له عهداً(٤) . وبعدما قبض المال سار إلى عياض الذي كان مشغولاً بحصار نصيبين وسلمه الأموال التي قبضها .

تدبير عياض بن غنم لفتح مدينة نصيبين

بعدما مرّ عام كامل على محاصرة نصيبين دون أن يتيسر فتحها(٥) ، أخذ عياض في مشاورة رؤساء الجيش حول هذا الأمر فتقدم رجل من المسلمين ممن كانوا تحت

---

(١) آمد : من مدن ديار بكر . قال في معجم البلدان : فتحت في سنة عشرين وسار إليها عياض بن غنم بعدما افتتح الجزيرة فنزل عليها وقاتله أهلها ثم صالحوه عليها على أن لهم هيكلهم وما حوله وعلى أن لا يحدثوا كنيسة وأن يعاونوا المسلمين ويرشدوهم ويصلحوا الجسور ، فإن تركوا شيئاً من ذلك فلا ذمة لهم . (وانظر في فتحها فتوح الشام للواقدي ٢ / ١٥٧ ـ ١٥٨) .

(٢) ميافارقين : أشهر مدن ديار بكر .

(٣) في فتوح الشام للواقدي ٢ / ١٦١ اسلاغورس .

(٤) في معجم البلدان : يقال إنها فتحت عنوة وقيل صلحاً على خمسين ألف دينار على كل محتلم أربعة دنانير ـ وقيل دينارين ـ وقفيز حنطة ومد زيت ومد خل ومد عسل وأن يضاف كل من اجتاز من المسلمين ثلاثة أيام .

(٥) كذا . وانظر ما مرّ في ذلك . وهذا الخبر ذكره ياقوت في معجم البلدان ـ باختلاف ـ أن ذلك كان يوم فتح المدينة أنو شروان ملك الفرس .

قيادة سعد بن أبي وقاص في العراق وقال له : إني أرى رأياً يمكن لنا بواسطته أن نستولي على المدينة فسأله عياض : كيف ؟ فقال : أرسل شخصاً إلى مدينة شهرزور في العراق وهي تحت أيدي المسلمين الآن ومن هناك حيث توجد العقارب بكثرة فليملأ عدداً من الجرار بالعقارب ثم توضع هذه الجرار على المنجنيق وتطلق ليلاً في داخل المدينة فكل من أصابته هذه العقارب هلك فوراً . فيندهش الناس لهذا الأمر ويقعوا في حيرة . حينئذ يمكن فتح البلد بسهولة فوافق عياض على هذا التدبير وأرسل شخصاً إلى شهرزور وملأ عدداً من الجرار بالعقارب مع شيء من التراب . ثم في الليل ألقي بهذه الجرار بواسطة المنجنيق نحو البلد فانكسرت الجرار وخرجت منها العقارب في كل اتجاه فهلك ناس كثيرون بلسعة العقرب وحين طلع النهار هلك عدد من الناس فأرسلوا إلى عياض يطلبون الصلح فلم يجبهم عياض حتى أطلقوا جميع الجرار المملوءة بالعقارب على البلد فانشغل الناس بتعقب العقارب وقتلها بينما عياض شدد في الحرب ذلك اليوم واستولوا على المدينة عنوة ثم قتلوا المقاتلة وخربوا بيوت البطارقة وسبوا الذرية والنساء . وفي النتيجة طلب الباقون الأمان من عياض ، فأعاد لهم عيالهم وأطفالهم وكتب لهم رسالة أمان ووقع عليها عدد من رؤساء الجيش وسلمها إليهم . ثم أرسل خمس الغنائم إلى أمير المؤمنين ووزع الباقي على المسلمين وقد نال كل واحدٍ منهم أكثر من عشرة آلاف درهم عدا المواشي والأمتعة والأسرى وظل عياض في الجزيرة منتظراً وصول إشارة أمير المؤمنين . وحين وصلت رسالة عياض إلى أمير المؤمنين مبشرة بالفتوح ورأى الغنائم الكثيرة صار مسروراً وشكر الله على ذلك .

رسالة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى عياض بن غنم

بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عياض بن غنم .

أما بعد ، سلام عليك ، الحمد لله الذي فتح بلاد الجزيرة على يد المسلمين فأغناهم بعد فقر ووسع لهم في الرزق وإنني منذ الآن لا أخاف الفقر عليهم ولكني أخشى عليهم أن يغتروا بالأموال فيهلكوا . وإنك يا عياض أديت عملك على أحسن وجه فجزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً . وحين تقف على هذه الرسالة انتخب أحد وجوه الجيش ممن يعتمد عليه في القول والفعل واجعله نائباً لك ثم توجه نحو

الشام فإن يزيد بن أبي سفيان مريض هناك وأخشى إن هو مات أن تضطرب الأحوال . فالرأي هو أن تعود إلى الشام بأسرع ما يمكن ولا تبق في الجزيرة أكثر مما بقيت والسلام .

وحين وصل خطاب أمير المؤمنين عمر إليه ، دعى عتبة بن فرقد السُلمي وعينه والياً على جملة بلاد الجزيرة وجعل تحت إمرته أربعة آلاف فارس ثم اتجه ببقية الجيش إلى الشام وحين وصل إلى حمص غلب عليه المرض ثم انتقل إلى رحمة الله[1] . ورووا أن ذلك اليوم الذي مات فيه عياض لم يكن يملك سوى فرسين اثنتين وجملاً وضع عليه حوائجه ولم يجدوا في ثيابه وأمتعته ديناراً واحداً . مع كل تلك النعم والأموال التي عادت إليه من الجزية . لقد تصدق بها كلها ولم يترك شيئاً رحمة الله عليه .

رسالة يزيد بن أبي سفيان إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

ثم بعد أن تم فتح الجزيرة ووفاة عياض بن غنم[2] ، ازداد المرض على يزيد ، وإذ رأى هذه الحال كتب إلى عمر أمير المؤمنين رسالة بهذا المضمون[3] .

بسم الله الرحمن الرحيم . . . .

بعد تقديم حقوق أمير المؤمنين ، ليعلم بأن يزيد بن أبي سفيان يكتب هذه الرسالة ولا يظن أنه سيكتب رسالة بعدها لأنه مريض جداً ، جزاك الله عنا خيراً وجمعنا بك في جنات النعيم . وقد أشرفت على نهايتي فليعيّن أمير المؤمنين شخصاً صالحاً لقيادة الجيش وإدارة البلاد والسلام عليك . وهذا آخر سلام يرسله إليك يزيد من دار الدنيا .

ثم أرسل الرسالة مع شخص وأوصاه بأن يسعى جهده لكي يوصل هذه الرسالة

---

(١) وذلك سنة ٢٠ (فتوح البلدان ص ١٨٠ تاريخ خليفة ص ١٤٧) .

(٢) كذا بالأصل ، وقد مات يزيد بن أبي سفيان سنة ١٨ في طاعون عمواس (قاله خليفة تاريخ ص ١٣٨ والبداية والنهاية ٧ / ١٠٩ وزعم الوليد بن مسلم أنه توفي سنة ١٩ بعدما فتح قيسارية . وعلى كل حال فيكون موته قبل موت عياض بن غنم وليس بعده) .

(٣) نسخة الكتاب في الوثائق السياسية . وثيقة رقم ٣٥٧ / ك ، ل ص ٤٩٣ .

إلى أمير المؤمنين بأسرع وقت . وقد توفي يزيد قبل وصول الرسالة إلى أمير المؤمنين عمر . فطالع عمر الرسالة فاضطرب لها وسأل الرسول : هل تركته حياً حتى أرسل له الجواب . فقال الرسول : أطال الله عمرك يا أمير المؤمنين ، لقد كان في حالة الاحتضار فقال عمر : عفى الله عن يزيد . لقد كان شخصاً فاضلاً ولم تكن له في الدنيا رغبة وقد جعل همه في تحصيل أمر الآخرة . وحينئذ استدعى أبا سفيان وأخبره بما جرى . فاغتم أبو سفيان وتأسف كثيراً ، ثم قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم سأل أمير المؤمنين . ما رأيك بالشخص الذي سترسله إلى الشام ، فقال عمر : سأرسل ولدك الآخر معاوية(١) فسر أبو سفيان بذلك ودعا لأمير المؤمنين وقال : لقد وصلت الرحم ثم عاد أبو سفيان إلى منزله وأخبر زوجته هند بوفاة يزيد . فصاحت ولطمت وجهها وبكت كثيراً وقالت : ليت معاوية وعتبة ماتا بدل يزيد فقال لها أبو سفيان : لا تجزعي وقولي : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد تلطف أمير المؤمنين وعين ابنك الآخر معاوية والياً على الشام فهدأت هند وقالت : لقد وصل أمير المؤمنين الرحم ولتكن إمارة الشام مباركة على معاوية ، ثم كتب أمير المؤمنين رسالة إلى معاوية بهذا المضمون .

بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين . أما بعد :

اعلم يا معاوية بأن الله تعالى قد أعز الإسلام وأذل المشركين وصدق وعده . وأخبر أمة نبيه بفتح بلاد الشام وغيرها وبشرنا بتملك خزائنهم وأموالهم وقد حصل ذلك فعلاً . وخاصة مدينة قيسارية الشهيرة . بحصانتها كما أخضع لنا الروم وأما الآن فيجب أن تتم الفتوح في عسقلان(٢) وغزة وتوابعهما لأن رسول الله ﷺ أخبرنا بأنه ستكون في الشام فتوح وإني أبشرك بفتح هاتين البلدتين غزة وعسقلان ، كما أن الرسول عليه السلام أخبر بأنه متى اشتعلت نار الفتنة في المشرق والمغرب وتعذرت الإقامة فعليكم بعسقلان وما فوقها . فإذا وقفت على رسالتي هذه ، انطلق إلى

---

(١) وكان يزيد بن أبي سفيان قد استخلف أخاه معاوية مكانه ـ وقد أشار إلى ذلك في رسالته إلى عمر بن الخطاب ـ فأقرَّ عمر ذلك .

(٢) عسقلان مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين .
غزة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر ، بينها وبين عسقلان فرسخان .

عسقلان بدون توقف واجتهد في فتح تلك المواضع لعل الله تعالى ييسر فتح تلك المناطق على يدك . ومتى وصلت إلى ذلك الموضع يجب أن تخبرني بما يجد من أحوال وأمور يومياً والسلام .

ذهاب معاوية بن أبي سفيان إلى نواحي عسقلان

وحين وصل خطاب أمير المؤمنين عمر إلى معاوية ، انطلق بمن معه من الجنود نحو عسقلان وحين وصل إليها ، لم يحاربهم إلا ثلاثة أيام ثم استولى على المكان ودخل المسلمون البلد[1] . ثم أرسل رسالة إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بفتح عسقلان ، فسر أمير المؤمنين بذلك وشكر الله تعالى على تيسير ذلك الأمر وقال : لو لم يتم هذا الفتح فإن بقية الثغور ستكون معرضة للخطر وتصبح مدينة عسقلان سبباً في تضييق المقام على المسلمين ولقد أخبرني بهذا الأمر بسبب بركته ونجابته ولو قيض لي أن أقيم بالشام لما اخترت سوى مدينة عسقلان لأن لكل شيء سرة وسرة الشام عسقلان .

ثم استدعى معاوية بن أبي سفيان سفيان بن حبيب الأزدي وسلمه جيشاً وأمره بالذهاب إلى طرابلس . فأطاع سفيان الأمير وذهب حيث أمره ونزل في مرج يبعد عنها خمسة فراسخ وهيأ نفسه للقتال ثم اتجه نحو قلعة طرابلس وشرع بالقتال . وحين مغيب الشمس كان يتراجع عن القلعة مسافة معينة خشية من إغارة أهل طرابلس ليلاً . وهكذا طال أمد الحرب مع أهل طرابلس ، وخشي من جانب البحر أن تصلهم امدادات من جهة البحر فيصبح موقفهم حرجاً . فكتب إلى معاوية يخبره بالحالة العامة فأجابه معاوية : بأن يبني قلعة تبعد مسافة فرسخين اثنين على طرابلس ويكون فيها متسع لإيواء جميع عساكر المسلمين وحمايتهم من أية غارة محتملة .

ففعل سفيان ما أشار به عليه معاوية وبنى قلعة حصينة وجعلها مقراً له . وحين رأى أهل طرابلس القلعة الحصينة التي أقامها سفيان انزعجوا لذلك وتخلوا عن الجزائر التي كانوا يقيمون بها ، ويحصلون منها على أنواع الغلات والفاكهة واجتمعوا داخل قلعة حصينة وكتبوا إلى هرقل رسالة يخبرونه فيها بحالهم وحال المسلمين

---

(١) في فتوح البلدان ص ١٤٨ فتح (معاوية) صلحاً بعد كيد . قال : ويقال : إن عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقض أهلها فأمدهم الروم ففتحها معاوية .

ويطلبون منه امدادهم .

وبعد وصول رسالتهم إلى هرقل أمر جماعة من العسكر بالركوب في الزوارق لامدادهم وحين وصول الإمدادات قرّ رأيهم على الفرار إلى القسطنطينية فأخرجوا امتعتهم ليلاً وأحرقوا كل ما ليس لهم به حاجة ثم ركبوا السفن . وفروا إلى هرقل وفي اليوم الثاني خرج سفيان من حصنه إلى طرابلس فلم ير أحداً ورأى أن القلعة خالية تماماً فدخلها المسلمون فلم يجدوا بها مخلوقاً سوى رجل من اليهود كان مختبئاً في أحد السراديب فاستخرجوه وسألوه عن الحال فأخبرهم بما جرى على وجهه .

فكتب سفيان إلى معاوية يخبره بما جرى ، فعجب معاوية لذلك وأرسل إلى طرابلس جماعة من يهود الأردن ليسكنوا في قلعة طرابلس ويعمروها ثم سار معاوية على طريق الساحل وأخذ يستولي على الأماكن والمدن التي يمر بها ويرفع راية الإسلام فوقها . ومن بينها مدن عكار وصور ويافا وغيرها وقد كتب إلى أمير المؤمنين عمر بما فتح الله على يده كما أخبره بقرب جزيرة قبرص من سواحل الشام وأنها جزيرة خصبة وفيها كثير من الخيرات والثمار وأن الاستيلاء عليها ليس بالأمر الصعب ويطلب الإذن بالذهاب إليها [و] فتحها[1] .

ولما وصلت رسالة معاوية إلى أمير المؤمنين وعلم بمضمونها وكان يكره ركوب البحر فتأنّى في الجواب وبعث رسالة إلى عمرو بن العاص يشاوره في ركوب البحر وفتح جزيرة قبرص وأن رأيه لا يؤيد ركوب المسلمين البحر كما يكره مثل هذا الأمر الخطير . أستحلفك بالله أن لا تخفي عني شيئاً حول هذا الموضع وكل ما تعرفه عن أحوال البحر وأخطاره فاكتب لي ذلك بكل صراحة[2] فأجابه عمرو بن العاص[3] بأن رسالة أمير المؤمنين قد وصلت وفهمت مضمونها حول ركوب البحر والذهاب لفتح جزيرة قبرص وكراهية أمير المؤمنين لذلك وأرجو من الله أن يلهم أمير المؤمنين الصواب في جميع أحواله . إن البحر أمره عظيم وخطره شديد والناس في البحر

---

(١) في الطبري ٥ / ٥١ وابن الأثير ٢ / ٢٣٩ كتب معاوية إلى عمر كتاباً في غزو البحر يرغبه فيه ويقول : يا أمير المؤمنين إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم .

(٢) انظر الطبري ٥ / ٥١ ـ ٥٢ وابن الأثير ٢ / ٢٣٩ .

(٣) كتاب عمرو بن العاص في الطبري ٥ / ٥٢ وابن الأثير ٢ / ٢٣٩ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٦٤ / ألف ـ ب .

كدودة تعلقت بخشبة فما دامت فوقها فهي في خوف شديد وإن هي تحركت غرقت ، ولو أن أمير المؤمنين يرى تلاطم أمواج البحر وأنواع الأهوال التي يمكن أن توجد فيه فسيزداد برأيه تمسكاً ولن يسمح لأحد من المسلمين بالمخاطرة بذلك . وهذا هو مقدار معرفتي بأحوال البحر . كتبتها إليك والسلام .

فحين وصل هذا الجواب إلى عمر وعلم بمضمونه ، سر بموافقة عمرو له في رأيه بأن لا يخوضوا البحر وأعاد الجواب إلى معاوية على هذا الشكل . أما بعد[1] . فاعلم يا معاوية بأن الله تعالى قد جعلني راعياً لأمة محمد ﷺ ، وإني استعين بالله على قيام مصالحهم ولا أرى أن أعرضهم لخطر البحر ومع هذا فقد استخرت وتشاورت مع جماعة ممن عاينوا أخطار البحر ولهم في ذلك سابقة فلم يروا المصلحة بذلك ووافقوني على كراهيتي لركوب المسلمين البحر فدع منك هذه الفكرة ولا تذكرها مرة أخرى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وإذ وصل جواب أمير المؤمنين عمر إلى معاوية ، أيقن بأن عمرو بن العاص هو الذي أشار على عمر بذلك فقال : إن عمرواً لم يرد أن تفتح قبرص على يدي ولو أن أمير المؤمنين أجاز له مثل هذا العمل لأسرع إلى ركوب البحر وانطلق مستعجلاً وقد بلغ هذا الكلام لأمير المؤمنين فقال : صدق معاوية فلو أننا أجزنا لعمرو بن العاص ذلك لسار بدون تأخر ، وتوقف المشروع إلى أيام عثمان حيث تم فتح قبرص على يد جيش المسلمين كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى[2] . واستقر معاوية في الشام وخضعت له جميع أطرافها وسواحل البحر وكان يجبي الخراج وقد سكن المسلمون هناك ، وأقاموا المساجد وتوطنوها حتى صارت الشام بلاداً إسلامية . أما عمرو بن العاص فقد أتم فتح مصر[3] واستقر في الإسكندرية وأمره بعد ذلك أمير المؤمنين عمر بأنه يتوجه إلى بلاد النوبة وأمره بفتحها كما وجهه إلى بلاد البربر وبرقة وطرابلس الغرب[4] وما وراءها حتى طنجة وأقصى بلاد السوس . فأمر عمرو بن العاص أن يوزع على الجنود خراج مدينة الإسكندرية ومقدارها عشرة آلاف دينار . ثم اتجه إلى بلاد النوبة .

---

(١) قارن مع الطبري ٥ / ٥٢ وابن الأثير ٢ / ٢٣٩ .

(٢) وذلك في سنة ٢٨ (الطبري ٢ / ٥١ - ٥٢ وفتوح البلدان ص ١٥٧ ويقال سنة ٢٩) .

(٣) وذلك سنة ٢٠ ، وقيل سنة ١٦ (الطبري - ابن الأثير - فتوح البلدان) .

(٤) انظر في ذلك فتوح البلدان ص ٢٢١ وما بعدها .

ذكر توجه عمرو بن العاص نحو النوبة وفتحها

ثم نادى عمرو بالرحيل نحو بلاد النوبة وكان معه عشرون ألف رجل ، وحين وصل الجيش إلى أرض النوبة ، ذهبت فرق من الجيش للإغارة على تلك النواحي[1] وحين رأى رجال النوبة أن الجيش أخذ يغير على أموالهم فجمعوا مئة ألف رجل ، وعزموا على الحرب على المسلمين وكانت حرباً من نوع لم يشهد المسلمون مثله من قبل ، فقد تناثرت الرؤوس والأيدي واقتلعت العيون بلا حساب . وقد قال أحد وجهاء المسلمين : إنني لم أر قوماً يجيدون الرماية بالسهام[2] مثلهم فقد كان يقف بعض أهالي النوبة في مواجهة المسلمين ويقول : في أي جهة تريدون أن أرميه فيقول له رفاقه : الجهة الفلانية . وفوراً يرمي الجهة المحددة ويصيبها بدون خطأ وينقل عن الواقدي رحمه الله عن أحد شيوخ حِمْير ، ممن اشتركوا في تلك الحرب فقال : كنا واقفين في أحد الميادين صفاً بإزاء أهل النوبة وفي خلال ساعة واحدة قلعت مئة وخمسون عيناً رماها النوبيون بالسهام ولقد حاربناهم حتى نصرنا الله عليهم . فقتلنا منهم خلقاً كثيراً ومن نجا من السيف فرّ[3] إلى البراري والجبال . فلم يتبعهم عمرو بن العاص ولا قدر منهم على أسير واحد ، ولا على دينار ولا درهم[4] . قال : ثم سار عمرو بن العاص بالمسلمين يريد البربر .

---

(١) على غرار صوائف الروم قاله في فتوح البلدان ص ٢٣٨ .

(٢) سموا برماة الحدق فتوح البلدان .

(٣) إلى هنا ينتهي النص المأخوذة عن الترجمة الفارسية .

(٤) في فتوح البلدان : فلم يصالحهم عمرو ولم يزل يكالبهم حتى نزع . وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم (ص ٢٣٩) .

كتاب الفتوح

للعلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي
(المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م)

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر فتح البربر وما كان من أخبارهم

قال : وكان البربر فيما مضى منازلهم بأرض فلسطين ، وكان ملكهم جالوت بن جلهم[1] الذي قتله داود النبي عليه السلام ، فلما قتل انجلت البربر من أرض فلسطين إلى أرض المغرب فنزلوها وتفرقوا فيها . قال : والبربر قبائل شتى ، منهم : زناتة ومَغِيلة وصرفند ولواتة وهوّارة ونفوسة ولبيبة سبع قبائل ، قال : فصارت هذه القبائل إلى حد بأرض المغرب ، وقد كانت هذه المدائن فيما مضى للروم منها لوبية[2] ومراقية[3] ولبدة[4] وسبرة[5] . قال : ومنهم من صار إلى برقة[6] ، ومنهم من

(١) عند ابن خلدون ٣/٧ عن ابن قتيبة : جالوت بن جالود وقيل : جالوت بن هريال بن جالود . وقال ابن خلدون : والحق أن جالوت من بني فلسطين بن كسلوحيم بن مصرايم بن حام . أحد شعوب حام بن نوح وهم اخوة القبط والبربر والحبشة والنوبة . وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة .

وفي نسبهم خلاف كبير بين النسابة . انظر في ذلك ما ذكره ابن خلدون في تاريخه ٦/٩٣ .

وفي نزولهم أرض المغرب . قال ابن الكلبي اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام . فقيل داود بالوحي . وقيل يوشع بن نون وقيل افريقش وقيل بعض الملوك التبابعة .

قال ابن خلدون : وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط يكاد يكون من أحاديث خرافة إذ مثل هذه الأمة المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور . والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام .

(٢) لوبية : مدينة بين الإسكندرية وبرقة . (معجم البلدان) .

(٣) مراقية : بين الإسكندرية ولوبية . (معجم البلدان) . =

صار إلى طرابلس المغرب ، ومنهم من بلغ إلى طنجة وأفراهنجة وإلى السوس الأدنى وإلى السوس الأقصى . قال فغلبت البربر على هذه المدائن فأجلوا الروم عنها ونزلوا فيها . قال : وصار أهل إفريقية وبرقة وجميع البلاد يتقون من ناحية البربر ويخافونهم خوفاً شديداً .

قال : فصار إليهم عمرو بن العاص في جيشه ذلك حتى نزل بأول مدينة من مدنهم ، قال : وخرجت البربر إلى المسلمين فقاتلوهم ، وأظهر الله تبارك وتعالى عليهم المسلمين فقتلوا منهم في يوم واحد نيفاً على سبعمائة رجل .

فلما رأت البربر ذلك كرهوا حرب المسلمين فخضعوا وذلوا وأذعنوا وطلبوا الصلح . قال : فصالحهم عمرو بن العاص على ثلاثمائة رأس من السبي ومثلها من الخيل والبغال والحمير ومثلها من البقر والغنم ، فأخذ ذلك كله منهم .

ثم سار منها إلى مراقية ولبدة وسبرة وزويلة ، فصالح أهل كل مدينة من هذه المدن على ما صالح عليه أهل المدينة الأولى .

ثم سار إلى برقة فلم يترك بساحتها حصناً حتى خرجوا إليه فحاربوه ساعة من النهار ثم إنهم انهزموا من بين أيدي المسلمين فزعين مرعوبين حتى دخلوا مدينتهم برقة وقد قتل منهم من قتل ، ثم سألوا الصلح بعد ذلك ، فأجابهم إليه عمرو بن العاص ، فصالحهم على خمسمائة من السبي ، ثلاثمائة غلام ومائتي جارية ومثل ذلك من الماشية[1] ؛ فجمع ذلك كله ثم كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما فتح الله عزَّ وجلّ على يده من البلاد وأنه مقيم على باب برقة[2] إلى أن يرد عليه

= (٤) لبدة : مدينة بين برقة وإفريقية . (معجم البلدان) .

(٥) سبرة : مدينة بإفريقيا ، كانت سوق اطرابلس . (معجم البلدان) .

(٦) برقة : صقع كبير بين الإسكندرية وإفريقيا يشتمل على مدن وقرى ، واسم مدينتها انطابلس .

(١) في فتوح البلدان ص ٢٢٥ صالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشرة ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه . (اليعقوبي ٢/١٥٦ ٢ معجم البلدان) وكان ذلك في سنة ٢٢ .

(٢) في فتوح البلدان ص ٢١٧ أن عمرو بن العاص وصل إلى اطرابلس فكتب إلى عمر بن الخطاب : « إنا قد بلغنا اطرابلس وبينها وبين إفريقيا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل . فكتب إليه عمر ينهاه ويقول : ما هي بإفريقيا ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً » . وفي تاريخ اليعقوبي ٢/١٥٦ : ولا يغزوها أحد ما بقيت .

كتاب أمير المؤمنين فينتهي إلى أمره إن شاء الله تعالى .

ذكر كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ! أما بعد فقد بلغني أن الأعاجم قد تحركت بأرض الأهواز(١) من تستر والسوس ومناذر وما والى ذلك وقد جمعوا المسلمين جمعاً ، فإذا ورد عليك هذا الكتاب إن شاء الله فلا تضيعه من يدك حتى تضم إليك أصحابك ومن أجابك من أهل البصرة وسائر المسلمين ، ثم سر بهم على بركة الله عزَّ وجلّ وطاعته والرغبة فيما لديه ، فمن أجابك منهم فهو أولى بماله وأهله وولده ، وليس لك من ذلك إلا بُلغة إن احتجت إلى ذلك ، وعظ نفسك وأصحابك ولا تكثر عليهم الحرب في كل وقت فيملوها إلا أن يطلبوا ذلك منك ، وألن لهم جانبك وحُطْهم بنفسك ، واعلم بأن المسلمين في جوار الله عزَّ وجلّ ، وأن المسلم أعظم الخلق على الله عزَّ وجلّ حرمة ، فلا يطلبنك الله عزَّ وجلّ بمظلمة أحد منهم ، واحذر عليهم واحفظ قاصيهم ، وأنصف مظلومهم ، وخذ لضعيفهم من قويهم وأصلح ذات بينهم ، وألزمهم القرآن وخوفهم ، وامنعهم من ذكر الجاهلية وما كان فيها فإنه يورث الضغينة ويدعو إلى الدخول والقطيعة ، واعلم يابن قيس بأن الله تبارك وتعالى قد تكفل لأهل هذا الدين بما لا خلف له من النصر والظفر ، فاحذر أن يصرف الله عزَّ وجلّ بوجهه إلى غيرك وأن يستبدل بك سواك من خلقه - والسلام عليك ورحمة الله وبركاته - .

قال : فلما ورد كتاب عمر رضي الله عنه على أبي موسى الأشعري وقرأه قال : يرحم الله أمير المؤمنين كأن ملكاً بين عينيه يسدده إلى الكلام ، ثم نادى في الناس فجمعهم وعرضهم فكانوا يزيدون على عشرة آلاف من بين فارس وراجل ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله عزَّ وجلّ وأثنى عليه ، ثم وعظهم وأحسن الموعظة وقرأ عليهم كتاب عمر رضي الله عنه وأمرهم بالجهاز إلى أرض الفرس وديارها وقال لهم فيما يقول : أيها الناس ! إذا لقيتم العدو غداً فاصبروا على جهادهم واجعلوا حصونكم الصفائح والحجف والعوالي ، فإن كلّت الرماح والصفائح فاعترضوهم

---

(١) الأهواز : كان اسمها أيام الفرس خوزستان ، والأهواز اسم الكورة بأسرها ، وعند العامة هي سوق الأهواز ، وهي سبع كور بين البصرة وفارس وهي : سوق الأهواز ورامهرمز وايذج وعسكر ومكرم وتستر وجنديسابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر .

بالسهام والجندل ، وانظروا لا يكونن شيء مما خلق ربكم أهون عليكم من الدنيا فإنها دار الفتنة وسجن المؤمن ، ولا يكونن شيء أحب إليكم من لقاء ربكم فإن ما عند الله خير للأبرار ، ألا ! وإني سائر فسيروا إلى لقاء عدوكم غداً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : ثم نزل عن المنبر ودعا عمران بن الحصين واستخلفه على البصرة . وخرج أبو موسى بمن معه من الناس حتى نزل الأيلة[1] وتلاحق به الناس ، فرحل من الأيلة[1] حتى دخل أرض الأهواز ، فجعل يفتحها رستاقاً رستاقاً ونهراً نهراً ، والفرس يرتفعون بين يديه ويخلون له البلاد وأبو موسى في أثرهم يتبعهم فيخرب أرضهم ويغنم أموالهم ، حتى فتح أرض الأهواز كلها إلا السوس وتستر ومناذر ورامهرمز هذه الأربعة[2] .

ثم نزل على مناذر الكبرى وبها يومئذٍ خلق كثير من الفرس ، فناوشهم أبو موسى القتال ، وتقدم فتى من خيار المسلمين يقال له المهاجر بن زياد بن الديان[3] فجعل يقاتل قتالاً شديداً وهو في ذلك صائم ؛ فأقبل أخ له يقال له الربيع بن زياد إلى أبي موسى فقال : أيها الأمير ! إن أخي مهاجر بن زياد قد شرى نفسه لله في هذا اليوم وهو صائم ، وأنا أعلم أنه قد بلغ منه العطش فلو أمرته أن يفطر ويحارب العدو ! قال : فنادى أبو موسى في الناس[4] : ألا ! أني أحرج على رجل قاتل في هذا اليوم وهو صائم . قال : فدعا المهاجر بن زياد بشربة من ماء فشرب ، ثم قال : أيها الأمير ! أترى هذه الشربة [من] الماء تحول بيني وبين دخول الجنة ؟ لا والله لا كان ذلك أبداً إن شاء الله وأنا أريد الشهادة .

---

(١) كذا بالأصل ، وهو بعيد ، لعله « الأبلة » .

(٢) وذلك في سنة ١٧ . والخبر في الطبري ٢٠٨/٤ باختلاف ولم يأت فيه على ذكر أبي موسى . وقال فتوح البلدان ص ٣٧٠ أن المغيرة بن شعبة غزا في ولايته سوق الأهواز وشخص عتبة من البصرة آخر سنة ١٥ أو أول سنة ١٦ . وبعد نكث الهرمزان صلحه غزاها أبو موسى ، وكان أبو موسى قد تولى البصرة بعد المغيرة وذلك في سنة ١٧ . ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب عمر إلى أبي موسى « . . . فقد بلغني أن الأعاجم قد تحركت بأرض الأهواز من تستر والسوس ومناذر وما والى ذلك . . . سر على بركة الله » (انظر نص كتاب عمر إلى أبي موسى في الصفحة السابقة) .

(٣) عن فتوح البلدان ص ٣٧٠ وبالأصل : عبد المدان .

(٤) عبارة فتوح البلدان : عزمت على كل صائم أن يفطر أو لا يخرج إلى القتال .

قال : وتقدم المهاجر فلم يزل يقاتل حتى قتل ـ رحمة الله عليه . قال : وأخذت الفرس رأس المهاجر بن زياد وكانت له ضفيرتان فعلق رأسه على سور المدينة بضفيرتيه ؛ قال : وغضب أبو موسى الأشعري لذلك وحرض المسلمين على الحرب ، فلم يزل يحارب أهل مناذر أشد حرب حتى فتحها قسراً ، فلم يترك فيها محتلماً حتى قتله وسبى أهلها وأخذ أموالها .

ذكر فتح السوس وما كان من محاربة أهلها

قال : ثم سار أبو موسى إلى السوس(١) فنزل عليها وحاصر أهلها حصاراً شديداً ، قال : وبها يومئذٍ ملك من ملوك العجم يقال له سابور بن آذرماهان(٢) ، فلما نظر إلى خيل المسلمين وقد نزلت عليه ونظر أن أبا موسى قد حاصره وضيق عليه دعا بوزير له يقال له كرد بن آذرمهر ، فأرسله إلى أبي موسى يسأله أن يعطيه الأمان له ولعشرة(٣) من أهل بيته ويسلم له قلعة السوس ، فأجابه أبو موسى إلى ذلك وبعث إليه أن تسمي من أحببت أن يخرج في الأمان ، قال : فسمى سابور من أراد أن يخرجه من القلعة ولم يسم نفسه فيهم ؛ قال : فجعل أبو موسى يسمي من خرج من القلعة حتى سمى القوم بأسمائهم ، ثم خرج سابور من بعد ذلك فقال له أبو موسى : أليس إنما كتبت إلي تسألني أن أعطي عشرة من أصحابك الأمان ؟ قال : بلى ! قال : فهؤلاء عشرة كما ذكرت وما أرى لك ههنا اسماً ، وإن في قتلك صلاحاً ؛ ثم قدمه أبو موسى فضرب عنقه صبراً ، واحتوى على مدينة السوس فغنم ما فيها وأخذ أموال سابور ملكها ، وجعل يدور بالخزائن فيأخذ ما فيها ، حتى أفضى إلى خزانة مقفلة وقد ختم قفلها بالرصاص ، فقال أبو موسى لأهل السوس : ما في هذه الخزانة فإني أراها مختومة بالرصاص ؟ فقالوا : أيها الأمير ! ليس فيها شيء من حاجتك ، فقال : لا بد لي من علم ما فيها .

خبر دانيال الحكيم

قال : فكسر القفل وفتح الباب ودخل أبو موسى إلى تلك الخزانة فنظر فإذا هو

(١) السوس : بلدة بخوزستان .
(٢) في الطبري ٤/٢٢٠ وابن الأثير ٢/١٦٢ والبداية والنهاية ٧/١٠١ شهريار أخو الهرمزان .
(٣) في فتوح البلدان ص ٣٧١ : لثمانين .

بحجر كبير محفور على مثال الحوض(١) وفيه رجل ميت وقد كفن في أكفان منسوجة بالذهب ورأسه مكشوف(٢) ، قال : فتعجب أبو موسى من ذلك وقال لأهل السوس : ويحكم من هذا الرجل ؟ قالوا : هذا رجل كان بالعراق وكان أهل العراق إذا احتبس عنهم المطر يستسقون به فيسقون ، فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق فأرسلنا إليهم وسألناهم أن يدفعوه إلينا حتى نستسقي به فأبوا علينا ، فأرهناهم خمسين رجلاً وحملناه إلى هذا المكان ، ثم استسقينا فسقينا ، ورأينا من الرأي أن لا نرده عليهم ، فلم يزل مقيماً عندنا إلى أن أدركته الوفاة فمات ؛ فهذه قضيته وهذا حاله .

قال : فأقام أبو موسى الأشعري بالسوس وكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بما فتح الله عزَّ وجلّ عليه من مناذر وما والاها ومدينة السوس ويذكر في كتابه أمر دانيال . قال : فدعا عمر بأكابر أصحاب رسول الله ﷺ ثم سألهم عن دانيال هذا ، فلم يجد عندهم فيه خبراً ، فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : بلى هذا دانيال الحكيم وهو نبي غير مرسل ، غير أنه في قديم الزمان مع بختنصر ومن كان بعده من الملوك . قال : وجعل عليّ يحدث عمر بقضية دانيال من أولها إلى آخرها إلى وقت وفاته ، ثم قال علي : اكتب إلى صاحبك أن يصلي عليه ويدفنه في موضع لا يقدر أهل السوس على قبره ؛ قال : فكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري بذلك(٣) ، فلما قرأ أبو موسى كتاب عمر أمر أهل السوس أن يقلبوا نهرهم إلى موضع آخر . ثم أمر بدانيال فكفن أيضاً في أكفان فوق التي كانت عليه ، ثم صلّى عليه هو وجميع أصحابه من المسلمين ، ثم أمر بقبره ، فحفر في وسط نهر السوس ثم دفنه وأجرى عليه الماء ؛ فيقال إن دانيال مدفون في نهر السوس والماء يجري عليه إلى يومنا هذا ـ والله أعلم ـ(٤) .

---

(١) في كتاب الأموال لأبي عبيد : وجدوا دانيال في إيزن .

(٢) زيد في كتاب الأموال لأبي عبيد : وإلى جانبه مال موضوع ، وكتاب فيه : من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل ، فإن أتى به إلى ذلك الأجل وإلاّ برص .

(٣) نصه عن الوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٦٨/ جس ، جع :
كفنه وحنطه ، وصلِّ عليه ، ثم ادفنه كما دفنت الأنبياء صلوات الله عليهم . . وانظر ماله ، فاجعله في بيت مال المسلمين .

(٤) انظر خبر دانيال في الطبري ٤/٢٢٠ وفتوح البلدان ص ٣٧١ ومعجم البلدان (السوس) ، والبداية والنهاية ١٠٢/٧ .

ذكر فتح تستر وما كان من محاربة المسلمين لأهلها

قال : ثم سار أبو موسى إلى تستر[١] بعد فراغه من أمر السوس فنزل عليها وبها يومئذٍ الهرمزدان أنو شروان[٢] ، فلما علم أن العرب قد نزلت بساحته جمع نواحيه وضم أطرافه ثم كتب إلى يزدجرد ملك الفرس يخبره بأمر العرب ويسأله المدد ؛ قال : ويزدجرد يومئذٍ مقيم بنهاوند في جمع عظيم من الفرس ، فلما ورد عليه كتاب الهرمزدان يسأله المدد دعا برجل من وزرائه يقال له شاه بوذان فضم إليه عشرة آلاف ، وأتبع له آخر يقال له دار بهان في عشرة آلاف ، وأتبعه بوزير آخر يقال له دارنوش في عشرة آلاف ، وبوزير آخر يقال له راحشين في عشرة آلاف ، فذلك أربعون ألفاً ، واجتمع إلى الهرمزدان أهل بلده في خمسة وعشرين ألفاً ، فصار في خمسة وستين ألفاً .

قال : وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بذلك ويسأله المدد ؛ قال : فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى جرير بن عبد الله البجلي وجرير يومئذٍ بحلوان ، فأمره بالمسير إلى أبي موسى ؛ ثم كتب أيضاً إلى عمار بن ياسر وعمار بالكوفة ، فأمره بالمسير إلى أبي موسى[٣] .

قال : فدعا جرير بابن عم له يقال له عروة بن قيس البجلي واستخلفه على حلوان في ألف رجل ، وخرج جرير من حلوان في أربعة آلاف فارس يريد أبا موسى ، قال : وسار جرير حتى قدم على أبي موسى .

ودعا عمار بن ياسر عبد الله بن مسعود فقال : هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يأمرني فيه بالمسير إلى أبي موسى الأشعري لنصرة إخواننا المؤمنين من أهل البصرة ، فأنت خليفتي على أهل الكوفة إلى قدومي إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال : ثم نادى عمار في أهل الكوفة فاستنهضهم إلى الجهاد ، فأجابه الناس إلى ذلك سراعاً ، فخرج عمار من الكوفة في ستة آلاف فارس يريد إلى أبي موسى .

---

(١) تستر : من مدن خوزستان .

(٢) في معجم البلدان وفتوح البلدان والبداية والنهاية : الهرمزان .

(٣) كذا بالأصل وفتوح البلدان ومعجم البلدان ، وعند الطبري وابن الأثير وابن كثير : أن أمير الناس أبو سبرة بن أبي رهم .

قال : فجعل بشر بن منقذ الهمداني يذكر حروبهم المتقدمة بالخيلة في أيام مهران وما كان من محاربتهم بين يدي المثنى بن حارثة الشيباني رحمه الله . قال : وسار عمار بن ياسر حتى قدم على أبي موسى الأشعري ، فصار أبو موسى على باب تستر في نيف على عشرين ألفاً بين فارس وراجل ، فعندها دعا بالنعمان بن مقرن المزني وجرير بن عبد الله البجلي فأمرهما بالمسير إلى رام هرمز(١) على أنهما يدعوان أهلها إلى الإسلام .

قال : فسار جرير حتى نزل على رام هرمز ثم إنه بعث بالنعمان بن مقرن ففتح قلعتين من قلاع رام هرمز وأصاب منها سبياً وخيراً كثيراً ؛ قال : وفتح جرير بن عبد الله(٢) مدينة رام هرمز بالسيف قسراً فاحتوى على أموالها ونسائها وذريتها .

قال : وبلغ ذلك أبا موسى الأشعري فقال لأهل البصرة : ويحكم ! إني كنت أعطيت أهل رام هرمز الأمان وأجلتهم ستة أشهر إلى أن يروا رأيهم(٣) ، فعجل جرير بن عبد الله وأهل الكوفة ففتحوا مدينتهم قسراً وقسموا السبايا ، فهاتوا ما عندكم من الرأي ! قال : فقال أهل البصرة : الرأي في ذلك عندنا أن تكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتخبره بذلك إلى أن يرد عليك الخبر من عنده فتعمل بحسب ما يأمرك .

قال : فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بالخبر على وجهه ؛ فكتب عمر إلى صلحاء عسكر أبي موسى مثل حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب وأنس بن مالك وسعيد بن عمرو الأنصاري وغيرهم أن ينظروا في ذلك ؛ فإن كان أبو موسى قد أعطى رام هرمز من الأمان قبل ذلك كما زعم وأعطاهم عهداً وكتاباً مكتوباً أن يرد الناس ما في أيديهم من السبي ، وإن كانت امرأة حامل أن تحبس في موضع ويوكل عليها ويجرى لها النفقة حتى تضع ما في بطنها ثم تخير بعد ذلك بين الإسلام والمقام مع صاحبها ، فإن اختارت الإسلام فذلك ، وإن أبت ردت إلى بلادها ، وأن تستحلفوا أبا موسى الأشعري أنه قد كان أعطى أهل رام هرمز عهداً

---

(١) رام هرمز : مدينة مشهورة من نواحي خوزستان .

(٢) في الطبري ٢١٢/٤ وابن الأثير ١٦٣/٢ أن النعمان بن مقرن سار إلى رامهرمز وفتحها وكان بها الهرمزان فهرب منها ولحق بتستر .

(٣) في فتوح البلدان ص ٣٧٢ هادن أبو موسى أهل رامهرمز ثم انقضت مدتهم فوجه إليهم أبا مريم الحنفي فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم .

وأماناً وضرب لهم أجلاً ستة أشهر كما زعم ، فإذا حلف بذلك فيرد السبي ولا سبيل عليهم إلى انقضاء المدة والأجل .

قال : فاستحلف المسلمون أبا موسى فحلف أنه قد أعطى أهل رام هرمز أماناً وعهداً مؤكداً وضرب لهم أجلاً ، وكانوا في موادعته ستة أشهر . فلما حلف أبو موسى بذلك رد المسلمون السبي إلا بلادهم ، ووضعت الحوامل ما في بطونهن فخيرن بعد ذلك ، فمنهن من اختارت الإسلام فأقامت مع صاحبها ، ومنهن من أبت فردت إلى بلادها .

قال : وكتب بعض أصحاب جرير بن عبد الله إلى عمر بن الخطاب أبياتاً يذكر فعل جرير بأهل رام هرمز وأنه لم يفعل ما فعل إلا بأمر أبي موسى ، وأن أبا موسى هو الذي أمرهم بالنزول عليهم وبمحاربتهم .

ثم رجعنا إلى أخبار تستر

قال : وعزم المسلمون على حرب أهل تستر فوثب أبو موسى يعبي أصحابه ، فكان على ميمنته جرير بن عبد الله البجلي ، وعلى ميسرته النعمان بن مقرن المزني ، وعلى الجناح البراء بن عازب ، وعلى أعنة الخيل عمار بن ياسر ، وعلى رجالته حذيفة بن اليمان[١] ؛ ثم إنه زحف بخيله ورجله نحو تستر ، ورجل من المسلمين يقرأ هذه الآية : **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾**[٢] .

قال : وخرج الهرمزدان[٣] صاحب تستر إلى حرب المسلمين في الأساورة والمرازبة[٤] وبين يديه قواد الأعاجم ، وكذلك عن يمينه وشماله ؛ فقال رجل من المسلمين[٥] : اللهم ! تعلم أني أحب لقاءك وأبغض أعداءك فانصرنا عليهم

---

(١) انظر في تعبئته فتوح البلدان ص ٣٧٣ ومعجم البلدان (تستر) .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .
(٣) الهرمزان ، وقد مرّ .
(٤) أساورة جمع إسوار : القائد عند الفرس ، والجيد الرمي بالسهام (قاموس) .
المرازبة جمع مرزبان : الرئيس عند الفرس (قاموس) .
(٥) لعله البراء بن مالك ، وكان مجاب الدعوة (عن البداية والنهاية ٩٩/٧ وابن الأثير ١٦٣/٢) .

واقبضني إليك ، يا رب ! إنك على كل شيء قدير ؛ قال : ثم إنه حمل على أهل تستر ، فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم جماعة ثم وقف في ميدان الحرب ، قال : ثم حمل ثانية على أهل تستر ، فلم يزل يقاتل حتى قتل رحمة الله عليه .

قال : واشتبك الحرب بين الفريقين فاقتتلوا ساعة من النهار ، وحمل رجل من الفرس يقال له مراد شاه في زهاء ألف فارس من أبطال الفرس على ميسرة أهل الكوفة وفيهم يومئذٍ بنو بكر بن وائل وجماعة من كندة ، قال : وانكشف الكوفيون بين يدي الفرس كشفة أطمعوهم في أنفسهم ، ثم رجعوا عليهم فطردوهم بين أيديهم طرداً وكدوهم بحملتهم عليهم كداً وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ قال : ثم وقعت الهزيمة على أهل تستر ، فانهزموا والسيف يأخذهم حتى دخلوا مدينتهم .

فلما كان من غد عبى أبو موسى أصحابه كما عبأهم بالأمس ثم زحف بهم نحو باب تستر ، قال : وخرج الهرمزدان صاحب تستر إلى قتال المسلمين وقد عبى أصحابه تعبية خلاف تعبيته بالأمس ، وعلى ميمنته رجل من قواد يزدجرد يقال له مهريار في نيف من عشرة آلاف من الأساورة وعلى ميسرته رجل من الري يقال له شيرواهات في أربعة آلاف من الفرس ، وبين يديه ملك من ملك الأهواز يقال له خرشيد بن بهرام في نيف عن عشرة آلاف فارس ؛ ما يبين منهم شيء سوى حوافر الخيل من كثرة السلاح والتجافيف ، والهرمزدان يومئذٍ في القلب في جماهير الأعاجم ، عليه جوشن مذهب وبيضة مذهبة وسيف محلى بالذهب ، وقد التحف بدرقة مذهبة وفي يده طبرزين مذهب ، وكل ذلك مما أتحفه به يزدجرد حين قاتل معه يوم جلولاء .

قال : ونظر أبو موسى الأشعري إلى جمع الهرمزدان وتعبيته وزينته فنادى بأعلى صوته : يا أهل الإسلام ! ويا حملة القرآن ! ويا أهل المعرفة والإيمان ! لا يغرنكم هذه الجيوش ولا تهابوا هذه التعبية ، فهي كالجيوش والتعبية التي قد لقيتموها في كل موطن ، ووالله ! ما أحد يشك في كفر هؤلاء القوم وقتالهم إلا أدخله الله مدخلهم .

قال : وجعل أبو موسى يسير بين الصفين فيسوي أصحابه ويقف على شرذمة شرذمة فيوصيهم بالصبر ويعدهم النصر والظفر .

خبر نصر بن الحجاج السلمي وما كان من أمره وكيف صار إلى تستر ومحاورته مع أبي موسى الأشعري

قال : فبينما أبو موسى كذلك إذ مر بفتى من بني سليم يقال له نصر بن الحجاج[1] ، وكان من الفرسان الأبطال ، وكان به مسحة من جمال ، وهو الذي أخرجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة .

وكان السبب في ذلك أن امرأة من أهل المدينة يقال لها الذلفاء هويت نصر بن الحجاج هذا فأرسلت إليه ودعته إلى نفسها ، فزجرها ولم يواتها إلى ما تريد . قال : فبينا عمر ذات يوم مار[2] في سكك المدينة إذ سمع نشيد شعر من دار ، فوقف يستمع فإذا الذلفاء ، قال : فلما سمع عمر رضي الله عنه هذه الأبيات[3] منها أمر بالذلفاء ، فأخرجت من منزلها ، ثم أمر بها فحبست ؛ قال : فعلمت الذلفاء أن عمر سمعها وهي تنشد تلك الأبيات ، فكأنها اتقت على نفسها أن يعاقبها على ذلك فكتبت إليه من محبسها أبياتاً[4] . قال : فلما نظر عمر رضي الله عنه في هذه الأبيات أمر

---

(١) هو نصر بن حجاج بن علاط ، السلمي ، وهو من بني بهز بن امرىء القيس ، أبوه من خيار الصحابة (الإصابة - جمهرة أنساب العرب) .

(٢) في طبقات ابن سعد ٣/٢٨٥ بينما عمر بن الخطاب يعس ذات ليلة .

(٣) عند ابن سعد وعيون الأخبار ٤/٢٣ .

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل من سبيل إلى نصر بن حجاج

ورد في تزيين الأسواق ٢/٢٩ بعده

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ... سهل المحيا كريم غير ملجاج

تنميه أعراق صدق حين تنسبه ... أخي حفاظ عن المكروب فراج

فقالت لها امرأة معها : من نصر ؟ قالت : رجل أود لو كان معي طول ليلة ليس معنا أحد ، فدعا بها عمر فخفقها بالدرة .

(٤) في تزيين الأسواق :

قل للإمام الذي تخشى بوادره ... مالي وللخمر أو نصر بن حجاج

إني غنيت أبا حفص بغيرهما ... شرب الحليب وطرف غير ساجي

إن الهوى زمه التقوى فقيده ... حتى أمر بإلجام وإسراج

أمنية لم أطر فيها بطائرة ... والناس من هالك فيها ومن ناجي

لا تجعل الظن حقاً أو تبينه ... إن السبيل سبيل الخائف الراجي =

بإخراجها من محبسها ، فأخرجت .

ثم أرسل إلى نصر بن الحجاج أن أخرج[1] من المدينة والحق بالبصرة فكن بها إلى أن يأتيك أمري . قال : فمضى نصر بن الحجاج إلى البصرة فنزلها ثم كتب إلى عمر أبياتاً ؛ قال : فلما وصلت الأبيات إلى عمر ونظر فيها كتب إلى أبي موسى الأشعري وأمره بالوصاءة به إن أحب أن يقيم بالبصرة وإن أحب الرجوع إلى المدينة فذاك إليه ؛ فاختار الفتى الإقامة بالبصرة . فلم يزل مقيماً بها إلى أن خرج أبو موسى الأشعري إلى محاربة أهل الأهواز ، فخرج معه هذا الفتى نصر بن الحجاج في هذا الجيش ؛ فلما كان يوم تستر مر به أبو موسى وهو على فرس له أشقر ، فجعل يطيل النظر إلى الفرس ، فقال له نصر بن الحجاج : ما لي أراك قد أطلت النظر إلى فرسي ! فقال له أبو موسى مداعباً له : ليس فرسك هذا بشيء ولكنه حسن القميص ، فهل لك أن تبيعنيه ؟ قال : فغضب نصر بن الحجاج فقال : أيها الأمير ! أنت بالبقر أبصر منك بالخيل ، فقال له أبو موسى : صدقت يابن أخي وإني لأرى بقرتك هذه حديدة القرن ، دقيقة الأذن ، عريضة الجبهة ، جيدة الجوف قريبة من الأرض ، فاشدد يدك بها ؛ فقال له نصر بن الحجاج : فلا عليك أيها الأمير أن تسابقني ببقرتك هذه التي تحتك ؛ قال : وجعل نصر بن الحجاج يحدث أبا موسى بهذا الكلام وهو يستحي أن يرفع رأسه . قال : والتفت ابن عم لنصر بن الحجاج إلى أبي موسى فقال : أيها الأمير ! إني أراك قد عبت فرس ابن عمي هذا وإن فرسك لأشبه شيء بالبقر ، لأنه عظيم الرأس ، أخطل[2] الأذنين ، مهلوب[3] الذنب ، قصير الرجلين ؛ قال : فضحك أبو موسى ثم قال : يا أخا بني سليم ! إني لم أرد بكلامي ابن عمك إلا خيراً وإنما كانت مني إليه مداعبة ، فذر عنك الغضب رحمك الله وعليك بالجهاد .

= قال : وكان عمر قد سأل عنها فوصفت له بالعفاف فأرسل إليها : قد بلغني عنك خير فقري .

(١) عند ابن سعد : فأرسل إليه فأتاه فإذا هو من أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً ، فأمره عمر أن يطم شعره ففعل ، فخرجت جبهته فازداد حسناً . فأمره عمر أن يعتم ففعل ، فازداد حسناً فقال عمر : لا والذي نفسي بيده لا تجامعني بأرض أنا بها ، فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة (الطبقات ٢٨٥/٣) .

(٢) أخطل الأذنين : الطويلة المضطربة المسترخية (اللسان) .

(٣) مهلوب الذنب : المنتوف شعره .

ثم رجعنا إلى حديث الحرب

قال : ودنا المسلمون من الفرس والفرس من المسلمين فتراموا بالنشاب والنبل ساعة ، ثم إنهم تلاحموا فاختلطوا ، واشتبك الحرب بينهم من وقت بزوغ الشمس إلى قريب من الظهر . قال : وإذا رجل من عظماء الفرس من أهل تستر يقال له هرمك قد خرج فجعل يجول ويطلب البراز ، فخرج إليه شيخ من باهلة من بني حلوه[1] يقال له أوس على فرس له عجفاء ؛ فلما نظر إليه أبو موسى عرفه فناداه أن ارجع يا أخا باهلة ! فلست من أهل هذا الفارسي لأنك شيخ بالٍ وأنت على فرس بال ؛ قال : فرجع الشيخ ولم يخرج ، وجعل الفارسي يطلب البراز ، فأحجم عنه الناس وخرج إليه الشيخ ثانية ، فرده أبو موسى ، فغضب الباهلي من ذلك ولم يلتفت إلى كلام أبي موسى ومضى نحو الفارسي ، فالتقيا بطعنتين ، طعنة الباهلي قتلته ، ثم أقبل راجعاً نحو المسلمين ؛ قال : فقال له أبو موسى : يا أخا باهلة ! إن الأشعري لم يرد بكلامه إياك بأساً ، فقال الباهلي : ولا الباهلي أراد بأساً أيها الأمير !

قال : وتقدم جرير بن عبد الله البجلي حتى وقف بين الصفين ثم نادى بأعلى صوته : أيها المسلمون ! الجهاد ثوابه عظيم وخطره جسيم ، وهذا يوم له ما بعده من الأيام ، وقد دعاكم الله عزَّ وجلَّ إلى الجهاد ووعدكم عليه الثواب ، ونهاكم عن التثاقل وحذركم العقاب ، فاعملوا في يومكم هذا عملاً يرضى به ربكم عنكم ، ألا وإني حامل يا معشر بجيلة فاحملوا .

قال : ثم جعل جرير يرتجز ، قال : ثم حمل جرير من الميمنة وحمل النعمان بن مقرن من الميسرة واختلط الفريقان ، ودارت بهما الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم صدقهم المسلمون القتال والحملة وكبروا ، وإذا الهرمزدان قد ولى بين يدي أصحابه فاتبعته الأعاجم ، ووضع المسلمون فيهم السيف فقتلوا منهم في المعركة مقتلة عظيمة وأسروا منهم ستمائة رجل ، ودخل الهرمزدان وأصحابه إلى تستر بأشر حالة تكون وعامة أصحابه جرحاء ؛ ورجع المسلمون إلى معسكرهم ، وقدم أبو موسى هؤلاء الأسراء فضرب أعناقهم عن آخرهم .

فلما كان من غد إذا برجل من الفرس من أهل تستر يقال له نسيبه بن دارنة قد

---

(1) كذا ، وليست في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ولا جمهرة ابن الكلبي .

أقبل إلى أبي موسى الأشعري من بعد صلاة العشاء الآخرة فقال : أيها الأمير ! أتعطيني الأمان على نفسي ومالي وولدي وأهلي وأدفع إليك هذه المدينة ؟ فقال له أبو موسى : لك ذلك ؛ فقال الفارسي : فابعث معي الساعة رجلاً حتى أوقفه على الطريق الذي يتهيأ لكم أن تدخلوا المدينة منه ؛ قال : فبعث معه أبو موسى برجل يقال له عوف بن مجزأة[1] فقال له : انطلق مع هذا الرجل حتى يوقفك على الطريق الذي يتهيأ لنا أن ندخل منه إلى مدينة تستر .

قال : فخرج عوف بن مجزأة مع نسيبه هذا الفارسي في جوف الليل حتى جاز به الفارسي نهر تستر فأوراه المخاضة من موضع عرفه ، ثم مر به على عرق الجبل حتى أصعده السور . وعلى السور قوم نيام قد أوقفهم الهرمزدان في ذلك الموضع حرساً للمدينة ؛ قال : فجاز به نسيبه رويداً رويداً حتى أنزله إلى مدينة تستر ثم جاء به إلى منزله فبات فيه ؛ فلما أصبح نسيبه أخذ طيلساناً له فدفعه إلى عوف بن مجزأة فقال له : غط رأسك بهذا الطيلسان واتبعني ، قال : فخرج المسلم يتبع نسيبه حتى جاز به على باب الهرمزدان والهرمزدان في وقته قد وضع الموائد على بابه يغدي قواده وأساورته ؛ فقال نسيبه للمسلم : هذه دار الهرمزدان فأعرفها لتخبر أصحابك بذلك ؛ قال : ثم جاء به حتى أوقفه على باب المدينة فعرفه إياه ، وطاف به في مدينة تستر حتى عرفه جميع دورها وقصورها ثم رده إلى منزله ، فلما كان الليل أخرجه وجاء به حتى أوقفه على الموضع الذي جاء به منه فقال : اعبر الآن هذا النهر وسر إلى صاحبك فخبره بما رأيت وقل له فليبعث معك بجماعة وليتبعوك حتى تدخل المدينة كما أدخلتك إياها وليحتالوا في قتل هؤلاء الحرس ، فإذا كان وقت الصبح فلينزلوا إلى باب المدينة فليعالجوه حتى يفتحوه ، ويكون صاحبك قدعبى أصحابه وأوقفهم على الباب ، فإني أرجو أن يفتح الله هذه المدينة لكم ، فإني قد أوقفتك على مدخلها ومخرجها فخبر أنت أصحابك بذلك وكن أنت الدليل لهم على فتحها .

قال : فخرج عوف بن مجزأة إلى أبي موسى فخبره بذلك ، فلما كان في الليلة الثانية قال أبو موسى لأصحابه : أيها المسلمون من يهب نفسه لله تعالى في هذه الليلة فليخرج مع عوف بن مجزأة حتى يدخل بهم مدينة تستر فيكونوا هم الذين يفتحون لنا

---

(١) في الطبري ٤/٢١٦ عامر بن عبد القيس وكعب بن سور ومجزأة بن ثور . وعند ابن الأثير ٢/١٦٤ عامر بن عبد القيس . وفي فتوح البلدان ص ٣٧٣ أشرس بن عوف رجل من بني شيبان .

بابها من داخلها ، فقد تعلمون أنه ليس لنا في تستر حيلة إلا أن تفتح لنا من داخلها لأجل هذا النهر الذي يدور حولها .

قال : فانتدب له سبعون[1] رجلاً أو يزيدون من أهل البصرة وأهل الكوفة فتقلدوا بسيوفهم ثم مضوا نحو تستر وعوف بن مجزأة بين أيديهم ، حتى جاز بهم النهر فخاضه من الموضع الذي قد عرفه ، ثم أصعدهم على عَرَق الجبل حتى أوقفهم على السور والحرس في وقتهم ذلك نيام لا يعقلون . قال : فنكى فيهم هؤلاء المسلمون فذبحوهم عن آخرهم ، ثم قعدوا على السور ينتظرون الصبح ، فلما كان وقت الصبح وثب المسلمون فصلوا بغلس[2] وركبوا دوابهم وتقلدوا سيوفهم وتناولوا رماحهم وقصدوا نحو باب تستر والباب مغلق ؛ قال : ونزل هؤلاء السبعون الذين مضوا في أول الليل فساروا إلى باب تستر من داخل ليعالجوه فيفتحوه ، وكان على الباب ثلاثة أقفال ومفاتيح الأقفال عند الهرمزدان ، قال : وكبر المسلمون من خارج الباب وكبر المسلمون السبعون من داخل الباب ، وسمعت الفرس بذلك فبادروا وخرجوا من دورهم وقصورهم وركبوا ، وركب الهرمزدان في أساورته ومرازبته نحو الباب . قال : فجعل هؤلاء السبعون رجلاً يقاتلون أهل تستر بأجمعهم ، وكان قوم يعالجون فتح الباب وقوم يحاربون حتى كسروا قفلين وقتل عامة هؤلاء السبعين فما بقي منهم إلا نفر قليل . قال : وجعل المسلمون يكبرون من خارج المدينة وليس لهم في أصحابهم حيلة ، فلم يزالوا كذلك حتى قتل السبعون بأجمعهم غير ثلاثة نفر ، ففتحوا القفل الثالث واقتحم المسلمون مدينة تستر وهؤلاء الثلاثة أيضاً داستهم الخيل فقتلتهم .

قال : وسار المسلمون بأجمعهم حتى صاروا في مدينة تستر فجعلوا يقتلون وينهبون ، وخرج الهرمزدان عن مدينة تستر هارباً حتى صار إلى قلعة له ، وقد كان قدم أهله وولده وعامة أمواله إلى تلك القلعة في نفر من أهل بيته وخدمه وحشمه فتحصن هنالك ، وغنم أبو موسى والمسلمون جميع ما كان بتستر من أموالها وغنائمها ، ومرت الفرس على وجوهها يمنة ويسرة وقد كانوا وجهوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ففرقوهم في البلاد خوفاً من المسلمين .

---

(1) في فتوح البلدان ص ٣٧٣ ندب أبو موسى أربعين رجلاً . . . وأتبعهم مائتي رجل .
(2) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح . (اللسان) .

قال : وجمع أبو موسى غنائم تستر فأخرج منها الخمس ليوجه به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقسم باقي ذلك في المسلمين ، فأعطى كل ذي حق حقه[١] ؛ ثم سار في جميع أصحابه حتى نزل إلى قلعة الهرمزدان فحاصره بها أشد الحصار ، فلما رأى الهرمزدان ما هو فيه بعث إلى أبي موسى يسأله أن يعطيه الأمان على أن يحمله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهله وولده وحشمه وجميع أهل بيته ؛ فأجابه أبو موسى إلى ذلك وكتب له أماناً منشوراً فبعث به إليه ، فنزل الهرمزدان من قلعته ، فأخذوا جميع ما كان فيها .

قال : ثم دعا أبو موسى بالهرمزدان فقيده بقيد ثقيل ووجه به وأهله وولده وجميع ما كان معه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ووجه إليه أيضاً بالخمس من غنائم المسلمين من تستر[٢] .

قال : وبلغ ذلك أهل المدينة فجعلوا ينظرون إلى الهرمزدان ومن معه من أصحابه ، قال : ودخل المسلمون المدينة وطلبوا عمر بن الخطاب في منزله فلم يصيبوه ، فقال الهرمزدان : لمن تطلبون ؟ قالوا : نطلب أمير المؤمنين ، قال الهرمزدان : أو ليس له من يقضي حوائجه ؟ قالوا : بلى ولكنه عون نفسه ، قال : فعجب الهرمزدان من ذلك .

ثم جاء المسلمون فإذا هم بعمر بن الخطاب وهو نائم في مشرفه من وراء المسجد فوقفوا عليه وسلموا ، فاستيقظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم استوى جالساً فنظر إلى الهرمزدان وإلى من معه فخرّ لله ساجداً ثم قال[٣] : الحمد لله الذي جعله وأشباهه فيئاً للمسلمين .

قال : ثم وثب عمر فدخل المسجد واجتمع إليه المهاجرون والأنصار ، وأُتي بالخمس حتى وضع بين يديه فنظر إليه عمر وحمد الله عزَّ وجلّ على ذلك . ثم دعا بالهرمزدان فأوقفه بين يديه ثم قال : يا هرمزدان ! كيف رأيت صنع الله عزَّ وجلّ بك ؟

---

(١) كان سهم الفارس ثلاثة آلاف والرجل ألفاً . (الطبري - ابن الأثير - ابن كثير) .

(٢) في الطبري ٤/٢١٧ أرسل الهرمزان مع وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس .

(٣) في الطبري وابن الأثير : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وغيره أشباهه (في الطبري : هذا وأشياعه) . وزيد عنده : يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال الهرمزدان : لست بأول من نزلت به هذه النازلة ، المصائب قد تصيب الرجال . فقال عمر : صدقت فقل لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقال الهرمزدان : على هذه الحالة لا أقول ، قال : عمر : فإني قاتلك ، قال الهرمزدان : فإني عطشان فاسقني قبل أن تقتلني ، قال عمر : ائتوه بماء حتى يشرب ، قال : فأتي بماء في إناء من خشب أو غير ذلك ، فقال الهرمزدان : إني لا أشرب في مثل هذا الإناء ولا أشرب إلا في جوهر ، قال عمر رضي الله عنه : إنا لا نشرب في الجوهر ولا نرى ذلك ؛ فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : فلا عليك ائته بماء في قوارير[1] فإنه جوهر أيضاً ، قال : فأتي بقدح فيه ماء فتناوله ، فقال له عمر : اشرب ! فقال الهرمزدان : أخاف أن تقتلني قبل أن أشربه ، قال عمر[2] : فلك الله عزَّ وجلّ راع وكفيل لا أقتلك أو تشربه ؛ قال : فرفع الهرمزدان القدح فضرب به الأرض فكسره ، فقال عمر : أيها المسلمون ما ترون في هذا ؟ فسكت المسلمون ، فقال علي[3] رضي الله عنه : إنك قد أعطيته الأمان وحلفت له أن لا تقتله أو يشرب الماء ، فلم يشربه فليس لك أن تقتله ، ولكن ضع عليه الجزية وذره ليكونن بالمدينة . فقال الهرمزدان : إنه لا توضع الجزية على مثلي وأنا ملك وابن ملك غير إني داخل في دين الإسلام طائعاً غير مكره وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قال : وأسلم الهرمزدان وأسلم كل من كان معه من أهل بيته وولده وخدمه وحشمه ، فأمر عمر رضي الله عنه بفك قيده وقربه وأدناه وفرح بإسلامه ، وخلطه المسلمون بأنفسهم .

قال : ودخل رجل من المسلمين[4] ممن كان مع أبي موسى إلى قلعة الهرمزدان فجعل يدور فيها ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى تمثال من حجر وقد مد يده كذا نحو الأرض ، قال : وكان هذا المسلم داهياً فقال : ما وضع هذا التمثال في هذا الموضع ماداً يده إلى الأرض إلا وتحت يده كنز ! ثم جاء إلى أبي موسى الأشعري فخبره بذلك ، فأرسل أبو موسى بثقات من أصحابه وأمرهم ، فحفروا تحت التمثال فإذا هم بسفط عظيم مقفل ، فحملوه إلى أبي موسى ، فأمر به ففتح فإذا دنانير كثيرة

---

(١) إناء من فضة .

(٢) في الطبري : لا بأس عليك حتى تشربه .

(٣) في الطبري وابن الأثير وفتوح البلدان والبداية والنهاية : أنس بن مالك .

(٤) هو السائب بن الأقرع كما في الإصابة وفيه أن السائب شهد فتح مهرجان ودخل دار الهرمزان فرأى فيها ظبياً من حصن ماداً يده . . . فنظر فإذا فيه خبيئة للهرمزان فيها سفط من جوهر .

كسروية وحلى من قِرَطة وشنوف[1] ومخانق[2] وخلاخيل وأسورة وخواتيم وكل ذلك من الذهب مرصع بالدر والجوهر . قال : فنظر أبو موسى والمسلمون إلى ذلك ، قال : ونظر أبو موسى إلى فص ياقوت هناك فأخذه ولم يعلم قيمته ، ثم قفل السفط وختمه وأرسل به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتب إليه بحاله وقصته .

قال : فكتم عمر هذا السفط ثم بعث إلى الهرمزدان فدعاه ثم قال : يا هرمزدان ! إني أسألك عن أموالك ما حالها ؟ فقال الهرمزدان : إن مالي وأموال غيري قد صارت إلى أبي موسى وقد قسمها في أصحابه ووجه إليك ما وجه ، قال عمر : فهل بقي لك في قلعتك شيء من المال ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ! ما بقي لي هنالك شيء إلا سفط مدفون في القلعة لا يقدر عليه أحد وقد عزمت على أن أوجه من يأتيني به ؛ قال : فضحك عمر رضي الله عنه ثم دعا بالسفط فوضعه بين يديه ، قال : هذا سفطك ؟ قال : هذا هو يا أمير المؤمنين ! فمن أتاك بهذا ؟ قال : وجه به إلينا أبو موسى الأشعري ولكن افتحه وانظر هل تفقد منه شيئاً ، قال : ففتحه الهرمزدان وجعل ينظر ويميزها ثم قال : ما أفقد منه إلا فصاً واحداً هو خير مما في هذا السفط ، فقال عمر : فإن صاحبي كتب إليّ أن الفص صار إليه فاجعله له إن شئت ، قال الهرمزدان : فإني قد جعلته له يا أمير المؤمنين وهو أعف رجل يكون إذ لم يكتمك أمر هذا الفص .

قال : واختصم أهل البصرة وأهل الكوفة ، فقال أهل البصرة : الفتح لنا[3] ، وقال أهل الكوفة : بل الفتح لنا[3] ، فاختصموا في ذلك حتى كاد أن يقع بينهم شيء من المكروه ثم إنهم رضوا بعمر بن الخطاب وكتبوا إليه بذلك .

قال : فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أما بعد فإن تستر من مغازي أهل البصرة[4] غير أنهم إنما نصروا بإخوانهم من أهل الكوفة ، وكذلك أهل الكوفة لو أن عدواً غزاهم في ثغورهم ثم نصرهم أهل البصرة لم يكن بذلك بأس لأن النصر في

---

(١) شنوف : جمع شنف . من حلى الأذن . والشنف : الذي يلبس في أعلى الأذن ، وقيل الشنف والقرط سواء (اللسان) .

(٢) المخانق : جمع مخنقة القلادة (اللسان) .

(٣) في معجم البلدان (تستر) : هي من أرضنا .

(٤) في معجم البلدان : فجعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منه .

كتاب الله عزَّ وجلّ للمؤمنين ، وقد جعل الله عزَّ وجلّ المؤمنين إخوة ، والفتح لأهل البصرة ، وأهل الكوفة شركاؤهم في الأجر والغنيمة ، فإياكم ونزغات الشيطان ! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قال : فرضي الفريقان بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ورجع أهل الكوفة مع أميرهم عمار بن ياسر إلى الكوفة ، ورجع أهل البصرة مع أبي موسى إلى البصرة ، ورجع أهل حلوان مع جرير بن عبد الله وأصحابه إلى حلوان .

حديث العنزي(1)

قال : وأقبل رجل من أهل البصرة يقال له ضبة بن محصن العنزي إلى أبي موسى فقال له : يا هذا ! إنك قد رأيت بلائي بين يديك في يوم تستر فإما أن تزيد لي في عطائي وإما أن توفدني إلى أمير المؤمنين ، فقال له أبو موسى : يا أخا عنزة ! أما ما ذكرت من بلائك بين يدي فكل المسلمين قد أبلوا ، وإنما أرادوا بذلك ما عند الله عزَّ وجلّ والدار الآخرة ، وإني متى زدتك في عطائك خفت أن يطلب غيرك ذلك ولست بفاعل ؛ قال : فقال له العنزي : والله ! ما كان لك في هذا الفتح أمر ولا نهي ولا كان الحظ فيه إلا لجرير بن عبد الله البجلي وإخوانه من أهل الكوفة ، ولو كان الأمر في ذلك إليك إذاً لما قطعت فيه شعرة ولا فتتَ فيه بعرة . قال : فغضب أبو موسى الأشعري لذلك ثم كتب فيه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب عمر إلى أبي موسى أن يشخص هذا العنزي إليه فشخص ، فلما دخل وسلم رد عليه السلام وهو لا يعرفه ، ثم قال : من أين أنت ؟ قال أنا ضبة بن محصن العنزي ، قال عمر : فلا مرحباً بك ولا أهلاً ! فقال العنزي : أما المرحب فمن الله وأما الأهل فلا أهل لي ، ثم ولى من بين يديه مغضباً(2) ؛ فقال عمر : ردوه ، فردوه إليه ، فلما وقف بين يديه أمره بالجلوس فجلس ، ثم قال له : خبرني عنك في ماذا انتقمت على أميرك أبي موسى وهجوته ؟ فقال : لأنه اختار ستين غلاماً من أبناء الدهاقين فاتخذهم

---

(1) خبره في الطبري ٥/٨ والكامل لابن الأثير ٢/٢٠٧ والبداية والنهاية ٧/١٤٩ .

قال في الإصابة : ضبة بن محصن العنزي البصري ، تابعي مشهور له إدراك .

قال ابن سعد : كان قليل الحديث ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين .

(2) عند الطبري : أنه اختلف إليه ثلاثاً يقول له هذا ويرد عليه هذا حتى إذا كان في اليوم الرابع .

لنفسه ، وله جارية يقال لها عقيلة يغديها بجفنة ملآنة عراقاً[1] ويعشيها بمثل ذلك وليس منا من يقدر على ذلك ، وله خاتمان يختم بهما ، وله قفيزان يكتال بأحدهما لنفسه ويكيل بالآخر لغيره ، وقد استولى على أمره زياد بن عبيد بن علاج[2] من ثقيف ، وإنه حلف يميناً كاذبة حسداً منه لأهل الكوفة لما أغنمهم الله عزَّ وجلّ من أهل رامهرمز ما أغنمهم إن يكن ذلك لهم دون أهل البصرة[3] ، ولا والله يا أمير المؤمنين ! ما أنا من أهل الكوفة فأقول هذا عصبة مني لهم وما أنا إلا من أهل البصرة ، ولو كان أبو موسى أعطى رامهرمز أماناً وعهداً مؤكداً وأجلاً ستة أشهر كما زعم إذاً لعرفنا ذلك وعرفه إخواننا المسلمون ممن لا يتهم بالكذب[4] والسلام .

قال : فأمر عمر رضي الله عنه العنزي ، فكتب هذا كله بخطه ، ثم بعث إلى أبي موسى فأشخصه إليه من البصرة ، فلما قدم دعا به فأجلسه بين يديه ، ثم دعا بالعنزي فقال له : اقرأ عليه ما كتبت ! فقرأ عليه العنزي : أمر ستين غلاماً الذين اختارهم لنفسه ، فقال أبو موسى : نعم يا أمير المؤمنين ! إني دللت على ستين غلاماً من أبناء الدهاقين فأخذتهم ثم إني أتيت بفداء ففديتهم وقسمت ذلك المال بين المسلمين ؛ فقال العنزي[5] : ما نعرف من هذا شيئاً وأنا رجل من المسلمين ، ما أصابني من ذلك المال قليلاً ولا كثيراً . قال : ثم قرأ عليه العنزي أمر جاريته عقيلة ، فسكت أبو موسى ولم يتكلم بشيء . ثم قرأ عليه أمر الخاتمين والقفيزين ، فقال أبو موسى : نعم يا أمير المؤمنين ! خاتم لي خاصة يكون في يد قهرماني وأهلي يعرفونه ، وخاتم أختم به للجند والعمال وهو في يدي ، ولي قفيزان قفيز أقوت به عيالي وهو في منزلي ، وقفيز للمسلمين به أعطيهم وبه آخذ منهم ؛ فقال العنزي : ما ندري هذا كما تقول أم لا . ثم قرأ عليه أمر زياد بن عبيد فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! وجدت عنده حفظاً وأمانة وعقلاً وتدبيراً فاستكفيته ، فإن كرهه أمير المؤمنين عزلته . قال : ثم قرأ عليه أمر اليمين التي حلف بها ، فقال : يا أمير

---

(١) العُراق : المفطام إذا لم يكن عليها شيء من اللحم . فإذا كان عليه لحم فهو عرق (اللسان) .

(٢) في الطبري زياد بن أبي سفيان .

(٣) وذلك لما افتتح جرير بن عبد الله رامهرمز ، وكان أبو موسى قد أجلهم ستة أشهر ليروا رأيهم . وقد مرّ ذلك .

(٤) زيد في الطبري : وأنه أجاز الحطيئة بألف .

(٥) عند الطبري : والله ما كذب ولا كذبتُ .

المؤمنين ! ما حلفت إلا على حق ولقد كنت أعطيتُ أهل رامهرمز أماناً وعهداً مؤكداً وأجلاً ستة أشهر . قال : فغضب عمر رضي الله عنه ثم قال : يا هـذا ! فإن كنت أعطيتهم أماناً كما تقول وعهداً وأجلاً فلم وجهت إليهم الخيل حتى فعلوا بهم مـا فعلوا ؟ يا هذا ! إني قد ائتمنتك على ما هو أعظم من ذلك كله فأنت وربك أعلم .

قال : ثم أمر عمر بإشخاص زياد بن عبيد وجارية أبي موسى إلى مـا قبله ، فأشخصا جميعاً ؛ فأما عقيلة[1] فأخذها منه عمر بثمنهـا وكانت عنـده إلى أن قتل عنها ؛ وأما زياد بن عبيد فـإنه لمـا دخل على عمـر رضي الله عنه سلم ورد عليـه السلام ، ثم إنه أجلسه بين يديـه ثم قال لـه : كم عطاؤك ؟ قـال : ألفان يـا أمير المؤمنين ! قال عمر : فما صنعت بأول عطاء خرج لك ؟ فقال[2] : اشتريت به أبي وكان عبداً مملوكاً فاشتريته وأعتقته ، قال عمر : نعم ما رأيتَ ؛ قال : ثم سأله عمر عن القرآن والسنن والفرائض فوجده كما أحب ، فأمره بالرجوع إلى البصرة وأوصى أبا موسى بحفظه . قال : وأقام أبو موسى عند عمر بن الخطاب أياماً ثم استأذن فأذن له فرجع إلى عمله بالبصرة .

ذكر فتح نهاوند وحروبها واجتماع الفرس بها

قال : وتحركت الأعاجم بأرض نهاوند[3] واجتمعوا بها ، وكتب بعضهم إلى بعض أن يكون اجتماعهم بها ؛ قال : فاجتمع أهل الري وسِمْنـان والدامغـان وما والاها بنهاوند في عشرين ألفاً ، وأهل ساوه وهمذان في عشرة آلاف ، وأهل نهاوند خاصة في عشرة آلاف ، وأهل قم وقـاشان في عشـرين ألفاً ، وأهـل أصفهان في عشرين ألفاً ، وأهل فارس وكرمان في أربعين ألفاً ؛ قال : ثم بعثوا إلى أذربيجان يستمدونهم إلى حرب العرب ، فأقبل إليهم أهل أذربيجان في ثلاثين ألفاً ، فذلك خمسون ألفاً ومائة ألـف[4] ما بين فارس وراجـل من المرازبـة والأساورة والأبـطال المعدودين المذكورين في كل بلد من أرض الفرس ، ثم إنهم جمعوا نيفاً وسبعين فيلاً يريدون التهويل على خيول المسلمين ؛ ثم أقبل بعضهم على بعض فقالوا : إن

---

(١) الطبري : حبس عقيلة بالمدينة .

(٢) الطبري : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت في الثاني ربيبي عبيداً فأعتقته .

(٣) نهاوند : مدينة عظيمة في قبة همذان بينهما ثلاثة أيام وهي أعتق مدينة في الجبل (معجم البلدان) .

(٤) في فتوح البلدان ص ٣٠٠ : ستين ألفاً ، ويقال : مائة ألف .

ملك العرب الذي جاءهم بهذا الكتاب وأقام لهم هذا الدين قد هلك - يعنون بذلك رسول الله ﷺ - وإنه قد ملكهم من بعده رجل يكنى أبا بكر فملك ملكاً يسيراً وهلك ، وإنا نرى صاحبهم هذا عمر قد طال عمره ودام ملكه وعلا أمره ، قد اجتمعتم من كل بلد وليس فيكم إلا رماة الحدَق وأحلاس السيوف والدرق ، فتعالوا بنا حتى ننفي من بقربنا من جيوش العرب ، ثم إنا نسير إليهم في ديارهم فنستأ [صلهم] عن جديد الأرض ، فإنا إن لم نفعل ذلك ساروا إلينا فأخرجونا عن جميع بلادنا وأنزلوا بنا من الذل والصغر ما أنزلوه بأهل القادسية والمدائن وجلولاء وخانقين وما أنزلوه بأهل الأهواز وتستر ومناذر ورامهرمز وما أنزلوه بأهل الشام قبل ذلك .

قال : فتعاقدوا على أمرهم وتعاهدوا وعزموا على جهاد المسلمين ، وبلغ ذلك أهل الكوفة[1] ، فاجتمعوا إلى أميرهم عمار بن ياسر فقالوا : أيها الأمير ! هل بلغك ما كان من جموع هؤلاء الأعاجم بأرض نهاوند ؟ قال عمار : قد بلغني ذلك فهاتوا ما عندكم من الرأي ! فقالوا : الرأي في ذلك أن نكتب إلى أمير المؤمنين ونعلمه بذلك قبل أن يسير عدونا إلى ما قبلنا ، قال عمار : أفعل ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر كتاب عمار بن ياسر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمار بن ياسر ، سلام عليك ! أما بعد فإن ذا السطوات والنقمات المنتقم من أعدائه المنعم على أوليائه هو الناصر لأهل طاعته على أهل الإنكار والجحود من أهل عداوته ، ومما حدث يا أمير المؤمنين أن أهل الري وسمنان وساوه وهمذان ونهاوند وأصفهان وقم وقاشان وراوند واسفندهان[2] وفارس وكرمان وضواحي أذربيجان قد اجتمعوا بأرض نهاوند في خمسين ومائة ألف من فارس وراجل من الكفار ، وقد كانوا أمروا عليهم أربعة من ملوك الأعاجم[3] منهم ذو الحاجب خرزاد بن هرمز وسنفاد بن حشروا

(١) عند الطبري ٥/٢٣٧ وبلغ الخبر سعداً. وكان قد ثار به قوم وسعوا به وألبوا عليه . فأخرج من الكوفة لمقابلة عمر ، واستخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبان . (راجع ابن الأثير ٢/١٧٩ والبداية والنهاية ١٢٠/٧) .

(٢) كذا ، وفي معجم البلدان اسفيذبان ، من قرى أصبهان .

(٣) في الطبري وابن الأثير : الفيرزان ، وفي فتوح البلدان ص ٣٠٠ مردان شاه ذو الحاجب . وفي تاريخ =

وخهانيل بن فيروز وشروميان بن اسفنديار ، وأنهم قد تعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا وتكاتبوا وتواصوا وتواثقوا على أنهم يخرجوننا من أرضنا ويأتونكم من بعدنا ، وهم جمع عتيد وبأس شديد ودواب فره وسلاح شاك ويد الله فوق أيديهم ، فإني أخبرك يا أمير المؤمنين أنهم قد قتلوا كل من كان منا في مدنهم ، وقد تقاربوا مما كنا فتحناه من أرضهم ، وقد عزموا أن يقصدوا المدائن ويصيروا منها إلى الكوفة ، وقد والله هالنا ذلك وما أتانا من أمرهم وخبرهم ، وكتبت هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين ليكون هو الذي يرشدنا وعلى الأمور يدلنا ، والله الموفق الصانع بحوله وقوته ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فرأي أمير المؤمنين أسعده الله فيما كتبته والسلام .

قال : فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقرأه وفهم ما فيه وقعت عليه الرعدة والنفضة حتى سمع المسلمون أطيط أضراسه ، ثم قام عن موضعه حتى دخل المسجد وجعل ينادي : أين المهاجرون والأنصار ؟ ألا ! فاجتمعوا رحمكم الله وأعينوني أعانكم الله .

قال : فأقبل إليه الناس من كل جانب ، حتى إذا علم أن الناس قد اجتمعوا وتكاملوا في المسجد وثب إلى منبر رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم وآله) فاستوى عليه قائماً وإنه ليرعد من شدة غضبه على الفرس ، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد ﷺ ثم قال[1] : أيها الناس ! هذا يوم غم وحزن فاستمعوا ما ورد عليّ من العراق ، فقالوا : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن الفرس أمم مختلفة أسماؤها وملوكها وأهواؤها وقد نفخهم الشيطان نفخة فتحزبوا علينا وقتلوا من في أرضهم من رجالنا ، وهذا كتاب عمار بن ياسر من الكوفة يخبرني بأنهم قد اجتمعوا بأرض نهاوند في خمسين ومائة ألف وقد سربوا عسكرهم إلى حلوان وخانقين وجلولاء ، وليست لهم همة إلا المدائن والكوفة ، ولئن وصلوا إلى ذلك فإنها بلية على الإسلام وثلمة لا تسد أبداً ، وهذا يوم له ما بعده من الأيام ، فالله الله يا معشر المسلمين ! أشيروا عليّ رحمكم الله ، فإني قد رأيت رأياً غير أني أحب أن لا أقدم عليه إلا بمشورة منكم لأنكم شركائي في المحبوب والمكروه .

= اليعقوبي ٢/١٥٦ « دوسر » وفي مروج الذهب : ذو الجناحين .

(١) قارن مع الطبري ٤/٢٣٧ .

ذكر ما أشار به المسلمون على عمر رضي الله عنه

قال(١) : وكان أول من وثب على عمر بن الخطاب وتكلم طلحة بن عبيد الله فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك بحمد الله رجل قد حنكته الدهور وأحكمته الأمور وراضته التجارب(٢) في جميع المقانب ، فلم ينكشف لك رأي إلا عن رضى ، وأنت مبارك الأمر ميمون النقيبة ، فنفذنا ننفذ واحملنا نركب وادعنا نجب(٣) .

قال : ثم وثب الزبير بن العوام فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الله تبارك وتعالى قد جعلك عزاً للدين وكهفاً للمسلمين ، فليس منا أحد له مثل فضائلك ولا مثل مناقبك إلا من كان من قبلك ، فمد الله في عمرك لأمة نبيك محمد ﷺ ! وبعد فأنت بالمشورة أبصر من كل من في المسجد ، فاعمل برأيك فرأيك أفضل ، ومرنا بأمرك فها نحن بين يديك .

فقال عمر : أريد غير هذين الرأيين ، قال : فوثب عبد الرحمن بن عوف الزهري فقال : يا أمير المؤمنين ! إن كل متكلم يتكلم برأيه ، ورأيك أفضل من رأينا ، لما قد فضلك الله عزَّ وجلّ علينا ، وأجرى على يديك من موعود ربنا ، فاعمل برأيك واعتمد على خالقك وتوكل على رازقك وسر إلى أعداء الله بنفسك ونحن معك ، فإن الله عزَّ وجلّ ناصرك بعزه وسلطانه كما عودك من فضله وإحسانه .

فقال عمر : أريد غير هذا الرأي ، فتكلم عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال(٤) : يا أمير المؤمنين ! إنك قد علمت وعلمنا أنا كنا بأجمعنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا الله منها بنبيه محمد ﷺ ، وقد اختارك لنا خليفة نبينا محمد ﷺ وقد رضيك الأخيار وخافك الكفار وتفر عنك الأشرار ، وأنا أشير عليك أن تسير أنت بنفسك إلى هؤلاء الفجار بجميع من معك من المهاجرين والأنصار فتحصد شوكتهم وتستأصل جرثومتهم ؛ فقال عمر رضي الله عنه : وكيف أسير أنا بنفسي إلى عدوي وليس بالمدينة خيل ولا رجل فإنما هم متفرقون في جميع الأمصار ، فقال عثمان :

---

(١) الطبري ٢٣٨/٤ باختلاف وزيادة .

(٢) عند الطبري : واحتنكتك التجارب .

(٣) زيد عند الطبري : وفدنا نفد ، وقد ننقد فإنك ولي هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختبرت .

(٤) الطبري ٢٣٨/٤ وابن الأثير ١٨٠/٢ .

صدقت يا أمير المؤمنين ! ولكني أرى أن تكتب إلى أهل الشام فيقبلوا عليك من شامهم ، وإلى أهل اليمن فيقبلوا إليك من يمنهم ، ثم تسير بأهل الحرمين مكة والمدينة إلى أهل المصرين البصرة والكوفة ، فتكون في جمع كثير وجيش كبير ، فتلقى عدوك بالحد والحديد والخيل والجنود[1] .

قال فقال عمر : هذا أيضاً رأي ليس يأخذ بالقلب ، أريد غير هذا الرأي ، قال : فسكت الناس والتفت عمر رضي الله عنه إلى علي رضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ! لم لا تشير بشيء كما أشار غيرك ؟[2] .

ذكر مشورة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه

قال : فقال علي[3] : يا أمير المؤمنين ! إنك قد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث نبيه محمداً ﷺ وليس معه ثان ولا له في الأرض من ناصر ولا له من عدوه مانع ، ثم لطف تبارك وتعالى بحوله وقوته وطوله فجعل له أعواناً أعز بهم دينه ، وشد أزره ، وشيد بهم أمره ، وقصم بهم كل جبار عنيد وشيطان مريد ، وأرى موازريه وناصريه من الفتوح والظهور على الأعداء ما دام به سرورهم وقرّت به أعينهم ، وقد تكفل الله تبارك وتعالى لأهل هذا الدين بالنصر والظفر والإعزاز والذي نصرهم مع نبيهم وهم قليلون هو الذي ينصرهم اليوم إذ هم كثيرون ، وبعد فإنك أفضل أصحابك رأياً وأيمنهم نقيبة ، وقد حملك الله عزَّ وجلَّ أمر رعيتك فهو الذي يوفقك للصواب ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فأبشر بنصر الله عزَّ وجلَّ الذي وعدك ، وكن على ثقة من ربك فإنه لا يخلف الميعاد ، وبعد فقد رأيت قوماً أشاروا عليك بمشورة بعد مشورة فلم تقبل ذلك منهم ولم يأخذ بقلبك شيء مما أشاروا به عليك ، لأن كل مشير إنما يشير بما يدركه عقله ، وأعلمك يا أمير المؤمنين إن كتبت

---

(١) زيد عند الطبري : . . . إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه .

(٢) عند الطبري ٢٣٧/٤ فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله (ص) فتكلموا كلاماً فقالوا لا نرى ذلك (وكان عمر قد عرض عليهم أن يسير من المدينة وينزل منزلاً وسطاً بين المصرين ويستنفر من هناك الناس إلى فارس). الطبري ٢٣٧/٤ وفتوح البلدان ص ٣٠٠ ولكن لا يغيبن عنهم رأيك وأثرك . . . وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك فأذن لهم واندب إليهم . . . وكان الذي ينتقد له الرأي إذا عرض عليه العباس رضي الله عنه .

(٣) الطبري ٢٣٨/٤ ابن الأثير ١٨١/٢ .

إلى الشام أن يقبلوا إليك من شامهم لم تأمن من أن يأتي هرقل في جميع النصرانية فيغير على بلادهم ويهدم مساجدهم ويقتل رجالهم ويأخذ أموالهم ويسبي نساءهم وذريتهم ، وإن كتبت إلى أهل اليمن أن يقبلوا من يمنهم أغارت الحبشة أيضاً على ديارهم ونسائهم وأموالهم وأولادهم ، وإن سرت بنفسك مع أهل مكة والمدينة إلى أهل البصرة والكوفة ثم قصدت بهم قصد عدوك انتقضت عليك الأرض من أقطارها وأطرافها ، حتى إنك تريد بأن يكون من خلفته وراءك أهم إليك مما[1] تريد أن تقصده ، ولا يكون للمسلمين كانفة تكنفهم ولا كهف يلجؤون إليه ، وليس بعدك مرجع ولا موئل إذ كنت أنت الغاية والمفزع والملجأ ، فأقم بالمدينة ولا تبرحها فإنه أهيب لك في عدوك وأرعب لقلوبهم ، فإنك متى غزوت الأعاجم بنفسك يقول بعضهم لبعض : إن ملك العرب قد غزانا بنفسه لقلة أتباعه وأنصاره ، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وعلى المسلمين ، فأقم بمكانك الذي أنت فيه وابعث من يكفيك هذا الأمر والسلام .

قال : فقال عمر رضي الله عنه : يا أبا الحسن ! فما الحيلة في ذلك وقد اجتمعت الأعاجم عن بَكرة أبيها بنهاوند في خمسين ومائة ألف يريدون استئصال المسلمين ؟

ذكر مشورة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ثانية

قال : فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام : الحيلة أن تبعث إليهم رجلاً مجرباً قد عرفته بالبأس والشدة فإنك أبصر بجندك وأعرف برجالك واستعن بالله وتوكل عليه واستنصره للمسلمين ، فإن استنصاره لهم خير من فئة عظيمة تمدهم بها ، فإن أظفر الله المسلمين فذلك الذي تحب وتريد ، وإن يكن الأخرى ، وأعوذ بالله من ذلك أن تكون ردءاً للمسلمين وكهفاً لهم يلجؤون إليه وفئة ينحازون إليها ؛ قال فقال له عمر : نعم ما قلت يا أبا الحسن ! ولكني أحببت أن يكون أهل البصرة وأهل الكوفة هم الذين يتولون حرب هؤلاء الأعاجم فإنهم قدذاقوا حربهم وجربوهم ومارسوهم في غير موطن .

---

(١) في الطبري : مما بين يديك من العورات والعيالات .

ذكر مشورة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثالثة

قال فقال له علي رضي الله عنه : إن أحببت ذلك فاكتب إلى أهل البصرة أن يفترقوا على ثلاث فرق : فرقة تقيم في ديارهم فيكونوا حرساً لهم يدفعون عن حريمهم ، والفرقة الثانية يقيمون في المساجد يعمرونها بالأذان والصلاة لكيلا يعطل الصلاة ويأخذون الجزية من أهل العهد لكيلا ينتقضوا عليك ، والفرقة الثالثة يسيرون إلى إخوانهم من أهل الكوفة ، ويصنع أهل الكوفة أيضاً كصنع أهل البصرة[1] ثم يجتمعون ويسيرون إلى عدوهم فإن الله عزَّ وجلّ ناصرهم عليهم ومظفرهم بهم ، فثق بالله ولا تيأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

قال : فلما سمع عمر مقالة علي كرم الله وجهه ومشورته أقبل على الناس وقال : ويحكم ! عجزتم كلكم عن آخركم أن تقولوا كما قال أبو الحسن ، والله ! لقد كان رأيه رأيي الذي رأيته في نفسي ؛ ثم أقبل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ! فأشر عليَّ الآن برجل ترتضيه ويرتضيه المسلمون أجعله أميراً وأستكفيه من هؤلاء الفرس ، فقال علي رضي الله عنه : قد أصبته ، قال عمر : ومن هو؟ قال : النعمان بن مقرن المزني ، فقال عمر وجميع المسلمين : أصبت يا أبا الحسن ! وما لها من سواه .

قال : ثم نزل عمر رضي الله عنه عن المنبر ودعا بالسائب بن الأقرع بن عوف الثقفي[2] فقال : يا سائب ! إني أريد أن أوجهك إلى العراق فإن نشطت لذلك فتهيأ ، فقال له السائب : ما أنشطني لذلك يا أمير المؤمنين وأنا سائر إذا شئت ، فقال له عمر : إن خروجك في هذا الوجه سعادة لك فإن قتلت فزت بالجنة ، واعلم بأني قد جعلتك على غنائم المسلمين فإن سلم الله عزَّ وجلّ هذا الجيش وأنت على مقاسمه انظر أن تعطي كل ذي حق حقه ولا ترفعن إليّ باطلاً ولا تمنعن أحداً من حق هو له ، وإن تكن الأخرى وأصيب هذا الجيش فاذهب في عرض الأرض فلا تراني ولا أراك ، فإني أخاف أني كلما رأيتك ذكرتك مصارع المسلمين ، فقال السائب : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين وأنا أرجو أن ينصر الله عزَّ وجلّ أهل الدين والقرآن على

---

(١) في فتوح البلدان : كتب إلى أهل الكوفة يأمرهم أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم .

(٢) عن الإصابة وهو السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر بن سفيان بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم الثقفي ، بعثه عمر مع النعمان بن مقرن لما وجهه إلى نهاوند قاسماً .

عبدة الشمس والقمر والنيران .

ثم كتب عمر رضي الله عنه إلى النعمان بن مقرن المزني ، والنعمان يومئذٍ بموضع من العراق يقال له كسكر[1] ، قد كان ولاه سعد بن أبي وقاص قبل ذلك .

قال : وكتب إليه عمر[2] : أما بعد يا نعمان فإن كتاب أهل الكوفة ورد علي فقرأته وفهمت ما ذكر لي فيه من أمر الفرس ، وقد علمت أن يد الله فوق أيديهم وسيمدّكم الله عزَّ وجلّ بجند من الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ويقذفون الرعب في قلوبهم والزلازل في أقدامهم حتّى يهلكهم الله عزَّ وجلّ هلاكاً يكون فيه بوارهم واستئصالهم ودمارهم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وبعد فقد وجهت إليك السائب بن الأقرع التميمي وأمرته بأمري وأعوزت إليك أن يأمرك أن تعسكر بالقصر الأبيض حتى تجتمع إليك أهل البصرة وأهل الكوفة ، فإذا اجتمعوا إليك وتكاملوا لديك فسِر بهم إلى أعداء الله بأرض نهاوند ، فقد ولّيتك هذا الجيش وأنا أعلم إن شاء الله أن الله ناصرك وخاذل عدوّك وأنه وعدنا ذلك إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿ **واخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها** ﴾[3] فهم الروم والفرس ، فثق بموعد الله عزَّ وجلّ فإنّه لا يخلف الميعاد ، فانظر يا نعمان ! إذا لقيتم عدوّكم فقدموا الصبر أمامكم فإن الله تبارك وتعالى قد وعد الصابرين أنهم يؤتون أجرهم بغير حساب والعاقبة بعد ذلك للمتقين ، ألا ! فسيروا على بركة الله تعالى فإني قد استودعتكم من لا يضيع ودائعه ـ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ .

قال : ثم كتب عمر أيضاً إلى أبي موسىٰ الأشعري أن يمدّه من أهل البصرة

---

(١) كسكر : كورة واسعة بين الكوفة والبصرة (معجم البلدان) وقيل كان النعمان ومعه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جنديسابور والسوس (ابن الأثير ١٨١/٢) ويقال بل كان بالمدينة فولاه عمر أمر هذا الجيش مشافهة ، فشخص منها (البداية والنهاية ١٠٨/٧ وفتوح البلدان ص ٣٠٠ ومروج الذهب ٣٥٤/٢ وفيه أن عمر دخل المسجد فإذا هو بالنعمان بن مقرن يصلي ، فقعد إلى جنبه ، فلما قضى صلاته قال : ما أراني إلا مستعملك . قال : أما جابياً فلا ، ولكن غازياً ، قال فإنك غازٍ .

وقيل في توليته أمر نهاوند ، أن النعمان كان قد كتب إلى عمر وهو على عسكر وسأله أن يعزله عنها ويوليه قتال أهل نهاوند ، فلهذا أجابه إلى ذلك وعينه له (البداية والنهاية ١٢٢/٧) .

(٢) نسخة كتاب عمر في الطبري ٢٣٢/٤ والبداية والنهاية ١٢٣/٧ والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٣٠ صفحة ٤٤٠ .

(٣) سورة الفتح : ٤١ .

بالثلث وكذلك أهل الكوفة[1] ؛ ففعل أبو موسى ذلك ، والتأمت العساكر بالعراق .

وخرج النعمان بن مقرن حتّى نزل القصر الأبيض مما يلي المدائن كما أمرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى اجتمع إليه الكوفيون والبصريون .

قال : فعرضهم النعمان بن المقرن وعدّهم وأحصاهم ، فإذا هم يزيدون على ثلاثين ألفاً من أهل البصرة وأهل الكوفة ، فدعا النعمان بطليحة بن خويلد الأسدي فعقد له عقداً وضم إليه أربعة آلاف فارس من أهل البصرة وأهل الكوفة وجعله مقدمة ، فسار طليحة بن خويلد على مقدمة النعمان بن مقرن وجعل يذكر ما كان منه بالقادسية وغيرها من الحروب المتقدمة ، ثم سار طليحة حتى نزل المدائن ؛ ورحل النعمان بن مقرن بالمسلمين ، حتى إذا تقارب من المدائن قال : ورحل طليحة في أصحابه على المقدمة حتى نزل الدسكرة وجاء النعمان بن مقرن فنزل المدائن وأقام بها ثلاثة أيام ، ثم رحل منها يريد الدسكرة ، ورحل طليحة على مقدمته حتى نزل بجلولاء ؛ قال : وكان النعمان كلما رحل من موضع رحل طليحة على مقدمته ، فلم يزل كذلك حتى صار إلى حلوان وبها يومئذٍ قائد من قوّاد كسرى يقال له شادوه بن آزاد مرد في نيف وعشرة آلاف من الفرس ، فلمّا أحس بجنود المسلمين أنها قد استشرفت على حلوان خرج هارباً في جميع أصحابه حتى صار إلى قرماسين[2] فنزلها ، ونزل طليحة بن خويلد حُلوان في أربعة آلاف فارس ، وأقبل النعمان في جيشه الأعظم حتى نزل بحلوان وأقام بها أياماً حتى استراح المسلمون وأراحوا خيولهم .

قال : ثم دعا النعمان برجل من فرسان العرب ممن كان مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام يقال له قيس بن هبيرة المرادي ، فقال له : يا قيس ! أنت تعلم أن طليحة بن خويلد قد كان على مقدمة المسلمين من الكوفة إلى حلوان وقد أحببت أن تكون مقدمتي من ههنا إلى هذا البلد الذي يقال له قرماسين ، فقال قيس بن هبيرة : أفعل ذلك أيها الأمير .

قال : فضم إليه النعمان بن مقرن أربعة آلاف فارس من أشد عسكره ، فسار قيس بن هبيرة من حلوان على مقدمة المسلمين وجعل يذكر ما كان منه بأرض الروم والقادسية وغير ذلك .

---

(١) مرّ أنه كتب إلى أهل الكوفة أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم (فتوح البلدان ص ٣٠٠) .

(٢) قرماسين : كذا بالأصل ، ولعله قرميسين وهي بلد بين همذان وحلوان (معجم البلدان) .

قال : وسار قيس بن هبيرة على مقدمة المسلمين حتى وافى قرماسين وبها يومئذٍ قائدان عظيمان من قواد الأعاجم ، أحدهما شادوه بن آزاد مرد الذي هرب من حلوان ، والآخر مهرويه بن خسروان فهما جميعاً في عشرين ألفاً من الفرس ، فلما أن علما أن خيل المسلمين قد شارفت أرض قرماسين خرجا هاربين عنها حتى نزلا بموضع يقال له ماذران[1] ، ودخل قيس بن هبيرة إلى قرماسين فنزلها ، قال : وكانت قرماسين مصلحة للفرس ومنتزهاً لكسرى[2] ، قال : وسار النعمان بن مقرن من حلوان حتى نزل قرماسين ، وبلغ ذلك الفرس ممن كان خارجاً عن أرض نهاوند فامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً ، ثم إنهم تفلتوا من جميع المواضع حتى صاروا إلى نهاوند فاحتشدوا بها ، ثم إنهم اجتمعوا وتحالفوا وتعاقدوا على أنهم لا يفرون أبداً دون أن يبيدوا العرب عن آخرهم .

قال : وسار النعمان بن مقرن في جميع المسلمين حتى نزل بأرض ماذران ، ثم دعا بهذين الرجلين بكير بن شداخ الليثي وطليحة بن خويلد الأسدي[3] فأرسلهما جميعاً نحو أرض نهاوند وأمرهما أن يتجسسا الأخبار عن الفرس ، فمضيا جميعاً ، فأما بكير بن شداخ فإنه رجع إلى المسلمين ، وأما طليحة بن خويلد فإنه مضى نحوه حتى تقارب من أرض نهاوند[4] وتعرف أخبار الفرس ثم رجع ؛ فلمّا دخل العسكر كبّر المسلمون من كل ناحية ، فقال طليحة : ما هذا التكبير ؟ فقالوا : إنك قد أبطأت علينا فظننا والله أنك قد رغبت عن دين الإسلام وصرت إلى دين هؤلاء الأعاجم[5] ، قال : فغضب طليحة بن خويلد من ذلك ثم قال : سبحان الله العظيم ! أو يحسن هذا بمثلي ؟ والله ! أن لو لم يكن لي دين أعتمد عليه إلاّ أني عربي فقط لما كنت بالذي

---

(١) عن معجم البلدان ، وبالأصل « ماردان » وبين ماذران وهمذان مرحلة وبينها وبين الدينور أربعة فراسخ . وقد صححت أينما وقعت في الخبر .

(٢) قال ياقوت في قرميسين : لم يجد (قباذ) فيما بين المدائن إلى بلخ بقعة على الجادة أنزه ولا أعذب ماء ولا نسيماً من قرميسين ، فأنشأ قرميسين وبنى لنفسه بها بناء معتمداً على ألف كرم وبها قصر شيرين والطاق .

(٣) في الطبري ٢٣٢/٤ وابن الأثير ١٨٢/٢ والبداية والنهاية ١٢٣/٧ أرسل النعمان طليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب وعمرو بن أبي سلمى وهو ابن ثنى .

(٤) وكان بين موضع المسلمين الذي هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخاً .

(٥) وكان طليحة ممن ارتد بعد وفاة رسول الله (ص) ، ثم راجع الإسلام وحسن إسلامه .

اختار هؤلاء الأعاجم على العرب ، فكيف وقد هداني الله عزَّ وجلّ إلى دين الإسلام وعرّفني فضله !

قال : وسار المسلمون يريدون نهاوند ، قال : وبلغ ذلك أهل نهاوند فأرسلوا الماء في أرضهم لكي يمنعوا بتلك المياه المسلمين ، قال : فلم يغن ذلك من قضاء الله عزَّ وجلّ فيهم شيئاً ، قال : وسار المسلمون حتى نزلوا في الموضع الذي يقال له قبور الشهداء[1] ، فنزلوا هنالك وضربوا عسكرهم ؛ وبلغ ذلك الفرس فألقوا حسك الحديد حول نهاوند فحصنوها بتلك الحسك ؛ قال : ودعا النعمان برجل من أشد أصحابه يقال له محمد بن زكار الخثعمي ، فقال له : ويحك يا محمود ! أحب منك أن تنطلق نحو حصن هؤلاء القوم فتنظر إليه وتأتيني بخبره ، فقد بلغني أنه حصن حصين وأنه مشرف على قلعة لهم في الهواء ، فقال محمود بن زكار : أيها الأمير ! قد بلغني ذلك وهذا نهار فإذا كان الليل انطلقت فأتيتك بخبر القلعة إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : فلما كان الليل واختلط الظلام عمد محمود بن زكار هذا إلى فرسه فأسرجه وألجمه ثم صب عليه درعه وتقلد بسيفه واعتم بعمامته واستوى على فرسه وتناول رمحه ومضى ، فلم يزل يسير حتى إذا أشرف على قلعة نهاوند وقد جعل يسمع أصوات الحرس على سورها من كل ناحية ونيرانهم تأجج ، قال : وإذا بفرسه قد قام وليس يتقدم ولا يتأخر ، فحركه فلم يتحرك فإذا قد علق يده واتقى منها ، قال : فنزل محمود بن زكار عن فرسه ثم ضرب بيده إلى الفرس فقلب حافره فإذا بحسكة حديد قد دخلت في حافره ، فنزعها وركب فرسه ثم رجع إلى النعمان بن مقرن فخبره بذلك ، ثم قال : أيها الأمير ! إن أرضهم كلها مفروشة بهذا الحسك يطرحونه في الليل ويرفعونه بالنهار ؛ قال : وأصبح المسلمون فعبوا تعبيتهم .

ذكر وقعة الفرس وقتل النعمان

قال : وساروا يريدون أرض نهاوند فإذا هم بأوائل خيل الفرس وافت وقد استقبلوهم بالعطعطة والنعير يقدم بعضهم بعضاً ؛ ثم إنهم التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً وفشت الجراحات في المسلمين حتى وقعت الهزيمة على الفرس وتبعهم المسلمون

(١) قال ياقوت هي قبور قوم من العرب استشهدوا في صدر الإسلام .

فقتلوا منهم بشراً كثيراً وقتل وزير من وزراء كسرى يقال له البحيرجان(١) فيمن قتل ، وهزمهم المسلمون حتى بلغوا بهم إلى موضع عسكرهم واشتبكت الحرب هنالك ، فلم يزالوا كذلك يقتتلون إلى أن جاء الليل فحجز بين الفريقين ، فرجع المسلمون إلى موضع عسكرهم ، فباتوا ليلتهم تلك ولهم أنين شديد من كثرة ما بهم من الجراحات ، توقد لهم النيران ويعصبون بالزيت والحُراق(٢) ، وهم في ذلك يدعون الله عزَّ وجلّ ويتضرعون إليه ويسألونه النصر على أعدائهم .

فلما أصبحوا قال فقال النعمان بن مقرن : أيها الناس ! استمعوا كلامي واحفظوا وصيتي ، فقالوا : قل أيها الأمير ! نسمع كلامك ونحفظ وصيتك ، فقال : إن الفرس قد أخطروا لكم أخطاراً وأخطرتم لهم أخطاراً ، فإن أنتم هزمتموهم ترجعون إلى نعمة وسرور ، وإن هزموكم فلا بصرة ولا كوفة ولا مدينة ، واعلموا بأنكم قد أصبحتم باباً بين الإسلام والشرك ، وإن كسر هذا الباب دخل على الإسلام منه بلاء ، فالله الله عباد الله الإسلام أن تخذلوه فإنكم عباد الله الذين توحدونه وتعبدونه ، فإنما تقاتلون خلقاً من خلقه يأكلون رزقه ويعبدون غيره ، يعبدون الشمس والقمر والنار ، وينكحون الأمهات ، والأخوات والبنات والخالات والعمات ، فكل فاحشة يعملون بها وكل حرمة ينتهكونها ، وقد ساقكم الله عزَّ وجلّ إليهم وساقهم إليكم هواناً لهم وكرامة لكم ، فتقربوا إلى الله عزَّ وجلّ بجهاد العادلين بالله وارغبوا في عظيم ثواب الله ، ألا ! فإني هازّ لكم رايتي هذه ، فإذا رأيتموني قد هززتها فشدوا عمائمكم على بطونكم وشمروا عن سواعدكم ، فإذا هززتها الثانية لكم فليضم كل رجل منكم ثيابه وليتعاهد عنان فرسه ولينظر إلى حزامه وثفره ولببه وليتهيأ للحملة ، فإذا هززتها لكم الثالثة فليضع كل رجل منكم رمحه بين أذني فرسه ولينظر إلى وجوه مقاتلة ، وإني مكبر بعد ذلك فكبروا وشدوا على القوم شدة واحدة وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

قال : فناداه عمرو بن معد يكرب : أيها الأمير ! إنا قد سمعنا كلامك وحفظنا وصيتك ، فإن أصبت ـ وأعوذ بالله أن يكون ذلك ـ فمن يكون على الناس أميراً بعدك ؟ فقال : إن أصبت ـ وأنا أرجو أن يرزق الله عزَّ وجلّ ابن مقرن الشهادة ـ

(١) كذا بالأصل ، ولعله النخيرجان (فتوح البلدان ص ٣٠٢) .
(٢) الحُرّاق : الملح الشديد الملوحة (اللسان) .

فأميركم بعدي حذيفة بن اليمان ، فإن أصيب فجرير بن عبد الله البجلي ، فإن أصيب فالأشعث بن قيس الكندي ، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة الثقفي[1] ؛ ثم رفع النعمان رأسه إلى السماء فقال : اللهم انصر ابن مقرن وارزقه الشهادة ! إنك على كل شيء قدير .

قال : فناداه رجل من أصحابه فقال : أيها الأمير ! إنك قد أمرتنا بأمر ونحن قابلوه منك ، ولكن متى تأمرنا بالحملة على هؤلاء القوم في أول النهار أم في آخره ؟ فقال : لا بل في آخره إذا زالت الشمس عن كبد السماء وهبت الرياح وحضرت مواقيت الصلاة[2] ، وعسى أن يوافق دعاؤنا دعاء أهل المدينة ، فعند ذلك نرجو النصر من السماء ، ولا سيما هذا يوم الجمعة وهو يوم يستجاب فيه الدعاء .

قال : فبينا النعمان بن مقرن يكلم أصحابه بهذا الكلام ويوصيهم إذا هو بعساكر الفرس قد أقبلت يتلو بعضها بعضاً على البراذين البخارية وقد زينت بالسروج المدبّجة والمراشح[3] المشعرة ، والفرس في أيديها الرايات المعلمة والأعمدة المذهبة والطبرزينات المحزقة وعليهم أقبية الحرير وصدر الديباج ، والفيلة عن أيمانهم وشمائلهم قد شهروها بأنواع الزينة ؛ قال : فنظر المسلمون إلى جمع عظيم وعدة قوية فكأنهم جزعوا لذلك وخافوا أن يفشلوا ، قال : فصاح رجل : يا أهل الإسلام ! ألا ما أشبه هذا اليوم إلا يوم الجسر الذي قتل فيه أبو عبيدة بن مسعود الثقفي وأصحابه ، قال : ثم استعبر باكياً ؛ قال فقال عبد الله بن . . .[4] لقد أذكرتني يوم الجسر فأين أنت عن قول أبي محجن الثقفي .

قال : فصاح عمرو بن معد يكرب من القلب وقال : يا معشر المسلمين ! ذرونا من مناشدة الأشعار وارغبوا في مجاورة الملك الجبار وعليكم بالنظر إلى راية أميركم ؛

---

(١) بالأصل ، انظر الطبري ٢٣٢/٤ ابن الأثير ١٨٣/٢ البداية والنهاية ١٢٣/٧ فتوح البلدان ص ٣٠٠ .

(٢) وهي أحب الساعات كانت إلى رسول الله (ص) أن يلقى العدو فيها (ابن الأثير ١٨٣/٢ ، وقد مرت رواية أبي داود والترمذي في ذلك) .
وجاءت شكاية الناس إلى النعمان بعدما أقبل المشركون على المسلمين يرمونهم حتى أفشوا بينهم الجراح رغم استتار المسلمين بالحجف .

(٣) المراشح جمع مرشحة وهي البطانة التي تحت لبد السرج ، سميت بذلك لأنها تنشف الرشح ، يعني العرق .

(٤) كذا بياض بالأصل .

فوقفوا يراعون الراية ليس منهم أحد يزول عن موضعه ، والفرس في خلاف ذلك يضحكون ويعطعطون وينعرون ، والمسلمون سكوت لا ينطقون لكنهم قد علقوا المخالي على الخيل وهم يراعون الراية ، حتى إذا زالت الشمس وحان وقت الصلاة هزّ النعمان رايته هزة ، ونظر المسلمون إلى ذلك فبادروا إلى المخالي فأخذوها عن رؤوس الدواب ، وجعل الرجل بعد الرجل يرمي بنفسه عن فرسه فيصلي ركعتين يبادر بهما ثم يستوي على فرسه ، قال : ثم إن النعمان هز رايته ثانية ، فشد المسلمون عمائمهم على بطونهم وقرطوا أعنة الخيل وشدوا الحزم واستوثقوا من الأثفار والألباب وتهيأوا إلى الحملة ، وجعل الرجل يوصي الرجل الذي إلى جنبه ويقول : يا هذا ! إن منزلي بالبصرة أو بالكوفة في موضع كذا وكذا فانظر إن أصبت أنا وسلمت أنت فصر إلى منزلي فخبرهم بمصرعي ، قال : وكان الكوفي يوصي الكوفي والبصري يوصي البصري ، قال : وبكى الناس بعضهم بعضاً مخافة أن تكون الغلبة للفرس على المسلمين ، قال : وهز النعمان رايته ثالثة ، فوضع كل واحد رمحه بين أذني فرسه وجعل يقول للذي إلى جنبه : أوسع لي فإني أريد أن أحمل ؛ قال : ثم صوب النعمان رايته كأنها جناح طائر أبيض وكبر المسلمون وغشيهم التكبير من الهوى ، فجعلت أقدام الفرس تخفق من ركبهم حتى أن الرجل منهم ليضع النشابة في كبد القوس فترعد كفاه حتى تسقط النشابة من يده .

قال : ثم حمل النعمان وحمل الناس معه فاختلطوا واقتتلوا ، وذهب النعمان ليحمل على رجل من الأعاجم ، فحمل عليه رجل منهم فطعنه طعنة في خاصرته ، فسقط النعمان قتيلاً[1] ـ رحمة الله عليه . قال : وجالت الخيل ونظر رجل من المسلمين إلى النعمان قتيلاً إلى عمامة كانت على رأسه فأخذها فضرب بها على وجه النعمان لكيلا ينظر المسلمون إلى وجه النعمان فيفشلوا عن القتال .

قال : وتقدم معقل[2] أخو النعمان فرفع الراية للمسلمين ثم حمل ، فلم يزل

---

(١) في استشهاده أقوال : قيل زلق به فرسه فصرع (الطبري ـ ابن الأثير) وقيل رمي بسهم في خاصرته فقتله (ابن الأثير) وقيل انه بعد أن زلق به فرسه ووقع جاءه السهم في خاصرته فقتله (البداية والنهاية) .

(٢) في الطبري وابن الأثير « نعيم » وقد أخذ الراية وسلمها إلى حذيفة بن اليمان ، وفي البداية والنهاية : لم يشعر به أحد سوى أخيه سويد ، وقيل نعيم . وأمر حذيفة (عند ابن الأثير : المغيرة بن شعبة) بكتم موته حتى يتفضل الحال لئلا ينهزم الناس .

يقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه - .

قال : وتقدم أخوهما الأصغر واسمه سويد بن مقرن ، قال : وجعل سويد بن مقرن يقاتل حتى أثخن بالجراحات ولم يقتل ، فرجع بالراية فدفعها إلى حذيفة بن اليمان رحمه الله ؛ قال : فأخذها حذيفة فرفعها للمسلمين ثم قال : إني حامل ، وحمل حذيفة وحمل الناس معه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً يومهم ذلك إلى أن جاء الليل فحجز بينهم ورجع الفريقان بعضهم عن بعض .

قال : فلما أصبح القوم زحف بعضهم إلى بعض وتقدم رجل من الأساورة على فرس له لا ينال من طوله حتى وقف بين الجمعين ثم نادى : يا معشر العرب ! أنا بوذان بن أرديه فهلموا إلى البراز ! قال : فلما سمعه الناس وهو يتكلم بالعربية كأنهم هابوه ، فلم يخرج إليه أحد ؛ قال : ونظر الفارسي أنه ليس يخرج إليه أحد فحمل على المسلمين حملة فشق الصفوف وخرج من الجانب الآخر ، ثم كر راجعاً على المسلمين فخالطهم واستلب منهم رجلاً عن فرسه فجعل يركض به والرجل معلق بيده حتى صار به إلى أصحابه فرمى به إليهم فقتل الرجل ؛ ثم أقبل بوذان حتى صار إلى الموضع الذي كان فيه بدياً ، قال : فاغتم المسلمون لذلك وجعل عمرو بن معد يكرب يرتجز ، ثم حمل بوذان على المسلمين ليفعل كفعلته الأولية وحمل عليه عمرو بن معد يكرب من ورائه فضربه بالصمصامة ضربة على بيضته فقد البيضة والهامة ومرت الصمصامة تهوي حتى صارت إلى جوف بوذان فسقط قتيلاً ، فنزل إليه عمرو فسلبه ما كان عليه ، فيقال إنه كان في وسط بوذان منطقة قومت بسبعة آلاف دينار .

قال : ودنت الفرس حتى تقاربت من صفوف المسلمين في خلق عظيم فجعلوا يرمون بالنشاب حتى جرحوا جماعة ، وهم المسلمون بالحملة عليهم فقال حذيفة : لا تعجلوا حتى آذن لكم ؛ قال : فصبر المسلمون ساعة والفرس في خلال ذلك لا يفترون من الرمي وما يسقط منهم نشابة إلا في رجل من المسلمين ، فلما رأوا ذلك وإن الجراحات قد فشت فيهم تركوا وصية حذيفة ، ثم كبروا وحملوا على الفرس فكشفوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم رجعوا إلى مراكزهم ؛ قال : ورجعت إليهم الفرس كأنهم السباع الضارية في جموع لم يروا مثلها قبل ذلك ، فصاح عمرو بن معد يكرب : يا معاشر العرب والموالي ! ويا أهل الإسلام والدين والقرآن ! إنه لا ينبغي لكم أن يكون هؤلاء الأعاجم أصبر منكم على الحرب ولا أحرص منكم

على الموت ، فتناسوا الأولاد والأزواج ، ولا تجزعوا من القتل فإنه موت الكرام ومنايا الشهداء . قال : ثم نزل عمرو عن فرسه ونزل معه أبطال بني عمه ، قال : والأعاجم في الآلة والأسلحة وبين أيديهم ثلاثون فيلاً ، على كل فيل منهم جماعة من أساورة الفرس ؛ قال : ونظر عامة المسلمين إلى عمرو بن معد يكرب وأصحابه وقد ترجلوا فنزل الناس وترجلوا ثم تقدموا نحو الخيل والفيلة ، فلم يكن إلا ساعة من أول النهار حتى احمرت الأرض من دماء الفرس وقتلت الفيلة بأجمعها فما أفلت منها واحد .

قال : فتراجعت الفرس إلى ورائها ، وإذا بفيلة أخرى من الفرس قد أقبلت في قريب من عشرة آلاف بمطاردها وأعلامها ، وبين أيديهم رجل من قواد كسرى يقال له لرداود بن ادركرد وكان من أهل قاشان ، قال فتقدم على فيل له مزين وعلى رأسه تاج له يلمع بالجوهر ، وعن يمينه خمسة فيلة وعن يساره كذلك ، على كل فيل منها جماعة من أساورة الفرس . قال : ونظر إليهم قيس بن هبيرة المرادي فلم يكذب أن حمل على ذلك الفيل المزين ، فضرب خرطومه ضربة وقطعه ، ثم تأخر عنه وطعنه في عينه طعنة ، فإذا الفيل تقهقر إلى ورائه حتى أنه مر بساقية فيها ماء فعثر بها وسقط عنه لرداد بن ادركرد .

قال : ثم تقدم رجل من شجعان الفرس يقال له مهر بنداد بن راذان بود في قريب من ألف فارس ومهر بنداد يومئذٍ على فيل مزين وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجوهر ، وفي يده طبرزين محزق بالذهب والفيلة عن يمنه وشماله ؛ فلما وقف مهر بنداد بين الجمعين في هذا الجيش ضج المسلمون من كل ناحية وجعل كل قوم يحبون المبارزة والخروج إلى الحرب ، قال : فتقدم عروة بن زيد الخيل الطائي فقال : يا معشر المسلمين ! إنه ليست منكم قبيلة بحمد الله إلا ولها في هذه الوقعة أثر محمود ، وقد أحببت أن تجعلوا قتال هؤلاء القوم في هذا الوقت إلينا ؛ فقال عمرو بن معد يكرب والمسلمون : فإنا قد أحببنا ذلك فاخرج عافاك الله وكلأك من ناره . قال : فتقدم عروة بن زيد الخيل الطائي وتقدم معه نيف على ثلاثمائة رجل من بني عمه ، حتى إذا دنا من الفرس حسر عن رأسه ثم كبر وحمل وحملت معه قبائل طيء على مهر بنداد وأصحابه ، فكان مهر بنداد أول من قُتل ، ووضع المسلمون السيف في أصحابه وكانوا ألف فارس ، فأفلت منهم خمسون رجلاً أو أقل من ذلك ؛ قال : ووقع المسلمون في السلب فأخذوا متاعاً كثيراً من دروع وجواشن وبيض ورماح وحجف

وأطواق وشنوف وقرطة وأسورة ومناطق ، وحازوا ذلك كله ؛ قال : وجاء الليل فحجز بين الفريقين .

فلما كان من غد وذلك في اليوم الرابع من حروبهم ثار القوم بعضهم إلى بعض ، وزحف أهل نهاوند في جمع عظيم حتى صافّوا المسلمين ، قال : وصف المسلمون صفوفهم كما كانوا يصفونها من قبل ، ودنت الخيل من الخيل والرجال من الرجال فتناوشوا ساعة ؛ وتقدم مرزبان من مرازبتهم يقال له النوشجان بن باذان على فيل له وقد شهره بالتجافيف المذهبة وصفرة الذهب تلمع على سواد الفيل حتى وقف بين الجمعين ؛ قال : ونظر إليه عمرو بن معد يكرب فتهيأ للحملة عليه ؛ ثم أقبل على بني عمه من زبيد فقال : ألا تسمعون ؟ فقالوا : قل يا أبا ثور ! نسمع قولك وننتهي إلى أمرك ، فقال : إني حامل على هذا الفيل وقاصد إليه ، فإن قطعت خرطومه فقد هلك وذاك الذي أريد ، وإن أخطأته ورأيتم الفرس قد حملوا عليّ وتكاثروا فأعينوني ، فقالوا : نفعل أبا ثور ! فاستخر الله عزَّ وجلّ وتقدم . قال : فتقدم عمرو نحو الفيل الذي على ظهره النوشجان ، قال : وجعل النوشجان يرميه بالنشاب من فوق الفيل حتى جرحه جراحات كثيرة ، ونظر إليه من كان من بني عمه فخرجوا إليه ليعينوه ، وصاح النوشجان بالفرس فحملوا على عمرو وأصحابه ، فاقتتل القوم وحمل عمرو من بين أيديهم فضرب خرطوم الفيل فقطعه ، وولى الفيل منهزماً ثم سقط ميتاً ، ووضع المسلمون السيف في النوشجان وأصحابه ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقتل النوشجان فيمن قتل وانهزم الباقون بشر حالة تكون .

قال : وتقدم قائد من قواد نهاوند يقال له هرمزد بن داران في نيف على خمسة آلاف فارس من نخبة الأعاجم حتى وقف بين الجمعين ، فأقبل حذيفة بن اليمان على الناس فقال : أيها المسلمون ! إن هؤلاء الأعاجم ليست معهم نصفة أن يخرج منهم رجل إلى رجل ، وذلك أنه إذا خرج منهم قائد يجد بداً من أن يخرج معه كل أصحابه ، وهذا عسكر لجب قد برز إليكم في مثل هذه التعبية من الخيل والجنود والفيلة ، فثقوا بربكم وقاتلوا عن دينكم وصلوا على نبيكم ؛ قال : فكان أول من خرج إلى هرمزد وأصحابه رجلان من قيس عيلان من بني مضر يقال لأحدهما بكير والآخر مالك ، فخرجا على فرسين لهما ثم أقبل أحدهما على الآخر فقال له : يا أخي ! اعلم أني حامل على هذا الجيش ولست أطلب منهم إلا عميدهم وكبيرهم هرمزد بن داران ، فما الذي ترى ؟ فقال أخوه : أرى أني معك أحمل إذا حملت ،

ومعك أقتل إن قتلت ، ومعك أرجع إن رجعت ؛ قال : فخرجا جميعاً نحو هرمزد وأصحابه فطعنا في الخيل ساعة حتى فروا هائمين يمنة ويسرة ، ثم إنهما حملا على هرمزد بن داران ، هذا عن يمينه وهذا عن يساره ، فطعناه فسقط إلى الأرض قتيلاً ؛ قال : وتكاثرت الفرس من كل ناحية على هذين الفتيين بكير ومالك فقُتلا جميعاً ـ رحمة الله عليهما ـ .

قال : فارتفع العجاج فخرج أخ لهذين الفتيين ليخرق العجاج وينظر إلى أخويه ، فإذا لقيه رجل يقال له بسطام بن عمرو فقال له : ويحك يا بسطام ! هل حسست أخوي حساً ؟ فقال : نعم ، أعظم الله أجرك في أخويك ! فقد قتلا كريمين ، فقال ناشرة : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ ثم حمل على الفرس فقاتل ساعة ثم وقف ثم حمل ناشرة بن صالح ، ونادى عمرو بن معدي كرب قال : يا معاشر المسلمين ! إني ما أشبه هذا اليوم إلا بيوم القادسية ، فيا معشر بني مذحج ! ويا فتيان بني زبيد ! ويا معشر النخع ! اعلموا أن الذكر غداً بالمدينة لمن صبر اليوم ، ألا ! فاحملوا ولا تفشلوا رحمكم الله .

قال : فما بقي أحد من بني مذحج ولا من النخع ولا من بني زبيد إلا وحمل ، ونظر إليهم عمرو وقد حملوا فحمل معهم ، فاقتتلوا ساعة حتى أزالوا الفرس عن أماكنهم ، وقتلوا منهم بشر كثير .

قال : ثم أقبل جرير بن عبد الله البجلي على الناس فقال : يا معشر المسلمين ! إنكم قد علمتم بأن أميرنا النعمان بن مقرن قد قتل منذ ثلاثة أيام وهذا الرابع ، وهؤلاء الأعاجم كلما كسرنا لهم جيشاً زحفوا إلينا بجيش هو أعظم منه ، وقد تعلمون أن يزدجرد ملك الأعاجم قاطبة قد صار إلى أصفهان ولست آمن أن يبعث إليكم بجيش عظيم فيكون فيه البوار ، وهذه الشمس قد زالت كما ترون ، فاعلموا أنها لا تغيب إلا ونحن في جوف قلعة نهاوند إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : فقال طليحة بن خويلد الأسدي : والله ما الرأي إلا ما رأيت يا أبا عمرو ! ولقد قلتَ قولاً ويجب أن نجعلها واحدة ، لنا أم علينا ، فإنا لا نطيق كثرة هؤلاء القوم .

قال : فقال عمرو بن معد يكرب : ويحك يا طليحة ! لا تقل علينا فإني أرجو أن تكون لنا وقلبي يشهد بذلك كما أنه يشهد أني مقتول في هذا اليوم ، ألا ! وإني

حامل فاحملوا معي رحمكم الله ، فوالله لأجهدن أني لا أرجع دون أن أفتح أو أقتل . قال : ثم نزل عمرو عن فرسه وجعل يستوثق من حزامه وثفره ولببه ، ثم استوى عليه وضرب بيده إلى الصمصامة فجعل يهزّها ، قال : ثم كبّر عمرو وحمل ، وحمل معه فرسان بني مذحج على جموع الأعاجم ، فلما خالطهم عمرو عثر به فرسه فسقط إلى الأرض وغار فرسه وأحاطت به الفرس من كل جانب ، فلم يزل يقاتل حتى انكسرت الصمصامة في يده ، ثم ضرب بيده إلى السيف ذي النون فلم يزل يضرب به حتى انكسر في يده ، فعند ذلك علم أنه مقتول ؛ قال : وجعل المسلمون يحملون على الفرس فيقاتلون وليست لهم بهم طاقة لكثرة جمعهم ، وحمل رجل من الفرس يقال له بهرزاد على عمرو بن معد يكرب فضربه على يافوخه ، فخر عمرو صريعاً وتكاثرت عليه الفرس بالسيوف فقطعوه إرباً إرباً ـ رحمة الله ورضوانه عليه ـ .

ثم إنهم حملوا على المسلمين حملة فكشفوهم عن معسكرهم وعن موضع سوادهم ؛ قال : وكان سارية بن زنيم الكناني يومئذٍ على جناح المسلمين فوقعت في أذنه صيحة وهو يقول : يا سارية ! الجَبَلَ الجَبَلَ ! مرتين ، قال : فحمل سارية ومن معه من المسلمين على قوم من الفرس وراء الجبل وقد كانوا عزموا أن يخرجوا على المسلمين كميناً . فكشفهم سارية عن مواضعهم وحمل المسلمون من الميمنة والميسرة والقلب ، فاحتكموا الأعاجم جملة حتى قلعوهم عن أرض نهاوند وبنائها واتبعوهم فرسخين أو أكثر من ذلك يقتلونهم عند كل حجر وشجر ؛ ثم رجعوا إلى نهاوند في وقت المغرب فباتوا ليلتهم تلك يحرس بعضهم بعضاً خوفاً من أن يكون في الفرس رجعة عليهم ، والفرس قد ألقى الله عزَّ وجلّ الرعب في قلوبهم ، فبعضهم يؤمّ أصفهان وبعضهم يؤم ماسبذان وبعضهم يؤم قم وقاشان مشردين في البلاد ، فأصبح المسلمون فجعلوا يجمعون غنائم نهاوند إلى معسكرهم حتى نظروا إليها كأنها الإكام ، ثم إنهم دفنوا قتلاهم فبعضهم دفن في الموضع الذي أصيب فيه ، وبعضهم دفن في الموضع الذي يعرف بقبور الشهداء إلى يومنا هذا .

قال : وأقبل إلى السائب بن الأقرع رجل من أهل نهاوند[1] فقال له : أيها العربي ! أنت صاحب غنائم العرب ؟ فقال : نعم ، أنا على غنائمهم ، فقال : هل

---

(١) هو الهربذ صاحب بيت النار (الطبري ٢٤٣/٤ وفيه أنه جاء إلى حذيفة بن اليمان) . وفي فتوح البلدان ص ٣٠٢ ذو العوينتين .

لـك أن تؤمنني على نفسي وأهلي وولـدي ومـالي وأهـل بيتي وأدلـك على كنـز النخيرجان[1] ؟ فقال له السائب : أيها الرجل ! انك تطلب مني الأمان على أمة من الأمم ولست أدري كنز النخيرجان ما هو ؟ فقال الفارسي : إذاً أخبرك أيها الأمير !

خبر النخيرجان وقصته

قال : وجعل الفـارسي يحدث السـائب بن الأقرع فقـال : أيها الأميـر ! إن النخيرجان كان وزيراً ليزدجرد ، وكانت له امرأة حسناء وكان يزدجرد يختلف إليها ؛ قال : فقال غلمان النخيرجـان للنخيرجـان : أيها الـوزير ! إن الملك يختلف إلى امرأتك فأحببنا أن نعلمك بذلك ، قال : فاتقى النخيرجان على نفسه من أن يقتله يزدجرد ويأخذ امرأته ، فجفا النخيرجان امرأته فلم يقربها ، فخبرت المرأة يزدجرد بذلك ، قال : فدعا يزدجرد بالنخيرجان ذات يوم فأقعده بين يديه ثم خلا به فقال له : يـا نخيرجـان ! بلغني أن لك عينـاً عذبـة وأنك لا تشـرب منها فلم ذلـك ؟ فقـال النخيرجان : أيها الملك ! إني كنت أشرب منها ولكني وجدت عنـدها أثـر الأسد فاتقيته على نفسي ؛ قال : فعلم يزدجرد أن النخيرجان قد علم بأمره وأمر امرأته فأمره بمفارقتها ، ففارقها وزوّجه يزدجرد غيرهـا من النساء ووصله بمـال جليل وتـاج من الذهب[2] ؛ ثم قال ذلك الفارسي للسائب بن الأقرع : وأنا أعرف موضع هذا المال وهذا التاج فتعطيني الأمان كما سألتك ويكون هذا المال لك من دون أصحابك ؛ قال : فأعطاه السائب الأمان كما أراد ودله الفارسي على الكنز ، فأخذه وكتمه عن المسلمين ، ثم أخرج الخمس من غنائم نهاوند فعزله ليوجه به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقسم الباقي في المسلمين فأعطى كل ذي حق حقه وحمل الخمس مع ذلك السفط إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فلما نظر إليه عمر من بعيد قال له : ويحك يا سائب ! ما وراءك ؟ فلقد بت البارحة بليلة ، الله بها عليم من غمي بأمور المسلمين ، فقال له السائب بن الأقرع :

---

(١) بالأصل ، « البحيرجان » وقد مرّ ، فتوح البلدان ص٣٠٢ ابن الأثير ١٨٥/٢ الطبري ٢٤٣/٤ وفي الأخبار الطوال ص ١٣٧ النخارجان .

(٢) كذا ، وعند الطبري أن النخيرجان وضع ذخيرة لكسرى عند الهربذ ، وكان كسرى قد أعدها لنوائب الزمان . وفي فتوح البلدان : كنز النخيرجان هو سفطان من الجوهر لم ير مثلهما . وعند ابن الأثير : سفطين فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت .

أبشر يا أمير المؤمنين ! فقد فتح الله عزَّ وجلّ على المسلمين وأذل المشركين ، وقد قسمت على كل ذي حق حقه وحملت إليك خمس غنائم المسلمين من أهل نهاوند .

قال : فجعل عمر يسأله عن المسلمين ومن قتل منهم هنالك والسائب يخبره بقتل كل رجل ، حتى سأله عن عمرو بن معد يكرب فقال : قتل يا أمير المؤمنين ووالله ما عرفناه من كثرة الضربات التي أصابته إلا بثناياه ؛ قال : فبكى عمر بكاء شديداً ثم قال : رحم الله أبا ثور ! يرحم الله النعمان بن مقرن ! رحم الله فلاناً وفلاناً - وجعل يترحم على رجل بعد رجل حتى ترحم على جميع من قتل . ثم قال : ويحك يا سائب ! فما صنع المسلمون بعد ذلك ؟ قال : فقلت يا أمير المؤمنين [و] دفعت إلى كل ذي حق حقه وأتيتك بهذا الخمس وقد رجع أهل البصرة إلى بصرتهم وأهل الكوفة إلى كوفتهم .

قال : فما برح عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المسجد حتى قسم الخمس من غنائم نهاوند على المسلمين ، وهمّ عمر أن يقوم من موضعه فتقدم إليه السائب بن الأقرع فكلمه سراً وخبره بكنز النخيرجان ، فقال عمر : ائتني به ، فجاء به حتى وضعه بين يديه وفتحه وجعل ينظر إلى ذلك السفط وما فيه من الذهب والجوهر ، ثم دعا بعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة والزبير ومن هنالك من المسلمين رضي الله عنهم أجمعين ، فقال لهم : اختموا بخواتيمكم على هذا السفط ، فإني لست آمن نفسي عليه ، قال : وختم القوم بخواتيمهم على ذلك السفط ؛ ثم أمر فوضع في بيت المال وانصرف عمر إلى منزله . فلما كان الليل وجه عمر إلى السائب بن الأقرع فدعاه[1] ثم قال : ويحك يا سائب ! ما لي ولك ؟ أردت أن تدخلني النار نارِ جهنم ! قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني كنت نائماً فرأيت هذا السفط الذي جئتني به وهو يشتعل ناراً والنار ترتفع إلى وجهي وأنا أتأخر عنها خوفاً من أن تحرقني وسمعت هاتفاً يهتف بي وهو يقول : يابن الخطاب ! أردد هذا السفط على من أفاء الله به عليه . فاحمل الآن هذا السفط إن شئت إلى البصرة أو إلى الكوفة فبعه وادفع إلى كل ذي حق حقه وائتني بالخمس حتى أقسمه في المسلمين . قال : فحمل السائب بن الأقرع ذلك السفط إلى الكوفة ثم وضعه في

(١) وقيل إن السائب وبعد تسليمه الخمس والسفطين إلى الخليفة خرج مسرعاً إلى الكوفة ، وقد أصبح عمر فبعث رسولاً إلى السائب فلم يجده فأرسل بعثاً إليه أدركه بالكوفة ، فاستدعاه على عجل إلى عمر (ابن الأثير ٢ / ١٨٥ البداية والنهاية ٧ / ١٢٧) .

المسجد الأعظم ودعا بالناس إلى شرائه ، فاشتراه عمرو بن حريث المخزومي بمال جزيل[1] ، وربح فيه مثل ثمنه ؛ فيقال إن ذلك المال أول مال اعتقله عمرو بن حريث بالكوفة . قال : فأخرج السائب بن الأقرع من ذلك المال الخمس فحمله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقسم باقي ذلك المال فيمن شهد فتح نهاوند من أهل البصرة وأهل الكوفة ؛ فهذا ما كان من فتح نهاوند والله أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ذكر فتح مدينة الري[2] والدستبى وما يليهما

قال : فلما فتح الله عزَّ وجلّ نهاوند على المسلمين وأمكن منهم وقسم غنائمهم كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ذلك إلى عمار بن ياسر : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عمار بن ياسر ، أما بعد فالحمد لله الذي أنجز وعده وهزم الكفار وحده ، فاحمدوا الله عباد الله على ما رزقكم من غنائم عدوكم واعتصموا به ، فنعم المولى ونعم النصير ؛ وبعد فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على المسلمين وبشرهم بالنصر من عند خير الناصرين ، ثم اعرض أجناد أهل الكوفة فانتخب منهم عشرة آلاف رجل من أخلاط القبائل فاضممهم إلى عروة بن زيد الخيل الطائي ومره فليسر بهم نحو الري والدستبي فعسى الله عزَّ وجلّ أن يفتح ذلك على يده بمنه وطوله وحوله وقوته إنه على كل شيء قدير - والسلام عليك ورحمة الله وبركاته - .

قال : فلما ورد الكتاب على عمار بن ياسر نادى في المسجد ، فاجتمعوا إليه فأقرأهم الكتاب وندبهم إلى الجهاد ، فأجابه الناس إلى ذلك فرحين مسرورين ، فجعل ينتخب الرجال من جميع القبائل ، حتى إذا علم أنهم تكاملوا عشرة آلاف رجل دعا عروة بن زيد الخيل وأمره بالمسير إلى الري[3] ، فسار عروة بالمسلمين سيراً حثيثاً

---

(١) في ابن الأثير ١٨٦/٢ والبداية والنهاية ١٢٧/٧ بألفي ألف درهم .
قال في فتوح البلدان ص٣٠٢ : ثم انطلق بإحداهما إلى الحيرة فباعه بما اشتراهما به ، وفضل الآخر . وعند ابن الأثير : باعهما بأربعة آلاف ألف .

(٢) الري : مدينة مشهورة بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً .
دستبى : كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمذان .

(٣) كذا بالأصل ومعجم البلدان وفتوح البلدان ص ٣١٢ وفيه أنه انتدب في ثمانية آلاف .
وقيل إن فتح الري كان على يد نعيم بن مقرن (الطبري ٢٥٣/٤ ابن الأثير ١٩٢/٢ البداية والنهاية ١٣٧/٧) ، وقيل إن من تولى فتحها قرظة بن كعب الأنصاري (اليعقوبي ١٥٧/٢) .

حتى صار إلى حلوان ، وبها يومئذٍ جرير بن عبد الله البجلي في قريب من ثمانية آلاف من المسلمين غير أنه متمسك بحلوان فلا يقدر أن يجوزها إلى غيرها ، فأقبل عروة حتى نزل عنده ثم ودعه وخرج يريد همذان ، وبها يومئذٍ رجل من عظماء الأعاجم يقال له كفتار في جمع يسير من الفرس ، فلما أحس بخيل المسلمين أنها قد وافته رحل من همذان حتى صار إلى قم فنزلها ، ودخل المسلمون إلى حصن همذان فاحتووا عليه وعلى ما قدروا عليه من الأطعمة والعلوفة وغير ذلك ، وأقاموا بهمذان أياماً ثم رحلوا منها يريدون الري ؛ وبساوة[1] يومئذٍ رجل من ملوك الأعاجم يقال له داور بن أزدهان في عشرة آلاف فارس من أهل بلده وأهل الرستاق من الدستبى ؛ فلما بلغه مسير المسلمين إلى ما قبله نادى في أصحابه وخرج عن ساوة هارباً حتى صار إلى الري ونزل المسلمون بساوة .

وبلغ ذلك ملك الري فرخنداد بن يزدامهر الأكبر[2] فاغتم بمسير المسلمين واستنهض أهل الري فأجابوه في عشرين ألفاً ؛ قال : واجتمع إليه الديلم[3] في مثل ذلك ، فسار فرخنداد في قريب من أربعين ألفاً ، وبلغ ذلك المسلمين وهم نزول بساوه في عشرة آلاف كأنهم جزعوا من عساكر الديلم وأهل الري ، فجعل أميرهم عروة بن زيد الخيل يشجّعهم وينهاهم عن الفشل ويحثهم على الجهاد لعدوّهم .

قال : ثم إنه نادى بالرحيل نحو الري ، فسار المسلمون يوماً وثانياً وثالثاً حتى نزلوا على ثلاثة فراسخ من الري ، وبلغ ذلك ملك الري فخرج إلى المسلمين في زهاء أربعين ألفاً ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وعبى عروة بن زيد الخيل أصحابه ، فجعل على ميمنته أخاه حنظلة بن زيد الخيل ، وعلى ميسرته سماك بن عبيد[4] العبسي ، وعلى الجناح سويد بن مقرن المزني ؛ قال : وتقدم عروة بن زيد الخيل حتى وقف على القلب في جماهير المسلمين وأبطال العرب ثم قال : أيها الناس ! إنه ليس ينبغي لمن علم أن الجنة مأوى المتقين وأن النار مثوى الكافرين أن يجزع من كثرة هؤلاء الأعاجم ، فوالله ! إنكم لأنتم الذين فتحتم القادسية والمدائن

---

(١) ساوة : مدينة بين الري وهمدان .

(٢) في الطبري ٢٥٣/٤ وابن الأثير ١٩٢/٢ سياوخش بن مهران بن بهرام جوبين . وفي البداية والنهاية ١٣٦/٧ أبو الفرخان .

(٣) كان على الديلم : موتا (البداية والنهاية) .

(٤) عن فتوح البلدان ص ٣٠٣ وبالأصل « هلال » تحريف .

وجلولاء وحلوان . وأنتم الذين فتحتم أرض الأهواز بأجمعها قلعة قلعة ونهراً نهراً ، وأنتم أصحاب نهاوند بالأمس وقد اجتمع بها أضعاف هؤلاء ، فقد عرفتم حرب القوم ، إنما لهم ساعة واحدة ما دامت سهامهم في كنائنهم ، فإذا نفدت فقد أهلكهم الله عزَّ وجلّ ويبدد شملهم .

قال : فبينا عروة بن زيد الخيل يحرض أصحابه على الجهاد ويرغبهم فيما عند الله عزَّ وجلّ إذا برجل من عظماء أهل الري يقال له داد بن فرناذ قد برز من بين صفوف الأعاجم فجعل يجول ويطلب البراز ، فخرج إليه شبل بن معبد البجلي ، فجاوله ساعة ثم التقيا بطعنتين طعنه البجلي [و] جدله قتيلاً ؛ ثم حمل في جميع أهل الري فطعن فيهم طعناً وجيعاً جرح منهم جماعة ، ثم رجع إلى صفوف المسلمين فوقف .

ثم تقدم عروة بن زيد الخيل حتى وقف أمام المسلمين على برذون له أصفر ، فجعل ينادي : يا معشر طيء ! إنه لا عطر بعد عروس[1] ، ولست أريدكم لبعد اليوم وأنشدكم الله عزَّ وجلّ أن تفضحوني أو تشمتوا بي عدوي ؛ قال : فنادته قبائل طيء من كل ناحية : أيها الأمير ! احمل رحمك الله حتى ترى منا ما يسرك إن شاء الله ، قال : فعندها جعل عروة بن زيد الخيل يرتجز ؛ قال : ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قتل من القوم جماعة ، وحمل المسلمون بأجمعهم على أهل الري والديلم فقتلوا منهم في المعركة زهاء سبعمائة ، وولى الباقون أدبارهم يتبعون صاحبهم فرخنداد بن يزدامهر حتى دخلوا المدينة مفلولين ، واحتوى المسلمون على غنائمهم وأسلابهم .

قال : ثم بعث ملك الري إلى عروة بن زيد الخيل يسأله الصلح على أنه يقره في بلده ويؤدي الجزية إليه في كل سنة ثلاثين ألف درهم ويعجل إليه بمائتي ألف درهم . قال : فرضي منه عروة بن زيد بذلك ثم كتب[2] إلى عمر بن الخطاب رضي

---

(١) في فتوح البلدان ص ٣١٤ صالحه ابن الزينبي على أن يكونوا ذمة يؤدون الجزية والخراج ، وأعطاه عن أهل الري وقومس خمسمائة ألف على أن لا يقتل أحداً ولا يسبيه ولا يهدم لهم بيت ناري .
وخبر فتح الري مختلف تماماً في الطبري ، وأن الصلح مع أهلها عقده نعيم بن مقرن وكتب لهم بذلك كتاباً (ج ٤/٢٥٣) .

(٢) كذا بالأصل ، وفي فتوح البلدان ص ٣١٣ أن عروة بن زيد خلف أخاه حنظلة بن زيد على الري وقدم على عمار وتوجه ـ بعد إذن عمار ـ إلى عمر يخبره بنفسه خبر فتح الري .

الله عنه بما قد فتح الله عزَّ وجلّ على يديه من الري وغيرها .

وكتب إليه عمر يأمره أن يخلف على الري رجلاً من المسلمين يأخذ منهم الجزية ويسرع المسير إلى قم(١) وقاشان(٢) .

قال : فلما ورد كتاب عمر رضي الله عنه على عروة بن زيد وقرأه دعا برجل من عبد القيس يقال له زكاة بن مصعب فولاه على جزية الري ، وضم إليه ثلاثمائة فارس من فرسان أهل الكوفة ثم سار بالمسلمين يريد إلى قم وقاشان .

قال : وبلغ ذلك صاحب قم واسمه وسنان ، فخرج عن قم هارباً حتى صار إلى قاشان فأقام بها ساعة من النهار ثم رحل منها حتى صار إلى أصفهان ، وبها يومئذٍ يزدجرد ملك الفرس ، فدخل عليه وسنان فقال : أيها الملك ! إنه قد أخذت العرب همذان والري وقد توجهوا إلى قم وقاشان وكأنك بهم وقد وافوك ، فاعمل على رأيك ؛ قال : فاغتمّ يزدجرد لذلك غمّاً شديداً ، وسار المسلمون إلى قم فنزلوها واحتووها وعلى قاشان(٢).

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب إلى جرير بن عبد الله وهو يومئذٍ بحلوان فأمره بالتقدم إلى همذان ، فسار جرير بمن معه إلى همذان وأرض الماهين واحتووا عليها ؛ قال : فكان جرير مقيماً بهمذان والماهين ، وعروة بن زيد مقيماً بقم وقاشان(٢) ، وخليفته بالري .

قال : وبلغ ذلك يزدجرد ملك الفرس ، فدعا برجل من المرازبة يقال له الفاذوسفان فولاه أصفهان ، ثم خرج منها هارباً حتى صار إلى أرض فارس فنزل مدينة إصطخر(٣) ؛ وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب إلى عروة بن زيد الخيل يأمره أن لا يبرح من قم وقاشان إلى أن يأتيه أمره ؛ ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو مقيم بالبصرة وقد فتح من أرض الأهواز ما فتح ، فكتب إليه يأمره

---

(١) قم : مدينة بين أصبهان وساوة . وبينها وبين قاشان ١٢ فرسخاً .

(٢) في فتوح البلدان ص ٣٠٨ ومعجم البلدان أن أبا موسى الأشعري افتتح قم وأقام عليها أياماً . ووجه أبو موسى الأحنف بن قيس إلى قاشان فافتتحها عنوة .

(٣) اصطخر : مدينة من خراسان بينها وبين شيراز ١٢ فرسخاً .

بالمسير إلى أصفهان وأن يعجل المسير إليها[1] .

ذكر فتح أصفهان على يدي أبي موسى الأشعري

قال : فلما ورد كتاب عمر رضي الله عنه على أبي موسى نادى في أهل البصرة وأقرأهم كتاب عمر وندبهم إلى المسير إلى أصفهان وأمرهم بالأهبة والجهاد ، ففعلوا ذلك وأجابوه سراعاً راغبين في الجهاد ، قال : ودعا أبو موسى برجل من بكر بن وائل يقال له همام بن متمم[2] فولاه على أهل البصرة ، ثم نادى في الناس بالرحيل إلى أصفهان ، وخرج الناس معه حتى نزلوا بالأهواز ، ثم رحل منها يريد أصفهان حتى إذا تقارب منها دعا برجل من خزاعة يقال له عبد الله بن بديل بن ورقاء[3] فضم إليه ألفي راجل وفارس من جند أهل البصرة وقدمه أمامه نحو أصفهان ؛ وبلغ ذلك الفاذوسفان صاحب أصفهان ، فدعا بفرس فاستوى عليه وخرج عن المدينة في ثلاثين فارساً هارباً على وجهه يريد إلى يزدجرد ؛ وبلغ ذلك عبد الله بن بديل بن ورقاء فأسرع في المسير في طلبه فلم يقدر عليه ومضى الفاذوسفان حتى لحق بيزدجرد[4] . وأقبل عبد الله بن بديل إلى باب أصفهان فنزل عليه في ألفي فارس ، فأرسل إليه أهل أصفهان يسألونه الصلح ، فأجابهم أبو موسى إلى ذلك وصالحهم[5] على مائة ألف درهم عاجلة

---

(١) في الطبري ٤/٢٤٦ ومعجم البلدان : أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعث عبد الله بن عبد الله بن عتبان وأمده بأبي موسى .

(٢) عند الطبري ٤/٢٤٦ عمر بن سراقة .

(٣) كذا بالأصل وفتوح البلدان ص ٣٠٨ وتاريخ اليعقوبي ٢/١٥٧ وتاريخ خليفة ص ١٦١ إلا أنه قال إنه كان على مقدمة ابن عامر . وفي معجم البلدان أن عبد الله بن عبد الله بن عتبان توجه إلى أصبهان وعلى مقدمته عبد الله بن ورقاء الرياحي وعلى مجنبته عبد الله بن ورقاء الأسدي . والذين لا يعلمون يرون أن أحدهما عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي لذكر ورقاء فظنوا أنه نسب إلى جده ، وكان عبد الله بن بديل بن ورقاء قتل بصفين وهو ابن أربع وعشرين سنة ، فهو أيام عمر صبي .

(٤) كذا بالأصل . وفي رواية فتوح البلدان ص ٣٠٩ أن ابن بديل لحقه قبل وصوله إلى يزدجرد وعاد معه إلى أصبهان وصالحه .
وفي معجم البلدان والطبري ٤/٢٤٨ أن ذلك كان بين الفاذوسفان وعبد الله بن عبد الله بن عتبان .

(٥) في فتوح البلدان أن ابن بديل تمم الصلح مع الفاذوسفان ، وعند الطبري وابن الأثير ومعجم البلدان أن عبد الله بن عبد الله بن عتبان هو الذي قرر الصلح مع الفاذوسفان وكتب له ولأهل أصبهان كتاب الصلح .
انظر نسخته في الطبري ٤/٢٤٨ ومعجم البلدان (أصبهان) والوثائق السياسية وثيقة رقم ٣٣٣ صفحة ٤٤٢ .

والجزية بعد ذلك على من أقام على دين المجوسية . قال : ثم دخل أبو موسى مدينة أصفهان بلا قتال ولا مناوشة كانت بينه وبين أهل أصفهان قبل ذلك بموضع يقال له ميدان ، فأقبل قبل الصلح .

قال : وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بما فتح الله عزَّ وجلّ على يديه من أصفهان وأنه مقيم بها ؛ قال : فلما قرأ عمر كتاب أبي موسى قال : الحمد لله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ، لا معطي لما يمنع ولا مانع لما أعطى .

قال : وبلغ أهل فارس أن العرب قد أخذت أصفهان وما يليها فاغتموا لذلك وهالهم أمر العرب جداً ، قال : ودعا يزدجرد برجل من أبناء ملوك العجم يقال له شهرك بن ماهك ، فقال : ويحك يا شهرك ! إني أرى هؤلاء العرب ما يطلبون أحداً غيري ، وذلك أني كلما رحلت إلى بلدة رحلوا في أثري ، غير أني رأيت من الرأي أرجع عن جميع أرض فارس وأصير إلى كرمان[1] ، ولكن انظر كيف تقاتل عن دينك وتناضل عن حرمك ودار ملكك ؛ قال : ثم رحل يزدجرد عن مدينة إصطخر ومضى حتى صار إلى كرمان ، فنزل في قصر ملك من ملوكها يقال له هزارمرد ، ولم يكن بكرمان أجل منه .

ذكر فتح فارس[2] على يد أبي موسى الأشعري

قال : واجتمع أهل إصطخر[3] إلى رجل منهم يقال له الموبذان ، قال : وكان الموبذان هذا قاضي القضاة عند الأعاجم وهو الذي يقتدون برأيه وينتهون إلى أمره ، فقالوا : أيها الموبذان ! إنك قد علمت بأن نجم العرب قد طلع طلوع سعد ، قد غاب عنه النحس ، وذلك أنهم قد أخذوا جميع البلاد الذي كانت للفرس حتى وصلوا إلى أصفهان فأخذوها ، وهذا الفاذوسفان ابن ساسب صاحب أصفهان قد أقبل منهزماً بين أيديهم ، وقد علمت يا موبذان أن إصطخر هي التاج ، فإن ذهبت منه ريشه لم

---

(١) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان .

(٢) فارس : ولاية واسعة وإقليم فسيح . فيها من أمهات المدن المشهورة غير قليل . وكورها المشهورة خمس أوسطها إصطخر .

(٣) قارن مع رواية الطبري ٥/٣ وابن الأثير ٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤ وفتوح البلدان ص ٣٧٩ .

يكن للعجم نظام ، فلم لا تكلم الملك شهرك بن ماهك في ذلك حتى يحتال بحيلة ، ثم إنه يدفع هؤلاء ويجمع الجموع . فيلقى هؤلاء العرب من قبل مصيرهم إلى ما قبلنا .

قال : فعندها أقبل الموبذان قاضي الفرس حتى دخل على شهرك بن ماهك ، فكلمه في ذلك وذكر له مقالة الأعاجم . فقال له شهرك : ومن هؤلاء العرب إلا كلاب حتى انكم تريدون ، تخافون من نباحتهم لعلكم نظرتم إلى جزع يزدجرد وخروجه عن بلد فارس فاتقيتم على أنفسكم . ثم قال شهرك : اخرج أيها الموبذان فناد في جميع الأعاجم أن يجتمعوا لهؤلاء العرب [و] ألا يخرج إلى حربهم أحد إلا ومعه حبل حتى نقرنهم في الحبال .

قال : فخرج الموبذان إلى الفرس فخبرهم بمقالة شهرك ، فجعل الناس يجتمعون إلى شهرك حتى صار في عشرين ومائة ألف رجل من الفرس .

قال : وبلغ ذلك أبا موسى الأشعري(١) ، وأبو موسى يومئذٍ مقيم بأصفهان ، فنادى في المسلمين فاجتمعوا إليه فعرضهم فكانوا سبعة عشر ألفاً ما بين فارس وراجل ، فوضع لهم الأرزاق وأعطاهم ووعدهم ومناهم ثم سار بهم يريد مدينة إصطخر حتى إذا أشرف عليها ونظر جموع الفرس أمر المسلمين بأن يكبروا ، فلما كبر المسلمون بأجمعهم وقع الرعب في قلب شهرك ، فالتفت إلى أصحابه وهو في تلك الخلق العظيم فجعل يقول بالفارسية : چون كنم وكجاشوم ، فجعل وزيره يشجعه ويقول : أيها الملك اثبت ولا تخف ، فإن هؤلاء العرب قليلون ونحن في جمع عظيم ، فلا عليك أن تقف حتى تنظر إليك أصحابك ويقاتلون بين يديك ؛ قال : فوقف شهرك أمام أصحابه وليس معه شيء من عقله .

قال : ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ساعة من النهار ، وأمر أبو موسى أصحابه بالتكبير ثانية . فلما كبروا انخلعت قلوب الفرس فأعطوا بأيديهم وولوا الأدبار منهزمين ، وولى معهم شهرك لا يقف ولا يلوي على شيء ، قال : ولحقه رجل من

(١) في رواية فتوح البلدان أن عمر كتب إلى عثمان بن أبي العاص في إتيان فارس . . . وكتب عمر إلى أبي موسى وهو بالبصرة يأمره أن يكانف عثمان .
وفي رواية أخرى ص ٣٨١ ان عبد الله بن عامر بن كريز سار من البصرة إلى إصطخر من قبل عثمان بن عفان سنة ٢٨ . (لعلها هذه هي الغزوة الثانية لإصطخر انظر خليفة ص ١٥٢ وص ١٦١) .

المسلمين يقال له الجنيد بن مسلم الأزدي(١) فضربه ضربة على تاجه نكسه إلى الأرض صريعاً ، ثم نزل إليه فأخذ سلبه وتاجه ثم استوى على فرسه ؛ قال : وقد ذكر ذلك أيضاً رجل من الأزد في شعر له .

قال : وانهزمت الفرس من بين أيدي المسلمين فدخل بعضهم إلى مدينة إصطخر ومر الباقون على وجوههم في البلاد مشردين ، وبلغ ذلك ملك الفرس يزدجرد أن البلاد قد أخذت وأن شهرك قد قتل ، فاغتم لذلك وبقي حيراناً لا يدري ما يقول غير أنه نكت الأرض بأصبعه وتفكر فيما قد نزل به من العرب ، وعنده جماعة من أساورته قد وقفوا بين يديه مغمومين منكسرين كأن الطيور ساقطة على رؤوسهم .

قال : فبينما هو كذلك يفكر في أمره إذ دخل عليه رجل من سادات كرمان يقال له بندوه بن سياكوس ـ ولم يكن ببلاد كرمان كلها أجل منه ولا أكبر عند أهلها ـ فسلم عليه وكلمه ، فلم يكلمه يزدجرد لما كان في قلبه من الغم ، قال : فغضب بندوه من ذلك ثم قال : أيها الملك ! أكلمك فلا تكلمني ! ليس العجب منك ولكن العجب منا إذ جعلنا مثلك ملكاً علينا ، ثم ضرب بيده إلى رجله فجذبه عن السرير ورمى به إلى الأرض وخرج من بين يديه . قال : فاغتم يزدجرد لذلك . وما بقي أحد من غلمانه وأساورته الذين معه إلا بكى ، فقال لهم يزدجرد : لا تبكوا فإن البكاء للنساء والرجال قد تصيبهم المصائب ، ولا بد من الصبر على ما أنا فيه إلى وقت الفرج .

قال : ثم دعا يزدجرد بفرسه فركبه ، ونادى في أصحابه وخدمه فركبوا ، وخرج من ساعته فيمن معه نحو بلاد خراسان(٢) ، فسار حتى قدم مدينة مرو فدخلها ، وعلم أهل مرو أنه منهزم من أجل العرب فشمتوا به وأحبوا أن يقتلوه ؛ ثم كتبوا إلى ملك من ملوك الترك يقال له طخطاخ(٣) أن ملك الأعاجم أقبل إلينا هارباً من العرب وقد شمتنا

---

(١) في الطبري ٥/٤ والبداية والنهاية ١٤٦/٧ قتله الحكم بن أبي العاص بن دهمان . وفي فتوح البلدان ص ٣٧٩ قتله سوار بن همام العبدي .

(٢) خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق. وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو .

(٣) في فتوح البلدان ص ٣١٢ « نيزك طرخان » وفي الطبري ٢٦٣/٤ والكامل لابن الأثير ١٤٣/٢ والبداية والنهاية ٢٠٠/٧ خاقان .

قال في فتوح البلدان أن نيزك كتب إلى يزدجرد يخطب ابنته فاحفظ ذلك يزدجرد ، وقال : اكتبوا إليه =

به وليست لنا فيه حاجة ، وأنت أحب إلينا منه ، وقد أردنا أن تقدم عليه فتقتله وأنت أحق بذلك منا ، فصر إلينا وأرحنا منه والبلد لك .

قال : فلما ورد كتاب أهل مرو على طخطاخ ملك الترك سار في جيش عظيم يريد مدينة مرو ، حتى إذا تقارب منها بلغ ذلك يزدجرد ، فخرج من منزله الذي كان فيه في جوف الليل هارباً على وجهه وليس معه أحد من أصحابه ولا من غلمانه ولا يدري إلى أين يتوجه ، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى سراج على شاطىء نهر مرو ، فقصد السراج فإذا هو برجل ينقر رحى ، فقال له يزدجرد : أجرني في هذه الليلة واكتم على أمري ولك عندي من المال كذا وكذا فإني خائف من هذا العسكر الذي ورد إلى مدينة مرو ، فقال له صاحب الرحى : ادخل ! فدخل يزدجرد إلى بيت الرحى فجلس فيه ساعة ثم إنه وضع رأسه فنام ؛ فلما غط في نومه قام إليه صاحب الرحى بفأس كان في يده فضرب رأسه ضربة فقتله(١) ، ثم أخذ ما كان عليه من السلب وجره برجله فألقاه في نهر مرو .

قال : وأصبح ملك الترك فجعل يطلب يزدجرد ، وأهل مرو أيضاً يطلبونه فلم يقفوا على أثر ، قال : فبينا طخطاخ ملك الترك يدور في طلب يزدجرد ومعه جماعة من أصحابه إذ مر بصاحب الرحى فوقف عليه ثم كلمه بالتركية وقال : هل مر بك من ههنا رجل من صفته كذا وكذا في زي الملوك ؟ فقال صاحب الرحى : لا ما رأيت صاحب هذه الصفة ؛ قال : فبينا طخطاخ يكلم صاحب الرحى : إذ شم رائحة طيبة فقال لأصحابه : ادخلوا إلى بيت الرحى فانظروا هل تجدون أثراً فإني أشم رائحة طيبة ! قال : فدخل القوم فجعلوا يفتشون بيت الرحى فإذا هم بسلب يزدجرد ، فأخذوه وأتوا به إلى طخطاخ ملك الترك ؛ فلما نظر إليه علم أنه سلب يزدجرد فقال لصاحب الرحى : اصدقني ما فُعل صاحب هذا السلب ؟ فأقر وقال : إني قتلته وجررته برجله وألقيته في هذا النهر . قال : فأمر طخطاخ بصاحب الرحى فقتل(٢) ؛ ثم دعا بأهل مرو فأمرهم أن يغوصوا ، فغاصوا فأخرجوا يزدجرد ، فلما نظر إليه

= إنما أنت عبد من عبيدي . . . وأمر بمحاسبة ماهويه مرزبان مرو ، فكتب ماهويه إلى نيزك يحرضه عليه . . .

(١) ويقال إن ماهويه بعث إليه رسله حين بلغه خبره فقتلوه في بيت الطحان ، ويقال : إنه دس إلى الطحان فأمره بقتله فقتله . (فتوح البلدان ص ٣١٢ وانظر الطبري ٧٢/٥) .

(٢) في فتوح البلدان : قتل ماهويه الطحان وقال : ما ينبغي لقاتل ملك أن يعيش ، فأمر بالطحان فقتل .

طخطاخ ملك الترك بكى بكاء شديداً ثم أمر بـه ، فكفن في أكفان الملوك وطلي بالصبر والمر ووضع في تابوت وحمل إلى بلاد فارس فدفن هنالك في الموضع الذي كانت الفرس تدفن ملوكها فيه . قال : وبلغ ذلك عمر بن الخـطاب رضي الله عنه فقال : الحمد لله الذي طحطح ملكهم وأبان هلكهم .

قال : وأقام أبو موسى على إصطخر شهراً كاملاً حتى فتحها صلحاً على مائتي ألف درهم عاجلة والجزية بعد ذلك . قال : ثم تقدم أبو موسى إلى بلاد كرمان ، فجعل يفتحها موضعاً موضعاً ويتقدم وليس أحد يناويه حتى بلغ أول مفازة خراسان ، فنزل هنالك وأمر بأموال فارس وكرمان ، فأخرج منها الخمس وبعث به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع كتابه يخبره فيه بما فتح الله عزَّ وجلّ على يديه من أرض فارس وكرمان وأنّه يريد التقدم إلى بلاد خراسان فإنّه قد بلغ إلى حد مفازة خراسان . قال : وقسم أبو موسى باقي الغنائم في المسلمين ، فأصاب الفارس زيادة عن ثمانية آلاف درهم ، والراجل زيادة عن أربعة آلاف .

قال : وقسم أيضاً عمر بن الخطاب بـالمدينـة ذلك الخمس في المهـاجرين والأنصار ، ثم كتب إلى أبي موسى : أما بعد فقد ورد عليّ كتابك يخبرني بما فتح الله على يديك من أرض فارس وكرمان ، وأنك تريد التقدم إلى بلاد خراسان ، فمهلاً أبا موسى في ذلك ، فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فولِّ على كـل بلد مما فتـح الله عزَّ وجلّ على يديك رجلاً ترتضيه المسلمون وارجع إلى البصرة فأقِم بها ، وذر عنك خراسان فـلا حاجـة لنا بهـا يـابن قيس ! مـا لنا ولخـراسان ومـا لخراسـان ولنا ، ولوددت[1] أن بيننا وبين خراسان جبالاً من حديد وبحاراً ، وألف سد ، كل سد مثل سد يأجوج ومأجوج . قال : فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ولم ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر رضي الله عنه[2]: لأنها أرض بعدت عنا جداً ولا حاجة لنا بها .

---

(١) في الطبري ٤/٢٦٤ وابن الأثير ٢/١٩٩ والبداية والنهاية ٧/١٤٣ لوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار .

(٢) في الطبري وابن الأثير : لأن أهلها سينفضون منها ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة . فكأن ذلك يكون بأهلها أحب إلي من أن يكون بالمسلمين .

ذكر كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وما خبر به من أمر خراسان وما ذكر من فضائلها ومثالبها

قال : فقال علي كرم الله وجهه : فإن كانت قد بعدت عنك خراسان فإن لله عزَّ وجلّ مدينة بخراسان يقال لها مرو ، أسسها ذو القرنين وصلى بها عزير ، أرضها فياحة ، وأنهارها سياحة ، على كل باب[1] من أبوابها ملك شاهر سيفه يدفع عنها الآفات إلى يوم القيامة ، لا تؤخذ عنوة أبداً ولا يفتحها إلا القائم من آل محمد ؛ وإن لله عزَّ وجلّ مدينة بخراسان يقال لها خوارزم[2] ، النازل بها كالضارب بسيفه في سبيل الله عزَّ وجلّ ، فطوبى لكل راكع وساجد بها ! وإن لله عزَّ وجلّ مدينة بخراسان يقال لها بخارا ، واني برجال بخارا سيعركون عرك الأديم ؛ ويحاً لك يا سمرقند ! غير أنه سيغلب عليهم في آخر الزمان الترك فمن قبلهم هلاكها ؛ وإن لله عزَّ وجلّ مصالح بالشاش[3] وفرغانة ، فطوبى للمصلي بهما ركعتين ! وإن لله عزَّ وجلّ مدينة بخراسان يقال لها أبيجاب[4] ، فطوبى لمن مات بها ! فإنه عند الله شهيد ؛ وأما مدينة بلخ فقد خربت مرة ، ولئن خربت ثانية لم تعمر أبداً ، فليت بيننا وبينها جبل قاف وجبل صاد ؛ ويحاً لك يا طالقان ! فإن لله عزَّ وجلّ بها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة ولكن بها رجال مؤمنون عرفوا الله حق معرفته ، وهم أنصار المهدي في آخر الزمان ، حيّات لها أجنحة فتقتلهم عن آخرهم ؛ وأما مدينة الترمذ فإنهم يموتون بالطاعون الجارف فلا يبقى منهم أحد ؛ وأما مدينة واشِجرده[5] فإنهم يقتلون عن آخرهم قتلاً ذريعاً من عدو يغلب عليهم أعداؤهم ، فلا يزالون يقتلون أهلها ويخربونها حتى يجعلوها جوف حمار ميت ؛ وأما سرخس فيكون بها رجفة شديدة وهدّة عظيمة ، ويهلك عامّتهم بالفزع والخوف والرعب ؛ وأما سجستان فإنه يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من دين الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ثم يغلب عليها في

---

(١) في معجم البلدان (مرو الشاهجان) : نقب . ونقل الرواية عن بريدة بن الخصيب عن رسول الله (ص) .

(٢) خوارزم : من أقاليم خراسان ، قصبتها الجرجانية (معجم البلدان) .

(٣) الشاش : قرية بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك .

(٤) كذا بالأصل ، وفي معجم البلدان : اسفيجاب وهي بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان .

(٥) كذا ، وفي معجم البلدان : واشَجرد من قرى ما وراء النهر .

آخر الزمان الرمل فيطمها على جميع من فيها ؛ بؤساً لك يا سوج[1] ! ليخرجنّ منها ثلاثون دجالاً كل دجال منهم لو لقي الله بدماء العباد جميعاً لم يبال ؛ وأما نيسابور فإنها تهلك بالرعود والبروق والظلمة والصواعق حتى تعود خراباً يباباً بعد عمرانها وكثرة سكانها ؛ وأما جرجان وأي قوم بجرجان لو كانوا يعملون لله عزَّ وجلّ ! ولكن قست قلوبهم وكثر فسّاقهم ؛ ويحاً لك يا قومس ! فكم فيك من عبد صالح ! ولا تخلو أرضك من قوم صالحين ؛ وأما مدينة الدامغان[2] فإنها تخرب إذا كثر خيلها ورجلها ؛ وكذلك سمنان [3] لا يزالون في ضنك وجهد حتى يبعث الله هادياً مهدياً فيكون فرجهم على يديه ؛ وأما طبرستان فإنها بلدة قل مؤمنوها وكثر فاسقوها ، قرب بحرها ، ينفع سهلها وجبلها ؛ وأما الري فإنها مدينة افتتنت بأهلها ، وبها الفتنة الصماء مقيمة ، ولا يكون خرابها إلا على يد الديلم في آخر الزمان ، وليقتلن بالري على باب الجبل في آخر الزمان خلق كثير لا يحصيهم إلا من خلقهم ، وليصيبن على باب الجبل ثمانية من كبراء بني هاشم كل يدعي الخلافة ، وليحاصرن بالري رجل عظيم اسمه على اسم نبي ، فيبقى في الحصار أربعين يوماً ثم يؤخذ بعد ذلك فيقتل ، وليصيبين أهل الري في ولاية السفياني قحط وجهد وبلاء عظيم . ثم سكت علي عليه السلام فلم ينطق بشيء ، فقال عمر رضي الله عنه : يا أبا الحسن ! لقد رغبتني في فتح خراسان ، قال علي عليه السلام : قد ذكرت لك ما علمت منها مما لا شك فيه فالـه عنها وعليك بغيرها ، فإن أول فتحها لبني أمية وآخر أمرها لبني هاشم ، وما لم أذكر منها لك هو أكثر مما ذكرته ـ والسلام ـ .

رجعنا إلى الحديث الأول

قال : ورجع أبو موسى الأشعري إلى البصرة فأقام بها على عمله وكتب أهل الكوفة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون من عمار بن ياسر ويسألونه أن يعزله عنهم ، فقال عمر : من يعذرني من أهل الكوفة ومن تجنيهم على أمرائهم ؟ إن استعملت عليهم عفيفاً استضعفوه ، وإن استعملت عليهم قوياً فجروه ؛ ثم قال : أيها الناس ! ما تقولون في رجل ضعيف غير أنه مسلم تقي وآخر فاجر قوي أيهما أصلح

---

(١) كذا ، وفي معجم البلدان : فوشنج بليدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ .
(٢) الدامغان : بلد كبير بين الري ونيسابور .
(٣) سمنان : بلدة بين الري ودامغان .

للإمارة ؟ قال : فتكلم المغيرة بن شعبة فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الضعيف المسلم إسلامه لنفسه وضعفه عليك وعلى المسلمين ، والقوي الفاجر[1] فجوره على نفسه وقوته لك وللمسلمين ، فاعمل في ذلك برأيك ؛ فقال عمر : صدقت يا مغيرة ! اذهب فقد وليتك الكوفة[2] ، فانظر أن تكون ممن يأمنه الأبرار ويخافه الفجار ، قال : فقال المغيرة : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين .

قال : ثم مضى المغيرة أميراً على الكوفة وقدم عمار بن ياسر إلى المدينة معزولاً ؛ فأرسل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدعاه ثم قال : سألتك بالله أبا اليقظان ! هل ساءك عزلنا إياك عن الكوفة ؟ فقال عمار : والله ما فرحت حين وليتني[3] ولا حزنت حين عزلتني .

قال : وأقام المغيرة بن شعبة على الكوفة ثلاث[4] سنين كاملاً ، وعمر بن الخطاب في خلال ذلك قد فتح الديار ومصّر الأمصار وجنّد الجنود ودوّن الدواوين[5] ؛ ثم إنه حج بالناس في آخر خلافته فبينا هو بمنى إذ أقبل إليه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين ! إني استبقت محمد بن عمرو بن العاص فسبقته على فرس لي ، فعدا عليّ فضربني بسوطه في ملأ من الناس فقال : خذها وأنا ابن الأكرمين ! ثم إني صرت إلى أبيه عمرو بن العاص متعدياً فحبسني أربعة أشهر ، ثم أطلقني بعد ذلك فخرجت في حجاج المسلمين إليك لتأخذ منه بظلامتي . قال :

---

(١) في الطبري ٢٦٢/٤ القوي المشدد .

(٢) وفي رواية أن عمر قال لأهل الكوفة : من تريدون ؟ قالوا : أبا موسى ، فأمره عليهم ، فأقام عليهم سنة ، فباع غلامه العلف ، فشكا الوليد بن عبد شمس وجماعة معه فقالوا : إن غلامه يتجر في جسرنا ، فعزله . . . ثم ولى المغيرة بن شعبة (الطبري ٢٦٢/٤ ابن الأثير ١٩٨/٢) .

(٣) في الطبري وابن الأثير : ولقد ساءني حين عزلتني .

(٤) في الطبري وابن الأثير : نحو من سنتين وزيادة .

(٥) دواوين جمع ديوان . الأرجح أنها غير عربية ـ أصلها فارسي ـ قيل إن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال : ديوانه أي مجانين فسمي موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان (الأحكام السلطانية للماوردي) .
وقد اختلفوا في الذي أشار على عمر بن الخطاب بتدوين الدواوين فقيل خالد بن الوليد ، وقيل الوليد بن هشام وقيل الهرمزان . وقد أحدثه عمر لما رأى كثرة الأموال التي ترد عليه . وأمر ثلاثة من كتاب قريش وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية . على ترتيب الأنساب مبتدئاً من قرابة الرسول وما بعد فالأقرب فالأقرب . . .

فغضب عمر ثم قال : عليّ بعمرو بن العاص وبابنه محمد ! فأتي بهما جميعاً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما وقفا بين يديه سألهما عما ذكر المصري فأنكرا ذلك ، فاستشهد عمر من كان بالموسم من أهل مصر ، فشهدوا بذلك ، فأمر عمر رضي الله عنه هذا المصري أن يأخذ حقه من محمد بن عمرو ؛ قال : فجعل المصري يقنع محمد بن عمرو بسوطه وعمر يقول : خذها وأنت ابن الألأمين ! ثم قال عمر : قدموا الشيخ الأصلع - يعني عمرو بن العاص - فقال المصري : يا أمير المؤمنين ! إن عمراً لم يضربني ولكنه حبسني ، فقال عمر : أفتحب أن أحبسه كما حبسك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! قد صفحت عنه . قال : فغضب عمرو بن العاص فقال : إذ قد فعلت بي وبابني ما قد فعلت فلا ألي لك بعد اليوم عملاً أبداً[1] ، فقال له عمر رضي الله عنه : فاذهب إذا حيث شئت ، لا والله يا معشر قريش ! ما تظنون إلا أن الناس لكم عبيد ؛ قال : ثم وقف عمر رضي الله عنه في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إني قد بينت لكم الفرائض وأقمت لكم السنن وأقفيتكم السبيل الواضحة ، فاتقوا الله ربكم وكونوا له شاكرين ، ألا ! وإنه قد كبرت سني ورق جلدي ودق عظمي ولا أظن أني أخطبكم بعدها أبداً ، فليعمل أحدكم لله كأنه يراه فإن لم يره فإن الله يراه ، وكفى بالله حسيباً ووكيلاً ، والسلام .

ذكر ابتداء مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال : ثم نزل عمر رضي الله عنه عن المنبر ، ورجع الناس من الحج ، وقدم عليه المغيرة بن شعبة من الكوفة ومعه غلام له مجوسي[2] يقال له فيروز ويكنى أبا لؤلؤة ، قال : وكان هذا الغلام تاجراً رقيقاً بصيراً بجميع الأعمال ، فأقبل إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ! إن مولاي هذا المغيرة بن شعبة قد وظف عليّ في كل شهر مائة درهم[3] ولست أقدر على ذلك ، فإن رأيت أن تأمره أن يخفف عني من هذه الوظيفة والضريبة التي جعلها عليّ ؛ قال : فأرسل عمر إلى المغيرة بن شعبة فدعاه ثم أوصاه بغلامه وقال : اتق الله عزّ وجلّ ولا تكلفه ما لا يطيق وإن كان كافراً فإنه قد

(١) في الاستيعاب والإصابة أن عمر لم يزل والياً على مصر حتى مات عمر بن الخطاب .
(٢) في البداية والنهاية ٧/١٥٤ مجوسي الأصل ، رومي الدار . وفي الطبري ٥/١٢ وابن الأثير ٢/٢٠٩ كان نصرانياً . مروج الذهب ٢/٣٥٢ مجوسياً من أهل نهاوند .
(٣) في الطبري وابن الأثير : درهمان كل يوم . وانظر طبقات ابن سعد ٣/٣٤٥ ومروج الذهب ٢/٣٥٢ .

شكاك إليّ ، فقال المغيرة : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين .

قال : ثم إن أبا لؤلؤة عاد إلى عمر ثانية وثالثة فشكى إليه المغيرة ، فقال له عمر : إني قد أوصيته بك فاتق الله عزَّ وجلّ وأطع مولاك ؛ قال : فسكت أبو لؤلؤة ولم يقل شيئاً ، فلما ولى لينصرف قال له عمر : ارجع ! فرجع إليه فقال له عمر رضي الله عنه : أي الأعمال تحسن ؟ فقال أبو لؤلؤة : أحسن كل عمل يعمله الناس وأحسن ما أعمل أنقر الأرحية ، فقال له عمر[1] : فلو اتخذت لنا رحى اليد[1] فإنا محتاجون إليها ، فقال أبو لؤلؤة : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ! لأتخذن لك رحاً يسمع بها أهل المشرق والمغرب ! قال : ثم انصرف أبو لؤلؤة ، فانصرف عمر رضي الله عنه إلى أصحابه فقال : إنه تهددني هذا العلج وتوعدني ، وقد رأيت الشر في وجهه والله بالغ أمره .

قال : فلما كان من غد صلى عمر بالناس صلاة الفجر ثم وثب فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه قد اقترب أجلي لا شك في ذلك ، وقد رأيت في ليلتي هذه كأن ديكاً قد أقبل إليّ فنقرني نقرتين أو ثلاثاً وقد هالني ذلك ، قال : فقال المسلمون : خيراً رأيت يا أمير المؤمنين ! فقال عمر رضي الله عنه : إني قد علمت أن الديك رجل أعجمي قد عزم على قتلي ولست أشك فيه أنه سيجرحني جراحتين أو ثلاثاً ـ أو قال : سيطعنني طعنتين أو ثلاثاً ـ وما كان الله ليضيع هذا الدين ، فإن استخلفت عليكم خليفة فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أهلك قبل ذلك فأمركم إلى هؤلاء الستة الذين فارقهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ألا[2] ! وإني أشهدكم على أمراء الأمصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم ويجاهدوا عدوهم ويحكموا فيهم بالحق ، فإن أشكل عليهم شيء من ذلك فردوه إلى الله تعالى وإلى أولي الأمر منكم .

قال : ثم نزل عمر رضي الله عنه عن المنبر وأخذ بيد عبد الله بن عباس فخرج

---

(١) في الطبري ٥/١٢ وابن الأثير ٢/٢٠٩ : فاعمل لي رحى . وانظر مروج الذهب ٢/٣٥٢ .

(٢) من خطبة له ، العقد الفريد ٤/٦٣ والطبري ٥/١٩ . ابن الجوزي سيرة عمر بن الخطاب ص ٨٢ الخراج لأبي يوسف ص ١١٦ كنز العمال ٨/٢٠٩ .

من المسجد وجعل يماشيه ساعة ثم تنفس وزفر زفرة ، فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين ! إن ما أخرج هذا النفس والزفير إلا الحزن ، فقال : ويحك يابن عباس ! إن نفسي لتحدثني باقتراب أجلي ولست أحذر الموت لأنه سبيل لا بد منه ، ولكني مغموم لهذا الأمر الذي أنا فيه ، لا أدري أقوم فيه أم أقعد ؛ فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين ! فأين أنت عن صاحبنا علي بن أبي طالب في هجرته وقرابته وقدمه وسابقته وفضيلته وشجاعته ؟ فقال عمر : والله يابن عباس وإنه لكما تقول ! ولو أنه ولي هذا الأمر من بعدي لحملكم والله على طريقة من الحق تعرفونها ولكنه رجل به دعابة وهو حريص على هذا الأمر ، ولا يصلح هذا الأمر لمن حرص عليه ؛ فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ! فعثمان بن عفان ؟ فقال عمر : هو أهل لذلك لشرفه وفضله ولكني أتقي عليه أن يحمل آل معيط على رقاب الناس فيقتل ، ولو وليته لفعل ولو فعل لفعلوا ؛ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين ! فطلحة بن عبيد الله ؟ فقال : هيهات يابن عباس ! ما كان الله تبارك وتعالى ليوليه شيئاً من أمر هذه الأمة مع ما يعلم من تيهه وزهوه . عجبه بنفسه ، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين ! فالزبير بن العوام ؟ قال : فارس بطل ومعه ضيق وجشع يظل يومه بالبقيع يصال على الصاع والمد يخاصم في قفيز من حنطة أو من شعير ولا يصلح هذا الأمر إلا للسخي من غير تبذير ، الممسك من غير إقتار ؛ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ! فسعد بن أبي وقاص ؟ فقال : سعد صاحب مِقْنب يقاتل عليه وأما والي أمر فلا ؛ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ! فعبد الرحمن بن عوف ؟ فقال : نعم الرجل ذكرت يابن عباس ! رجل مسلم غير أنه ضعيف وأمره في يد امرأته ، ولا يصلح هذا الأمر إلا لقوي في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، الممسك في غير بخل ، الجواد في غير سرف ؛ ثم قال : يابن عباس ! لو كان معاذ بن جبل حياً لما تخالفتني فيه الأمور لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن معاذاً لأمة يجيء يوم القيامة وبينه وبين العلماء نبذة ليس بينه وبين الله عزَّ وجلّ إلا النبيون والمرسلون ؛ ولو أن سالماً مولى أبي حذيفة كان حياً لما شككت فيه لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول [إن] سالماً رجل أحب الله عزَّ وجلّ حباً وخافه خوفاً لم يحب معه سواه ؛ ولو أن أبا عبيدة بن الجراح حياً لكان أهلاً لهذا الأمر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

قال : ثم دخل عمر إلى منزله وأرسل إلى وجوه أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم وآله) فأحضرهم ، ثم أرسل إلى جاثليق النصارى فدعاه ؛ فلما دخل عليه

أمره بالجلوس فجلس ، ثم قال : يا جاثليق! اصدقني عما أسألك عنه ، قال : سل يا أمير المؤمنين ! قال : تجدون نعت نبينا في الإنجيل ؟ قال : نعم ، إني لأجده فارقليط ، قال عمر : وما معنى ذلك ؟ قال الجاثليق : معناه أنه يفرق بين الحق والباطل ، فقال عمر ومن حضر : الحمد لله الذي جعلنا من أمته ، ولكن كيف تجدنا في كتابكم ؟ فقال الجاثليق : أجد بعد محمد رجلاً عظيم الذكر مبارك الأمر ، فقال عمر : يرحم الله أبا بكر ! قال : ثم ماذا ويحك يا جاثليق ؟ فقال : من بعده قرن من حديد قوي شديد ، قال عمر : ثم ماذا ؟ قال : ثم من بعده خليفة يؤثر أقاربه على من سواهم ، قال : فنظر إلى عثمان بن عفان ، قال : ثم ماذا ويحك يا جاثليق ؟ قال : ثم سيف مسلول ودم مهراق ؛ قال : فضرب عمر بإحدى يديه على الأخرى ثم التفت إلى عثمان فقال : أبا عمرو ! اتق الله عزَّ وجلّ ! وإن وليت هذا الأمر من بعدي فلا تحملن آل معيط على رقاب المسلمين ، وأنت يا أبا الحسن فاتق الله ! وإن وليت هذا الأمر من بعدي فلا تحملن آل أبي لهب على رقاب الناس . قال : ثم انصرف الناس من عنده وذلك في يوم الجمعة .

وانطلق أبو لؤلؤة فاتخذ خنجراً طويلاً له رأسان وبينهما مقبض[1] ، ثم أقبل حتى دخل المسجد متنكراً ، وذلك يوم الأربعاء في وقت الفجر ، قال : فأذن عمر رضي الله عنه وأقام الصلاة وتقدم حتى وقف في محرابه فجعل يسوي الصفوف عن يمينه وشماله وأبو لؤلؤة في الصف الأول ملفع الرأس ، فلما كبر عمر وكبر الناس معه بدر أبو لؤلؤة من الصف والخنجر في يده فجرحه ثلاث جراحات[2] : جراحتين في سرته وجراحة فوق سرته ، ثم شق الصفوف وخرج هارباً . قال : وعلم عمر أنه مقتول فأمر عبد الرحمن بن عوف أن يصلي بالناس فصلى في الركعة الأولى بأم الكتاب ﴿ وقل يأيها الكفرون ﴾[3] وفي الركعة الثانية بأم الكتاب و﴿ قل هو الله أحد ﴾[4] ؛

---

(١) في الطبري ١٢/٥ وابن الأثير ٢٠٩/٢ ونصابه في وسطه .

(٢) في الطبري وابن الأثير : ست ضربات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته . وعند ابن سعد : ثلاث طعنات .

وفي البداية والنهاية ١٥٤/٧ ضربه ثلاث ضربات وقيل ست ضربات ، إحداهن تحت سرته قطعت السفاق فخر من قامته .

(٣) سورة الكافرون .

(٤) سورة الصمد .

فلما سلّم وثب الناس يتعادون خلف أبي لؤلؤة وهم يقولون : خذوه فقد قتل أمير المؤمنين ! فكان كلما لحقه رجل من المسلمين ليأخذه وجاه أبو لؤلؤة بالخنجر حتى جرح من المسلمين ثلاثة عشر رجلاً[1] ، مات منهم ستة نفر ؛ قال : ولحقه رجل من ورائه فألقى على رأسه برنساً فأخذه ، فلمّا علم أبو لؤلؤة أنه قد أخذ وجأ نفسه وجأة فقتل نفسه .

قال : واحتمل عمر رضي الله عنه إلى منزله وهو لما به ؛ قال : واجتمع إليه الناس فقال عمر : أبو لؤلؤة قتلني أم غيره ؟ فقالوا : أبو لؤلؤة يا أمير المؤمنين ! فقال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل مسلم[2] فأريد أن أخاصم يوم القيامة ذا سجدتين .

قال : ثم أغمي عليه ساعة حتى فاتته صلاة الظهر ، فأيقظوه وقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين ! فقال عمر رضي الله عنه : نعم لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة لكني على ما ترون . قال : ثم صلى عمر ، ودعي له بالطبيب[3] فسقاه نبيذاً[4] حلواً من نبيذة فخرج النبيذ من جراحته فلم يدر أنبيذ هو أم دم ؛ فدعي له بطبيب من الأنصار من بني معاوية فسقاه لبناً فإذا اللبن قد خرج من جراحته أبيض ، فقال له الطبيب : أوص يا أمير المؤمنين فإنك ميت ، فقال عمر رضي الله عنه : صدقتني أخا الأنصار عن نفسي ، ثم استعبر باكياً فقال له ابن عباس : لا تبك يا أمير المؤمنين لا أبكى الله عينك وأبشر بالخير كله ، فوالله لقد كان إسلامك عزاً وهجرتك فتحاً وخلافتك رحمة ، ولقد أسلمت حين كفر الناس ، ونصرت رسول الله ﷺ حين خذله الناس ، وأنت من الذين أنزل الله تبارك وتعالى فيهم ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾[5] وأنت من الذين أنزل الله في حقهم ﴿ **للفقراء المهٰجرين**

---

(١) عند ابن سعد : طعن أحد عشر رجلاً سوى عمر ثم انتحر بخنجره ، فمات منهم ستة وأفرق ستة ، وفي رواية أخرى عنده : طعن ثلاثة عشر ، فأفلت أربعة ومات تسعة ، أو أفلت تسعة ومات أربعة . ولما أدرك أنه مأخوذ ـ بعد أن ألقى عليه اليرعوبي برنسه ـ نحر نفسه بخنجره (وانظر فتح الباري ٥١/٧) .

(٢) في الطبري ١٣/٥ : بيد رجل سجد لله سجدة واحدة .

(٣) من بني الحارث بن كعب .

(٤) المراد بالنبيذ هنا تمرات نبذت في ماء أي نقعت فيه ، كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء .

(٥) سورة الفتح : ١٨ .

الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾[1] ولقد صحبت رسول الله ﷺ حتى بشرك بالجنة في غير موطن ، ولقد خرج من الدنيا وهو عنك راضٍ ، ثم وليت أمور المسلمين بأحسن ما وليها أحد ، فأعز الله عزَّ وجلَّ بك الإسلام وأذل بك العدو ، حتى فتحت الديار ، ومصرت الأمصار ، وأقمت المنار ، ودونت الدواوين ، وجندت الأجناد ؛ فعدلت في رعيتك ، وأديت فيهم الأمانة ، فجزاك الله عن نبيك وعن خليفته وعن هذه الأمة خير الجزاء . قال : فقال له عمر : ويحك يابن عباس أو تشهد لي بهذا غداً عند الله ؟ قال : فأمسك ابن عباس ولم يتكلم شيئاً ، فقال له علي عليه السلام : نعم فاشهد له بذلك يابن عباس ! فقال ابن عباس : نعم أنا أشهد لك بذلك عند الله يا أمير المؤمنين ؛ فقال عمر : والله يابن عباس لو كانت لي بما فيها فافتديت من هول يوم المطلع ، ولوددت أني أخرجت من هذه الدنيا كفافاً لا لي ولا عليّ . ثم أقبل عمر على الناس فقال : أيها الناس ! إذا أنا مت وواريتموني في حفرتي فانتظروا ثلاثاً ، فإن قدم عليكم طلحة بن عبيد الله وإلا فاختاروا لأنفسكم من ارتضيتموه من هؤلاء الستة : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، فإني قد جعلت الأمر في هؤلاء الستة وأدخلوا ابني عبد الله في المشورة على أنه ليس له من الأمر شيء ، وهذا صهيب بن سنان يصلي بكم في هذه الأيام إلى أن يتفق رضاؤكم على رجل من هؤلاء الستة ، فمن ارتضيتموه واستخلفتموه من هؤلاء الستة فهو الخليفة من بعدي ، فإذا أنتم بايعتم رجلاً من بعدي واتفقت آراؤكم عليه وعقدتم له البيعة ثم خالفكم أحد فاقتلوه ، ألا[2] وإني أوصي الخليفة من بعدي[3] بأهل الذمة خيراً فإن لهم ذمة الله ورسوله محمد ﷺ أن لا يظلمهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم وأن يوفي لهم بعهدهم ويقاتل عدوهم ، نعم وأوصي الخليفة من بعدي بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن تؤخذ الصدقات منهم على وجهها

---

(١) سورة الحشر : ٨ .

(٢) وصيته في فتح الباري ٦١/٧ والبيان والتبيين ٤٨/٢ باختلاف النصوص .

(٣) في فتح الباري : أوصي الخلفية من بعدي بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفي عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم .

ثم ترد على فقرائهم ومساكينهم .

قال : ثم أقبل عمر رضي الله عنه على ولده عبد الله فقال : يا بني حط رأسي عن الوسادة وضعه على الأرض فعسى الله عزَّ وجلّ أن يرحمني ؛ ثم قال : يا بني ! لو أنك رأيت غداً أباك يقاد إلى النار أما تفديه ؟ فقال عبد الله : بلى بجميع ما ملكت من طارف وتالد ؛ قال : يا بني ! فأدِ ما عليّ من الدين[1] وانظر أن تبيع في ذلك جميع ما لك ، فإن لم يف بما عليّ فاسأل في بني عدي بن كعب ، فإن لم يف بما عليّ فاسأل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم ، واجعل ذلك في بيت المال فإن سألك الخليفة من بعدي أن لا تأتيه بذلك المال فلا تفعل ، فإن وهبه لك فلا تقبل واذهب به حتى تضعه في بيت المال كما أخذته منه .

ثم قال : يا بني ! صر إلى عائشة فسلها أن تأذن لي أن أدفن مع حبيبي محمد ﷺ وخليفته أبي بكر ، فإذا أذنت في ذلك فادفنوني وإلا فادفنوني في مقابر المسلمين[2] . قال : فأقبل عبد الله بن عمر إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنها في ذلك ، فقالت عائشة رضي الله عنها : ارجع إلى أمير المؤمنين فاقرئه مني السلام وقل له قد علمت أنه بيتي الذي توفي فيه رسول الله ﷺ وأبي إلى جنبه وقد كنت ذخرت ذلك لنفسي وقد آثرتك به يا أمير المؤمنين ؛ فقال عمر : الحمد لله ما كان عندي شيء أهم من ذلك فإذا أنا مت فأت بي إلى باب عائشة ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإن أذنت وإلا ردوا بي إلى مقابر المسلمين[2] .

قال : ثم توفي عمر رحمة الله عليه يوم الأربعاء بالعشي ليلة الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة النبوية وهو يومئذٍ ابن ثلاث وستين سنة[3] ـ والله أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ .

---

(١) عند ابن سعد ٣/٣٥٨ كان عمر بن الخطاب قد استسلف ثمانين ألفاً من بيت المال . قال : وما مضت جمعة بعد أن دفن عمر حتى حمل ابن عمر المال إلى عثمان بن عفان وأحضر الشهود على البراءة بدفع المال .

(٢) في طبقات ابن سعد ٣/٣٦٣ بالبقيع .

(٣) في يوم وفاته ومدة خلافته ومقدار عمره انظر الطبري ٥/١٤ تاريخ خليفة ص ١٥٢ ابن الأثير ٢/٢١١ البداية والنهاية ٧/١٥٥ المعارف لابن قتيبة ص ٧٩ مروج الذهب ٢/٣٣٣ تاريخ اليعقوبي ٢/١٥٩ طبقات ابن سعد ٣/٣٦٥ .

ذكر كلام علي بن أبي طالب في عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

قال: وكان جعفر بن محمد يقول لأبي: علي بن أبي طالب عليه السلام هو الذي غسل عمر رضي الله عنه بيده وحنّطه وكفّنه ثم وضعه على سريره وأقبل على الناس بوجهه فقال: أيها الناس! هذا عمر بن الخطاب رضي [الله] عنه قد قضى نحبه ولحق بربّه، وهو الفاروق، وقرن من حديد وركن شديد، كان لا تأخذه في الله لومة لائم؛ عقل من الله أمره ونهيه، فكان لا يتقدم ولا يتأخر إلا وهو على بينة من ربه حتى كأنّ ملكاً يسدّده ويوفقه، كان شفيقاً على المسلمين، رؤوفاً بالمؤمنين، شديداً على الكافرين، كهفاً للفقراء والمساكين والأيتام والأرامل والمستضعفين، كان يجيع نفسه ويطعمهم، ويعري نفسه ويكسيهم، كان زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، فرحمه الله حياً وميتاً! والله ما من أحد من عباد الله عزَّ وجلّ أحب إليّ من أن ألقى الله عزَّ وجلّ بمثل عمله من هذا المجيء بين أظهركم.

قال: ثم أقبل عليّ كرم الله وجهه على صهيب بن سنان مولى بني تميم فقال له: تقدم رحمك الله فصلِّ عليه كما أمرك.

قال: فتقدم صهيب فصلى على عمر، فكبر عليه أربعاً؛ ثم حمل على أعواد المنايا يراد به إلى بيت عائشة رضي الله عنها ليدفن مع النبي ﷺ، وضج المسلمون بالبكاء والنحيب. قال: ثم أدخل عمر رضي الله عنه حجرة النبي ﷺ وقد حفر قبره ليدفن هنالك، وإذا بهاتف يهتف سمعه جميع المسلمين وهو يقول: شعر:

ليبكِ على الإسلام من كان باكياً ... فقد أوشكوا هلكاً وكل على العهدِ
وأدبرت الدنيا وأدبر خيرها ... وقد ملّها من كان يوفق بالوعد

قال: فدفن عمر إلى جنب أبي بكر رضي الله عنهما فأوّلهم النبي ﷺ، والثاني أبو بكر ورأسه قريب من كتف النبي ﷺ، والثالث عمر ورأسه قريب من كتف أبي بكر. قال: وقد ضاق البيت لما دفن فيه عمر فصارت رجلا عمر تحت حائط البيت قريباً من موضع الأساس؛ ولقد سمع أهل المدينة هاتفاً من الجن يسمع جميع أهلها ويرثي عمر[1].

---

(1) في طبقات ابن سعد ٣٧٤/٣ عن عائشة قالت: سمعت ليلاً ما أراه إنسياً نعى عمراً وهو يقول:

جزى الله خيراً من أمير وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق =

ذكر اختلاف المسلمين بعد قتل عمر بن الخطاب وعقد الخلافة لعثمان بن عفان رضي الله عنهما

قال : لما كان بعد وفاة عمر رضي الله عنه بثلاثة أيام اجتمع الناس في دار فاطمة بنت قيس[١] أخت الأشعث بن قيس فتشاوروا وتكلموا وكان ثم هنات وكلام كثير حتى ارتفع الصوت بين القوم ، قال : فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال : يا هؤلاء ! إنكم لم تجتمعوا للحديث والكلام الكثير إن عندي رأياً[٢] .

[قال عبد الرحمن[٣]: أرى أنكم قد اختلفتم في أمر الخلافة وتنازعتم ، وكل واحد منكم يتكلم بكلام لتأييد وجهة نظره ، ومتى اختلط الكلام بالهوى فلن يؤدي إلى سلوك جادة الحق : « أنتم أيمة يهتدى بكم وعلماء يصدر إليكم ، فلا تفلوا المدى بالاختلاف بينكم ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم فتوتروا ثأركم ، وتؤلتوا أعمالكم . لكل أجل كتاب ، ولكل بيت إمام بأمره يقومون وبنهيه يرعوون قلدوا أمركم واحداً منكم تمشوا الهوينا وتلحقوا الطلب » واجتنبوا الهوى ولا تطيعوا عددكم ، ولا تخالفوا رأي من تمثلون ، ولا تسيروا خلف المفسدين وأصحاب الأهواء ، كي نصل إلى الغاية ، ولا يشمت بنا العدو .

فقال عثمان بن عفان[٤] : صدق ابن عوف ، لقد جعلنا الله أئمة يقتدى بنا وأعطانا درجة من العلم يمكن معها لنا أن نستشار ، فلا ينبغي أن نختلف كما لا ينبغي أن ينتشر كلامنا كي لا يجد المفسدون فرصتهم كي يحرفونا عن طريق الحق والصواب يابن عوف ، قل كل ما تراه صواباً في هذا الموضوع وما ترى أنه صالح وأرشدنا إلى الطريق المستقيم فإنني أول من يجيبك وأسير على هداك والله شاهد على

= فمن يمشي أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق في أكمامها لم تفتق
وعنده عن سليمان يسار أن الجن ناحت على عمر . وذكر أبياتاً قريبة من التي سبقت .

(١) في الطبري ٥/٣٦ في بيت المسور بن مخرمة ويقال في بيت المال ويقال في حجرة عائشة بإذنها . (ابن الأثير ٢/٢٢١ قال ابن كثير بعدما ذكر مختلف الأقوال : « والأول أشبه » يعني في بيت المسور بن مخرمة) .

(٢) سقط من الأصل ، واستدركناه من الترجمة الفارسية للكتاب بعد أن عربت ص ١١٣ ـ ١١٧ .

(٣) قارن مع عبارة الطبري ٥/٣٨ .

(٤) كلام عثمان في الطبري ٥/٣٩ وابن الأثير ٢/٢٢٤ باختلاف .

ما أقول وسأمتنع عن الخلاف والسلام .

ثم تكلم الزبير بن العوام فقال[1] : « إن داعي الله لا يُجهّل ومجيبه لا يخذل » ويجب أن يستجاب الداعي ، ولقد سبقنا الآخرين بسرعة إجابتنا للدعوة لئلا نموت ميتة عمية ولا[2] ندعو بدعاء الجاهلية ، وإنني واحد ممن يجيبك إلى ما قلت ، ومعينك على ما أمرت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله والسلام .

ثم تكلم سعد بن أبي وقاص وقال[3] : يا أيها الأعزاء احذروا الكذب وإغراء الشيطان الذي استطاع إغواء الكثيرين ممن سبقونا من الأمم السالفة ، وأضلهم حتى جعلوا جناب الله خلفهم وعطلوا أوامر الله ونواهيه ، واختاروا المعصية على الطاعة ، وسلكوا طريق الغفلة ، حتى غضب الله عليهم ومسخهم قردة وخنازير فالآن : اجمعوا رأيكم وفوضوا أمركم لمن هو أهل لهذا الأمر وابذلوا غاية جهدكم لحفظ الإسلام والمسلمين .

ثم تكلم بعده علي بن أبي طالب عليه السلام فقال[4] : « إنكم تعلمون أننا أهل بيت النبوة وسبب نجاة الأمة من المشقة والبلاء . لنا حق إن نُعطه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ولو طال السرى » ونذهب إلى حيثما نراه صالحاً ولا نخاف من طول غيابنا حتى نبلغ أجلنا . وبالله لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت . ومع ذلك فأنا واحد منكم وقد سبقت الجميع إلى الإسلام وأني أوصلكم للرحم فاسمعوا كلامي وعوا منطقي ، واعلموا أني موافق لما تفعلون وتابع لكم ، لكن ليكن عملكم مبنياً على أصل ، ولا تتبعوا الهوى وافعلوا ما فيه رضا الله ورضا رسوله .

وحين سمع عبد الرحمن بن عوف كلام علي بن أبي طالب واستشف منه موافقته الضمنية سرّ قلبه وقال: «ارجعوا حتى الغد، لنرى كيف تكون المصلحة في هذا الأمر ، وإني لأرجو أن يتم هذا الأمر على نحو تتحقق فيه أمنيتكم » فرجع القوم .

ثم قال عبد الرحمن بن عوف لعلي بن أبي طالب : يا أبا الحسن ، إن أفضى

---

(١) الطبري ٥/٣٩ وابن الأثير ٢/٢٢٤ - ٢٢٥ .
(٢) في الطبري وابن الأثير : ولا نعمى عمى جاهلية .
(٣) الطبري ٥/٣٩ ابن الأثير ٢/٢٢٥ باختلاف .
(٤) الطبري ٥/٣٩ ابن الأثير ٢/٢٢٥ .

الأمر إليك فكيف تفعل ؟ فقال : التزم جادة العدل والمساواة بين الناس .

فقال عبد الرحمن : لو تعداك الأمر إلى غيرك فما تقول : فقال : اصبر وأرضى بما فيه صالح المسلمين . فدعا له عبد الرحمن .

ثم خاطب ابن عوف عثمان قائلاً : إن فوض إليك الأمر فكيف تقوم به وأية خطة تلتزم ؟

فقال عثمان : أسير بما يوفقني الله إليه ولا آلو جهدي .

فقال ابن عوف : أتسير سيرة عمر ؟ فقال عثمان : وأينا يطيق ما كان عمر يطيق (فقد كان عمر رجلاً قوياً دعا له النبي ﷺ وقد أعز الله الإسلام به) لكنني سأبذل طاقتي وأسعى جهدي في العدل وحسن السيرة والمساواة بين الرعية .

ثم وقف عبد الرحمن ورفع يده بالدعاء ثم قال : اللهم ! ارزقني الخير والتوفيق لما فيه الخير لأمة محمد ﷺ حتى أؤدي هذا الأمر على أحسن وجه (ثلاث مرات) ثم قال : أي واحد منكم يرغب بنفسه عن هذا الأمر فليقم . فخرج الزبير وقال :

إني تخليت عن سهمي لعلي بن أبي طالب . فأثنى عليه عبد الرحمن خيراً .

ثم أعاد القول ثانية ، فخرج سعد بن أبي وقاص ولم يجعل سهمه لأحد .

ثم قال للمرة الثالثة : ليخرج من بيننا من لا يبغي الخلافة .

فقال عثمان : يا عبد الرحمن ، لقد كنا خمسة رجال من أصحاب الشورى وكان سادسنا الذي سماه عمر أمير المؤمنين غائباً . وقد خرج منا اثنان لا يبتغون الاشتراك في أمر الخلافة ويقينا الآن ثلاثة أنت وأنا وعلي ، فقل ما فيه الخير ، فقال عبد الرحمن : صدقت ، هل ترضيان كلاكما بما أقول بشرط أن أخرج نفسي من الخلافة ؟

فقال كل من عثمان وعلي : نعم قد رضينا ، وما تراه صالحاً لن نعدل عنه .

ثم قال عبد الرحمن لجموع المسلمين : هل ترضون حكمي في أمر الخلافة ؟

فقال الحاضرون : نعم .

فقال عبد الرحمن لعثمان : إن أنا صرفت الخلافة إليك بدلاً من علي فهل تحيي ما أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بإحيائه وتميت ما أمر الله بإماتته ؟

فأجاب : أفعل وعلى هذا أمضي .

ثم سأله : وإن أنا صرفت عنك الخلافة إلى علي فهل ترضى أم لا ؟

فقال عثمان : أرضى وأطيع أمر أخي .

ثم سأل عبد الرحمن علياً وقال له : إن أفوض إليك أمر الخلافة بدلاً من عثمان فهل تحيي ما أمر الله تعالى في كتابه بإحيائه وتميت ما أمر الله بإماتته ؟

قال : أفعل وعلى هذا النحو أمضي .

ثم سأله : وإن فوضت الأمر لعثمان فهل تطيع أمر أخيك ؟ قال : أفعل .

ثم التفت عبد الرحمن إلى الناس وقال : أيها المسلمون . لقد خبرت القوم وعرفت أحوالهم ظاهراً وباطناً فظهر لي أنهم بخلافة عثمان راضون [ويريدونه رئيساً عليهم] . والقلوب إليه مائلة وكلمتهم في هذا الخصوص واحدة .

وبناء لهذا الواقع فإني راضٍ بعثمان خليفة وهو عميد بني أمية وقد بايعته . ثم خاطبه يا أبا عمرو : أمدد يدك فمدّ عثمان يده فأخذها عبد الرحمن وبايعه . ثم تابعه أكابر الصحابة ثم تلاهم عامة المسلمين . واستقرت الخلافة لعثمان ورضي به الجميع باستثناء جماعة من أكابر بني هاشم .

وبعد أن تفرق الناس قال عبد الله بن العباس لأمير المؤمنين علي : يا أبا الحسن وأنت قد خدعوك حتى رضيت بخلافة عثمان . فقال علي : إنهم لم يخدعوني بل إني رأيت الجميع راضون به فلم أحب مخالفة المسلمين حتى لا تكون فتنة بين الأمة .

وفي اليوم التالي للبيعة وصل طلحة بن عبيد الله من السفر فاستقبله الناس وأخبروه بحادثة أمير المؤمنين عمر [وأخبروه بما رآه عمر في حقه في موضوع الخلافة] فبكى كثيراً وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم سأل بماذا تفكرون في أمر الخلافة ؟

فقالوا : لقد انتظرنا قدومك ثلاثة أيام كما أمر عمر أمير المؤمنين ، وبما أنك تأخرت فقد اتفق الجميع وبايعوا عثمان . واستقرت الخلافة له . وإن كنت لا ترى الصواب في ذلك أعدنا الأمر كما كان ونجتمع كلنا حتى يحصل رضا الله على رأي واحد .

فقال طلحة : معاذ الله أن أبطل أمراً أجمع عليه المسلمون ، أو أن أخالف رأي المسلمين ، وعثمان هو أهل لهذا الأمر ولن يفضله أحد .

ثم استقرت خلافة عثمان إلى أن برزت الفتن والاختلافات في عام ٢٣ للهجرة .

بداية أعمال عثمان في عهد خلافته

لقد بدأ[1] بعزل أبي موسى الأشعري عن إمارة البصرة التي كان ولاه إياها أمير المؤمنين عمر . وعين مكانه عبد الله بن عامر بن كريز . وكان عبد الله هذا ابن خال عثمان ، حيث كانت أمه بنت كريز بن ربيعة . [وجدة عبد الله بن عامر من جهة أبيه هي جدة لعثمان من جهة أمه . وكنيتها أم حليمة وهي عمة الرسول ﷺ واسمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ثم قال أبو موسى لأهل البصرة[2] : لقد عزلت عن إمارتكم ، وقد ولي عليكم شاب من أكابر قريش وأحد أغنيائها الموسرين وله أقارب عديدون] .

فوصل عبد الله بن عامر إلى البصرة ، وكان شاباً له خمس وعشرون سنة . فقدم إليه أهل البصرة ورحبوا به وأثنوا عليه . [ومن بينهم رجل من بني عدي بن عبد الله قال فمن كلامه مهنئاً عبد الله بالإمارة : أيها الأمير . عفا الله عنك وزادك تمكيناً في دينه الذي ارتضاه . وجعل مأواك الجنة ، وإني لا أبغي لك سوى الخير في السر والعلن] وإنك رجل كامل العقل وافر العلم سريع الخاطر حاد الفهم قد جمعت بين اللين والشدة والصدق والعفاف والتواضع والقوة ، والمعرفة بحدود الدين والصبر واليقين فأطال الله عمرك وشمل المسلمين عامة بخيرك والسلام .

وفي يوم الجمعة حين صعد عبد الله بن عامر بن كريز المنبر لإلقاء الخطبة ، ورأى حشود المصلين اندهش وارتج عليه وبدأ كلامه فقال : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض في ست سنين .

فقام رجل من بني مازن وقال : أصلح الله الأمير : إن كان لا بد لك من أن تذكر في خطبتك مدة خلق السموات والأرض فإن الله قد خلقها في ستة أيام . فخجل عبد الله ولم ينطق بعد ذلك بكلمة ثم نزل وأمر شخصاً آخر أن يلقي الخطبة . ثم تقدم فصلى بالناس .

---

(١) كذا ، وفي الطبري ٥/٥٤ وابن الأثير ٢/٢٤١ والبداية والنهاية ٧/١٧٣ : عزل أبو موسى عن االبصرة سنة ٢٩ . وانظر فيها سبب عزله .

(٢) خطبة أبي موسى بعدما بلغه نبأ عزله الطبري ٥/٥٥ اليعقوبي ٢/١٦٦ .

وبعد فراغه من الصلاة تقدم منه رجل من قريش وقال له : لو أنك لم تصعد المنبر ولم تتكلم بشيء وكلفت من يخطب بدلاً عنك لكان ذلك أولى ، من صعودك المنبر ثم عجزك عن الكلام بعدما رأيت كثرة الناس .

فقال عبد الله : صدقت . بعد اليوم لن تراني على المنبر أبداً .

ذكر فتح اصطخر وفارس في زمان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

حين أقام عبد الله (ابن عامر) عدة أيام في البصرة . اضطرب الأمر في فارس[1] ووصل الخبر إلى عثمان بأن ماهك بن شاهك قد خرج ومعه ثلاثون ألف رجل واستردوا المنطقة من أيدي المسلمين فكتب عثمان رسالة إلى عبد الله بن عامر يأمره فيها بالذهاب إلى فارس وإطفاء فتنة ماهك وأن يعيد ضبط تلك الولاية ثم من هناك يسير نحو خراسان ويسعى لفتح تلك البلاد ، ولما وصلت رسالة أمير المؤمنين عثمان إلى عبد الله . جمع رجال البصرة وتلا عليهم رسالة عثمان وحرضهم على الجهاد والغزو . فأجابه الناس واستعدوا ثم انطلق عبد الله بجيش جرار وجنود شجعان من البصرة إلى فارس . وحين اقترب علم ماهك بالخبر وهيأ هو أيضاً جيشاً وفي صحراء اصطخر التقى الجمعان وقامت الحرب بينهما من الصباح حتى صلاة العصر . ولما رأى ماهك طعن المسلمين وضربهم ، فرّ وانهزم فلحق بهم جيش المسلمين يقتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة[2] ومن بقي منهم فقد التجأ إلى اصطخر ، ثم ذهب فوج من الجيش يطلب ماهك فوصل إليه رجل يسمى يزيد بن الحكم الأزدي ولما أراد أن يضربه بالسيف نزع ماهك تاجه وألقاه إليه فأخذ يزيد التاج وعاد إلى أصحابه وشرح لهم ما وقع له .

ثم نزل عبد الله بن عامر في ظاهر اصطخر وحاصرهم وكان يقاتلهم كل يوم بشدة إلى أن استطاع أن يستولي على اصطخر عنوة . ثم دخل المدينة فقتل فيها

(١) نقض أهل فارس ونكثوا بعبيد الله بن معمر ، فسار إليهم وقد اجتمعوا بإصطخر وقاتلهم فقتل عبيد الله وانهزم أصحابه (الطبري ٥/٥٥ ابن الأثير ٢/٢٤٢ فتوح البلدان ص ٣٨٢) .
(٢) في فتوح البلدان ص ٣٨٢ فقتل نحواً من مئة ألف .

المقاتلة[1] وغنم المسلمون غنائم كثيرة فأرسل ماهك رسولاً إلى عبد الله يطلب الأمان فأعطاه الأمان بشرط أن يقيم في اصطخر وأن يؤدي الجزية فقبل ماهك بذلك ، حينئذٍ جاء إلى عبد الله فقربه إليه وأقام في اصطخر على الشرط المذكور . ومن ثم سار عبد الله نحو خراسان .

ذكر فتح نيسابور وطوس في زمن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

وحين وصل عبد الله إلى حدود خراسان ، دعا مجاشع بن مسعود وعينه والياً على كرمان وأعطاه ألف فارس ووجّهه نحو كرمان وسار بنفسه نحو خراسان وجعل على مقدمة جيشه الأحنف بن قيس التميمي[2] . ولما وصل إلى ولاية نيسابور . كان يوجد فيها ملك يدعى أسوار . فأغار عبد الله على القرى وبدأ الحرب مع أهل البلد وقتل كل من وجده وطال أمره مع نيسابور وفي هذه الأثناء وصلته رسالة من أمير طوس يطلب منه الأمان . فإن أعطاه الأمان سيسارع إلى خدمته ويعينه على فتح نيسابور فأعطاه الأمان[3] فجاء أمير طوس (كنادبك)[4] مع جيشه المستعد لخدمته فأكرم عبد الله مقدمه وخلع عليه وعلى وجهاء عسكره بخلع نفيسة واتجه للحرب ضد نيسابور وقد اجتهدوا في أمر الحروب للغاية ووقعت حرب عنيفة بين الطرفين وقتل خلق كثير . فأقسم عبد الله أن لا يتحول عن نيسابور حتى يفتح البلد أو يموت . فلما سمع بذلك ملك نيسابور ، أرسل إليه شخصاً يطلب الأمان وليختر أحد الأبواب ليدخل منه . فرضي عبد الله بذلك وأعطاه الأمان[5] وأقسم الطرفان على توكيد العهد . وفي اليوم الثاني منذ بزوغ الشمس فتح أسوار بوابة البلد فدخل عبد الله مع جيش

---

(١) في فتوح البلدان ص ٣٨٢ قتل أربعين ألفاً وأفنى أكثر البيوتات ووجوه الأساورة . وقال خليفة ص ١٦٢ تاريخه : فقتل ابن عامر حتى أسرف في القتل ، فأمر بالماء فصب على الدم حتى خرج من باب المدينة .

(٢) في فتوح البلدان ص ٣٩٤ ويقال : عبد الله بن حازم بن أسماء بن الصلت بن حبيب السلمي .

(٣) طوس : على عشرة فراسخ من نيسابور .

وقد كان ابن عامر صالح مرزبان طوس كنازتك على ستمائة ألف درهم . (فتوح البلدان ص ٣٩٦) .

(٤) في فتوح البلدان : كنازتك .

(٥) في فتوح البلدان ص ٣٩٥ وابن الأثير ٢/٢٥٩ صالح عبد الله بن عامر مرزبان نيسابور على ألف ألف درهم .

المسلمين إلى داخل المدينة وأخذ بالتكبير بصوت عال . وأخذوا بالقتل والإغارة واستمروا على ذلك طوال اليوم ، فتقدم كنادبك أمير طوس من عبد الله وقال : أيها الأمير ما دمت قد ظفرت وغلبت فالعفو أجدر بك من الانتقام فقبل عبد الله شفاعته ونادى بالأمان لأهل البلد . ونهى العساكر عن أعمال القتل والإغارة . وعين كنادبك أميراً على نيسابور وسلم إليه البلد .

ذكر فتح مدينة مرو وهرات وبوشنك وسرخس ونسا وباور وفارياب والطالقان وغيرها في زمن أمير المؤمنين عثمان

وحين بلغ الخبر إلى مدينة مرو بأن طوس ونيسابور قد استسلمت لابن عامر وقد وقعت تلك الولاية بيد المسلمين وعلموا كيفية حربهم وإغارتهم فخافوا وأرسلوا إلى عبد الله طالبين منه الصلح على أساس أن يدفعوا له مليون ومئتي ألف درهم نقداً[1] : وفي كل سنة ثلاثمائة ألف درهم كجزية يؤدونها عن أنفسهم فأجابه عبد الله إلى ذلك وأرسل عبد الله بن عوف الحنظلي أميراً إلى مرو وتقرر الصلح مع أهلها وبعده جاء ملك هرات إلى عبد الله وطلب منه الصلح على أن يفوض إليه أمر هرات وفوشنج وفي كل عام يؤدي (ألف درهم)[2] كذا . . .

فرضي ابن عامر بذلك وكتب له عهداً[3] . ثم جاء بعده ملك سرخس ماهويه وطلب الأمان بشرط أن تبقى سرخس وقراها في يده ويتعهد بدفع مئة ألف درهم وألف حمل من القمح ومثلها من الشعير وعلى هذا الأساس تم الاتفاق وعاد إلى سرخس[4] . ثم جاء ملك نسا وأبيورد[5] وطلب منه الصلح مقابل أن يؤدي سنوياً

---

(١) في فتوح البلدان ص ٣٩٦ وابن الأثير ٢/٢٥٩ صالح مرزبان مرو على ألفي ألف ومائتي ألف درهم . زيد في فتوح البلدان : وقال بعضهم : ألف ألف درهم ومائتي ألف جريب من بر وشعير . وكان في صلحهم أن يوسعوا للمسلمين في منازلهم .

(٢) في فتوح البلدان ص ٣٩٦ على ألف ألف درهم .

(٣) نسخته في فتوح البلدان ص ٣٩٦ .

(٤) كذا بالأصل بالنسبة إلى سرخس ، وخبر فتحها في فتوح البلدان وابن الأثير باختلاف .

(٥) في فتوح البلدان ص ٣٦٥ أن صاحب نسا أتى عبد الله بن خازم وكان عبد الله بن عامر قد وجهه إليها ـ =

ثلاثمائة ألف درهم وألف حمل من القمح ومثلها من الشعير . وقبل عبد الله بذلك وكتب له كتاباً ثم أعاده إلى ناحيته ثم وصل إليه ملك فارياب والطالقان وطلبوا منه الصلح مقابل أن يؤدوا سنوياً مئتي ألف درهم وخمسمائة حمل قمح ومثلها من الشعير وقبل أيضاً عبد الله بذلك وكتب له عهداً وأعاده إلى بلاده ثم عامل كل من جاءه من الأمراء والأكابر على هذا النحو .

ذكر فتح سجستان في زمن أمير المؤمنين عثمان

ثم استدعى عبد الله بن عامر ابن عمه عبد الرحمن بن سمرة[1] وأعطاه جيشاً مجهزاً وأرسله إلى سجستان ، وحينما اقترب عبد الرحمن مع ذلك الجيش من المدينة قاتله أهل سجستان ووقعت بين الطرفين حرب شديدة ولكن النتيجة كانت لصالح المسلمين ففتحوا البلد عنوة ودخلها المسلمون ينهبون ويأسرون وقد حصلوا على غنائم كثيرة ثم اتجه عبد الرحمن نحو كابل ففتحها[2] .

ذكر فتح كابل

وبعد مشاورة للجيش اتجه نحو كابل وحين وصل إليها نزل في خارجها فما كان من ملكها إلا أن هيأ جيشاً وأخذ في مقاومة جيش المسلمين ، ثم عاد إلى المدينة وتحصن بها ولم يخرج منها ، فحاصرهم عبد الرحمن . وكانت تقع بين الحين والآخر مناوشات بين الطرفين . واستمر الأمر على هذه الحال نحو عام كامل . ولقي المسلمون في ذلك عنتاً شديداً وفي النتيجة تغلبوا عليهم وفتحوا المدينة ودخل المسلمون البلد وقتلوا من وجدوه من العساكر وأسروا الباقي ، وأسر ملك كابل ولما أحضر إلى عبد الرحمن أمر بقتله إلا أنه أسلم ونطق بالشهادتين فأكرمه عبد الرحمن .

= فصالحه على ثلاثمائة ألف درهم ، ويقال على احتمال الأرض من الخراج على أن لا يقتل أحداً ولا يسبيه .

وقدم بهمنة عظيم أبيورد على ابن عامر فصالحه على أربعمائة ألف درهم (فتوح البلدان ص ٣٩٥) .

(١) في فتوح البلدان ص ٣٨٥ وابن الأثير ٢/٢٦٥ الربيع بن زياد بن أنس بن الديان الحارثي . (انظر تاريخ خليفة ص ١٦٤) .

(٢) عزل ابن عامر الربيع واستخلف على سجستان رجلاً من بني الحارث بن كعب فأخرج عنها فولى ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس سجستان ومنها انطلقت غزواته (فتوح البلدان ص ٣٨٦ ابن الأثير ٢/٢٦٢) .

ثم أمر باستخلاص خمس الغنائم وأرسلها إلى عبد الله بن عامر وشرح له كيفية فتح سجستان وكابل واستقر مع عسكره في تلك الولاية .

ذكر فتح مرو الروذ وبلخ على يد الأحنف بن قيس

ثم استدعى عبد الله بن عامر رجلاً من العرب المشهورين يسمى الأقرع بن حابس التميمي وأمّره(١) على ألف رجل وقال له : اذهب إلى مدينة جوزجانان(٢) وحاربهم حتى يقبلوا الصلح على النحو الذي أخذت منه الجزية في المواضع الأخرى . فذهب الأقرع إلى الجهة التي عينها له عبد الله . وحين اقترب من البلد، خرج إليه أهلها يقرعون الطبول ويلعبون بالسلاح ولما التقى الجيشان وقعت بينهما معركة عظيمة وقتل فيها جمع كثير من المسلمين وعاد الباقون إلى عبد الله بن عامر(٣) فاستدعى عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس وقال له : يا أبا بحر ، لقد اقترب موسم الحج وإني عازم على أداء هذه الفريضة وإني أعرف أحوال رجال العرب الذين هم معي ولكنني اخترتك للنيابة عني في إمارة خراسان فيجب عليك أن ترعى شؤون الإمارة وأحوال الناس بأحسن وجه ممكن كما هو معهود فيك من الكفاءة وحسن السيرة . ثم جمع عبد الله الأموال وانطلق نحو الحج . وإذ علم أهل مرو والطالقان بعودة عبد الله بن عامر ، اجتمعوا وأعدوا ثلاثين ألف مقاتل . فاتصل الخبر بالأحنف فجمع قواته واستعد للحرب وتوجه نحو الذين نقضوا العهد ونزل في مكان يبعد فرسخين اثنين عن مرو الروذ حيث يعرف بقصر الأحنف وأمّا جيش مرو الروذ والطالقان فقد اتجهوا إلى الميدان للحرب ، ولما التقى الجيشان ، حمل عليهم الأحنف بن قيس مع جماعته وهم يكبّرون وقد تمكن الأحنف من إصابة ثلاثة من القواد ، أصحاب الاعلام برمحه ، ولما رأى الكفرة ذلك ، انهزموا لا يلوون على

---

(١) في فتوح البلدان ص ٣٩٨ أن الأحنف بن قيس ـ وكان عبد الله بن عامر قد بعثه إلى مرو الروذ ـ قد وجه الأقرع بن حابس إلى الجوزجان .

(٢) كذا بالأصل ، وفي فتوح البلدان والطبري وابن الأثير : جوزجان .
جوزجانان وجوزجان هما واحد معجم البلدان .

(٣) كذا ، وفي فتوح البلدان : « فكانت في المسلمين جولة ثم كروا فهزموا الكفرة ، وفتحوا الجوزجان عنوة » . وفي ذلك يقول كثير بن الغريزة النهشلي :

سقى صوب الصحاب إذا استهلت ... مصارع فتية بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق حوف ... أفادهم هناك الأقرعان

شيء فتعقبهم المسلمون يقتلونهم ويأسرون منهم وقد غنموا غنائم ، فما كان من الأحنف إلّا أن حمد الله تعالى على هذا الفتح المبين[1] ثم انطلق إلى بلخ ونزل على إحدى بواباتها وأقام معسكراً هناك ، ولما رأى ملك بلخ جيش المسلمين على تلك الحال ، امتلأ قلبه رعباً فأرسل إلى الأحنف شخصاً يطلب الصلح فأجابه الأحنف][2] إلى ذلك وصالحه على أربعمائة ألف درهم نقداً وكل عام يدفع مئة ألف درهم وخمسمائة حمل من القمح وأخرى من الشعير .

قال : وجعل الأحنف يفتح بلداً بلداً ، ورستاقاً رستاقاً ، ويدور ما قدر عليه من بلاد خراسان ويجبي أموالها ويحمل خمس ذلك إلى عثمان بن عفان ، قال : فكان الأحنف على طوائف خراسان مما كان دون نهر بلخ وعبد الرحمن بن سمرة ببلاد سجستان[3] .

ذكر فتح أرمينية[4] ومقتل سلمان[5] بن ربيعة الباهلي بها

قال : ودعا معاوية برجل من قريش يقال له حبيب بن مسلمة الفهري فضم إليه أربعة آلاف فارس وألفي راجل وأمره بالمسير إلى بلاد أرمينية بأمر عثمان بن عفان ؛ قال : فسار حبيب بن مسلمة من الشام يريد إلى بلاد الجزيرة ثم رحل من بلاد الجزيرة يريد بلاد أرمينية ؛ فلما صار إلى شمشاط ونواحيها بلغه أن رجلاً من الروم يقال له المرزبان[6] في نيف وثلاثين ألفاً قد نزل قريباً من شمشاط ، فكتب حبيب بن مسلمة بذلك إلى معاوية ، فكتب [معاوية] بذلك إلى عثمان ، وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط[7] وهو يومئذٍ عامله على الكوفة ، فكتب إليه يأمره أن ينتخب من أهل الكوفة عشرة آلاف رجل يضمهم إلى سلمان بن ربيعة الباهلي

---

(١) كتب مرزبان مرو الروذ إلى الأحنف فصالحه على ستمائة ألف درهم (فتوح البلدان ـ وابن الأثير) . وكتب إليه الأحنف كتاباً (انظر نسخته في الطبري ٥/٨١) .

(٢) إلى هنا ينتهي ما استدركناه من الترجمة الفارسية .

(٣) انظر الطبري ٥/٨٣ وفتوح البلدان ص ٣٩٨ وابن الأثير .

(٤) أرمينية : اسم صقع عظيم واسع حده من برذعة إلى باب الأبواب .

(٥) بالأصل : « سليمان » تحريف . وما أثبتناه عن الطبري ٥/٤٥ .

(٦) في الطبري وابن الأثير وفتوح البلدان : الموريان .

(٧) كذا بالأصل والطبري وابن الأثير ؛ وفي رواية الواقدي نقلها الطبري ٥/٤٦ وفتوح البلدان ص ٢٠١ أن الذي أمد حبيب بن مسلمة سعيد بن العاص وهو عامله على الكوفة .

ويوجهه إلى حبيب بن مسلمة على أرض شمشاط معونة لهم على عدوهم .

قال : فلما ورد كتاب عثمان رضي الله عنه على الوليد بن عقبة بالكوفة قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[١] : أيها الناس ! إنه قد كتب إليّ أمير المؤمنين عثمان يأمرني أن أوجه سلمان بن ربيعة الباهلي في عشرة آلاف رجل منكم لتمدوا إخوانكم من الشام بأرض شِمشاط فإن الروم قد جاشت عليهم ، وفي هذا أجر عظيم وثـواب جسيم فخفوا رحمكم الله مـع سلمان بن ربيعـة ولا تتثاقلوا عن الجهاد في سبيل الله . فأجابه الناس إلى ذلك واجتمعوا إلى سلمان ، فخرج بهم عشرة آلاف من الكوفة يريد حبيب بن مسلمة .

واتصل خبر أهل الكوفة بحبيب فقال لأصحابه : ويحكم يا أهل الشام ! إنه قد جاءكم مدد أهل الكوفة وأخاف أن يظفروا بالعدو فيكون الذكر لهم والاسم لهم من دونكم ، ولكن هل لكم أن تواقعوا العدو وقعة من قبل قدوم أهل الكوفة علينا ؟ فلعلنا نظفر بالعدو ، قال فقالوا : الأمر إليك أيها الأمير ! فافعل ما أحببت ، قال : وكان حبيب بن مسلمة هذا رجلاً بصيراً بالحرب ، قال : وكان صـاحب مكر ومكـائد ، فأجمع رأيه على بيات القوم ؛ فلما كان الليل عبي أصحابه ثم سار بهم حتى كبس عسكر الكفار فقتل مقاتلتهم وأسر منهم خلقاً كثيراً ؛ وانهزم المرزبان[٢] في بـاقي أصحابه حتى دخل أرض الروم ، وغنم أهل الشام غنائم كثيرة فاقتسموها بينهم .

قال : وقدم سلمان بن ربيعة في أهل الكوفة بعد ذلك وأهل الشام قد مـلأوا أيديهم من الغنائم ، فقال لهم أهل الكوفة : يا هؤلاء ! أشركونا فيما غنمتم من هذه الغنائم فإنكم إنما نصرتم وقويتم واجترأتم على عدوكم بريحنا[٣] .

ذكر ما جرى بين أهل الشام وأهل العراق من العداوة في أمر الغنائم

قال : فقال حبيب بن مسلمـة : يا هؤلاء ! إنكم قـدمتم علينا وقـد هزم الله

(١) مقالة الوليد بن عقبة في الطبري ٥/٤٦ . باختلاف .

(٢) كذا ، مرت الإشارة إلى أن اسمه الموريان .

(٣) كذا بالأصل وفتوح البلدان ص ٢٠١ وفي رواية للطبري ٥/٤٦ أن أهل الكوفة دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم . . . فشنوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي وملأوا أيديهم من المغنم .

عزَّ وجلّ العدو وبدد شملهم وقد صارت الغنيمة إلى قوم قد أبلوا وقاتلوا وليس لكم فيها حق ؛ قال : فوقع الكلام بين أهل العراق وأهل الشام حتى أنهم اقتتلوا ، فظفر أهل العراق بأهل الشام ، فكان ذلك القتال هو أول عداوة كانت بين أهل العراق وأهل الشام ، قال : وجعل بعضهم يتوعد بعضاً(1) ؛ قال : ثم أرسل حبيب بن مسلمة إلى أهل العراق أن لا تعجلوا على إخوانكم بالمحاربة وأن ينتظروا حتى يكتب في ذلك إلى عثمان بن عفان ، قال : فأجابه أهل العراق إلى ذلك ؛ فكتب حبيب بن مسلمة إلى معاوية يخبره بما فيه أهل الشام وأهل العراق من التهديد والوعيد وما كان بينهم من الحرب لأجل الغنائم التي غنمها أهل الشام دون أهل العراق . قال : فكتب معاوية بذلك إلى عثمان بن عفان ، قال : فحكم عثمان بن عفان رضي الله عنه على أهل الشام أن يقاسموا أهل العراق ما غنموا من تلك الغنائم ولا يشاحّوهم في ذلك(2) .

قال : فلما ورد كتاب عثمان بن عفان على أهل الشام وحبيب بن مسلمة فقرأه على أهل الشام فقالوا : السمع والطاعة لأمير المؤمنين . قال : ثم إنهم قاسموا أهل العراق ما غنموا ، وأقام حبيب بن مسلمة في موضعه الذي هو فيه ، وكتب عثمان بن عفان إلى سلمان بن ربيعة يأمره بالمسير إلى أرمينية .

ذكر مسير سلمان بن ربيعة الباهلي إلى بلاد أرمينية وفتح من البلاد

قال : فسار سلمان بن ربيعة ومن معه من أهل العراق نحو بلاد أرمينية ، قال : وتسامعت ملوك أرمينية بدخول العرب إلى بلدهم فهربوا على وجوههم حتى تحصنوا في الجبال والقلاع والأودية والغياض ، وجعل بعضهم يقول لبعض إنه قد جاءنا قوم بلغنا أنهم نزلوا من السماء فليس يموتون ولا يعمل فيهم السلاح .

قال : فصار سلمان بن ربيعة يقتل من ناوأه ويفتح ما مر به من المدن والقلاع

---

(1) وقد توعد بعض المسلمين سلمان بالقتل فقال الشاعر :

إن تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

(فتوح البلدان ص ٢٠١ وانظر الطبري ٥/٧٩) .

(2) كذا ، وفي فتوح البلدان ص ٢٠١ وكتب إلى عثمان بذلك فكتب : أن الغنيمة باردة لأهل الشام .

ويتصفى البلاد حتى صار إلى البيلقان من بلاد أرّان[1] ؛ قال : فخرج إليه أهل البيلقان في الأمان فأقاموا له الأنزال وصالحوه على مال دفعوه إليه[2] ، فقبل ذلك منهم . ثم سار من البيلقان حتى نزل على حصن بَرْدعة[3] فصالح أهلها[4] على مال أخذه منهم وفرقه على أصحابه فقواهم به . ثم إنه وجه بخيل له إلى جرزان [5] فصالح أهلها على شيء معلوم يعطونه في كل سنة . ثم رجع هو وأصحابه وسار حتى عبر نهر الكُرّ[6] حتى جاز إلى أرض الشروان[7] فنزلها ودعا ملكها فصالحه على مال أخذه منه . ثم تقدم من الشروان حتى صار إلى شابران[8] ومسقط[9] ، ثم إنه بعث إلى ملوك الجبال فدعاهم ، فأقبل إليه ملك اللكز[10] وملك فيلان وملك طبرستان فحملوا إليه الأموال والهدايا ، وصالحوه على شيء معلوم يؤدونه إليه في كل سنة ، فقبل ذلك منهم . ثم إنه سار يريد مدينة الباب وبها يومئذٍ خاقان ملك الخزر[11] في زهاء على ثلاثمائة ألف من الكفار ، فلما سمع بمسير العرب إلى ما قبله ارتحل عن مدينة الباب ، فقيل له : أيها الملك أنت في ثلاثمائة ألف وهؤلاء في عشرة آلاف وتنهزم من بين أيديهم ؟ فقال خاقان : إنه قد بلغني عن هؤلاء القوم أنهم نزلوا من السماء وأن السلاح لا يعمل فيهم ، فمن يقوم لهؤلاء ؟ قال : ثم جعل يمر على وجهه .

---

(١) البيلقان : مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب ، تعد في أرمينيا الكبرى .
وأران : اسم ولاية واسعة وبلاد كثيرة ، وهي من أصقاع أرمينيا . وبالأصل « الران » وما أثبتناه عن معجم البلدان وفتوح البلدان .

(٢) في فتوح البلدان ص ٢٠٥ : فتح مدينة البيلقان صلحاً على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم أداء الجزية والخراج (انظر معجم البلدان ـ بيلقان) .

(٣) في معجم البلدان برذعة . بلد في أقصى أذربيجان .

(٤) في فتوح البلدان ص ٢٠٦ : صالح أهلها على مثل صلح البيلقان .

(٥) عن فتوح البلدان ومعجم البلدان ، وبالأصل « جريان » تحريف .

(٦) عن فتوح البلدان ص ٢٠٦ ومعجم البلدان وبالأصل « الكروسان » .

(٧) الشروان : مدينة من نواحي باب الأبواب .

(٨) شابران : مدينة من أعمال أران بينها وبين شروان ٢٠ فرسخاً .

(٩) مسقط : رستاق بساحل بحر الخزر دون باب الأبواب .

(١٠) اللكز : بليدة خلف الدربند تتاخم خرزان .
وفيلان : بلد قرب باب الأبواب من نواحي الخزر .

(١١) الخزر : بلاد الترك خلف باب الأبواب ، وملكهم يسمى بلسانهم يلك .
وملكهم يقال له : خاقان الأكبر . ويقال لخليفته خاقان به .

وأقبل سلمان بن ربيعة حتى دخل بالمسلمين مدينة الباب وليس بها أحد من الكفار ، فأقام بها ثلاثة أيام حتى استراح أصحابه ، ثم خرج منها في طلب خاقان وأصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الخزر يقال لها يرغوا[1] وليس بها أحد من . . .[2] ثم رحل . . .[2] يريد بلنجر[3] وهي أيضاً مدينة من مدن الخزر .

قال : ونزل سلمان بن ربيعة هنالك إلى أجمة كثيرة الدغل على نهر يجري ، وفيه جماعة من الخزر من أصحاب خاقان ، فأقبل رجل منهم لينظر إلى عسكر المسلمين ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى رجل من المسلمين قد نزل إلى ذلك النهر ليغتسل فيه ، فأحب أن يجرب فيه السلاح أيعمل فيه أم لا ، فاستخرج له سهماً فرماه به فقتله ، ثم دنا منه فأخذ ثيابه واحتز رأسه ، وجاء به حتى وضعه بين يدي خاقان وقال : أيها الملك ! هؤلاء الذين بلغك عنهم أن السلاح لا يعمل فيهم وأن القتل لم يكتب عليهم !

قال : فلما نظر خاقان إلى ذلك نادى في أصحابه فجمعهم ، ثم إنه رجع على المسلمين في ثلاثمائة ألف فقاتلهم وقاتلوه حتى ما بقي من المسلمين أحد ؛ قال : فقتل سلمان بن ربيعة الباهلي وجميع من كان معه رحمة الله عليهم ، فقبورهم هنالك معروفة بالبلنجر يقال لها قبور الشهداء إلى يومنا هذا[4] .

قال : فبلغ عثمان بن عفان مصاب سلمان بن ربيعة[5] وأصحابه بأرض البلنجر فغمه ذلك وأقلقه حتى منعه من النوم ، ثم إنه كتب إلى حبيب بن مسلمة الفهري يأمره بالمسير إلى بلاد أرمينية في جميع أصحابه .

ذكر مسير حبيب بن مسلمة إلى بلاد أرمينية بعد مقتل سلمان بن ربيعة الباهلي

قال : فلمّا ورد كتاب عثمان على حبيب بن مسلمة نادى في أصحابه وهم يومئذٍ ستة آلاف ما بين فارس وراجل ، ثم سار بهم نحو بلاد أرمينية ، قال : فدخل من

(١) كذا .

(٢) غير واضح بالأصل .

(٣) عن فتوح البلدان ص ٢٠٦ ، وبالأصل « تنجر » وبلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب .

(٤) الخبر في معجم البلدان (بلنجر) . وفتوح البلدان ٢٠٦ مختصرا .

(٥) جاء بنعيه إلى عثمان بن عفان(رض) قرظة بن كعب الأنصاري (فتوح البلدان ص ٢٠٦) .

الدرب الذي يقال له درب بني زرارة إلى يومنا هذا ، وجعل يسير حتى صار إلى مدينة يقال لها خلاط[١] ، فنزل في قلعتها وبها جماعة من الكفار ، فأقام عليها أياماً ، ورحل منها حتى صار إلى أرض يقال لها سراج[٢] من بلاد المطامير[٣] ، فنزل هنالك ثم كتب إلى أهل جرزان ، فأقبل إليه جماعة من رؤسائهم فصالحهم على ثمانين ألف درهم ، فأخذها منهم وكتب لهم بذلك كتاباً[٤] ؛ وأقام هنالك في بلاد أرمينية وجعل يكتب إلى ملوكها فيدعوهم إلى الطاعة ويعدهم .

ذكر عزل حبيب بن مسلمة عن بلاد أرمينية وولاية حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما

قال : فبينا حبيب بن مسلمة كذلك إذ بعث إليه عثمان بن عفان فعزله وولى مكانه حذيفة بن اليمان ، قال : فدعا حذيفة برجل من بني عمه يقال له صلة بن زفر العبسي ، فوجه به إلى بلاد أرمينية وجعله خليفة له بها ، وأقام حذيفة بالمدينة ؛ وأقبل صلة بن زفر العبسي إلى بلاد أرمينية فأقام بها حولاً كاملاً وجعل يذل ملوكها بغاية الذل والهوان حتى أذعنوا له بالسمع والطاعة .

ذكر عزل حذيفة بن اليمان وولاية المغيرة بن شعبة رضي الله عنهما

قال : ثم إن عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل حذيفة من بلاد أرمينية ودعا المغيرة بن شعبة فولاه بلاد أرمينية وأذربيجان ، فأقام بها ما شاء الله أن يقيم ، ثم عزله عثمان وولى مكانه الأشعث بن قيس الكندي[٥] ، فكان بها إلى أن قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فكان الأشعث على أرمينية وأذربيجان يجبي خراجها ويحمله إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه .

---

(١) خلاط : بكسر أوله . قصبة أرمينيا الوسطى .

(٢) سراج كورة في أرمينيا .

(٣) المطامير : بلد بالثغور الشامية . وانظر في فتوح البلدان خط سير حبيب بن مسلمة بعد توجهه من خلاط . . . إلى جرزان .

(٤) نسخة كتاب صلح جرزان في فتوح البلدان ص ٢٠٤ .

(٥) في فتوح البلدان ص ٢٠٧ ولى القاسم بن ربيعة بن أمية بن أبي الصلت الثقفي ، ويقال ولاها عمرو بن معاوية بن المنتفق العقيلي وبعضهم يقول : وليها رجل من بني كلاب .

ذكر الحبشة وما كان من غاراتهم على سواحل المسلمين

قال : فبينا عثمان رضي الله عنه كذلك وقد فتح من البلاد ما فتح إذ بلغه أن قوماً من الحبشة أغاروا على بعض سواحل المسلمين وأصابوا منهم أموالاً وسبوا منهم سبياً كثيراً ، قال : فاغتم لذلك عثمان غماً شديداً ثم أرسل إلى جماعة من الصحابة وغيرهم من المسلمين ، فدعاهم واستشارهم في غزو الحبشة ، فأشار عليه المسلمون أن لا يغزوهم في بلادهم ولا يعجل عليهم حتى يبعث إلى ملكهم فيسأله عن ذلك ، فإن كان الذي فعله أصحابه عن أمره ورأيه هيّأ له المراكب وأرسل إليه بالجند والمقاتلة ، وإن كان ذلك من سفهاء أغاروا على سواحل المسلمين عن غير أمر ملكهم ورأيه أن يشحن السواحل بالخيل والرجال حتى يكونوا على حذر ؛ قال : فعمل عثمان على ذلك ثم دعا محمد بن مسلمة الأنصاري فوجه به إلى ملك الحبشة في عشرة نفر من المسلمين يسأله عما فعل أصحابه ، وكتب إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه في ذلك كتاباً .

قال : فلما قدم محمد بن مسلمة بكتاب عثمان بن عفان وقرأه أنكر ذلك أشد الإنكار وقال : ما لي بذلك من علم ، قال : ثم إنه أرسل إلى قرى الحبشة في طلب السبي فجمعهم بأجمعهم ودفعهم إلى محمد بن مسلمة ، فأقبل بهم إلى عثمان وخبره بما كان من إنكار ملك الحبشة وطلب السبي ؛ قال : فشحن عثمان السواحل بعد ذلك بالرجال وقواهم بالسلاح والأموال ، فكانوا ممتنعين من الحبشة وغيرهم .

ذكر فتح جزيرة قبرص[1] على يد معاوية بن أبي سفيان

قال : وإذا بكتاب[2] معاوية بن أبي سفيان قد ورد على عثمان يسأله أن يأذن له في ركوب البحر إلى جزيرة قبرص ويخبره في كتابه بقرب المسير إليهم وأن البحر قد

(١) كذا ، وفي معجم البلدان والطبري وتاريخ خليفة وابن الأثير وفتوح البلدان والبداية والنهاية : قبرس بالسين المهملة .
في غزوها قيل سنة ٢٨ وقيل سنة ٢٩ وقيل سنة ٣٠ .

(٢) في ابن الأثير ٢/٢٤٠ كتب معاوية إلى عثمان مراراً (وانظر فتوح البلدان ص١٥٧) .

ذل بعد صعوبته ، قال : فكتب إليه عثمان : إني لست بفاعل ذلك ولا آذن لك في ركوب البحر وقد نهاك عنه عمر بن الخطاب[1] ، فإن أبيت ذلك ولم يكن لك بد من ركوب البحر فاحمل معك أهلك وولدك حتى أعلم أن البحر هيّن كما تقول[2] .

قال : فلما ورد كتاب عثمان على معاوية وقرأه نشط لركوب البحر إلى قبرص ، ثم كتب إلى أهل السواحل فأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا ليكون ركوب المسلمين من عكا إلى قبرص . قال فأصلحت المراكب وجمعت ، ووضع معاوية الأرزاق للناس فأعطاهم وأمرهم بالمسير إلى عكا ؛ قال : وعقدت الرايات والألوية ففرّقت في المراكب ، ونادى معاوية في الناس أن لا يتخلف أحد عنه ممن أخذ أرزاقه .

قال : فخرج الناس من دمشق حتى صاروا إلى عكا ، وخرج معاوية من دمشق ومعه أهله[3] وولده حتى نزل بعكا ، وركب معاوية في مركب منها مع أهله وولده ، ثم دفعت من عكا يوم الجمعة قبل الصلاة والمراكب في عشرين ومائتي مركب وقد رفع الناس أصواتهم وضجوا بالتهليل والتكبير .

قال : فبينا القوم يسيرون في البحر إذ هب الريح وهاج البحر فاضطرب بأمواجه وفرق المراكب يمنة ويسرة ؛ قال : وفزعت امرأة معاوية فزعاً شديداً ثم صاحت بالنوتيّ ـ وهو الملاح الذي يدبر أمر المركب وكان من القبط واسمه طليا ـ وقالت : ويحك يا طليا ! احبس المركب ، قال : فضحك طليا ثم قال : أيتها المرأة ! ليس ههنا أحد له سلطان على هذا البحر دون الملك الجليل ، وليس إلى حبس المراكب من سبيل ؛ قال : فاغتم معاوية بمن قد حمل معه من نسائه وأولاده ، فلم يزالوا كذلك ساعة ثم إن الريح هدأت وسكنت ، فسار المسلمون في مراكبهم .

قال : وإذا مراكب الروم سائرة في البحر وفيها هدايا قد بعث بها ملك قبرص إلى قسطنطين بن هرقل ملك الروم ، قال : فأحدق المسلمون بتلك المراكب

---

(١) وكان معاوية قد استأذن عمر بغزو قبرس فرفض . وقد مر ذلك .

(٢) في ابن الأثير ٢/٢٤٠ قال له عثمان : « لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » .

(٣) حمل معه امرأته فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصي .

فأخذوها ، فإذ فيها جوارٍ حسان وأثاث فاخر من البزيون[1] والديباج والسقلاطون وغير ذلك ، فأخذ معاوية ذلك كله وسار في البحر حتى صار إلى قبرص بكل عافية وسلامة وغنيمة ، فأمر بالمراكب فأرسيت على ساحل قبرص ؛ ثم أمر أصحابه فخرجوا من المراكب فأغاروا على قبرص ، فغنموا غنائم ليست بالقليل حتى ملأوا المراكب بالجواري والغلمان والأثاث الفاخر ، ثم أرسل ملك قبرص إلى معاوية يسأله الصلح والرجوع عنه إلى بلاد الإسلام ، فأجابه معاوية إلى ذلك على أنه يؤدي إليه في كل سنة سبعة آلاف دينار ومائتي دينار ، فأجابه إلى ذلك وأخذ منه ما أخذ وكتب عليهم بذلك كتاباً وميثاقاً أنهم لا يغدرون ولا ينقضون ذلك أبداً[2] ؛ قال : وكان أهل قبرص يؤدون إلى معاوية في كل سنة سبعة آلاف دينار ومائتي دينار وإلى ملك الروم مثل ذلك .

قال : ثم جلس معاوية وأصحابه في المراكب وساروا يريدون إلى الساحل الذي أقبلوا منه ومعهم يومئذٍ من النساء والذرية نيف وثمانية آلاف ، وفي النساء نيف على سبعمائة عذراء والمراكب مشحنة بجميع الأمتعة حتى صاروا إلى الساحل وخرجوا ؛ وأخرج معاوية من ذلك كله الخمس ووجه به إلى عثمان بن عفان وكتب إليه يخبره في كتابه بسلامة المسلمين ، وقسم معاوية باقي ذلك في المسلمين .

قال : فجعل الناس يقتسمون السبي والخير الكثير بينهم فينادى عليهم فيباع ويشترى . قال : ونظر أبو الدرداء إلى ذلك فجعل يبكي ، فقال له جبير بن نفير الحضرمي[3] : ما يبكيك يا أبا الدرداء ؟ وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل الشرك وأهله ؟ قال : فضرب أبو الدرداء بيده على منكب جبير بن نفير ثم قال : ثكلتك أمك يا جبير ! ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه[4] ، فانظر إلى هؤلاء القوم بينا هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم ، فلما تركوا أمر الله عزّ وجلّ وعصوه

---

(١) البزيون : السندس .

(٢) كذا بالأصل والطبري ٥/٥٣ وابن الأثير ٢/٢٤٠ البداية والنهاية ٧/١٧٢ فتوح البلدان ص ١٥٨ .
وزيد في الطبري وابن الأثير : وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم .
وزيد في الطبري : على أهل قبرص ألا يتزوجوا من عدونا ـ الروم ـ إلا بإذننا .
وفي فتوح البلدان : اشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم .

(٣) عن الطبري ٥/٥٣ وفي الأصل : « نصير الخولاني » تحريف .

(٤) الطبري : تركوا أمره .

صاروا إلى ما ترى وسلط الله عزَّ وجلّ عليهم السبي ، ويحك يا جبير ! إنه إذا سلّط الله عزَّ وجلّ السبي على قوم فليس له فيهم حاجة .

قال : فبينا المسلمون يقتسمون غنائم قبرص إذ وقع بينهم شيء من الفساد وشح بعضهم على بعض وظهر من بعضهم شيء من الغلول ، فقال شيخ من أهل قبرص من الروم : ويحكم يا معشر العرب ! أتفعلون هذا وأنتم قريب عهد من نبيكم محمد ﷺ وأنتم أصحابه ؟ فكيف يكون من يأتي من بعدكم ؟ فقال له رجل من المسلمين : يا شيخ ! أميرنا لا يرضى بشيء من هذا ، فقال له الشيخ الرومي : فأنت لا يسعك الكتمان أو ترفع ذلك إليه ، قال : وبلغ ذلك معاوية فنهى عن ذلك أشد النهي ، ثم إنه دعا بكتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي كتبه ليزيد بن أبي سفيان حين وجّه به إلى الشام فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا عهد أبي بكر عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله ﷺ إلى جميع أمراء الأجناد ، إني أوصيكم بتقوى الله أن لا تغلوا ولا تفسدوا ولا تطغوا ولا تعقروا بهيمة ولا تذبحوا شاة لا تريدون أكلها ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تهدموا بيعة ، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء ، وستجدون قوماً قد حبسوا أنفسهم في الصوامع فذروهم ولا تعرضوا لهم إلا بسبيل خير ، وستجدون آخرين من حزب الشيطان في أوساط رؤوسهم أفاحيص ، فإذا وجدتم أولئك فاضربوهم بالسيوف ضرباً ؛ هذه وصاتي لكم وعهدي إليكم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : فلما سمع المسلمون هذا الكتاب أقصروا عن فسادهم واستغفروا الله عزَّ وجلّ مما كان منهم .

قال : فبينا الناس كذلك يقتسمون الغنائم وجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس ناحية ـ منهم أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس [بن ثابت] وواثلة بن الأسقع وأبو أمامة الباهلي(١) وعبد الله بن بشر المازني(٢) ـ إذا برجلين من

(١) واسمه صدي بن عجلان سكن مصر ثم انتقل منها فسكن حمص بها مات سنة ٨١ وقيل ٨٦ وهو آخر من مات بالشام من أصحاب النبي (ص) في قول .

(٢) كذا بالأصل وفتوح البلدان . وفي الإصابة عبد الله بن بسر المازني أبو بسر الحمصي . مات سنة ٨٨ بالشام وقيل بحمص وله ٩٤ سنة وهو آخر من مات بالشام من الصحابة (الإصابة) .

الأنصار يسوقان حمارين فقال لهما عبادة بن الصامت : ما هذا ؟ فقالا : يا أبا الوليد ! إن معاوية أمر لنا بهذين الحمارين ونحن نرجو أن نحج عليهما إن شاء الله ؛ قال فقال عبادة : لا والله ما يحل لمعاوية أن يعطيكماهما ولا يحل لكما أن تأخذاهما إلا أن يكون رسول الله ﷺ أمر لكما بذلك ، قال : فقالا له الأنصاريان : يا سبحان الله ! وأين رسول الله ﷺ ؟ فقال لهما عبادة : لعله أوعز إليكما ، فقال : إذا فتحتم جزيرة قبرص يؤمر لكما بحمارين أقمرين فاقبضاهما ، قال : فسكت الأنصاريان وردا الحمارين على معاوية وخبراه بمقالة عبادة بن الصامت ؛ فأقبل معاوية إلى عبادة يسأله عن ذلك ، فقال له عبادة : يا معاوية ! إني شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين والناس يكلمونه في الغنائم ، فرأيته وقد أخذ وبرة من جنب بعير ثم قال : « والله ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم » . قال : فقال معاوية : يا أبا الوليد ! أتشهد رسول الله ﷺ وهو يقول ذلك يوم حنين ؟ قال عبادة : الله أكبر ! إذ قد سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فانُظر مَن تُولي غنائم المسلمين ؟ قال معاوية : فإني قد وليتك الغنائم فاقسمها في أهلها بما تعلم واتق الله فيها ، فقال عبادة : وكيف اخترتني لذلك ؟ فقال : لأنه قد ورد عليّ كتاب أمير المؤمنين عثمان يأمرني أن أولي ما غنمت من شيء أفضل من أجد ، وأنت عندي أفضل من أقدر عليه في وقتي هذا لإسلامك القديم وصحبتك لرسول الله ﷺ ، فقال عبادة : ولها غيري يا معاوية ! فإني لا ألي ذلك أبداً ، قال معاوية : فإني لا أجد أحداً يليها سواك . قال : فولى الغنائم عبادة بن الصامت وأعانه عليها أبو الدرداء وأبو أمامة الباهلي وغيرهم من الصحابة ، قال : فنظر بعض المسلمين إلى أم الدرداء امرأة أبي الدرداء وفي يدها سوار من فضة قيمتها عشرة دراهم فقال لها : يا أم الدرداء ! أنّى لك هذا ؟ فقالت : هو من سهم أبي الدرداء في يوم قبرص .

قال : ثم جمع معاوية هدايا كثيرة فوجه بها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ووجه بجارية حسناء فائقة الجمال من بنات أهل قبرص ودفع ذلك كله إلى رجل من المسلمين يقال له عبدة بن عبيد السلمي ووجه به إلى عثمان ؛ فلما ورد الكتاب والمال من الخمس وغيره من الهدايا إلى عثمان نظر إليه ففرح بذلك، ثم فض الكتاب وقرأه فحمد الله على ذلك كثيراً ، ثم نظر إلى الجارية فقال للرسول : هذه من الخمس ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ! هذه وقعت في سهم معاوية فأحب أن يهديها إليك ، قال عثمان : ما اسمك ؟ قال : عبدة بن عبيد ، فقال : أكنت مع المسلمين

بقبرص ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! قال : فصفها لي ؛ قال : نعم ، هي جزيرة واسعة عريضة طويلة ، يذكر أهلها أنها ثمانون فرسخاً في عرض مثل ذلك ، فيها أنهار ومزارع وأشجار وكروم وألوان الثمار ، وفيها قصور ذاهبة في الهوى ، وهي مع ذلك كثيرة الخيل والبغال والحمير والغنم والبقر ؛ قال عثمان : فكيف قدرتم عليها ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما هو إلا أن وفيناهم ونظروا إلى مراكبنا قد أرسيت إلى ساحلهم حتى خضعوا وذلوا وأعطوا بأيديهم صاغرين ؛ فقال عثمان : ذلك من فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين . قال : ثم قسم عثمان ذلك الخمس في أهل المدينة ، فأخذ منه بحقه ودفع إلى كل ذي حق حقه وأخذ تلك الجارية لنفسه ؛ فلما صار إلى منزله نظر إليها فإذا هي جارية وضيئة حسناء ، قال : فشق ذلك على نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان فقطبت لذلك ، فقال لها عثمان : ما شأنك يا نائلة ! أتحبين أن أهبها لك ؟ قالت : نعم يا عثمان ! فقال عثمان : هي لك ؛ قال : فشق ذلك على الجارية فقالت : لا أحب أن أكون لامرأة ، ردني إلى أمير الشام حتى يفعل بي ما يريد ، قال : فردها عثمان إلى معاوية ، فأخذها لنفسه فكانت عنده إلى أن توفيت ولم يكن له منها ولد ـ والله أعلم ـ .

ذكر فتح جزيرة رودس(١) على يدي معاوية بن أبي سفيان

قال : ثم كتب معاوية أيضاً إلى عثمان بن عفان رضي الله عنهما يستأذنه في فتح جزيرة أخرى في البحر يقال لها رودس(٢) ، قال : فاستشار عثمان المسلمين في ذلك ، فقال المسلمون : يا أمير المؤمنين ! إن المسلمين قد فتحوا جزيرة قبرص وقد اجترؤا عليها وعلى ركوب البحر ، فائذن لهم في ذلك فعسى الله أن يغنمهم إياها ؛ قال : فكتب عثمان إلى معاوية أني قد أذنت لك فيما سألت فاتق الله ولا تضيع الحزم ، وإن خوفت من البحر شيئاً فلا تركبنه فإن هوله عظيم .

---

(١) عن الطبري ، وبالأصل : رودوس . وقد فتحت في خلافة معاوية سنة ٥٢ كما في فتوح البلدان ص ٢٣٧ فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي . (وانظر الطبري ٦/١٦١ حوادث سنة ٥٣) .
ولم نجد في المصادر ذكراً لعملية بحرية استهدفت فتح رودس في أيام الخليفة عثمان (رض) . ولعل ما حصل كان غارة خاطفة حصلت سنة ٦٥٤ م حيث تعرضت رودس للنهب والغارة من قبل المسلمين (الدولة البيزنطية ـ السيد الباز العريني ص ١٤٢) .

(٢) بالأصل : رودوس . وقد صححت في كل مواضع الخبر .

قال : فنادى معاوية في الناس وأمرهم بالمسير إلى صيداء[1] على أن يركب منها إلى رودس ، فسار المسلمون في تعبية حسنة حتى وردوا صيداء وقد جمعت المراكب بها ؛ قال : فجلس معاوية في مركب منها وركب المسلمون المراكب وقد شهروها بالأعلام والمطارف وخطفوا من الساحل بالتهليل والتكبير في البحر ، والدليل بين أيديهم في مركب من تلك المراكب ومعه أشد المقاتلة ؛ فلم يزالوا كذلك حتى لاحت لهم الجزيرة في وسط البحر .

قال : وأهل رودس قد استقبلوا المسلمين في مراكبهم ، فاقتتلوا في البحر حتى كثرت القتلى بينهم ، ثم رزق المسلمون الظفر عليهم ، فهزموهم وفضوا أمرهم ومراكبهم حتى ساروا إلى الجزيرة فدخلوها عنوة وقتلوا فيها من قتلوا ، وغنموا ما غنموا فيها من مال وأثاث . قال : فبينا المسلمون يدورون في رودس ويجمعون غنائمها إذ دخل منهم رجل يقال له عبد الرحمن بن عرزب الأشعري إلى دار من دورها فلم ير فيها أحداً ، فجعل يدور فيها مع نفر من المسلمين وهو يقول : ويحكم ! هذه دار نظيفة حسنة البناء ولا تخلو هذه الدار من قوم يكونون فيها ، قال : فبينا القوم يجولون في الدار إذا هم بمطمورة[2] عليها باب قد طمره بالتراب ، قال : فنبش التراب وقلع الباب ودخل المسلمون المطمورة فإذا فيها خمسمائة رأس من رقيق بين غلام وجارية ! وإذا أثاث كثير من ديباج وبزيون وأنواع الأمتعة ! قال : فأخرج كله من المطمورة حتى أتي به إلى المقسم ، فإذا رقعة وقعت من جيب جارية ! فأخذت الرقعة ففتحت فإذا فيها خاتم ذهب وفص ياقوت أحمر ! فأتي به إلى معاوية ، فأرسل به معاوية إلى صاحب المقاسم وأمره أن ينادي عليه ، قال : فنودي على ذلك الخاتم فبلغ ألف دينار ومائتي دينار ، قال : فأخذه معاوية لنفسه وحسبه للمسلمين من سهمه .

قال : ثم جمعت الغنائم فوضعت في المراكب ، ثم خطف المسلمون إلى الساحل . وكتب معاوية إلى عثمان يخبره بسلامة المسلمين وما فتح الله عزّ وجلّ من رودس ؛ قال : فسر عثمان بذلك سروراً شديداً وقسم الخمس في المدينة .

---

(١) صيداء : مدينة على ساحل بحر الشام ، من أعمال دمشق بينها وبين صور ستة فراسخ .

(٢) المطمورة : حفيرة تحت الأرض ، أو مكان تحت الأرض قد هيىء خفية يطمر فيها الطعام والمال . (اللسان) .

قال : فلم تزل جزيرة رودس بعد ذلك خراباً يباباً إلى خلافة معاوية ، فلما صارت الخلافة إليه أرسل إلى رودس فعمرّها وبنى فيها مسجداً وشحنها بالمسلمين وقواهم بالأموال والسلاح وأمرهم بالزراعة ، فلم يزل المسلمون بها سبع سنين[1] لا يطمع فيها ملك الروم ولا غيره من الكفار ـ والله أعلم ـ .

ذكر ما ذكر مجاهد عن هذه الجزيرة

قال مجاهد[2] : لقد دخلت مدينة رودس في سنة ثلاث وخمسين فبنينا فيها مسجداً وأقمنا بها مؤذناً ونصلي . قال مجاهد : وكان تبيع [ابن ـ][3] امرأة كعب الأحبار وكنت أقرئه القرآن فقال لي ذات يوم : يا مجاهد ! كأنك بهذه الجزيرة قد خربت وذهب رسمها ، فقلت : يا تبيع ! وتخرب هذه الجزيرة ؟ فقال : وعلامة ذلك أنه يهب ريح عاصف فتلقى هذه الدرجة ؛ قال مجاهد : فوالله ما لبثنا أن جاءت الريح ذات يوم فرمت بتلك الدرجة وجاءنا كتاب يزيد بن معاوية من الشام بموت معاوية ، فقفلنا وخربت الجزيرة إلى الساعة .

ذكر ما كان من قسطنطين ملك الروم ومحاربته مع المسلمين في البحر[4]

قال : فبينا المسلمون كذلك إذ وقع الخبر بأن قسطنطين بن هرقل ملك الروم قد جمع الجموع وقد عزم على غزو المسلمين في البحر[5] ، قال : وبلغ ذلك

---

(١) وكان ذلك سنة ٥٣ هـ . وقد مرت الإشارة إلى ذلك .

(٢) هو مجاهد بن جبر ترجم له في حلية الأولياء ٢٧٩/٣ البداية والنهاية ٢٢٤/٩ شذرات الذهب ١٢٥/١ .

(٣) زيادة عن فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

(٤) وهي المعركة المعروفة بـ « غزوة ذات الصواري » انظر الطبري ٦٨/٥ وابن الأثير ٢٥٣/٢ البداية والنهاية ١٧٧/٧ .

(٥) في أسباب خروج قسطنطين بقوة بحرية هائلة لضرب المسلمين :

- توسع النشاط البحري الإسلامي بعدما أدرك المسلمون أن الاتصال بالبحر المتوسط والتعرض لأخطار البيزنطيين يتطلب إنشاء قوة بحرية ، ويعتبر معاوية أول سياسي عربي أدرك ما للأسطول من القيمة الإستراتيجية في مواجهة الأخطار البيزنطية .
- تحرك المسلمين نحو المتوسط عبر عنه غزوة جزيرة قبرس، والتي تعتبر من أعظم القواعد الإستراتيجية للأسطول البيزنطي في الشرق .

عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فكتب إلى معاوية وأمره أن يركب في البحر بجنود المسلمين من أهل الشام ؛ وكتب أيضاً إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره أن يركب بأهل مصر ؛ وكتب أيضاً إلى عمرو بن العاص يأمره أن يعين عبد الله بن سعد والمسلمين بجميع ما يقدر عليه من المال والسلاح .

قال : فاجتمع أهل مصر وأهل الشام بساحل مدينة عكا في جمع عظيم من العدة والعدد والسلاح ، ثم إنهم حملوا الخيل معهم في المراكب وخطفوا من عكا في خمسمائة مركب فيها رجال مقاتلة والخيل والسلاح والطعام الكثير . قال : وخرج قسطنطين بن هرقل من قسطنطينية في قريب من ألف(1) مركب من مراكب الروم فيها المقاتلة والزرافات والنيران والنفط . قال : فبينا المسلمون قد لججوا في البحر إذا هم بمراكب الروم قد وافتهم .

قال : فكان عبد الله بن أبي سفيان يقول حدثني أبي عن مالك بن أوس (2) بن الحدثان قال : لقد كنت في تلك المراكب يومئذ وكانت الريح علينا ، قال : فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، فدعونا ربنا وتضرعنا إليه ، ثم إنا أرسينا ساعة ، ثم دنوا منا فأرسوا قبالتنا ، وسكنت الريح وجاء الليل ، فجعل المسلمون يكثرون من قراءة القرآن ولا يفترون من الصلاة والدعاء ، والروم في مراكبهم يضربون (3) بالصنوج والطنابير ويشربون الخمر وينفخون في الصفارات .

قال : ثم أصبحوا وقد تهيؤوا للقتال ، فأرسل إليهم معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن سعد بن أبي سرح : إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى الساحل حتى يموت الأعجز منا ومنكم ؟ قال : فنخرت الروم نخرة واحدة وقالوا : لا ، بل البحر بيننا وبينكم ؛ قال مالك بن أوس بن الحدثان : فدنونا منهم، وربطنا المراكب بعضها إلى

= - تجدد العمليات البحرية الإسلامية في الغارة التي شنت على رودس ، وجزيرة كوس وجزيرة كريت .
ولا شك أن معاوية كان يهدف من وراء هذه العمليات الاستيلاء على القسطنطينية ، ويدل على ذلك حرصه على تأمين الطريق المؤدي إليها .
أما السبب المباشر لحركة قسطنطين فهو ما أصاب المسلمون من البيزنطيين بإفريقيا (الطبري ٥/٦٩ الدولة البيزنطية للعريني ص ١٤٢) .

(1) في الطبري وابن الأثير : خمسمائة مركب .
(2) بالأصل : « عن أنس » تحريف وما أثبتناه عن الطبري .
(3) في الطبري وابن الأثير : يضربون بالنواقيس .

بعض ، واصطف المسلمون على جوانب المراكب في أيديهم الرماح والسيوف والقسي والسهام . قال : واقتتل الفريقان قتالاً لم يسمع بمثله ، وليس بينهم رمية سهم ولا طعنة رمح إلا الضرب بالسيوف والبواتر والخناجر والسكاكين حتى احمر ماء البحر ، قال : وجعلت علق الدماء تضربها الأمواج في الساحل حتى صار الساحل كأن عليه مثل التلول في جثث الرجال وأن الدم غالب على ماء البحر وقد قتل من المسلمين بشر كثير ـ رحمة الله عليهم ـ وقتل من الروم ما لا يحصون عدداً ؛ قال : وصبر الفريقان يومئذ بعضهم لبعض صبراً لم يصبروا مثله ساعة قط .

قال : وجرح قسطنطين ملك الروم جراحات كثيرة في رأسه وجسده فولى مدبراً منهزماً في مركبه الذي كان فيه[1] ، قال : وصاح عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر بالقبط من النواتية : ألا ! من قتل رجلاً من الروم فله ثلاثة دنانير ، قال : فقتلت القبط منهم في ذلك اليوم قريباً من سبعمائة رجل ؛ ووقع عليهم الهزيمة فانهزموا في مراكبهم وهبت الريح عليهم فقطعت مراكبهم يمنة ويسرة فما التقى منها مركبان في موضع واحد .

قال : ورجعت مراكب المسلمين إلى الساحل فأرسيت بعكا ، وكتب عبد الله بن سعد ومعاوية إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه يخبرانه بهزيمة الكفار ؛ قال : فسر عثمان بذلك ـ والله أعلم[2] ـ .

ذكر عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر

قال : فانصرف عمرو بن العاص معزولاً[3] حتى صار إلى فلسطين فنزلها ،

(١) زيد في الطبري : مكث فيها حيناً جريحاً . وفي البداية والنهاية : مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك .

(٢) ترتب على معركة ذات الصواري :

- أحرز المسلمون انتصاراً ساحقاً وحلت الهزيمة بالدولة البيزنطية حتى كاد الإمبراطور يقع أسيراً في يد المسلمين .
- تداعت سيادة بيزنطية في البحر .
- تثبيت مواقع البحرية الإسلامية في البحر ، غير أن ما أحرزه المسلمون من نصر لم يترتب عليه نتائج مباشرة بسبب ما وقع بين المسلمين من فتن واضطرابات داخلية .

(٣) في أسد الغابة أن عمرو بن العاص بقي على ولاية مصر إلى أن مات عمر بن الخطاب فأقره عليها عثمان =

وصارت مصر بأجمعها في يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ قال : وعزم قسطنطين بن هرقل على محاربة المسلمين ثانية في البحر ، فجمع أهل مملكته ثم كتب إلى كل من يسكن الضواحي والسواحل من الروم فحشرهم إليه ، فاجتمع عنده خلق كثير عظيم ، فتجهز وخرج من قسطنطينية في ألفي ومائتي مركب يريد الفسطاط من أرض مصر ، قال : فركب الملعون في أيام ريح عاصفة وقد كانت البطارقة أشارت عليه أن لا يركب في مثل تلك الأيام ، فأبى عليهم وخالفهم وركب ؛ فلما توسط البحر هاجت الريح عليهم ، فكان الموج يرفع المركب في الهواء ثم يلعب بها لعباً ؛ قال : فكان قسطنطين في ألفي ومائتي مركب فما أفلت منها شيء إلا المركب الذي كان فيه فإنه نجا وألقته الرياح إلى جزيرة في البحر عظيمة يقال لها سقلية(1) ، قال : فلما خرج إليها قسطنطين بن هرقل قالوا له : أيها الملك ! لقد أشمتّ بالنصرانية أعداءها وأفنيت رجالها ؛ قال : ثم إنهم اصطنعوا له حماماً ليدخله ، فلما دخل الحمام دخلوا عليه بالخناجر فقتلوه ، ويقال : إنهم ذبحوه ذبحاً . قال : وبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : الحمد لله الذي عجل هلاكه فقد كان عدواً لأهل الإسلام .

ذكر فتح افريقية على يدي عبد الله بن سعد بن أبي سرح

قال : ثم كتب عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر إلى عثمان بن عفان يستأذنه في غزو افريقية ويخبره في كتابه بكثرة أموالها وضعف رجالها(2) . قال : فكتب إليه عثمان بن عفان : إني غير فاعل ذلك فلا آذن لك فيه ، لأني قد شهدت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لا أغزيت افريقية أحداً من المسلمين أبداً ما

= أربع سنين أو نحوها ثم عزله عنها واستعمل عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاعتزل عمرو بفلسطين . (وانظر الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٣٥) .

(١) كذا بالأصل ، وفي معجم البلدان صقلية من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقيا .

(٢) وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد غزا إفريقيا بأمر عثمان سنة ٢٥ هـ . فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أفريقيا ، وكانوا في جيش عدته عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ولم يقدموا على دخول إفريقيا والتوغل فيها لكثرة أهلها . (الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٣٥ فتوح البلدان ص ٢٢٧) .

حملت عيني الماء ، والله ! ما أرى في فتحها خيراً وقد كرهها عمر بن الخطاب من قبلي - والسلام - .

قال : فلما ورد كتاب عثمان على عبد الله بن سعد كأنه كره أن يراد عثمان في شيء من أمر افريقية غير أنه كان يوجه بالرجال فيغيرون على أداني أرضها ويأتون بالغنائم ؛ قال : وبلغ ذلك عثمان بن عفان فكأنه نشط لغزوها ، ثم أرسل إلى المسور بن مخرمة القرشي فدعاه في جوف الليل ، قال : ويحك يا مسور ! قد استخرت الله تبارك وتعالى في ليلتي هذه في بعثة الجيوش إلى افريقية ، وقد كتب إليّ عبد الله بن سعد يخبرني بجرأة المسلمين عليهم وتقربهم منهم ، فهات ما عندك ! فقال له المسور : خار الله لأمير المؤمنين وللمسلمين في ذلك ، وما الرأي عندي إلا غزوها ؛ قال عثمان : فإني أستخير الله عزّ وجلّ في ذلك كثيراً ، ولكن إذا أصبحت فاجمع لي الأكابر من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم وآله) حتى أستشيرهم في ذلك ، فإن اجتمعت آراؤهم على فتحها فعلت ذلك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله . قال : فانصرف المسور بن مخرمة إلى منزله .

فلما كان من غد خرج فدعا له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم وآله) ، فلما علم عثمان أنهم قد اجتمعوا في المسجد خرج إليهم بعد طلوع الشمس ، فشاورهم في أمر افريقية حتى ارتفع النهار ، فكأنهم كرهوا ذلك ، وأكثر من كره ذلك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، فقال له عثمان : ما الذي كرهت من أمر افريقية ؟ فقال سعيد : كرهت ذلك لما سمعت من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقول : لا أقربها أحداً من المسلمين ما حملت عيني الماء[1] ، ولا أرى لك مخالفة عمر فذرهم ولا تغزهم فإنك لن تخافهم على الإسلام وأنهم لراضون منك أن تقرهم في أماكنهم ؛ قال : ثم قام سعيد بن زيد فخرج ؛ والتفت عثمان إلى مولى له يقال له نائل فقال له : يا نائل ! اذهب فادع لي زيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة . قال : فخرج نائل فدعاهما ، فاستشارهما عثمان بن عفان في بعثة الجيوش إلى افريقية، فأشارا عليه بذلك[2] ، فقال عثمان بن عفان : الله أكبر

---

(١) في معجم البلدان (إفريقيا) : كان عمر بن الخطاب قد كتب إلى عمرو بن العاص : لا تدخل إفريقيا فإنها مفرقة لأهلها غير متجمعة ، ماؤها قاس ما شربه أحد من العالمين إلا قست قلوبهم .

(٢) في ابن الأثير ٢ /٢٣٥ : فاستشار عثمان من عنده من الصحابة ، فأشار أكثرهم بذلك .

قد أبهج لي رأي ؛ ثم ندب الناس إلى ذلك فأجابوه سراعاً ، فأول من أجابه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعبد الله وعاصم ابنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن[1] بن الأسود بن عبد يغوث وبشر بن أرطاة[2] والمسور بن مخرمة وجماعة من أولاد الصحابة[3] .

قال : ثم اجتمع الناس إلى عثمان بن عفان بعد ذلك فعرضهم عثمان بالمدينة وعدهم فكانوا أربعة آلاف وثمانمائة من أخلاط القبائل فتجهزوا ما أمكنهم من الجهاز ، قال : وأعانهم عثمان بألف بعير بآلتها ، وفتح بيوت السلاح فأعطاهم وقواهم ؛ وأمر على الناس مروان بن الحكم فجعله على الجند ، وجعل أخاه الحارث بن الحكم على الرجالة ، ثم قام عثمان رضي الله عنه في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها المسلمون ! إنكم قد أصبحتم بدار لا يصلح فيها التضجيع والتواني وقد رأيتم عمر بن الخطاب رحمه الله وما فتح الله عليه من أرض الأعاجم وقد افتتحتم أرض مصر وكانت أكبر شوكة وأكثر عدداً من افريقية ، وأنا أرجو أن يظفركم الله عزَّ وجلّ بها ويعينكم ويقويكم على فتحها ، فعليكم عباد الله بتقوى الله الذي يبقى ويفنى سواه ؛ وقد كتبت إلى عاملي بمصر عبد الله بن سعد وعهدت إليه أن يحسن صحبتكم وأن يرفق بكم وأن يفضي عن سيئكم ، وأرجو أن يكون عند عهدي وأمري إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ألا ! فسيروا رحمكم الله ، والله عزَّ وجلّ خليفتي عليكم .

قال : فسار المسلمون من المدينة حتى قدموا أرض مصر على عبد الله بن سعد ، قال : واجتمعت العساكر بمصر ، فسار بهم عبد الله بن سعد في ثلاثة وعشرين ألفاً يريدون افريقية .

قال : وكان بإفريقية ملك عظيم يقال له جرجين[4] من قبل ملك الروم وفي يده

---

(١) بالأصل « عبد الله » تحريف وما أثبتناه عن الإصابة ٢/٣٩٠ ولد على عهد رسول الله (ص) .

(٢) عن معجم البلدان ، وبالأصل « بشر بن أرطاة » (فتوح البلدان ص ٢٢٨) .

(٣) منهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ، وعبيد الله بن عمر ، (فتوح البلدان ـ معجم البلدان) . وعبد الله بن عباس (الكامل لابن الأثير) .

(٤) في الطبري ٥/٥٠ وفتوح البلدان ١/٢٦٧ والكامل لابن الأثير ٢/٢٣٥ وتاريخ خليفة ص ١٥٩ : جرجير وفي تاريخ اليعقوبي ٢/١٦٥ جرجيس .

من طرابلس المغرب إلى طنجة[1] ، قال : فسار المسلمون إلى طرابلس المغرب فنزلوها وهي آخر عمل الإسلام ، ثم رحلوا منها حتى دخلوا بلاد افريقية فانتشروا بها وبثوا السرايا ، فأصابوا غنائم كثيرة خيل وبغال وحمير وبقر وغنم .

قال : ثم سار عبد الله بن سعد بالمسلمين فجعل يقدم الطلائع بين يديه فمرة يقرب من البحر فيسير على الساحل ، ومرة يطلب البر ؛ وإذا بمراكب أهل افريقية قد أرسيت على ساحل البحر ، فلما نظروا إلى خيل المسلمين هموا أن يركبوا المراكب ويلججوا في البحر ، فعاجلهم المسلمون فأخذوا المراكب وما كان فيها من مال ومتاع ، فقسمه عبد الله بن سعد في المسلمين ، ثم قدم أصحاب المراكب وهم مائة رجل فضرب أعناقهم صبراً ، ثم أمر بالمراكب فأحرقت إلى آخرها .

قال : وسار المسلمون حتى توسطوا بلاد افريقية ، ودنوا من أرضها ، فنزلوا هنالك . وبعث عبد الله بن سعد إلى جرجين[2] ملك افريقية يدعوه إلى الإسلام ، قال : فغضب جرجين[2] من ذلك ، ثم قال : لا دخلت في دينكم أبداً ؛ قال : فأرسل إليه عبد الله بن سعد أنه لا بد لك من إحدى خصلتين الإسلام أو الجزية ، فإذا قد أبيت الإسلام فأد الجزية عن يد وأنت صاغر ، فقال جرجين[2] : لو طلبتم مني درهماً واحداً ما أعطيتكم ولا تتحدث الملوك عني بذلك أبداً .

قال : ثم تهيأ لقتال المسلمين ، وبلغ ذلك عبد الله بن سعد فعبى أصحابه ثم سار إليه ، فقال له رجل من أهل مصر : أيها الأمير ! إن أهل افريقية لا يصافونك وهم أرعب قلوب من ذلك ، ولكن اجعل لهم كميناً أن لا يفلت منهم أحد فإنهم قوم يهربون في وقت الحرب ؛ قال : فعندها كمن عليهم عبد الله بن سعد الكمناء ففرقها في الأودية والأماكن ، ثم دنا القوم في تعبية حسنة وجيش لجب وهم ثلاثة وعشرون ألفاً أو يزيدون ، ودنا أهل افريقية من المسلمين في ستين ألفاً أو يزيدون[3] وقد رفعوا الصلبان وعليهم من السلاح ما الله عزَّ وجلّ به عليم . قال : وجالت الخيل بعضها على بعض فاقتتلوا ساعة من النهار حتى إذا صارت الشمس في السماء قدر رمحين أو

---

(١) زيد عند ابن الأثير : وكان يحمل إلى هرقل الخراج كل سنة .

(٢) مرت الإشارة إليه .

(٣) ابن الأثير ٢/٢٣٥ مائة ألف وعشرين ألف فارس . وفي تاريخ خليفة ص ١٥٩ : مائتي ألف . وفي البداية والنهاية ٧/١٧١ وتاريخ الذهبي ٢/٧٩ كان المسلمون في ٢٠ ألفاً ، وجرجير في مائتي ألف وقيل مائة وعشرين ألفاً .

أكثر من ذلك صاح عبد الله بن سعد بالمسلمين ثم حمل وحملوا معه ، فولى أهل افريقية منهزمين فخرجت عليهم الكمناء فقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم بشر كثير[1] .

ومضى ملكهم جرجين منهزماً حتى لحق أقاصي بلاد افريقية ، ثم إنه بعث إلى عبد الله بن سعد يسأله الصلح ، فأجابه عبد الله بن سعد إلى ذلك وصالحه على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار[2] على أنه يكف عنه ويخرج عن بلده ؛ فأخذ عبد الله بن سعد منه هذا المال ، فأخرج منه الخمس ليوجه به إلى عثمان ، وقسم باقي ذلك في المسلمين .

قال : وبلغ ذلك ملك الروم فأرسل إلى جرجين[3] أنك أعطيت العرب ما أعطيتهم فانظر ذلك فابعث إليّ مثله وإلا بعثت إليك من يستأصلك عن حديد الأرض ، قال : فأرسل جرجين[3] إلى رؤساء بلده فدعاهم ثم قال : إن الملك الأعظم أمرني أن آخذ منكم من المال ما أخذه عبد الله بن سعد ، فهاتوا ما الذي عندكم من الرأي ! قال : فقالوا : أما الذي كان عندنا من المال فقد أفدينا به أنفسنا من العرب ، والآن فليس عندنا من المال نعطي الملك ، فإن تركنا نكون في بلادنا ونؤدي إليه الخراج الذي كنا نؤديه إليه قبل اليوم ، وإلا دخلنا في دين العرب وكنا مع العرب عليه ؛ قال : فلما سمع جرجين[3] ذلك قال لهم : لا تعجلوا حتى أكتب إليه وأخبره بمقالتكم . قال : ثم كتب جرجين إلى ملك الروم وخبره بمقالة أهل افريقية ، قال : فأمسك عنهم ملك الروم وتجافى عن أموالهم .

قال : ورجع عبد الله بن سعد بالمسلمين إلى أرض مصر[4] وكتب إلى عثمان

---

(١) وكان ذلك في مكان قرب سبيطلة ، وكانت هذه المدينة هي دار الملك في ذلك الوقت . وهي على سبعين ميلاً من القيروان .

(٢) الطبري ٥/٥٠ فتوح البلدان ص ٢٢٩ (سقط العشرين ألف دينار) ، تاريخ اليعقوبي ٢/١٦٥ .
وفي البداية والنهاية ٧/١٧١ ومعجم البلدان ، وتاريخ خليفة ص ١٥٩ والكامل لابن الأثير ٢/٢٣٧ أن جرجير قتل ، وأن الصلح تم مع أهل تلك البلاد .
وفي رواية فتوح البلدان أن عبد الله بن الزبير هو الذي قتله .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) وكان مقامه بإفريقيا سنة وثلاثة أشهر (ابن الأثير ٢/٢٣٧) .

يخبره بفتح افريقية وسلامة المسلمين[١] ، ووجه إليه بالخمس من أموال افريقية ، فقسمه عثمان في أهل المدينة وحمد الله عزَّ وجلَّ على ذلك ، فله الحمد على ذلك دائماً والشكر وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر فتح جزيرة سقلية[٢] على يدي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

قال : ثم تهيأ المسلمون لغزو سقلية وكانت عظيمة الشأن ، قال : وإنما كان ملك الروم في ثلاثة مواضع من الأرض في سقلية ورومية وقسطنطينية ، قال : وكان ملك قسطنطينية في قديم الدهر إلى يومنا هذا يلبس خفين أحمرين ، ويأذن لصاحب سقلية في أن يلبس فرداً أحمر وفرداً أصفر ؛ ويأذن لصاحب رومية أن يلبس فرداً أحمر وفرداً أخضر ، ويأذن لسائر البطارقة أن يلبسوا أخفافاً سوداً . قال : وكانت جزيرة سقلية هذه جزيرة واسعة خصيبة مسيرة ثلاثة أيام في مثل ذلك ، فيها عيون غدقة وزروع وأشجار وخير كثير ؛ فعزم معاوية على غزوها وكتب إلى عثمان في ذلك قال : وبلغ أهل افريقية فبعثوا إلى أهل سقلية بأن العرب قد أجمعوا على حربكم فكونوا من ذلك على حذر .

قال : واتصل هذا الخبر بصاحب سقلية فغضب لذلك وقال : وطمعت العرب في غزونا لعلهم يظنون أننا كأهل افريقية ، ولا يرضى العرب منا أن نمسك عنهم ولا نغزوهم . قال : وخطف المسلمون من ساحل البحر في ثلاثمائة مركب فلم يشعر أهل سقلية إلا ومراكب المسلمين قد طلعت عليهم ، فنظروا إليها . قال : وبلغ ذلك ملك سقلية ، فأشرف من قصره ومعه جماعة من بطارقته ، فنظر إلى مراكب المسلمين قد أقبلت وعليها الرايات والمطارف والأعلام ، وفيها الرجال بالسلاح الشاك الذي لم ير مثله ، قال : فنظر ملك سقلية إلى مراكب كثيرة وإلى سلاح شاك لم يكن يظن أنه يكون عند العرب مثله .

قال : وكان صاحب قيسارية لما هرب من أيدي المسلمين صار إلى صاحب

(١) أرسل عبد الله بن الزبير بالبشارة إلى عثمان ، فقدم المدينة في عشرين ليلة . (تاريخ اليعقوبي ١٦٦/٢) .

(٢) كذا وردت بالأصل في كل مواضع الخبر ، مرت الإشارة إلى ورودها في المصادر ومعجم البلدان «صقلية» :

سقلية وكان عنده في ناحية ، فكان يحدث صاحب سقلية عن العرب وما فتحت من أرض الشام ومن مدنها وسواحلها . فلما كان ذلك اليوم ، التفت صاحب سقلية إلى صاحب قيسارية فقال له : إن هؤلاء أكثر من أولئك الذين كانوا بأرض الشام ؟ فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! كانوا أكثر من هؤلاء ، وكانوا أيضاً قوماً صالحين أصحاب نيات وبصائر ، يقاتلون على نية ودين وحسن يقين ، وهؤلاء أظن أنهم يريدون الدنيا ، فلو أن الملك أعطاهم شيئاً يدفع به عن بلده لكان ذلك عندي له الرأي ؛ قال : فغضب ملك سقلية من ذلك ثم قال له : أنت رجل مرعوب لأنك قد رأيت منهم بقيسارية ما قد رأيت من ظهورهم على بر الشام وبحرها ، وإن في سقلية اليوم من الرجال الذين يحملون السلاح مثل ما في الشام في برها وبحرها ومثل ما في أرض مصر، وإني لأعرضهم على مائة غارض فيمكثون سنة يعترضون ، قال : فقال له صاحب قيسارية : صدقت أيها الملك ! ولذلك فارقت ملك الروم لما مضى إلى القسطنطينية وصرت إليك لما أعلم من حزمك وعزمك وكثرة خيلك ورجلك ، وإن سقلية عندي أيها الملك لتقاس إلى رومية ، قال : فسرى عن صاحب سقلية وقال : صدقت أيها الملك هي كذلك ؛ قال : وإنما خدعه صاحب قيسارية بهذا الكلام لأن رومية في البر دون مدينتها أربعون ميلاً .

قال : وأرسى المسلمون مراكبهم إلى جزيرة سقلية ، قال : فأرسل إليهم ملكها أن ابعثوا إليّ منكم رجلاً له بيان حتى أكلمه بما أريد .

قال : فبعث المسلمون إليه برجل ومعه ترجمان يخبره بما يقول الروم فأقبل حتى وقف حذاءه وصاحب سقلية مشرف عليه ، فقال : ما أنتم ؟ فقال المسلم : من العرب الذين قد بلغت دعوتنا أطراف الأرض وأكناف الجبال وأقطار البحار ، لأن الله عزَّ وجلّ بعث إلينا رسولاً هو أفضلنا بيتاً وأصدقنا حديثاً وأكرمنا نفساً ، فدعانا إلى الله عزَّ وجلّ ، فأجبنا رسول الله وآمنا به وصدقناه ، واتبعه منا من اتبعه وأبى منا من أبى ، فقاتل من أبى عليه بالذين اتبعوه حتى أظهره الله عزَّ وجلّ على العرب قاطبة إما راغب فيما دعاه إليه وإما راهب من فرق السيف ، ولقد أقر له هرقل ملك الروم من قبل اليوم بالنبوة وشهد له بالرسالة ولم ينكر له ذلك ، ولقد خبرنا نبينا محمد ﷺ من قبل وفاته بأن الله تعالى يفتح علينا ويظهرنا على جميع الأديان ، وقد بلغك ما كان منا بأرض الشام لما قتلنا أهلها وسبيناهم حتى لم يلتق منهم اثنان في موضع واحد ، ونحن على ما نحن عليه من الضعف وقلة المال والسلاح والكراع حتى هرب منا هرقل إلى

قسطنطينية خائفاً مرعوباً ، فلم يزل كذلك حتى مات بحسرتنا ، ثم قام من بعده قسطنطين ، فقد بلغك ما نزل به منا وإنا قتلنا أصحابه في البحر وأخذته الرماح وأثخنته الجراحات ، حتى صار إليكم وشمتم به ؛ فهذه قصتنا وهذه حالتنا ، فلم تسألنا عن أمرنا كأنك لا تعرفنا أو كأنك جاهل بما لقيتم منا . قال : فتبسم صاحب سقلية ثم قال : صدقت ، نحن قتلناه ، لأنه خرج بالروم في أيام ريح عاصفة فأهلكهم في البحر ، ثم نجا وصار إلينا ، فلم نحب أن يرجع إلى أهله سالماً حتى توتم أهله منه وولده كما أيتم الروم ؛ قال : ثم التفت صاحب سقلية إلى صاحب قيسارية فقال : ما يخفى على العرب شيء من أمرنا ؟ فقال : نعم أيها الملك ، وكذلك لا يخفى علينا شيء من أمورهم . قال : ثم أقبل صاحب سقلية على المسلم فقال : خبرني الآن عنكم لماذا قصدتمونا في مثل هذا البحر ؟ فقال له المسلم : قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام وتأمنوا على دياركم وأموالكم ، ونولي عليكم رجلاً منكم تقيمون الصلوات الخمس وتصومون شهر رمضان وتحجون البيت الحرام وتؤخذ الصدقة من أغنيائكم فتردّ على فقرائكم ، فإن أبيتم الدخول في ديننا فاقبلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا وقروا في دياركم آمنين ، فإن أبيتم ما عرضناه عليكم فقد أنذرناكم وأعذرنا إليكم ، فاعلموا أن ما بيننا وبينكم إلا السيف ، فإن قتلنا كنا على بيّنة من ربنا ، إنا في الجنة وأنتم في النار وأظفرنا بكم ، فذاك ما وعدنا نبينا محمد ﷺ . قال : فقال صاحب سقلية لترجمانه : قل له الآن عني إنك تكلّمت وقلت ما أردت فذرنا حتى نتكلم بما نريد ، فقال المسلم : قل ما تشاء ، فقال : قل له عني : إنكم قد اغتررتم بأنفسكم بغزوكم إيانا في مثل هذا البحر وظننتم أن سقلية إنما هي كمدائن الروم التي افتتحتموها من قبل ، وليس الأمر كما تقولون ولا كما ظننتم ، إن سقلية أمنع من ذلك ، وأنتم قد ندمتم على مسيركم إلينا عندما رأيتم من جمعنا وعددنا وكثرة سلاحنا ، فلو أنكم أردتم أن ترجعوا إلى بلادكم لم تقدروا على ذلك ، لأنكم قد لججتم في هذا البحر حتى وصلتم إلينا ، ولسنا نحب أن تعتادوا هذه العادة علينا في قلتكم وكثرتنا ، لأنه لم يطمع أحد من أعدائنا في هذا منا ولم يغزنا قط أحد من قبلكم إلا ذلّ وخضع ، وإنا لنغزو جميع أهل الأديان في ديارهم فنسبيهم ونذلهم ونأتي بهم إلى جزيرتنا هذه أسارى أذلة صاغرين ؛ وأما ما عرضتموه علينا من اتباع دينكم فهذا ما لا يكون ولست أفارق ديني أبداً ؛ وأما ما سألتموه من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا مني بالمساكتة والمسالمة أن لا أغزو في بلادكم . فلما فرغ

صاحب سقلية من كلامه أقبل المسلم على الترجمان فقال : قل له عني : إني أراك قد بغيت في كلامك ، والبغي منقصة وشؤم ومصرعة وحتم ، ونحن نرجو أن يدال عليكم ببغيكم ، ونحن قوم لا نرى القتل سبّة ولا الموت عاراً ، والقتل إلينا أحب إلينا من الخمر إليكم .

قال : فبينا المسلم يكلّم صاحب سقلية بهذا الكلام ونحوه وإذا بطريق منهم قد أشرف من جدار القصر وقال : أيها العربي ! قد أكثرت علينا من كلامك ولكن من يبارزني منكم ؟ فقال له المسلم : يبارزك أدنانا رجلاً وأضعفه في نفسه ؛ قال : فغضب البطريق من ذلك وقال : يا كلاب ! وفيكم من يبارزني ! ثم إنه بادر ونزل ، فخرج من باب القصر وفي يده سيف له مشطّب ودرقة مذهبة ، وعليه قباء حرير ويلمق ديباج ؛ قال : فبرز إليه رجل من أهل افريقية واختلفا بضربتين ، ضربه الأفريقي ضربة على أم رأسه فسقط البطريق قتيلاً ، ثم وقف عليه الافريقي فجعل يسلبه وصاحب سقلية مع بطارقته ينظرون إليه ؛ ثم وقف الافريقي ونادى بأعلى صوته : من يبارزني ؟ قال صاحب سقلية : من هذا منكم ؟ فقال له المسلم : هذا رجل من أهل افريقية وقد كان من خدمكم ، فمنّ الله عزَّ وجلّ عليه بالإسلام فأسلم ، وقد رأيت ما فعل بصاحبكم ، فكيف لو برز إليه رجل من حزبنا .

قال : فنزل صاحب سقلية من قصره مغموماً ، وخرج المسلمون من المراكب فأغاروا على أطراف سقلية ، فسبوا وغنموا ، ثم أخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمياً متداركاً ، ورزق الله عزَّ وجلّ المسلمين من اعتدال حجارة مجانيقهم وقصدها لحصون الكفار وقصورهم شيئاً عجيباً ؛ قال : ورمت الروم بالعرّادات فلم يكن لعرّاداتهم نكاية . قال : وقهرهم المسلمون حتى أحجزوهم في دورهم وقصورهم .

قال : فعندها خرج صاحب سقلية من قصره ، واجتمع إليه أهل مملكته بأجمعهم فطعطعوا ونفخوا في البوقات ، وأظهروا ما قدروا عليه من آلة السلاح ، قال : وصفّ المسلمون صفوفهم وأظهروا سلاحهم ، واقتحمت الروم على ميسرة المسلمين وكشفوهم وثبتت الميمنة والقلب ، فقاتلوهم ساعة ثم رجعت ميسرة المسلمين إلى موضعها ، ودامت الحرب بينهم يومهم ذلك ، فقتل من الفريقين جماعة ؛ ثم افترقوا وذلك وقت المساء ، حتى إذا مضى من الليل بعضه أغار المسلمون على قراهم

وحصـونهم ، فسبوا سبيـاً كثيراً وغنمـوا من الغنائم مـا ملأت أيـديهم ، ثم رجعوا مراكبهم .

قال : وبلغ ذلك صاحب سقلية فاغتم لذلك غماً شديداً ثم أرسل إلى مقاتلته فدعاهم إليه وقال : ما بالكم لا تغيرون عليهم كما يغيرون عليكم ؟ سوءاً لكم ! لقد خشيت أن تؤخذ سقلية منكم كما أخذت الشام من قبل ، قال : فسكتت الروم ولم يقولوا شيئاً ؛ فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! إنني أشير عليك أن تكتب إلى الملك الأكبر وتسأله المدد ، فقال : لا فعلت ذلك أبداً ولو أخذت سقلية من يدي . قال : فلم يزل المسلمون في المحاربة حتى ملأوا أيديهم من الغنائم وقتلوا منهم بشراً كثيراً .

قال : وبلغ ذلك ملك الروم فجهز إلى سقليـة ستمائـة مركب فيهـا المقاتلة والسلاح ، قال : واتصل الخبر بالمسلمين قبل أن يتصل بأهـل سقلية ، فـرأوا من الرأي أن يرحلوا ، فقال لهم أميرهم : ليس الرأي أن ترحلوا نهاراً ، فإنا لا ندري ما يكون من الحدثان ولكن أخروا هذا إلى الليل ، فقالوا : ذاك أيها الأمير ! قال : فلما كان الليل وهدأت العيون قعد المسلمون في مراكبهم وخطفوا من ساحـل سقلية ، وهبت الريح ورفعوا الشراع وسارت المراكب على تؤدة بغير هول ، ولا فزع حتى أصبحوا على بلد بعيد من سقلية ، ثم ساروا حتى صاروا إلى ساحل الشام ، فخرج المسلمون من المراكب فأرسوها ثم أخرجـوا تلك الغنائم وذلـك السبي ؛ فأخـرج معاوية من ذلك كله الخمس ووجه به إلى عثمان ، وكتب إليه يخبره بسلامة المسلمين وما كان من أمر سقلية ؛ قال : فسرّ عثمان بذلك وقسم الخمس على أهل المدينة ، وقسم معاوية ما بقي من بعد الخمس في المسلمين . قال : ولم يكن للمسلمين غزوة في البحر في زمن عثمان بن عفان بعد سقلية إلا غزوة أرواد .

ذكر فتح جزيرة أرواد

وذلك أن المسلمين أسروا من الروم رجلاً في بعض السواحل ، فقالوا : من أين أنت ؟ فقال : من أرواد[1] ، فأتوا به إلى معاوية ، فجعل معاوية يسأله عن أرواد ويستخبره عن موضعها من البحر ، فقال له الرومي : نعم أيها الأمير ! إنها جزيرة

(١) أرواد : اسم جزيرة في البحر قرب قسطنطينية .

عظيمة ومن حالها وحال أهلها كذا وكذا . قال : فدعا معاوية برجل من أبطال أهل الشام يقال له جنادة بن أبي أمية ، فضم إليه أربعة آلاف رجل وأمره أن يغزو أرواد[1] .

قال : فخرج جنادة حتى صار إلى الساحل ، ثم حمل أصحابه في المراكب وهي عشرون مركباً ومعهم ذلك الرجل الرومي يدلهم على الجزيرة حتى أنهم إذا فتحوها يردون عليه أهله وماله وولده . قال : فسارت المراكب حتى إذا قاربت الجزيرة أمرهم الدليل بأن يرسوا في البحر على وجه الماء ، ففعلوا ذلك حتى إذا أظلم الليل أمرهم الدليل بالمسير ، فساروا حتى وافوا الجزيرة وأهلها غافلون ، فأرسى المسلمون بمراكبهم على ساحل الجزيرة ، ثم خرجوا منها بالسلاح ، وأصبح المسلمون في الجزيرة ، ففتحوا باب حصنهم وخرجوا ، وكبس المسلمون فما كانوا إلا بمنزلة غنم تذبح ، فقتل من مقاتلتهم من قتل واتقى الباقون منهم في البيوت كأنهم النساء ، فأقرهم جنادة بن أبي أمية في حصنهم ذلك على صلح بمال أخذه منهم والجزية جعلها عليهم ، وأخذ من غنائمهم ما أخذ ، وخطف حتى صار إلى ساحل الشام سالماً غانماً ، وأتى بالغنائم إلى معاوية ، فأخرج منها معاوية الخمس فوجه به إلى عثمان ، وما بقي من ذلك قسمه في المسلمين .

وهذا ما كان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه . قال : وفي تلك السنة قتل عثمان بن عفان رحمة الله عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) وكان ذلك سنة ٥٤ في خلافة معاوية الطبري ١٦٤/٦ ابن الأثير ٥٠٤/٢ معجم البلدان (أرواد) فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد[1] عن الشعبي[2] وأبي محصن عن أبي وائل[3] ، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق ، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال : حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال : وحدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد[4] بن أبي حبيب عن الزهري ، قال : وحدثني إسحاق بن يوسف الفزاري قال : حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال : حدثني لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عبيدة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال : وحدثني عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سراً وعلانية ، وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثاً واحداً على نسق واحد ؛ وكلّ يذكر أنه لما صار الأمر إلى عثمان بن عفان

---

(١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي مترجم في الثقات ٤١٩/٥ التهذيب ٤٢/١٠ حلية الأولياء ٢٧٩/٣ البداية والنهاية ٢٢٤/٩ شذرات الذهب ١٢٥/١ .

(٢) هو عامر بن شراحيل الشعبي ترجم له في التهذيب ٦٥/٥ ثقات العجلي ص ٢٤٣ .

(٣) هو شقيق بن سلمة الأسدي ، أبو وائل الكوفي أدرك النبي (ص) مات بعد الجماجم سنة ٨٢ (تهذيب ٣٦١/٤) .

(٤) عن تقريب التهذيب ، وبالأصل : زيد .

واجتمع إليه الناس أرسل إلى عمال عمر بن الخطاب فأقرهم على أعمالهم التي هم عليها مدة يسيرة من ولايته ، ثم إنه بعث إليهم فعزلهم عن الأعمال وجعل يقدّم أهل بيته وبني عمه من بني أمية فولاهم الولايات ، فولى عبد الله بن عـامر بن كـريز[١] البصرة ، وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط الكوفة[٢] ، وأثبت معاوية بن أبي سفيان على الشام ، وعمرو بن العاص على فلسطين ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر[٣] ؛ ثم فتح الفتوح ودرّت عليه الأموال من سجستان وخراسان وفارس وكرمان ومصر والشام والجزيرة والعراق ، ودرّت عليه حلب والبلاد ، وهو مع ذلك يسير بسيرة مرضية ، ولا يرى المسلمون منه إلا ما يحبون .

قال : ثم كثر المال عليه ، فكان كل ما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويزيدهم في العطايا ، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم[٤] .

قال : ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فوصله

---

(١) وهو ابن خال عثمان ، فأم عثمان هي أروى بنت كريز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس (تاريخ خليفة ص ١٥٦) .

(٢) وهو أخو عثمان بن عفان لأمه أروى (الإصابة) .

(٣) وهو أخو عثمان من الرضاعة وكانت أمه أشعرية . أجاره عثمان بعد أن أمر النبي (ص) بقتله يوم الفتح (الإصابة) .

(٤) بهامش الأصل : « من مروج الذهب للمسعودي : ذكر عبد الله بن عتبة أن عثمان رضي الله عنه كان يوم قتل في خزانته من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلاً وخيلاً كثيراً ؛ وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور منهم الزبير بن العوام ، بني داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم وابتنى أيضاً دوراً بالكوفة ومصر والإسكندرية وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية ، وبلغ ثمن روحاته بعد وفاة الزبير خمسين ألف دينار وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد و[ألف] أمة ؛ وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به في هذا الوقت بدار الطلحتين وكانت غلته من العراق في كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية سراة أكثر مما ذكرنا وشيد داراً بالمدينة فبناها بالجص والآجر والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري وكان على مربطه ألف فرس ومن الإبل ألف بعير وغير ذلك . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . ومات يعلى بن منية وخلف خمسمائة ألف دينار وعقارات وغير ذلك بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار » . راجع مروج الذهب المطبوع بالمطبعة البهية المصرية ج ١ ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

بثلاثمائة ألف درهم ، ثم بعث إلى الحكم بن أبي العاص فرده إلى المدينة وهو طريد[1] رسول الله ﷺ ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين وجعل له خمس إفريقية[2] ، وجعل [من بني] أمية الحارث بن الحكم على سوق المدينة ووصل ابنه بمال جليل .

قال : فكبر ذلك على أصحاب النبي ﷺ وكرهوا ذلك من فعله ، ثم إنهم دخلوا على عبد الرحمن بن عوف فشكوا إليه أمر عثمان وقالوا : يا بن عوف ! هذا من فعالك بنا ولسنا نلزم هذه الإمامة أحداً سواك ، فقال عبد الرحمن : يا هؤلاء ! إني كنت أخذت لكم بالوثيقة ولم أعلم بما يكون ، والآن فالأمر إليكم .

فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : فهكذا تحب أن يكون ؟ فقال : يا أبا الحسن ! إنه لم يكن عندي علم هذا والآن فخذ سيفك وآخذ سيفي . قال : وبلغ الخبر إلى عثمان أن عبد الرحمن بن عوف قد قال كذا وكذا ، فقال عثمان : عبد الرحمن رجل منافق لا يبالي بما قال ويهون عليه أن يشيط بدمي . وبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فغضب ، قال : ما كنت أظن [أن] أعيش إلى دهر يقول لي عثمان [إني] منافق ، ثم حلف عبد الرحمن أنه لا يكلمه أبداً ما بقي[3] .

قال : والناس تكلموا في عثمان وقالوا فيه بعض القول وبلغه ذلك ، فنادى في الناس : الصلاة جامعة ! فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها يزدكم واعرفوا حقه ، فإنكم أقوام مسلمون ، وبين أظهركم كتاب الله فيه كل شيء ، وقد علمتم الذي أمركم الله به من الطاعة لولاة الأمر منكم ، فاتقوا الله ربكم ، واعلموا أن حق الخلافة عظيم ، فأمرها فوق ما تظنون ، وإنما جعل الله تبارك وتعالى السلطان في الأرض ليكون حاجزاً بين قويهم وضعيفهم يلجؤون إليه في أمورهم وسنتهم وأحكامهم ، وفيكم من قد أدرك

---

(١) قال في الاستيعاب : اختلف في السبب الموجب لنفيه فقيل كان يتحيل ويستخفي ويستمع ما يسره النبي (ص) إلى كبار أصحابه في مشركي قريش وسائر الكفار . والمنافقين فكان يفشي ذلك عنه . وكان يحكيه في مشيته وبعض حركاته .

(٢) وقيل إنه أعطاه مروان بن الحكم ، الذي اشتراه بخمسمائة ألف دينار فوضعها عند عثمان ، قال ابن الأثير : وكان هذا مما أخذ عليه (الكامل ٢/٢٣٧) .

(٣) قارن مع العقد الفريد ٤/٣٠٥ .

النبي ﷺ وسمع كلامه ورأى سنته مع ما قد بين الله تبارك وتعالى لكم في هذا الكتاب الناطق وأخذ عليكم الحجة ووعدكم من نفسه كل خير إن شكرتم من ثواب الله وحسن ثواب الآخرة ، وقد رأيتم مساكن الأعاجم وغيرهم وسلطانهم وقد كانوا والله أشد منكم قوة وأكثر جمعاً وأوسع بلداً وأرغد عيشاً ؛ فلما تركوا ما أمروا به وشرهت أنفسهم إلى ما قد علمتم من الفساد في الأرض واختاروا دنياهم على أخراهم انتزع الله تبارك وتعالى ما كان في أيديهم فجعله لكم وفي أيديكم لينظر كيف تعملون ! وبعد فقد رأيتم أثر نعمة الله عليكم والذي آتاكم من الخير على عهد نبيكم محمداً ﷺ والخليفتين من بعده ، وأنا اليوم محقوق بهذا الأمر وقد ولّاني الله تبارك وتعالى خلافة من مضى من قبلي وقد تقلدت أمراً عظيماً وخطراً جسيماً لا يعين عليه إلا الذي قلدني إياه وقدره لي ، والأمين مؤتمن وكل أمير مسؤول عن رعيته ؛ وقد بلغني أن قوماً منكم يقولون : لو أن أمير المؤمنين فرق هذا المال في المقاتلة والذرية الذين في الأمصار لكان ذلك أعود عليه وعلينا وأقرب له إلى الله عزّ وجلّ ، وقد قبلت ذلك منكم وأنا باعث إلى كل مصر أن تقسم أمواله بين أهله بالسوية إن شاء الله تعالى ، فإن فضل منا شيء صرفناه في نوائبنا التي تنزل بنا ونجعله في ضعفاء العرب ومساكينهم وأيتامهم وأراملهم إن شاء الله تعالى ، وأنا جالس لكم في كل وقت أنظر في أموركم ، وليس لي حجاب ولا بواب ولا باب يغلق من دونكم ، والسلام .

قال : فلما سمع المسلمون ذلك الكلام من عثمان دعوا له بالبركة والصلاح وأثنوا عليه وانصرفوا إلى منازلهم شاكرين لما كان من كلامه . قال : وأقام عثمان بعد ذلك في خلافته بالسياسة الحسنة والعدل في الرعية والرحمة للضعفاء والمساكين والشفقة على جماعة المسلمين .

قال : فلم يزل عثمان كذلك حتى مضت له سنة من السنين كانت فيها أمور كثيرة من أمور عثمان كلها كانت عندهم مكروهة ، فعاتبه المسلمون عليها ، فلم يعينهم ولم ينزع عنها . قال : واجتمع نفر من أصحاب النبي ﷺ ثم إنهم كتبوا كتاباً وذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان منذ يوم ولي الخلافة إلى ذلك اليوم(1) ، ثم إنهم خوفوه في الكتاب وأعلموه [أنه ـ] إن لم ينزع عما هو عليه خلعوه واستبدلوا به

(1) انظر فيما نقم الناس على عثمان العقد الفريد ٣٠٥/٤ البداية والنهاية ١٩٠/٧ تاريخ اليعقوبي ١٧٣/٢ ـ ١٧٤ الطبري ٩٢/٥ .

غيره . قال : فكتبوا هذا الكتاب ثم قالوا ننطلق به جميعاً حتى نضعه في يده ، فإننا إن ذهبنا نكلمه وليس معنا كتاب لم يحضرنا من الكلام ما نريد ؛ ثم أقبلوا على عمار بن ياسر وقالوا له : يا أبا اليقظان ! هل لك أن تكفينا هذا الأمر وتنطلق بالكتاب إلى عثمان ؟ فقال عمار : أفعله ، ثم أخذ الكتاب وانطلق إلى عثمان ، فإذا عثمان وقد لبس ثيابه وخفيه في رجليه ، فلما خرج من باب منزله نظر إلى عمار واقفاً والكتاب في يده فقال له : حاجة يا أبا اليقظان ؟ فقال عمار : ما لي حاجة ولكنا اجتمعنا فكتبنا كتاباً نذكر فيه أموراً من أمورك لا نرضاها لك ، قال : ثم دفع إليه الكتاب فأخذه عثمان فنظر فيه حتى قرأ سطراً منه ، ثم غضب ورمى به من يده ، فقال له عمار : لا ترم بالكتاب وانظر فيه حسناً فإنه كتاب أصحاب رسول الله ﷺ وأنا والله ناصح لك ! فقال له عثمان : كذبت يابن سمية ! فقال عمار : أنا والله ناصح لك ! فقال عثمان : كذبت يابن سمية ! فقال عمار : أنا والله ابن سمية وابن ياسر . قال : فأمر عثمان غلمانه ، فضربوه ضرباً شديداً حتى وقع لجنبه ، ثم تقدم إليه عثمان فوطىء بطنه ومذاكيره ، حتى غشي عليه وأصابه الفتق ، فسقط لما به لا يعقل من أمر شيئاً .

قال : واتصل الخبر ببني مخزوم ، فأقبل هشام بن الوليد بن المغيرة في نفر من بني مخزوم فاحتملوا عماراً من موضعه ذلك وجعلوا يقولون : والله لئن مات الآن لنقتلن به شيخاً عظيماً من بني أمية ؛ ثم انطلقوا بعمار إلى منزله مغشياً عليه ، فلم يصلّ ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً ولا عشاء حتى ذهب بعض الليل ، ثم أفاق بعد ذلك من غشيته فقام فقضى ما فاته من صلواته كلها(٢) .

قال : فكان هذا من إحداثه الذي نقموا عليه .

قال : فبلغ ذلك أبا ذر وكان مقيماً بالشام فجعل يظهر عيب عثمان هناك ويذكر منه خصالاً قبيحة(٣) ، فكتب معاوية بن أبي سفيان بذلك إلى عثمان(٤) : بسم الله

---

(١) الخبر العقد الفريد ٣٠٧/٤ باختصار ، وأشار المسعودي في مروج الذهب ٣٧٤/٢ إلى ما ناله عمار .

(٢) في العقد الفريد : ثم ندم عثمان وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له : اختر إحدى ثلاث : إما أن تعفو ، وإما أن تأخذ الإرش ، وإما أن تقتص . فقال : والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله .

(٣) خبر أبي ذر في الطبري ٦٦/٥ ابن الأثير ٢٥١/٢ تاريخ اليعقوبي ١٧٢/٢ وكان عثمان قد سيره إلى الشام إلى معاوية بعدما بلغه أن يطعن عليه في مسجد رسول الله (ص) أمام الناس . (مروج الذهب ٣٧٥/٢ وتاريخ اليعقوبي ١٧١/٢) .

(٤) مروج الذهب واليعقوبي والطبري باختصار .

الرحمن الرحيم ، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن صخر ، أما بعد ! فإني أخبرك يا أمير المؤمنين بأن أبا ذر قد أفسد عليك الشام وذلك أنه يظهر لأبي بكر وعمر بكل جميل ، فإذا ذكرك أظهر عيبك وقال فيك القبيح ، وإني أكره أن يكون مثله بالشام أو بمصر أو بالعراق ، لأنهم قوم سراع إلى الفتن وأحب الأمور إليهم الشبهات وليسوا بأهل طاعة ولا جماعة ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه عثمان : أما بعد ! فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر أبي ذر جندب بن جنادة ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فابعث به إليّ واحمله على أغلظ المراكب وأوعرها ، وابعث معه دليلاً يسير به الليل مع النهار حتى يغلبه النوم فينسيه ذكري وذكرك ـ والسلام ـ .

قال : فلما ورد كتاب عثمان على معاوية دعا بأبي ذر فحمله على شارف من الإبل بغير وطاء وبعث معه دليلاً[1] عنيفاً يعنف عليه حتى يقدم المدينة .

قال : فقدم بأبي ذر المدينة وقد سقط لحم فخذيه[2] ، وكان أبو ذر رحمه الله رجلاً آدم طويلاً ضعيفاً نحيفاً شيخاً أبيض الرأس واللحية ؛ فلما أدخل على عثمان ونظر إليه قال : لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب ! فقال أبو ذر : أنا جندب بن جنادة وسماني النبي ﷺ عبد الله ؛ فقال عثمان : أنت الذي تزعم بأننا نقول أن يد الله مغلولة وأن الله فقير ونحن أغنياء ؟ فقال أبو ذر : أو كنتم لا تقولون ذلك لأنفقتم مال الله على عباده المؤمنين ؟ إني لم أقل ذلك ولكني أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : « إذا بلغ بنو أمية العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً ، وعباد الله خولاً ، ودين الله دخلاً ، ثم يريح الله العباد منهم »[3] ؛ فقال عثمان لمن بحضرته من المسلمين : أسمعتم هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ما سمعناه ، فقال عثمان : ويلك يا جندب ! أتكذب على رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو ذر لمن حضر : أتظنون أني كذبت ولم أصدق في هذا الحديث ! فقال عثمان : ادعوا لي علي بن أبي طالب ، فدعي له ، فلما جلس قال عثمان لأبي ذر : اقصص عليه حديثك في بني

---

(١) في مروج الذهب : معه خمسة من الصقالبة يطيرون به .

(٢) مروج الذهب : تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف .

(٣) نقله ابن كثير ٦/٢٤٢ عن البيهقي ، وهو في دلائل النبوة للبيهقي ٦/٥٠٧ ـ ٥٠٨ عن أبي هريرة ومسند أحمد ٣/٨٠ وفيه : بنو أبي فلان .

أبي العاص ، قال : فأعاد الحديث أبو ذر ، فقال عثمان : يا أبا الحسن ! هل سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال علي رضي الله عنه : لم أسمع هذا ولكن قد صدق أبو ذر ، فقال عثمان : وبماذا صدقته ؟ فقال علي : بحديث النبي ﷺ ، قال : « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أحداً أصدق لهجة من أبي ذر »[1] ؛ فقال جميع من حضر من أصحاب رسول الله ﷺ : صدق علي رضي الله عنه ، وقال أبو ذر : أحدثكم أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وتتهموني ، ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع هذا منكم . فقال عثمان : كذبت ، أنت رجل محب للفتنة ، فقال أبو ذر : اتبع سنة صاحبيك أبي بكر وعمر حتى لا يكون لأحد عليك كلام ، فقال عثمان : ما أنت وذاك لا أم لك ؟ فقال أبو ذر : والله ما أعرف لي إليك ذنباً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : فاشتد غضب عثمان ثم قال : أشيروا عليّ في أمر هذا الشيخ الكذاب فقد فرق جماعة المسلمين ! فقال علي رضي الله عنه : أما أنا فأشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون : **﴿فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾**[2] ؛ فقال عثمان : التراب بفيك يا علي ! فقال علي : بل بفيك يا عثمان ! أتصنع هذا بأبي ذر وهو حبيب رسول الله ﷺ في كتاب كتبه إليك معاوية من قد عرفت رفقه وظلمه ؟ قال : فأمسك عثمان عن علي ، ثم أقبل على أبي ذر فقال : اخرج عنا من بلدنا ! فقال أبو ذر : ما أبغض إليّ جوارك ولكن إلى أين أخرج ؟ فقال عثمان : إلى حيث شئت ، فقال : أرجع إلى الشام فإنها أرض الجهاد ، فقال عثمان : إني إنما جئت بك من الشام لما تفسد بها عليّ ولا أحب أن أردك إليها ، قال أبو ذر : فأخرج إلى العراق ، قال عثمان : لا ، لأنهم قوم أهل شبهة وطعن على الأئمة ، فقال أبو ذر : فإني حيث كنت فلا بد لي من قول الحق ، فإلى أين تحب أن أخرج ؟ فقال عثمان : إلى بلد هو أبغض إليك ، قال : الربذة[3] ، قال : فاخرج إليها ولا تعدها .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/١٦٣ ، ١٧٥ ، ٢٢٣ وسنن ابن ماجه : المقدمة (١١) وتاريخ اليعقوبي ٢/١٧٢ البداية والنهاية ٧/١٨٥ .

(٢) سورة غافر : ٢٨ .

(٣) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة .

وفي رواية الطبري ٥/٦٦ وابن الأثير ٢/٢٥١ أن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة فأذن له ، فنزل الربذة . =

قال : ثم أمر مروان بن الحكم أن يخرج أبا ذر من المدينة على بعير بغير وطاء ؛ وتبعه جماعة من الناس يشيعونه ويحزنون لحزنه ، منهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين رضي الله عنهم وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وعيينة بن عباس[1] . قال : وتقدم علي رضي الله عنه إلى أبي ذر فجعل يعزيه فيما قد نزل به ويأمره بالصبر والاحتساب إلى وقت الفرج . قال : وتقدم مروان بن الحكم إلى علي رضي الله عنه فقال : أليس قد أمر أمير المؤمنين أن لا يخرج أحد مع هذا الشيخ ولا يشيعه أحد من الصحابة ؟ قال : فرفع علي رضي الله عنه قضيباً[2] كان في يده فضرب به بين أذني بعير مروان ، ثم قال : إليك عنا يابن الزرقاء ! أمثلك يعترض علينا في الذي نصنع .

قال : فرجع مروان إلى عثمان فأخبره بذلك ، ومضى أبو ذر حتى صار إلى الربذة ، ورجع علي رضي الله عنه ومن معه إلى المدينة ؛ فأرسل إليه عثمان فدعاه ، فقال : ألم آمر أن لا تشيع أبا ذر ؟ فلم شيعته أنت وغيرك ؟ فقال علي رضي الله عنه : ليس كل ما تأمر به أنت يجب أن نقبل وإن كان غير صواب ! فقال عثمان : هذا مروان يذكر أنك ضربت بين أذني بعيره وشتمته ، فأرضه من حقه ! فقال علي رضي الله عنه : هذا بعيري فليضرب بين أذنيه كما ضربت بين أذني بعيره ؛ وأما الشتيمة فوالله لئن شتمني مروان لا شتمته ، لأن مروان ليس لي بكفوء فأشاتمه . ثم وثب علي رضي الله عنه من عند عثمان مغضباً حتى صار إلى منزله[3] .

قال : ولم يزل أبو ذر مقيماً بالربذة يغشاه الصادر والوارد من الحاج وغيرهم فيعرضون عليه الحوائج فلا يقبل من أحد شيئاً إلى أن حضرته الوفاة .

ذكر وفاة أبي ذر بالربذة رضي الله عنه

قال : فلما حضرت أبا ذر الوفاة جعلت امرأته[4] أم ذر تبكي تحت رأسه فقال

= وفي مروج الذهب ٢/٣٧٦ واليعقوبي ٢/١٧٢ أن عثمان فرض عليه مغادرة المدينة إلى الربذة .

(١) في مروج الذهب واليعقوبي : عبد الله بن جعفر ، وفي مروج الذهب : عقيل أخو علي بن أبي طالب . ولم يرد ذكر المقداد فيهما .

(٢) عند المسعودي واليعقوبي : السوط .

(٣) انظر مقالة علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما في مروج الذهب ٢/٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

(٤) في تاريخ اليعقوبي ٣/١٧٣ ابنته . (الطبري ٥/٨٠) .

لها أبو ذر : ما يبكيك يا أم ذر ؟ قالت[1] : أبكي لضيعتك ههنا في أرض غربة وأنا امرأة ضعيفة غريبة وأخاف أن أعجز عن أمرك ، قال : لا تبكي يا أم ذر ! فإن رسول الله ﷺ خبرني أني أموت في أرض غربة ويلي أمري ودفني قوم صالحون ، ولكن انظري يا أم ذر إذا أنا مت فاستعيني بمن يذبح لك شاة من غنمي فاطبخيها والزمي قارعة الطريق ، فإذا مر بك نفر من أهل الإسلام فقولي لهم : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد قضى نحبه ولحق بربه فواروه رحمكم الله ! فانهم سيلون أمري ، فإذا فرغوا من أمري فأطعميهم الشاة ثم انصرفي إلى المدينة فكوني بها إلى أن يأتيك الموت كما أتاني .

قال : ثم توفي أبو ذرّ رحمه الله[2] ، فجلست امرأته عند رأسه مغمومة بأمره وقد اصطنعت الشاة كما أمرها أبو ذر ، فإذا هي برهط قد أقبلوا من بيت الله الحرام[3] ، منهم الأحنف بن قيس التميمي وصعصعة بن صوحان العبدي وخارجة بن الصلت التميمي وعبد الله بن مسلمة التميمي وبلال بن مالك المزني ، وجرير بن عبد الله البجلي ، والأسود بن يزيد بن قيس النخعي وعلقمة بن قيس بن يزيد النخعي ، وتاسع القوم الأشتر واسمه مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي . قال فنظروا إلى امرأة قاعدة على قارعة الطريق فظنوا أنها متعرضة لمعروفهم ، فلما دنوا منها وثبت قائمة وقالت : يا هؤلاء ! هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد قضى نحبه[4] ولحق بربه وقد عجزت عن أمره وما أدري ما أصنع . قال : فضجّ القوم بالبكاء والنحيب ثم قالوا : رحم الله أبا ذرّ وصلى على روحه ! ثم نزلوا عن رواحلهم وأخذوا في غسله ثم تنافسوا في كفنه حتى جعلوه من جماعتهم ، وأخرج بعضهم حنوطاً فحنطه ثم كفن ، وحفرت له حفيرة وصلوا عليه وألحدوه في حفرته .

فلما سوّوا عليه التراب قام الأشتر على قبره فحمد الله وأثنى عليه وذكر نبيه

---

(١) عند اليعقوبي : إني وحدي في هذا الموضع ، وأخاف أن تغلبني عليك السباع .

(٢) وذلك في سنة ٣٢ هـ . في ذي الحجة (البداية والنهاية) .

(٣) في البداية والنهاية ١٨٥/٧ إذ قدم عبد الله بن مسعود من العراق في جماعة من أصحابه . (الطبري ٨٠/٥ ـ ٨١ وفيه : ابن مسعود وكانوا ١٤ راكباً . وعند اليعقوبي : كانوا سبعة نفر فيهم حذيفة بن اليمان والأشتر وانظر الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦٥) .

(٤) في رواية أنهم حضروا موته (البداية والنهاية) .

محمداً صلوات الله عليه ، ثم قال : اللهم ! هذا أبو ذر جندب بن جنادة بن سكن الغفاري صاحب رسولك محمد ﷺ ، اتبع ما أنزلت من آياتك ، وجاهد في سبيلك ، ولم يغير ولم يبدل ، ولكن رأى منكراً فأنكره بلسانه وقلبه ، فحقر وحرّم حتى افتقر وضيّع حتى مات غريباً في أرض غربة ، اللهم ! فأعطه من الجنة حتى يرضى ، واقصم من طرّده وحرّمه ونفّاه من مهاجرة حرم رسولك محمد ﷺ .

قال : ثم أقاموا يومهم ذلك عند قبره ، فلما كان بالعشي عرضت عليهم أم ذر الطعام فأكلوا ، فلما كان من غد سلّموا عليها وانصرفوا إلى بلدهم(١) .

قال : وبلغ ذلك عثمان فقال : رحم الله أبا ذر ! فقال عمار بن ياسر : فرحم الله أبا ذر من كل قلوبنا(٢) ! قال : فغضب عثمان ثم قال : يا كذا وكذا أتظن أني ندمت على تسييره إلى ربذة ؟ قال عمار : لا والله ما أرى ذلك ! قال عثمان : ادفعوا في قفاه ، وأنت فالحق بالمكان الذي كان فيه أبو ذر ولا تبرحه أبداً ما بقيت وأنا حي ، فقال عمار : والله إن جوار السباع لأحب إلي من جوارك ؛ ثم قام عمار فخرج من عنده .

قال : وعزم عثمان على نفي عمار ، وأقبلت بنو مخزوم(٣) إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالوا : إنه يا أبا الحسن قد علمت بأنا أخوال أبيك أبي طالب ، وهذا عثمان بن عفان قد أمر بتسيير عمار بن ياسر ، وقد أحببنا أن نلقاه فنكلمه في ذلك ونسأله أن يكف عنه ولا يؤذينا فيه ، فقد وثب عليه مرة ففعل به ما فعل وهذه ثانية ، ونخاف أن يخرج معه إلى أمر يندم ونندم نحن عليه ، فقال : أفعل ذلك فلا تعجلوا ، فوالله ! لو لم تأتوني في هذا لكان ذلك من الحق الذي لا يسعني تركه ولا عذر لي فيه .

---

(١) في الطبري ٥/ ٨٠ وابن الأثير ٢/ ٢٦٥ أنهم حملوا أهله معهم حتى أقدموهم مكة .

(٢) عند اليعقوبي : أنفسنا .

(٣) قال في الاستيعاب : عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن حصين العنسي ثم المذحجي . قال الواقدي وغيره أن ياسراً والد عمار عرني قحطاني مذحجي إلا أن عمار مولى لبني مخزوم لأن أباه ياسر تزوج أمة لبني مخزوم اسمها سمية بنت خياط (وهي أمة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) . فولدت له عماراً فأعتقه أبو حذيفة فمن هنا هو عمار مولى بني مخزوم . ولهذا الحلف والولاء تدخل بنو مخزوم لمصلحة عمار في المرة الأولى التي تعرض فيها عمار للضرب من قبل عثمان وغلمانه ، وفي هذا الموقف له من أبي ذر .

قال : ثم أقبل علي رضي الله عنه حتى دخل على عثمان فسلم وجلس فقال : اتق الله أيها الرجل وكف عن عمار وغير عمار من الصحابة(1) ، فإنك قد سيرت رجلاً من صلحاء المسلمين وخيار المهاجرين الأولين حتى هلك في تسييرك إياه غريباً ، ثم إنك الآن تريد أن تنفي نظيره من أصحاب رسول الله ﷺ ! فقال عثمان : لأنت أحق بالمسير منه ، فوالله ما أفسد عليّ عماراً وغيره سواك ! فقال علي رضي الله عنه : والله يا عثمان ! ما أنت بقادر على ذلك ولا إليه بواصل فروِّم ذلك إن شئت ، وأما قولك : إني أفسدهم عليك ، فوالله ما يفسدهم عليك إلا نفسك ، لأنهم يرون ما ينكرون فلا يسعهم إلا تغيير ما يرون .

قال : ثم وثب علي رضي الله عنه فخرج واستقبله الناس فقالوا له : ما صنعت يا أبا الحسن ؟ فقال : صنعت إنه قال لي كذا وكذا وقلت له كذا ، فقالوا له : أحسنت والله وأصبت يا أبا الحسن ! فوالله لئن كان هذا شأن عثمان ورأيه فينا كلما غضب على رجل منا نفاه إلى بلد غير بلده فلا يموت أحد منا إلا غريباً في غير أهل ولا عشيرة ، وإلى من يوصي الرجل عند موته وبمن يستعين فيما ينويه ، والله ! لئن نموت في رحالنا خير لنا من حياة الأبد بالمكان الذي مات فيه أبو ذر رحمه الله تعالى .

قال : ثم أقبل علي رضي الله عنه على عمار بن ياسر فقال له : اجلس في بيتك ولا تبرح منه ، فإن الله تبارك وتعالى مانعك من عثمان وغير عثمان ، وهؤلاء المسلمون معك ؛ فقالت بنو مخزوم : والله يا أبا الحسن ! لئن نصرتنا وكنت معنا لا وصل إلينا عثمان بشيء نكرهه أبداً . وبلغ ذلك عثمان فكف عن عمار وندم على ما كان منه(2) .

قال : وجعل لا يدخل عليه أحد من وجوه المسلمين إلا شكا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال له زيد بن ثابت : يا أمير المؤمنين ! أفلا أمشي إليه فأخبره

---

(1) وكان عبد الرحمن بن عوف قد غاضب عثمان رضي الله عنه في أمور (مرت الإشارة إليها) وحلف ألا يكلمه أبداً . وغاضب عبد الله بن مسعود (فغضب له بنو هذيل وبنو زهرة) ، وحنق على أبي ذر (وقد مر ذلك) وسير عبد الرحمن بن حنبل صاحب رسول الله (ص) إلى القموس من خيبر ، وكان سبب تسييره إياه أنه بلغه كرهه مساوىء ابنه وخاله وأنه هجاه (اليعقوبي ٢/١٧٣) .

(2) تاريخ اليعقوبي ٢/١٧٣ .

بموجدتك عليه ؟ فقال عثمان : بلى ، إن شئت ذلك .

قال : فأقبل زيد بن ثابت ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي[1] حتى دخلوا على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فسلموا وجلسوا ، وبدأ زيد بن ثابت بالكلام فقال : أما بعد يا أبا الحسن ! فإن لك سلفاً صالحاً في الإسلام وأنت من رسول الله ﷺ بالمكان الذي لا يعدله أحد ، فأنت للخير كله أهل ومعدن ، وأمير المؤمنين أصلحه الله عثمان بن عفان ابن عمك وولي أمر هذه الأمة ، وله عليك حقان : حق القرابة وحق الولاية ، وقد شكاك إلينا وذكر أنك تعترض عليه في أمره ، وقد مشينا إليك نصحاً لك وكراهة أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه وتكرهه لكم صلحاء المسلمين ، فقال علي رضي الله عنه : والله ما أريد الاعتراض عليه في أمر من الأمور إلا أن يأتي منكراً فلا يسعنا أن نقول فيه إلا بالحق ، ولكن والله لأكفن عنه ما وسعني الكف . قال : فتكلم المغيرة بن الأخنس فقال : والله ! لتكفن عنه شئت أو أبيت ، وهو والله أقدر عليك منك عليه ، وإنما بُعثنا إليك لنكون له شهوداً عليك وليعذر فيما بينك وبينه فيكون له عليك الحجة بعد هذا اليوم . قال : فغضب علي رضي الله عنه من كلام المغيرة ثم قال : يابن المغيرة الأبتر والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع ، يابن العبد الآبق[2] ! أنت تكفني عنه فوالله ما أعزّ الله من أنت ناصره ! اخرج أبعد الله نواءك وأجهد بلاءك ، ثم أجهد بعدها جهدك فلا أبقى الله عليك إن أبقيت .

قال : فسكت المغيرة لا يقول شيئاً ، وتكلم زيد بن ثابت فقال : لا والله يا أبا الحسن ! ما جئناك لنكون عليك شهوداً ، ولكننا مشينا إليك التماساً للأجر في أن يصلح الله تبارك وتعالى بينك وبين ابن عمك وأن يجمع كلمتكم على أحسن الأحوال ؛ قال : فدعا له علي رضي الله عنه ولقومه بخير .

ثم قام زيد بن ثابت والمغيرة بن الأخنس إلى عثمان فأخبراه بما كان من الكلام .

---

(١) هو المغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى. . . بن ثقيف الثقفي حليف بني زهرة . ذكره أبو عمر في الصحابة . وأبوه الأخنس (اسمه أبي) سمي بالأخنس لأنه رجع ببني زهرة من بدر لما جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير فقيل خنس الأخنس ببني زهرة . أسلم وهو من المؤلفة قلوبهم ، ثم هرب ، وقيل عن ابن عطية لم يثبت قط أنه أسلم (الإصابة) .
(٢) انظر الحاشية السابقة .

خبر الوليد[1] بن عقبة مع أهل الكوفة

قال : وإذا بنفر من أهل الكوفة قد قدموا على عثمان فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ثم قال : تكلموا لحاجتكم ، فقالوا[2] : إننا أتيناك في أمر الوليد بن عقبة ، قال عثمان : وما شأن الوليد ؟ فقالوا : إنك وليته علينا فأساء السيرة ، ثم إننا دخلنا عليه في منزله وهو يشرب الخمر ، فإن رأيت أن تعزله عنا ! فقال عثمان : سبحان الله ما أظن هذا كما تقولون[3] ، فقالوا : بلى ، قد كان ذلك ، ولا نشهد عليه إلا بما رأينا ؛ قال : فتقدم رجل من أهل الكوفة يكنى أبا زينب فقال : بلى يا أمير المؤمنين ! أنا دخلت عليه ومعي قوم يشهدون بذلك ثم إنهم وجدوه يقيء الخمر وليس يعقل شيئاً

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخو عثمان لأمه أروى بنت كريز ، ولاه عثمان الكوفة بعد أن عزل عنها سعد بن أبي وقاص سنة ٢٥ (انظر في سبب ذلك الكامل لابن الأثير ٢/٢٣١) .
بهامش الأصل : « من مروج الذهب : الوليد هذا أخو عثمان بن عفان لأمه ومن جملة ما نقموه على عثمان ما فعله الوليد في مسجد الكوفة ، وذلك أنه بلغه عن رجل من اليهود من ساكني قرية من قرى الكوفة مما يلي جهة بابل يقال له زرارة أنه يعمل أنواعاً من السحر والخيالات وأنواع الشعوذية (المطبوع : الشعبذة) يعرف بنظروي (المطبوع : بمطروي) ، فأراه في المسجد ضرباً من التخاييل وهو أن أظهر له في الليل فيلاً عظيماً على فرس يركض في صحن المسجد ، ثم صار اليهودي ناقة يمشي على جبل ، ثم أراه صورة حمار دخل من فيه وخرج من دبره ، ثم ضرب عنق رجل وفرق بين جسمه ورأسه ، ثم أمرّ بالسيف عليه فقام الرجل ؛ وكان جماعة من أهل الكوفة حضوراً منهم جندب بن كعب الأزدي فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ومن عمل يبعد من الرحمن وعلم أن ذلك هو ضرب من السحر والتخييل فاخترط بسيفه وضرب به اليهودي طار رأسه ناحية وجثته ناحية ، وقال : ﴿جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾. وقيل : إن ذلك كان نهاراً أو أن جندباً خرج إلى السوق ودنا من بعض الصياقلة وأخذ سيفاً ودخل فضرب عنق اليهودي وقال : إن كنت صادقاً في نفسك [فأحي نفسك] ؛ فأنكر ذلك الوليد عليه وأراد أن يقتله به [فمنعه الأزد] فحبسه ، وأراد قتله غيلة فنظر السجان إلى قيامه ليله إلى الصبح ، فقال له : انج بنفسك ، فقال جندب : تقتل بي ؟ فقال : ليس ذلك بكبير أمر من مرضاة الله والدفع عن ولي من أوليائه ؛ فلما أصبح الوليد دعا به واستعدّ لقتله فلم يجده فسأل السجان عنه فأخبره بهربه ، فضرب عنق السجان وصلبه بين الكناس » . راجع مروج الذهب ١/٤٣٧ ـ ٤٣٨ .

(٢) وكان وفد من أهل الكوفة عليهم أبي زينب بن عوف الأزدي وجندب بن زهير الأزدي (مروج الذهب ٢/٣٧٠) ومورع بن أبي مورع الأسدي (ابن الأثير ٢/٢٤٥) قدموا المدينة يشكون الوليد .

(٤) في رواية ابن الأثير ٢/٢٤٦ أن هؤلاء الرهط قدموا المرة الأولى على عثمان فردهم خائبين ، فلما رجعوا أتاهم كل موتور فاجتمعوا معهم على رأيهم . . . (ثم قدموا على عثمان) . قال في مروج الذهب ٢/٣٧١ أن عثمان زجرهما ودفع في صدورهما وقال : تنحيا ، فخرجا من عنده وأتيا علي بن أبي طالب (رض) وأخبراه القصة ، فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود وأبطلت الحدود .

من أمره فأخذت خاتمه من إصبعه[1] وها هو في يدي . فأرسل عثمان إلى علي رضي الله عنه فدعاه وأخبره بذلك فقال : ما الرأي عندك في هذا يا أبا الحسن ؟ فقال علي رضي الله عنه : الرأي عندي أن تبعث إلى صاحبك فتخبره وتدعو بالشهود ، فإذا شهدوا عليه في وجهه أقمت عليه الحد .

قال : فأرسل عثمان إلى الكوفة فجيء بالوليد بن عقبة ، واجتمع الناس وتقدم أبو زينب ومن معه من أهل الكوفة فشهدوا عليه في وجهه بشرب الخمر ، قال : فأمر به عثمان ، فجرد عن ثيابه ثم جلد الحد[2] ، وعزله عن الكوفة وولي مكانه سعيد بن العاص ، ثم كتب عثمان إلى أهل الكوفة[3] : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى من قُرىء عليه كتابي هذا من أهل الكوفة ، سلام عليكم ! إني أحمد الله الذي لا إله إلا هو إليكم ، أما بعد ! فإن رجالاً فيكم قد قدموا إليّ من قبل فشكوا الوليد بن عقبة وشهدوا عليه بما شهدوا ، فإن يكونوا صدقوا فقد قضينا ما كان علينا ، وإن يكونوا كذبوا فالله حسيبهم ، فاتقوا الله عباد الله ! ووازروا أمراءكم وناصحوهم ولا تبغوا عليهم ، وإياكم والقذف والبهت وإن تحقق الأمر السيء ، وقد وليت عليكم أشرف ما علمت فأحسنوا إليه فإني قد أمرته بالإحسان إليكم - والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته - .

قال : فأقبل سعيد بن العاص[4] حتى دخل الكوفة ، ثم أقبل إلى المسجد الأعظم فدخله فصلّى فيه ركعتين ، ثم صعد المنبر وقد نودي له في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أهل الكوفة ! إن أحبكم إليّ أقرأكم لكتاب الله ، أفقهكم في دين الله ، فليكن أولئك من الأُلفي وأخداني ، وإن أبغضكم إليّ المسرف على

(١) قارن مع رواية الطبري ٥/٦١ وابن الأثير ٢/٢٤٦ في شأن انتزاع خاتمه . أما رواية المسعودي فهي كالأصل .

(٢) جلده سعيد بن العاص (ابن الأثير) وقيل جلده علي بن أبي طالب وقيل بل جلده عبد الله بن جعفر (مروج الذهب - ابن الأثير - اليعقوبي) .

(٣) نسخة الكتاب في العقد الفريد ٤/٣٠٧ مختصراً .

(٤) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي أبو عثمان كان له يوم مات النبي (ص) تسع سنوات ، وقتل أبوه يوم بدر كافراً ، ربي في حجر عمر (وقيل عثمان) ولما فتح الشام قدمه ، فأقام مع معاوية . كان فيمن انتدبه عثمان لكتابة القرآن . ثم استعمله على الكوفة بعد عزل الوليد . (انظر ابن سعد ٥/٣٠) .

نفسه ، المصرّ على ذنبه الذي لا همّ له إلا المضاحيك والأباطيل ، فلا يقربني أولئك .

قال : ثم نزل عن المنبر ودعا بعبد الرحمن بن خنيس الأسدي فولّاه الشرطة وانصرف إلى دار العمارة . فكان أشراف أهل الكوفة وقراؤهم يأتونه ويحدثونه وينصرفون عنه ، وهم مع ذلك لا يرون منه إلّا ما يحبّون من حسن السيرة وبسط العدل ولين الجانب .

قال : فبينا هو عشية في مسجد الكوفة وذلك في آخر يوم من شهر رمضان والناس يقول بعضهم لبعض : غداً الفطر ، إذ سمع سعيد بن العاص ذلك فقال لمن حوله من الناس : من منكم رأى الهلال ؟ فقال قوم : ما رأيناه بعد ، فقام هشام(٢) بن عتبة بن أبي وقاص وقال : بلى ! قد رأيته والحمد لله ، فقال سعيد بن العاص : كيف رأيته بعينك هذه العوراء من بين الناس ؟ فقال له هشام(٢) : أتعيرني بعيني العوراء وقد فقئت في سبيل الله يوم اليرموك في جيش المسلمين ، وأنت مع أمك بتهامة في رعي البهم . قال : ثم وثب هشام(٣) من المجلس فصار إلى منزله ، فلما كان من الغد لم يأمر سعيد الناس بالإفطار ، وأصبح هشام(٣) في داره مفطراً ، فتغدى عنده خلق كثير من الناس ؛ وبلغ ذلك سعيد بن العاص فأرسل إليه وأحضره ، ثم أمر به فضرب ، وأمر بداره فأحرقت .

قال : وبلغ ذلك سعد بن أبي وقاص وهو بالمدينة(٤) فغضب وأقبل إلى عثمان بن عفان ومعه وجوه المهاجرين فقال : يا أمير المؤمنين ! لماذا وثب عاملك سعيد بن العاص على ابن أخي هاشم فضربه وأحرق داره بالكوفة؟ والله ! لا برحت أو انتصفت منه أو لتكونن ههنا أشياء ؛ فقال عثمان(٥) : اصنع ما بدا لك يا سعد ! فوالله

---

(١) ذكر الطبري ٥/٦٣ خطبة أخرى قال فيها : والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره ولكني لم أجد بداً إذ أمرت أن آتمر ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تحييني وإني لرائد نفسي اليوم (انظر ابن الأثير ٢/٢٤٧) .

(٢) في طبقات ابن سعد : « هاشم » وخبره مع سعيد في الطبقات ٥/٣٢ .

(٣) ابن سعد : هاشم .

(٤) وكان نافع بن أبي وقاص وأم الحكم بنت عتبة بن أبي وقاص قد غادرا الكوفة وقدما المدينة وأبلغا سعداً بذلك (طبقات ابن سعد ٥/٣٢) .

(٥) سعيد لكم بهاشم اضربوه بضربه ، ودار سعيد لكم بدار هاشم فأحرقوها كما حرق داره .

إنـك لتعلم أنه مـا لي في ذلـك من ذنب. قـال: فـوثب عمـر بن سعـد بن أبي وقـاص، وهو يومئذ غلام حدث، حتى أتى إلى دار سعيد بن العاص بالمدينة فأشعل فيهـا النار؛ وأرسلت عائشة إلى عمر(١) بن سعد بن أبي وقاص فطلبته إليهـا وسألتـه أن يصفح عن ذلك، ففعل.

قال: ثم كتب عثمان إلى سعيد بن العاص يعذله على فعله بهشام(٢) بن عتبة ويقبح عليه رأيه، فسكت سعيد بن العاص ولم يرتفع بما فعل.

قال: فبينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده وجوه أهل الكوفة إذ تكلم حسان بن محدوج(٣) الذهلي فقال: والله إن سهلنا لخير من جبلنا، فقال عدي بن حاتم: أجل، السهل أكثر براً وخصباً وخيراً، فقـال الأشتر: وغير هذا أيضاً، السهل أنهاره مطردة ونخله باسقات، وما من فاكهة ينبتها الجبل إلا والسهل ينبتها، والجبل خَورٌ وعر يحفي الحافر، وصخره يعمي البصر ويحبس عن السفر، وبلدتنا هذه لا ترى فيها ثلجاً ولا قراً شديداً.

قـال: فقال عبـد الرحمن بن خنيس الأسـدي(٤) صاحب شرطـة سعيـد بن العاص: هو لعمري كما تذكرون، ولوددت أنه كله للأمير ولكم أفضل منه، فقال له الأشتر: يا هذا! يجب عليك أن تتمنى للأمير أفضل منه ولا تتمنى له أموالنا، فما أقدرك أن تتقرب إليه بغير هذا، فقال عبد الرحمن بن خنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر؟ فوالله! إن شاء الأمير لكان هذا كله له، فقال له الأشتر: كذبت والله يـابن خنيس! والله! إن لو رام ذلك لما قدر عليه، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعاً يذل ويخشع.

قال: فغضب سعيد بن العاص من ذلك، ثم قال: لا تغضب يا أشتر! فإنما السواد(٥) كله لقريش فما نشاء منه أخذنا وما نشاء تركنا، ولو أن رجلاً قدم فيه رجلاً

---

(١) عند ابن سعد: إلى سعد بن أبي وقاص.

(٢) مرت الإشارة إليه.

(٣) بالأصل «مجروح» وما أثبتناه عن جمهرة النسب لابن الكلبي، وهو حسان بن محـدوج بن بشر بن حوط بن سعنة بن ربيعة بن عبودة بن مالك بن الأعور كان معه لواء بكر بن وائل يوم الجمل، فقتل.

(٤) في الطبري ٨٨/٥ وابن الأثير ٢٦٣/٢ عبد الرحمن الأسدي.

(٥) عند ابن سعد: هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش. وفي مروج الذهب ٣٧٢/٢ هذا السواد قطين لقريش.

لم يرجع إليه ، أو قدم فيه يداً لقطعتها ؛ فقال له الأشتر : أنت تقول هذا أم غيرك ؟ فقال سعيد بن العاص : لا بل أنا أقوله ، فقال الأشتر : أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا[1] بستاناً لك ولقومك ، والله ! ما يصيبك من العراق إلا كل ما يصيب رجلاً من المسلمين .

قال : ثم التفت الأشتر إلى عبد الرحمن بن خنيس فقال : وأنت يا عدو الله ممن يزين له رأيه في ظلمنا والتعدي علينا لكون ولاءك الشرطة ؛ قال : ثم مد الأشتر يده فأخذ حمائل سيف ابن خنيس فجذبه إليه وقال : دونكم يا أهل الكوفة ! هذا الفاسق فاقتلوه حتى لا يكون للمجرمين ظهير . قال : فأخذته الأيدي حتى وقع لجنبه ثم جروا برجله ، فوثب سعيد بن العاص مسرعاً حتى دخل إلى منزله ، وقام الأشتر فخرج من المسجد وخرجوا معه أصحابه وهم يقولون : وفقك الله فيما صنعت وقلت ! فوالله لئن رخصنا لهؤلاء قليلاً لزعموا أن دورنا وموارثنا التي ورثناها عن آبائنا في بلادنا لهم من دوننا .

قال : فكتب سعيد بن العاص من ساعته بذلك إلى عثمان كتاباً[2] في أوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من سعيد بن العاص ، أما بعد ! فإني أخبر أمير المؤمنين أني ما أملك من الكوفة شيئاً مع الأشتر النخعي ، ومعه قوم يزعمون أنهم القراء وهم السفهاء ، فهم يردون عليّ أمري ويعيبون عليّ صالح أعمالي ، وأن الأشتر كان بينه وبين صاحب شرطي كلام ومراجعة في شيء لا أصل له ، فأغرى به الأشتر سفهاء أصحابه وأشرار أهل المصر حتى وثبوا عليه وأنا جالس ، فضربوه حتى وقع لجنبه وهو لما به ؛ فليكتب إليّ أمير المؤمنين برأيه أعمل به إن شاء الله .

فكتب إليه عثمان كتاباً في أوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ! فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنك لا تملك من الكوفة شيئاً مع الأشتر ، ولعمري إنك تملك منها العريض الطويل ، وقد كتبت إلى الأشتر كتاباً وضمنته كتابك فادفعه إليه وانظر أصحابه هؤلاء الذين ذكرتهم فالحقهم به ـ والسلام ـ .

---

(١) في مروج الذهب : بظلال سيوفنا .

(٢) انظر الطبري ٥/٨٨ وابن الأثير ٢/٢٦٨ . وفي مروج الذهب ٢/٣٧٢ أن الأشتر خرج في سبعين رجلاً من أهل الكوفة إلى عثمان وذكروا له سوء سيرة سعيد بن العاص وسألوه عزله عنهم .

قال : ثم كتب عثمان إلى الأشتر : أما بعد ! فقد بلغني يا أشتر أنك تلقح وتريد أن تنبح ، وأيم الله إني لا أظن أنك تستر أمراً لو أنك أظهرته لحل به دمك ، وما أراك منتهياً عن الفتنة أو يصيبك الله بقارعة ليس معها بقيا ، فانظر إذا أتاك كتابي هذا فقرأته ورأيت أن لي عليك طاعة فسر إلى الشام فتكون بها مقيماً حتى يأتيك أمري ، واعلم أني إنما أُسيرك إليها لا لشيء إلا لإفسادك على الناس وذلك بأنك لا تألوهم خبالاً وضلالاً .

قال : فلما ورد كتاب عثمان على الأشتر وقرأه عزم على الخروج عن الكوفة ، وأرسل إليه سعيد بن العاص أن اخرج وأخرج من كان معك على رأيك ؛ فأرسل إليه الأشتر أنه ليس بالكوفة أحد إلا وهو يرى رأيي فيما أظن ، لأنهم لا يحبون أن تجعل بلادهم بستاناً لك ولقومك ، وأنا خارج فيمن اتبعني فانظر فيما يكون من بعد هذا .

قال : ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صعصعة بن صوحان العبدي وأخوه[1] وعائذ بن حملة الظهري ، وجندب بن زهير الأزدي[2] والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني ، وأصفر بن قيس الحارثي ويزيد بن المكفف ، وثابت بن قيس بن منقع[3] وكميل بن زياد ومن أشبههم من إخوانهم[4] ، حتى صاروا إلى كنيسة يقال لها كنيسة مريم ؛ فأرسل إليهم معاوية فدعاهم ، فجاؤوا حتى دخلوا ثم سلموا وجلسوا ، فقال لهم معاوية : يا هؤلاء ! اتقوا الله ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات** ﴾[5] ؛ قال : ثم سكت معاوية ، قال له كميل بن زياد : يا معاوية ! ﴿ **فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾[6] فنحن اولئك الذين هداهم الله ، فقال له معاوية : كلا يا كميل ! إنما اولئك الذين أطاعوا الله ورسوله وولاة الأمر فلم يدفنوا محاسنهم ولا أشاعوا مساوئهم ، فقال كميل : يا معاوية ! لولا أن عثمان بن عفان وفق منك بمثل هذا الكلام وهذه الخديعة لما اتخذك

---

(١) هو زيد بن صوحان العبدي (الطبري ٥/٩٠) .
(٢) الطبري : الغامدي . وفي البداية والنهاية ١٨٦/٧ : العامري .
(٣) عن الطبري ، وبالأصل : مقعقع .
(٤) قارن الأسماء في رواية الطبري ٨٨/٥ و٩٠/٥ والبداية والنهاية ١٨٦/٧ وفيه : « وكانوا عشرة ، وقيل تسعة وهو الأشبه » ولم يذكر سوى ثمانية .
(٥) سورة آل عمران : ١٠٥ .
(٦) سورة البقرة : ٢١٣ .

لنا سجناً . فقال له الأشتر : يا كميل ! ابتدأنا بالمنطق وأنت أحدثنا سناً ؛ قال : فسكت كميل وتكلم الأشتر فقال : أما بعد ! فإن الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمة برسوله محمد ﷺ ، فجمع به كلمتها وأظهرها على الناس ، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث ، ثم قبضه الله عزَّ وجلَّ إلى رضوانه ومحل جنانه ـ ﷺ كثيراً ، ثم ولي من بعده قوم صالحون عملوا بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وجزاهم بأحسن ما أسلفوا من الصالحات ، ثم حدثت بعد ذلك أحداث فرأى المؤمنون من أهل طاعة الله أن ينكروا الظلم وأن يقولوا بالحق فإن أعاننا ولاتنا أعفاهم الله من هذه الأعمال التي لا يحبها أهل الطاعة ، فنحن معهم ولا نخالف عليهم ، وإن أبوا ذلك فإن الله تبارك وتعالى قد قال في كتابه وقوله الحق : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين اوتواالكتاب لتبيّننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون** ﴾[1] فلسنا يا معاوية ! بكاتمي برهان الله عزَّ وجلَّ ولا بتاركي أمر الله لمن جهله حتى يعلم مثل الذي علمنا ، وإلا فقد غششنا أئمتنا وكنا كمن نبذ الكتاب وراء ظهره ، فقال له معاوية : يا أشتر ! إني أراك معلناً بخلافنا مرتضياً بالعداوة لنا ، والله لأشدن وثاقك ولأطيلن حبسك . فقال له عمرو بن زرارة[2] : يا معاوية ! لئن حبسته لتعلمن أن له عشيرة كثيرة عددها لا يضام ، شدها شديد على من خالفها ونبزها ، فقال معاوية : وأنت يا عمرو تحب أن يضرب عنقك ولا تترك حياً ، اذهبوا بهم إلى السجن .

قال : فذهبوا بهم إلى السجن ، فقام زيد بن المكفكف[3] فقال : يا معاوية ! إن القوم بعثوا بنا إليك لم يكن بهم عجز في حبسنا في بلادنا لو أرادوا ذلك ، فلا تؤذينا وأحسن مجاورتنا ما جاورناك ، فما أقل ما نجاورك حتى نفارقك إن شاء الله تعالى .

قال : ثم وثب صعصعة بن صوحان فقال : يا معاوية ! إن مالك بن الحارث الأشتر وعمرو بن زرارة رجلان لهما فضل في دينهم وحالة حسنة في عشيرتهم وقد حبستهم ، فأمر بإخراجهم فذلك أجمل في الرأي ؛ فقال معاوية : عليّ بهم ، فأتي

---

(١) آل عمران : ١٨٧ .

(٢) لم يرد ذكره فيمن أخرجوا من الكوفة ، ولعله كان حاضراً لقاء معاوية معهم .

(٣) كذا ، وقد مرّ قريباً يزيد بن المكفف . ولم يرد اسمه فيمن ذكرهم الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن كثير ، وفي طبقات ابن سعد : يزيد بن المكفف .

بهم من الحبس ، فقال معاوية : كيف ترون عفوي عنكم يا أهل العراق بعد جهلكم واستحقاقكم الحبس ؟ رحم الله أبا سفيان لقد كان حليماً[1] ، ولو ولد الناس[2] كلهم لكانوا حلماء ! فقال صعصعة بن صوحان : والله يا معاوية ! لقد ولدهم من هو خير من أبي سفيان ، فسفهاؤهم وجهالهم أكثر من حلمائهم، فقال معاوية : قاتلك الله يا صعصعة ! قد أعطيت لساناً حديداً ، اخرجوا واتقوا الله وأحسنوا الثناء على أئمتكم فإنهم جنة لكم ؛ فقال صعصعة : يا معاوية ! إننا لا نرى لمخلوق طاعة في معصية الخالق ، فقال معاوية : اخرج عني ، اخرجك الله إلى النار ! فلعمري أنك حدث[3] . فخرج القوم من عند معاوية وصاروا إلى منازلهم ، فلم يزالوا مقيمين بالشام ، وقد وكل بهم قوم يحفظونهم أن لا يبرحوا[4] .

قال : وحج عثمان في تلك السنة ، فلما قدم من حجه إلى المدينة قدم عليه قوم من الكوفة فعاتبوه على تسييره الأشتر وأصحابه إلى الشام ، ثم شكوا عاملهم سعيد بن العاص ، وجاء أقوام آخرون من البصرة فشكوا عاملهم عبد الله بن عامر بن كريز ، وكثرت الشكايات إلى عثمان من عماله من جميع البلاد[5] .

ذكر قدوم عمال عثمان عليه لما كثرت شكاية الناس منهم

قال : فأرسل عثمان إلى جميع عماله[6] فأشخصهم إليه من جميع البلاد ، ثم

(١) الطبري ٥/٨٩ كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه نبي الرحمة (ص) .

(٢) الطبري : لم يلد إلا حازماً .

(٣) انظر مقابلة معاوية وصعصعة بن صوحان في الطبري ٥/٨٩ ابن الأثير ٢/٢٧٠ .

(٤) في الطبري ٥/٨٩ـ ٩٠ أن معاوية كتب إلى عثمان بشأنهم فرد عليه أن يسيرهم إلى الكوفة ، فلما وصلوا كتب سعيد بن العاص إلى عثمان مجدداً بشأنهم فبعث إليه عثمان أن سيرهم إلى حمص إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فسيرهم سعيد إلى حمص .

(٥) تكاتب المنحرفون عن طاعة عثمان وكان جمهورهم من أهل الكوفة (والمنفيون) وثاروا على سعيد بن العاص . (البداية والنهاية ٧/١٨٦) واجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم وبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه ، وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة وتولية جماعة من بني أمية من أقربائه وطلبوا منه أن يعزل عماله ويستبدل بهم غيرهم من السابقين ومن الصحابة . (الطبري ٥/٩٤ وابن الأثير ٢/٢٧٤ والبداية والنهاية ٧/١٨٧) .

(٦)) معاوية بن أبي سفيان (الشام) ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح (مصر) سعيد بن العاص (الكوفة) عمرو بن العاص (فلسطين) عبد الله بن عامر بن كريز (البصرة) . وكان ذلك سنة ٣٤ هـ .

أقبل عليهم فقال : يا هؤلاء ! إنه قد كثرت شكايات الناس منكم ، فأما القريب فقد بادهني وأما البعيد فما نالوا جهداً ، فماذا عندكم من الرأي ؟ قال : فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز وقال(١) : يا أمير المؤمنين ! إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك ، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال ، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ولا يشكوك أحد بعد ذلك . قال : ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال : يا أمير المؤمنين ! إن لك على الناس حقاً في كتاب الله ولهم عليك مثل ذلك ، فادفع إليهم حقوقهم واستوف منهم حقك ، فإنه قد ولي أمر هذه الأمة من قبلك رجلين خيرين فاضلين أبا بكر وعمر فسارا بسيرة ، فسر بسيرتهما واستسن بسنتهما واعمل بعملهما ، يرضى الناس عنك ولا يشكوك أحد . قال : ثم تكلم سعيد بن العاص فقال(٢) : لا والله يا أمير المؤمنين ! ما دعا الناس أن نقموا عليك إلا الحمام والفراغ من الحروب ، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل وتحدثت بالأحاديث ، فاشغل العرب بالغزو وقاتل بهم العدو حتى لا يرجع أحدهم ، إذا رجع إلى منزله قد أهمته نفسه لا يتفرغ لعيب الأمراء . قال : ثم تكلم معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك قد جمعتنا وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا وأنت قد ملكتنا رقاب الناس وجعلتنا أوتاداً في الأرض ، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى نكفيك ما قبله ولا يكون ههنا شكاية أحد ولا ينقم أحد عليك(٣) . قال : فعلم عثمان أن الرأي ما قال معاوية ، فعزم على أن يرد عماله إلى بلادهم وأعمالهم ، ثم أوصاهم وعهد إليهم وحذرهم الشكايات ، فرجع معاوية إلى الشام ، وعبد الله بن عامر إلى البصرة ، وسعيد بن العاص إلى الكوفة(٤) ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر ؛ فلم يزدادوا على الناس إلا غلظة وجنفاً وجوراً في الأحكام وعدولاً عن السنة .

(١) عبارة الطبري ٩٤/٥ : أرى يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه .

(٢) عبارة الطبري : أن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

(٣) زيد عند الطبري ٩٤/٥ - ٩٥ وابن الأثير ٢٧٥/٢ مقالة عمرو بن العاص انظرها فيهما .

(٤) في الطبري : فخرج أهل الكوفة عليه بالسلاح فتلقوه فردوه . (انظر مروج الذهب ٣٧٢/٢ - ٣٧٣ ابن سعد ٣٣/٥) .

ذكر كتاب أهل الكوفة إلى عثمان رضي الله عنه وخبر كعب بن عبيدة النهدي

قال : فجلس نفر من أهل الكوفة منهم يزيد بن قيس الأرحبي ، ومالك بن حبيب اليربوعي ، وحجر بن عدي الكندي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وزياد بن حفيظة التميمي ، وعبد الله بن الطفيل البكائي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وكرام بن الحضرمي المالكي ، ومعقل بن قيس الرياحي ، وزيد بن حصن السنبسي ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة الفزاري ، ورجال كبير من قرى أهل الكوفة ورؤسائهم ، فكتبوا إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من الملأ المسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ! فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ! فإننا كتبنا إليك هذا الكتاب نصيحة لك واعتذاراً وشفقة على هذه الأمة من الفرقة ، وقد خشينا أن تكون خلقت لها فتنة وأن لك ناصراً ظالماً وناقماً عليك مظلوماً ، فمتى نقم عليك الناقم ونصرك الظالم اختلفت الكلمتان وتباين الفريقان ، وحدثت أمور متفاقمة أنت جنيتها بأحداقك ، يا عثمان ! فاتق الله والزم سنة الصالحين من قبلك ، وانزع عن ضرب قرابتنا ونفي صلحائنا ، وقسم فينا بين أشرارنا والاستبدال عنا واتخاذك بطانة من الطلقاء وابن الطلقاء دوننا ، فأنت أميرنا ما أطعت الله واتبعت ما في كتابه وأنبت إليه وأحييت أهله وجانبت الشر وأهله وكنت للضعفاء ورددت من نفيت منا وكان القريب والبعيد عندك في الحق سواء ، فقد قضينا ما علينا من النصيحة لك ، وقد بقي ما عليك من الحق ، فإن تبت من هذه الأفاعيل نكون لك على الحق أنصاراً وأعواناً ، وإلا فلا تلوم إلا نفسك فإننا لن نصالحك على البدعة وترك السنة ، ولن نجد عند الله عذراً إن تركنا أمره لطاعتك ، ولن نعصي الله فيما يرضيك ، هو أعزّ في أنفسنا وأجلّ من ذلك ، نشهد الله على ذلك وكفى بالله شهيداً ، ونستعينه وكفى بالله ظهيراً ، راجع الله بك إلى طاعته ، يعصمك بتقواه من معصيته ـ والسلام ـ .

قال : فلما كتبوا الكتاب وفرغوا منه قال رجل منهم : من يبلغه عنا كتابنا ؟ فوالله إن ما نرى أحداً يجترىء على ذلك ، قال : فقال رجل من عنزة آدم ممشوق فقال : والله ما يبلّغ هذا الكتاب إلا رجل لا يبالي أضرب أم حبس أم قتل أم نفي أم حرم ، فأيكم عزم على أن يصيبه خصلة من هذه الخصال فليأخذه ، فقال القوم ما ههنا أحد يحب أن يبتلي بخصلة من هذه الخصال ، فقال العنزي : هاتوا كتابكم

فوالله إني لا عافية [لي] ، وإن ابتليت فما أنا يائس أن يرزقني ربي صبراً وأجراً ؛ قال : فدفعوا إليه كتابهم .

وبلغ ذلك كعب بن عبيدة النهدي وكان من المتعبدين ، فقال : والله لأكتبن إلى عثمان كتاباً باسمي واسم أبي[1] ، بلغ ذلك من عنده ما بلغ ! ثم كتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من كعب بن عبيدة ، أما بعد ! فإني نذير لك من الفتنة ، متخوف عليك فراق هذه الأمة ، وذلك أنك قد نفيت خيارهم ووليت أشرارهم وقسمت فيأهم في عدوهم واستأثرت بفضلهم ومزقت كتابهم وحميت قطر السماء ونبت الأرض ، وحملت بني أبيك على رقاب الناس حتى قد أوغرت صدورهم واخترت عداوتهم ، ولعمري لئن فعلت ذلك فإنك تعلم أنك إذا فعلت ذلك وتكرمت فإنما تفعله من فيئنا وبلادنا ، والله حسيبك يحكم بيننا وبينك ؛ وإن أنت أبيت وعنيت قتلنا وأذانا ولم تفعل فإننا نستعين الله ونستجيره من ظلمك لنا بكرة وعشياً ـ والسلام ـ .

ثم جاء كعب بن عبيدة بكتابه هذا إلى العنزي وقد ركب يريد المدينة فقال : أحب أن تدفع كتابي هذا إلى عثمان ، فإنّ فيه نصيحة له وحثّاً على الإحسان إلى الرعية والكف عن ظلمها ، فقال : أفعل ذلك ؛ قال ثم أخذ الكتاب منه ومضى إلى المدينة . ورجع كعب بن عبيدة حتى دخل المسجد الأعظم فجعل يحدث أصحابه بما كتب إلى عثمان ، فقالوا : والله يا هذا لقد اجترأت وعرضت نفسك لسطوة هذا الرجل ! فقال : لا عليكم فإني أرجو العافية والأجر العظيم ، ولكن ألا أخبركم بمن هو أجرأ مني ؟ قالوا : بلى ومن ذلك ؟ فقال : الذي ذهب بالكتاب ، فقالوا : بلى صدقت ؛ إنه لكذلك وإنا لنرجو أن يكون أعظم هذا المصر أجراً عند الله غداً .

ذكر قدوم العنزي على عثمان وما كان من قصته معه

قال : وقدم العنزي على عثمان رضي الله عنه بالمدينة ، فدخل وسلم عليه ثم ناوله الكتاب الأول وعنده نفر من أهل المدينة ، فلمّا قرأه عثمان ارتدّ لـونه وتغيّـر

---

(١) لعله عبيدة بن عبد الله النهدي وهو الذي بعثه أبو بكر الصديق إلى بني نهد في حال ردتهم فأسلم منهم جماعة (الإصابة) .

وجهه ، ثم قال : من كتب إليّ هذا الكتاب ؟ فقال العنزي : كتبه إليك ناس كثير من صلحاء أهل الكوفة وقرائها وأهل الدين والفضل ، فقال عثمان : كذبتَ ! إنما كتبه السفهاء وأهل البغي والحسد ، فأخبرني من هم ؟ فقال العنزي : ما أنا بفاعل ، فقال عثمان : إذاً والله أوجع جنبك وأطيل حبسك ، فقال العنزي : والله لقد جئتك وأنا أعلم أني لا أسلم منك ، فقال عثمان : جردوه ! فقال العنزي : وهذا كتاب آخر فاقرأه من قبل أن تجرّدني ، فقال عثمان : آتِ به ، فناوله إياه ، فلما قرأه قال : منَ كعب بن عبيدة هذا ؟ قال العنزي : إيه ! قد نسب لك نفسه ، قال عثمان : فمن أي قبيل هو؟ قال العنزي : ما أنا مخبرك عنه إلا ما أخبرك عن نفسه ، قال : فالتفت عثمان إلى كثير بن شهاب الحارثي فقال : يا كثير ! هل تعرف كعب بن عبيدة ؟ قال كثير : نعم يا أمير المؤمنين ! هو رجل من بني نهد ؛ قال : فأمر عثمان بالعنزي ، فجرّدوه من ثيابه ليضرب ، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لماذا يضرب هذا الرجل ؟ إنما هو رسول جاء بكتاب وأبلغك رسالة حملها ، فلم يجب عليه في هذا ضرب ؛ فقال عثمان رضي الله عنه : أفترى أن أحبسه ؟ قال : لا ، ولا يجب عليه الحبس .

قال : فخلى عثمان عن العنزي ، وانصرف إلى الكوفة وأصحابه لا يشكون أنه قد حبس أو ضرب أو قتل ، قال : فلم يشعروا به إلا وقد طلع عليهم ، فما بقي في الكوفة رجل مذكور إلا أتاه ممن كان على رأيه ، ثم سألوه عن حاله فأخبرهم بما قال وما قيل له ، ثم أخبرهم بصنع علي رضي الله عنه ، فعجب أهل الكوفة من ذلك ودعوا لعلي بخير وشكروه على فعله .

قال : وكتب عثمان إلى سعيد بن العاص[1] أن تسرح إليّ كعب بن عبيدة مع سائق عنيف حتى يقدم عليّ به - والسلام . قال : فلمّا ورد كتاب عثمان رضي الله عنه على سعيد بن العاص ونظر فيه أرسل إلى كعب بن عبيدة فشده في وثاق ووجه به إلى عثمان مع رجل فظ غليظ ، فلما صار في بعض الطريق جعل الرجل ينظر إلى صلاة كعب بن عبيدة وتسبيحه واجتهاده فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، بعثت مع رجل مثل هذا أهديه إلى القتل والعقوبة الشديدة أو الحبس الطويل ، ثم أقبل بكعب بن عبيدة حتى أدخله على عثمان .

---

(١) كذا ، وقد مرّ أن أهل الكوفة منعوا سعيداً من الوصول إلى الكوفة فعاد إلى المدينة من مكان يدعى الجرعة (وقيل : بواقصة) . (انظر مروج الذهب ٢/٣٧٣ وابن الأثير ٢/٢٧٣) .

فلما سلم عليه جعل عثمان ينظر إليه ثم قال : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » ![1] أنت تعلمني الحق وقد قرأت القرآن وأنت في صلب أبيك مشرك ، قال كعب : على رسلك يابن عفان ، فإن كتاب الله لو كان للأول دون الآخر لم يبق للآخر شيء ، ولكن القرآن للأول والآخر ، فقال عثمان : والله ما أراك تدري أين ربك ! قال : بلى يا عثمان ! هو لي ولك بالمرصاد ، فقال مروان : يا أمير المؤمنين ! حلمك على مثل هذا وأصحابه أطمع فيك الناس ، فقال كعب : يا عثمان ! إن هذا وأصحابه أغمروك وأغرونا بك ، قال عثمان : جردوه ، فجردوه وضربه عشرين سوطاً ، ثم أمر به فرد إلى الكوفة ، وكتب إلى سعيد بن العاص : أما بعد ، فإذا قدم عليك كعب بن عبيدة هذا فوجّه به مع رجل فظ غليظ إلى جبال كذا ، فليكن منفياً عن بلده وقراره . قال : فلما قدم كعب على سعيد بن العاص دعا به فضمه إلى رجل من أصحابه يقال له بكير بن حمران الأحمري فخرج بـه حتى جعله كذلك حيث أمر عثمان .

قال : وأقبل طلحة والزبير حتى دخلا على عثمان ؛ ثم تقدم إليه الزبير وقال : يا عثمان ! ألم يكن في وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا تحمل آل بني معيط على رقاب الناس إن وليت هذا الأمر ؟ قال عثمان : بلى ، قال الزبير : فلم استعملت الوليد بن عقبة على الكوفة ؟ قال عثمان : استعملته كما استعمل عمر بن الخطاب عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فلما عصى الله وفعل ما فعل عزلته واستعملت غيره على عمله ، قال : فلم استعملت معاوية على الشام ؟ فقال عثمان : لرأي عمر بن الخطاب فيه ؛ قال : فلم تشتم أصحاب رسول الله ﷺ ولست بخير منهم ؟ قال عثمان : أما أنت فلست أشتمك ، ومن شتمته فما كان به عجز عن شتمي ؛ فقال ما لك ولعبدالله بن مسعود هجرت قراءته وأمرت بدوس بطنه ، فهو في بيته لما به وقد اقرأه رسول الله ﷺ ؛ فقال عثمان : إن الذي بلغني من ابن مسعود أكثر مما بلغت منه ، وذاك أنه قال : وددت أني وعثمان برمل عالج يحث عليّ وأحثّ عليه حتى يموت الأعجز منا ، قال: فما لك ولعمار بن ياسر أمرت بدوس بطنه حتى أصابه الفتق ؟ فقال : لأنه أراد أن يغري الناس بقتلي ؛ قال : فما لك ولأبي ذر حبيب رسول الله ﷺ ، سيّرته حتى مات غريباً طريداً ؟ قال : لما قد علمت أنه قد أفسد عليّ

---

(١) مثل يضرب لمن خبره خير من مرآه . قصته في الميداني ١/٨٦ أمثال الضبي ص ٩ الفاخر لابن عاصم ص ٥٦ . أول من قاله المنذر بن ماء السماء .

الناس ورماني بكل عيب؛ قال: فما لك وللأشتر وأصحابه نفيتهم إلى الشام وفرقت بينهم وبين أهاليهم وأولادهم ؟ فقال : لأن الأشتر أغرى الناس بعاملي سعيد بن العاص وأضرم الكوفة عليّ ناراً . فقال الزبير : يا عثمان ! إن هذه الأحداث التي عددتها عليك هي أقل أحداثك ، ولو شئت أن أرد عليك جميع ما تحتج به لفعلت ، وأراك تقرأ صحيفتك من حيث تريد ، وأخاف عليك يوماً له ما بعده من الأيام . قال : وتقدم إليه طلحة بن عبيد الله فقال : يا عثمان ! أهلكك بنو أمية وأطمعك فينا آل أبي معيط ، وعند غب الصدر يحمد الورد أو يذم ، وأنا لك كما كنت لنا ، فإذا لم تكن لنا كنا عليك ؛ ثم خرجوا من عنده[1] .

قال : فدعا عثمان من ساعته بدواة وقرطاس وكتب إلى عامله بالكوفة سعيد بن العاص : أما بعد ، فإني خشيت أن أكون قد اقترفت ذنباً عظيماً وإثماً كبيراً من كعب بن عبيدة ، وإذا ورد كتابي هذا إليك فابعث إليه فليقدم عليك ثم عجّل به عليّ - والسلام - .

قال : فلما ورد الكتاب على سعيد بن العاص دعا ببكير بن حمران الأحمري ، وأنفذه إلى كعب بن عبيدة فأشخصه إليه ، ثم وجّه به إلى المدينة ؛ فلما أدخل على عثمان سلم ، فردّ عليه السلام ثم أدنى مجلسه وقال : يا أخا بني نهد ! إنك كتبت إليّ كتاباً غليظاً ولو كتبت أنت لي فيه بعض اللين وسهلت بعض التسهيل لقبلت مشورتك ونصيحتك ، ولكنك أغلظت لي وتهدّدتني واتهمتني حتى أغضبتني فنلت منك ما نلت ، وإنه وإن كان لكم عليّ حق فلي عليكم مثله مما لا ينبغي أن تجهلوه ؛ قال : ثم نزع عثمان قميصه ودعا بالسوط فدفعه إليه وقال : قم يا أخا بني نهد ! اقتصّ مني ما ضربتك ، فقال كعب بن عبيدة : أما أنا فلا أفعل ذلك فإني أدعه لله تعالى ولا أكون أول من سن الاقتصاص من الأئمة ، والله لئن تصلح أحبّ إليّ من أن تفسد ، ولئن تعدل أحبّ إليّ من أن تجور ، ولئن تطيع الله أحبّ إليّ من أن تغضبه . ثم وثب كعب بن عبيدة فخرج من عند عثمان فتلقّاه قوم من أصحابه فقالوا : ما منعك أن تقتص منه وقد أمكنك من نفسه ؟ فقال : سبحان الله والي أمر هذه الأمة ! ولو شاء لما أفداني من نفسه ، وقد وعد التوبة وأرجو أن يفعل .

قال : وتقدم قوم من أهل الشام فشكوا معاوية إلى عثمان رضي الله عنه ،

---

(١) الخبر باختلاف بين عثمان وعلي رضي الله عنهما رواه الطبري ٥/٩٧ .

وتقدم قوم من خيار أهل الكوفة فشكوا سعيد بن العاص[1] إلى عثمان ؛ فقال عثمان : يا هؤلاء ! إلى كم تكون هذه الشكوى من هذين الرجلين ! فقال له الحجاج بن غزية الأنصاري : يا هذا ! إنهم لا يشكون هذين الرجلين فقط ولكنهم يشكون جميع عمالك ، وقد بعثت إليهم فأشخصتهم إليك ثم بادرت فرددتهم إلى أعمالهم ، فابعث إليهم ثانية ثم أحضرهم في هذا المسجد بحضرة أصحاب النبي ﷺ ، ثم خذ عليهم المواثيق والعهود أنهم لا يظلمون أحداً واستحلفهم على ذلك ثم ردهم إلى أعمالهم ، وإلا فاستبدل بهم غيرهم ، فإن صلحاء المسلمين كثير .

قال : وأشار عليه عامة الناس بمثل ذلك[2] فأرسل عثمان إلى جميع عماله فأشخصهم إليه من جميع البلاد ، ثم أحضرهم وأقبل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس ! هؤلاء عمالي الذين أعتمدهم ، فإن أحببتم عزلتهم ووليت من تحبون . قال : فتكلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال : يا عثمان ! إن الحق ثقيل مر وإن الباطل خفيف ، وأنت رجل إذا صُدقت سخطت وإذا كذبت رضيت ، وقد بلغ الناس عنك أمور تركها خير لك من الإقامة عليها ، فاتق الله يا عثمان وتب إليه مما يكرهه الناس منك . قال : ثم تكلم طلحة بن عبيد الله فقال : يا عثمان ! إن الناس قد سفّهوك وكرهوك لهذه البدع والأحداث التي أحدثتها ولم يكونوا يعهدونها ، فإن تستقم فهو خير لك وإن أبيت لم يكن أحد أضر بذلك في الدنيا والآخرة منك . قال : فغضب عثمان رضي الله عنه ثم قال : ما تدعوني ولا تدعون عتبي ما أحدثتُ حدثاً ولكنكم تفسدون عليّ الناس ، هلم يابن الحضرمية[3] ! ما هذه الأحداث التي أحدثت ؟ فقال طلحة : إنه قد كلمك عليّ من قبلي فهلا سألته عن هذه الأحوال التي أحدثت فيخبرك بها ، ثم قام طلحة فخرج من عند عثمان ، وجعل يدبر رأيه بينه وبين نفسه أيرد عماله إلى أعمالهم أم يعزلهم ويولي غيرهم .

---

(١) كذا .

(٢) عند الطبري أن عثمان كتب إلى أهل الأمصار : أما بعد فإني آخذ عمالي بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته . . . من ادعى شيئاً . . . فليواف الموسم . . . (٩٩/٥ ابن الأثير ٢٧٨/٢) .

(٣) نسبة إلى أمه : الصعبة بنت الحضرمي امرأة من أهل اليمن .

خبر الأشتر وخروجه بالكوفة على عثمان

قال : فبينما عثمان كذلك وإذا بكتاب أهل الكوفة قد ورد على الأشتر وهو بالشام : بسم الله الرحمن الرحيم ، من جماعة أهل الكوفة إلى مالك بن الحارث ، سلام عليك ، أما بعد ! فإننا نخبرك بالصحيح من الأمر أنه قد اجتمع الملأ من إخوانك فتذكروا أعمال الظلمة وأحداث المبتدعة وما أتي إليك وإلى نظرائك من المسلمين ، فرأوا أنهم لا يسعهم الإقرار على ذلك ولا الرضى به ، وقد خرج عنا سعيد بن العاص مرة وهذه ثانية إلى صاحبه عثمان ، وقد أعطينا الله تبارك وتعالى عهودنا ومواثيقنا أن لا يدخل علينا سعيد بن العاص والياً أبداً ، فالعجل العجل علينا إن كنت تريد أن تدركنا وتشهد على أمورنا ـ والسلام ـ .

قال : فلما قرأ الأشتر كتاب أهل الكوفة جعل يتمثل بهذا البيت لقيس بن الخطيم الأنصاري حيث يقول :

ولما رأيت الحرب قد جلّ جدّها لبست مع البردين ثوب المحاربِ

قال : ثم نادى الأشتر في أصحابه بالرحيل ، فرحلوا حتى وافوا الكوفة لاثنتي عشرة ليلة من مسيرهم قبل الظهر وذلك في يوم الاثنين ، فدخل الأشتر الكوفة وجاء حتى دخل المسجد الأعظم فصعد المنبر وقد اجتمع إليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الله تبارك وتعالى بعث فيكم رسوله محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليه كتاباً بيّن فيه الحلال والحرام والفرائض والسنن ، ثم قبضه إليه وقد أدّى ما كان عليه ، ثم استخلف على الناس أبا بكر فسار بسيرته واستسن بسنته ، واستخلف أبو بكر عمر فاستسن بمثل تلك السنة . وهذا عثمان بن عفان قد علمتم ما كان منه من الأحداث المكروهة والأفعال القبيحة بأصحاب النبي ﷺ ، والآن حين قرأنا كتاب الله عزّ وجل وتفقهنا في دين الله يريد أن نبدل دين الله أو نغير سنة نبينا محمد ﷺ ، كلا والله لا نفعل ذلك أبداً ! ألا ! ولا يصبح أحد منكم إلا بالجرعة[1] ، فإني معسكر هنالك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله[2] .

---

(١) الجرعة : موضع قرب الكوفة ، وهو المكان الذي فيه سهولة ورمل . وقيل : الجرعة بين النجفة والحيرة ، وقيل : مكان مشرف على القادسية .

(٢) كذا ترد الرواية هنا . وثمة ملاحظات لا بد من تسجيلها بعد درسنا للأحداث خلال سنتي ٣٣ و٣٤ .

أ ـ خلال سنة ٣٣ بدأت الأحداث بالكوفة تأخذ منحى خطيراً وتزايد التململ والنقمة على سياسة واليها =

قال : فلما قضى الأشتر كلامه وثب إليه قبيصة بن جابر الأسدي وقال : يا أشتر ! دام شترك وعفى أثرك ، شتر الله دينك كما شتر عينك[1] ، فلقد أطلت الغيبة وجئت بالخيبة ، أتأمر بالفتنة ونكث البيعة وخلع الخليفة ! والله ! لئن أطعناك لتفترقن كلمتنا ولتسبكن دماؤنا .

= سعيد بن العاص ، وتفاقم الأمر بينه وبين زعماء أهل الكوفة . فكتب الفريقان إلى عثمان والذي رد بدعم واليه وأمره بتسيير من يزعجه إلى الشام ، ثم ردوا إلى الكوفة ثم أبعدوا من جديد إلى حمص . وبذلك تكاد تكون الكوفة قد خلت من أهم المعارضين للوالي .

ب ـ بعد تزايد الشكاوى وتوافد الوفود إلى عثمان وتواتر الكتب والرسائل إليه دعا عثمان بن عفان سنة ٣٤ عماله جميعاً أن يوافوه في الموسم (وكان ثمة اجتماع تقليدي للخليفة مع ولاته يعقد كل موسم) وبعد التشاور معهم في أمور ولاياتهم وبعد الاطلاع على وجهات نظرهم أعادهم إلى أعمالهم مع التأكيد على تنفيذ ما تم الوصول إليه خلال هذا الاجتماع .

ج ـ ورد في رسالة أهل الكوفة إلى الأشتر ما يشير إلى خروج سعيد بن العاص إلى عثمان مرتين . (ويعني خلال سنتي ٣٣ و٣٤) وما يفهم من روايات الطبري وابن الأثير ومروج الذهب أنه لم يجر أي اجتماع بين عثمان وولاته سنة ٣٣ ، أو إن كان حصل هكذا اجتماع لم تكن الأمور مطروحة في الولايات ، وخاصة في الكوفة بصورة خطرة . ولم تشر الروايات إلى أي اجتماع خاص بين عثمان والوالي سعيد بن العاص . وكل ما وصلنا اجتماع عثمان بولاته قبل يوم الجرعة .

د ـ أما بالنسبة للأشتر ففي مكان وجوده أقوال : فعند الطبري وابن الأثير أنه كان قد أبعد مجدداً من الكوفة إلى حمص ـ بعدما أرسله معاوية مع المسيرين من الكوفة إليها ـ وهذا ما يشير إليه ابن الأثير من أن يزيد بن قيس كاتب المسيرين في القدوم عليه ـ وكان يريد خلع عثمان ـ فسار إليه الأشتر والذين عند عبد الرحمن بن خالد في حمص ، فسبقهم الأشتر إلى الكوفة أما رواية المسعودي فتشير ـ وقد مرّ ذلك ـ إلى أن الأشتر قد خرج في سبعين راكباً من أهل الكوفة إلى عثمان يسألونه عزل سعيد عنهم ، وبعد الاجتماع الشهير بين عثمان وعماله وأمره لهم بالعودة إلى أعمالهم ، ومنهم سعيد بن العاص ، وكان الأشتر لا يزال في المدينة أبلغه طلحة والزبير بذلك استعجل المسير إلى الكوفة ووصل قبل سعيد بن العاص إليها ، وبعد وصوله صعد المنبر وقال : أما بعد فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد ردّ عليكم ، وأمر بتجهيزكم في البعوث (وهذا من ضمن ما تم الوصول إليه بين عثمان وولاته) فبايعوني على ألا يدخلها . فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة وخرج متخفياً يريد المدينة أو الكوفة ، فلقي سعيداً بواقصة (وقيل بالجرعة) فأخبره الخبر ، فانصرف إلى المدينة . (الطبري حوادث سنة ٣٣ و٣٤ ابن الأثير ، البداية والنهاية ، طبقات ابن سعد ٥/٣٠ ـ ٣١ مروج الذهب ٢/٣٧٢ ـ ٣٧٣) .

(١) مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر ، والأشتر لقب ، وكان سبب تلقبه به أنه ضربه رجل يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحاً إلى عينيه فشترتها (الإصابة) .

قال : ثم أخذ كفاً من حصباء المسجد فحصبه ، فضرب الناس يده فقصرت الحصباء ولم تبلغ الأشتر ؛ قال : فصاح به الأشتر وقال : وما أنت أيها العسير الخضوف[1] والكلام في أمر العامة ، والله ! ما أسلم قومك إلا كرهاً ولا هاجروا إلا فقراً . قال : ثم وثب الناس على قبيصة فضربوه وطردوه وأخرجوه ، وقام رجل من أهل المسجد فناشدهم الله حتى كفوا عنه . قال : واحتمل قبيصة إلى منزله ، ونزل الأشتر عن المنبر ونادى في الناس ، فاجتمعوا إليه ، واستقبل فصلى بالناس ، فلما انفتل عن صلاته أمر بإخراج خليفة سعيد بن العاص من القصر ، فأخرجوه وهو ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري[2] .

قال : ثم خرج الأشتر فعسكر بالجرعة بين الكوفة والحيرة ، وبعث بعائذ بن حملة الظهري فعسكر في طريق البصرة في خمسمائة فارس ، وبعث حمزة بن سنان الأسدي إلى عين التمر فعسكر هنالك ليكون مصلحة فيما بينه وبين أهل الشام في خمسمائة فارس ، وبعث بعمرو بن أبي حنة الوداعي إلى حلوان وما والاها في ألف فارس ، وبعث يزيد بن حجية التيمي إلى المدائن وكوخى وما والاها في سبعمائة فارس .

[3] [كما أرسل كعب بن مالك الأرحبي إلى مكان يدعى العذيب[4] مع خمسمائة فارس وأمره قائلاً ، إن جاء سعيد بن العاص من المدينة أميراً على الكوفة فأعده ولا تسمح له بدخول الكوفة وخذ كل ما معه من مال ومتاع وضعه أمانة في منزل الوليد بن عقبة في الكوفة ، فتقدم الأشتر (عندما سمع الخبر) ومعه ثلاثمائة فارس وجاء إلى باب المنزل وأمرهم بأن ينهبوا ما في البيت . فدخل الناس وأخذوا كل ما وجدوه وأخرجوها ثم قلعوا الأبواب وأحرقوها حتى احترق كل ما بقي في البيت .

وحين علم عثمان بذلك « وقد بلغه ما صنعه الأشتر » ضاق صدره بذلك واعتبر أن هذا العمل كان بتحريض أو تأييد من علي رضي الله عنه وقال : لا أعلم ماذا أفعل

---

(١) الخضوف : يقال امرأة خضوف أي الردوم ، والخيضف : الضروط من الرجال والنساء . يقال : خضف بها إذا ضرط . (اللسان) .

(٢) في ابن الأثير : عمرو بن حريث .

(٣) من هنا سقطة طويلة بالأصل ، استدرك من الترجمة الفارسية للكتاب ص ١٤٤ ـ ١٤٩ بعد تعريبها .

(٤) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة ، يبعد عن القادسية أربعة أميال .

مع علي الذي يظهر محاسني للناس على شكل نقائص ويحرض الناس عليّ وعلى أعمالي . ثم استدعى سعيد بن العاص[1] وأعاده إلى الكوفة وقال له : إذا وصلت إليها ، تقرب من الناس وعدهم مواعيد حسنة وقل للأشتر بأن يتخلى عن تلك الأعمال ولا يثيرن الفتنة وغالب ظني أن الناس حين يرونك سيتخلون عن الأشتر ويأتون إليك فذهب سعيد كما أمره عثمان إلى الكوفة وحين اقترب من « العذيب » تصدى له عبد الله بن كنانة بن الخطاب[2] ومعه ثلاثمائة فارس وقالوا له : يا عدو الله ، أين تذهب ، عد من حيث أتيت ، فوالله لن ندعك تشرب من ماء الفرات قطرة واحدة ، فكيف تطمع بغير ذلك ؟ [ثم حمل كل منهما على الآخر] فأيقن سعيد أنه لا قبلَ له بهم فعاد .

ذكر رسالة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى مالك الأشتر

حين أرسل عثمان سعيد بن العاص نحو الكوفة ، كتب رسالة لأهلها وأرسلها بواسطة عبد الرحمن بن أبي بكر ومضمونها كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عثمان بن عفان أمير المؤمنين إلى مالك بن حارث وأصحابه الذين معه . أما بعد ، فاعلموا بأن الاعتراض على الخليفة والطعن عليه ذنب عظيم ، والإقدام على المعصية عاقبتها وخيمة ، وليس له جزاء إلّا العذاب والنكال ؛ وقد علمت بما فعلتموه مع عاملي ونائبي لديكم ، فاعلموا بأن الظلم نتيجته ستكون عليكم ، وبذلك قد فتحتم على أنفسكم باب سخط الله وغضبه ، كما فتحتم للعامة باب الفتنة ونقضتم بذلك العهد ، فأنتم أول من بدأ بالعصيان وسننتم سنة الفرقة ، ذلك أنّ كل من يرغب من هذه الأمة بالعصيان فسيوافقكم ويقتدي بكم وسيكون وبال ذلك الأمر في أعناقكم . فاتقوا الله يا عباد الله ، وعودوا إلى الحق ، وتوبوا عن

---

(١) وكان سعيد بن العاص لا يزال بالمدينة وقد انتهى الاجتماع بين عثمان وولاته وقد علم الأشتر بنتائجه من طلحة والزبير اللذين أعلمهما ما دار في الاجتماع عمرو بن العاص وكان حاضراً المداولات ، فغادر الأشتر على الفور المدينة فيما كان سعيد يستعد لمغادرة المدينة . (مروج الذهب ٢/٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٢) عند ابن سعد ٥/٣٣ أن يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي لقياه وقالا له : ارحل إلى صاحبك ، فقال : إبلي أنضاء أعلفها أياماً ونقدم المصر فنشتري حوائجنا ونتزود ثم أرتحل . فقالا : لا والله ولا ساعة ، لترتحلن أو لنضربن عنقك . فلما رأى الجد منهما ارتحل لاحقاً بعثمان (انظر مروج الذهب ٢/٣٧٣ ابن الأثير ٢/٢٧٤) .

أعمالكم المنكرة لعلكم تنجوا . وإذا كان لكم أي هدف أو مطلب تهدفون إليه من مشاغبتكم فاكتبوا إلي ، وإذا لم ترضوا عن أمير ، أرسلته إليكم فإني أعزله وأبعث شخصاً آخر مكانه .

ولما وصل عبد الرحمن بن أبي بكر إلى الكوفة وأبلغهم رسالة عثمان ، تداعى أهل الكوفة واطلعوا على مضمون الرسالة وقالوا للأشتر : أجب عن الرسالة فكتب الأشتر الجواب على الشكل التالي :

جواب الأشتر عن رسالة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذه رسالة من مالك بن الحارث وجماعة المسلمين إلى الخليفة المتنكب عن سنة نبيه محمد ، أما بعد .

فاعلم بأن رسالتك قد وصلت وما ذكرته فيها بأن الاعتراض على الخليفة ومفارقة الجماعة والطعن في الأئمة أمر عظيم وخسارة ظاهرة ، فإن هذا الكلام صحيح شرط أن يكون الخليفة عادلاً ، وأن يسيِّر الأمور على سبيل الحق ، أما إذا سار الخليفة على غير طريق السداد والصلاح فإن الاعتراض عليه وسيلة وقربة عظيمة إلى الله ، وما ذكرته عن الوالي بأننا ظلمناه ولم نحترمه فإننا لم نظلم عاملك بل دفعناه عن ظلم نفسه وظلم عباد الله تعالى ، ويجب عليك أن تنهي نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان لكي نطيع أوامرك ونعينك في سبيل الحق ، وما كتبته حول ظلم العامل فهو ظن خاطىء سيؤدي إلى ضررك ، فإنك تسمي العدل جوراً وطلب الإنصاف ظلماً ، وإننا بحمد الله على الطريق المستقيم سالكين طريق الرجال الأبرار وليس عندنا في ذلك شك . ولن نبدل موقفنا وكل من يقلدنا فهو على الصراط المستقيم وسيكون مهتدياً إلى طريق السعادة ومعززاً في الدنيا والآخرة ، وسيكون مع الرجال الذين يعينون الظالمين ، ولا يداهنون في إقامة السنن والفرائض ، وأما ما أمرتنا به من التوبة والرجوع إلى الحق ، فإننا إن أطعناك سنكون من الضالين وبعيدين عن التقوى . وأما ما ذكرته بأن نكتب إليك بمطالبنا وأنك ستعين الأمير الذي نرضى نحن به فإن أول مطلب لنا هو أن تستغفر الله وأن تتوب إليه من ذنبك بسبب التعديات والمظالم التي وقعت علينا وعلى عيالنا وأولادنا وعن تسليطك العمال الظالمين والفاسقين على رقاب المسلمين . فإن أصلحت نفسك وصححت موقفك حسب أوامر الله سبحانه وتعالى

ورسوله فنحن من المطيعين لك وننفذ أوامرك وإلاّ سنبقى على عصياننا ومعارضتنا وسنصرّ على ذلك إلى أن يحكم الله بيننا وبينك . وإن قبلت نصائحنا وتبت عن الأعمال الغير مقبولة فسنرسل إليك رجالاً من طرفنا فأعنهم حتى إذا رجعوا إلينا وأخبرونا عن حالك وإنابتك كما فصلنا لك ذلك فأرسل إلينا عبد الله بن قيس لكي يسير بالعدل بين الناس ويقيم شرائع الإسلام ، وانصب حذيفة بن اليمان من أجل تحصيل أموال الخراج وحقوق بيت المال لكي يحصلوا الأموال المتوجبة حسب الأصول من الناس ، وأما سعيد بن العاص ووليد بن عقبة وأمثالهما من أقاربك وأهل بيتك الذين يظلمون الناس ويرون ذلك جائزاً ويبتغون أهواء أنفسهم ، فاحتفظ بهم لديك ، فإن وافقت على هذا فنحن مطيعون لأمرك وإلاّ فاتق الله ودع هذه الولاية بدون بدع واحفظ كرامتها واتركها على جادة الاستقامة ومنهاج التقوى وكن على يقين بأن كل ما تقوم به من خير أو شر ستجازى عليه يوم القيامة ﴿ **ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ والسلام[1] .

ثم بعدما فرغ الأشتر من كتابة الرسالة استدعى رجالاً يثق بهم ودفع إليهم الرسالة وقال : اذهبوا إلى المدينة وأوصلوها إلى عثمان .

وحين وصل هؤلاء إلى المدينة ذهبوا إلى مقر أمير المؤمنين فسلم بعضهم على عثمان بالخلافة وبعضهم لم يفعل . فسئلوا لِمَ لَم تسلموا على أمير المؤمنين فقال الكميل بن زياد : بسبب الأعمال الخطأ التي عملها ، فإن عاد عنها وتاب منها وسلك نهج الصواب فهو أميرنا ، وإلاّ فليس بأمير لنا فسألوه : ما هي مطالبكم وما هي أهدافكم ، فقالوا : أولاً ، أن لا نخرج من أوطاننا المألوفة ولا نفارق عيالنا وأولادنا وأن توصل إلينا رواتبنا ، وأن لا يرسل إلينا شباباً أغراراً من أقاربه يتأمّرون علينا وقد اتبعوا أهواءهم وشهواتهم وأن لا يقدم الأشرار على الأخيار ، فقال أمير المؤمنين

---

(1) في مروج الذهب ٣٧٣/٢ أن الأشتر كتب إلى عثمان ، وذلك بعدما صرف سعيد بن العاص : إنا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك ، ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه ، فابعث إلى عملك من أحببت .
فكتب إليهم : انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه . فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعري ، فولوه .
وفي رواية الطبري ٩٤/٥ أن سعيد بن العاص بعدما وصل إلى عثمان وأخبره خبره، قال : ما يريدون ، أخلعوا يداً من طاعة ؟ قال : أظهروا أنهم يريدون البدل ، قال : فمن يريدون ؟ قال : أبو موسى .

عثمان رضي الله عنه : أي أشرار قدمتهم على أخياركم ! فتقدم رجل من قرّاء الكوفة يدعى زيد بن حسين الطائي وقال : لقد كان رجل صالح رأى منكراً فأنكره بلسانه من أجل إعلاء كلمة الحق وإطفاء نائرة الظلم وقبل أن يتحرك من مكانه ضربوه حتى عض الأرض بأسنانه ، وإنني أتكلم بهذا الكلام فإن كنت تريد أن تأمر بضربي فاعلم بأني قد توقعت ذلك فأناشدك الله أن تعود يا عثمان وأن تتخلى عن الأعمال التي ينكرونها عليك وإلّا فإن المؤمنين من قريش سيخرجون عن طاعتك ويخلعونك . فقال عثمان : إنني تبت وتركت كل شيء تكرهونه وأعاهدكم بأن أعمل بكتاب الله وسنة رسوله فقالوا : إن تفعل هكذا فنحن مطيعون لأمرك ونقبل بحكمك ثم أمر عثمان بأن ينزلوهم في خير منزل ويكرموهم ، ثم كتب جواباً لأهل الكوفة على هذا النحو .

رسالة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لأهل الكوفة

أما بعد ، فاعلموا يا أهل الكوفة بأن رسالتكم قد وصلت وقرئت وقد تعجبت فيما كتبتموه كما عجبت لجرأتكم عليّ ، وعيبكم إياي بما لم أفعله ولم آمر به ، وتأملت في من يكون صاحب هذه الجرأة فلم أر سوى نزغات الشيطان ، وليس سوى إبليس يستطيع أن يملي مثل هذه الرسالة فضقت بمبلغ جهالتكم ، وعلمت بأنكم مغدورين ومفتونين ومع كل ذلك تظنون أنفسكم على طريق الهداية وعلى الصراط المستقيم ، وقد كتبتم أن أرسل إليكم أبا موسى الأشعري ليقوم بشؤونكم ويصلي بكم وأن أرسل إليكم حذيفة بن اليمان ليقبض الخراج ، وإن كان هذا يعد تحكماً منكم وقد أجبتكم يا أهل الكوفة إلى ذلك ، فاتقوا الله الذي إليه ترجعون ولا تلقوا بأنفسكم إلى الفتنة ، ولا تفارقوا الجماعة ولا تقبلوا كلاماً لم أقله ولا تنسبوا إليّ عملاً لم أفعله وإنني لن أطيع هواكم وأخالف ما أرى أنه الحق وأطلب لي ولكم الهداية من الله وإنني مواظب على طاعة الله جل ذكره حتى يرضى عنا ولا حول ولا قوة إلّا بالله[1] .

ثم أرسل إليهم أبا موسى الأشعري إلى الكوفة وحذيفة بن اليمان إلى سوادها . ثم عاد الأشتر بعد أن قضى أربعين يوماً بين الجيش الذي اجتمع لديه . وكان يتردد عليه أبو موسى الأشعري وقد قام كل من أبو موسى وحذيفة بأداء واجبه على طريق العدل وكانوا يحسنون معاملة الناس .

وبعد أن سير أمير المؤمنين أبا موسى وحذيفة إلى الكوفة صعد المنبر وخطب

---

(١) نسخة أخرى لكتاب عثمان لأهل الكوفة الطبري ٥/٩٤ وابن الأثير ٢/٢٧٤ .

في الناس فأثنى على الله تعالى ثم سلم على رسوله وقال :

أيها الناس : اتقوا الله وأطيعوا أُولي الأمر وإياكم ومفارقة الجماعة واحفظوا بيعتكم واعلموا بأن الأمور منوطة بتقدير الله تعالى ، وأنه لا راد لقضاء الله ، ولا مانع لحكمه وأنكم كلما بذلتم لنا الطاعة فإنكم تزدادون منا قرباً ، وكلنا أمل بالله أن يعمنا بفضله ولطفه وأوكلنا أمورنا إليه واتكلنا على عونه وحفظه ثم رفع يديه ودعا :

اللهم لا تكلني إلى نفسي فأعجز عن أمري ، ولا إلى أحد من خلقك فيخذلني ، بل أنت يا رب فتول أمر دنياي التي أعيش فيها وآخرتي التي أنا صائر إليها ، وإنك على كل شيء قدير وذلك على الله يسير .

ذكر وصول بعض المصريين إلى المدينة وشكايتهم ضد عاملهم

ولما توجه أبو موسى الأشعري وحذيفة بن اليمان إلى الكوفة كان أول ما فعلوه أن التقوا بالأشتر(١) . وكان موسم الحج قد اقترب فنادى عثمان عبد الله بن العباس وأمره بأن يذهب إلى الحج ليقيم للناس مناسكهم ويرعى مصالحهم فذهب ابن عباس وأقام مناسك الحج ثم عاد إلى المدينة(٢) .

وفي ذلك الوقت وصلت من مصر جماعة من الوجهاء يشتكون عاملهم(٣) ودخلوا إلى المسجد النبوي فرأوا عدة من المهاجرين والأنصار فسلموا عليهم فردوا عليهم السلام وسألوهم عن الأمر الذي دعاهم للحضور فقالوا : لقد جئنا استنكاراً

---

(١) في الطبري أن أبا موسى وصل إلى الكوفة وصعد المنبر وخطبهم قال : « أيها الناس لا تنفروا في هذا ولا تعودوا لمثله . الزموا جماعتكم والطاعة وإياكم والعجلة فكأنكم بأمير » . ثم جدد البيعة لعثمان في رقاب الناس . (الطبري ٥/٩٤ ابن سعد ٥/٣٣) .

(٢) كذا بالأصل . وفي مروج الذهب ٤/٤٤٨ أن عثمان حج بالناس من ٢٥ إلى ٣٤ - عثمان بن عفان - ، ولم يحج عبد الله بن عباس إلا سنة ٣٥ بأمر عثمان وهو محصور .

سياق الأحداث والتطورات كانت بين سنتي ٣٣ إلى ٣٤ . وقد حج بالناس هذه السنة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) قال ابن كثير أن سبب ذلك أن الخوارج من المصريين كانوا محصورين من عمرو بن العاص مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلموا فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان فعزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وما زالوا يسعون بعمرو حتى انتقل إلى المدينة ، وكان في نفسه من عثمان أمر عظيم وجعل يؤلب الناس على عثمان ، وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان ويتكلمون فيه . . . ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه . (البداية والنهاية ٧/١٩٠) .

لبعض الأعمال التي صدرت عن عاملنا . فقال لهم علي بن أبي طالب : لا تتعجلوا في أمركم وأخبروا الإمام ما تريدون مشافهة وقولوا إن العامل كان يفعل ما يشاء . بحسب رأيه وليس حسب أوامر الخليفة وأخبروه بكل الأمور التي تنكرونها عليه . ثم هو يعاتبه ويستدعيه فيحصل مطلوبكم أمّا إذا لم ينكر عليه وتركه في مكانه ، حينئذ تأملوا في وجه المصلحة وما يجب أن تفعلوه . فدعا له المصريون وقالوا : نأمل أن تتلطف بنا وتكلف نفسك بالمجيء معنا إلى عثمـان . فقال علي : لا حـاجة لكم بحضوري ففيكم الكفاية . فقالوا : صحيح ، ولكننا نرغب في حضورك لتشهد علينا فقال علي : هناك شاهد أقوى مني سيكون . (وكل ما يجري سيراه ويسمعه فقالوا من ذاك الذي ستكون شهادته أعظم من شهادتك وحضوره أعظم من حضورك وأنت أخ للرسول ﷺ فقال علي : الله جلّ جلاله) . إنه أعظم من جميع المخلوقات وأرحم بعباده من أنفسهم (فاتركوني وشأني واذهبوا إلى أمير المؤمنين واشرحوا حالكم ، وما تنقمونه على العامل فقولوا لعله يحصل مقصودكم وتكونون راضين) .

حينئذ توجه المصريون إلى منزل عثمان وطلبوا الإذن عليه فلما أذن لهم دخلوا وسلموا عليه فأكرم أمير المؤمنين مثواهم وقربهم إليه ثم قـال لهم : ما الـذي جاء بكم ، هل أنتم ناقمون على أحد حتى مللتم ثم جئتم بلا أمر مني أو من عاملكم (فاذكروا مطالبكم، فقال المصريون): لقد جئنا بسبب الأعمال غير المرضية التي ظهرت من عاملكم وجئنا لإنكارها كي تستدعيه وتسأله عنها . أيها الخليفة ، إن نعمة الله عليك كثيرة فأدِ شكر النعمة واتق الله فقال : أية أفعال غير مقبولة صدرت عني ، بينوها لي فقال المصريون : بما أنك تطلب منا الحق فسنقول لك . أول ما ننقمه عليك أنك قربت الحكم بن أبي العاص الـذي نفـاه رسـول الله ﷺ إلى الطائف . ثانياً : إحراقك لأجزاء المصحف ، وثالثاً ، احتجازك لماء المطر الذي هو رزق من الله لعباده وإعطائه لأقاربك ومنعت الناس عنه ، وأخيراً نفيك لجماعة من صحابـة الرسول بغير حق من البلد وفصلهم عن أهلهم وعشيرتهم بينما يقول الله تعالى في كتابه : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون** ﴾[1] .

وأيضاً كونك تطيع الناس ظاهراً ثم تستبد برأيك بينما حكم الشرع في حق من يعصى الله بأن لا يطاع فإن أنت أطعت الله تعالى واتبعت أوامره فنحن نطيعك ونتبع

---

(١) سورة البقرة : ٨٤ .

أوامرك ونعظم حرمتك كما هو والحال بين الولد وأبيه وأمه وأما إذا رفضت الأفعال الحسنة وتابعت سيرك على هذا النحو فلن نطيعك ولن ننفذ أوامرك وستكون العاقبة هلاكنا وهلاكك فاتق الله واعتقد بأنك عبد وستحاسب على النقير[١] والقطمير[٢] والله سبحانه وتعالى مطلع على أحوال عباده وإليه سيرجعون جميعاً . وبمقدار سلطة الإنسان ومسؤوليته سيكون سؤاله بينما سيكون حساب الضعفاء أقل صعوبة . لقد قلنا لك ما علمناه وأخرجنا ذلك من أعناقنا وبعد ذلك الأمر هو لك .

وبعدما سمع عثمان كلام المصريين تغير لونه وأطرق ساعة يفكر . ثم بعد ذلك رفع رأسه وخاطبهم .

يا قوم لقد بالغتم وتكلمتم بكلام كثير لا أدري كيف أبدأ الجواب . أما بخصوص الحكم بن أبي العاص الذي كان قد قام بأعمال غير مناسبة ونسبت إليه بحق الرسول ﷺ وقد تأذى منه النبي وأخرجه من المدينة .

(وبعد ذلك تقدمت أنا من النبي عليه السلام وشفعت به إلى الرسول لكي يعيده فأجابني الرسول إلى ذلك ثم بسبب انتقال الرسول عليه السلام إلى جوار ربه ومرور عدة سنوات على ذلك . وبعدما وصلت إليّ الخلافة وبسبب أملي في أن النبي عليه السلام كان ينوي إعادته وبسبب القرابة بيننا أرسلت إليه وأحضرته إلى المدينة وكان في المدينة مسالماً لم يتأذ منه أحد . وإذا اشتكى منه أحد فإنني حريص على رضاكم وسنرسل من يحقق في أعماله وأعمال وكلائه ثم نقيم عليهم الحجة حتى يسلكوا طريق العدل والصدق ويحترزوا من طريق الشر . فقال المصريون : ليس هذا كافياً بل يجب أن تستدعي العمال والنواب إليك ثم ترسل أشخاصاً يحققون في أحوالهم ومعاملاتهم[٣] فإذا ما أخبروك بمثل ما أخبرناك فإنك بعد ذلك تواجههم بأعمالهم وتقررهم بها فأجابهم أمير المؤمنين : هكذا سأفعل وعلى الرأس والعين ثم كتب رسالتين : واحدة إلى أهل الكوفة وأخرى لأهل مصر على هذا النحو :

---

(١) النقير : النكتة في النواة منها تنبت النخلة . وقيل : النقير : ما نقب من الخشب والحجر ونحوهما . وقيل : النقير : أصل النخلة ينقر فينبذ فيه . (اللسان) .

(٢) قطمير : شق النواة . وفي الصحاح : القطمير : الفوقة التي في النواة ، وهي القشرة الدقيقة التي على النواة ، بين النواة والتمر .

(٣) في الطبري أن عثمان دعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ليقفوا على أخبار الأمصار (ج ٥/٩٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى جملة عماله ونوابه ، أما بعد ، فاعلموا أن الناس يتكلمون في حقي بكلام ينسبوني منه إلى الظلم وإنني لا أرضى أبداً بالظلم ولا أقبل بأن يقوم عمالي ونوابهم بأي عمل أو حكم لا يوافقوا أحكام الله ثم أقسم عليكم بأن كل من يرى لي عليه حقاً ويرى لزوم طاعتي بمجرد اطلاعه على مضمون هذه الرسالة أن يتجه إلي في الحال وليحضر إلى المدينة لأتحقق من أحوالكم فإن صدر عنكم أي جور أو ظلم أصلحته ثم أوليّ رجلاً أميناً عادلاً مكانه وسأحافظ على حقوق الرعية كما يجب إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى أهل الكوفة والبصرة ومصر وعلم الناس بمحتواها ، كان الأشتر النخعي أول من وصل إلى المدينة ومعه مئة نفر[1] من أهل الكوفة ثم تلاه حكيم بن جبلة من البصرة ومعه مئتان وخمسون رجلاً[2] وبعده أبو عمرو يزيد[3] بن ورقاء الخزاعي وعلقمة بن عديس البلوي[4] وكنانة بن بشر التجيبي[5] ، وسودان بن حمران المرادي مع أربعمائة[6] رجل من أهل مصر وقد اجتمعوا في المدينة وقد اتصل بهؤلاء بعض المهاجرين والأنصار الذين كانت لهم بعض المآخذُ على عثمان ، وتشاوروا حول عثمان فقر رأي الجميع على عزله من الخلافة وإلّا فإنهم يقتلونه . (على هذا القرار اتفقوا) ثم واجهوا عثمان بقرارهم فندم عثمان على دعوتهم وفزع منهم ، ثم دخل منزله وأغلق بابه وصعد إليهم وكلمهم من السطح قائلاً :

. أيها الناس ماذا تريدون مني وأي عمل من أعمالي لا توافقون عليه حتى أبدله ، وما هو هدفكم حتى أحققه لكم ، وأحصل على رضاكم ، فأجابوا : لقد حجزت عنا

---

(١) في الطبري ١٠٤/٥ وابن الأثير ٢٨٠/٢ في عداد أهل مصر (بين الخمسمائة والألف) وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم . وفي مروج الذهب ٣٨٠/٢ في مائتي رجل .

(٢) في الطبري وابن الأثير : كعداد أهل مصر . وفي مروج الذهب : في مئة رجل .

(٣) في البداية والنهاية ١٩١/٧ عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي .

(٤) الطبري وابن الأثير : عبد الرحمن بن عديس البلوي .

(٥) في الطبري وابن الأثير : الليثي . وفي ابن سعد : الكندي .

(٦) في مروج الذهب والطبري : ستمائة .

ماء المطر ومنعت مواشينا من ورود ذلك الماء . فقال عثمان : لقد حجزت الماء من أجل إبل الصدقة والآن إذا كان هذا لا يرضيكم فهو لكم فافعلوا به ما تشاؤون فقالوا : لقد حجزت ذلك الماء أكثر مما حجزه عمر رضي الله عنه فقال : لقد كثرت إبل الصدقة في هذه الأيام فلذلك اشتدت الحاجة إلى الماء ولهذا كنت قد حجزت الماء . ثم قالوا : لقد مزقت المصاحف وأحرقتها . فقال عثمان : لقد كثرت القراءات وخشيت أن يختلف الناس وقد جاء إليّ حذيفة بن اليمان وقال لي : إن الناس قد اختلفوا في وجوه القرآن . فيقول أحدهم : قراءتي أفضل ويأتي آخر فيقول : قراءتي أفصح . فأردت أن أزيل أسباب الخلاف وأجمع الناس على قراءة واحدة[1] ، ولم أقصد بهذا العمل إلا خير المسلمين ، ولو أني تركتهم على حالهم ربما ألحقوا بالقرآن أشياء ليست من القرآن . وعند ذلك يبدأ الخلاف حول القرآن والقراءة بين الأمة . فقالوا : هذا أمر مضى (إننا نعذرك في هذا الأمر) فلماذا لم تشهد غزوة بدر مع النبي ﷺ فقال عثمان : لقد كنت في ذلك الوقت صهراً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام وكانت زوجتي مريضة جداً . فقال لي النبي ﷺ : إني قلق عليها فأنت معفى من حضور هذه الغزوة وكن إلى جانبها وعالجها حتى تُبلّ من مرضها ، ولما عاد النبي عليه السلام أعطاني حصتي من غنائم بدر كما لو كنت حاضراً وهذا الأمر معروف لديكم . ثم قالوا : لم لم تحضر بيعة الرضوان فقال : إنكم تعلمون إلى أين أرسلني النبي ﷺ في ذلك الوقت[2] وحين البيعة وضع عليه السلام يده اليمنى على يده اليسرى وقال : هذه يدي عن عثمان . ثم قالوا : ماذا تقول في هروبك من معركة أُحد وقد تركت النبي ﷺ ، وهذا ذنب كبير فقال : لقد عفا الله عني في هذه المسألة . ثم قالوا : وماذا تقول حول ضربك بعض الرجال الصالحين وإخراجهم من البلد ، وحول تعيينك بعض الشباب الأغرار فتصرفوا في

---

(١) أمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان : إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم . وبعدما نسخوا الصحف أرسل إلى كل مصر بمصحف وأمر بحرق ما سوى ذلك . قال السيوطي في الإتقان أنه أرسل إلى الآفاق خمسة . وقال ابن أبي داود من طريق سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف فأرسل إلى مكة والشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً .
(وانظر ابن القيم الجوزية : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ١٨ ـ ١٩) .

(٢) كان رسول الله (ص) بعثه إلى مكة ، فأشيع أنهم قتلوه (الإصابة) .

دمائنا وأموالنا بغير حق ، ثم إنك منعت العطاء عن الذين نفيتهم حتى ماتوا في بلاد الغربة بعيدين عن أولادهم وأعزائهم ، ولم يجدوا كفناً عند موتهم ، وإن هم وجدوا فكان من باب الصدقة عليهم ؟

فقال عثمان : إن الذين أخرجتهم من أوطانهم وأرسلتهم إلى نواحٍ أخرى بسبب مصلحة رأيتها ، فقد كان ذلك الشخص يسيء لي القول باستمرار ، ويحرض الناس علي ، فرأيت أن يقيم في مكان آخر . ولو تركتهم في أماكنهم فإنهم سيثيرون علي الناس وينشرون الفرقة بين المسلمين ، فإن كان هذا ذنباً فلست بأول والٍ يدفع الإساءة عن نفسه بمثل هذا الذي تعتبرونه ذنباً علي . ولئن مات واحد من هؤلاء في الغربة فإن الله يحكم بيننا ، وإن رأيتم شخصاً في حال الاغتراب وترونني مذنباً بإبعاده فابعثوا إليه وليحضر . وإن كنت قد ضربت أحداً ظلماً فخذوا مني القصاص . فقالوا : إن عمار بن ياسر هو أول شخص سيقتص منك .

فقال أمير المؤمنين : إن سبب ضرب عمار هو أنه تعجل وعبس في وجهي ونعتني بالظلم ولم يحفظ حرمتي . والآن الأمر سهل . قولوا له : ليأت وليقتصّ مني(١) .

أما قولكم عن عمالي فإن ترون أحداً منهم يعامل الرعية بصورة سيئة فاعزلوه ، وأما من وجدتموه مستقيماً وعادلاً فأقروه في عمله إن شئتم . ثم قالوا : ما قولك في الأموال التي هي أموال عامة وقد وزعتها بين أقاربك وأهل بيتك ؟

فقال : إن أمير المؤمنين عمر كان يتصرف هكذا : فقد كان يرجح في العطاء أهل الفضل والسابقة . فقالوا : يا عدو الله . إن أعطيات عمر لا تبلغ واحداً من مائة مما أعطيت (ومعنى هذا الكلام أنك أسرفت جداً) .

فقال لهم : حاسبوني ثم انظروا ما وهبته كم يبلغ وإني أتعهد أن أؤديه من مالي فإن بقي منه شيء أتعهد بسداده .

أيها المسلمون : لماذا تريدون قتلي ؟ تجاوزوا عن هذا فقد سمعت النبي ﷺ يقول :

---

(١) مرّ أن عثمان عرض على عمار ثلاث خصال : إما العفو ، وإما الدية وإما الاقتصاص منه . فرفض عمار القبول بأي منها .

« لا يحل دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه فيقتل . أو رجل زنى بعد إحصانه فيرجم ، أو رجل قتل نفساً بغير نفس »(1) .

وإني أقسم بالله بأنني منذ هداني الله تعالى لم أغير ديني . ولم أقتل أحداً أبداً ولم أزن في جاهلية أو في إسلام . ولقد استحييت بعد أن وضعت يدي في يد النبي ﷺ أن أضع يدي مرة أخرى على عورتي .

فتأثر الناس بكلامه وخجلوا مما كانوا يظنونه به وتفرقوا .

ثم أرسل عثمان بعضاً من خواصه إلى عمار بن ياسر وطلب منه المصالحة أو يقتص منه فأبى عمار وتكلم بكلام خشن وصاح في وجوه الموفدين من طرف عثمان : لن يخدعني عثمان ، وقد فعل ما فعله بي من الضرب والإهانة .

ثم أرسل عثمان شخصاً إلى عبد الله بن عمر فلما حضر عنده قال له : فكر معي فيما وصلت إليه . فقال : يا عثمان . لقد كنت في عهد النبي ﷺ وكان راضياً عني ، وكذلك في أيام أبي بكر ثم في أيام أبي وكان له علي حقان ؛ حق الأبوة وحق الخلافة وكان دائماً راضياً عني ، ولم يسمع مني كلمة غير مناسبة ، حتى جاءت نوبتك للخلافة فبذلت لك الطاعة والنصيحة بقدر وسعي ، ولا أظن أنك غضبت علي فالآن مرني حتى أفعل فقال عثمان : يا أبا عبد الرحمن . إني لا أسألك عن هذا . جزى الله آل عمر خيراً . ولكنك ترى هؤلاء القوم ، ماذا يقولون ، وفيم يفكرون ويريدون أن يخلعوني من خلافة(2) ؟

فقال عبد الله : إن تطعهم فإنك تعلم أنك لست خالداً في الدنيا . قال : أعلم ومهما عشت فلا بد أن أذهب .

فقال عبد الله : هل الجنة والنار بيدهم أم لا ؟ فقال : لا .

فقال عبد الله : فالرأي هو أن لا تقر مثل هذه البدع في الإسلام(3) ، ففي أي وقت يمكن لمجموعة من الناس أن يسخطوا على الخليفة ويعزلوه ويعينوا مكانه .

---

(1) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦١/١ ـ ٦٣ ـ ٧٠ ـ ٣٨٢ ـ ٤٤٤ ـ ٤٦٥ و٥٨/٦ ـ ٢١٤ . ونقله ابن كثير ٢٠١/٧ وابن سعد ٦٧/٣ . وقد رواه أهل السنن الأربعة .

(2) في ابن سعد ٦٦/٣ : يريدون خلعي ، فإن خلعت تركوني وإن لم أخلع قتلوني .

(3) عند ابن سعد : فلا أرى أن تسن هذه السنّة في الإسلام .

احفظ القميص الذي ألبسك الله إياه ولا تنزعه وقل لأولئك القوم : بيني وبينكم كتاب الله وسنة نبيه . وعلى كل حال لا أرغب في خلافكم (فإن هم رضوا بذلـك فيها ونعمت ، وإلا فقد أديت ما عليك ، وليكن من أمرهم ما يكون) .

فوقع هذا الكلام من عثمان موقعاً حسناً . ثم طلب المغيرة بن شعبة وقال له : اذهب إلى اولئك القوم واسترضهم . وتعهد لهم بأداء كل ما يطلبونه . وأخبرهم بأن عثمان يحتكم وإياهم إلى كتاب الله وسنة رسوله (وفي كل حال لا يود خلافكم) فقال المغيرة : أفعل . فذهب إليهم وحين اقترب منهم صاحوا به : ارجع يا أعور ارجع يا فاسق ارجع يا فاجر . فقال المغيرة وأخبر عثمان بما أسمعوه إياه .

ثم استدعى عثمان عمراً بن العاص وحمله إليهم الرسالة السابقة . فكان ردهم عليهم أقبح وقالوا له : لا سلام عليك ارجع يا عدو الله يـابن النابغة فلست عندنا بمأمون ولا نثق بك . فعاد عمرو بن العاص وأخبر عثمان بما لقي منهم . حينئذ قال عبد الله بن عمر : يا أمير المؤمنين ؛ إن اولئك القوم لم يستمعوا إلا لعلي بن أبي طالب فإن أرسلته إليهم يمكن أن يسمعوا كلامه فيطيعوا الأمر][١] .

قال : فأرسل عثمان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدعاه فقال : يا أبا الحسن أنت لهؤلاء القوم فادعوهم إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنـة نبيه واكفني ممـا يكرهون ؛ فقال له علي : إن أعطيتني عهد الله وميثاقه أنك توفي لهم بكل ما أعطيهم فعلت ذلك ، فقال عثمان : نعم يا أبا الحسن ، اضمن لهم عني جميع ما يريدون .

قال : فأخذ علي عليه عهداً غليظاً وميثاقاً مؤكداً ، ثم خرج من عنده فأقبل نحو القوم[٢] ، فلما دنا منهم قالوا : ما وراءك يا أبا الحسن فإننا نجلّك ، فقال : إنكم تعطون ما تريدون وتعافون من كل ما أسخطكم ويولّى عليكم من تحبّون ويعزل عنكم من تكرهون ، فقالوا : ومن يضمن لنا ذلك ؟ قـال عليّ : أنا أضمن لكم ذلـك ، فقالوا : رضينا[٣] .

---

(١) إلى هنا ينتهي ما استدركناه من الترجمة الفارسية .

(٢) في الطبري ٥/١١٠ وابن الأثير ٢/٢٨٣ انطلق علي رضي الله عنه في ركب من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وأبو أسيد الساعدي وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ونيار بن مكرز وغيرهم . (انظر مروج الذهب ٢/٣٨٠ والبداية والنهاية ٧/١٩١) .

(٣) قال المسعودي : فسار إليهم علي ، فكان بينهم خطب طويل ، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا (مروج =

قال : فأقبل علي إلى عثمان ومعه وجوه القوم وأشرافهم ، فلما دخلوا عاتبوه فأعتبهم من كل ما كرهوا[1] ، فقالوا : اكتب لنا بذلك كتاباً وأدخل لنا في هذا الضمان عليّاً بالوفاء لنا بما في كتابنا ، فقال عثمان : اكتبوا ما أحببتم وأدخلوا في هذا الضمان من أردتم ؛ قال : فكتبوا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله عثمان بن عفان أمير المؤمنين لجميع من نقم عليه من أهل البصرة والكوفة وأهل مصر ، أنّ لكم عليّ أن أعمل فيكم بكتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيّه محمد ﷺ وأن المحروم يعطى والخائف يؤمن والمنفي يردّ ، وأن المال يردّ على أهل الحقوق ، وأن يُعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أهل مصر ويولى عليهم من يرضون » .

قال فقال أهل مصر : نريد أن تولي علينا محمد بن أبي بكر ، فقال عثمان : لكم ذلك ، ثم أثبتوا في الكتاب : « وأن علي بن أبي طالب ضمين للمؤمنين بالوفاء لهم بما في هذا الكتاب ، شهد على ذلك الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وسهل بن حنيف وأبو أيوب خالد بن زيد ، وكتب في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين » .

قال : فأخذ أهل مصر كتابهم وانصرفوا ومعهم محمد بن أبي بكر أميراً عليهم ، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة[2] وإذا هم بغلام أسود[3] على بعير له يخبط خبطاً عنيفاً فقالوا : يا هذا ! اربع قليلاً ما شأنك ؟ كأنك هارب أو طالب ، من أنت ؟ فقال : أنا غلام أمير المؤمنين عثمان وجهني إلى عامل مصر ، فقال له رجل منهم : يا هذا ! فإن عامل مصر معنا ، فقال : ليس هذا الذي أريد ، فقال محمد بن أبي بكر : أنزلوه عن البعير ، فحطوه فقال له محمد بن أبي بكر : اصدقني غلام من أنت ؟ قال : أنا غلام أمير المؤمنين[4] ، قال : فإلى من أرسلتَ ؟ قال : إلى عبد الله بن سعد عامل مصر ، قال : وبماذا أرسلت ؟ قال : برسالة ، قال محمد بن

= الذهب ٢/ ٣٨٠) . وقال في البداية والنهاية ١٩١/٧ : ويقال أنه ناظرهم في عثمان ، وسألهم ماذا ينقمون عليه فذكروا أشياء . . . وروي أن عثمان خطب الناس بهذا كله بمحضر من الصحابة . . . ويروى أنهم بعثوا طائفة منهم فشهدوا خطبة عثمان هذه .

(١) انظر الحاشية السابقة ، والبداية والنهاية ١٩٢/٧ ، وانظر خطبة عثمان في الطبري ١١١/٥ .

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٣٨٠ الموضع المعروف بحسمى .

(٣) في مروج الذهب : هو ورش غلام عثمان . وفي الطبري : أبو الأعور السلمي .

(٤) في العقد الفريد ٢٨٨/٤ فأقبل مرة يقول : غلام أمير المؤمنين ، ومرة : غلام مروان ، حتى عرفه رجل منهم أنه لعثمان .

أبي بكر : أفمعك كتاب ؟ قال : لا .

قال : فقال أهل مصر : لو فتشناه أيها الأمير فإننا نخاف أن يكون صاحبه قد كتب فينا بشيء ، ففتشوا رحله ومتاعه ونزعوا ثيابه حتى عروه فلم يجدوا معه شيئاً ، وكانت على راحلته إداوة[1] فيها ماء فحركوها فإذا فيها شيء يتقلقل ، فحرّكوه ليخرج فلم يخرج ، فقال كنانة بن بشر التجيبي : والله ! إن نفسي لتحدثني أن في هذه الإداوة كتاباً ، فقال أصحابه : ويحك ! ويكون كتاب في ماء ؟ قال : إن الناس لهم حيل ؛ فشقوا الإداوة فإذا فيها قارورة مختومة بشمع وفي جوف القارورة كتاب ، فكسروا القارورة وأخرجوا الكتاب ، فقرأه محمد بن أبي بكر فإذا فيه[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى عبد الله بن سعد ، أما بعد ! فإذا قدم عليك عمرو بن يزيد[3] بن ورقاء فاضرب عنقه صبراً ، وأما علقمة[4] بن عديس البلوي وكنانة بن بشر التجيبي وعروة بن سهم[5] الليثي فاقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ودعهم يتشحطون في دمائهم حتى يموتوا ، فإذا ماتوا فاصلبهم على جذوع النخل ، وأما محمد بن أبي بكر فلا يقبل منه كتابه وشدّ يدك به واحتل في قتله وقرّ على عملك حتى يأتيك أمري إن شاء الله تعالى » .

ذكر رجوع أهل مصر إلى محاربة عثمان بعدما وجدوا الكتاب

قال : فلما قرأ محمد بن أبي بكر الكتاب رجع إلى المدينة هو ومن معه ، ثم جمع أصحاب النبي ﷺ وقرأ عليهم الكتاب وأخبرهم بقصة الكتاب ، قال : فلم يبق بالمدينة أحد إلا حنق على عثمان ، واشتد حنق بني هذيل خاصة عليه لأجل صاحبهم عبد الله بن مسعود ، وهاجت بنو مخزوم لأجل صاحبهم عمار بن ياسر ، وكذلك غفار لأجل صاحبهم أبي ذر .

---

(١) في العقد : إداوة قد يبست .

(٢) قارن مع نسخة الكتاب في الطبري ١١٩/٥ ومروج الذهب ٣٨٠/٢ وابن الأثير ١٦٨/٣ والعقد ٢٨٩/٤ .

(٣) مرّ قريباً : عمرو بن بديل بن ورقاء .

(٤) مر قريباً : عبد الرحمن بن عديس .

(٥) الطبري : عروة بن النباع الليثي .

ثم إن علياً أخذ الكتاب وأقبل حتى دخل على عثمان فقال له : ويحك لا أدري على ماذا أنزل ! استعتبك القوم فأعتبتهم بزعمك وضمنتني ثم أحقرتني وكتبت فيهم هذا الكتاب ! قال : فنظر عثمان في الكتاب ثم قال : ما أعرف شيئاً من هذا ، فقال علي : الغلام غلامك أم لا ؟ قال عثمان : بل هو والله غلامي والبعير بعيري وهذا الخاتم خاتمي والخط خط كاتبي ، قال عليّ رضي الله عنه : فيخرج غلامك على بعيرك بكتاب وأنت لا تعلم به ؟ فقال عثمان : حيرتك يا أبا الحسن ! وقد يشبه الخط الخط وقد تختم على الخاتم ، ولا والله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر ، فقال عليّ : لا عليك فمن نتّهم ؟ قال : أتهمك[1] وأتّهم كاتبي ، قال علي : بل هو فعلك وأمرك ، ثم خرج من عنده مغضباً .

قال : وعرف الناس الخط أنه خط مروان وإنما كتبه عن غير علم عثمان ، ومروان كان كاتب عثمان وخاتم عثمان في إصبع مروان وشك الناس في مروان .

قال : ثم خرج عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى المسجد وصعد المنبر فحمد

---

(١) كذا بالأصل ، ولم تشر أي من المصادر التي ذكر قصة الكتاب إلى اتهام عثمان علياً بكتابته . إلا أنه جاء في دائرة المعارف الإسلامية (النسخة الإنكليزية ، المجلد الثالث ص ١٠١٠ : « إن البلاذري روى دون غيره من المؤرخين أن عثمان اتهم علياً بتزوير الكتاب . وهذا ما ظنه كيتاني في حولياته ج ٨ ص ١٥٩ من غير أن يطلع على رواية البلاذري » .

وما يتبادر إلى الذهن فوراً ضعف هذا الاتهام ، وسقوط روايته لأسباب أهمها :

- استبعاد أن عثمان يمكن أن يتهم علياً بتزوير الكتاب فالغلام غلامه ، والبعير بعيره والخاتم خاتمه فكيف يصل علي إلى هذا كله ، بل كيف يصل إلى خاتمه وهو بيد كاتبه مروان بن الحكم .
- الخط الذي كتب به الكتاب خط مروان وقد عرف .
- كيف يمكن لعلي أن يكتب كتاباً لابن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه وهم ليسوا بأعداء لعلي ، بل من محبيه ومؤيديه .
- ولماذا يكتب علي إلى ابن أبي سرح بالقتل ، والمعروف عنه تقواه وخوفه من الله ، والعمل من أجل إخماد الفتنة وقد لعب دوراً كبيراً في ذلك . وقد تدخل لدى المعارضين وأقنعهم بالعودة إلى ديارهم .
- ما مصلحة علي من ذلك ، لا نرى له أي مصلحة وقد كان إلى جانب عثمان يحاول دائماً معالجة الأمور وتدارك الأخطار والتدخل لمنع الانهيار ، ودفع عثمان ـ أكثر من مرة ـ في الاتجاه الذي يحرره من سيطرة أقربائه والعمل من أجل مد الجسور بينه وبين المعارضين .

من هنا يستبعد ، بل يستحيل أن يكون عثمان قد وجه اتهاماً لعلي بتزوير الكتاب ، أو أنه فكر بذلك ، لأنه كان مقتنعاً أن هذا العمل من مروان .

الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! لا تتهموني في هذا الكتاب ولا تظنوا أني كتبته ، فإنكم إن قلتم ذلك أثمتم ، فوالله ما كتبته ولا أمرت به والآن فإنكم تعطون الحق ويعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ حتى ترضوا وتُعتبوا[1] .

قال : فوثب إليه كنانة بن بشر التجيبي فقال : يا عثمان ! إننا لا نرضى بالصفة دون العمل قد عاتبناك فأعتبتنا بزعمك فكتبت لنا بالوفاء إلى ذلك كتاباً وأشهدت شهوداً وأعطيتنا عهد الله وميثاقه ، ثم إنك كتبت فينا ما كتبت ! فقال عثمان : إني لم أكتب وقد حلفت لكم وليس يجب عليّ شيء هو أكبر من اليمين ، فقال كنانة بن بشر : إننا لا نصدّقك على يمينك .

قال : ثم وثب كثير بن عبد الله الحارثي فقال : يا عثمان ! أتظن أنك تنجو منا وقد فعلت ما فعلت ؟ فقال عثمان : يا سبحان الله ! أما لهذا أحد يكفينيه ؟ قال : فقام إليه موالي عثمان فأثخنوهم ضرباً ، ثم إنهم حصبوا عثمان من كل جانب حتى نزل عن المنبر وقد كاد أن يغشى عليه فحملوه حملاً حتى أدخلوه إلى منزله[2] .

قال : ودخل عليه نفر من الصحابة يتوجعون له لما نزل به ، وفي جملة من [دخل] عليه عليّ بن أبي طالب ، فقالت له بنو أمية : يابن أبي طالب ! إنك كدرت علينا العيش وأفسدت علينا أمرنا وقبحت محاسن صاحبنا ، أما والله لئن بلغت الذي ترجو لنجاهدنّك أشدّ الجهاد ، قال : فزبرهم علي رضي الله عنه وقال : اعزبوا فما بلغ الله لكم من القدر ما تحابون ! فإنكم سفهاء وأبناء سفهاء وطلقاء وأبناء طلقاء ، إنكم لتعلمون أنه ما لي في هذا الأمر ناقة ولا جمل . ثم خرج علي من عند عثمان مغضباً .

قال : فلما كان من غد جلس عثمان وكتب إليهم كتاباً ، نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين المسلمين ، سلام

---

(١) قال في العقد الفريد ٤/٢٨٩ فسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبى ... قالوا : لا نبرىء عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان ، حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب ... فإن يك عثمان كتبه عزلناه ، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا في أمره (انظر مروج الذهب ٢/٣٨٠) .

(٢) في البداية والنهاية ٧/١٩٦ قال له جهجاه : قم يا نعثل فانزل عن هذا المنزل وأخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى ... فنزل عثمان ... فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خرجة أو خرجتين ، حتى حصر وقتل .

عليكم ، أما بعد ! فإني أذكركم الله الذي أنعم عليكم بالإسلام ، وهداكم من الضلال ، وأنقذكم من الكفر ، وأراكم اليسار وأوسع عليكم في الرزق ، وبصركم من العمى ، ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[1] ﴿ وإن تعدّوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[2] فاتقوا الله ! ﴿ ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾[3] ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنٰت وأولئك لهم عذاب عظيم * ﴾[4] ﴿ يٰأيها الذين آمنوا . . . اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور * ﴾[5] ﴿ يٰأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم ندمين ﴾[6] ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله [ولا ينظر إليهم يوم القيٰمة] ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[7] ألا ! وقد علمتم أن الله تعالى رضي لكم السمع والطاعة وحذركم المعصية والفرقة وتقدم إليك في ذلك لتكون له الحجة عليكم إن عصيتموه ، فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عذابه فإنكم لم تجدوا أمة هلكت من قبلكم إلا من بعد ما اختلفت ولم يكن لها رأس يجمعها ، ومتى تفعلون بي ما قد أزمعتم عليه فإنكم لا[8] تقيمون صلاة جميعاً ولا تخرجون زكاة جميعاً ، ويسلط عليكم عدوكم ويستحل بعضكم حرمات بعض ، ثم تكونوا شيعاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ﴾[9] الآية ، ألا وإني أوصيكم بما أوصاكم الله به وأحذركم بما حذركم الله به من عذابه ،

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٠ .
(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤ .
(٣) آل عمران الآية ١٠٢ .
(٤) آل عمران الآيتان ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٥) سورة المائدة الآيتان ٦ ، ٧ .
(٦) سورة الحجرات الآية ٦ .
(٧) سورة آل عمران الآية ٧٧ .
(٨) عند ابن سعد ٦٧/٣ لا تصلوا جميعاً أبداً ولا تغزوا جميعاً أبداً ولا يقسم فيؤكم بينكم . وانظر فيه ص ٧١ رواية أخرى .
(٩) سورة الأنعام الآية ١٥٩ .

فقد علمتم أن شعيباً عليه السلام لما نسبه قومه إلى الشقاق قال الله تعالى : ﴿ **لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾[(١)] واعلموا أيها الناس ! أني قد أنصفتكم وأعطيتكم من نفسي الرضا على أن أعمل فيكم بالكتاب والسنة وأسير فيكم بالسيرة وأعزل عن أمصاركم من كرهتم وأولي عليكم من أحببتم ، وأنا أضمن لكم من نفسي أن أعمل فيكم بما كانا يعملان الخليفتان من قبلي جهدي وطاقتي فقد علمتم أن من تولى أمر الرعية يصيب ويخطىء ، وكتابي هذا معذرة إلى الله وإليكم ويتصل إليكم مما كرهتم ﴿ **وما ابرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾[(٢)] فاكتفوا مني بهذا العهد ﴿ **إن العهد كان مسئولاً** ﴾[(٣)] وإني أتوب إلى الله من كل شيء كرهتموه وأستغفره من ذلك فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله ، وقد تبت إلى الله من كل ما كرهتموه فإن رحمته وسعت كل شيء ـ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[(٤)] ـ .

قال : فلما جاءهم كتاب عثمان وقرأوه لم يقبلوا شيئاً مما وعظهم به ثم نادوا من كل ناحية وأحاطوا بداره وخاصموه وعزموا على قتله وخلعه .

ذكر استنصار عثمان بعماله لما أيس من رعيته

قال : وخشي أن يعاجله القوم فيقتل ، فكتب إلى عبد الله بن عامر بن كريز وهو الأمير بالبصرة وإلى معاوية بن أبي سفيان ، وهو أمير الشام بأجمعها فكتب إليهم عثمان نسخة واحدة[(٥)] : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ! فإن أهل البغي والسفه والجهل والعدوان من أهل الكوفة وأهل مصر وأهل المدينة قد أحاطوا بداري ولم يرضهم شيء دون قتلي أو خلعي سربالاً سربلنيه ربي ، ألا ! وإني ملاق ربي فأعنّي برجال ذوي نجدة ورأي ، فلعل ربي يدفع بهم عني بغي هؤلاء الظالمين الباغين عليّ ـ والسلام ـ .

---

(١) سورة هود الآية ٨٩ .

(٢) سورة يوسف الآية ٥٣ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

(٤) نسخة الرسالة في الطبري ٥/١٤٠ ـ ١٤١ .

(٥) نسخة أخرى للكتاب في الطبري ٥/١١٥ والإمامة والسياسة ١/٣٦ وفيه أن عثمان كتب إلى المسلمين الذين حضروا الموسم وبعثه مع نافع بن طريف يستغيثهم وأهل مكة . نسخته فيه ج ١/٣٦ .

قال : وأما معاوية فإنه أتاه بالكتاب المسور بن مخرمة فقرأه لمّا أتاه ثم قال : يا معاوية ! إن عثمان مقتول فانظر فيما كتبت به إليه ، فقال معاوية : يا مسور ! إني مصرّح أن عثمان بدأ فعمل بما يحبّ الله ويرضاه ثم غيّر فغير الله عليه ، أفيتهيأ لي أن أردّ ما غيّر الله عزّ وجلّ[1] .

قال : وأما عبد الله بن عامر فإنّه لمّا ورد عليه كتاب عثمان نادى في أهل البصرة فجمعهم ثم قال : أيها الناس ! إن أمير المؤمنين كتب إليّ يخبرني أن شرذمة من أهل الكوفة وأهل المدينة وأهل مصر نزلوا بساحته ، فأعطاهم من نفسه النصفة ودعاهم إلى الحق ، فلم يقبلوا ذلك منه ، وإنه كتب إليّ يسألني أن أبعث إليه منكم نفراً من أهل الدين والصلاح فلعل الله أن يدفع بكم عنه ظلم الظالمين وعدوان المعتدين ؛ قال : فأمسك الناس عنه ولم يجبه أحد منهم بشيء[2] .

قال : وعلم أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل مصر أن عثمان قد كتب إلى أهل الشام وأهل البصرة يستنجدهم ، فكبس عليهم فلجوا في حصاره ومنعوه من الماء ، فأشرف عليهم من جدار داره ثم قال : أيها الناس ! هل فيكم علي بن أبي طالب ؟ قالوا : لا ، فسكت ونزل . قال : وبلغ ذلك علياً رضي الله عنه وهو في منزله ، فأرسل إليه بغلامه قنبر فقال : انطلق إلى عثمان فسله ماذا يريد ، فجاء قنبر إلى عثمان فدخل وسلم ثم قال : إن مولاي أرسلني إليك يقول لك : ما الذي تريد ؟ فقال عثمان : أردته أن يوجه إليّ بشيء من الماء فإني قد منعته وقد أضرّ بي العطش وبمن معي في هذه الدار ! فرجع قنبر إلى عليّ فأخبره بذلك ، فأرسل إليه عليّ ثلاث قرب من الماء مع نفر من بني هاشم ، فلم يتعرض لهم أحد حتى دخلوا على عثمان فأوصلوا إليه الماء[3] ، فشرب وشرب من كان معه في الدار .

قال : ودخل عمرو بن العاص على عثمان مسلّماً ، فقال له عثمان : يابن

(١) في الطبري ٥/١١٥ أن معاوية بعد وصول كتاب عثمان إليه تربص به . عندئذ أرسل عثمان يستغيث بيزيد بن أسد بن كرز البجلي وبأهل الشام . فاستنفر الناس وندبهم ولما وصلوا إلى وادي القرى جاءهم خبر مقتل عثمان فرجعوا .

(٢) وعند الطبري أن عبد الله استنفر الناس فأجابوه واستعمل عليهم مجاشع بن مسعود فساروا حتى وصلت مقدمتهم صرار أخبروا بمقتل عثمان (٥/١١٦) .

(٣) في مروج الذهب ٢/٣٨٠ فما وصل إليه ذلك حتى خرج جماعة من موالي بني هاشم وبني أمية . وفي العقد الفريد ٤/٢٩٠ جرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية ، حتى وصل إليه الماء .

العاص ! وأنت أيضاً ممن تولّيت على الناس فيما بلغني وتسعى في الساعين عليّ حتى قد أضرمتها وأسعرتها ثم تدخل مسلّماً عليّ ! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ! إنه لا خير لي في جوارك بعد هذا ، ثم خرج عمرو من ساعته ومضى حتى قد صار إلى الشام ونزل بأرض فلسطين وكان بها مقيماً .

قال : ثم أقبل عثمان حتى أشرف على الناس ثانية فسلم عليهم ، فردوا عليه سلاماً ضعيفاً ، فقال عثمان : أفيكم طلحة ؟ قال : نعم ها أنا ذا، فقال عثمان : سبحان الله ! ما كنت أظن أن أسلّم على جماعة أنت فيهم ولا ترد عليّ السلام ، فقال طلحة : إني قد رددت عليك ، فقال عثمان : لا والله ما ذلك لك يا أبا محمد ! إني أسمعتك السلام ولم تسمعني الردّ . قال : وسمع عثمان بعضهم يقول : لا نقتله ولكنا نعزله ، فقال عثمان : أما عزلي فلا يكون ، وأما قتلي فعسى وأنا أرجو أن ألقى الله وبأسكم بينكم ، قال : وتكلم رجل من الأنصار يقال له مجمع بن جارية[1] فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخاف والله أن يقتل هذا الرجل ، فقال له رجل من الصحابة : وإن قتل فما ذا والله نبي مرسل ولا ملك مقرب ! قال : وعثمان مشرف من جدار داره يسمع ذلك .

ذكر استمالة القلوب بعد إياسه من نصرة عماله

فقال عثمان : أههنا سعد بن أبي وقاص ؟ أههنا الزبير بن العوام ؟ فقالا : نعم ، نحن ههنا فقل ما تشاء ! فقال : ناشدتكم الله تعالى جميعاً بالذي لا إله إلا هو هل تعلمون أن النبي ﷺ قال يوماً : « من يبتاع لي مربد بني فلان غفر الله له » ، فابتعته ثم أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إني قد ابتعت لك مربد فلان ، فقال : « اجعله في المسجد وأجره لك » ، ففعلت ذلك ؟ فقالوا : قد كان ذلك ؛ قال عثمان : اللهم اشهد ! ثم قال : أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو هل تعلمون أن النبي ﷺ قال يوماً : « من يبتاع بئر رومة غفر الله له » ، فابتعتها فقال النبي ﷺ : « اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك » ، ففعلت ذلك ؟ فقالوا : قد كان ذلك ؛ قال

(١) عن الإصابة ، وهو مجمع بن جارية بن عامر بن مجمع بن العطاف . . . بن عوف الأنصاري الأوسي . بعثه عمر إلى الكوفة يعلمهم القرآن . وبالأصل حارثة بدل جارية . تحريف .

عثمان : اللهم اشهد ! ثم قال : أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو . هل تعلمون أن النبي ﷺ نظر ذات يوم في وجوه أصحابه وذلك في يوم جيش العسرة فقال : « من جهز هؤلاء غفر الله له » ، فجهزتهم حتى ما فقدوا خطاماً ولا عقالاً[1] ؟ فقالوا[2] : قد كان كل الذي ذكرت ولكنك غيّرت وبدلّت ، فقال عثمان : يا سبحان الله ! ألستم تعلمون أنكم دعوتم الله ربكم يوم توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يختارني لكم ؟ قالوا : بلى ، قال عثمان : فما ظنكم بالله تبارك وتعالى أتقولون إنه لم يستجب لكم وهنتم عليه ؟ أم تقولون إنه هان عليه هذا الدين فلم يبال من ولاه أمره ؟ أم تقولون إن الله لم يعلم ما في عاقبة أمري حين كنت في بعض أمري محسناً ثم إني أحدثت من ذلك ما أسخط الله عزَّ وجلّ ؟ فهل لا عافاكم الله ؟ فقد تعلمون ما لي من الفضائل الشريفة والسوابق الجميلة مع رسول الله ﷺ ، فارتدعوا عما قد أزمعتم عليه من قتلي[3] ، فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفعه الله عزَّ وجلّ عنكم أبداً إلى يوم القيامة ، فاتقوا الله فإني أدعوكم إلى كتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه محمد ﷺ ، وهذه مفاتيح بيوت أموالكم ادفعوها إلى من شئتم وأمروا علي أمصاركم من أحببتم وأنتم معتبون من كل ما ساءكم ؛ وأما ما ادعيتم عليّ أني كتبت فيكم فهاتوا بينتكم ، وإلا فأنا أحلف لكم بالله العظيم أني ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ؛ قال : فنادته قوم من المصريين : يا هذا إننا قد اتهمناك فاعتزلنا وإلا قتلناك .

قال : فسكت عثمان وتكلم زيد بن ثابت وكان إلى جانب عثمان ، فقال : ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله**﴾[4] ، قال : فصاح به الناس : يا زيد ! إن عثمان قد أشبعك من أموال الأرامل ولا بد لك من نصره .

قال : فنزل عثمان من موضعه ذلك إلى داره وأقبل إليه عبد الله بن سلام فقال :

---

(١) الحديث في مسند أحمد ١/٧٠ ونقله ابن كثير عنه في البداية والنهاية ٧/١٩٨ - ١٩٩ والطبري باختلاف واختصار ٥/١٢٥ .

(٢) عند ابن كثير : فقالوا : اللهم نعم ! فقال : اللهم اشهد ، اللهم اشهد اللهم اشهد ، ثم انصرف .

(٣) زيد في الكامل لابن الأثير ٢/٢٨٩ قالوا : وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله (ص) فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية ، ولكن أحدثت ما علمته ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٩ .

يا أمير المؤمنين ! إن حقك اليوم على كل مسلم كحق الوالد على الولد ، فأمُرني بأمرك ! فقال له عثمان : تخرج إلى هؤلاء القوم تكلمهم ، فعسى الله تبارك وتعالى أن يجري على يديك خيراً أو يدفع بك شراً .

قال : فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس ، فلما نظروا إليه ظنوا أنه إنما جاء ليكون معهم ، فرحبوا به وأوسعوا له في المجلس ؛ فلما جلس حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد ﷺ ، ثم وعظهم وذكرهم وقال[1] : أيها الناس ! إن الله تبارك وتعالى اختار من الأديان كلها دين الإسلام ، ثم اختار لدينه رسولاً جعله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ثم اختار له من البقاع المدينة فجعلها دار الهجرة ودار الإسلام ، فلم تزل الملائكة تحف بها مُذ سكنها رسوله محمد ﷺ إلى يومكم هذا وما زال سيف الله مغموداً عنكم ، فأنشدكم الله أن لا تطردوا جيرانكم من الملائكة وأن لا تسلّوا سيف الله المغمود ، فإن لله عزَّ وجلّ سيفاً لم يسلّه قط على قوم حتى يسلّوه على أنفسهم ، فإذا سلوه لم يغمده عنهم إلى يوم القيامة ، فإياكم وقتل هذا الشيخ ! فإنه خليفة ، ووالله ! ما قُتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفاً من أمته عقوبة لهم ، ولا قُتل خليفة من بعده إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً ، فاتقوا الله ربكم في هذا الشيخ . قال : فنادوه من كل جانب : كذبت يا يهودي ! فقال عبد الله بن سلام : بل كذبتم أنتم ، لست بيهودي ولكني تركت اليهودية وتبرأت منها واخترت الله ورسوله ودار الهجرة والإسلام ، وقد سماني الله تبارك وتعالى بذلك مؤمناً ، فقال عزَّ وجلّ فيما أنزل على نبيه محمد ﷺ **﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾**[2] ولقد أنزل الله تعالى آية أخرى إذ يقول الله عزَّ وجلّ : **﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتٰب ﴾**[3] .

قال : ثم وثب عبد الله بن سلام من عند القوم فصار إلى عثمان فأخبره بذلك ، فبقي عثمان لا يدري ما يصنع .

---

(١) قارن مع الطبري ٥/١٣٠ والإمامة والسياسة ١/٤٢ .

(٢) سورة الأحقاف آية ١٠ .

(٣) سورة الرعد الآية ٤٣ .

خروج عائشة إلى الحج لما حوصر عثمان
وأشرف على القتل ومقالها فيه

قال : وعزمت عائشة على الحج ، وكان بينها وبين عثمان قبل ذلك كلام ، وذلك أنه أخّر عنها بعض أرزاقها إلى وقت من الأوقات فغضبت ، ثم قالت : يا عثمان ! أكلت أمانتك وضيقت رعيتك وسلطت عليهم الأشرار من أهل بيتك ، لا سقاك الله الماء من فوقك وحرمك البركة من تحتك ! أما والله لولا الصلوات الخمس لمشى إليك قوم ذو ثياب وبصائر يذبحوك كما يذبح الجمل ، فقال لها عثمان : **﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾**[1] .

قال : وكانت عائشة تحرض على قتل عثمان جهدها وطاقتها وتقول : أيها الناس ! هذا قميص رسول الله ﷺ لم يبل وبليت سنته ، اقتلوا نعثلاً[2] ، قتل الله نعثلاً .

قال : فلما نظرت عائشة إلى ما قد نزل بعثمان من إحصار القوم له قربت راحلتها وعزمت على الحج ، فقال لها مروان بن الحكم : يا أم المؤمنين ! لو أنك أقمت[3] لكان أعظم لأجرك ، فإن هذا الرجل قد حوصر فعسى الله تبارك وتعالى أن يدفع بك عن ذمه ! فقالت : الآن تقول هذا وقد أوجبت الحج على نفسي ، لا والله لا أقمت ؛ وجعل مروان[4] يتمثل بهذا البيت :

ضرم قيس على البلاد دما   إذا اضطرمت يوم به أحجما[5]

---

(١) سورة التحريم الآية ١٠ .

(٢) نعثل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية ، قيل إنه كان يشبه عثمان رضي الله عنه . وكان عثمان إذا نيل منه وعيب شبه بهذا الرجل المصري . (اللسان) .

(٣) في تاريخ اليعقوبي ١٧٥/٢ لو قمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس .

(٤) عند اليعقوبي : قال : فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين . قالت لعلك ترى إني في شك من صاحبك ؟ أما والله لوددت أنه مقطع في غرارة من غرائري ، وإني أطيق حمله فأطرحه في البحر .

(٥) البيت للربيع بن زياد العبسي وهو في شرح الحماسة والعقد الفريد ٢٩٩/٤ وفيه :

وحرق قيس على البلا   د حتى اضطرمت أجذما

والبيت على ما في الأصل ساقط الوزن .

فقالت عائشة : قد فهمت ما قلت يا مروان ! فقال مروان : قد تبينت ما في نفسك ، فقالت : هو ذاك .

ثم إنها خرجت تريد مكة ، فلقيها ابن عباس فقالت له : يـابن عبـاس ! إنك قد أوتيت عقلاً وبياناً فإياك أن ترد الناس عن قتل هذا الطاغي عثمان ، فإني أعلـم أنه سيشأم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر ؛ ثم إنها مضت إلى مكة وتركت عثمان على ما هو فيه من ذلك الحصار والشدة .

ذكر ما أشير به على عثمان من إحراز دمه والنظر لنفسه

قال : وأقبل سعيد بن العاص على عثمان فقال : يا أمير المؤمنين ! أرى لك من الرأي أن تخرج على القوم وأنت مُلبٍّ كأنـك تريـد الحجّ ، فـإني أرجو أن لا يتعرضوا لك إذا نظروا إليك ملبياً ، ثم تأتي مكة ، فإذا أتيتها لم يقدم عليك أحد بما تكرهه ، فقال عثمان : لا والله لا أختار على هذه المدينة التي اختارها الله تعـالى لرسوله محمد ﷺ .

قال : فقال له سعيد بن العاص الثقفي : يا أمير المؤمنين ! فإني أخبرك بثلاث خصال فاختر واحدة ، قال عثمان : وما ذلك ؟ قال : إما أن تقاتل القوم وتجاهدهم فنقاتل معك حتى نفني أرواحنا ، قال عثمان : ما أريد ذلك ؛ قال : فتركب نجائبك حتى تأتي الشام ، فـإن بها معـاوية وهـو ابن عمك وبهـا شيعتك وأنصـارك ، قال عثمان : والله لا أريد ذلك ! قال : فأقلك على نجائبي حتى أقدم بك البصرة ، فإن بها قوماً من الأزد وفيهم معروف لي وهم لي شاكرون ، فتنزل بين أظهرهم فيمنعوك ، فقال عثمان : لا والله لا خرجت من المدينة كائناً في ذلك ما كان .

قال : وأقبل أسامة بن زيد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ! والله لأنك أعز عليّ من سمعي وبصري ، وإني أعلمك أن هذا الرجـل ليقتل ، فاخرج من المدينة وسر إلى ضيعتك ينبع[1] ، فإنه إن قتل وأنت بالمدينة

---

(١) ينبع : موضع على سبع مراحل من المدينة ، قال ابن دريد : ينبع بين المدينة ومكة .
قال في الإمامة والسياسة ٣٤/١ : وذكروا أنه لما اشتد الطعن على عثمان ، استأذنه علي في بعض بواديه ينتحي إليها فأذن له .

شاهد رماك الناس بقتله ، وإن قتل وأنت غائب لم يعذل بك أحد من الناس بعده ؛ فقال له علي : ويحك ! والله إنك لتعلم أني ما كنت في هذا الأمر إلا كالآخذ بذنب الأسد ، وما كان لي فيه من أمر ولا نهي .

قال : ثم دعا علي بابنه الحسن ، فقال : انطلق يا ابني إلى عثمان فقل له : يقول لك أبي : أفتحب أن أنصرك ! فأقبل الحسن إلى عثمان برسالة أبيه ، فقال عثمان : لا ما أريد ذلك ، لأني قد رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقال : يا عثمان ! إن قاتلتهم نصرت عليهم ، وإن لم تقاتلهم فإنك مفطر عندي[1] ، وإني قد أحببت الإفطار عند رسول الله ﷺ ، فسكت الحسن وانصرف إلى أبيه فأخبره بذلك .

ذكر ما كان منهم من حرق الباب والاقتحام على الدار

قالوا : قد كان طلحة بن عبيد الله قد استولى على حصار عثمان مع نفر من بني تيم[2] ، وبلغ ذلك عثمان فأرسل إلى علي بهذا البيت :

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولمّا أمزّقِ[3]

أترضى أن يقتل ابن عمك وابن عمتك ويسلب نعمتك وأمرك ؟ فقال علي رضي الله عنه : صدق والله عثمان ! لا والله لا نترك ابن الحضرمية يأكلها .

ثم خرج علي إلى الناس ، فصلى بهم الظهر والعصر ، وتفرق الناس عن طلحة ومالوا إلى علي ؛ فلما رأى طلحة ذلك أقبل حتى دخل على عثمان فاعتذر إليه

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٧٥ وابن كثير ٧/٢٠٤ .

(٢) قال في الإمامة والسياسة ١/٥٢ (من تحقيقنا) : ورجا الزبير وطلحة ـ بعد خروج علي من المدينة ـ أن يميلا إليهما قلوب الناس ، ويغلبا عليهم ، واغتنما غيبة علي ، فكتب عثمان إلى علي إذ اشتد الطعن عليه . أما بعد فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين . وارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره ! وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال : أكل السبع خير من افتراس الثعلب .

وانظر العقد الفريد ٤/٣١٠ والكامل للمبرد ١/٢٦ .

(٣) البيت للمزق العبدي : الأصمعيات ص ١٦٦ الكامل للمبرد ١/٢٦ الإمامة والسياسة ١/٥٣ .

مما كان منه ؛ فقال له عثمان : يـابن الحضرمية ! وليت على الناس ودعوتهم إلى قتلي ، حتى إذا فاتك ما كنت ترجو وعلاك علي رضي الله عنـه على الأمر جئتني معتذراً ، لا قبل الله ممن قبل منك .

قال : فخرج طلحة من عنده ، وأشرف عثمان على الناس فقال : أيها الناس ! إن لي من رسول الله ﷺ نصيباً جليلاً وسابقة في الإسلام ، وأنا وال مجتهد ، وإن أخطأت في الاجتهاد أو تعمدت فاقبلوا مني فإني أتوب إلى الله تعالى وأستغفره مما كان مني ؛ قال : فشتمه المصريون خاصة شتماً قبيحاً .

فتكلم زيد بن ثابت وقال : يا معشر الأنصار ! إنكم قد نصرتم النبي ﷺ فكنتم أنصار الله فانصروا خليفته اليوم لتكونوا أنصار الله مرتين فتستحقوا الأجرين . قال : فناداه جبلة بن عمرو الساعدي[1] وقال : كلا والله يا زيد ! لا يقبل ذلك منك ، ولا نحب أن نكون عند الله غداً من أولئك الذين قالوا : ﴿ إنا أطعنا سادتنـا وكبراءنـا فأضلونا السبيـلا ﴾[2] ، والله يا زيد ! إذا لم يبق من عمره إلا ما بين العصر إلى الليل ، لتقربنا إلى الله بدمه ؛ قال : وصاح الحجاج بن غزية الأنصاري[3] بالقاعة من أهل مصر فقال : لا تسمعوا من هذا القائل ما قـال ، واعزمـوا على ما أنتم عليـه عازمون ، فوالله ما تدري هذه البقرة ما تقول .

قال : فسب القوم زيد بن ثابت . وبادر رجل من القوم إلى شيء من الحطب ، فأضرم فيه النار[4] وجاء به حتى وضعه في إحدى البابين ، فاحترق الباب وسقط ، ودفع الناس الباب الثاني فسقط أيضاً ؛ فأنشأ المغيرة بن الأخنس بن شريق يقول :

لمـا تهـدمـت الأبـواب واحتـرقـت … تممت منهن بـابـاً غـيـر محتـرقِ

---

(١) يعد في أهل المدينة ، من فضـلاء الصحابـة وفقهائهم . شهـد صفين مع علي . قـال ابن الأثير : « الأنصاري » ، وقوله : « الساعدي وهم » . (أسد الغابة) .

(٢) الأحزاب : ٦٧ .

(٣) كذا بالأصل ، وهو حجاج بن عمرو بن غزية بن ثعلبة . . . الأنصاري الخزرجي ثم من بني مازن بن النجار . له صحبة . (أسد الغابة) .

(٤) في الطبري أن اقتحام الباب وحرقه كان بسبب قتل نيار بن عياض أحد الصحابة ـ وكان مع الناس ـ وقد رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم ، فقالوا لعثمان : ادفع لنا قاتله فلنقتله به فرفض فثاروا إلى الباب فأحرقوه . (١٢٤/٥) .

شـدا أقـول لـعـبـد الله آمـره إن لم تقـاتـل لـذي عثمـان فـانـطلقِ
هـو الإمـام فلست الـيـوم تـاركـه إن الـفـرار عليّ الـيـوم كـالـسـرقِ
فـلست أتـركـه مـا دام بـي رمـق حتى يـفـرق بيـن الـرأس والـعـنـقِ

قال : فلما نظر عثمان إلى الباب وقد احترق ، ، قال لمن عنده في الدار : ما أحرق الباب إلا لأمر هو أعظم من إحراقه . ثم اقتحم الناس الدار على عثمان وهو صائم ، وذلك في يوم الخميس أو يوم الجمعة لثماني عشرة أو سبع عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً خلت من مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : والتفت عثمان إلى الحسن بن علي وهو جالس عنده فقال : سألتك بالله يـابن الأخ إلا ما خرجت ! فإني أعلم ما في قلب أبيك من الشفقة عليك ؛ فخرج الحسن بن علي رضي الله عنه وخرج معه عبد الله بن عمر .

ذكر مقتل عثمان رحمة الله عليه

قال : ونظر عثمان فإذا مروان وقد سل سيفه وتهيّأ للقتال وهو يقول :

آلـيـت جـهـداً لا أبـايـع بـعـده ... إمـامـاً ولا أصغي لمـا قـال قـائـلِ
وأصلى بحرّ الحـرب مـا هبّت الصبـا ... بـذي رونق قـد أصقلتـه الصيـاقـلِ
حسـام كلون الملح ليس بعـائـد ... إلى الجفر ما هبت رياح الشمـائـلِ
أجـالـد من دون ابـن عـفـان أنـه ... إمـام وقـد حلّت لـديـه الفضـائـلِ

قال : فقال عثمان : عزمت عليك إن قاتلت ! قال : وأنا أعزم على نفسي إن لم أقاتل .

قال : ثم شد مروان على الناس هو وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس ، وعبد الله بن أبي ربيعة[1] وعبد الله بن ميسرة بن عوف بن السباق ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، ورجال من موالي عثمان فشدوا على من دخلوا في الدار[2] ، فدفعوهم حتى أخرجوهم من الدار ؛ قال : فالتفت عثمان إلى مواليه وقد سلوا سيوفهم ، قال : من وضع سلاحه وأغمد سيفه فهو حر لوجه الله ! انصرفوا

---

(١) عن أسد الغابة ١٥٥/٣ وبالأصل « زمعة » قال ابن الأثير أنه لما حصر عثمان جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات .

(٢) في الطبري أن الذي شجع مروان وأصحابه على القتال أنه بلغهم أن مدداً من أهل البصرة نزلوا صراراً وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين إلى المدينة لنصرتهم . (١٢٥/٥) .

يا هؤلاء إلى منازلكم ودعوني والقوم ! فأغمد القوم سيوفهم .

وأقبل عثمان على من معه في الدار من أصحاب النبي ﷺ فقال : أعزم على كل من يرى لنا عليه طاعة أن لا يمد يده ولا سلاحه ! قال : وكفّ الناس عن القتال ؛ ورمي عثمان بالحجارة من وراء داره من دار ابن حزم[1] الأنصاري ، فقال عثمان : ما هذه الحجارة ؟ قال : فصاح رجل منهم : لسنا نرميك يا عثمان ولكن الله يرميك ، فقال عثمان : كذبتم ، لو رماني ربي لما أخطأني .

قال : واقتحم الناس الدار ثانية وقد أصلتوا سيوفهم وعثمان ساكت لا يحركُ يَداً ولا رِجلاً ، فلما نظر اقتحامهم عليه قال : ادخلوا فإنّ لي مصرعاً قد كتبه الله عليّ وأنا لاقيه ، وإني لصائم حتى ألقى ربي .

قال : وتقدم المغيرة بن الأخنس بالسيف وهو يرتجز ويقول :

قد عَلِمَت جارية عُطبول لها وِشاح ولها جديلُ[2]
أني بنصل السيف خَنشَلِيل لتمنعنّ منكمُ الخليل[3]
بصارم ليس به فُلول

قال : فشدّ عليه رفاعة بن رافع الأنصاري وهو يقول :

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفولِ
أني أروع أول الرعيل [بفارهٍ] مثل قطا الشليل[4]

ثم شد عليه الأنصاري فقتله[5] ؛ قال : ثم تقدم مروان بن الحكم بالسيف وهو يقول :

قد علم القوم إذا الحرب اشتعل وانتضى الأسياف فيها والأسلْ

---

(١) عن الطبري ١٢٥/٥ والبداية والنهاية ٢١٠/٧ وابن الأثير ٢٩٣/٢ وبالأصل « ابن حرب » تحريف . في العقد الفريد ٢٩٠/٤ محمد بن حزم الأنصاري .

(٢) في الطبري ١٢٥/٥ حجول . وفي صفحة ١٢٨ ذات وشاح ولها جديل .

(٣) في الطبري ١٢٨/٥ لأمنعن منكم خليلي .

(٤) الأرجاز في الطبري ١٢٣/٥ وتمثل بها مروان بن الحكم ، وفي الطبري أيضاً ١٢٩/٥ ذكر الرجزين الأولين مع آخرين غيرهما تمثل بهما المغيرة بن الأخنس الثقفي .

(٥) في الطبري : قتله عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي .

واحــولت الأحــداق فيهــا والمُـقَــلْ إنــي أنــا الـليــث هـنــاك والــقُــلَلْ

قال : فقصده الحجاج بن [عمرو بن][1] غزية الأنصاري وهو يقول :

قــد علمت بيضــاء حـسنــاء الــطلل واضحــة الخــدين عجــزاء الـكفــل
إنــي غــداة الــروع مـقــدام بـطل اطحــطح الهامــات والحــرب وهــل

قال : ثم شد على مروان فضربه ضربة على عاتقه[2] ، فقطع الدرع ووصل السيف إلى عاتق مروان فجرحه جراحة منكرة .

قال : وتقدم عبد الله بن عبد الرحمن بن مروان بن العوام حين وقف في وجوه القوم فقال : يا هؤلاء ! أما تتقون الله في هذا الشيخ ؟ وقد علمتم أنه إمام مفترض الطاعة ! يا هؤلاء بيننا وبينكم كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ؛ قال : فشد عليه عبد الرحمن بن حنبل الجمحي فضربه بسيفه ضربة قتله ، ثم انصرف عنه وهو يقول :

لأضــربــن الـيــوم بــالــقــرصــاب ضــرب امرىء ليس بـذي ارتيــابِ
أأنــت تـدعــو إلــى الــكــتــاب نــبـذتــه في ســالــف الأحـقــابِ

قال : واقتحم الأشتر الدار وسيفه في يديه ، فنظر إليه مولى لعثمان فحمل عليه يريد قتله ، فالتفت إليه الأشتر فضربه [ضربة] قتله ، ثم شد على عبد الله بن وهب بن زمعة بن الأسود فقتله[3] ؛ ثم حمل على مولى لعثمان فضربه ضربة فأطبّ يده اليسرى ، ثم ضربه أخرى فقتله ؛ وشدّ على عبد الله بن ميسرة بن عوف فقتله ؛ ثم أقبل الأشتر يريد عثمان ليقتله ، فلمّا نظر إليه وحيداً ليس عنده مانع ندم واستحيا فرجع عنه ، وصاح رجل من أهل الكوفة يقال له مسلم بن كثير الفرافصي ، قال : ويحك يا أشتر ! دخلت على الرجل تريد قتله فلما نظرت إليه نكصت ورجعت عنه .

قال : ودخل محمد بن أبي بكر فلم يكذب إلى أن صار إلى عثمان ، فقال :

---

(١) سقطت من الأصل ، مرت الإشارة إليه قريباً .

(٢) في الطبري ١٢٥/٥ رفاعة بن رافع الأنصاري هو الذي ضرب مروان بن الحكم . وفي ابن الأثير ٢٩٣/٢ ضربه رجل من بني ليث يدعى النباع . ضرب مروان على رقبته فأثبته وقطع إحدى علباويه (العلباوان : أصل العنق وعصبه) .

(٣) كذا بالأصل والإصابة وأسد الغابة أنه قتل يوم الدار . وفي الإصابة عن ابن حبان أنه قتل يوم الحرة وبه جزم الكلبي .

يا نعثل! فقال عثمان: أنا عثمان بن عفان أمير المؤمنين وأنت كذاب من الكذابين، قال : فضرب محمد بيده إلى لحية عثمان وقال : كيف ترى صنع الله بك ؟ فقال عثمان : ما صنع بي ربي إلا خيراً ، فاتق الله ودع لحيتي ، فإنّ أباك لو كان حياً لم يأخذها أبداً ، فقال محمد : لو كان أبي حياً ورآك تفعل هذه الفعال لأنكرها ؛ قال : فضرب عثمان بيده إلى مصحف عن يمينه فوضعه في حجره ثم فتحه وقال : هذا كتاب الله بيني وبينكم ، إني أعمل بما فيه ولكم العتبى مما تكرهون ؛ فقال له محمد بن أبي بكر : ﴿ آلئن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ ؛ ثم جاءه بمشاقص كانت في يده فأدماه ولم يقطع[1] والله أعلم ، قال : وأول قطرة قطرت من دمه ـ والله أعلم ـ وقعت على هذه الآية ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾[2] ؛ قال : ثم تنحى محمد بن أبي بكر وضربه كنانة بن بشر النخعي بعمود كان في يده على رأسه ، وثناه سودان[3] بن حمران المرادي بالسيف ، فسقط عثمان رحمة الله عليه على قفاه[4] .

قال : وأخذته السيوف والجراحات فصاحت امرأته نائلة بنت الفرافصة الكلبية : يا هؤلاء ! إن تقتلوه فإنه لم يزل صوّاماً قوّاماً، يحيي الليل ويختم القرآن في ركعة واحدة ؛ قال : فشتموها من كل ناحية وهمّوا بقتلها ، فتوارت عنهم .

قال : ثم إنهم غادروا عثمان في داره قتيلاً وجعلوا يرتجزون بالأشعار .

ذكر ما قيل فيه بعد قتله رضي الله عنه

قال : فأول من خرج من دار عثمان رضي الله عنه عبد الرحمن بن حنبل الجمحي وهو يقول :

---

(١) كذا بالأصل والطبري وابن الأثير ، لكنه ضعف روايته وثمة اتفاق في المصادر على أن محمد عبث بلحيته ثم ندم وتركه وخرج . والمشقص : سهم فيه نصل عريض .

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٧ .

(٣) بالأصل : « سندان » تحريف وما أثبتناه عن ابن سعد ٧٤/٣ .

(٤) اختلف أهل السير في قتله ، كيف قتل ، ومن قتله ، ومن أجهز عليه . انظر مختلف الأقوال في ذلك : الطبري ٥/ ١٣٠ مروج الذهب ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢ ابن سعد ٣/ ٧٢ ـ ٧٤ العقد الفريد ٤/ ٢٩١ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٧٦ البداية والنهاية ٧/ ٢١٠ الإمامة والسياسة ١/ ٤٣ تاريخ خليفة ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

فذق أبا عمرو بسوء الفعل وذي صنيع فاجر ذي جهلِ
لما سددت باب كل عدل وصرت ترجى حقنا بالمطلِ
عدا عليك أهل كل فضل بمشرفيات حداث الصقلِ
كذاك يجري كل عان وعلِ

قال : ثم خرج في أثره سبرة بن درهم وآخر يرتجز وهو يقول :

نحن قتلنا نعثلاً ذا السيره إذ زاغ عن أعلامنا المنيره
يحكم بالجور على العشيره وقد قتلنا قبله المغيرة[١]
نالته أسياف لنا مأثوره إنا أناس نعرف البصيره
إن نحن أعلنا وفي السريره

قال : ثم خرج في أثره الحجاج بن [عمرو بن][٢] غزية الأنصاري وهو يقول :

نحن قتلنا نعثلاً في المجلس نحن جلسناه بشر مجلسِ
وخر عند الماهر بن الأخنس حتى جرى طائره بالأبخسِ
نجوز بين أروس وأروس خطفاً بأطراف الرماح الدُّعَّسِ
وفر مروان فرار الأكيس حين رأى وقع السيوف الخلّسِ

قال : ثم خرج في أثره محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة[٣] وهو يرتجز ويقول :

إنا نهضنا وبنا انتصار بالسيف والسيف له غرار
وفيلق يقدمها عصار فدروا نسيوفها حذار

قال : ثم خرج سودان[٤] بن حمران المرادي وسيفه ملطخ بالدم من عثمان وهو يقول :

---

(١) يريد المغيرة بن الأخنس بن شريق .
(٢) سقطت من الأصل ، وقد مرت الإشارة إليه .
(٣) هو محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمي ، أبو القاسم . صحابي ولد بأرض الحبشة . وكان من أشد الناس تأليباً على عثمان . أقره علي على مصر ، وقتله معاوية لما أراد الخروج إلى صفين . (الإصابة) .
(٤) بالأصل «سندان » وقد مرت الإشارة إليه .

أقبلن من مصر ومن أشتات علي في عتاق مرسلات
ما أن نبالي كلّما قد يأتي في الله ما نلقى من الهنات
من ابن عفان أخي السوءات المسخط الله في أوقات
في غير ما يعطى من الهنات ونقذف الغي إلى الغوات
إلى بنيه وإلى البنات

قال : ودخل حسان بن ثابت يعرض بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول :

خذلته الأنصار أن[1] حضر المو ت وكانت ثقاته[2] الأنصار
أين أين الوفاء إذ منع الما ءُ فدته النفوس والأبصار[3]
مَن عذيري مِن الزبير ومن طلـ ـحة هاجا أمراً له أعصار[4]
ثم قالا أراد يستبدل الديـ ـن اعتذاراً وللأمور قرار
فوليه[5] محمد بن أبي بكـ ـر جهاراً وبعده عمّار
هكذا ضلت اليهود عن الحـ ـق بما زخرفت لها الأحبار
باسط للذي يريد ذراعيـ ـه عليه[6] سكينة ووقار
يرتجي الأمر . . . . كالذي . . . . . . له الأقدار[7]

قال : وأقبل عبد الرحمن بن أبي بكر وأبو جهم بن حذيفة العدوي إلى باب عثمان فإذا هم بالحجاج بن [عمرو بن] غزية الأنصاري ومعه نفر من بني عمه قد وقفوا على باب عثمان لا يتركون أحداً أن يدخل عليه ، فقال أبو جهم بن حذيفة : يا

---

(١) في مروج الذهب ٣٨٣/٢ والعقد الفريد ٢٩٧/٤ : إذ .
(٢) في مروج الذهب : ولاية .
(٣) البيت في العقد :

أين أهل الحياء إذ منع الما ء فدته الأسماع والأبصار

(٤) في المروج : وطلحة إذ جاء أمر له مقدار .
(٥) في المروج : « فتولى » وفي العقد : ثم وافي . وفيهما : وخلفه عمار .
(٦) في العقد : باسطاً للتي يريد يديه وعليه . . .
(٧) موضع النقاط غير واضح بالأصل ، والبيت في العقد :

يرقب الأمر أن يزف إليه بالذي سببت له الأقدار

هؤلاء ! إنكم قد قتلتم الرجل فدعـونا نحمله فنصلي عليـه ! فقالت الأنصـار ومن هنالك : كلا والله لا ندعكم تصلون عليه حتى يبايع الناس رجلاً نرتضيه ، فقال أبو جهم بن حذيفة : إنكم لم تدعونا نصلي عليه فإن الله وملائكته قد صلوا عليه ؛ فقال له الحجاج بن [عمرو بن] غزية الأنصاري : إن كنت كاذباً أدخلك الله مدخله ! فقال أبو جهم : نعم وحشرني الله معه ! قال : فقال له رجل من البصريين : لا عليك ! فإن الله عزَّ وجلّ حاشرك معه ومع الشيطان الرجيم ، والله إن تركنا إياك من غير أن نلحقك به لعجز ، قال : فقال له أصحابه : ويحك أبا جهم ! أما لك في نفسك حاجة ؟ دع القوم وامض لشأنك ! فانصرف أبو جهم وهو يقول : إنـا لله وإنا إليـه راجعون ، فتلقاه حسان بن ثابت وقال : ما وراءك يا أبا جهم ؟ فقال : ورائي والله أن عثمان بن عفان في داره مقتول وقد مُنعنا أن نصلي عليه ! فقال له حسان بن ثابت : عن قريب ترى غب هذا أبا جهم ! فانصرف إلى منزلك ولا تعرض نفسك لهؤلاء الغاغة ، فإنه من يقدر على عثمان فيقتله يهون عليه قتل غيره من الناس .

قال : فانصرف أبو جهم إلى منزله ، وأنشأ حسان بن ثابت قصيدة[1] :

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له ... فليأت مأدبة[2] في دار عثمانا
مستشعري حلق الماذيّ قد سفعت[3] ... قبل المخاطم بيض زان أبدانا
رضيت حقاً[4] بأهل الشام نافرة ... وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا ... ما دمتُ حياً وما سميت حسانا
يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ... ما كان شأن عليّ وابن عفانا
لتسمعنّ وشيكاً في دياركم[5] ... خيلاً تكدس تحت النخع فرسانا

(١) الأبيات في ديوانه المطبوع ص ٤٠٩ والطبري ١٥١/٥ وابن الأثير ٣٠١/٢ والعقد الفريد ٢٩٧/٤ - ٢٩٨ والبيتان الأخيران في مروج الذهب ٣٨٣/٢ والبداية والنهاية ٢١٩/٧ والاستيعاب لابن عبد البر .

(٢) الطبري وابن الأثير والديوان والعقد والبداية والنهاية : مأسدة .

(٣) الطبري ابن الأثير : شفعت . والبداية والنهاية : فوق بدل قبل .

(٤) الطبري وابن الأثير : فقد رضينا .

(٥) في المصادر السابقة : ديارهم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا .

وبعده في ابن الأثير والعقد :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

قال بعض أهل العلم : وكان مقتل عثمان رضي الله عنه في أيام التشريق ، وقال بعضهم : قتل عثمان يوم الخميس لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة ؛ وقال عوانة بن الحكم : قتل عثمان في يوم الجمعة وقت العصر لسبع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وهو ابن إحدى وثمانين سنة ، وكان مقتله على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً من مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] .

قال : وترك عثمان قتيلاً[2] إلى أن بويع علي رضي الله عنه وأتي به إلى حفرته ، وصلى عليه حكيم بن حزام . وقال قوم : بل صلى عليه جبير بن مطعم بن عدي ، ودفن ببقيع الغرقد .

---

(١) أجمع أهل السير ومترجمو سيرة عثمان رضي الله عنه على مقتله في ذي الحجة . واختلفوا في وقت مقتله ، وفي مدة ولايته وقدر مدة حياته .
انظر في ذلك : الطبري ٥/١٤٥ ـ ١٤٦ مروج الذهب ٢/٣٦٦ تاريخ خليفة ص ١٧٧ طبقات ابن سعد ٣/٧٧ كتاب المحبر ص ٦٣ العقد الفريد ٤/٢٨٤ مآثر الإنافة ١/٩٥ تاريخ أبي الفداء ١/١٧٠ .

(٢) في الطبري ٥/١٤٣ بقي ثلاثة أيام لا يدفن .

ذكر بيعة أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال : وأقبل الناس إلى علي بن أبي طالب بعُرْف الضبع[1] فقالوا : يا أبا الحسن ! إنه قد قتل هذا الرجل ولا بد للناس من إمام ، وليس لهذا الأمر أحد سواك ، فهلم فبايع الناس حتى يدفن هذا الرجل فإنه في داره قتيل ؛ فقال علي : لا حاجة لي في البيعة ؛ فقال له بعض القوم : يا سبحان الله ! لم لا تجيب القوم إلى البيعة وقد تعلم أن قتل عثمان كان لله عزَّ وجلّ رضاً ، فقال علي : ليس الأمر كما تقولون لقد قتلتموه بلا دية ولا قود ، فدعوني والتمسوا غيري لهذا الأمر ، فإني أرى أمراً له وجوه ولا تقوم لها القلوب ولا تثبت عليها العقول ، فعليكم بطلحة والزبير ! قالوا : فانطلق معنا إلى طلحة والزبير ، فقال علي : أفعل ذلك .

ثم خرج من منزله مع القوم حتى صار إلى طلحة في داره ، فقال : يا أبا محمد ! إن الناس قد اجتمعوا إليّ في البيعة ، وأما أنا فلا حاجة لي فيها ، فابسط يدك حتى يبايعك الناس ، فقال طلحة : يا أبا الحسن ! أنت أولى بهذا الأمر وأحق به مني لفضلك وقرابتك وسابقتك ، فقال له علي : إني أخاف إن بايعني الناس

---

(١) كذا بالأصل ، وفي الطبري ١٥٣/٥ والبداية والنهاية ٢٥٣/٧ دخل حائط بني عمرو بن مبذول . وفي الكامل لابن الأثير ٣٠٢/٢ كان في بيته ، وقيل في حائط لبني عمرو بن مبذول .
وعرف الضبع : اسم جبل لغطفان ، والضبع أيضاً : موضع قبل حرة بني سليم . والضبع أيضاً : واد قرب مكة بينها وبين المدينة .

واستقاموا على بيعتي أن يكـون منك أمـر من الأمور ! فقـال طلحة : مهـلاً يا أبـا الحسن ! فلا والله لا يأتيك مني شيء تكرهه أبداً ، قال علي : فالله تبارك وتعالى عليك راعٍ وكفيل ! قال طلحة : يا أبا الحسن نعم ! قـال علي : فقم بنا إذاً إلى الزبير بن العوام . فأقبل معه طلحة إلى الزبير فكلمه علي بما كلم به طلحة ، فرد عليه الزبير شبيهاً بكلام طلحة وعاقده وعاهده أنه لا يغدر به ولا يحبس بيعته .

قال : فرجع علي إلى المسجد واجتمع الناس ، فقام نفر من الأنصار منهم أبو الهيثم[1] بن التيهـان ورفاعـة بن رافع[2] ومـالـك بن العجـلان وخـزيمـة بن ثـابت والحجاج بن [عمرو بن] غزية وأبو أيوب خالد بن زيد ، فقالوا : أيها الناس ! إنكم رأيتم ما سار فيكم عثمان ، وأنتم اليوم على شرف أن تقعوا في مثلها ، فاسمعوا قولنا وأطيعوا أمرنا ! قال : فقال له الكوفيون والمصريون : فإننا قد قبلنا منكم فأشيروا علينا فإنكم أهل السابقة وقد سماكم الله أنصاراً ، فأمرونا بأمركم ، فقالت الأنصار : إنكم قد عرفتم فضل علي بن أبي طالب وسابقته وقرابته ومنزلته من النبي ﷺ مـع علمه بحلالكم وحرامكم وحاجتكم إليه من بين الصحابة ولن يألوكم نصحاً ، ولو علمنا مكان أحد هو أفضل منه وأجمل لهذا الأمر وأولى به منه لدعوناكم إليه ؛ فقال الناس كلهم بكلمة واحدة : رضينا به طائعين غير كارهين ، فقال لهم علي : أخبروني عن قولكم هذا رضينا به طـائعين غير كـارهين أحق واجب هذا من الله عليكم أم رأي رأيتموه من عند أنفسكم ؟ قالوا : بل هو واجب أوجبه الله عزَّ وجلّ لك علينا ، فقال علي رضي الله عنه : فانصرفوا يومكم هذا إلى غد ، قال : فانصرف الناس .

فلما كان من غد أقبل الناس إلى المسجد ، وجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الأمر أمركم فاختاروا لأنفسكم من أحببتم وأنا سامع مطيع لكم ! قال : فصاح الناس من كل ناحية وقالوا : نحن على ما كنا عليه بالأمس ، فابسط يدك حتى يبايعك الناس ! قال : فسكت عليّ

---

(١) هو مالك بن التيهان بن مالك بن عتيك . . . بن الأوس الأنصاري ، أبو الهيثم وبالأصل « أبو القاسم » تحريف . أحد النقباء . مات سنة ٢٠ أو ٢١ هـ وقيل إنه أدرك صفين وشهدها مع علي وقتل بها .

(٢) هو رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان . . . الأنصاري الخزرجي . وبالأصـل ابن نافـع بدلَ « ابن رافع » تحريف . شهد العقبة ، وقيل إنه شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبي (ص) (أسد الغابة ١٧٨/٢) .

وقام طلحة إلى عليّ فبايعه وضرب بيده على يد عليّ ، وكان به شلل من ضربة أصابته يوم أحد ، فلما وقعت يده على يد عليّ قال قبيصة بن جابر[1] : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أول يد وقعت على كف عليّ أمير المؤمنين يد شلاء ، لا والله لا يتم هذا الأمر من قبل طلحة بن عبيد الله أبداً . قال : ثم وثب الزبير وبايع ، وبايع الناس بعد ذلك بالبيعة من المهاجرين والأنصار ومن حضر من العرب والعجم والموالي .

قال : وتقدم رجل من أهل مصر يقال له سودان[2] بن حمران المرادي فقال له : يا أبا الحسن ! إننا قد بايعناك على إن عملت فينا كما عمل عثمان قتلناك ، فقال علي رضي الله عنه : اللهم فنعم ؛ قال : فبايعه الناس على كتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه ﷺ . قال : وأنشأ عبد الرحمن بن حنبل الجمحي قصيدة مطلعها :

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظة. على الدين معروف العفاف موفقا

إلى آخره .

[دفن عثمان رضي الله عنه][3]

قال : ثم أمر علي بدفن عثمان ، فحمل وقد كان مطروحاً على مزبلة ثلاثة أيام حتى ذهبت الكلاب بفرد رجليه ؛ فقال رجل من المصريين وأمة : لا ندفنه إلا في مقابر اليهود[4] ! قال حكيم بن حزام : كذبت أيها المتكلم ! لا يكون ذلك أبداً ما بقي رجل من ولد قصي ، قال : فحمل عثمان رحمة الله عليه على باب صغير قد جازت رجلاه من الباب ، وأن رأسه ليتقعقع ، وأوتي به إلى حفرته ، فتقدم حكيم بن حزام فصلى عليه[5] ، ودفن في بقيع الغرقد ، فأنشأ حسان بن ثابت الأنصاري يقول :

إذا ما أردتم من أخي الدين تارك يد الله في ذاك الأديم الممزّق

---

(1) في الطبري ٥/١٥٣ وابن الأثير ٢/٣٠٢ حبيب بن ذؤيب . وفي تاريخ اليعقوبي ٢/١٧٨ رجل من بني أسد .

(2) بالأصل : سنداان . وقد مرّ .

(3) استدرك للإيضاح .

(4) بدير سلع ، مقبرة اليهود .

(5) في ابن الأثير : صلى عليه جبير بن مطعم ، وقيل حكيم بن حزام وقيل مروان ٢/٢٩٥ .

قال : ثم أمر علي رضي الله عنه بكل مال وسلاح في دار عثمان بن عفان رحمة الله عليه ونجائب أخذها من مال الصدقة ، فقبضت وجعلت في بيت مال المسلمين ، وما كان سوى ذلك جعله علي رضي الله عنه ميراثاً بين أهله وولده ؛ وجمع علي رضي الله عنه ما كان في بيت المال ففرقه في المهاجرين والأنصار ، وأصاب كل رجل ثلاثة دنانير ـ والله أعلم ـ .

ذكر قدوم عائشة من مكة وما كان من كلامها بعد قتل عثمان

قال : وقدمت عائشة من مكة وقد قضت حجها ، حتى إذا صارت قريباً من المدينة[1] استقبلها عبيد[2] بن أبي سلمة الليثي وكان يقال له ابن أم كلاب فقالت له عائشة : ويحك ! ألنا أم علينا ؟ فقال : قتل عثمان بن عفان ، فقالت : ثم ماذا ؟ فقال : بايع الناس علي بن أبي طالب ، قالت عائشة : وددت أن هذه وقعت على قتل ـ والله ـ عثمان بن عفان مظلوماً وأنا مطالبة بدمه ، والله ليوم من عثمان خير من علي الدهر كله . فقال لها عبيد بن أم كلاب : ولم تقولين ذلك ؟ فوالله ما أظن أن أحداً بين السماء والأرض في هذا اليوم أكرم من علي بن أبي طالب على الله عزَّ وجلّ ، فلم تكرهين ولايته ؟ ألم تكونين تحرضين الناس على قتله ؟ ثم إنكِ أظهرت عيبه وقلتِ : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ؛ فقالت عائشة : لعمري قد قلت ذلك وقالوا ، ثم رجعت عما قلت لما عرفت خبره من أوله ، وذلك أنكم استتبتموه ، حتى إذا جعلتموه كالفضّة البيضاء قتلتموه ، فوالله لأطلبن بدمه ! فقال لها عبيد بن أم كلاب : هذا والله التخليط يا أم المؤمنين ! ثم أنشأ يقول[3] :

إذا زرتماها فقولا لها وحطّ القضاء بذاك القدر
فمنك[4] البداء ومنك الغِيَر ومنكِ الرياح ومنك المطر

(١) وصلت إلى سرف (الطبري ـ ابن الأثير) وهو موضع بين مكة والمدينة .
(٢) عن الطبري ١٦٥/٥ وعنده ١٧٢/٥ « عبد » وبالأصل : عبيد الله .
(٣) الأبيات في الطبري ١٧٢/٥ وابن الأثير ٣١٣/٢ .
(٤) في الطبري : منك .

وأنت أمرتِ بقتل الإمام وقلت كذا إنه قد كفر[1]
فهبنا أطعناكِ في قتله فقاتِلُه عندنا مَن أمر
فقد بايع الناسُ ذا مرّة[2] يزيل الشبا ويقيم الصَّعَر
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثلُ مَن قد غدر[3]
فلم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر

قال : فقالت عائشة : يا عبيد[4] إنه لو قال هذه الأبيات غيرك لم يحتمل ولكنك في عثمان غير ظنين . ثم إن عائشة رجعت إلى مكة من المدينة وأقامت بها .

ذكر بيعة أهل البلدان بعد ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال : وبلغ أهل الكوفة قتل عثمان وبيعة الناس لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فقامت الناس إلى أميرهم أبي موسى الأشعري[5] فقالوا : أيها الرجل ! لم لا تبايع علياً وتدعو الناس إلى بيعته فقد بايعه المهاجرون والأنصار ؟ فقال أبو موسى : حتى أنظر ما يكون وما يصنع الناس بعد هذا قال : فأنشأ رجل من أهل الكوفة[6] أبياتاً مطلعها :

أبايع غير مكتتم علياً وإن لم يرض ذاك الأشعريا

إلى آخره .

قال : وأقبل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى أبي موسى الأشعري فقال : يا أبا موسى ! ما الذي يمنعك أن تبايع علياً ؟ فقال : أنتظر الخبر ، قال : وأي خبر

---

(١) في الطبري وابن الأثير : وقلت لنا .
(٢) الطبري وابن الأثير : ذا تدرإ .
(٣) عن الطبري وابن الأثير : وبالأصل : وفيمن وفى وفيمن غدر .
(٤) عن الطبري ، وبالأصل : عبيد الله .
(٥) مرّ أن عثمان ولى الكوفة بعد سعيد بن العاص ، وكان أهل الكوفة استقبلوا سعيداً ، وأعادوه إلى المدينة من الجرعة .
(٦) هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص كما في الإصابة .

تنتظر وقد قتل عثمان ؟ أتظن أنه يرجع إلى الدنيا ؟ إن كنت مبايعاً لأمير المؤمنين وإلا فاعتزل أمرنا ، ثم أنشأ أبياتاً مطلعها :

إن ابن عفان إذ أودى بشقوته طغى فحلّ به من ذلكم غير

إلى آخره .

قال : ثم ضرب هاشم بن عتبة بيده على الأخرى وقال : لي شمالي ويميني لعلي بن أبي طالب ، فلما قال هاشم ذلك وثب أبو موسى الأشعري فبايع ولم يجد بدا من ذلك قال : وبايعت أهل الكوفة علياً رضي الله عنه بأجمعهم ، وأنشأ هاشم بن عتبة أبياتاً مطلعها :

أبايعه في الله حقاً وما أنا أبايعه مني اعتذاراً ولا بطلا

إلى آخره .

قال : فبايعت أهل الحجاز وأهل العراقين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ذكر الوفود القادمة على علي بن أبي طالب بعد بيعتهم إياه في بلادها

قال : وبلغ ذلك أهل اليمن فبايعوا طائعين غير مكرهين ، ثم إنهم قدموا عليه يهنونه بالخلافة ؛ فأول من قدم عليه رفاعة بن وائل الهمداني في قومه من همدان وهو يقول أبياتاً مطلعها :

نسير إلى علي ذي المعالي بخير عصابة يمن كرام

إلى آخره .

قال : وقدم عليه كيسون بن سلمة الجهني في قومه من جهينة وأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

أجبنا علياً بعل بنت نبينا على كل خنذيذ من الخيل سابح

إلى آخره .

قال : ثم قدم عليه رويبة بن وبر البجلي في قومه من بجيلة وأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

أجبناه دون الهاشمي سوابخ ومـوّاه برق مقفرات مـوادخ

إلى آخره .

قال : فكانت هؤلاء الوفود يسيرون من بلاد اليمن يريدون المدينة الليل مع النهار ولا يفترون من السير ؛ وقد ذكر بعضهم ذلك في أرجوزة له حيث يقول أبياتاً مطلعها :

سيروا بنا في ظلمة الحنادس في مهمه قفر الفلاة واهس[1]

إلى آخره .

قال : وبلغ ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدعا بالأشتر النخعي فأمره أن يخرج فيتلقاهم في أهل المدينة ؛ فخرج الأشتر في تعبية حسنة حتى يلقاهم فرحّب بهم ، وقال : قدمتم خير مقدم إلى قوم يحبّونكم وتحبّونهم ، وإلى إمام عادل خليفة فاضل قد رضي به المسلمون وبايعه الأنصار والمهاجرون . قال : فدخل القوم المدينة فنزلوا ، وجاء الأشتر حتى دخل على عليّ رضي الله عنه رافعاً صوته وهو يقول أبياتاً مطلعها :

أتتك عصابة من خير قوم بما ينوون من حضر وبادي

إلى آخره :

قال : وأقام القوم يومهم ذلك ، فلما كان من الغد بعث إليهم ، فأقبل رؤساء القوم منهم العياض بن خليل الأزدي ورفاعة بن وائل الهمداني وكَيسوم[2] بن سلمة الجهني وروبية بن وبر البجلي ورفاعة بن شداد الخولاني وهشام بن أبرهة النخعي وجميع بن خيثم الكندي والأخنس بن قيس العتكي وعقبة بن النعمان النجدي وعبد الرحمن بن ملجم المرادي ، قال : فلما دخل إليه هؤلاء العشرة وسلموا عليه رد عليهم السلام ، ثم قربهم وأدناهم وقال لهم : إنكم صناديد اليمن وساداتها فليت

---

(١) واهس : قال الجوهري : التوهس مشي المثقل في الأرض . والوهس : شدة الغمز . وهسه وهساً : وطئه وطئاً شديداً . (اللسان) .

(٢) مرّ قريباً « كيسوم » .

شعري إن دهمنا أمر من الأمور كيف صبركم على ضرب الطلا وطعن الكلأ ؟ قال : فبادر عبد الرحمن بن ملجم بالكلام فقال : يا أمير المؤمنين ! ارم بنا حيث شئت إذا شئت لتعلم ذلك ، فوالله ! ما فينا إلا كل بطل أهيس[1] ، وحازم أكيس ، وشجاع أشرس ، وليث أعبس ، ورثنا ذلك عن الآباء والأجداد ، وكذلك يرثه عنا صالح الأولاد ؛ وأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

أبادر في الحروب إلى الأعادي ... بكل مهنّد يوم الضراب

إلى آخره .

قال : فدعا علي رضي الله عنه بالحُبر اليمانية والثياب الألحمية فجعلها عليهم ، وانصرفوا إلى رحالهم فرحين مسرورين .

ذكر من فشل عن البيعة وقعد عنها

قال : وأقبل عمار بن ياسر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد بايعوك طائعين غير كارهين ، فلو بعثت إلى أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك فدعوتهم ليدخلوا فيما دخل فيه الناس من المهاجرين والأنصار[2] ! فقال علي رضي الله عنه : إنه لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا ، قال فقال له الأشتر : يا أمير المؤمنين ! إننا وإن لم يكن لنا في السابقة ما لهم فإنهم ليسوا بشيء أولى من أمور المسلمين منا ، وهذه بيعة عامة ، الخارج منها طاعن علينا ، فلا تدعهم أو يبايعوا ، فإن الناس اليوم إنما هم باللسان وغداً بالسنان ، وليس كل من يتثاقل عليك كمن يخف معك ، وإنما أرادك القوم لأنفسهم فردهم لنفسك ، فقال له علي رضي الله عنه : يا مالك جدي ورأيي ، فإني أعرف بالناس منك . قال : وكان الأشتر وجد من ذلك في نفسه ، فأنشأ أبياتاً مطلعها :

منحت أمير المؤمنين نصيحة ... فكان امرءاً تهدى إليه النصائح

---

(١) الأهيس : الشجاع . (اللسان) .

(٢) انظر ما ذكره الطبري ١٥٣/٥ وابن الأثير ٣٠٣/٢ وابن كثير ٢٥٣/٧ فيمن تخلف عن بيعة علي رضي الله عنه .

وقال الواقدي : وتربص سبعة نفر لم يبايعوا . . . ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم . (نقله الطبري ١٥٥/٥) .

إلى آخرها .

قال : فوثب إلى علي رضي الله عنه رجل اسمه زياد بن حنظلة التميمي ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ما الرأي إلا ما رأيت وأنه من عاند نفسه فإنك غير مشفع به ، فإن بايعك كرهاً فدع عنك هؤلاء الراغبين عنك ، فوالله لأنت الأمين والمأمون على الدين والدنيا ـ والسلام ـ ثم أنشأ التميمي أبياتاً مطلعها :

أبا حسن متى ما تدع فينا نجبك كأننا دفاع بحرِ

إلى آخرها .

قال : وأقبل سعد بن أبي وقاص إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ! والله ما أشك فيك أنك على الحق ، ولكني أعلم أنك تنازع في هذا الأمر والذي ينازعك فيه هم أهل الصلاة ، فإن أحببت أني أبايعك فأعطني سيفاً له لسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر حتى أقاتل معك من خالفك بعد هذا اليوم ؛ فقال علي رضي الله عنه : يابن نجاح يا سعد ! أترى لو أن سيفاً نطق بخلاف ما نزل به جبريل عليه السلام هل كان إلا شيطاناً ، ليس هكذا يشترط الناس على واليهم ، بايع واجلس في بيتك ، فإني لا أكرهك على شيء ؛ فقال سعد : حتى أنظر في ذلك يا أبا الحسن[1] ! قال فوثب عمار بن ياسر فقال : ويحك يا سعد ! أما تتقي الله الذي إليه معادك ؟ أيدعوك أمير المؤمنين إلى البيعة فتسأله أن يعطيك سيفاً له لسان وشفتان ؟ أما والله إن فيك لهنات ! ثم أنشأ عمار أبياتاً مطلعها :

قال سعد لذي الإمام وسعد في الذي قاله حقيق ظلومُ

إلى آخرها .

ذكر خبر مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة مع علي رضي الله عنه في أمر البيعة له

قال : ثم بعث علي رضي الله عنه إلى هؤلاء الثلاثة فدعاهم وقد كانوا تخلفوا

(١) وبقي سعد معتزلاً في بيته لم يبايع علياً (الإصابة ـ البداية والنهاية) وهو ما نقله الطبري ١٥٥/٥ عن الواقدي .

عن بيعته . فقال لهم : ما لي أراكم قد أبطأتم عن بيعتي ؟ قال : فتكلم الوليد بن عقبة فقال : يا أبا الحسن : إنك وترتنا بأجمعنا ، أما أنا فقتلتَ أبي صبراً يوم مكة[1] ، وخذلتَ أخي عثمان بن عفان فلم تنصره ؛ وأما سعيد بن العاص فقتلتَ أباه يوم بدر وكان سيد بني أمية ؛ وأما مروان فسحقت أباه[2] عند عثمان لما ردّه إلى المدينة وضمه إليه ، ونحن نبايعك الآن على أن تقتل من قتل صاحبنا عثمان ، وعلى أنك تسوغنا ما يكون منا ، وعلى أنا إن خفناك على أنفسنا لحقنا بالشام عند ابن عمّنا معاوية ؛ فقال علي رضي الله عنه : أما ما ذكرتم أني وترتكم فإن الحق وتركم ؛ وأما وضعي عنكم ما يكون منكم فليس لي أن أضع عنكم حقاً لله تعالى قد وجب عليكم ؛ وأما قتلي لقتلة عثمان فلو لزمني اليوم قتلهم لقتلتهم أمس ؛ وأما خوفكم إياي فإني أؤمنكم مما تخافون . قال : فقال له مروان : أفرأيت إن نحن لم نبايعك ماذا تصنع بنا ؟ فقال علي : أصنع بكم أني أحبسكم حتى تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإن طعنتم ذلك عاقبتكم أشد العقوبة ؛ قالوا : فإننا نبايع . قال : فبايع مروان والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص صاغرين[3] ؛ ثم إن الوليد بن عقبة أنشأ أبياتاً مطلعها :

تقدمت لما لم أجد لي مقدماً أمامي ولا خلفي من الموت مرحلا

إلى آخرها .

قال : فبلغ علياً هذا الشعر ، فأرسل إلى الوليد بن عقبة وإلى صاحبيه مروان وسعيد بن العاص ، فقال : إن خفتم من أمري شيئاً أمنتكم منه ، وإن أبيتم إلا ما في أنفسكم فالحقوا بأي بلدة شئتم ، فقال مروان : لا بل نقيم ، فقال علي : ذاك إليكم .

قال : فأقام القوم بالمدينة[4] ، فقال رجل : يا مروان ! كم أتت عليك من

---

(١) كذا بالأصل وهو تحريف والصواب يوم وقعة بدر (انظر سيرة ابن هشام) .

(٢) مر أن عثمان رضي الله عنه كان قد رد الحكم بن العاص وكان قد نفاه رسول الله (ص) من المدينة ، وكان هذا مما نقمه الناس عليه .

(٣) الخبر في مروج الذهب ٣٩٠/٢ وتاريخ اليعقوبي ١٧٨/٢ - ١٧٩ باختلاف ، في حين أنه لم يشر أي من المصادر الأخرى إلى أنهم بايعوا علياً ، وفي الإمامة والسياسة ٤٧/١ « وأمر بطلب مروان ، فهرب منه ، وطلب نفراً من بني أمية وابن أبي معيط ، فهربوا » .

(٤) انظر ما سبق ، وفي الطبري ١٥٦/٥ « . . . على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان رضي الله عنه . . . =

السنين ؟ فلست من أعمارنا ، وذلك لأنا لا نأمن علياً على أنفسنا ، قال فقال الرجل : يا مروان ! احذر علياً ولا يبلغه عنك هذا ، فقال مروان : والله ما أبالي أن قصّر عني يده وإن طوّل عليّ لسانه ، فقال له الرجل : مهلاً ! فإنه إن طال عليك لسانه طال عليك سيفه ، فقال مروان : كلا إن اللسان أدب والسيف خطر . قال : ثم انصرف مروان إلى منزله وجعل يقول أبياتاً مطلعها :

إن تكن يا عليّ لم تصب الذنـ ... ـب جهاراً فإن ذلك سرا

إلى آخرها .

قال : ففشا هذا الشعر بالمدينة وهمّ المسلمون بقتل مروان ، فقال علي رضي الله عنه : دعوه فإنه لم يرد بهذا الشعر غيري ؛ قال : وبلغ الوليد بن عقبة ما قاله مروان فعذله على ذلك وبعث إليه أبياتاً مطلعها :

حللت المدينة رخو الخناق ... وقد كانت النفس عند الحقم

إلى آخرها .

قال : ففشا هذا الشعر وبلغ علياً ؛ فقال : كل ما قال حسن إلا البيت الأخير[1] ، فإنه يخوفنا فيه بحربه إيانا ؛ قال : فكف مروان بن الحكم ولم يقل شيئاً .

خبر الحجاج بن خزيمة بن نبهان وقدومه على معاوية

قال : وجعل معاوية يتجسس أخبار المدينة ، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه حاجبه فقال : أيها الأمير ! إن بالباب رجلاً يطلب الدخول عليك ويزعم أنه أقبل من المدينة ، فقال معاوية : ائذن له بالدخول ! فأذن له فدخل حتى وقف بين يدي معاوية

= وجدوا بني أمية قد هربوا إلا من لم يطق الهرب وهرب الوليد وسعيد إلى مكة في أول من خرج وتبعهم مروان » .

(١) أما البيتان الأخيران فهما :

ولا يبسطن إليه اليدين ... ولا ينقلن إليه القدم

إلى ترى الكف فيها البنان ... وقرنا ...... لنا قد نجم

وسلم ، فرد عليه السلام ثم قال : من أنت أيها الرجل ؟ قال أنا الحجاج بن خزيمة بن نبهان[1] ، وأنا النذير العريان ، أنعي إليك عثمان ؛ ثم انطلق يقول[2] :

إن بني عمك عبد المطلب قد قتلوا عثمان حقاً لا كذب[3]
فأنت أولى الناس بالوثب فثب واغضب جهاراً[4] للإله واحتسب
وسر مسير الليث قدماً إذ غضب بجمع أهل الشام ترشد وتصب

فقال له معاوية : ويحك ! قد بلغني قتل عثمان ، ولكن هل شهدت المدينة يوم قتل ؟ فقال : نعم والله لقد شهدت ذلك اليوم[5] ! فقال : أخبرني من تولى قتله ، فقال : على الخبير سقطت ، حضره [قيس بن][6] المكشوح المرادي ، وحكم في دمه حكيم بن جبلة[7] ، وهجم عليه محمد بن أبي بكر والأشتر النخعي وعمار بن ياسر وعمرو بن الحمق الخزاعي وسودان[8] بن حمران وكنانة بن بشر[9] وجماعة لا أقف على أسمائهم ـ وكانت ثَم أبحاث لا أحب ذكرها من رجلين ـ دبوا في ذلك ومشوا وحرضوا على قتله ؛ قال : وأنشأ الرجل أبياتاً مطلعها :

إن ابن عفانٍ أصيب وحوله إخوانه وجماعة الأنصار

إلى آخرها .

قال : فقال له معاوية : وكيف لا يضيع دم عثمان وقد خذله ثقاته واجتمع عليهم أمر عدوهم ؟ أما والله ! لئن بقيت لهم وساعدني أهل الشام لأسوّينّهم إن شاء الله تعالى ؛ ثم أنشد معاوية أبياتاً مطلعها :

---

(١) في وقعة صفين لابن مزاحم ص ٧٧ : « الحجاج بن خزيمة بن الصمة » . (انظر الأخبار الطوال ص ١٥٥) .

(٢) الأرجاز في وقعة صفين ص ٧٧ وبعضها في الأخبار الطوال ص ١٥٥ .

(٣) في وقعة صفين والأخبار الطوال : هم قتلوا شيخكم غير الكذب .

(٤) وقعة صفين : معاوي .

(٥) في الأخبار الطوال أنه لقي رجلاً في الطريق ـ وكان قد خرج مع يزيد بن أسد لنصر عثمان ـ فأخبرهم بمقتل عثمان وأنه ممن شايع على قتله ، فقتلاه . (انظر وقعة صفين) .

(٦) سقطت من الأصل ، وقد مرّ .

(٧) بالأصل : « حنبل » وقد مرّ .

(٨) بالأصل : « سندان » وقد مرّ .

(٩) بالأصل : بشير . وقد مرّ .

أتـانـي من الأنبـاء أمـر مجمـجـم أجـود بـأنفـاس الـرجـال فضيعـوا
إلى آخرها .

قال : ثم أقبل معاوية على هذا الرجل القادم عليه فقال : أيها الرجل ! إن كان عندك مهزّ فهزّني ، فقال : نعم ، فاسمع ما أشير به عليك ، إن علياً قد بايعه أهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مصر وأهل الكوفة ولا أظن أهل البصرة بايعـوه ، وأنك لتقوى على عليّ إن أردت مخالفته بدون ما تقدره نفسك ، لأن الذين معك من أهل الشام لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا سألت[1] ؛ والذين مع عليّ يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ، فقليل من معك خير من كثير من معه ، واعلم يا معاوية ! إن غلبه العراق والحجاز حتى تأخذ الشام دون العـراق ؛ فقال معـاوية : والله ! لقـد صدقت في جميع ما قلت ، ولقد ندمت عن قعودي عن عثمان ، وقد استغاث بي فلم أجبه وأنا القائل في ذلك أبياتاً مطلعها :

أتـانـيَ أمـر فـيـه لـلنفس غـمـة وفـيـه بـكـاء لـلعيـون طـويـلُ[2]
إلى آخرها .

قال : فشاعت هذه القصيدة بالمدينة وبلغ ذلك المغيرة بن شعبة[3] فجاء إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن لك عندي نصيحة فاقبلها ، فقال علي : وما تلك يا مغيرة ؟ قال : لست اني أخاف عليك أحداً يخالفك ويشعث عليك إلا معاوية بن أبي سفيان ، لأنه ابن عم عثمان والشام في يده ، فابعث إليه بعهده وألزمه طاعتك ، وابعث إلى عبد الله بن عامر بن كريـز بعهده على البصرة ، فإنه يسكن عنك الأعداء ويهدي عليك البلاد ؛ فقال علي : ويحك يا مغيرة ! والله ما منعني من ذلك إلا قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **وما كنت متخذ المضلين عضـداً** ﴾[4]. والله ! لا يراني الله تعالى وأنا أستعمل معاوية

---

(١) وقعة صفين : أمرت . وفي الأخبار الطوال : لا يقولون إذا سكت ويسكتون إذا نطقت ولا يسألون إذا أمرت .

(٢) من أبيات ذكرها نصر بن مزاحم في وقعة صفين ص ٧٩ والأخبار الطوال ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٣) خبر المغيرة بن شعبة ونصيحته لعلي (رض) في الطبري ١٥٩/٥ ومروج الذهب ٣٩١/٢ البداية والنهاية ٢٥٥/٧ ابن الأثير ٣٠٦/٢ .

(٤) سورة الكهف الآية ٥١ .

على شيء من أعمال المسلمين أبداً ، ولكني أدعوه إلى ما نحن فيه ، فإن هو أجاب إلى ذلك أصاب رشده وإلا حاكمته إلى الله عزَّ وجلّ ؛ قال : فسكت المغيرة بن شعبة وانصرف إلى منزله وأنشأ أبياتاً مطلعها :

منحت علياً في ابن حربٍ نصيحة فرد فما منّي له الدهر ثانيه[1]

إلى آخره .

[نصيحة أبي أيوب الأنصاري][2]

قال : وأراد عليّ الشخوص إلى الشام ليزور أهلها وينظر ما رأي معاوية ، فأقبل أبو أيوب الأنصاري ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إني لأشير عليك أن تقيم بهذه البلدة فإنها الدرع الحصينة ومهاجر رسول الله ﷺ ، وبها قبره ومنبره فأقم بها ، فإن استقامت لك العرب كنت بها كمن كان من قبلك ، وإن تشعب عليك قوم رميتهم بأعدائهم من الناس ؛ قال : فقال له علي رضي الله عنه : صدقت يا أبا أيوب ! ولكن الرجال والأموال بالعراق ، وأهل الشام لهم وثبة ، أحب أن أكون قريباً منهم ، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ؛ قال فأنشأ أبو أيوب أبياتاً مطلعها :

أقول وقد أودى بعثمان يومه ولا علم لي ما يصنع الله في غدِ

إلى آخرها .

قال : وأخذ علي رضي الله عنه برأي أبي أيوب الأنصاري في الإقامة بالمدينة ، ثم دعا بابن أخته[3] جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي فعقد له عقداً

---

(١) البيت في مروج الذهب ٢/٤١٤ :

نصحت علياً في ابن هند مقالة فردت فلا يسمع لها الدهر ثانيه

وبعده فيه :

وقلت له أرسل إليه بعهده على الشام ، حتى يستقر معاويه
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته وأم ابن هند عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذي جئته به وكانت له تلك النصيحة كافيه

(٢) استدرك للإيضاح .

وهو خالد بن زيد بن كليب . . . الأنصاري الخزرجي ، صحابي ، عقبي بدري أحدي كان مع علي ومن خاصته . مات سنة ٥١ عند القسطنطينية فدفن هناك .

(٣) بالأصل « ابن أخيه » تحريف وهو ابن أم هاني بنت أبي طالب ، أخت علي .

وولاه على بلاد خراسان[1] وأمره بالمسير إليها ليفتح ما بقي منها ؛ ثم دعا بعبد الرحمن مولى بديل[2] بن ورقاء الخزاعي ، فعقد له عقداً وأمره بالمسير إلى أرض الماهين[3] أميراً وعاملاً عليها ؛ ووجه بعماله إلى جميع البلاد[4] التي كانت تحت طاعته ، فسمع القوم وأطاعوا .

---

(١) وكان ذلك بعدما فرغ من حرب أصحاب الجمل (تاريخ اليعقوبي ٢/١٨٣) .

(٢) بالأصل : « يزيد » وفي الإصابة عبد الرحمن بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو أخو عبد الله . قتلا بصفين مع علي (رض) .

(٣) الماهان : تثنية الماه . والماهان : الدينور ونهاوند ، والماهان ماه البصرة (نهاوند) وماه الكوفة (الدينور) معجم البلدان .

(٤) انظر في تفريق علي (رض) عماله على الأمصار الطبري ٥/١٦١ ابن الأثير ٢/٣٠٩ وتاريخ اليعقوبي ٢/١٧٩ - ١٨٠ .

ذكر وقعة الجمل وأوائله

قال : وبلغ ذلك عبد الله بن عامر وهو يومئذ أمير البصرة ، فأيقن بأخذ البصرة من يده[1] وأن ينفذ إليها جيشاً ، فقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن خليفتكم عثمان بن عفان قتل مظلوماً وبيعته في أعناقكم ، ونصرته ميتاً كنصرته حياً ، ولي عليكم اليوم ما كان لي بالأمس ، وقد بايع الناس علياً ونحن اليوم طالبون بدم عثمان ، فأعدوا للحرب عدتها ؛ قال : فوثب إليه حارثة[2] بن قدامة السعدي ، فقال له : يابن عامر ! إنك لن تملكنا عنوة ولن نوليك عن مشورة إنما بطاعة غيرك ، وقد قتل عثمان بحضرة المهاجرين والأنصار فلم يغيروا على قاتله ، وقد بايع الناس علياً ، فإن أقرّك على عملك أطعناك ، وإن عزلك عصيناك ـ والسلام ؛ قال : فسكت عبد الله بن عامر ونزل عن المنبر وأمر بمراكبه فهيّئوها ، ثم دعا برجل من حضرموت قد كان ولّاه شيئاً من عمله ، فقال له : احتفظ بعملك فإني خارج نحو المدينة انظر ما يؤول أمر الناس إليه ؛ ثم خرج عبد الله بن عامر في جوف الليل هارباً نحو المدينة[3] ، وأصبح أهل البصرة يظنون أنه بين أظهرهم ، فلما علموا أنه هرب أنشأ رجل منهم أبياتاً مطلعها :

لعمرك والأيام غير غوابر ... لقد كادنا عما أراد ابن عامر
أيأمرنا بالحرب والليل [أظلم] ... وقد يدرك المحتال ريب المقادر

---

(١) في التعيينات التي أُقرت ، عزل علي (رض) عبد الله وولى البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري .
(٢) كذا بالأصل ومروج الذهب ، وفي الطبري وابن الأثير : جارية .
(٣) انظر مروج الذهب ٢ /٣٩٤ .

لشق به عرض الفلات (؟) . . . يدع
كأن ركابيه على ظهر طائر

وخلف فينا الحضرمي وإننا
لفي قتله من بين ناهٍ وآمر

فإن يتركوه يتركوه و . . . .
وإن يقتلوه فالأمور مقادر

وقد كانت الأخبار عنه بأسرها
وفي راحة التسليم محض السرائر

وإن علياً حاملاً من أطاعه
على الحق إن والاه أهل البصائر

وإن علياً خير من وطىء الحصى
وأفضلهم من ناصر ومهاجر

قال : فلما قدم عبد الله بن عامر المدينة لقيه طلحة والزبير فقالا له : لا مرحباً بك يا مضيع ولا أهلاً ! تركت البصرة والأموال وأتيت المدينة فزعاً من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ! هل لا أقمت بالعراق حتى وافيناك بها ؟ قال : ثم بعث إليه الوليد بن عقبة[1] بن أبي معيط أبياتاً مطلعها :

تركت العراق وفيها الرجال
وجئت إلى البلدة الخامله

إلى آخرها .

قال : وانتفضت البلاد على عليّ رضي الله عنه ، فجعل كلما وجه عاملاً من عماله إلى بلدة من البلدان حاربوه وتبروه إلّا أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل مصر وقليل من أهل الحجاز ، فقال علي رضي الله عنه لأصحابه : اعلموا أنه قد وقع الأمر الذي كنت أحذّركم إياه ، وإن الفتنة كالنار كلما أسعرت ازدادت ، وإنما سأمسك هذا الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بداً فآخر الداء الكي .

قال : ثم خرج علي رضي الله عنه ذات ليلة من منزله لحاجة ، فمر بباب زينب بنت أبي سفيان فسمع صوت دف ينقر وصاحبته تقول أبياتاً مطلعها :

ظلامة عثمان عند الزبير
وأظلم منه لنا طلحة

إلى آخرها .

قال : فانصرف علي رضي الله عنه من هنالك وأقبل حتى دخل المسجد ، فإذا هو بغلام متوسد ذراعه ، وهو يقول أبياتاً مطلعها :

---

(١) بالأصل : ابن أبي عقبة تحريف .

أبـا حـسـن إن ثـبـيـت الأمـور سـتـأتـيـك بـالـلـبـث والـحـسـره

إلى آخرها .

قال : فتعجب علي رضي الله عنه من قول الغلام ثم دنا منه فقال : يا غلام ! من يقول هذه الأبيات ؟ فاستوى الغلام جالساً وقال : أنا أقولها يـا أمير المؤمنين ! قال : فتاركوه متاركة الأهل ، لا الحريم ممن كان لله مجيئاً ولدعـوة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مجيباً ، قال : فتركه علي رضي الله عنه وانصرف وهو يقول أبياتاً مطلعها :

لقـد طـال ليلي فـالحـزين مـوكّـل حـذاراً لأمـر عـاجـل ومـؤجّـل

إلى آخرها .

قال : وأصبح علي رضي الله عنه فصلى بالناس صلاة الصبح ثم جعل يحدث بعضهم بما سمع من الغلام ثم أمر طلحة والزبير ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! يد الله على من لم ينكث وقد برىء الله ممن نكث ؛ ثم تفرق النـاس ودخل علي رضي الله عنه إلى منزله ، وأنشأ خزيمة بن ثابت الأنصاري أبياتاً مطلعها :

إذا نـحن بـايـعنـا عـليـاً فحسبنـا أبـو حسن مما نخـاف من الفتن(١)

إلى آخرها .

ذكر خروج طلحة والزبير إلى مكة معتمراً زعماً وما أزمعا عليه من الخروج على عليّ رضي الله عنه والنكث بعده

قال : ثم أقبل الزبير وطلحة إلى علي رضي الله عنه فاستأذناه في العمرة ، فقال لهما علي رضي الله عنه : إنكما ليس إلى العمرة تريدان ، وقد كنت قلت لكما في أول الأمر : إنكما تفعلان أمراً من الأمور ، فأبيتما إلا بيعتي طائعين غير مكرهين ،

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر بن غياث . بدري . شهد مع علي (رض) الجمل وقتل بصفين . (الإصابة) .

(٢) بعده في الإصابة :

وفيـه الـذي فيـهم من الـخيـر كله ومـا فيهم بعض الـذي فيـه من حسن

والآن فقد أذنت لكما فاذهبا حيث شئتما راشدين !

قال : فخرج الزبير وطلحة إلى مكة ، وخرج معهما عبد الله بن عامر بن كريز[1] وهو ابن خال عثمان ، فجعل يقول لهما : أبشرا ! فقد نلتما حاجتكما ، والله لأمدنكما بمائة ألف سيف .

قال : وقدموا مكة وبها يومئذ عائشة وحرّضوها على الطلب بدم عثمان ، وكان معها جماعة من بني أمية ؛ فلما علمت بقدوم طلحة والزبير فرحت بذلك واستبشرت وعزمت على ما أرادت من أمرها ؛ قال : وتكلمت بنو أمية ورفعت رؤوسها عند قدوم طلحة والزبير على عائشة ولم يزالوا يحرضوها على الطلب بدم عثمان ؛ قال : وكتب الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى من كان بالمدينة من بني هاشم أبياتاً مطلعها[2] :

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه لا تحل مناهبُه[3]

إلى آخرها .

قال : فأجابه الفضل بن العباس بن [عتبة بن أبي لهب][4] وهو يقول أبياتاً مطلعها[5] :

سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختكم[6] فهم سلبوه سيفه وحرائبه[7]

إلى آخرها .

وأقبل طلحة والزبير إلى عبد الله بن عمر وهو يومئذ مقيم بمكة[8] ، فقالوا له :

---

(١) في الطبري ٥/١٦٦ وابن الأثير ٢/٣١٣ «أنه قدم عليهم من البصرة» وقد مرّ أنه هرب من البصرة بعدما وليها عثمان بن حنيف. قال المسعودي إنه جهزهم بألف ألف درهم ومائة من الإبل وغير ذلك (مروج الذهب ٢/٣٩٤) .

(٢) كذا بالأصل ، وفي المصادر التي ذكرت الأبيات لم يرد هذا البيت في مطلع الشعر .

(٣) ذكر عدة أبيات غيره في مروج الذهب ٢/٣٨٤ الاستيعاب ٣/٦٣٦ - ٦٣٧ الأغاني ٥/١٢٠ .

(٤) عن مروج الذهب والاستيعاب ، وبالأصل : ابن عبد المطلب تحريف .

(٥) كذا ، ولم يرد هذا البيت في مطلع الأبيات في المصادر .

(٦) في مروج الذهب ٢/٣٨٤ ابن أختنا .

(٧) في مروج الذهب ٢/٣٨٤ والاستيعاب ٢/٦٣٧ عدة أبيات .

(٨) وكان ابن عمر - قد غادر إلى مكة معتمراً بعدما طلب إليه علي النهوض معه ، فاعتذر إليه وأبلغه أنه مقيم على طاعته إلا النهوض (الطبري ٥/١٦٤ وانظر الإمامة والسياسة ١/٥٩ - ٦٠) .

أبا عبد الرحمن ! إن عائشة قد خافت في هذا الأمر وعزمت على المسير إلى البصرة فاشخص معنا ولك بنا أسوة ، فأنت أحق بهذا الأمر ؛ قال : وكلمه الزبير وقال : أبا عبد الرحمن ! لا تنظرن إلى أول أمرنا في عثمان وبيعتنا علياً ولكن انظر إلى آخر أمرنا ؛ إننا ما نريد في مسيرنا هذا إلا علاج الأمة وقد خافت عائشة وليست بك عنها رغبة ؛ قال : فقال عبد الله بن عمر : أيها الرجلان ! أتريدان أن تخدعاني لتخرجاني من بيتي كما يخرج الأرنب من جحره ، ثم تلقياني بين لحيي علي بن أبي طالب ، مهلاً يا هذان ! فإن الناس إنما يخدعون بالوصف والوصيفة والدينار والدرهم ولست من أولئك ، إني قد تركت هذا الأمر عياناً وأنا أدعى إليه ، فدعوني واطلبوا لأمركم غيري ، قال فقال الزبير : يغني الله عنك .

قال : وقدم يعلى بن منية من اليمن ، وقد كان عاملاً عليها من قبل ، فقدم ومعه أربعمائة بعير[١] فدعا الناس إلى الحملان ، فقال له الزبير : دعنا بين إبلك هذه ، هات فأقرضنا مما لك ما نستعين به على ما نريد ، فأقرضهم ستين ألف دينار ، ففرقها الزبير فيمن أحب ممن خف معه ؛ قال : ثم شاوروا في المسير ، فقال الزبير : عليكم بالشام ! فيها الرجال والأموال وبها معاوية وهو عدو لعلي ، فقال الوليد بن عقبة : لا والله ما في أيدكم من الشام قليل ولا كثير ! وذلك أن عثمان بن عفان قد كان استعان بمعاوية لينصره وقد حوصر فلم يفعل وتربص حتى قتل ، لذلك يتخلص له الشام ؛ أفتطمع أن أسلمها إليكم ؟ مهلاً عن ذكر الشام وعليكم بغيرها[٢] ثم اعتزلهم الوليد بن عقبة وأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

قولا لطلحة والزبير خطئتما ... بقتلكما عثمان خير قتيلِ

إلى آخرها .

قال : واتصل الخبر بمعاوية أن طلحة والزبير وعائشة قد تحالفوا على علي رضي الله عنه وقد اجتمع إليه جماعة من الناس وأنهم يريدون الشام ، فكأنه اغتم

---

(١) الطبري وابن الأثير والبداية والنهاية : ستمائة بعير وستمائة ألف درهم . وفي مروج الذهب : أربعمائة ألف درهم وكراعاً وسلاحاً . وبعث بالجمل المسمى عسكراً إلى عائشة . . . وفي الإمامة والسياسة : أربعمائة بعير ، وأقرض الزبير ستين ألفاً ، وأقرض طلحة أربعين ألفاً .

(٢) في الطبري وابن الأثير أن هذا قول عبد الله بن عامر بن كريز ، وزيد عندهما أنه أقنع الخارجين بالتوجه إلى البصرة فإن له فيها صنائع وأن أهلها لهم هوى في طلحة . وانظر الإمامة والسياسة .

بذلك ثم كتب إليهم أبياتاً لا عن لسانه ولا عن لسان غيره ، مطلعها :

قل للزبير على ما كان من عند والمرء طلحة قولاً غير ذي أودِ

إلى آخرها .

قال : فلما وردت الأبيات على طلحة والزبير ونظرا فيها قال الزبير : والله ما هذا إلا من قول معاوية ولكنه جعله على لسان غيره .

خبر عائشة مع أم سلمة حين أرادت المسير إلى البصرة

قال : وأقبلت عائشة حتى دخلت على أم سلمة[1] زوجة النبي ﷺ وهي يومئذ بمكة ، فقالت لها : يا بنت أبي أمية ! إنك أول ظعينة هاجرت مع رسول الله ﷺ ، وأنت كبيرة أمهات المؤمنين وقد كان رسول الله ﷺ يقسم لنا بين بيتك ، وقد خُبِّرت أن القوم استتابوا عثمان بن عفان حتى إذا تاب وثبوا عليه فقتلوه ، وقد أخبرني عبد الله بن عامر أن بالبصرة مائة ألف سيف يقتل فيها بعضهم بعضاً ، فهل لك أن تسيري بنا إلى البصرة لعل الله تبارك وتعالى أن يصلح هذا الأمر على أيدينا ؟ قال : فقالت لها أم سلمة رحمة الله عليها : يا بنت أبي بكر ! بدم عثمان تطلبين ! والله لقد كنت من أشدّ الناس عليه ، وما كنت تسميه إلا نعثلاً ، فما لك ودم عثمان ؟ وعثمان رجل من عبد مناف وأنت امرأة من بني تيم بن مرة ، ويحك يا عائشة ! أعلى عليّ وابن عم رسول الله ﷺ تخرجين وقد بايعه المهاجرون والأنصار ؟ ثم جعلت أم سلمة رحمة الله عليها تذكر عائشة فضائل علي رضي الله عنه وعبد الله بن الزبير على الباب يسمع ذلك كله ، فصاح بأم سلمة وقال : يا بنت أبي أمية ! إننا قد عرفنا عداوتك لآل الزبير ، فقالت أم سلمة : والله لتورِدنّها ثم لا تصدرنّها أنت ولا أبوك ! أتطمع أن يرضى المهاجرون والأنصار بأبيك الزبير وصاحبه طلحة وعلي بن أبي طالب حي وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة[2] ؟ فقال عبد الله بن الزبير : ما سمعنا هذا من رسول الله ﷺ

---

(١) وهي أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية ، أم المؤمنين ، واسمها هند ، وقيل اسمها رملة . كانت زوج أبي سلمة سعيد بن عبد الأسد بن المغيرة فمات عنها . تزوجها النبي (ص) . ماتت سنة ٥٩ وقيل سنة ٦١ وقيل سنة ٦٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٣٨/٤ وأخرجه الترمذي في المناقب حـ ٣٧١٢ ج ٦٣٢/٥ ونقله ابن كثير في البداية والنهاية ٣٨١/٧ باختلاف اللفظ .

ساعة قط ، فقالت أم سلمة رحمة الله عليها : إن لم تكن أنت سمعتَه فقد سمعتْه خالتك عائشة وها هي فاسألها ! فقد سمعته ﷺ يقول : « علي خليفتي عليكم في حياتي ومماتي فمن عصاه فقد عصاني » . أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا ؟ فقالت عائشة : اللهم نعم ! قالت أم سلمة رحمة الله عليها : فاتقي الله يا عائشة في نفسك واحذري ما حذرك الله ورسوله ﷺ ، ولا تكوني صاحبة كلاب الحوأب[1] ، ولا يغرنك الزبير وطلحة فإنهما لا يغنيان عنك من الله شيئاً .

قال : فخرجت عائشة من عند أم سلمة وهي حنقة عليها ؛ ثم إنها بعثت إلى حفصة فسألتها أن تخرج معها إلى البصرة ، فأجابتها حفصة إلى ذلك[2] . قال : فعند ذلك أذن مؤذن طلحة والزبير بالمسير إلى البصرة ، فسار الناس في التعبية والآلة والسلاح وسارت معهم عائشة وهي تقول : اللهم ! إني لا أريد إلا الإصلاح بين المسلمين ، فأصلح بيننا إنك على كل شيء قدير .

ذكر كتاب أم سلمة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه تخبره بأمر عائشة وطلحة والزبير

قال : وكتبت[3] أم سلمة رحمة الله عليها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لعبد الله عليّ أمير المؤمنين ، من أم سلمة بنت أبي أمية ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ! فإن طلحة والزبير وعائشة وبنيها بني السوء وشيعة الضلال

---

(١) إشارة إلى قوله (ص) لبعض نسائه : « ليت شعري أيتكنّ التي تنبحها كلاب الحوأب » نقله ابن كثير في البداية والنهاية عن عائشة رضي الله عنها . وقال : هذا إسناد على شرط الصحيحين ولم يخرجوه . وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٥٢ ، ٩٧ .
والحوأب : موضع في طريق البصرة محاذي البقرة ماءة أيضاً من مياههم .

(٢) في الطبري وابن الأثير أن حفصة أرادت الخروج فجاءها عبد الله بن عمر وطلب إليها أن تقعد فقعدت . وبلّغت ذلك إلى عائشة .

(٣) في الطبري رواية تشير إلى أن أم سلمة كانت بالمدينة وقد قامت إلى علي فقالت : يا أمير المؤمنين لولا أن أعصى الله عزَّ وجلّ وأنك لا تقبله مني لخرجت معك وهذا ابني عمر والله لهو أعز علي من نفسي فيخرج معك فيشهد مشاهدك (٥/١٦٧) وذكر ابن عبد البر أن أم سلمة أرسلت رسالة إلى عائشة تنصحها بعدم الخروج إلى البصرة وقد ردت عليها عائشة . نص الرسالتين في العقد الفريد ٤/٣١٦ـ ٣١٧ وانظر الإمامة والسياسة ١/٥٦ ـ ٥٧ .

خرجوا مع ابن الجزار عبد الله بن عامر إلى البصرة ، يزعمون أن عثمان بن عفان قتل مظلوماً وأنهم يطلبون بدمه ، والله كافيكم وجعل دائرة السوء عليهم إن شاء الله تعالى ، وتالله لولا ما نهى الله عزَّ وجلّ عنه من خروج النساء من بيوتهن وما أوصى به رسول الله ﷺ عند وفاته لشخصت معك ، ولكن قد بعثت إليك بأحب الناس إلى النبي ﷺ وإليك ابني عمر بن أبي سلمة ـ والسلام ـ .

قال : فجاء عمر بن أبي سلمة إلى علي رضي الله عنه فصار معه ، وكان له فضل وعبادة وعقل ، فأنشأ رجل من أصحاب عليّ رضي الله عنه يمدح أم سلمة وهو يقول أبياتاً مطلعها :

أمّ يا أمّةِ لقيت الظفر ثمّ لا زلتِ تسقيّنّ المطر

إلى آخرها .

قال : ثم أنشأت امرأة أيضاً من نساء بني عبد المطلب تمدح أم سلمة زوج النبي ﷺ وتذكر عائشة وفعلها فقالت أبياتاً مطلعها :

بنت أبي أميّة الداهشة كفّ إلى الخير لها مائشه

إلى آخرها .

قال : وكتبت أم الفضل بنت الحارث إلى علي رضي الله عنه : بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله علي أمير المؤمنين من أم الفضل بنت الحارث أما بعد! فإن طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا من مكة يريدون البصرة ، وقد استنفروا الناس إلى حربك ولم يخف معهم إلى ذلك إلا من كان في قلبه مرض ، ويد الله فوق أيديهم ـ والسلام ـ .

قال : ثم دفعت أم الفضل هذا الكتاب إلى رجل من جهينة له عقل ولسان يقال له ظفر فقالت : خذ هذا الكتاب وانظر أن تقتل في كل مرحلة بعيراً وعليَّ ثمنه ، وهذه مائة دينار قد جعلتها لك ، فجد السير حتى تلقى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فتدفع إليه كتابي هذا[١] .

قال : فسار الجهني سيراً عنيفاً حتى لحق أصحاب علي رضي الله عنه وهم

---

(١) انظر الطبري ١٦٧/٥ وابن الأثير ٣١٤/٢ .

على ظهر المسير[1] ، فلما نظروا إليه نادوه من كل جانب : أيها الراكب ! ما عندك ؟ قال : فنادى الجهني بأعلى صوته شعراً يخبر فيه قدوم عائشة وطلحة والزبير ؛ قال : فلما سمع علي ذلك دعا محمد بن أبي بكر وقال له : ألا ترى إلى أختك عائشة كيف خرجت من بيتها الذي أمرها الله عزَّ وجلّ أن تقر فيه وأخرجت معها طلحة والزبير يريدان البصرة لشقاقي وفراقي ؟ فقال له محمد : يا أمير المؤمنين ! لا عليك ، فإن الله معك ولن يخذلك ، والناس بعد ذلك ناصروك ، والله تبارك وتعالى كافيك أمرهم إن شاء الله .

قال : فعندها نادى علي رضي الله عنه في أصحابه فجمعهم ، ثم قال[2] : أيها الناس ! إن الله تبارك وتعالى بعث كتاباً ناطقاً لا يهلك عنه إلا هالك وإن المبتدعات المشتبهات[3] هن المهلكات المرديات إلا من حفظ الله ، وإن في سلطان الله عصمة أمركم ، فأعطوه طاعتكم ، ألا ! وتهيأوا لقتال الفرقة الذين يريدون تفريق جماعتكم فلعل الله تعالى يصلح بكم ما أفسد أهل الشقاق ؛ ألا[4] إن طلحة والزبير قد تمالآ عليّ بسخط أقاربي[5] ودَعَوَا الناس إلى مخالفتي وأنا سائر إليهم ومنابزهم حتى يحكم الله بيني وبينهم ـ والسلام ـ .

قال : فأجابه الناس إلى ذلك ، وعائشة قد تقدمت فيمن معها من الناس ، حتى إذا بلغت إلى ماءِ الحوأب وذلك في وقت السحر نبحت الكلاب ، فسمعت عائشة رجلاً من أهل عسكرها يسأل ويقول : أي ماء هذا ؟ فقيل له : هذا ماء الحوأب ؛ فقالت عائشة : ردوني ! فقيل لها : ولم ذلك ؟ فقالت : لأني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : « كأني بامرأة من نسائي تنبح عليها كلاب الحوأب ، فاتقي

---

(١) وكان علي (رض) قد تهيأ للخروج إلى الشام ، بعد تردد بالمدينة أربعة أشهر ينتظر جواب معاوية على كتب أرسلها إليه متتالية ، ثم أتاه جوابه على غير ما يجب . (الطبري ـ ابن الأثير) .
وفي الإمامة والسياسة : فلما كان ببعض الطريق (متوجهاً نحو الشام) أتاه كتاب أخيه عقيل بن أبي طالب يخبره فيه خبر عائشة وطلحة والزبير .

(٢) وردت الخطبة في الطبري ٥/١٦٣ ـ ١٦٤ وذلك عندما تجهز وعبأ الناس للسير نحو الشام .

(٣) الطبري : والشبهات .

(٤) في الطبري جاءه خبر طلحة والزبير فقام وخطب فيهم ، وما ذكر من هنا جزء من خطبته بعدما أبلغ الخبر .

(٥) الطبري : إمارتي .

الله أن تكوني أنت يا حميراء »[1] .

قال : ونزل القوم هنالك ، فلما أصبحوا إذا عبد الله بن الزبير[2] قد أتى بخمسين رجلاً يشهدون عندها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب وأنهم قد جازوا ماء الحوأب بليل ، قال : فكانت هذه الشهادة أول شهادة زور شهد بها في الإسلام .

قال : وسار القوم حتى إذا دنوا من البصرة خرج إليهم عثمان بن حنيف الأنصاري[3] في شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهمّ بمحاربتهم ، ثم إنه كره القتال ومشى بعضهم إلى بعض وسألوه الصلح إلى أن يقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أن يكون المال ودار الإمارة في يد عثمان بن حنيف ، قال : فرضي الفريقان بذلك وكتبوا بينهم كتاباً[4] ؛ وأقام طلحة والزبير وعائشة بموضع يقال لها الخريبة[5] يدبرون أمرهم وآراءهم بينهم .

ذكر ما جرى من الكلام بين عائشة والأحنف بن قيس حين دعي إلى نصرتها

قال[6] : ثم إنهم بعثوا إلى الأحنف بن قيس فدعوه وقالوا : إننا نريد منك أن تنصرنا على دم عثمان بن عفان فإنه قتل مظلوماً ، قال : فالتفت الأحنف إلى عائشة وقال : يا أم المؤمنين ! أنشدك الله أما قلت لك ذلك اليوم إن قتل عثمان فمن أبايع ؟ قلت : علي بن أبي طالب ؟ فقالت عائشة : قد كان ذلك يا أحنف ، ولكن ههنا أمور نحن بها أعلم منك ، فقال الأحنف : لا والله لا أقاتل علي بن أبي طالب أبداً وهو أخو رسول الله ﷺ وابن عمه وزوج ابنته وأبو سبطيه ، وقد بايعه المهاجرون والأنصار .

قال : ثم وثب الأحنف حتى صار إلى ديار قومه من بني تميم ثم نادى فيهم

---

(١) تقدمت الإشارة إليه .

(٢) في مروج الذهب ٢/٣٩٥ طلحة بن عبيد الله .

(٣) وكان قد ولاه علي البصرة .

(٤) انظر نسخة الكتاب بين عثمان بن حنيف وأنصار عائشة (رض) في الطبري ٥/١٧٧ .

(٥) الخريبة : محلة من محال البصرة ، وكانت عنده وقعة الجمل بين علي وعائشة (معجم البلدان) .

(٦) خبر الأحنف بن قيس في الطبري ٥/١٩٧ والعقد الفريد ٤/٣١٩ ـ ٣٢٠ باختلاف وزيادة .

فاجتمع إليه أربعة[1] آلاف رجل ، فسار بهم حتى نزل بهم على فرسخين من البصرة[2] .

قال : وعزم طلحة والزبير ومن كان معهم أن يهجموا على عثمان عامل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيقتلوه ويقتلوا الأنصار الذين لعليّ وأزمعوا على ذلك ، فلما كان الليل لم يسع عثمان بن حنيف إلا وطلحة والزبير وابنه عبد الله ومروان بن الحكم وأصحابه قد هجموا عليهم ووضعوا فيهم السيف ، فقتلوا أشياعه[3] وهم أنصار علي بن أبي طالب ، ثم أخذوا عثمان بن حنيف فأرادوا قتله ، فقال بعضهم لبعض : هذا رجل من الأنصار وله بالمدينة عشيرة ، فإن نحن قتلناه ازدادوا علينا غلظة ؛ فلم يقتلوه ولكن أخذوه فنتفوا لحيته وشاربه وأشفار عينيه وحلقوا رأسه .

قال : وأمرت عائشة عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة بالصلاة ، فكان أحدهم يصلي بالناس صلاة والآخر يصلي بالناس صلاة .

قال : وعليّ يومئذ كان قد خرج من المدينة وهو نازل بالربذة ، فلما بلغه ذلك سار من الربذة حتى نزل بذي قار[4] ، ثم إنه وجه ابنه الحسن[5] وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفرون أهلها إلى البصرة لمحاربة القوم .

خبر أبي موسى الأشعري لما وافاه الحسن بن عليّ وعمار بن ياسر بالكوفة

قال : فلمّا قدم الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر إلى الكوفة استنفرا أهلها ، وثب أبو موسى الأشعري وهو يومئذ عامل عليها فقال : يا أهل الكوفة ! اتقوا الله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً * ﴾[6] ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً

---

(١) في الطبري : ستة آلاف .

(٢) في الطبري بموضع : الجلحاء .

(٣) في مروج الذهب ٢/٣٩٥ قتل منهم سبعون غير من جرح ، وخمسون من السبعين ضرب رقابهم صبراً من بعد الأسر . وهؤلاء أول من قتل ظلماً في الإسلام وصبراً . وعند ابن الأثير : أربعون رجلاً . (وانظر اليعقوبي ٢/١٨١) .

(٤) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة .

(٥) بالأصل : الحسين تحريف وما أثبتناه عن الطبري .

(٦) سورة النساء : ٢٩ .

فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً * ﴾[1] قال : فغضب عمار بن ياسر ، ثم وثب أبو موسى فأسكته ؛ فقام رجل من بني تميم إلى عمار بن ياسر فقال : اسكت أيها الرجل الأجذع ! بالأمس كنت مع غوغاء مصر على عثمان واليوم تسكت أميرنا ، قال : فوثب زيد بن صوحان وأصحابه مع شيعة علي بالسيوف وقالوا : من لم يطع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فما له عندنا إلا السيف ، فقال أبو موسى : أيها الناس ! اسكتوا واسمعوا كلامي ، هذا كتاب عائشة[2] إليّ تأمرني فيه أن أقرأه إن أقرّ الناس في منازلهم إلى أن يأتيهم ما يحبون من صلاح أمر المسلمين ؛ فقال له عمار بن ياسر : يا أبو موسى ! إن عائشة أمرت بأمر وأمرنا بغيره ، أمرت أن تقرّ في بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا هي بما أمرت وركبت ما أمرنا به . قال : فكثر الكلام يومئذ بين الناس ، فوثب زيد بن صوحان العبدي فقال : **﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آلمّ * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكٰذبين * ﴾**[3] أيها الناس ! سيروا إلى أمير المؤمنين وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق راشدين . قال : ثم وثب عمار بن ياسر فقال : أيها الناس ! إنه لا بد لهذا الأمر ولهؤلاء الناس من وال يدفع المظالم ويعين المظلوم ، وهذا ابن عم رسول الله ﷺ يستنفركم إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزبير ، فاخرجوا وانظروا في الحق فمن كان الحق معه فاتبعوه . قال : ثم وثب الحسن بن علي فقال : أيها الناس ! إنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما قد بلينا به ، فوالله إني لأعلم أن من سمع بهذا الأمر ولم يكن إلا مع الحق أنه لسعيد . قال : فوثب الهيثم بن مجمع العامري[4] فقال : أيها الناس ! إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله وهذا ابنه الحسن فاسمعوا قوله وأطيعوا أمره وانفروا إلى أميركم وأشيروا عليه برأيكم .

قال : فأجاب الناس إلى ذلك ونفر من أهل الكوفة تسعة آلاف ومائتا رجل[5] ،

---

(١) سورة النساء الآية ٩٣ .

(٢) نسخة كتاب عائشة إلى أهل الكوفة في الطبري ٥/١٨١ - ١٨٢ .

(٣) سورة العنكبوت الآيات ١ - ٣ .

(٤) في الطبري ٥/١٨٩ وابن الأثير ٢/٣٢٩ هند بن عمرو .

(٥) في الطبري وابن الأثير : قريب من تسعة آلاف ، أخذ في البر ستة آلاف ومائتان ، وأخذ في الماء ألفان =

فأخذ بعضهم في البر وبعضهم في البحر حتى قدموا على علي بن أبي طالب ، فاستقبلهم علي رضي الله عنه ورحب بهم وأدناهم وحياهم ، ثم قال : يا أهل الكوفة ! إنكم وليتم شوكة الأعاجم وملوكهم ففضضتم جموعهم وهدمتم عزهم ، حتى صارت إليكم مواريثهم وأموالهم ، ثم منعتم[1] حوزتكم وأعنتم الناس على عدوهم ؛ وقد دعوتكم الآن لتشهدوا معنا إخواننا هؤلاء من أهل البصرة ، فإن يتقوا الله ويرجعوا فذلك ما تريدون وإن أبوا ذلك نداويهم[2] باللين والشدة ، ولسنا ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : فاجتمع الناس بذي قار مع علي بن أبي طالب ستة آلاف من أهل المدينة وأهل مصر وأهل الحجاز وتسعة آلاف[3] من أهل الكوفة وجعل الناس يجتمعون حتى صاروا في تسعة عشر ألف رجل من فارس وراجل ، وسار علي رضي الله عنه عن ذي قار يريد البصرة في جميع أصحابه والناس يتلاحقون به من كل أوب .

ذكر تعبية أهل البصرة للحرب

قال : وبلغ طلحة والزبير أن علياً قد تقارب من البصرة في خيله وجمعه ، فعزموا على تعبية الناس ، فكانت الخيل كلها إلى طلحة ورجّالة إلى عبد الله بن الزبير ، وعلى خيل الميمنة مروان بن الحكم وعلى رجالتها عبد الرحمن[4] بن عتاب بن أسيد ، وعلى خيل الميسرة هلال بن وكيع الدارمي ، وعلى رجالتها حاتم بن بكير الباهلي ، وعلى الجناح عمر بن طلحة ، وعلى رجالتها عبد الله بن حكيم بن حزام ، وعلى خيل الكمين جندب بن يزيد المجاشعي ، وعلى رجالتها مجاشع بن مسعود السلمي[5] .

قال : وصاح رجل من بني ضبة : وطّنوا أنفسكم على الصبر ، فإنه يلقاكم أسد

= وأربعمائة . وفي مروج الذهب ٣٩٦/٢ نحو من سبعة آلاف . وفي تاريخ خليفة ص ١٨٤ ما بين الستة آلاف إلى السبعة .

(١) الطبري ١٩٠/٥ فأغنيتم .

(٢) الطبري : داويناهم بالرفق وباينّاهم حتى يبدؤنا بظلم .

(٣) انظر ما سبق .

(٤) بالأصل عبد الله تحريف . وما أثبتناه عن الطبري ٢٠٣/٥ .

(٥) انظر في تعبئة طلحة والزبير للناس الطبري ٢٠٣/٥ .

خفّان وجماهير أهل الحجاز وأفاعي أهل الكوفة مع علي بن أبي طالب ، فانظروا أن تفضحوا قبائل مضر ؛ قال : ثم أنشأ أبياتاً مطلعها :

ألا قولا لطلحة والزبير وقولا للذين هم النصار

إلى آخرها .

قال : فقال له الزبير : بئس ما قلت يا أخا بني ضبة ! فقال الضبي : أنا عبد الله ، إني أعلم من تقدم علينا غداً ، فإذا كان ذلك فاطلبني في الرعيل الأول .

قال : وبلغ ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إن القوم قد تَعبّوا لحربكم فماذا عندكم من الرأي ؟ فقال له رفاعة بن شداد البجلي : يا أمير المؤمنين ! تعبية لتعبية ، وحق يدفع باطلاً ، وهذا ما كنا نريد ، فأبشر وقرّ عيناً ! فسترى منا ما تحب ؛ قال : ثم أنشأ رفاعة بن شداد يقول أبياتاً مطلعها :

أتتك الأمور بسعد السعود وسرت إلى الفئة الناكثة

إلى آخرها .

قال : ودنا علي في أصحابه من البصرة ؛ فقال طلحة بن عبيد الله لأصحابه : اعلموا أيها الناس ! أن علياً وأصحابه قد أضر بهم السفر وتعب الطريق ، فهل لكم أن نأتيهم الليلة فنضع فيهم السيف ؟ فقال مروان بن الحكم : والله لقد استبطأت هذه منك أبا محمد ! وليس الرأي إلا ما رأيت ، قال : فضحك الزبير من ذلك ثم قال : أمن علي تصاب الفرصة وهو من قد عرفتم ؟ أما علمتم أنه رجل ما لقيه أحد قط إلا ثكلته أمه ؟ فسكت طلحة ولم يرد إلى الزبير شيئاً .

قال : فلما كان الليل إذا بغلام من بني تيم بن مرة قد أقبل حتى وقف إلى جنب منزل طلحة بن عبيد الله وأنشأ أبياتاً مطلعها :

يا طلح يابن عبيد الله ما ظفرك كفاك إذ رُزت في عِرّيسة الأسد

إلى آخره .

قال : ثم وثب رجل من أصحاب الزبير يكنى أبا الجرباء[1] فقال للزبير : أبا عبد الله ! ما الرأي عندي إلا أن تبيتوا هذا الرجل ، فإن الرأي في الحرب من

---

(١) وهو من بني عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم (الطبري ٥/٢٠١) .

النجدة ؛ فقال له الزبير : يا أبا الجرباء ! إننا لنعرف من الحرب ما لم يعرفه كثير من الناس غير أن القوم أهل دعوتنا ، ونحن وهم مسلمون ، وهذا أمر حدث في أمتنا لم يكن قبل اليوم ، ولا كان فيه من رسول الله ﷺ قول ، وبعد ذلك فهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه من لم يلق الله فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة ، ونحن مع ذلك نرجو الصلح إن أجابوا إليه ، وإلا فآخر الداء الكي .

قال : وأقبل الأحنف بن قيس في جماعة من قومه إلى عليّ رضي الله عنه فقال[1] : يا أمير المؤمنين ! إن أهل البصرة يقولون بأنك إن ظفرت بهم غداً قتلت رجالهم وسبيت ذريتهم ونساءهم ، فقال له علي : ليس مثلي من يخاف هذا منه ، لأن هذا ما لا يحل إلا ممن تولى وكفر ، وأهل البصرة قوم مسلمون ، وسترى كيف يكون أمري وأمرهم ! ولكن هل أنت معي فأعلم ! فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ! اختر مني واحدة من [اثنتين][2] إما أن أكون معك مع مائتي رجل من قومي ، وإما أن أرد عنك أربعة آلاف سيف ؛ فقال علي رضي الله عنه : لا بل ردهم عني ؛ فقال الأحنف : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ! ثم انصرف .

قال : وخرج الزبير وطلحة فنزلوا موضعاً يقال له زابوقة[3] ، وهم ثلاثون ألف مقاتل ؛ وبلغ ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إني قد منيت بثلاث مرجعهن على العباد من كتاب الله : أحدها البغي ثم النكث والمكر ، قال الله تعالى : ﴿ **يٰأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾[4] ، ثم قال : ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾[5] ، ثم قال : ﴿ **ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله** ﴾[6] ؛ ووالله لقد منيت بأربع لم يمن بمثلهن أحد بعد النبي ﷺ ، منيت بأشجع الناس الزبير بن العوام ، وبأخدع الناس طلحة بن عبيد الله ، وبأطوع الناس في الناس عائشة بنت أبي بكر ، وبمن أعان عليّ

---

(١) الطبري ٥/١٩٦ - ١٩٧ .
(٢) عن الطبري : اثنتين . وبالأصل يمين خطأ .
(٣) عن معجم البلدان ، وهو موضع قريب من البصرة وبالأصل « رانوقة » .
(٤) سورة يونس الآية ٢٣ .
(٥) سورة الفتح الآية ١٠ .
(٦) سورة فاطر الآية ٤٣ .

بأنوع الدنانير يعلى بن منية ؛ ووالله لئن أمكنني الله منه لأجعلنّ ماله وولده فيئاً للمسلمين .

قال : فوثب خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فقال : والله يا أمير المؤمنين ! لقد بغوا عليك ونكثوا عهدك ومكروا بك ، ولقد علم الزبير بأنه ما له مثل نجدتك، ولا لطلحة مثل علمك ، ولا لعائشة مثل طاعتك ، ومال الله أكثر من مال يعلى بن منية ، ولقد جمعه ظلماً وأنفقه جهلاً ؛ ثم جعل يقول أبياتاً مطلعها :

[و] أما الزبير فأكفيكه وطلحة يكفيكه وجوحَه

إلى آخره .

قال : وزحف علي رضي الله عنه حتى نزل قبالة القوم فنزلت مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة واليمن إلى اليمن ، قال : فعرض علي رضي الله عنه من معه من أصحابه وأعوانه ، فكانوا عشرين ألفاً ، والزبير في ثلاثين ألفاً .

ذكر كلام ما جرى بين حفصة بنت عمر بن الخطاب وبين أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه

قال : وبلغ ذلك حفصة بنت عمر بن الخطاب فأرسلت إلى أم كلثوم فدعتها ثم أخبرتها باجتماع الناس إلى عائشة ، كل ذلك ليغمها بكثرة الجموع إلى عائشة، قال: فقالت لها أم كلثوم : على رسلك يا حفصة ! فإنكم إن تظاهرتم على أبي فقد تظاهرتم على رسول الله ﷺ فكان الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ؛ فقالت حفصة : يا هذه ! أعوذ بالله من شرّك فقالت أم كلثوم : وكيف يعيذك الله من شرّي وقد ظلمتني حقّي مرتين : الأول ميراثي من أمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، والثاني ميراثي من أبيك[1] عمر بن الخطاب ! قال : ولامت النساء حفصة على ذلك لوماً شديداً .

(١) وكانت أُم كلثوم بنت علي (رض) قد مات عنها زوجها عمر بن الخطاب (رض) .

ذكر الكتاب الذي كتب عليّ
إلى طلحة والزبير

قال : ثم كتب عليّ إلى طلحة والزبير : أما بعد ! فقد علمتم أني لم أرد الناس حتى أرادوني ، ولم أبايعهم حتى أكرهوني ، وأنتم ممن أرادوا بيعتي ، ولم تبايعوا لسلطان غالب[1] ولا لغرض حاضر ، فإن كنتم قد بايعتم مكرهين فقد جعلتم إليّ السبيل عليكم بإظهاركم الطاعة وكتمانكم المعصية ؛ وأنت يا زبير فارس قريش ! وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين ! ودفعكم هذا الأمر[2] قبل أن تدخلوا فيه كان أوسع لكم من خروجكم منه بعد إقراركم ؛ وأما قولكم : إني قتلت عثمان بن عفان ، فبيني وبينكم من يحلف عني وعنكم من أهل المدينة ثم يلزم كل امرىءٍ بما يحتمل ، وهؤلاء بنو عثمان بن عفان فليقروا بطاعتي ثم يخاصموا قتلة أبيهم إليّ ، وبعد فما أنتم وعثمان قتل مظلوماً ! كما تقولان أنتما رجلان من المهاجرين ، وقد بايعتموني ونقضتم بيعتي ، وأخرجتم أمكم من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقرّ فيه ـ والله حسبكم ـ والسلام .

ذكر كتاب عليّ إلى عائشة

قال : ثم كتب إلى عائشة[3] : أما بعد فإنك قد خرجت من بيتك عاصية[4] لله تعالى ولرسوله محمد ﷺ تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين المسلمين ، فأخبريني ما للنساء وقود العساكر والإصلاح بين الناس فطلبت ! زعمت بدم عثمان وعثمان رجل من بني أمية وأنت امرأة من بني تيم بن مرة ، ولعمري أن الذي عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ! وما غضبت حتى أغضبت ولا هجت حتى هيّجت ، فاتقي الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك واسبلي عليك بسترك ـ والسلام ـ .

قال : وأما طلحة والزبير فإنهم لم يجيبوا علياً عن كتابه بشيء لكنهم بعثوا إليه برسالة أن يا أبا الحسن ! قد سرت مسيراً له ما بعده ، ولست براجع وفي نفسك منه

---

(١) في الإمامة والسياسة ١/ ٩٠ لسلطان خاص .

(٢) يعني خلافته .

(٣) الإمامة والسياسة ١/ ٩٠ .

(٤) الإمامة : غاضبة .

حاجة ، ولست راضياً دون أن ندخل في طاعتك ، ونحن لا ندخل في طاعتك أبداً ، واقض ما أنت قاضٍ ـ والسلام(١) .

قال : فأنشأ حبيب بن يساف الأنصاري يقول أبياتاً مطلعها :

أبـا حسن أيقـظت من كـان نـائمـاً وما كـل ما يـدعى إلى الحق يسمع

إلى آخره .

ذكر خطبة عبد الله بن الزبير لأهل البصرة

قال : ثم وثب عبد الله بن الزبير فقال : أيها الناس ! إن علي بن أبي طالب هو الذي قتل الخليفـة عثمان بن عفـان ، ثم إنه الآن قـد جاءكم ليبين لكم أمـركم ، فاغضبوا لخليفتكم وامنعوا حريمكم وقاتلوا على أحسابكم ، قال : فوثب إليه رجل من بني ناجية فقال : أي رحمك الله ! إننا قد سمعنا كلامك ونحن على ما يحب أبوك وخالك ، وسترى منا ما تقر به عيناك إن شاء الله تعالى .

ذكر خطبة الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام لما بلغه كلام ابن الزبير

قال : وبلغ علياً رضي الله عنه ما تكلم به عبد الله بن الزبير ، وقد خطب الناس وذكر لهم أني أنا الذي قتلت عثمان بن عفان ، وزعم لهم أني أريد أن أبين للناس أمورهم ، وقد بلغني أنه شتمني ، فقم يا بني فاخطب للناس خطبة بليغة موجزة ولا تشتمن أحداً من الناس .

قال : فوثب الحسن(٢) بن علي رضي الله عنهما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه قد بلغنا مقالة عبد الله بن الزبير ، فأما زعمه أن علياً قتل عثمان فقد علم المهاجرون والأنصار بأن أباه الزبير بن العوام لم يزل يجتني عليه الذنوب ويرميه بفضيحات العيوب ، وطلحة بن عبيد الله راكد رأيته على باب بيت ماله وهو حيّ ؛ وأما شتيمته لعلي فهذا ما لا يضيق به الحلقوم لمن أراده ، ولو أردنا أن نقول لفعلنا ؛ وأما قوله إن علياً أبتر الناس أمورهم ، فإن أعظم حجة أبيه الزبير أنه زعم أنه بايعه بيده

---

(١) زيد في الإمامة والسياسة ١/٩١ وكتبت عائشة : جلّ الأمر عن العتاب ، والسلام .

(٢) بالأصل : الحسين خطأ .

دون قلبه ، فهذا إقرار بالبيعة ، وأما تورّد أهل الكوفة على أهل البصرة فما يعجب من أهل حق وردوا على أهل باطل ، ولعمري ما نقاتل أنصار عثمان ، ولعلي أن يقاتل أتباع الجمل ـ والسلام ـ .

قال : فأنشأ رجل من الأنصار يقول أبياتاً مطلعها :

حسن الخير يا شبيه أبيه قمت فينا مقام أنهى خطيبِ

إلى آخرها .

قال : ودنا القوم من بعضهم بعضاً ، وخرج صبيان أهل البصرة وعبيدهم إلى عبيد أهل الكوفة ، وأقبل كعب بن سور[1] إلى عائشة فقال لها : أدركي فقد دنا القوم بعضهم من بعض ، وقد أبى القوم إلا القتال فلعل الله تبارك وتعالى أن يصلح بك الأمور ؛ فأقبلت عائشة على جملها عسكر في هودجها والناس معها ، فلما أشرفت على الناس ونظرت إليهم وإذا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يردّ الناس ويأمرهم بالكف عن الحرب ، فرجعت ورجع الناس .

ذكر رسالة عليّ إلى عائشة

قال : فلما كان من الغد دعا علي رضي الله عنه يزيد بن صوحان وعبد الله بن عباس ، فقال لهما : امضيا إلى عائشة فقولا لها : ألم يأمرك الله تبارك وتعالى أن تقري في بيتك ؟ فخدعت وانخدعت ، واستنفرت فنفرت ، فاتقي الله الذي إليه مرجعك ومعادك، وتوبي إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده-، ولا يحملنك قرابة طلحة وحب عبد الله بن الزبير على الأعمال التي تسعى بك إلى النار .

قال : فانطلقا إليها وبلغاها رسالة عليّ رضي الله عنه ، فقالت عائشة : ما أنا برادة عليكم شيئاً فإني أعلم أني لا طاقة لي بحجج عليّ بن أبي طالب ؛ فرجعا إليه وأخبراه بالخبر ، فأنشأ أبو الهيثم بن التيهان[2] الأنصاري يقول أبياتاً مطلعها :

نحن الذين رأت قريش فعلنا يوم القليب وقد هوى الكفار

---

(١) كعب بن سور بن بكر بن عبيد بن ثعلبة بن سليم . . . الأزدي . تابعي . استعمله عمر قاضياً على البصرة ، شهد الجمل مع عائشة ولما اجتمع الناس خرج وبيده مصحف فنشره وجال بين الصفين يناشد الناس في ترك القتال فجاءه سهم غريب فقتل . (الإصابة) .

(٢) بالأصل : « أبو القاسم بن نبهان » تصحيف ، وقد مرت ترجمته .

إلى آخرها .

قال : ثم جمع علي رضي الله عنه الناس فخطبهم خطبة بليغة وقال : أيها الناس ! إني قد ناشدت هؤلاء القوم كيما يرجعوا ويرتدعوا فلم يفعلوا ولم يستجيبوا ، وقد بعثوا إليّ أن أبرز إلى الطعان وأثبت للجلاد ، وقد كنت وما أهدد بالحروب ولا أدعى إليها وقد أنصف القارة من راماها[1] ، ولعمري لئن أبرقوا وأرعدوا فقد عرفوني ورأوني ؛ ألا ! وإن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب ، ومن لم يمت يقتل ، وإن أفضل الموت القتل ؛ والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتة على الفراش ! ثم رفع يده إلى السماء وهو يقول : اللهم ! إن طلحة بن عبيد الله أعطاني صفقة بيمينه طائعاً ثم نكث بيعته ، اللهم ! فعاجله ولا تميّطه ؛ اللهم ! إن الزبير بن العوام قطع قرابتي ونكث عهدي وظاهر عدوّي ونصب الحرب لي وهو يعلم أنه ظالم ، فاكفنيه كيف شئت وأنى شئت .

ذكر تعبية علي رضي الله عنه

قال : ثم وثب علي رضي الله عنه فعبى أصحابه[2] ، وكان على خيل ميمنته عمار بن ياسر ، وعلى الرجالة شريح بن هانىء ، وعلى خيل الميسرة سعيد بن قيس الهمداني ، وعلى رجالتها رفاعة بن شداد البجلي ، وعلى خيل القلب محمد بن أبي بكر ، وعلى رجالتها عدي بن حاتم الطائي ، وعلى خيل الجناح زياد بن كعب الأرحبي ، وعلى رجالتها حجر بن عدي الكندي ، وعلى خيل الكمين عمرو[3] بن لحمق الخزاعي ، وعلى رجالتها جندب بن زهير الأزدي . قال : ثم جعل علي رضي الله عنه على كل قبيلة من قبائل العرب سيداً من ساداتهم يرجعون إليه في أمورهم ؛ وتقدمت الخيل والرجالة .

قال : وبرزت يومئذ عائشة على جملها عسكر ، وهو الجمل الذي اشتراه لها

---

(١) القارة قبيلة من كنانة ، من أرمى العرب فرمى رجل من جهينة رجلاً منهم فقتله ، فرمى رجل منهم رجلاً من جهينة ، فقال قائل منهم : قد انصف القارة من راماها . فأرسلها مثلاً .
انظر الفاخر ص ١٤٠ الأمثال للميداني ٣١/٢ .

(٢) انظر الأخبار الطوال ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) عن الطبري وقد مرّ ، وبالأصل : « عمر » خطأ .

يعلى بن منية بمائتي دينار[1] ، وعلى الجمل يومئذ هودج من الخشب وقد غشي بجلود الإبل وسمر بالمسامير وألبس فوق ذلك الحديد ؛ فلما توافقت الخيلان ودنت الفئتان بعضها من بعض ، خرج علي رضي الله عنه حتى وقف بين الصفين .

ذكر ما جرى من الكلام بين علي والزبير في يوم الجمل قبل الوقعة

قال : فوقف عليّ رضي الله عنه بين الصفين ، عليه قميص ورداء وعلى رأسه عمامة سوداء ، وهو يومئذ على بغلة رسول الله ﷺ الشهباء التي يقال لها دُلدُل ، ثم نادى بأعلى صوته : أين الزبير بن العوام ! فليخرج إليّ ! فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أتخرج إلى الزبير وأنت حاسر وهو مدجّج في الحديد ؟ فقال علي رضي الله عنه : ليس عليّ منه بأس فأمسكوا ؛ قال : ثم نادى الثانية : أين الزبير بن العوام ؟ فليخرج إليّ !

قال : فخرج إليه الزبير ، ونظرت عائشة فقالت : وا ثكل أسماء ! فقيل لها يا أم المؤمنين ! ليس على الزبير بأس ، فإن علياً بلا سلاح[2] .

قال : ودنا الزبير من عليّ حتى وافقه[3] ، فقال له علي رضي الله عنه : يا أبا عبد الله ! ما حملك على ما صنعت ؟ فقال الزبير : حملني على ذلك الطلب بدم عثمان ؛ فقال له عليّ : أنت وأصحابك قتلتموه فيجب عليك أن تُقيد من نفسك ، ولكن أنشدك بالله الذي لا إله إلاّ هو أما تذكر يوماً قال لك رسول الله ﷺ : « يا زبير ! أتحبّ علياً » ؟ فقلتَ : يا رسول الله ! وما يمنعني من حبه وهو ابن خالي[4] ؟ فقال لك : « أما ! إنك ستخرج عليه يوماً وأنت ظالم ؟ فقال الزبير : اللهم بلى ! قد كان

---

(١) اشتروه من العرني وأعطوه بدله ناقة مهرية وزادوه أربعمائة أو ستمائة درهم . (عن الطبري ٥/١٧٠ - ١٧١) وفي مروج الذهب ٢/٣٩٤ فكالأصل . وفي رواية في الطبري ٥/١٦٧ بثمانين ديناراً . وفي رواية ثالثة كالأصل .

(٢) زيد في مروج الذهب ٢/٤٠١ : فاطمأنت .

(٣) في مروج الذهب : « واعتنق كل واحد منهما صاحبه » وفي البداية والنهاية ٧/٢٦٩ : « حتى اختلفت أعناق دوابهما » .

(٤) زيد في البداية والنهاية : وابن عمي وعلى ديني ؟

ذلك ، قال علي : فأنشدك بالله الذي أنزل الفرقان أما تذكر يوماً جاء رسول الله ﷺ من عند بني عمرو بن عوف[1] وأنت معه وهو آخذ بيدك ، فاستقبلته أنا فسلم عليّ وضحك في وجهي وضحكتُ أنا إليه ، فقلت أنت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه أبداً ! فقال لك النبي ﷺ : « مهلاً يا زبير ! فليس به زَهْوٌ ولتخرجن عليه يوماً وأنت ظالم له » ؟ فقال الزبير : اللهم بلى ! ولكن أنسيت ، فأما إذ ذكرتني ذلك فوالله لأنصرفن عنك ! ولو ذكرتِ هذا لما خرجت عليك[2] .

ذكر ما قاسى من الملامة للزبير بعد ذلك من أهل عسكره

قال : ثم رجع الزبير إلى عائشة وهي واقفة في هودجها ، فقالت : ما وراءك يا أبا عبد الله ؟ فقال الزبير : ورائي والله ما وقفت موقفاً قط ولا شهدت مشهداً من شرك ولا إسلام إلا ولي فيه بصيرة ، وإني اليوم لعلي في شك من أمرك ، وما أكاد أبصر موضع قدمي ! فقالت عائشة : لا والله ! ولكنك خفت سيوف ابن أبي طالب ، أما إنها طوال حداد تحملها سواعد أنجاد ولئن خفتها لقد خافها الرجال من قبلك . قال : ثم أقبل عليه ابنه عبد الله فقال : لا والله ! ولكنك رأيت الموت الأحمر تحت رايات ابن أبي طالب ، فقال له الزبير : والله يا بني إنك لمشؤوم قد عرفتك ، فقال عبد الله : ما أنا بمشؤوم ، ولكنك فضحتنا في العرب فضيحة لا تغسل منها رؤوسنا أبداً .

قال : فغضب الزبير من ذلك[3] ثم صاح بفرسه وحمل على أصحاب عليّ حملة منكرة ، فقال علي رضي الله عنه : افرجوا له فإنه محرَّج ، فأوسعوا له حتى شق الصفوف وخرج منها ؛ ثم رجع فشقها ثانية ولم يطعن أحداً ولم يضرب ؛ ثم رجع إلى ابنه فقال : يا بني ! هذه حملة جبان ! فقال له ابنه عبد الله : فلم تنصرف عنا وقد التقت حلقتا البطان[4] ؟ فقال الزبير : يا بني ! أرجع والله لأخبار قد كان النبي ﷺ

---

(١) في الطبري ٥/٢٠٠ بني غنم .

(٢) رواه البيهقي في الدلائل ٦/٤١٤ ونقله ابن كثير في البداية والنهاية ٧/٢٦٩ ومروج الذهب ٢/٤٠١ .

(٣) زيد في تاريخ اليعقوبي ٢/١٨٣ ويلك ! ومثلي يعير بالجبن ، هلم إليّ بالرمح .

(٤) البطان : الحزام الذي يشد على البطن .

عهدها إلي فنسيتها حتى أذكرنيها علي بن أبي طالب فعرفتها[1] .

قال : ثم خرج الزبير من عسكرهم تائباً مما كان منه وهو يقول أبياتاً مطلعها :

تـرك الأمـور التي تُخشى عـواقبهـا ... لله أجمـل في الـدنيـا وفي الـدين[2]

إلى آخرها .

ذكر مقتل الزبير بن العوام رحمه الله

قال : ثم مضى الزبير وتبعه خمسة من الفرسان فحمل عليهم وفرق جمعهم ، ومضى حتى صار إلى وادي السباع[3] فنزل على قوم من بني تميم ، فقام إليه عمرو بن جرموز[4] المجاشعي فقال : أبا عبد الله ! كيف تركت الناس ؟ فقال الزبير : تركتهم قد عزموا على القتال ، ولا شك قد التقوا ؛ قال : فسكت عنه عمرو بن جرموز وأمر له بطعام وشيء من لبن ، فأكل الزبير وشرب ، ثم قام فصلى وأخذ مضجعه ؛ فلما علم ابن جرموز أن الزبير قد نام وثب إليه وضربه بسيفه ضربة على أم رأسه فقتله ، ثم احتزّ رأسه[5] وأخذ سلاحه وفرسه وخاتمه ، ثم جاء به بين يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخبره بما صنع بالزبير .

قال : فأخذ علي رضي الله عنه سيف الزبير وجعل يقلبه وهو يقول : إنه لسيف طالما جلّى الكروب عن وجه رسول الله ﷺ ولكن الحين والقضاء ! ثم أقبل على

---

(١) زيد في مروج الذهب ٢/٤٠١ فاخترت العار على النار .

(٢) في تهذيب ابن عساكر ٥/٣٦٥ :

إن الأمـور الـتي أخـشى عـواقـبـهـا ... في الله أحسن في الـدنيـا وفي الـدين

وفي مروج الذهب ٢/٤٠١ :

اخـتـرت عـاراً عـلى نـار مـؤججـة ... مـا إن يـقـوم لـهـا خـلق من الـطيـن

نـادى عـلي بـأمـر لـست أجـهـله ... عـار لـعمـرك في الـدنيـا وفي الـدين

فـقلت : حسـبـك من عـذل أبـا حسن ... فبعض هـذا الـذي قـد قلت : يكـفيـني

(٣) وادي السباع : موضع على طريق مكة ، بينه وبين الزبيدية ثلاثة أميال .

(٤) عن الطبري ٥/٢٠٥ ومروج الذهب ٢/٤٠٢ وبالأصل « جرمود » تحريف وقد صححت في كل المواضع .

(٥) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٧/٢٧٧ مختلف الأقوال في كيفية قتله وانظر ابن الأثير ٢/٣٢٨ وانظر الإمامة والسياسة ١/٩٣ .

عمرو بن جرموز فقال : ويحك ! لم قتلته ؟ فقال : قتلته والله وأنا أعلم أن ذلك مما يرضيك ، ولولا ذلك لما قدمت عليه ؛ فقال علي رضي الله عنه : ويحك ! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بشّر قاتل ابن صفية بالنار » ! قال : فوثب عمرو بن جرموز من بين يدي علي رضي الله عنه وهو يقول : لا والله ما ندري أنقاتل معكم أم عليكم ! ثم انصرف عن علي وهو يقول أبياتاً مطلعها :

أتيت علياً برأس الزبير وقد كنت أرجو منه الزلفة[1]

إلى آخرها .

وصية علي لأهل عسكره بما يحب أن يكون منهم في الحرب

قال : وجعل عليّ رضي الله عنه يعبّي أصحابه ويوصيهم وهو يقول : أيها الناس ! غضوا أبصاركم وأكثروا من ذكر ربكم ، وإياكم وكثرة الكلام فإنه فشل .

قال : ونظرت إليه عائشة وهو يجول بين الصفوف ، فقالت : انظروا إليه كأن فعله فعل رسول الله ﷺ يوم بدر ، أما والله ! ما ينتظر بكم إلا زوال الشمس ، فقال عليّ رضي الله عنه : يا عائشة ! ﴿ عما قليل ليصبحن نٰدمين ﴾[2] .

قال : وجعل أهل البصرة يرمون أصحاب عليّ بالنبل حتى عقروا منهم جماعة ، فقالت الناس : يا أمير المؤمنين ! إنه قد عقرتنا نبالهم فما انتظارك ؟ فقال عليّ رضي الله عنه : اللهم إني قد أعذرت وأنذرت فكن لي عليهم من المساعدين .

خبر الفتى الذي حمل المصحف إلى أصحاب الجمل يدعوهم إليه

قال : ثم دعا عليّ بالدرع فأفرغه عليه وتقلد بسيفه واعتجر بعمامته واستوى

---

(١) في العقد الفريد ٣٢٣/٤ « وقد كنت أحسبها زلفه » وبعده في مروج الذهب ٤٠٣/٢ :

فبشر بالنار قبل العيان وبئس بشارة ذي التحفة
لسيان عندي قتل الزبير وضرطة عنز بذي الجحفة

(٢) سورة المؤمنون الآية ٤٠ .

على بغلة رسول الله ﷺ ، ثم دعا بالمصحف فأخذه بيده ثم قال[1] : أيها الناس ! من يأخذ هذا المصحف فيدعو هؤلاء القوم إلى ما فيه ؟ قال[2] : فوثب غلام من مجاشع يقال له : مسلم ، عليه قباء أبيض فقال : أنا آخذه يا أمير المؤمنين ! فقال له عليّ : يا فتى ! إن يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه باليسرى ، فتقطع ثم تضرب عليه بالسيف حتى تقتل ؟ فقال الفتى : لا صبر لي على ذلك . قال : فنادى علي الثانية والمصحف في يده ، فقام إليه ذلك الفتى وقال : أنا آخذه يا أمير المؤمنين ! فهذا قليل في ذات الله .

ثم أخذ الفتى المصحف وانطلق به إليهم ، فقال : يا هؤلاء ! هذا كتاب الله عزَّ وجلَّ بيننا وبينكم ، قال : فضرب رجل من أصحاب الجمل يده اليمنى فقطعها ، فأخذ المصحف بشماله فقطعها ، فاحتضن المصحف بصدره ، فضرب على صدره حتى قتل - رحمه الله[3] - .

قال : فنظرت إليه أمه وقد قتل ، فأنشأت تقول أبياتاً مطلعها :

يـا رب إن مـسـلمـاً أتـاهـم
بمحكم التنـزيـل إذ دعـاهـم[4]

إلى آخرها .

قال : وأنشأ ابن عم له يرثيه ويقول أبياتاً مطلعها :

تـنـاولـه شـقـي مـنـهـم بـضـربـة أبـان بـهـا يمنـاه حتى تـصـوب

إلى آخرها .

ذكر إذن عليّ حينئذ في القتال

ثم دفع علي رضي الله عنه رايته إلى ابنه محمد ابن الحنفية وقال : تقدم يا بني ! فتقدم محمد ثم وقف بالراية لا يبرح ، فصاح به علي رضي الله عنه : اقتحم لا أم لك ! فحمل محمد الراية فطعن بها في أصحاب الجمل طعناً منكراً وعليّ ينظر ،

---

(١) الخبر في الطبري ٢٠٥/٥ ومروج الذهب ٣٩٩/٢ باختلاف .
(٢) الطبري : فقام إليه فتى من أهل الكوفة . وعنده ٢١٦/٥ : مسلم بن عبد الله .
(٣) زيد في الطبري : فقال علي : الآن حلّ قتالهم .
(٤) الأرجاز في الطبري ٢٠٦/٥ و٢١٦/٥ ومروج الذهب ٣٩٩/٢ بزيادة واختلاف في بعض الألفاظ .

فأعجبه ما رأى من فعاله فجعل يقول :

اطعن بهـا[١] طعن أبيـك تُحمـد لا خيـر في الحـرب إذا لم تـوقـد[٢]

قال : فقاتل محمد ابن الحنفية ساعة بالراية ثم رجع ؛ وضرب عليّ رضي الله عنه بيده إلى سيفه فاستلّه ثم حمل على القوم ، فضرب فيهم يميناً وشمالاً ثم رجع وقد انحنى سيفه ، فجعل يسويه بركبته فقال له أصحابه : نحن نكفيك ذلك يا أمير المؤمنين ! فلم يجب أحداً حتى سوّاه ثم حمل ثانية حتى اختلط بهم ، فجعل يضرب فيهم قدماً قدماً حتى انحنى سيفه . ثم رجع إلى أصحابه ، ووقف يسوي السيف بركبته وهو يقول : والله ما أريد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة ! ثم التفت إلى ابنه محمد ابن الحنفية وقال : هكذا اصنع يا بني !

قال : ثم حملت ميمنة أهل البصرة على ميسرة أهل الكوفة فكشفوهم إلا قليلاً منهم ، وحملت ميمنة أهل الكوفة على ميسرة أهل البصرة فأزالوهم عن مواقفهم ، وثبت الناس بعضهم لبعض فاقتتلوا ساعة من النهار ، وتقدم مخنف بن سليم الأزدي من أصحاب عليّ فجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

قـد عشتِ يـا نفسِ وقـد غنيت[٣] دهـراً[٤] وقبـل اليـوم مـا عـييـت

إلى آخرها .

قال : ثم حمل فقاتل قتالاً شديداً ورجع مجروحاً ؛ ثم تقدم أخوه الصعب بن سليم فقاتل حتى قُتل رحمه الله . ثم خرج أخوه الثالث عبيد الله بن سليم فقتل . ثم تقدم زيد بن صوحان العبدي من أصحاب عليّ فقاتل حتى قتل ، فأخذ الراية أخوه صعصعة فقاتل فجرح ؛ وأخذ الراية أبو عبيدة العبدي[٥] وكان من خيار أصحاب علي فقاتل فقتل ؛ فأخذ الراية عبد الله بن الرقية[٦] فقتل ، فأخذها رشيد بن سمي فقتل .

---

(١) في مروج الذهب ٢/٤٠٧ اطعنهم .

(٢) بعده : بالمشرفي والقنا المسرد .

(٣) في الطبري ثلاثة أرجاز نسبها « ليزيد بن قيس » ٥/٢٠٨ .

(٤) الطبري : « دهراً فقطك اليوم ما بقيت » وبعده :

أطلب طول العمر ما حييت

(٥) في الطبري ٥/٢٠٨ أبو عبيدة بن راشد بن سلمى .

(٦) عند الطبري ٥/٢٠٨ عبد الله بن الرقبة بن المغيرة .

قال : فقتل سبعة أو ثمانية رهط من أصحاب علي في ربضة واحدة ثم تقدم رجل من أصحاب الجمل يقال له عبد الله بن سري ، فجعل يرتجز ويقول :

يـا رب إنـي طـالـب أبـا الـحـسـن ذاك الـذي يـعـرف حقـاً بـالـفتـن
ذاك الـذي يـطلبـه عـلى الأحـن وبـغـضـه شـريـعـة مـن الـسـنـن

قال : فخرج إليه علي رضي الله عنه وهو يرتجز ويقول :

قـد كـنت تـرمـيـه بـإيثـار الـفتـن قـدمـاً وتـطلبـه بـأوتـار الأحـن
والـيـوم تـلقـاه مـليـاً فـاعـلمـن بـالـطعن والضـرب عليهـا بـالسنن

قال : ثم شدّ عليه عليّ بالسيف فضربه ضربة هتك بها عاتقه فسقط قتيلاً ، فوقف عليّ رضي الله عنه ثم قال : قد رأيت أبا الحسن فكيف وجدته ؟

قال : ثم تقدمت بنو ضبّة فأحدقوا بالجمل وجعلوا يرتجزون بالأشعار من كل ناحية ، ورجل منهم قد أخذ بخطام الجمل وفي يده سيف له كأنه مخراق وهو يرتجز ويقول :

نحن بنـو ضبـة أصحـاب الجمـلْ ننـازل المـوتَ إذا المـوت نـزلْ
ننعي ابن عفـان بـأطـراف الأسـل اضـرب بـالسيف إذا الـرمـح فصـل
إنّ علياً يَعْدمَن خير البدل(١)

قال : فبدر إليه زيد بن لقيط الشيباني من أصحاب علي وهـو يقول أبيـاتاً مطلعها :

يـا قائـل الـزور من أصحـاب الجمـل نـحن قـتلنـا نَـعْـثـلاً فـيمـن قـتـلْ
إلى آخرها .

قـال : ثم حمل عليه الشيباني فقتله . وتقدم رجل من بني ضبة يقال له عاصم بن الدّلف وأخذ بخطام الجمل وجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

[نـحن] بـنـو ضبـة أعـداء عـليّ ذاك الـذي يعـرف فيكم بـالـوصيّ
إلى آخرها .

---

(١) نسبت الأرجاز في الطبري ٢١٧/٥ إلى عمرو بن يثربي الضبي وهو أخو عميرة القاضي ، وهي عنده باختلاف في ثلاثة مواضع ٢٠٩/٥ و٢١٠ و٢١٧ وفي مروج الذهب ٤٠٥/٢ .

قال : فخرج إليه المنذر بن حفصة التميمي من أصحاب علي رضي الله عنه وهو يقول :

نحن مطيعون جميعاً لعليّ ... إذ أنت ساعٍ في الوغى سعي شقي
إن الغويّ تابع أمر الغوي ... قد خالفتْ أمر النبي زوج النبي

قال : ثم حمل على الضبي فقتله ، ثم جال في ميدان الحرب وهو يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

أسامع أنت مطيعٌ أم عصي ... وتارك ما أنت فيه أم غوي

إلى آخرها .

قال : فخرج إليه وكيع بن المؤمل الضبي من أصحاب الجمل وهو يقول :

أسامع أنت مطيع لعليّ ... وتارك في الحق أزواج النبي
إني ولما ذقت حدّ المشرفي ... أعرف يوماً ليس فيه بعَني(١)

قال : فحمل عليه صاحب عليّ فقتله ؛ وتقدّم على وكيع الأشتر حتى وقف بين الجمعين وهو يزأر كالأسد عند فريسته ، ويقول هو في ذلك شعراً ، فخرج إليه من أصحاب الجمل رجل يقال له عامر بن شداد الأزدي وأجابه على شعره ، قال : فحمل عليه الأشتر فقتله ؛ ثم نادى فلم يجب أحد فرجع .

ثم خرج محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر حتى وقفا قدّام الجمل ، قال : وتبعهما الأشتر ووقف معهما ؛ قال : فقال رجل من أصحاب الجمل : من أنتم أيها الرهط ؟ قالوا : نحن ممن لا تنكرونه ، وأعلنوا بأسمائهم ودعوا بأسمائهم ودعوا إلى البراز ، فخرج عثمان الضبي وهو ينشد شعراً ، فخرج إليه عمار بن ياسر فأجابه على شعره ثم حمل عليه عمار فقتله .

قال : وذهب كعب بن سور الأزدي ليخرج إلى عمار ، فسبقه إلى ذلك غلام من الأزد أمرد ، فخرج وهو يرتجز ويقول شعراً ؛ فذهب عمار ليبرز إليه ، فسبقه إلى ذلك أبو زينب الأزدي فأجابه إلى شعره ، ثم حمل عليه أبو زينب فقتله ، ورجع حتى

---

(١) الأرجاز في الطبري ٥/٢١٤ باختلاف ، ونسبها لأبي الجرباء ، وهو من أصحاب الزبير ، وقد مرت الإشارة إليه .

وقف بين يدي علي رضي الله عنه .

قال : وخرج عمرو بن يثربي من أصحاب الجمل حتى وقف بين الصفين قريباً من الجمل ، ثم دعا إلى البراز وسأل النزال فخرج إليه عِلْباء[1] بن الهيثم من أصحاب علي رضي الله عنه ، فشد عليه عمرو فقتله ؛ ثم طلب المبارزة فلم يخرج إليه أحد ، فجعل يجول في ميدان الحرب وهو يرتجز ويقول شعراً[2] ، ثم جال وطلب البراز ، فتحاماه الناس واتقوا بأسه ؛ قال : فبدر إليه عمار بن ياسر وهو يجاوبه على شعره ، والتقوا بضربتين ، فبادره عمار بضربة فأرداه عن فرسه ، ثم نزل إليه عمار سريعاً فأخذ برجله وجعل يجره[3] حتى ألقاه بين يدي علي رضي الله عنه ؛ فقال علي : اضرب عنقه ! فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ! استبقني حتى أقتل لك منهم كما قتلتُ منكم ، فقال علي : يا عدو الله ! أبعد ثلاثة من خيار أصحابي أستبقيتك[4] ؟ لا كان ذلك أبداً ! قال : فأدنني حتى أكلمك في أذنك بشيء ، فقال عليّ : أنت رجل متمرّد ، وقد أخبرني رسول الله ﷺ بكل متمرد عليّ وأنت أحدهم ؛ فقال عمرو بن يثربي : أما والله لو وصلت إليك لقطعت أذنك ـ أو قال : أنفك ـ قال :ـ فقدمه عليّ فضرب عنقه بيده صبراً .

قال : وخرج أخوه عُميرة[5] فجعل يرتجز ويقول شعراً ، فخرج علي رضي الله عنه وأجابه إلى شعره ، ثم حمل عليه عليّ فضربه ضربة على وجهه ، فرمى بنصف رأسه .

---

(١) عن الطبري وبالأصل : « علي » تحريف .

(٢) ومما ارتجزه : (الطبري ٥/٢١٠) :

أضربهم ولا أرى أبا حسن ... كفى بهذا حزناً من الحزن
إنما نمر الأمر إمرار الرسن

(٣) وكان عمرو يرتجز وهو يجرّ :

إن تقتلوني فأنا ابن اليثربي ... قاتل علباء وهنداً الجملي
ثم ابن صوحان على دين علي

وكان عمرو قد قتل يومئذ علباء بن الهيثم السدوسي ، وهند بن عمرو الجملي وزيد بن صوحان (انظر الطبري ٥/٢١٠) .

(٤) انظر الملاحظة السابقة .

(٥) عن الطبري ، وقد مرت الإشارة إليه .

وانفرق علي يريد أصحابه فصاح به صائح من ورائه ، فالتفت وإذا بعبد الله بن خلف الخزاعي ، وهو صاحب منزل عائشة بالبصرة ، فلما رآه عليّ عرفه فناداه : ما تشاء يـابن خلف؟ قال : هل لك في المبارزة؟ قال علي : ما أكـره ذلك ولكن ويحك يا ابن خلف! ما راحتك في القتل وقد علمتَ من أنـا؟ فقال عبـد الله بن خلف : دعني من مدحك يـابن أبي طالب! وادن مني لترى أيّنا يقتل صاحبه! ثم أنشد شعراً ، فأجابه علي عليه ، والتقوا للضرب فبادره عبد الله بن خلف بضربة دفعها عليّ بحجفته ، ثم انحرف عنه عليّ فضربه ضربة رمى بيمينه ثم ضربه أخرى فأطار قحف رأسه .

ثم خرج عليّ إلى أصحابه ، وخرج مبارز بن عوف الضبي من أصحاب الجمل وجعل يقول شعراً ، قال : فخرج إليه عبد الله بن نهشل من أصحاب عليّ مجيباً له على شعره ، ثم حمل على الضبي فقتله ؛ فخرج من بعد الضبي ابن عم له يقال له ثور بن عدي وهو ينشد شعراً ، فخرج إليه محمد بن أبي بكر مجيباً لـه وهو يقـول شعراً ، ثم شد عليه محمد بن أبي بكر فضربه ضربة رمى بيمينه ثم ضربه ثانية فقتله .

قال : فغضبت عائشة وقالت : ناولوني كفّاً من حصباء ، فناولوها فحصبت بها أصحاب علي وقالت : شاهت الوجوه! فصاح بها رجل من أصحاب علي رضي الله عنه ، وقال : يا عائشة! وما رميتِ إذ رميتِ ولكن الشيطان رمى ، ثم جعل يقول شعراً :

قـد جئت يـا عيش لتعلمينـا ... وتنشـر البـرد لتهـزمينـا
وتقـذفي الحصبـاء جهـلاً فينـا ... فعـن قليـل سـوف تعلمينـا

ذكر مقتل طلحة بن عبيد الله

قال : وجعل طلحة ينادي بأعلى صوته : عباد الله! الصبر الصبر! إن بعد الصبر النصر والأجر ؛ قال : فنظر إليه مروان بن الحكم فقال لغلام له : ويلك يـا غلام! والله إني لأعلم أنه ما حرّض على قتل عثمان يوم الدار أحد كتحريض طلحة ولا قتله سواه! ولكن استرني فأنت حر ؛ قال : فستره الغلام ، ورمى مروان بسهم مسموم لطلحة بن عبيد الله فأصابه به[1] ، فسقط طلحة لما به وقد غمي عليه ، ثم

(١) في قتل طلحة بن عبيد الله قيل : إنه أتاه سهم غرب (أي الذي لم يعرف مصدره) وقيل : رماه مروان=

أفاق فنظر إلى الدم يسيل منه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظن والله أننا عنينا بهذه الآية من كتاب الله عزَّ وجلَّ إذ يقول : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾[1] . قال : ثم أقبل على غلامه ، وقد بلغ منه الجهد، قال: ويحك يا غلام ! اطلب لي مكاناً أدخله فأكون فيه ، فقال الغلام : لا والله ما أدري أين أنطلق بك ! فقال طلحة : يا سبحان الله ! والله ما رأيت كاليوم قط ! دمٍ قرشي أضيع من دمي ، وما أظن هذا السهم إلا سهماً أرسله الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . فلم يزل طلحة يقول ذلك[2] حتى فات ومات ودفن ، ثم وضع في مكان يقال له السَّبْخَة[3] ؛ ودخل من ذلك على أهل البصرة غم عظيم ، وكذلك على عائشة لأنه ابن عمّها . وجاء الليل فحجز بين الفريقين .

ذكر ما كان بعد ذلك

قال : فلما كان من الغد دنا القوم من بعضهم بعض ، وتقدمت عائشة على جملها عسكر حتى وقفت أمام الناس والنّاس من ورائها وعن يمينها وشمالها . قال : وصفّ عليّ رضي الله عنه أصحابه وعبّاهم كالتعبية الأولى ، وعزم القوم على المناجزة ، وتقدم كعب بن سور الأزدي حتى أخذ بخطام الجمل وجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

= (كما بالأصل) .
وفي موضع إصابته قيل : إن السهم وقع في ركبته ، وقيل في رقبته ، وقيل في أكحله .
انظر في ذلك الطبري ٥/٢٠٤ ومروج الذهب ٢/٤٠٣ تاريخ خليفة ص ١٨٥ ابن الأثير ٢/٣٣٧ البداية والنهاية ٧/٢٧٥ سير أعلام النبلاء ١/٢٦ الإمامة والسياسة ١/٩٧ .

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

(٢) قيل إن طلحة خاف أن يموت وليس في عنقه بيعة ، فبايع لرجل من أصحاب علي لعلي ، وقد سمع وهو جريح يتمثل :

فإن تكن الحوادث أقصدتني ... وأخطأهن سهمي حين أرمي
فقد ضيعت حين تبعت سهماً ... سفاهاً ما سفهت وضيل حلمي
ندمت ندامة الكسعي لما ... شريت رضا بني سهم برغم
أطعتهم بفرقة آل لأي ... فألقوا للسباع دمي ولحمي

ابن الأثير ٢/٣٣٨ مروج الذهب ٢/٤٠٤ .

(٣) السبخة : موضع بالبصرة .

يا معشر الناس عليكم أمكم فإنها صلاتكم وصومكم

إلى آخرها .

قال : فحمل عليه الأشتر فقتله ، وخرج من بعده غلام من الأزد يقال له وائل بن كثير فجعل يتلو ويقول شعراً ، فبرز إليه الأشتر مجيباً له وهو يقول شعراً ، ثم حمل عليه الأشتر فقتله ؛ وخرج من بعده عمرو بن خنفر من أصحاب الجمل وهو يقول شعراً ، ثم حمل عليه الأشتر فقتله ؛ وخرج من بعده عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فجعل يلعب بسيفه بين يدي عائشة وهو يقول شعراً ، قال : فبدر إليه الأشتر مجيباً له ، ثم حمل عليه فضربه ضربة رمى بيمينه فسقط لما به ، وثناه الأشتر بضربة أخرى فقتله ؛ ثم جال في ميدان الحرب وهو يقول شعراً ، ثم رجع الأشتر إلى موقفه .

وصاح رجل من أهل الكوفة : يا معشر المؤمنين ! إذا خرج إليكم رجل من أنصار صاحبة الجمل وقال شيئاً من الشعر فلا تجيبوه بشيء ليستريح إلى إجابتكم له ، ولكن استعملوا فيمن خرج إليكم بالسيف فإنه أسرع للجواب . قال : وإذا برجل من أصحاب الجمل يقال له الأسود البختري[1] قد خرج وهو يقول شعراً ، فحمل عليه عمرو بن الحمق الخزاعي فقتله ؛ وخرج من بعده جابر بن مزيد الأزدي ، فحمل عليه محمد بن أبي بكر فقتله ؛ وخرج من بعده مجاشع بن عمر التميمي [2] وهو يقول شعراً ، فحمل على أصحاب عليّ حملة ، واستأمن إلى عليّ فكان من خيار أصحابه بعد ذلك ؛ وخرج من بعده عوف بن قطن وهو يقول شعراً ، فحمل عليه محمد ابن الحنفية فقتله ؛ وخرج من بعده بشر بن عمرو الضبي وهو يقول شعراً ، فحمل عليه عمار بن ياسر فقتله ؛ وخرج من بعده حرسة بن ثعلبة الضبي في يده خطام الجمل وهو يقول شعراً ، ثم حمل فلم يزل يقاتل حتى قطعت يده على خطام الجمل وقتل ؛ وتقدم حازم الضبي فضرب بيده إلى خطام الجمل وهو يرتجز ويقول شعراً ، ثم حمل فجعل يقاتل حتى قطعت يده على الخطام ثم قتل ؛ وخرج من بعده غلام من ضاهية يقال له أسلم بن سلامة فأخذ بخطام الجمل وجعل يرتجز ويقول شعراً فقاتل حتى قطعت يده على الخطام ثم قتل ؛ وخرج من بعده رجل من الأزد يقال له سليم فأخذ

---

(١) في الطبري ٥/٢١٠ الأسود بن أبي البختري .

(٢) كذا ، مرّ قريباً مجاشع بن مسعود السلمي .

بخطام الجمل وهو يقول شعراً ، فقاتل حتى قطعت يده على خطام الجمل ثم قتل ؛ وخرج من بعده رجل من أزد شنوءة يقال له عبيد بن عمير فأخذ بخطام الجمل وهو يقول شعراً ، فقاتل حتى قتل ؛ وخرج من بعده رجل من بني مازن يقال له عوف بن مالك فأخذ بخطام الجمل وجعل يقول شعراً ، فقاتل حتى قطعت يده على الخطام ثم قتل . فلم تزل القوم كذلك يتقدم رجل بعد رجل حتى قطع على الخطام يومئذ ثماني وتسعون يداً[1] ؛ قال : ونادت عائشة رضي الله عنها بأعلى صوتها : أيها الناس ! عليكم بالصبر فإنما تصبر الأحرار ، فناداها رجل من أصحاب علي وهو يقول شعراً .

قال : واشتبكت الحرب بين الفريقين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وصاح الحجاج بن [عمرو بن] غزية الأنصاري : يا معاشر الأنصار ! إنه لم ينزل موت قط في جاهلية ولا إسلام إلا مضيتم عليه ، ولست أراكم اليوم كما أريد ، وأنا أنشدكم بالله أن تحدثوا ما لم يكن ، إن إخوانكم اليوم قد أبلوا وقاتلوا ، وإن الموت قد نزل فصبراً صبراً حتى يفتح الله عزَّ وجلّ عليكم .

قال : ثم تقدَّم الحجاج [بن عمرو] بن غزية الأنصاري عن القوم فجعل يضرب بسيفه قدماً ، وهو يقول شعراً ، قال : ثم تقدم في أثره خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين وهو يقول شعراً ، قال : ثم تقدم في أثره شريح بن هانىء الحارثي وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره هانىء بن عروة وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره زياد بن كعب الهمداني وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره سعيد بن قيس الهمداني وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره مالك بن الحارث الأشتر وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره عدي بن حاتم الطائي وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره رفاعة بن شداد البجلي وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره هانىء بن هانىء بن عبيد المذحجي وهو يقول شعراً ، ثم تقدم في أثره عمرو[2] بن الحمق الخزاعي وهو يقول شعراً .

قال : فاقتتل القوم قتالاً شديداً لم يسمع بمثله ، وصار الهودج الذي فيه عائشة كأنه القنفذ مما فيه من النبل والسهام ؛ قال : وجعلت بنو ضبة يأخذون بعر الجمل فيشمونه ويقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى بعر جمل أمّنا كأنه المسك الأذفر .

---

(١) في مروج الذهب ٢/٤٠٦ سبعون يداً من بني ضبة .

(٢) بالأصل : « عمر » تحريف ، وما أثبتناه عن الأخبار الطوال .

قال : وجعل الأشتر يجول في ميدان الحرب وينادي بأعلى صوته يا أنصار الجمل ! من يبارزني منكم ؟ قال : فبرز إليه عبد الله بن الزبير وهو يقول : إلى أين يا عدو الله ؟ فأنا أبارزك ! قال : فحمل عليه الأشتر فطعنه طعنة صرعه عن فرسه ، ثم بادر وقعد على صدره ، قال : فجعل عبد الله بن الزبير ينادي من تحت الأشتر في يومه ذلك : اقتلوني ومالكاً[1] ! قال : وكان الأشتر في يومه صائماً وقد طوى من قبل ذلك بيومين فأدركه الضعف ، فأفلت عبد الله من يده وهو يظن أنه غير ناج منه[2] .

ذكر عقر الجمل وما بعده

قال : واحمرت الأرض بالدماء وعقر من ورائه فعج ورغا ، فقال علي : عرقبوه فإنه شيطان ، ثم التفت إلى محمد بن أبي بكر وقال له : انظر إذا عرقب الجمل فأدرك أختك فوارها ؛ قال : وبادر عبد الرحمن بن صرد التنوخي إلى سيفه ، فلم يزل يقاتل حتى وصل إلى الجمل فعرقبه من رجليه جميعاً[3] ، فوقع الجمل لجنبه وضرب بجرانه الأرض ورغا رغاء شديداً ، وبادر عمار بن ياسر فقطع أنساع الهودج بسيفه ؛ قال : وأقبل علي رضي الله عنه على بغلة رسول الله ﷺ ، فقرع الهودج برمحه ثم قال : يا عائشة أهكذا أمرك رسول الله ﷺ أن تفعلي ؟ فقالت عائشة : قد ظفرتَ فأحسن . فقال علي رضي الله عنه لمحمد بن أبي بكر : شأنك بأختك ، فلا يدنو منها أحد سواك ، فأدخل محمد يده إلى عائشة فاحتضنها ثم قال : أصابك شيء ؟ فقالت : لا ، ما أصابني شيء[4] ، ولكن من أنت ويحك ! فقد مسست مني ما لا يحل لك ؟ فقال محمد : اسكتي فأنا أخوك محمد ، فعلتِ بنفسكِ ما فعلت وعصيتِ

---

(١) في مروج الذهب ٢/٤٠٧ .

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

قال : والتقى الأشتر مالك . . . وعبد الله بن الزبير فاعتركا وسقطا على الأرض عن فرسيهما ، وطال اعتراكهما على وجه الأرض ، فعلاه الأشتر ولم يجد سبيلاً إلى قتله لشدة اضطرابه من تحته .

(٢) قال المسعودي إن عبد الله بن الزبير كان يصرخ من تحته : « فلا يسمعه أحد لشدة الجلاد ، ووقع الحديد على الحديد ، ولا يراهما راء لظلمة النقع وترادف العجاج » (وانظر الطبري ٥/٢١٧ والإمامة والسياسة ١/٩٦) .

(٣) في الطبري ٥/٢١٨ عقر الجمل رجل من بني ضبة يقال له ابن دلجة عمرو أو بجير وفي الأخبار الطوال ص ١٥١ كشف عرقوبه رجل من مراد يقال له أعين بن ضبيعة .

(٤) في مروج الذهب ٢/٤٠٦ ما أصابني إلا سهم لم يضرني .

برسول الله ﷺ ولو كانت فيك شعرة منه أو ظفر لمننت علينا وعلى جميع العالمين بذلك ! وبعد فإنما كنت تسع إحدى حشايا من حشاياه ، لست بأحسنهن وجهاً ولا بأكرمهن حسباً ولا بأرشحهن عرقاً ، وأنت الآن تريدين أن تقولي ولا تعصين وتأمري ولا تخالفين ، ونحن لحم الرسول ﷺ ودمه وفينا ميراثه وعلمه ، فقالت عائشة : يا ابن عباس ! ما باذلك عليك علي بن أبي طالب ! فقال ابن عباس : إذاً والله أقرّ له وهو أحق به مني وأولى ، لأنه أخوه وابن عمه وزوج الطاهرة ـ ابنته وأبو سبطيه ومدينة علمه وكشاف الكرب عن وجهه ، وأما أنتِ فلا والله ما شكرت نعماءنا عليك وعلى أبيك من قبلك ! ثم خرج وسار إلى عليّ فأخبره بما جرى بينه وبين عائشة من الكلام .

ذكر دخول عليّ على عائشة وما جرى بينهم من الكلام حين أمرها بالانصراف إلى المدينة

قال : فدعا عليّ ببغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها ، وأقبل إلى منزل عائشة ، ثم استأذن ودخل(1) ، فإذا عائشة جالسة وحولها نسوة من نساء أهل البصرة وهي تبكي وهن يبكين معها ، قال : ونظرت صفية بنت الحارث الثقفية امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي إلى علي ، فصاحت هي ومن كان معها هناك من النسوة وقلن بأجمعهن : يا قاتل الأحبة يا مفرق بين الجميع أيتم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبد الله بن خلف ! فنظر إليها علي فعرفها فقال : أما اني لا ألومك أن تبغضيني وقد قتلتُ جدك في يوم بدر ، فقتلتُ عمك يوم أُحد ، وقتلت زوجك الآن ، ولو كنت قاتل الأحبة كما تقولين لقتلت من في هذا البيت ومن في هذه الدار(2) ؛ قال : فأقبل عليّ على عائشة فقال : ألا تنحين كلابك هؤلاء عني ، أما انني قد هممت أن أفتح باب هذا البيت فأقتل من فيه ، وباب هذا البيت فأقتل من فيه ، ولولا حبي للعافية لأخرجتهم الساعة فضربتُ أعناقهم صبراً ؛ قال : فسكتت عائشة وسكتت النسوة فلم تنطق واحدة منهن . قال : ثم أقبل على عائشة فجعل يوبخها ويقول : أمرك الله أن تقري في بيتك

---

(1) خبر دخول علي على عائشة في الطبري ٥/٢٢٢ ومروج الذهب ٢/٤٠٨ وتاريخ اليعقوبي ٢/١٨٣ .

(2) وكان قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر وغيرهم (مروج الذهب ٢/٤٠٨) .

وتحتجبي بسترك ولا تبرجي ، فعصيته وخضت الدماء ، تقاتليني ظالمة وتحرضين عليّ الناس ، وبما شرفك الله وشرف آباءَك من قبلك وسماك أم المؤمنين وضرب عليك الحجاب قومي الآن فارحلي واختفي في الموضع الذي خلفك فيه رسول الله ﷺ إلى أن يأتيك فيه أجلك ؛ ثم قام عليّ فخرج من عندها .

قال : فلما كان من الغد بعث إليها ابنه الحسن ، فجاء الحسن فقال لها : يقول لك أمير المؤمنين « أما والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ! لئن لم ترحلي الساعة لأبعثن عليك بما تعلمين » ، قال : وعائشة في وقتها ذلك قد ضفرت قرنها الأيمن وهي تريد أن تضفر الأيسر ، فلما قال لها الحسن ما قال وثبت من ساعتها وقالت : رحلوني ! فقالت لها امرأة من المهالبة : يا أم المؤمنين ! جاءك عبد الله بن عباس فسمعناك وأنت تجاوبيه حتى علا صوتك ثم خرج من عندك وهو مغضب ، ثم جاءك الآن هذا الغلام برسالة أبيه فأقلقك وقد كان أبوه جاءك فلم نر منك هذا القلق والجزع ! فقالت عائشة : إنما أقلقني لأنه ابن بنت رسول الله ﷺ ، فمن أحب أن ينظر إلى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هذا الغلام ، وبعد فقد بعث إليّ أبوه بما قد علمت ولا بد من الرحيل ، فقالت لها المرأة : سألتك بالله وبمحمد ﷺ إلا أخبرتني بماذا بعث إليك عليّ رضي الله عنه ، فقالت عائشة رضي الله عنها : ويحك ! إن رسول الله ﷺ أصاب من مغازيه نفلاً فجعل يقسّم ذلك في أصحابه ، فسألناه أن يعطينا منه شيئاً وألححنا عليه في ذلك ، فلامنا علي رضي الله عنه وقال : حسبكن أضجرتن رسول الله ﷺ ، فتجهمناه وأغلظنا له في القول . فقال : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن** ﴾[1] فأغلظنا له أيضاً في القول وتجهمناه ، فغضب النبي ﷺ من ذلك وما استقبلنا به علياً ، فأقبل عليه ثم قال : يا علي ! إني قد جعلت طلاقهن إليك فمن طلقتها منهن فهي بائنة ، ولم يوقّت النبي ﷺ في ذلك وقتاً في حياة ولا موت ؛ فهي تلك الكلمة ، وأخاف أن أبين من رسول الله ﷺ .

ذكر انصراف عائشة من البصرة إلى المدينة

قال : ثم دعا علي رضي الله عنه بنسوة[2] من نساء أهل البصرة فأمرهن أن

---

(١) سورة التحريم الآية ٥ .

(٢) في الطبري ٥/٢٢٥ وابن الأثير ٢/٣٤٧ أربعين امرأة . وفي مروج الذهب ٢/٤١٠ عشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما . وفي تاريخ اليعقوبي ٢/١٨٣ سبعين امرأة . =

ربك وهتكت سترك وأبحت حرمتكِ وتعرضتِ للقتل .

قال : ثم احتملها فأدخلها البصرة وأنزلها في دار عبد الله[1] بن خلف الخزاعي ، فقالت عائشة لأخيها : يا أخي ! أنشدك بالله إلا طلبت لي ابن أختك عبد الله بن الزبير ، فقال لها محمد : ولِمَ تسألين عن عبد الله ؟ فوالله ما سامك أحد سواه ! فقالت عائشة : مهلاً يا أخي ! فإنه ابن أختك وقد كان ما ليس إلى رده سبيل ؛ فأقبل محمد إلى موضع المعركة فإذا هو بعبد الله بن الزبير جريحاً لما به ، فقال له محمد : اجلس يا مشؤوم أهل بيته ! اجلس لا أجلسك الله ! قال : فجلس ابن الزبير وحمله محمد بين يديه وركب من خلفه ، وجعل يمسكه وهو يميل من الجراح التي به حتى أدخله على عائشة ؛ فلما نظرت إليه على تلك الحالة بكت ثم قالت لأخيها محمد : يا أخي ! استأمن له علياً وتمم إحسانك ، فقال لها محمد : لا بارك الله لك فيه ! ثم سار إلى علي وسأله ذلك ، فقال علي : قد آمنته وآمنت جميع الناس .

قال : وجعل رجل من أهل الكوفة يقال له مسعود بن عمرو الهمداني يجول في القتلى وينظر إليهم ، فبينما هو كذلك إذ مر برجل من بني ضبة يقال له عمير[2] بن الأهلب ، فإذا هو مقطوع اليدين وبه ضربات كثيرة وقد ندم على قتاله مع عائشة وهو يقول شعراً[3] ، قال : فجعل الهمداني يتعجب من قول الضبي ، فقال له الضبي : ممن الرجل ؟ فقال : رجل من همدان ، فقال : ما لي أراك واقفاً متعجباً من قولي ، فقال الهمداني : إني أتعجب من ندامتك حين لا تنفعك الندامة ، فقال له الضبي : قرب إليّ أذنك ، فقرب إليه أذنه ، فعض عليها الضبي حتى قطعها ؛ وانفلت الهمداني بغير أذن ثم أنكر عليه بسيفه حتى قطعه إرباً إرباً[4] .

---

(١) عن الطبري ، وبالأصل عبيد الله . وفي مروج الذهب ٤٠٦/٢ « أنزلها في دار صفية بنت الحارث بن طلحة العبدي ، وهي أم طلحة الطلحات » . وهي امرأة عبد الله وكان قد قتل في ذلك اليوم .

(٢) عن الطبري ٢١٣/٥ وبالأصل « عمرو » .

(٣) في مروج الذهب ٤٠٩/٢ ـ ٤١٠ :

لقد أوردنا حومة الموت أمنا ... فلم تنصرف إلا ونحن رواء
أطعنا بني تيم لشقوة جدنا ... وما تيم إلا أعبد وإماء

(٤) الخبر في مروج الذهب ٤٠٩/٢ ـ ٤١٠ والطبري ٢١٣/٥ .

ذكر ما جرى من الكلام بين عبد الله بن عباس وبين عائشة لما أنفذه إليها برسالته علي بن أبي طالب رضي الله عنهم

قال : ثم دعا علي رضي الله عنه بعبد الله بن عباس فقال له : اذهب إلى عائشة[1] فقل لها أن ترتحل إلى المدينة كما جاءت ولا تقيم بالبصرة ؛ فأقبل إلى عائشة فاستأذن عليها ، فأبت أن تأذن له ، فدخل عبد الله بغير إذن ، ثم التفت فإذا راحلة عليها وسائد فأخذ منها وسادة وطرحها ثم جلس عليها ؛ فقالت عائشة : يابن عباس ! أخطأت السنة دخلت منزلي بغير إذني[2] ! فقال ابن عباس : لو كنت في منزلك الذي خلفك فيه رسول الله ﷺ لما دخلت عليك إلا بإذنك ، وذلك المنزل الذي أمرك الله عزَّ وجلّ أن تقرّي فيه ، فخرجت منه عاصية لله عزَّ وجلّ ولرسوله محمد ﷺ ، وبعد فهذا أمير المؤمنين يأمرك بالارتحال إلى المدينة فارتحلي ولا تعصي ، فقالت عائشة : رحم الله أمير المؤمنين ! ذاك عمر بن الخطاب ! فقال ابن عباس : وهذا والله أمير المؤمنين وإن رغمت له الأنوف واربدت له الوجوه ! فقالت عائشة : أبيت ذلك عليكم يابن عباس ! فقال ابن عباس : لقد كانت أيامك قصيرة المدة ظاهرة الشؤم بنية النكد ، وما كنت في أيامك إلا كقدر حلب شاة حتى صرت ما تأخذين وما تعطين ولا تأمرين ولا تنهين ، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد حيث يقول :

ما زال إهداء القصائد بيننا ... شَتمَ الصديق وكثرة الألقابِ
حتى تركت كأن قولك عندهم ... في كلّ محتفل طنين ذباب

قال : فبكت عائشة بكاء شديداً ثم قالت : نعم والله أرحلُ عنكم ! فما خلق الله بلداً هو أبغض إليّ من بلد أنتم به يا بني هاشم ! فقال ابن عباس : ولم ذلك ؟ فوالله ما هذا بلاؤنا عندك يا بنت أبي بكر ! فقالت عائشة : وما بلاؤكم عندي يابن عباس ؟ فقال : بلاؤنا عندك أننا جعلنك أم المؤمنين وأنت بنت أم رومان ، وجعلنا أباك صديقاً وهو ابن أبي قحافة ، وبنا سميت أم المؤمنين لا بتيم وعديّ ، فقالت عائشة : يابن عباس ! أتمنون عليّ برسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم لا نمنّ عليك

(١) خبر عائشة وابن عباس (رض) في مروج الذهب ٤٠٨/٢ . وتاريخ اليعقوبي ١٨٣/٢ .

(٢) زيد في مروج الذهب : وجلست على رحلنا بغير أمرنا .

يخرجن مع عائشة إلى المدينة ، فرحلت عائشة من البصرة[1] في تلك النسوة ، وقد كان علي رضي الله عنه أوصاهن وأمرهن أن يتزيين بزي الرجال ، عليهن العمائم ، فجعلت عائشة تقول في طريقها : فعل بي عليّ وفعل ، ثم وجّه معي رجالاً يردّوني إلى المدينة ! قال : فسمعتها امرأة منهن فحركت بعيرها حتى دنت منها ثم قالت : ويحك يا عائشة ! أما كفاك ما فعلتِ حتى انكِ الآن تقولين في أبي الحسن ما تقولين ! ثم تقدمت النسوة وسفرن عن وجوههن ، فاسترجعت عائشة واستغفرت وقالت : هذا ما لقيتُ من ابن أبي طالب .

ثم دخلت عائشة المدينة وصارت إلى منزلها نادمة على ما كان منها ، وانصرفت النسوة إلى منازلهن بالبصرة .

قال : فكانت عائشة إذا ذكرت يوم الجمل تبكي لذلك بكاءً شديداً ثم تقول : يا ليتني لم أشهد ذلك المشهد ! يا ليتني متّ قبل هذا بعشرين سنة ! ثم قالت عائشة : ولو لم أشهد الجمل لكان أحب إليّ من أن يكون لي من رسول الله ﷺ مثل ولد عبد الرحمن بن الحارث، فإنه كان له عشرة أولاد ذكور كل يركب .

ذكر عدد من قتل من الفريقين في حرب الجمل

قال أبو يعقوب إسحاق بن يوسف الفزاري : سألت أبا المنذر هشام بن محمد بن السائب عمن قتل من أصحاب عليّ رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها في يوم الجمل ، فقال : أما علي رضي الله عنه فكان في عشرين ألفاً ، قتل من أصحابه ألف رجل وسبعون رجلاً ؛ وأما عائشة فكانت في ثلاثين ألفاً ويزيدون ، فقتل من الأزد خاصة أربعة آلاف[2] رجل ، ومن بني ضبة ألف رجل[3] ، ومن بني ناجية

= وزيد عنده : بعث معها أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر وثلاثين رجلاً .

(1) وكان ذلك يوم السبت غرة رجب (الطبري ٥/٢٢٥) .

(2) في مروج الذهب ٢/٤١١ ألفان وخمسمائة رجل . وفي الطبري ٥/٢٢٥ ألف وثلاثمائة وخمسون رجلاً .

(3) الطبري : ثمانمائة رجل .
وفي الطبري : قتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ألفين وخمسمائة .
وفي رواية عند الطبري : أن قتلى الجمل يزيدون على ستة آلاف . وفي رواية أخرى : عدد قتلى =

أربعمائة رجل ؛ ومن بني عدي ومواليهم تسعون رجلاً ، ومن بني بكر بن وائل ثمانمائة رجل ، ومن بني حنظلة سبعمائة رجل ، ومن سائر أخلاط الناس تسعة آلاف رجل .

قال : ونظر رجل من بني تيم بن مرة بعد ذلك إلى عبد الرحمن بن صرد التنوخي عاقر الجمل[1] ، فقال له : أنت الذي عرقبت الجمل يوم البصرة ؟ فقال التنوخي : أنا والله ذلك الرجل ! ولو لم أعرقبه لما بقي من أصحاب عائشة ذلك اليوم مخبر ، فإن شئت فاغضب وإن شئت فارض ؛ ثم أنشأ يقول شعراً .

قال : فأقام عليّ بالبصرة بعد حرب الجمل أياماً قلائل ، فلما أراد الرحيل عنها نصب في عسكره منبراً ثم نادى في الناس فجمعهم ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، وذكر من أمر القوم ما ذكر .

قال : فوثب إليه المنذر بن الجارود العبدي[2] ، فسأله عن أمر الفتن وغيرها ، فأخذ علي في ذلك يخبره من يومه ذلك إلى أن تقوم الساعة ، فذكر الفتن في مدينة مدينة وكيف تخرب ومن يتولى خرابها ، وكم النفقة تكون وعلى من تكون في المشرق والمغرب ـ فتركنا ذكرها لطولها ـ ثم قال في آخر كلامه : يا منذر ـ يعني المنذر بن الجارود العبدي ـ إنه لن تقوم الساعة إلا على أشرار خلق ربك ، وذلك في أول يوم من المحرم يوم الجمعة ، فافهم عني يا منذر ما نبأتك به ، ولم أكتمه عن غيرك ـ والله ولي الإحسان ، اللهم صلّ على سيدنا محمد الكريم في الحسب ، الرفيع في النسب ، سليل عبد المطلب ، وسيد العجم والعرب ، وسلم تسليماً كثيراً . ثم نزل عن المنبر وأمر أصحابه بالرحيل ، وانصرف إلى الكوفة مؤيداً منصوراً[3] .

= الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة ، وقد جرى تفصيل القتلى على القبائل انظر ج ٥/٢٢٢ .

(١) انظر ما سبق فيمن عقر الجمل .

(٢) هو المنذر بن الجارود واسمه بشر بن عمرو بن حبيش بن المعلى بن زيد بن حارثة بن معاوية العبدي ، ولد في عهد النبي (ص) . قيل قتل شهيداً في عهد عمر وقيل بل بقي وشهد الجمل مع علي (ع) ومات سنة ٦١ هـ . (الاصابة) .

(٣) وكان دخوله إليها لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب (مروج الذهب ٢/٤١٢) .

ابتداء خبر وقعة صفين

قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي قال حدثني سليم[1] عن مجاهد عن الشعبي وأبي محصن عن أبي وائل وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال : حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي الأسلمي قال : حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن أبي حبيب الزهري قال : وحدثني إسحاق بن يوسف الفزاري قال : حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال : حدثني أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي قال : حدثني الحارث بن الحصين عن عبد الرحمن بن عبيد[2] والنضر بن صالح بن حبيب[3] بن زهير قال : وحدثني عمران[4] بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن عبدالله[5] بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الوافقي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي والحسن بن نصر بن مزاحم العطار عن أبيه عن محمد بن عبد الله القرشي وغير هؤلاء ، فذكر هذا الحديث سراً وعلانية ، وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثاً واحداً على نسق واحد وكل

---

(١) كذا بالأصل هنا ، وقد مرّ في (خبر قتل عثمان رضي الله عنه) عثمان بن سليم . وفي تهذيب التهذيب ١٦٧/٤ سليم المكي أبو عبد الله مولى أم علي ، من كبار أصحاب مجاهد .

(٢) في وقعة صفين ص ٣ : الحارث بن حصيرة عن عبد الرحمن بن عبيد بن أبي الكنود .

(٣) مرّ في خبر مقتل عثمان (رض) « حسين » .

(٤) بالأصل : « عمر » .

(٥) بالأصل هنا عبيد الله ، وقد مرّ صوابه عبد الله في خبر مقتل عثمان (رض) .

يذكر أنه لما فرغ علي بن أبي طالب من أمر البصرة في يوم الجمل وخطب الناس وذكر من أمر الملاحم والفتن ما ذكر ثم نزل عن المنبر وذلك في وقت الظهر قام إليه عمار بن ياسر فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد اختلفوا ، فقائل منهم يقول : بأنك تريد المقام بالبصرة ، وقائل يقول : بأنك منصرف إلى الكوفة ؛ وقد أرجف نفر من أهل عسكرك بأنك تريد الشام ؛ ووالله يا أمير المؤمنين ! لقد بايعناك ونحن لا نرى أحداً يقاتلك ، ثم قاتلك من بايعك فأعطاك الله ما وعدك ، وقد قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغِيَ عليه لينصرنه الله ﴾[1] ثم قال : ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[2] ثم قال : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾[3] وقال : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾[4] ، وقد كانت الكوفة لنا والبصرة علينا ، فأصبحنا بحمد الله على ما نحب من ماض مأجور وراجع معذور ، وقد علمت أن بالشام الداء العضال ، معاوية بن أبي سفيان ، وهو رجل لا يسلم ما في يديه أبداً إلا مغلوباً أو مغلولاً أو مسلوباً [أو] مقتولاً ، فعاجله[5] قبل الفكر وانهض إليه قبل الحذر .

ثم قام الأشتر النخعي فقال : يا أمير المؤمنين إنما ينبغي لنا أن نقول قبل أن تعزم ، فإذا عزمت لم نقل ، ولو سرت بهذا الجيش إلى الشام لم يلقك بمثله أبداً ، فسر[6] بنا إلى القلوب القاسية والأبصار العمية .

ثم وثب رجل من عبد القيس وأنشد شعراً لعليّ وجعل يحرضه على ذلك .

فنادى عليّ في الناس بالرحيل ، فرحل الناس من البصرة إلى الكوفة فدخلوها يوم الاثنين لستة عشر يوماً خلت[7] من شهر رجب سنة ست وثلاثين ، ومعه يومئذٍ

---

(١) سورة الحج الآية ٦٠ .

(٢) سورة يونس الآية ٢٣ .

(٣) سورة فاطر الآية ٤٣ .

(٤) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٥) الإمامة والسياسة ١ / ٨٩ فعاجله قبل أن يعاجلك ، وانبذ إليه قبل الحرب .

(٦) الإمامة والسياسة ١ / ٨٩ فإن القلوب اليوم سليمة ، والأبصار صحيحة فبادر بالقلوب القسوة ، وبالأبصار العمى .

(٧) مر قريباً عن مروج الذهب أنه وصل الكوفة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب .

أشراف الناس ؛ قال : واستقبله أهل الكوفة يهنئونه ويدعون له بالبركة ، ثم قال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ! أتنزل القصر ؟ قال : لا ، ذاك قصر خيال ، ولكن أنزل الرحبة ؛ ثم أقبل فنزلها ، وحطت الأثقال ، ودخل علي رضي الله عنه إلى المسجد الأعظم فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال(١) : الحمد لله الذي نصر وليه وخذل عدوه ، وأعز الصادق المحق وأذل الناكث المبطل ، ألا ! وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل(٢) ، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة ؛ ألا ! وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة(٣) والآخرة عن قريب مقبلة ، ولكل واحدة منها(٤) بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، فإياكم يا أهل الكوفة وطاعة الله ، وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم ، الذين هم أولى بطاعتكم من المستحلين المدعين من الحق ما ليس لهم ، فقد ذاقوا وبال ما اجترموا ، فسوف يلقون غيّاً ، ألا ! وإنه قد قعد عن نصرتي رجال منكم وأنا عليكم عاتب ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ونرى منهم ما نرضى .

قال : فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي وقال(٥) : والله يا أمير المؤمنين! إني لأرى الهجران لهم والإسماع لهم ما يكرهون قليلاً بقعودهم عن نصرتك ، ووالله لئن أمرتنا لنقتلنهم ! فقال علي رضي الله عنه : سبحان الله يا مالك ! لقد جزتَ المدى وتعدّيت الحدّ وأغرقت في النزع ، وليس هكذا قال الله تعالى ، إنما قال : ﴿ **النفس بالنفس** ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطٰناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً** * ﴾(٧) .

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ٤٢ باختلاف يسير .
(٢) طول الأمل : هو استفساح الأجل والتسويف بالعمل طلباً للراحة العاجلة وتسلية للنفس بإمكان التدارك في الأوقات المقبلة (عن محمد عبده) .
(٣) في نهج البلاغة : ألا وأن الدنيا قد ولت حذاء فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء اصطبها صابها .
(٤) في النهج : منهما .
(٥) وقعة صفين لابن مزاحم ص ٤ .
(٦) المائدة الآية ٤٥ .
(٧) سورة الإسراء الآية ٣٣ .
(٨) وقعة صفين لابن مزاحم ص ٤ ـ ٥ باختلاف يسير .

فقام إليه أبو بردة بن عوف الأزدي وكان ممن تخلف عنه فقال : يا أمير المؤمنين ! أفرأيت القبيل الذين قتلوا يوم الجمل حول عائشة بماذا قتلوا ؟ فقال علي رضي الله عنه : قُتلوا بما قَتلوا به شيعتي وعمالي بلا ذنب كان منهم إليهم ، ثم صرت إليهم وأمرتهم أن يدفعوا إليّ قتلة إخواني ، فأبوا عليّ وقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي من المسلمين فقتلوهم ، أفي شك أنت من ذلك يا أخا الأزد ؟ فقال قد كنت شاكاً ، والآن فقد عرفتُ واستبان لي خطأ القوم وأنك لأنت المهدي المصيب .

قال : ثم نزل علي رضي الله عنه عن المنبر وركب فصار إلى جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي فنزل عليه ؛ قال : وأقبل إليه سليمان بن صرد الخزاعي[1] مسلّماً ، فقال له علي رضي الله عنه : يا سليمان ! إنك ارتبت وتربصت وراوغت وقد كنت من أوثق الناس في نفسي فما الذي أقعدك عن نصرتي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : لا تردّ الأمور على أعقابها ، ولا توبخني بما قد مضى ، واستبق مودتي يخلص لك نصيحتي ، فقد تعذرت أموراً تعرف فيها عدوك من وليك ؛ قال : فسكت عنه عليّ .

فجلس سليمان بن صرد قليلاً ثم نهض إلى المسجد الأعظم والحسن بن علي قاعد في المسجد ، فقال : أبا محمد ! ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه على رؤوس الأشهاد من التبكيت والتأنيب ؟ فقال الحسن : إنما يعاتب من يرجو مودته النصيحة ، فقال سليمان : أما إنه قد بقيت[2] مواطن يتقصّف فيها القنا وتتثلّم فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى أمثالي ، فلا تستغشوا مودّتي ولا تتهموا نصيحتي ؛ فقال له الحسن : أي رحمك الله ! ما أنت بالظّنين .

قال : ثم جعل يدخل إليه رجل بعد رجل ممن كان قد تخلّف عنه يوم الجمل ، فإذا سلّم عليه يقول له علي رضي الله عنه : وعليك السلام وإن كنت من المتربصين ! فلم يزل على ذلك من شأنه إلى أن جاءت الجمعة ، فخرج فصلى بالناس ، ثم بعث

---

(١) سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون ، سماه رسول الله (ص) وكان اسمه في الجاهلية يسار ، يكنى أبا المطرف ، وكان فاضلاً خيراً له دين وعبادة ، قتل في عين وردة سنة ٦٥ . (أسد الغابة) .

(٢) ابن مزاحم ص ٧ : إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف .

عماله إلى جميع البلاد التي كانت في يده من العراق والماهان والجبال وخراسان والجزيرة[1] .

وقعة أهل الجزيرة مع الأشتر قبل وقعة صفين

قال : وكانت أهل الجزيرة عثمانيين وقد بايعوا معاوية وصاروا في سلطانه ، فلما بلغ الخبر علياً رضي الله عنه ادعى بالأشتر وولاه الجزيرة وبلادها ، والضحاك بن قيس الفهري يومئذ بحران[2] من قبل معاوية ، فلما بلغه خروج الأشتر إلى ما قبله بعث إلى أهل الرقة فاستمدّهم إلى حرب الأشتر ، فأمدوهم برجل يقال له سماك بن مخرمة في جمع كثير .

قال : فأقبل الأشتر في جيش أهل الكوفة ، والتقى القوم قريباً من مدينة حران[3] ، فاقتتلوا قتالاً كثيراً إلى وقت المساء ؛ ثم انهزم الضحاك ومن معه في جوف الليل حتى صاروا إلى حران ، وسار إليهم الأشتر حتى نزل عليهم فحاصرهم ؛ وبلغ ذلك معاوية فأرسل إليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في خيل عظيمة ، وبلغ ذلك الأشتر فسار إليهم حتى لقيهم دون الرقة[4] ، فواقعهم وهزمهم هزيمة قبيحة حتى ألحقهم بالشام ؛ ثم أقبل حتى نزل على أهل الرقة فحاصرهم .

قال : وخرج الضحاك بن قيس من حران يريد لقاء الأشتر ليزيله عن الرقة ، وقدم أيمن بن خريم[5] الأسدي من عند معاوية في جيش عظيم ، فاجتمعت العساكر على الأشتر من كل ناحية والتقى القوم للقتال ، فصبر بعضهم لبعض صبراً حسناً ، ثم

---

(١) انظر في ذلك الأخبار الطوال ص ١٥٣ ومروج الذهب ٢/٤١٢ .

(٢) حران مدينة قديمة فيما بين النهرين . قاعدة بلاد مضر : فتحها العرب على يد عياض بن غنم .

(٣) اقتتلوا بين حران والرقة بموضع يقال له المرج (الأخبار الطوال ص ١٥٤) وفي وقعة صفين ص ١٢ : مرج مرينا .

(٤) الرقة : قاعدة ديار مضر في الجزيرة على الفرات .
وفي الأخبار الطوال : وبلغ ذلك الأشتر ، فانصرف إلى الموصل ، فأقام بها يقاتل من أتاه من أجناد معاوية .

(٥) خريم بالتصغير .

انهزمت خيل الشام حتى لحقت بمعاوية ، وجعل الأشتر يعبر على أطراف البلاد ويذل كل من ناواه ، حتى ضبط الجزيرة ضبطاً محكماً .

وبلغ ذلك علياً فقام في الناس بالكوفة خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الله تبارك وتعالى هو خالق الخلق ، ولن يرضى من أحد من خلقه إلا بالحق ، ولن يزال أمرنا هذا متمسكاً ولم يشتم آخرنا أولنا ، فإذا فعلوا ذلك فقد هلكوا وأهلكوا ؛ ألا ! وإني مخبركم أن معاوية بن أبي سفيان قد شكل أهل الشام وزعم لهم أني أنا الذي قتلتُ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد حارب عاملي ، ويوشك أنه سينازعني حقي ويدفعني عنه بجموع أهل الشام ؛ ألا ! وإني قد عزمت على الكتاب إليه ، فماذا عندكم من الرأي ؟ قال : فضجّ المسلمون من كل ناحية فقالوا : يا أمير المؤمنين ! افعل في ذلك ما أحببت وأمرنا بأمرك ، فأمرك فينا سمعاً وطاعة ، وما طاعتك فينا إلا كطاعة النبي ﷺ .

ذكر كتاب علي رضي الله عنه إلى معاوية

قال : فنزل علي رضي الله عنه عن المنبر ودخل إلى منزله ، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى معاوية كتاباً نسخته(١) : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ! فإن بيعتي لزمتك ، وأنا بالمدينة وأنت بالشام ، وذلك أنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وأما عثمان فقد كان أمره مشكلاً على الناس ، المخبر عنه كالأعمى والسامع كالأصم ، وقد عابه قوم فلم يقبلوه وأحبه قوم فلم ينصروه ، وكذبوا الشاهد واتهموا الغائب ، وقد بايعني الناس بيعة عامة ، من رغب عنها مرق ومن تأخر عنها محق ، فاقبل العافية واعمل على حسب ما كتبتُ به - والسلام . قال : ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الحجاج بن [عمرو بن] غزية الأنصاري ووجهه إلى الشام إلى معاوية(٢) .

---

(١) نسخته في وقعة صفين ص ٢٩ الإمامة والسياسة ص ٩٣ العقد الفريد، ٣٣٢/٤ الأخبار الطوال ص ١٥٧ باختلاف النصوص وزيادة .

(٢) في المصادر المذكورة بعث الكتاب مع جرير بن عبد الله ، وسيرد قريباً نص رسالة بعثها علي (رض) إلى معاوية مع جرير بن عبد الله ، وفي المصادر المذكورة يتضح وكأن الرسالتين رسالة واحدة .

فلما ورد كتابه على معاوية فقرأه ورفع رأسه إلى الرسول وقال : أظنك ممن قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ! فقال الأنصاري : وأنا أظنك يا معاوية ممن استنصره عثمان فلم ينصره ولكن خذله وقعد عنه ؛ قال : فغضب معاوية من ذلك وقال : ارجع إذاً إلى صاحبك بغير جواب فإن رسولي في أثرك إن شاء الله تعالى . قال : فانصرف الأنصاري إلى عليّ رضي الله عنه وأخبره بذلك .

خبر الوليد بن عقبة[1] بن أبي معيط وسبب عداوته مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال : وبلغ الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان عدواً لعليّ رضي الله عنه ، وذلك أن علياً هو الذي أشار على عثمان أن يقيم عليه الحد في شرب الخمر لما شهد عليه أهل الكوفة بشربه ، وذلك أنه كان والي الكوفة ، فصلى بهم الفجر أربعاً وهو سكران ، ثم التفت إليهم وقال : أزيدكم ! فعلم الناس أنه سكران لا يعقل من أمره شيئاً ؛ وأنشأ الحُطيئة العبسي يقول في ذلك شعراً[2] . وقيل فيه غير هذا ، ثم إنه جلد الحدّ بين يدي عثمان بن عفان بمشورة علي رضي الله عنه ، فحقدها عليه[3] .

وقد كان قبل ذلك في حياة رسول الله ﷺ جرى بينه وبين علي كلام ، فقال الوليد لعلي : أنا أحدّ منك سناناً وأسلط منك لساناً ، وأملأ منك حشواً للكتيبة ؛ فقال له علي : اسكت ! فإنما أنت فاسق ؛ فغضب الوليد من ذلك وشكى إلى النبي ﷺ بذلك ، فنزلت فيه هذه الآية : ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**﴾[4]

---

(١) بالأصل : « عتبة » خطأ . وقد مرّ .

(٢) الأبيات في الأغاني ٤/١٧٨ بولاق والعقد الفريد ٤/٣٠٨ ومروج الذهب ٢/٣٧٠ وفيه قوله :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه	أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم	أأزيدكم؟ ثملاً وما يدري
ليزيدهم أخرى، ولو قبلوا	لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو	حلوا عنانك لم تزل تجري

(٣) خبر الوليد بن عقبة ، وسبب عزله عن ولاية الكوفة مرا (راجع في كتابنا خبر مقتل عثمان وما نقم الناس عليه) .

(٤) سورة السجدة الآية ١٨ . انظر تفسير القرطبي ١٤/١٠٥ .

يعني الوليد بن عقبة ؛ فأنشد حسان بن ثابت الأنصاري يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

أنـزل الله والـكـتـاب عـزيـز ... فـي عـليّ وفـي الـولـيـد قـرآنـا

إلى آخرها .

وكانت هذه قصة الوليد مع علي رضي الله عنه ، فلم يزل حاقداً عليه إلى ذلك اليوم . لمّا بلغه كتاب عليّ إلى معاوية فكتب إلى معاوية بهذه الأبيات يأمره فيها أنه لا يجيب علياً بشيء مما يريد ويحرّضه على حرب عليّ ، فأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

معـاوي إن الملك قـد آب غـاربـه ... وأنت بهـا في كفّك اليـوم صـاحبـه[١]

إلى آخرها .

قال : فلما ورد كتاب الوليد بن عقبة وشعره على معاوية فرح بذلك وسره ما كتب إليه به الوليد . وعزم على مخالفة علي رضي الله عنه .

ثم إنه انتخب رجلاً من بني عبس له لسان طلق ومنطق ذلق ، وشعر لا يبالي ما قال وما يخرج من فيه ؛ ثم دعا بطومارين فوصل أحدهما إلى الآخر فكتب في الطومارين : « بسم الله الرحمن الرحيم » لا أقل ولا أكثر ثم طواهما وختمهما وعنونهما ودفعهما إلى العبسي ، وأرسله إلى علي بن أبي طالب .

فخرج العبسي إلى الكوفة حتى دخل على عليّ رضي الله عنه وعنده وجوه المهاجرين والأنصار ، فسلّم ثم التفت يميناً وشمالاً فقال : ههنا أحد من بني عبس أو من أبناء قيس عيلان ؟ فقيل له : نعم ، هات ما عندك ! فقال العبسي : عندي والله

---

(١) بعده في وقعة صفين ص ٥٣ :

أتـاك كـتـاب مـن عـلي بـخـطة ... هي الفصـل فـاختـر سلمـه أو تحـاربـه

... فحاربه إن حاربت حرب ابن حرة ... وإلا فـسـلـم لا تـدب عـقـاربـه

فـإن عـلـيـاً غـيـر سـاحـب ذيـلـه ... على خـدعـة مـا سـوّغ المـاء شـاربـه

في أبيات أخرى :

ولا تـدعـن الـمـلك والأمـر مـقـبـل ... وتـطلب مـا أعيت عـليـك مـذاهبـه

فـإن كـنـت تـنـوي أن تـجـيب كـتـابـه ... فـقـبـح مـمـلـيـه وقـبـح كـاتـبـه

في أبيات عدة .

من الخبر أني قد تركت بالشام خمسين ألف شيخ خاضبين لحاهم بدموع أعينهم على قميص عثمان ، وأنهم قد عاهدوا الله عزَّ وجلّ أنهم لا يشيمون سيوفهم في أغمادهم أبداً حتى يقتلوا من قتل عثمان ، يوصي به الميت الحيَّ ويرثه الحيُّ عن الميت ، حتى والله لقد شبَّ عليه الصغير وهاجر عليه الأعرابي ، نعم والله وحتى أن الناس قد كانوا يقولون : تعس الشيطان ! والآن فهم يقولون تعس قاتل عثمان بن عفان ! قال فقال له علي : ويحك ! يا أخا بني عبس ! فيريدون بذلك ماذا ؟ فقال العبسي : يريدون والله خيط رقبتك ! فقال له علي رضي الله عنه : تربت يداك وجدب فوك .

قال : ثم وثب إليه رجل يقال له صلة بن زفر العبسي وهو صاحب حذيفة بن اليمان فقال له : بئس الوافد أنت يا أخي بني عبس لأهل الشام ، وبئس العون لمعاوية ! أتخوّف المهاجرين والأنصار ببكاء الرجال على قميص عثمان ! فوالله ما قميص عثمان بقميص يوسف ولا بكاؤهم عليه كبكاء يعقوب ! ولئن بكوا عليه بالشام فقد خذلوه بالحجاز ، وأما قتالهم أمير المؤمنين علياً فإن الله عزَّ وجلّ يصنع في ذلك ما يحب ويرضى .

قال : وهمّ الناس بالعبسي وقاموا إليه بالسيوف ، فقال علي رضي الله عنه : دعوه فإنه رسول ، ولكن خذوا منه الكتاب ، قال : فأخذ الكتاب من يده ودفع إلى علي ؛ فلما فضّه لم ير فيه شيئاً أكثر من « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ قال : فعلم أن معاوية يحاربه وأنه لن يجيبه إلى شيء ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبي الله ونعم الوكيل ؛ فأنشأ قيس بن سعد بن عبادة وهو يرتجز ويقول شعراً .

قال : ثم إن العبسي رسول معاوية قام إلى علي رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ! والله لقد أقبلتُ وأنا من أشد الناس عليك حنقاً لما أخبرني عنك أهل الشام ، وقد والله أبصرت الآن ما فيه أهل الشام من الضلال وما أنت فيه من الهدى ، ولا والله ما كنت بالذي أفارقك أبداً ولا أموت إلا تحت ركابك ! ثم إنه كتب إلى معاوية أبياتاً مطلعها :

كدت أهل العراق بالبلد الشا م شفاها وكان كيدي ضعيفاً

إلى آخرها .

قال : فلما انتهى شعره إلى معاوية ونظر إليه عجب لذلك ثم أقبل على من بحضرته وقال : قاتله الله ! لقد قال وأبلغ ويله ، إنما بعثناه رسولاً فصار علينا محرّضاً .

خبر الطائي مع معاوية[1]

قال : ثم إن معاوية ذات يوم ركب وخرج إلى الصحراء ومعه جماعة من وجوه أهل الشام ، فبينا هو كذلك إذا بشخص قد أقبل من ناحية العراق على قعود له فقال : عليّ بهذا المقبل ! فأتوا به ، فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : من طيء ، قال : فمن أين أقبلت ؟ قال : من الكوفة ، قال : وأين تريد ؟ قال : أريد ابن عم لي يكون في ناحيتك يقال له حابس بن سعد الطائي[2] ، فقال معاوية : عليَّ بحابس ؛ فأقبل إليه ، فلما نظر إلى ابن عمه رحب به وقربه وفرح برؤيته وأحضره بين يدي معاوية ، فقال له معاوية : كيف خلفت علي بن أبي طالب وأين تركته وعلى ماذا قد عزم ؟ فقال : نعم يا معاوية ! أخبرك ، أنه قدم من البصرة إلى الكوفة ، فلما دخلها تهافت الناس عليه بالبيعة ، ثم إنه ندب الناس إلى قتالك ، فرأيته وقد حف به الناس من المهاجرين والأنصار ، حتى لقد حمل إليه الصبي ، ودنت[3] منه العجوز وخرجت إليه العروس ، كل ذلك فرحاً بولايته ، ولقد تركته وما له همة إلا الشام ؛ فهذا ما عندي من الخبر . فقال معاوية : ما اسمك ؟ قال : اسمي خفاف ، قال : هل تقول شيئاً من الشعر ؟ قال : نعم ، فأنشأ يقول شعراً[4] .

---

(١) خبر خفاف الطائي في وقعة صفين ص ٦٤ وفيه أنه كلف بمهمة أن يلقى معاوية ويكسر أهل الشام . وقد رواه ابن مزاحم باختلاف وزيادة .

(٢) حابس بن سعد الطائي قيل كانت له صحبة (تهذيب التهذيب ١٢٧/٢) وفي الاشتقاق لابن دريد ٢٣٥ : كان على طيء الشام مع معاوية وقتل . وكان عمر قد ولاه قضاء مصر ثم عزله .

(٣) في وقعة صفين : ودبت .

(٤) الأبيات في وقعة صفين ص ٦٦ ـ ٦٨ ومطلعها :

قلت والليل ساقط الأكناف ... ولجنبي على الفراش تجاف

ومنها :

ارهب اليوم ، إن أتاك علي ... صيحة مثل صيحة الأحقاف

إنه الليث عادياً وشجاع ... مطرق نافث بسم زعاف =

قال : فلما سمع معاوية هذا الشعر كأنه انكسر بذلك ثم أقبل على حابس بن سعد فقال : ويحك يا حابس ! أرى ابن عمك هذا عيناً علينا لأهل العراق ، فأخرجه عنا ، لا يفسد علينا أهل الشام ! فقال : والله ما قدمتُ الشام رغبة مني فيها ولا في أهلها ! وإني لراحل عنها وزاهد في جوارك .

خبر أربد الفزاري مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال : وجعل عليّ يندب الناس إلى الخروج إلى الشام(١) ؛ فقام إليه رجل من فزارة يقال له أربد فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى الشام إلى إخواننا(٢) فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقاتلناهم ! كلا والله لا نفعل ذلك أبداً ! قال : فصاح الأشتر وقال : من هذا الجاهل ! فقام إليه الناس ، وهرب الفزاري والناس في أثره ، حتى لحقوه فضربوه بأيديهم وأرجلهم وداسوه حتى قتلوه ؛ وبلغ ذلك علياً فقال : ومن قتله ؟ قالوا : قتلته الأخلاط من همدان وغيرهم من الأساور ؛ فقال علي : هذا قتيل عميّة(٣) لا يدرى من قتله ، وديته من بيت مال المسلمين .

قال : فقام الأشتر ، وقال : يا أمير المؤمنين ! إن جميع ما ترى من الناس شيعتك ، وليس يرغبون بأنفسهم عن نفسك ولا يحبون بقاء بعدك ، فإن شئت فسر بنا إلى عدوّك ، فوالله ما ينجو من الموت من كره الموت ، وإنا لعلى بيّنة من ربنا ، وكيف لا نقاتل قوماً وثبت طائفة منهم على طائفة من المؤمنين ، فأسخطوا الله في

= ... استعدوا لحرب طاغية الشا م فلبوه كالبنين اللطاف
في أبيات أخرى .

(١) العبارة في وقعة صفين لابن مزاحم ص ٩٤ : سيروا إلى أعداء الله سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ، سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار .

(٢) زيد في وقعة صفين : إخواننا من أهل الشام .

(٣) العمية بكسر العين وتشديد الميم المكسورة والياء المفتوحة المشددة . أي ميتة فتنة وجهالة . وفي قتله يقول علاقة التيمي :

أعوذ بربي أن تكون منيتي ... كما مات في سوق البراذين أربد
تعاوره همدان خفق نعالهم ... إذا رفعت عنه يد وضعت يد

قتلهم وأظلمت الأرض لأعمالهم ، وباعوا خلافتهم[1] بعرض يسير من الدنيا . فقال له علي : صدقت يا مالك ! والطريق مشترك والناس في الحق سواء ، ومن أجهد رأيه في مصلحة العباد فله ما نوى وقد قضى ما عليه .

ذكر كتاب عليّ إلى جرير بن عبد الله

قال : وكان جرير بن عبد الله البجلي يومئذ على ثغر همدان عاملاً لعثمان والأشعث بن قيس على بلاد أذربيجان ، فكتب عليّ رضي الله عنه لذلك إلى جرير بن عبدالله[2] : بسم الله الرحمن الرحيم ، من علي أمير المؤمنين، أما بعد ! يا جرير ! فإن الله تبارك وتعالى : **﴿ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾**[3] ، وقد علمتَ ما كان من أمر عثمان ابن عفان وبيعة المهاجرين والأنصار إياي ومسيري إلى البصرة ، وما كان من محاربتهم إياي حتى أعطاني الله عليهم الظفر ، فرفعتُ عنهم السيف واستعملت عليهم عبدالله ابن عباس وسرتُ إلى الكوفة ، وقد بعثت إليك بزحر[4] بن قيس فاسأله عما بدا لك واقرأ كتابي هذا على المسلمين ، وأقبل إليّ بخيلك ورجلك ، فإني عازم على المسير إلى الشام إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله .

قال : ثم طوى الكتاب وعنونه وختمه بخاتمه ودفعه إلى زحر[5] بن قيس وأمره بالمسير إلى جرير .

قال : فكان مع علي بن أبي طالب ابن أخت لجرير بن عبد الله فدفع إلى زحر بن قيس كتاباً فيه أبيات من الشعر قد قالها ، وقال لزحر : ابن عبد الله البجلي خالي فادفع إليه كتابي هذا .

فخرج زحر بن قيس حتى ورد على جرير بن عبد الله وهو يومئذ بهمدان . فدفع

---

(١) في وقعة صفين : خلاقهم .

(٢) نسخته في الإمامة والسياسة ١ / ٩٠ وقعة صفين ص ١٥ بزيادة .

(٣) سورة الرعد الآية ١١ .

(٤) بالأصل : « زجر » تحريف . وفي الإمامة والسياسة : زفر . وما أثبتناه عن الأخبار الطوال ص ١٥٦ .

(٥) مرّ قريباً . وقد صححت في كل مواضع الخبر .

إليه كتاب عليّ فقرأه حتى أتى إلى آخره ثم دفع إليه كتاب ابن أخته ، فإذا فيه أبيات مطلعها :

جرير بن عبد الله لا تردد الهدى وبايع علياً إنني لك ناصح[1]

إلى آخرها .

قال[2] : فعندها وثب جرير وأخذ كتاب عليّ في يده ، ثم خرج إلى الناس فنادى فيهم فاجتمعوا ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما حمد الله عليه ، وقد بايعه المهاجرون والأنصار ، وأنتم التابعون بإحسان ، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان أحق الناس بهذا الأمر لمصاهرته وقرابته وخدمته وشجاعته وهجرته ، غير أن البقاء في الجماعة والعناء في الفرقة ، وعليّ حاملكم على الحق ما استقمتم ، فإن ملتم أقام ميلكم ؛ فهاتوا ما عندكم من الرأي ! فقال الناس : سمعنا وأطعنا ورضينا وبايعنا أمير المؤمنين علياً .

قال : ثم ركب رجل من عنزة[3] رافعاً صوته وهو يقول شعراً .

قال(٤) : ثم وثب زحر بن قيس رسول علي بن أبي طالب حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن علياً أمير المؤمنين قد كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيع من القول ، ولكن لا بد من رد الكلام ، وقد بايع الناس علياً

---

(١) الأبيات في وقعة صفين ص ١٦ ـ ١٧ وفيها بعده :

فإن علياً خير من وطىء الحصى سوى أحمد والموت غاد ورائح
ودع عنك قول الناكثين فإنما أولاك ، أبا عمرو ، كلاب نوابح

في أبيات .

(٢) في الإمامة والسياسة ١/٩٠ أن جرير خطب خطبته بعدما قام زحر (زفر) في الناس خطيباً . . . انظر عنده خطبته وخطبة جرير وانظر وقعة صفين ص ١٧ .

(٣) في إحدى نسخ وقعة صفين : وقال ابن الأزور القسري في جرير يمدحه وذلك بعدما ألقى خطبته ومما قاله :

لعمر أبيك والأنباء تنمى لقد جلى بخطبته جرير

في أبيات (انظر وقعة صفين لابن مزاحم ص ١٨ ـ ١٩) .

(٤) انظر الحاشية (٢) .

بالمدينة غير(1) محاباة ببيعتهم ولكن لعلمه بكتاب الله عـزَّ وجلّ وسنن الحق ، وأن طلحة والزبير كانا بايعاه طائعين غير مكرهين ، ثم نقضا عليه بيعته على غير حدث كان منه إليهما ، ثم إنهما ألَّبا عليه الناس ونصبا له الحرب ، فأخرجا أم المؤمنين ، فأظهره الله عزَّ وجلّ على من خالفه ونكث بيعته . والكلام كثير ، فهذا عيان ما غاب عنكم ، وإن سألتم الزيادة زدناكم ، ولا قوة إلا بالله . ثم نزل عن المنبر ، وأنشأ رجل من عبد القيس(2) شعراً .

قال : ثم سار جرير بن عبد الله بمن معه من الخيل والرجل ، حتى قدم الكوفة على عليّ وبايعه ودخل فيما دخل فيه الناس من طاعة علي رضي الله عنه ؛ ثم أنشأ يقول شعراً(3) .

كتاب علي رضي الله عنه إلى أشعث بن قيس

قال : ثم كتب علي رضي الله عنه إلى الأشعث بن قيس وهو يومئذ بأذربيجان عاملاً لعثمان بن عفان(4) : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس ، أما بعد ! فلولا هنات كُنَّ منك(5) لكنتَ المقدَّم في هذا الأمر قبل غيرك(6) ، ولعل أمرك يحمل بعضه بعضاً ، وقد مضى عثمان لسبيله كما بلغك وبايعني المهاجرون والأنصار والتابعون وإنما توقفي عليك ، فإذا أتـاك كتابي هـذا

---

(1) كذا بالأصل والإمامة والسياسة ، وفي وقعة صفين : من غير محاباة له ببيعتهم .

(2) في وقعة صفين ص 19 : وقال النهدي في ذلك :

أتـانـا بـالـنـبـأ زحر بـن قـيـس ... عـظيم الخـطب من جعف بـن سـعـد
تـخـيـره أبـو حـسـن عـلـي ... ولـم يـك زنده فـيـهـا بـصـلـد

في أبيات .

(3) ومما قاله : وقعة صفين ص 18 :

أتـانـا كـتـاب عـلـي فـلـم ... نـرد الـكـتـاب ، بـأرض الـعـجـم
... لـه الفضـل والسبق والمكـرمـات ... وبـيـت الـنـبـوة لا يـهـتـضـم

(4) الإمامة والسياسة 1/91 وقعة صفين ص 20 الأخبار الطوال ص 156 باختلاف .

(5) الإمامة والسياسة ووقعة صفين : فيك .

(6) الإمامة والسياسة ووقعة صفين : الناس .

فاقرأه على من قبلك من المسلمين ، وادخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار ، فإن العمل الذي في يدك ليس لك بطُعمة ولكن أمانة ، وفي يدك مال من مال الله عزَّ وجلّ ، وأنت خازن من خزّانه عليه حتى تسلّمه إليّ ، ولعلي لا أكون أنسى ولايتك إن استقمت إن شاء الله ولا قوة إلا بالله . ثم طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى رجل من أصحابه يقال له زياد بن مرحب الهمداني(١) ، وأمره بسرعة السير إلى الأشعث .

قال : وكتب رجل من كندة من بني عم الأشعث(٢) : أما بعد ! فإن بيعة علي بن أبي طالب أتتني فقبلتها ولم أجد إلى دفعها سبيلاً ، وإني نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان فلم أجده يلزمني وقد شهده المهاجرون والأنصار ، وكان أوثق أمورهم الوقوف ، فالزم يابن عم بيعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، فإنه أفضل من غيره ، وقد قلت أبياتاً فاسمعها . ثم أثبت في أسفل كتابه ما قاله من الشعر .

قال : فلما نظر الأشعث بن قيس في كتاب علي رضي الله عنه وقرأ شعر ابن عمه الكندي فنودي له في الناس ، ثم خرج من منزله وأقبل فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى [عليه وصلى] على نبيه ، ثم قال : إنه من لم يكفه القليل لم يستغن بالجزيل ، وقد كان ابن عفان ولّاني بلاد أذربيجان [وهلك](٣) وهي في يدي ، وقد كان من أمر عائشة وطلحة والزبير ما قد بلغكم ، وقد بايع الناس عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو المأمون على ما قد غاب عنا وعنكم من الأمم ، فما الذي عندكم من الرأي ؟ فقال الناس بكلمة واحدة : سمعنا وأطعنا وعليٌّ إمامنا ، ما نريد به بدلاً .

قال : ثم وثب زياد بن مرحب الهمداني رسول علي رضي الله عنه ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال(٤) : أيها الناس ! إن أمر عثمان بن عفان لا ينفع فيه العيان ولا يشفى منه الخبر ، غير أن من سمع به ليس كمن عاينه ، وإن الناس قد بايعوا علياً راضين به طائعين غير مكرهين ، وحاربه من حاربه من أهل البصرة ،

---

(١) الإمامة والسياسة ١/٩١ زياد بن كعب .
(٢) في الإمامة والسياسة ١/٩٢ أن جرير كتب إلى الأشعث ، وذكر الكتاب . باختلاف يسير عما في الأصل .
(٣) عن الإمامة والسياسة ١/٩٢ ووقعة صفين ص ٢١ .
(٤) الإمامة والسياسة ١/٩١ وقعة صفين ص ٢١ .

فأورثه الله الأرض وجعل له عاقبة المتقين ، وأنا رسوله إليكم ، فاسمعوا وأطيعوا ! قال : فضج الناس من كل ناحية بالسمع والطاعة ؛ وقام رجل منهم على قدمه وأنشأ يقول شعراً(١) .

قال : واستبشر الناس بخلافة علي رضي الله عنه وبايعوه عن آخرهم وانصرف الأشعث بن قيس إلى منزله يقول شعراً(٢) .

قال : ثم أرسل الأشعث إلى جماعة من أصحابه فدعاهم ، وقال : إن كتاب عليّ أوحشني وأخاف إن سرت إليه يطالبني (٣) بمال أذربيجان ، وإن سرت إلى معاوية لم يطالبني بشيء ، واللحاق عندي بمعاوية أصلح ، فهاتوا ما عندكم من الرأي ؟ قال : فقال له قومه وعشيرته : فالموت خير لك من ذلك ، أتترك قومك ومصرك وعشيرتك وتكون ذنباً لأهل الشام ! ثم أنشأ رجل من قومه يقول في ذلك شعراً(٤) . قال : فلما سمع الأشعث هذه القصيدة من ابن عمه كأنه استحيى مما أراد أن يفعل من مسيره إلى معاوية ؛ ثم إنه جمع الناس فواعدهم وهنأهم وسار بهم حتى قدم الكوفة على عليّ رضي الله عنه .

قال : فعندها وثب الأحنف بن قيس إلى عليّ فقال(٥) : يا أمير المؤمنين ! إنه

---

(١) في وقعة صفين ص ٢٣ ومما قيل على لسان الأشعث :

أتانا الرسول رسول علي ... فسرّ بمقدمه المسلمونا

في أبيات .

(٢) في وقعة صفين لابن مزاحم ص ٢٤ : مما قيل على لسان الأشعث :

أتانا الرسول رسول الوصي ... علي المهذب من هاشم

في أبيات .

(٣) في الإمامة والسياسة : وهو آخذي بمال آذربيجان .

(٤) في وقعة صفين ص ٢١ : فقال السكوني وقد خاف أن يلحق بمعاوية :

إني أعيذك بالذي هو مالك ... بمعاذة الآباء والأجداد
مما يظن بك الرجال ، وإنما ... ساموك خطة معشر أوغاد

في أبيات آخرها :

وانظر علياً إنه لك جنة ... ترشد ويهدك للسعادة هاد

(٥) وقعة صفين لابن مزاحم ص ٢٤ .

وإن لم يكن بنو سعد بن زيد مناة بن تميم نصرتك يوم الجمل فإنها تنصرك اليوم ، وذلك أنهم شكوا في طلحة والزبير ولم يشكوا في معاوية ، وعشائرنا بالبصرة ، فإن رأيتَ كتبنا إليهم ؛ فقدموا علينا فقاتلنا بهم عدوّك ، وانتصفنا بهم من الناس ، وأدركوا اليوم ما فاتهم بالأمس . قال : وتتابعت بنو تميم على قول الأحنف ، فقال له عليّ رضي الله عنه : قد آذنتُ لك انجز فاكتب إلى قومك .

قال : فكتب الأحنف إلى قومه من بني سعد[١] : أما بعد ! فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا وقد أخذوا[٢] برأي سيدهم غيركم ، وبرأيه فيكم نلتم ما رجوتم وأمنتم ما خفتم ؛ وأخبركم أننا قدمنا على قومنا من تميم الكوفة ، فأخذوا علينا بفضلهم وواسونا بأنفسهم وأنزلونا ديارهم وأحشمونا ببرّهم ، حتى كدنا لا نعرف إلا بهم ، وقد عزموا على المسير إلى الشام مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فأقبلوا إلينا ولا تتباطوا ، فإن من العطايا حرماناً ومن النصر خذلاناً ، فحرمان العطاء القلة وحرمان[٣] النصر الإبطاء ، ولن تقضى الحقوق إلا بالرضا ، وقد يرضى المضطر بدون الأمل ـ والسلام ـ . ثم أثبت في أسفل هذا الكتاب شعراً[٤] .

قال : فلما ورد كتاب الأحنف وشعر ابن أخته[٥] على بني تميم بالبصرة ساروا بأجمعهم إلى الكوفة وبايعوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال : شاور عليّ أصحابه فقال : إنكم قد علمتم أن البغي لا خير فيه ، ولكن أشيروا عليَّ برجل قد أحكمته التجارب أوجّه به إلى معاوية ، فلعله أن يرتدع عما هو عليه ، فإن فعل وإلا فما أقدرنا على ما نريد من حربه .

قال : فوثب جرير بن عبد الله البجلي فقال : يا أمير المؤمنين ! ابعثني إليه رسولاً فإنه لم يزل لي متنصحاً ووادّاً ، فآتيه وأدعوه إلى أن يسلم لك هذا الأمر ويلزم

---

(١) نسخته في وقعة صفين ص ٢٦ باختلاف يسير . والإمامة والسياسة ٨٦/١ .

(٢) وقعة صفين والإمامة والسياسة : شقوا .

(٣) الإمامة والسياسة ووقعة صفين : وخذلان .

(٤) في وقعة صفين « كتب معاوية بن صعصعة وهو ابن أخي الأحنف :

تميم بن مر إن أحنف نعمة ... من الله لم يخصص بها دونكم سعدا »

في أبيات (ص ٢٦ - ٢٧) .

(٥) مر قريباً ابن أخيه ، وهو معاوية بن صعصعة .

الطاعة ويكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمّالك ما عمل بطاعة الله واتبع ما في كتاب الله ، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فإنّ جُلّهم قومي وعشائري وأهل بلادي ، وأرجو أن لا يعصيني هو ولا أحد من الشام . قال : فقال له الأشتر : يا أمير المؤمنين ! لا تبعثه إليهم فإن هواه هواهم ورأيه رأيهم ؛ فقال عليّ : يا مالك ! دعه حتى ننظر ما يرجع إلينا به من الخبر .

قال : ثم أقبل عليه عليّ فقال : يا جرير ! إنّ معي من أصحاب النبي ﷺ من البدريين والعقبيين من أهل الدين والرأي مَنْ قد علمتَ ، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله ﷺ فيك : « إنك خير ذي يمن[١] ، فسر إلى معاوية بكتابي واعـذر إليه وأعلمه أني لا أرضى به أميراً والعامة لا ترضى به خليفة » ؛ فقال جرير : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين إن شاء الله ولا قوة إلا بالله[٢] .

ذكر كتاب عليّ رضي الله عنه إلى معاوية

قال : ثم كتب علي رضي الله عنه[٣] : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاويـة بن صخر ، أمـا بعد ! يـا معاويـة ! فقد علمتَ أن الشورى للمهاجرين والأنصار دون غيرهم ، فإذا اجتمعوا على رجُل فسموه إماماً كان لله عزَّ وجلّ رضاً ، فإن خرج من أمرهم خارج[٤] ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ؛ وقد علمتَ بما كان بالبصرة ممـا لا يخفى عليك ، فجاهدتُهم حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ؛ وبعد فإني أراك قد أكثرت في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون من بيعتي ، ثم حاكم القوم إليّ أحملهم وإياك على كتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه محمد ﷺ ، وأما التي تريدها فإنها خدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري لئن نظرتَ بعقلك لعلمتَ أني أبرأ الناس من دم عثمان ! وقد علمت أنك من أبناء الطلقاء[٥] الذين لا تحل لهم الخلافة ؛ وقد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٣٦٠ ـ ٣٦٤ والطبراني برجال ثقات ، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٣٤٦

(٢) أرسله بعد مشاورة أصحابه ورغم معارضة الأشتر النخعي لهذا الاختيار .

(٣) مرت الإشارة للكتاب ، وقارن أيضاً مع الأخبار الطوال ص ١٥٧ العقد الفريد ٤/ ٣٢٢ مروج الذهب ٢/ ٤١٢ ونهج البلاغة . الإمامة والسياسة (١/ ١١٣ من تحقيقنا) .

(٤) زيد في النهج : بطعنٍ أو بدعة .

(٥) الطلقاء جمع طليق ، وهو الأسير الذي أطلق عنـد أساره وخلي سبيله ويـراد بهم الذين خلى عنهم =

وجّهت إليك بجرير بن عبد الله البجلي ، وهـو من أهل الإيمـان والهجرة ؛ وأحب الأشياء إليّ فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت قابلتك واستعنت الله عليك ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ والسلام ـ .

قال : ثم طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى جرير ، فلما أراد جرير أن يرحل إلى معاوية أقبل مسكين بن حنظلة وهو رجل من الصالحين إلى جرير [وقال][1] إن بيني وبين معاوية مودة وإخاءً قديماً فاحمل إليه كتابي هذا وانظر ما يرد عليك .

قال : فأخذ جرير كتاب عليّ وكتاب مسكين بن حنظلة ، وسار بالكتابين حتى صار إلى الشام ، ودخل على معاوية فسلم ، فرد عليه معاوية السلام وقرّبه وأدناه ، ثم قال : هات ما عندك يا جرير ! فقال جرير : والله ! إنه قد اجتمع لابن عمك عليّ بن أبي طالب أهل الحرمين : مكة والمدينة ، وأهل العراقين : البصرة والكوفة ، وأهل الحجاز وأهل اليمن ؛ فلم يبق في يديك إلا هذه الحصون التي أنت عليها ، ولو سال عليها سيل من أوديته لغرّقها وقد أقبلت إليك أدعوك إلى ما يرشدُك ويهديك إلى اتباع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على أنه يعطيك أرضك التي أنت عليها ، فتعمل فيها بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسول الله ﷺ وما أنزل الله من الحق والسنن ، فتكون كذلك أبداً ما دام عليّ حياً ، فإن مات وأنت حي رأيت رأيك بعد ذلك ، وأما أمر عثمان بن عفان فأنت تعلم يا معاوية أنه قد أعيى من شهده فكيف من غاب عنه ! وهذا كتاب علي رضي الله عنه إليك .

قال : فأخذ معاوية الكتاب فقرأه حتى أتى على آخره ، ثم أقبل على جرير فقال : أبا عمر ! انظر في ذلك وتنتظر أنت أيضاً واستطلع رأي أهل الشام .

قال : فأخرج جرير كتاب مسكين بن حنظلة فدفعه إليه ، فإذا فيه أبيات من الشعر مطلعها :

معـاويّ بـايـع قـد أتـاك جـريـر ... ومـا لـجـريـر بـالـعـراق نـظيـرُ

إلى آخرها .

قال : فلما قرأ معاوية هذا الكتاب غضب لذلك ، ثم أقبل على أصحابه فقال :

= رسول الله (ص) يوم فتح مكة وأطلقهم ولم يسترقهم .

(١) زيادة اقتضاها السياق .

أيكم يجيب مسكين بن حنظلة على شعره هذا ؟ فقال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : أنا أجيبه ، فقال : أجبه يابن الأخ ! وألقى الكتاب إليه ، فقال عبد الرحمن بن خالد أبياتاً من الشعر مطلعها :

أتانا بإحدى المنكرات جرير وخطب الذي يدعو إليه كبيرُ

إلى آخرها .

ثم عرض عبد الرحمن بن خالد شعره هذا على معاوية ، فقال معاوية : ما رأيت شعر قرشي قط أضعف من شعرك ، ثم قال : أنا أجيب عنك يا بن أخ وعن نفسي ؛ ثم أنشأ يقول أبياتاً من الشعر مطلعها :

قل لمن أرسل الرسول إليّا إن كلّ الذي تريد لديّا

إلى آخرها .

قال : وانصرف جرير إلى رحله ودخل معاوية إلى منزله ، فلما جن عليه الليل رفع صوته وعنده نفر من أهل بيته ، فأنشأ يقول أبياتاً مطلعها[1] :

تطاول ليلي واعْتَرتْنِي وساوسي لِآتٍ أتي بالتُّرَّهات البسابسِ[2]

إلى آخرها[3] .

فلما أصبح جرير أقبل إلى المسجد الأعظم فاجتمع إليه الناس وحضر معاوية ، فجعل جرير يعظهم ويدعوهم إلى بيعة علي رضي الله عنه ، ثم قال : أيها الناس ! إن هذا الدين لا يحتمل الفتن ، وإن الناس قد بايعوا علياً غير واتر ولا موتور ، وقد كانت البصرة أمس ملحمة لم يسمع بمثلها ، وقد بايعنا عليَ بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(١) وقعة صفين ص ٣٣ الكامل للمبرد ١ / ٤٢٣ .

(٢) الترهات : الأباطيل ، والبسابس جمع بسبس وهو القفر الواسع يريد اتساع الأباطيل .

(٣) وبعده في وقعة صفين :

أتانا جرير والحوادث جمة بتلك التي فيها اجتداع المعاطس
أكابده والسيف بيني وبينه ولست لأثواب الدني بلابس
إن الشام أعطت طاعة يمنية تواصفها أشياخها في المجالس
فإن يجمعوا أصدم علياً بجبهة تفت عليه كل رطب ويابس
وإني لأرجو خير ما نال نائل وما أنا من ملك العراق بآيس
والا يكونوا عند ظني بنصرهم وإن يخلفوا ظني كف عابس

على ما بايعه المهاجرون والأنصار ، ولو ملكنا أمورنا لم نختر للخلافة أحداً سواه ، فاتق الله يا معاوية واحذر في نفسك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ؛ فادخل فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت بأن عثمان بن عفان استعملني ولم يعزلني فإن الأمر لو جاز كما قلت لم يقم لله دين وكان لكل امرىء ما في يديه ، ولكن قد جعل الله تبارك وتعالى للآخر من الولاء مثل حق الأول ـ والسلام ـ .

قال : فلما سمع معاوية كلام جرير وثب فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الله عزَّ وجلّ قد جعل الدعائم للإسلام أركاناً ، وجعل الشرائع للإيمان برهاناً ، يتوقد مقباسه[1] في الأرض المقدسة التي جعلها الله تعالى محل الأنبياء والصالحين من عباده ، فأدخلها وأحلّها أهل الشام ، ورضيهم لها سكاناً لما سبق في ذلك من مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم لخلفائهم وللقيام بأمره ، والذبّ عن حرمه ودينه ، ثم[2] جعل لهذه البلدة الآمنة نظاماً ولسننه أعلاماً . وبالله نستعين على ما تشعب من أمور المسلمين وتباعد من فرقتهم ، اللهم فانصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ويخيفون قاعدنا[3] ويريدون إراقة دمائنا وإخافة سبلنا ، وقد علم الله أني لا أريدهم عقاباً ولا أهتك لهم حجاباً ، ولكن الله تبارك وتعالى قد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه منا أبداً ما جاوب الصدى ، وما سقط الندى وعرف الهدى ، وبالله نستعين على حسد الأعداء ـ والسلام ـ .

قال : ثم جلس على المنبر ساعة وقام قائماً على قدميه فقال : أيها الناس ! قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان[4] ، ولم أقم على خزاية[5] قط ، وقد قتل عثمان مظلوماً وأنا وليّه ، والله عزَّ وجلّ يقول : ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطٰناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا** * ﴾[6] وأنا أحب أن تعلموني بما في أنفسكم من قتل عثمان ! فقال : فوثب إليه الناس من

---

(١) وقعة صفين ص ٣١ : قبسه . والقبس : النار أو الشعلة منها .

(٢) وقعة صفين : ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً ، وفي سبيل الخيرات أعلاماً يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين .

(٣) ويخيفون آمننا .

(٤) زيد في وقعة صفين : عليكم .

(٥) يريد أنه لم يرد أن يعمل عمل ما يستحيى منه .

(٦) سورة الإسراء : ٣٣ .

جنبات المسجد فقالوا : نحن كلنا طالبون بدم عثمان(١) .

قال : وبلغ ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأراد أن يعجل بالمسير إلى الشام ، فأشار عليه عامة الناس بالمقام بالكوفة إلا هؤلاء الخمسة نفر : الأشتر النخعي ، وعدي بن حاتم الطائي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وهانىء بن عروة المدحجي(٢) ، فإنهم قاموا إلى عليّ فقالوا : يا أمير المؤمنين ! إن هؤلاء الذين أشاروا عليك بالمقام إنما يخافون حرب أهل الشام ، وليس في حربهم شيء هو أخوف من الموت ، ولسنا نريد إلا الموت ، فسر بنا إليهم ، وفقك الله لما تحب وترضى ! قال : فأطرق عليّ ساعة ثم قال : إنه ليس يتهيأ لي المسير إليهم ورسولي عندهم ، وقد وقتّ لرسولي وقتاً لا يتأخر عنه إلا مخدوعاً أو عاصياً ، فاسكتوا ولا تعجلوا ! قال : فسكت الناس ، وأنشد النجاشي بن الحارث شعراً .

قال : وجعل جرير كل ما استعجل معاوية واستحثّه في رد الجواب يقول معاوية : ويحك أبا عمرو ! لا تعجل وأبلعني ريقي حتى أنظر في أمري وأستطلع رأي أهل الشام ، ثم إني أجيب صاحبك عن كتابه وكرامته لك .

[كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص](٣)

قال(٤) : ثم كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وعمرو يومئذ بفلسطين : أما بعد ! فقد كان من أمر عثمان بن عفان ما علمت ، وأن علي بن أبي طالب قد اجتمع إليه رافضة أهل الحجاز وأهل اليمن والبصرة والكوفة ، وقد وجّه إلينا رسوله جرير بن عبد الله ولم أجبه إلى هذه الغاية بشيء ، وقد حبست نفسي عليك ؛ فاقدم على بركة الله وعونه لأشاورك وأستعين على أمري برأيك ـ والسلام ـ .

قال : فلما ورد كتاب معاوية على عمرو بن العاص وقرأه دعا ابنيه عبد الله

---

(١) زيد في وقعة صفين : وبايعوه على ذلك ، وأوثقوا له على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم أو يدركوا بثأره ، أو يفني الله أرواحهم .

(٢) في الإمامة والسياسة ١١٤/١ : الأشتر النخعي وعدي بن حاتم وشريح بن هانىء .

(٣) استدرك للإيضاح .

(٤) الإمامة والسياسة ١١٥/١ وقعة صفين ص ٣٤ الأخبار الطوال ص ١٥٧ تاريخ اليعقوبي ١٨٤/٢ باختلاف النصوص .

ومحمد فاستشارهما في ذلك ، فقال عبد الله : أما أنا فأقول : إن النبي ﷺ خرج من الدنيا وهو عنك راضٍ وكذلك الخليفتان من بعده : أبو بكر وعمر ، وأما عثمان فإنه قتل وأنت عنه غائب ، وقد وسع الله عليك فاقعد في بيتك ، فإنك لا تطمع أن تكون خليفة ، وليس ينبغي لك أن تكون حاشية معاوية على دنيا قليلة[1] زائلة عن أهلها ـ والسلام ـ .

وقال ابنه محمد : أما أنا فأقول : إنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، وإن اضطرب هذا الأمر وأنت عنه غائب[2] لصغر أمرك ويذهب قدرك ، فالحق بجماعة من أهل الشام فكن يداً من أيديها واطلب بدم عثمان بن عفان ، فلست أقلّ من معاوية .

فأطرق عمرو ساعة ثم قال : أما أنت يا عبد الله فأشرت عليّ بما هو خير لي في دنياي وديني ، وأما أنت [يا محمد] فأشرت عليّ بما هو خير لي في دنياي ، وسأنظر في ذلك . فلما جنّ عليه الليل رفع صوته وجعل يقول شعراً[3] .

قال : ثم أدنى عمرو غلاماً يقال له وردان فقال له : ارحل يا وردان ! فعبّى له الأثقال وترحل ، فقال له عمرو : حطّ يا وردان ! فحط ؛ ثم قال : ارحل يا وردان ! فرحل ، فلم يزل عمرو يقول : ارحل وحطّ ؛ فقال له وردان : أبا عبد الله ! ما شأنك ؟ أخولطت ؟ فقال عمرو : لا ، قال : فما قصتك ؟ مرة تقول : ارحل يا وردان ، ومرة تقول : حط يا وردان ! فقال عمرو : لا أدري ؛ قال وردان[4] : لكني أدري ، والله ! أنت رجل قد اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : إن علياً معه آخرة بلا دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا ، ومعاوية معه دنيا بلا آخرة ، وليس في الدنيا عوض من الآخرة ؛ فأنت واقف بين أمرين لا تدري أتأخذ الدنيا أم الآخرة ؛ فقال عمرو : لله أبوك يا وردان ! ما أخطأت شيئاً ، ولكن هات ما عندك من الرأي ، فقال وردان : عندي والله من الرأي أن تجلس في بيتك ، فإن الله تبارك وتعالى قد

---

(١) وقعة صفين ص ٣٤ : دنيا قليلة ، أوشك أن تهلك فتشقى فيها .

(٢) وقعة صفين : وأنت فيه خامل .

(٣) الأبيات في تاريخ اليعقوبي ٢/١٨٥ وقعة صفين ص ٣٥ . ومطلعها :

تطاول ليلي للهموم الطوارق ... وخوف التي تجلو وجوه العواتق
وان ابن هند سائلي أن أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائق
أتاه جرير من علي بخطة ... أمرت عليه العيش مع كل ذائق

(٤) في الإمامة والسياسة ١/١١٦ أما إنك إن شئت نبأتك بما في نفسك .

وسع عليك ، فإن ظفر أهل الدين عشت في دينهم ، وإن ظفر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ؛ فقال عمرو : يا وردان ! الآن أقعد في بيتي وقد[1] سمعت العرب بتحريكي إلى معاوية ، ارحل يا وردان ! فرحل وردان ، وأنشأ عمرو يقول شعراً[2] .

قال : وسار عمرو حتى قدم على معاوية ، فقرّبه وأدناه ورفع مجلسه ثم قال : أبا عبد الله ! إنه قد طرقتنا من هذه الليلة أخبار[3] ليس منها ورد ولا صدر ، فقال عمرو : وما ذلك يا معاوية ؟ فقال معاوية أما أحد الأخبار فإن محمد بن [أبي] حذيفة كسر سجن مصر فخرج منه وخرج معه أصحابه ، وقد علمتَ أنه [من] أفات الدين[4] ؛ والخبر الثاني أن قيصر ملك الروم قد زحف بخيله ورجله ليغلب على الشام ؛ والخبر الثالث أن[5] علي بن أبي طالب نزل الكوفة فتهيأ للمسير إلى ما قبلنا ؛ فهات ما عندك ! فقال عمرو : كلّ ذلك عظيم ، فأما محمد بن أبي حذيفة فتبعث إليه بالخيل فإما أن يقتل وإما أن يهرب ، ولن يضرك هربه ؛ وأما ملك الروم فتهدي إليه الهدايا من أواني الذهب والفضة وغير ذلك من أنواع الهدايا من طرائف الشام وتسأله الموادعة ، فإنه يجيبك إلى ذلك ؛ وأما علي بن أبي طالب فلا والله لا تخالفه ولا تقاتله . قال معاوية : ما قد قطع الرحم وفتن الأمة وشق العصا وقتل الخليفة وعصى ربه ، وقتل ونقض ما كان في عنقه من بيعة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فقال عمرو : مهلاً يا معاوية ! فإن علياً أوحد الناس في الفضائل ، وليس لك مثل هجرته ولا سابقته ولا صهارته ولا قرابته ولا قدمته ولا شجاعته ، وإن له من الحرب حظاً سنياً ليس لأحد مثله ، وإن له جدّاً وحدّاً[6] وحظوة في العرب ، وبلاء من الله

---

(١) في تاريخ اليعقوبي والإمامة والسياسة : وقد شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية .

(٢) الأبيات في تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٨٥ (بيت واحد) ووقعة صفين ٣٦ ومطلعها :

يا قاتل الله وردانا وفطنته ... أبدى لعمرك ما في الصدر وردان

لما تعرضت الدنيا عرضت لها ... مجرص نفسي وفي الأطباع إدهان

في أبيات أخرى (وقعة صفين) .

(٣) وقعة صفين : ثلاثة أخبار ، وفي الأخبار الطوال : طرقتنا في هذه الأيام ثلاثة أمور .

(٤) الأخبار الطوال : وهو من أعدى الناس لنا .

(٥) الأخبار الطوال : وأما الثالثة فإن جريراً قدم رسولاً لعلي بن أبي طالب يدعونا إلى البيعة له أو إيذان بحرب .

(٦) الحد : الحدة والنشاط والسرعة في الأمور والمضاء فيها . والجد : الحظ (بالفتح) ، والجد (بالكسر) الاجتهاد .

ورسوله حسناً جميلاً ؛ فقال معاوية : صدقت يا أبا عبد الله ! هو كذلك ، ولكنا نقاتله على ما في أيدينا ونلزمه دم عثمان بن عفان ؛ فضحك عمرو من ذلك ثم قال : واعجباه لهذا الكلام الذي أسمعه منك يا معاوية ! إنه قد يجب عليّ وعليك أن لا نذكر شيئاً من أمر عثمان ؛ أما أنت فخذلته حين استغاث بك وهو محصور بالمدينة فلم تنصره ، وأما أنا فإني تركتُه عياناً وذهبت إلى فلسطين ، فقال معاوية : إني لو أردت أن أخدعك لخدعتك ، فقال عمرو : ليس مثلي يُخدع ؛ فقال معاوية : صدقت ، وإني أحب أن أقول شيئاً فهات أذنك ! فناوله عمرو أذنه، فعضّها معاوية ، فقال : أبا عبد الله ! خدعتك أم لا ؟ هل في البيت غيري وغيرك ؟ كيف تدفع إليّ أذنك وما معنا ثالث إلا الله تعالى ؟ ولكن دع عنك هذا وهات فبايعني ! فقال عمرو : لا والله ! ما أعطيك من ديني شيئاً أو آخذ منك مثله ، فهات ما الذي تعطيني ؛ فقال معاوية : أعطيك رضاك ، قال عمرو : رضاي أرض مصر ، قال معاوية : إن مصرك كالعراق ، قال عمرو : صدقت ، إنها لكذلك ، ولكنها تكون لي إذا كانت العراق لك ؛ قال : فثقل ذلك على معاوية وأبى أن يعطيه أرض مصر ، وخرج عمرو فصار إلى رحله ؛ وبعث معاوية عليه عيناً ليسمع ما يقول . فلما جنّ عليه الليل رفع صوته وأنشأ يقول شعراً[١] .

قال : فلما أصبح معاوية أقبل إليه أخوه عتبة فقال : أخبرني عنك ، ألا[٢] ترضى أن يأخذ عمرو بن العاص مصر وقد عزم أن يبيعك خيط رقبته ؟ أعطه ما سألك ! فإنك في وقتك هذا لا مصر في يدك ولا غيرها ؛ ثم أنشأ في ذلك يقول شعراً[٣] .

---

(١) الأبيات في تاريخ اليعقوبي ١٨٦/٢ وقعة صفين ص ٣٩ مروج الذهب ٣٩١/٢ ومطلعها :

معاوي لا أعطيك ديني ، ولم أنل ... به منك دنيا ، فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصراً فاربح بصفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفع

في أبيات أخرى .

(٢) الأخبار الطوال ص ١٥٨ وقعة صفين ٣٩ : أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن صفت لك فليتك لا تغلب على الشام .

(٣) الأبيات في الأخبار الطوال ص ١٥٩ ووقعة صفين ص ٣٩ - ٤٠ مطلعها :

أيها المانع سيفاً لا يهز ... إنما ملت على خز وقز
إنما أنت خروف ناعم ... بين ضرعين وصوف لم يجز

في أبيات أخرى .

قال : فلما سمع معاوية شعر أخيه عتبة بعث إلى عمرو فدعاه وأعطاه مصر ، وكتب له بها كتاباً وأثبت في الكتاب : لا ينقض طاعةٌ شرطاً ولا شرطٌ طاعةً ؛ وأخذ عمرو الكتاب وانصرف إلى منزله مسروراً ، فقال له ابن عم له : أبا عبد الله ! ما لي أراك فرحاً مستبشراً وقد بعت دينك بدنياك ، أتظن أن أهل مصر يسلمون إليك مصر وهم الذين قتلوا عثمان بن عفان ؟ فتبسم عمرو ثم قال : يـابن أخ ! إن الأمـر لله عزّ وجلّ دون عليّ ومعاوية ؛ قال : فأنشأ ذلك الفتى يقول شعرا[1] . قال : فقال له عمرو : يـابن أخ ! إني لو كنت مع عليّ لوسعني بيتي ولكني مع معاوية ، فقال له الفتى : اما معاوية فإنه لم يردك ولكنه أراد دينك وأردت دنياه ـ والسلام ـ .

قال : وبلغ ذلك معاوية وما تكلم به الفتى معه وهمّ بقتله ، فهرب فصار إلى عليّ رضي الله عنه فحدثه بالقصة وكيف بايع عمرو معاوية ، فقرّبه عليّ وأدناه وفرض له في كل أصحابه .

قال : وغضب مروان بن الحكم ، ثم دخـل على معاويـة فقال : مـا لي لا أشترى كما يشترى غيري ، فقال معاوية : إني[2] إنما ابتاع الرجال لك ؛ قـال : فسكت مروان .

قال جعفر بن محمد يحدث عن أبيه عن عبادة بن الصامت أنه نظر إلى معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ، فجاء حتى جلس بينهما فقال له أحدهما : أمـا لك مكان غير هذا ؟ فقال عبادة : بلى ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وقد نظر إليكما فأطال النظر ثم قال : « إذا رأيتم معاوية وعمراً مجتمعين ففرّقوا بينهما فإنهما لا يجتمعان على خير » .

قال : وأصبح معاوية بعد ما بايعه عمرو بن العاص فإذا برقعـة مطويـة على بساطه ، فأخذهـا ونظر فيهـا ، فإذا فيهـا أبيات من الشعـر . قال : فـدعا معـاوية

---

(١) الأبيات في وقعة صفين ص ٤١ ومطلعها :

الا يـا هـنـد أخـت بـنـي زيـاد	دُهـي عـمـرو بـداهـيـة الـبـلاد
رمـي عـمـرو بـأعـور عـبـشـمـي	بـعـيـد الـقـعـر مـخـشـي الـلـيـاد
لـه خـدع يـحـار الـعـقـل فـيـهـا	مـزخـرفـة صـوائـد لـلـفـؤاد

في أبيات أخرى .

(٢) الإمامة والسياسة ١١٨/١ اسكت يابن عم ، فإنما يشترى لك الرجال .

بعبد الرحمن بن خالد المخزومي ، فقال : إني أظن هذه الرقعة لك ، قال : نعم هي لي ، فقال معاوية : لا تفعل يـابن أخ ! فإن عمراً كان رأساً في الجاهلية وعلماً في الإسلام ولا ينبغي لك أن ألحقك به في العطاء وسأفعل بك جميلاً ؛ قال : فسكت عبد الرحمن بن خالد . وبلغ ذلك عمرو بن العاص ، فأقبل إلى عبد الرحمن فقال : يـابن أخ ! أما علمت أن قريشاً اختارت رجلين في أيام النجاشي فكنتُ أنا أحدهم ؟ أما والله ! لو كان أبو سليمان خالد بن الوليد في الأحياء لم أرض منك بهذا أبداً ؛ ثم أقبل عمرو حتى دخل على معاوية فقال : يا هذا ! إني والله لم أزل أسمع في كل يوم من سفهاء قريش مثل هذا وأشباهه أبداً ، فلعنة الله على مصر ! والله لقـد استعملني على مصر من هو خير منك ومن عثمان ، ولقد استعملني النبي ﷺ على عمان فأقلني يا هذا حتى أجلس في بيتي وأنت محسن ـ وأنشده شعراً ؛ فقال معاوية : يا هذا ! والله لقد أكثرت ولم تكن مكثاراً وأحببت أقواماً ما كنت أدفعك عن جوابهم ، وحسبك بأن يقال : قال عمرو وقيل لعمرو ، فإنك إن كاشفت القوم كاشفوك .

ذكر جواب علي لجرير
ابن عبد الله البجلي[1]

أما بعد يا جرير ! فإن معاوية إنما أراد بكتابه هذا أن يجعل لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما يحب ، وإنما احتبسك عنده ليذوق أهل الشام ، وقد علمتَ يا جرير أن المغيرة بن شعبة أشار عليّ وأنا بالمدينة أن أستعمل معاوية على الشام[2] ، فلم أفعل ولم يكن الله تبارك وتعالى ليراني وأنا أتخذ المضلين عضداً ؛ فانظر ! إن بايعك الرجل وإلا فاقبل ولا تكن رخو الجنان ـ والسلام ـ .

قال : وفشا كتاب معاوية إلى علي في الناس بالذي يطلبه من عليّ فلم يجبه إلى ذلك ، فكتب الوليد بن عقبة إلى معاوية أبياتاً مطلعها :

---

(١) كذا ، وكان معاوية قد أتى جريراً في منزله فقال له : يا جرير إني قد رأيت رأياً ، قال : هاته . قال : اكتب إلى صاحبك أن يجعل لي الشام ومصر جباية : فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده في عنقي بيعة ، وأسلم هذا الأمر إليه . وأكتب إليه بالخلافة . قال جرير : اكتب ما شئت .
فكتب إلى علي يسأله ذلك . فلما أتى علياً كتاب معاوية عرف أنها خدعة منه . فكتب إلى جرير . . .
(الإمامة والسياسة ١/١١٥ وقعة صفين ص ٥٢) .

(٢) مرت نصيحة المغيرة بن شعبة لعلي (رض) .

معاويَ إن الشام شامك فاعتصم   بشامكَ لا تدخل عليك الأفاعيا
إلى آخرها[1] .

ذكر كتاب آخر من علي بن أبي طالب إلى جرير بن عبد الله البجلي

قال : وإذا كتاب آخر قد ورد على جرير من علي رضي الله عنه[2] : « أما بعد يا جرير ! إذا أتاك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تعامل معاوية على الفصل[3] واحنقه بالجواب ، ثم خيِّره بين حرب مجلية أو سلم مقرِّبة[4] ، فإن اختار الحرب فاكتب إليّ بذلك ، وإن اختار السلم فاستوثق منه ما تقدر عليه ، وعجل القدوم عليّ - والسلام - .

قال : ثم كتب النجاشي[5] شاعر علي رضي الله عنه إلى جرير أبياتاً من الشعر مطلعها :

ألا ليت شعري والحوادث جمّة   اللعب سار المالكي جرير
إلى آخرها .

قال : فلما ورد الكتاب على جرير أخذه وأتى به إلى معاوية فأقرأه إياه ثم قال : يا معاوية ! أما إني قد تأنيتك إلى وقتي هذا ، ولا والله ما أظن قلبك إلا مطبوعاً ! وكذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، وإني لأراك قد وقفت على الحق والباطل وقوف رجل ينتظر شيئاً في يد غيره ، ولا أظنك مبايعاً حتى لا تجد بدّاً من الصلاة ، وهذا كتاب أمير المؤمنين وقد ورد عليّ ، فإما أن تبايع حتى أعلم ذلك فأكتب إلى صاحبي ببيعتك ، وإما أن تختار الحرب فأعمل على حسب ذلك ! فقال معاوية : نعم

---

(١) الأبيات في وقعة صفين ص ٥٢ - ٥٣ وبعده :

وحام عليها بالقنابل والقنا   ولا تك محشوش الذراعين وانيا

(٢) وكان جرير قد أبطأ عند معاوية حتى اتهمه الناس وقال علي : وقتّ لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً . ولما آيس منه كتب إليه يستعجله بت الأمر وفصله وأخذ البيعة من معاوية .

(٣) في النهج : وخذه بالأمر الجزم .

(٤) النهج : « سلم مخزية » وفي وقعة صفين : سلم محظية .

(٥) اسمه قيس بن عمرو بن مالك ، من بني الحارث بن كعب .

وكرامة أبا عمرو ! والله ما انتظاري إلا على رجل واحد وهو شرحبيل بن السمط بن الأسود بن جبلة الكندي ، وذلك لأنه سيد من سادات أهل الشام ولا أحب أن أقطع أمراً دونه ، فإذا قدم عليّ نظرت ما الذي عنده من الرأي ، ثم إني ألقاك في أول المجلس بالفصل إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : فانصرف جرير إلى رحله ، واتصل الخبر بالوليد بن عقبة ، فأقبل على من كان عنده من بني أمية فقال : ألا تعجبون من معاوية ومن حبسه جريراً عنده لا يوجهه إلى صاحبه ويعزم على حربه ؟ والله ! لقد بلونا من تربص معاوية لعثمان بن عفان وقعوده عنه ما قد اكتفينا به ، ولكن والله لأحركن أخاه عتبة فلعله أن ينهض إلى حرب علي رضي الله عنه ، فليس عتبة بدون معاوية ؛ قال : ثم كتب الوليد بن عقبة إلى عتبة بن أبي سفيان أبياتاً من الشعر مطلعها :

أعتبة حرّك من أخيك ولا تكن   فولّ الهوينا إن أراد مؤاتيا

إلى آخرها .

قال : فلما وردت هذه الأبيات على عتبة بن أبي سفيان غضب لذلك ثم قال : إنما أراد الوليد أن يخطب إلى عقلي ، أيرجوني لأمر ومعاوية ، جنّ والله ما أنصفنا الوليد ولا أراد بذلك إلا تحريض بعضنا ببعض ! وليس هذا جزاؤنا منه إذ نصبنا جباهنا ونحورنا لسيف علي بن أبي طالب غضباً لابن عمه عثمان بن عفان وهو بالحجاز متكئاً على الحشايا ؛ ثم أجابه عتبة بن أبي سفيان أبياتاً من الشعر مطلعها :

كرهت أبا وهب قراع العواليا   وحسبك أن تهدي إليّ القوافيا

إلى آخرها .

قال : ثم بعث معاوية مالك بن هبيرة الكندي إلى محمد بن أبي حذيفة فحاربه فقتله[1] ؛ ثم بعث إلى قيصر ملك الروم بالهدايا فواعده ؛ ثم دعا عمرو بن العاص فقال : أبا عبد الله ! هات الآن ما ترى في علي بن أبي طالب ، فقال عمرو : أرى فيه خيراً ، إنه قد أتاك هذا خير أهل العراق جرير من عند خير الناس علي بن أبي طالب ، ورد هذه البيعة خطر شديد وأمر عظيم ؛ ورأس أهل الشام اليوم شرحبيل بن السمط الكندي وهو عدو لجرير ، فأرسل إليه وعبّ له رجالاً من ثقاتك يشهدون[2]

---

(١) انظر ابن الأثير ٣٥٣/٢ .

(٢) في وقعة صفين ص ٤٤ « فليفشوا في الناس » وفي الأخبار الطوال ص ١٥٩ : « يخبرونه » .

بأن علياً قتل عثمان ، ولتكن المستشهدون أهل الرضا فإنها كلمة جامعة ، فإن علقت الشهادة بقلبه لا يخرجها شيء أبداً .

قال : فدعا معاوية يزيد بن أسد[1] ، وبسر بن [أبي] أرطاة ، ومخارق بن الحارث ، وحمزة بن مالك ، وحابس بن سعد الطائي ، وأبا الأعور السلمي ، والضحاك بن قيس الفهري ، وذا الكلاع الحميري ، والحصين بن نمير السكوني ، وحوشب ذا الظلم ـ وهؤلاء رؤساء الشام يومئذ ـ فجمعهم معاوية ثم قال : أتدرون لماذا جمعتكم ؟ قالوا : لا علم لنا بذلك ، فقال : إن شرحبيل بن السمط سيد من سادات قومه وهو عدو لجرير بن عبد الله البجلي ، وقد عزمت أن أكتب إليه ليصير إليّ فإذا قدم عليّ أخبرته أن علياً قتل الخليفة عثمان بن عفان ؛ فإن طلب مني شهادة كنتم أنتم الشهود لي على ذلك ؛ فقال القوم : كفئت يا معاوية ! فوجهْ إليه .

فعندها كتب إليه معاوية وشرحبيل يومئذ بمدينة حمص : أما بعد ! فإن جريراً قدم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر فظيع ، فاقدم إلينا رحمك الله ! فإننا نريد أن نستشيرك في أمرنا ، وقد حبسنا عليك أنفسنا وعلى مشورتك ـ والسلام ـ .

قال : فلما ورد كتاب معاوية على شرحبيل وقرأه أقبل إلى عبد الرحمن بن غنم[2] الأزدي وهو صاحب معاذ بن جبل وكان أفقه أهل الشام ، فاستشاره في المسير إلى معاوية ، فقال له عبد الرحمن : ويحك يا شرحبيل ! إن الله تعالى لم يزل يريد بك خيراً مذ هاجرت إلى وقتك هذا ! وإنه لن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس ، ولا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأنت رجل من خيار كندة ، وإن القالة قد فشت في الناس أن علياً قتل عثمان ، ولو كان عليّ قتله لما بايعه المهاجرون والأنصار وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم الحكّام على الناس ! وإنما معاوية إنما يدعوك إلى نفسه ليأخذ من دينك ويعطيك من دنياه كما فعل بعمرو بن العاص ، فإن كان ولا بد أن تكون أميراً فسر إلى علي بن أبي طالب ، فإنه أحق الناس بهذا الأمر من معاوية وغير معاوية ؛ ثم جعل يقول أبياتاً مطلعها[3] :

---

(١) عن وقعة صفين ص ٤٤ ، وبالأصل : أنس .

(٢) عن وقعة صفين ص ٤٥ ، وبالأصل : اليماني .

وعبد الرحمن بن غنم الأزدي ، مختلف في صحبته مات سنة ٧٨ . انظر الاصابة رقم ٥١٧٣ و٦٣٧١ .

(٣) الأبيات في وقعة صفين ونسبها إلى عياض الثمالي ، قال : فبعث إليه عياض الثمالي ، وكان ناسكاً (ص ٤٥) .

أيا شرحُ يابن السمط إنك بالغٌ   بأخذ[1] عليّ ما تريد من الأمرِ[2]

إلى آخرها .

قال : فلما سمع شرحبيل بن السمط هذا الشعر كأنه وقع بقلبه ، ثم أقبل على عبد الرحمن بن غنم فقال : إني سمعتُ ما قلت وقد أحببت أن أسمع كلام معاوية في نفر من بني عمه . وكتب إليه الأسود بن عبد الله أبياتاً من الشعر ، فوافاه الكتاب من قبل أن يصير إلى معاوية مطلعها :

أيا شرحُ يابن السمط لا تتبع الهوى   فما لك في الدنيا من الدين بالبدل[3]

إلى آخرها .

قال : فلما تفهّم شرحبيل هذا الشعر ذعر منه ذعراً شديداً وأفكر في أمره ثم قال : هذه والله نصيحة لي في ديني ودنياي ! لا والله لا عجلت في هذا الأمر بشيء وفي نفسي منه حاجة ! قال : ثم سار حتى دخل على معاوية ، فقرّبه معاوية وأدناه ثم قال : يا أبا السمط ! إن جرير بن عبد الله قد أتى من الكوفة يدعو إلى بيعة علي بن أبي طالب ، ولسنا نشك في عليّ أنه خير فاضل لولا أنه قتل الخليفة عثمان بن عفان ، وقد حبستُ نفسي عليك لأنك رجل من سادات كندة وأنا واحد منكم ، أرضى بما ترضون وأكره ما تكرهون ، فهات ما عندك ! فقال شرحبيل : إني سمعتُ مقالتك ولستُ أقضي على غائب ، ولكن تؤخرني الليلة حتى أصبح وأسأل غيرك عن هذا الأمر ، فإن شهدا عندي رجلان من سادات أهل الشام أن علياً قتل عثمان صدقتك وقاتلتُ بين يديك أنا وجميع من أطاعني من قومي ؛ ثم انصرف شرحبيل إلى رحله .

---

(١) وقعة صفين : يود .

(٢) أيا شرح : مرخم شرحبيل .

وبعده :

ويا شرح إن الشام شامك ما بها   سواك فدع قول المضلل من فهر

فإن ابن حرب ناصب لك خدعة   تكون علينا مثل راغية البكر

في أبيات .

(٣) وقعة صفين ص ٤٨ وبعده :

وقل لابن حرب ما لك اليوم حرمة   تروم بها ما رمتَ ، فاقطع له الأمل

في أبيات .

فلما أصبح وجّه إليه معاوية بالقوم الذين أعدهم له ، فشهدوا عنده أن علياً قتل عثمان ؛ قال : فعندها أقبل شرحبيل حتى دخل على معاوية فقال : يا هذا ! لقد شهد عندي العدول أن علياً قتل الخليفة ظلماً ، ووالله لئن أنت بايعته لنخرجنك من الشام ! فاردد الرجل إلى صاحبه ، فوالله ما لصاحبه عندنا إلا السيف . قال : فجعل ابن أخت شرحبيل[1] يقول أبياتاً من الشعر مطلعها :

رمى شرحبيل بالدواهي وقد رمى هنالك[2] بالسهم الذي هو قاتله

إلى آخرها .

قال : فهمَّ معاوية بقتل قائل هذا الشعر ، فهرب حتى صار إلى علي بن أبي طالب ، وحدثه الحديث على جهته من أوله إلى آخره ، فقربه عليّ وأدناه وفرض له في أصحابه .

قال : وبعث النجاشي شاعر علي إلى شرحبيل بن السمط الكندي أبياتاً من الشعر مطلعها :

أيا شرحُ ما للدين فارَقْتَ أمرنا ولكن لبغض المالكيّ جرير[3]

إلى آخرها .

قال : فلم يلتفت شرحبيل إلى هذه الأبيات وأقبل حتى دخل على جرير بن

(1) في وقعة صفين : ابن اخت له من بارق .

(2) وقعة صفين ص ٤٩ :

لعمر أبي الأشقى ابن هند لقد رمى شرحبيل ....

وبعده :.

ولف قوماً يسحبون ذيولهم جميعاً وأولى الناس بالذنب فاعله

في أبيات أخرى .

(3) وقعة صفين ص ٥١ وكان النجاشي صديقاً لشرحبيل . وبعده أبيات أخرى منها :

وشحناء دبت بين سعد وبينه فأصبحت كالحادي بغير بعير

أتفصل أمراً غبت عنه بشبهة وقد حار فيها عقل كل بصير

يقول رجالٌ لم يكونوا أئمة ولا للتي لقوكها بحضور

عبد الله فقال : يا هذا ! لقد جئت بأمر ملفف[1] ، أردت أن تلقينا في لهوات الأسد ، وأردت أن تخلط الشام بالعراق ، ولقد أطرأت[2] من ذكر صاحبك عليّ عند أهل الشام ، ما ظنوا أنه على ما تقول ، حتى صحَّ عندنا أنه هو الذي قتل الخليفة عثمان بن عفان ؛ قال : فضحك جرير ثم قال : أما قولك بأني جئت بأمر ملفف ، فكيف يكون ملففاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وقوتل عليه طلحة والزبير ؛ وأما قولك إني أردت أن أخلط الشام بالعراق ، فإن خلطهما على الحق خير من تفريقهما على الباطل ؛ وأما قولك إن صاحبي قتل عثمان بن عفان ، فوالله ما في يديك شيء من ذلك إلا القذف من مكان بعيد والله سائلك عن ذلك يوم القيامة ! ولكنك يا شرحبيل ملت إلى الدنيا كما مال غيرك ، وشيء كان في نفسك عليّ[3] ، وستعلم عن قريب أن العاقبة للمتقين .

ذكر تسريح معاوية جرير بن عبد الله إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال : فخرج شرحبيل من عند جرير مغضباً حتى دخل على معاوية فقال لمعاوية : إننا قد علمنا أنك عامل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ووليه وابن عمه ، فإن كنت رجلاً تجاهد علياً حتى تدرك بثار عثمان وإلا عزلناك واستعملنا على أنفسنا سواك ممن نريد ، ثم جاهدنا معه أبداً أو تفنى أرواحنا ونهلك عن آخرنا . فقال معاوية : ما

---

(١) ملفف : في اللسان : أحاديث ملففة أي أكاذيب مزخرفة . وفيه : اللفف : ما لففوا من ها هنا وها هنا ، كما يلفف الرجل شهادة الزور .

(٢) أطرأت : أطرأ القوم : مدحهم ، نادرة والأعرف بالياء (اللسان) .

(٣) وكان سبب التباعد بين جرير بن عبد الله وشرحبيل بن السمط ـ أن عمر بن الخطاب (رض) كان قد بعث شرحبيل إلى العراق إلى سعد بن أبي وقاص وكان معه ، فقدمه سعد وقربه ، فحسده الأشعث بن قيس لمنافسة بينهما ، فوفد جرير على عمر ، فقال له الأشعث : إن قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل ، فلما قدم على عمر ، سأله عمر عن الناس ، فأحسن الثناء على سعد ، قال ، وقد قال شعراً :

ألا ليتني والمرء سعد بن مالك ... وزبراً وابن السمط في لجة البحر
فيغرق أصحابي وأخرج سالماً ... على ظهر قرقور أنادي أبا بكر

فكتب عمر إلى سعد يسأله أن يرسل زبراً وشرحبيلاً إليه ، فأرسلهما ، فأمسك زبراً بالمدينة وسير شرحبيلاً إلى الشام (ابن الأثير ٢/٣٦٠) .

أنا إلا رجل منكم ، أحارب من تحاربون وأسالم من تسالمون .

قال : ثم أرسل معاوية إلى جرير أن الحق بصاحبك فأخبره بالذي سمعت من مقالة أهل الشام .

قال : فأمر جرير فقدمت أثقاله ، ثم استوى على فرسه وسار حتى قدم على علي رضي الله عنه بعد عشرين ومائة ليلة ، فأخبره بأخبار معاوية وما سمع من أهل الشام ، فقال له الأشتر : والله يا أمير المؤمنين ! لو كنت أرسلتني إلى معاوية لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخى خناقه[1] وأقام حتى لم يدع[2] باباً مفتوحاً إلا أغلقه ولا مغلقاً إلا فتحه ؛ فقال جرير : أما والله لو كنت مكاني لقتلوك ، لأني سمعتهم يقولون بأنك ممن قتل عثمان . ثم أقبل جرير على عليّ رضي الله عنه فقال : والله يا أمير المؤمنين ! ان لو قدروا على هذا أو على محمد بن أبي بكر أو عمار بن ياسر أو حكيم بن جبلة أو مكشوح المرادي لقتلوهم ، ولقد خرجتُ ذات ليلة من رحلي لحاجة لي فنظرتُ إلى غلام من أهل الشام رافعاً صوته وهو يقول أبياتاً من الشعر مطلعها[3] .

حكيم وعمار وشيخ محمد ومالك والمكشوح جرّوا الدواهيا[4]

إلى آخرها .

قال : فقال علي رضي الله عنه ما أخطأ الغلام شيئاً والله ولي عثمان . فقال الأشتر : دعنا يا جرير من أشعار الصبيان ، والله إن لو كنت مكانك لما ثقل عليَّ جوابهم ، ولحملتُ معاوية وأصحابه على خطة أعجله فيها عن الفكر ؛ فقال جرير : فلم لا تأتيهم الآن ؟ فقال : وكيف آتيهم وقد أفسدتهم ؛ قال : ثم أنشأ الأشتر يقول في ذلك أبياتاً من الشعر مطلعها :

---

(١) أي مال حيث شاءت الريح أن يميل ليس بذي رأي أو عزيمة .

(٢) في مروج الذهب ٤١٣/٢ : لم يدع باباً نرجو روحه إلا فتحه ، ولا باباً يخاف منه إلا أغلقه .

(٣) الأبيات في وقعة صفين ص ٥٤ ونسبت إلى ابن المغيرة بن الأخنس بن شريق .

(٤) بعده في وقعة صفين :

وقد كان فيها للزبير عجاجة وصاحبه الأدنى أشاب النواصيا
فأما علي فاستغاث ببيته فلا آمر فيها ولم يك ناهيا
وقل في جميع الناس ما شئت بعده وإن قلت : أخطأ الناس لم تك خاطيا

لعمرك يا جرير لقول عمرو وصاحبه معاوية الشآم[1]

إلى آخرها .

قال وجرى بين الأشتر وجرير كلام كثير .

ذكر أخذ معاوية أهبة الحرب

قال : ثم أقبل معاوية على شرحبيل بن السمط فقال : إنه كان من إجابتك إلى الحق ما وقع أجرك على الله عزَّ وجلّ ، وقبله منك الصالحون وهذا الأمر لا يتم إلا بأمر العامة ، وأريد منك أن تكتب إلى مدائن الشام فتعلمهم بما كان من إجابتهم ، فلعلهم أن يغضبوا للخليفة المظلوم ، فقال شرحبيل : لا ، ولكن أنا أسير إليهم بنفسي فأحرّضهم على ذلك .

قال : ثم سار شرحبيل حتى دخل حمص ، ثم نادى في أهلها فجمعهم ثم قام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل حمص[2] ! اعلموا أن علياً قتل عثمان بن عفان ، وفرق الجماعة ، وواقع بقتل البصرة وقعة لها ما بعدها ، وقد هزم الجميع وغلب على الأرض حتى لم يبق له إلا الشام ، وقد وضع سيفه على عاتقه وعزم على أن يخوض إليكم غمار الموت حتى يأتيكم فينزل بكم ما أنزله بغيركم ، ألا ! وإني لا أجد أحداً هو أقوى على حربه من معاوية ، فخفوا معه وجاهدوا عدو الله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . قال : فأجابه أهل حمص بأجمعهم إلى ذلك[3] . قال : وجعل شرحبيل لا يأتي مدينة من مدائن الشام إلا دعاهم إلى نصر معاوية وحرّضهم على قتال علي بن أبي طالب ، حتى اجتمع إليه خلق كثير ؛ فأقبل بهم إلى معاوية ، فبايعوه على أنهم يقاتلون بين يديه ويموتون تحت ركابه .

قال : فوثب رجل من أهل السكاسك وكان مجتهداً فاضلاً وكان شاعراً واسمه الأسود بن عرفجة ، فوقف بين يدي معاوية وأنشأ وجعل يقول أبياتاً من الشعر مطلعها :

---

(١) الأبيات في وقعة صفين ص ٦١ .

(٢) الأخبار الطوال ص ١٦٠ ووقعة صفين ٥٠ : يا أيها الناس .

(٣) زيد في الأخبار الطوال : إلا نفراً من أهل حمص نساكاً فإنهم قالوا : نلزم بيوتنا ومساجدنا .

كانت الشام قبل شرح وبيل   لِعَليّ ظهرا له حدباء

إلى آخرها .

قال : فقطع عليه معاوية كلامه ثم قال : من هذا الأسد الورد[1] ؟ فقال : هذا والله علي بن أبي طالب أخو رسول الله ﷺ وابن عمه وزوج ابنته وأبو سبطيه الذي قتل جدك وغمّ أمك وأخاك وخالك يوم بدر ! فأنت تطالبه في الإسلام بما فعل في قومك الكفرة الفجرة . فقال معاوية : خذوه ! فوثب إليه غلامان من غلمان معاوية ، وقام إليه شرحبيل فقال : كفّ عنه يا معاوية ! فإنه رجل من سادات قومه ، فلا تؤذيه فأنقض والله ما في عنقي من بيعتك ، قال معاوية : فإني قد وهبته لك .

قال : فهرب الرجل إلى مصر ، ثم كتب إلى علي رضي الله عنه أبياتاً من الشعر مطلعها :

ألا أبلغ أبا حَسَنٍ عليّاً   فكفّى بالذي تهوَى طويله

إلى آخرها .

قال : وأقبل سعيد بن قيس الهمداني إلى علي رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ! إن شرحبيل رجل عمي القلب وقد سار في مدائن الشام فاستنفرهم إلى حربنا ، فأذن لي أن أكتب إليه كتاباً فلعلي أشكّكه فيما هو فيه ، فقال علي : اكتب ما أحببت .

فكتب إليه سعيد بن قيس : أما بعد يا شرحبيل ! فإن أهلك من أرض اليمن غير أنك هاجرتَ إلى الكوفة وانتقلتَ إلى الشام فكنتَ بها ما شاء الله ، حتى إذا قتل عثمان وبايع الناس علياً عبّى لك معاوية رجالاً لا يعرفون الحلال ولا ينكرون الحرام ، فاختدعوك وشهدوا عندك أن علياً قتل عثمان ، ولو نظرتَ بعقلك لعلمتَ أن ذلك باطل وزور ، ولو كان على ما شهدوا عندك أن علياً قتل عثمان لما بايعه

---

(١) يريد البيت :

فاحذر اليوم صولة الأسد الور   د إذا جاء في رحى الهيجاء

المهاجرون والأنصار وهم واضعون أسيافهم على عواتقهم ، يقاتلون معه من خالفه من أهل البصرة وغيرهم من الناس ، فلا تكن رأس الخطيئة ومفتاح البلية ، فإني ما زلت لك ناصحاً وعليك مشفقاً ـ والسلام . ثم أثبت في أسفل كتابه شعراً مطلعها :

أيا شرح يـابن السمـط أصبحت راجعاً على العقب فانظر في رجوعك للعقبِ

إلى آخرها .

قال : فلما انتهى الكتاب إلى شرحبيل أخذه فأتى به معاوية ، فقرأه إياه ، فقال معاوية : لا عليك ، هو سيد في همدان وأنت سيد في كندة ، فأجبه على كتابه .

قال : فكتب إليه شرحبيل : أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه أني هاجرت إلى الكوفة وانتقلتُ إلى الشام ، ولعمري ما العراق لي بدار ولا الشام عليّ بعار ، وإنما أنا رجل من أهل اليمن ؛ وأما قولي بأن علياً قتل عثمان ، فإني أخذت ذلك عن الثقات من أهل الرضا ، ولا يقال للشاهد : من أين قلت ؟ فأما المهاجرون والأنصار ، فلهم ما في أيديهم من بيعة عليّ ولنا ما في أيدينا من بيعة معاوية ـ والسلام ـ .

قال : ثم أقبل شرحبيل على ابن عم له من كندة فقال : أجب سعيد بن قيس على شعره هذا بما أمكنك ! قال : فكتب إلى سعيد أبياتاً من الشعر مطلعها :

أيهـا العـائب الفتى شـرحبيـل لن ينـال الإنسـان مجـرى النجـومِ

إلى آخرها .

ذكر قدوم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام وما كان منهم من القول في علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال : وقدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية ليكون معه على عليّ ، فأرسل معاوية إلى عمرو بن العاص فدعاه وقال : أبا عبد الله ! إنه قد أحيى الله لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم ابنه عبيد الله علينا ، وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على عليّ بقتل عثمان وننال منه ! فقال عمرو بن العاص : يا معاوية ! والله ما أتاك

عبيد الله بن عمر إلا خوفاً من عليّ أن يقع في يده فيقتله[1] ! ولكن لا عليك أن تأمره أن يخطب . فأرسل إليه معاوية فدعاه ثم قال له : يـابن الأخ ! إن لك اسم أبيك فانظر بملء عينك وتكلم بملء فيك ، فأنت المأمون المصدّق ، أريد منك أن تشتم لي علياً وتشهد لي عليه بقتل عثمان ! فقال له عبيد الله : أما الشتيمة فإنه علي بن أبي طالب بن هاشم ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول في نسبه[2] ؛ وأما حسبه[3] فهو والله الشجاع المطرق ! وأما أيامه فقد عرفتها أنت يا معاوية ! ولكني ألزمه دم عثمان . فقال عمرو بن العاص : يـابن أخ لقد نكأت القرحة وما نريد منك غير هذا .

قال : فلما طلع عبيد الله من عند معاوية قال معاوية لعمرو : القول والله على ما قلتَ ! والله لولا خوفه من علي أن يقتله بالهرمزان لما رأيته بالشام أبداً ، ألم تسمع تقريظه لعلي وقوله فيه : أبوه كذا وأمه كذا وبأسه كذا ؟ فقال عمرو : أتنكر يا معاوية أن علياً كما قال عبيد الله بن عمر ؟ والله ! إن علياً لكما قال وفوق ما قال ، غير أننا قد ملنا إلى هذه الدنيا ، فليس نعقل ما نأتي وما ندع .

قال : وخرج حديث معاوية وعمرو إلى عبيـد الله بن عمر ، فقـام في الناس خطيباً كما أمره معاوية ، فحمد الله وأثنى عليه وتكلم بحاجته ، حتى إذا بلغ إلى أمر عليّ وعثمان أمسك ونزل عن المنبر ؛ فقال له معاوية : يـابن أخي ! إنك بين عيّ وخيانة ، فما منعك من ذكر علي وعثمان ؟ فقال : إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعلمت أن الناس يحملونها عني .

قال : فهجره معاوية واستخفّ به ، فأنشـأ عبيد الله بن عمـر في ذلك أبيـاتاً مطلعها :

معـاوي لم أخـرس بخَـطْبـةِ خـاطبٍ ولم أكُ عيّـاً فـي لؤيّ بـن غـالب[4]

---

(١) وكان عبيد الله بن عمر قد لحق بمعاوية خوفاً من علي أن يقيده بالهرمزان وذلك أن أبا لؤلؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة ـ قاتل عمر ، وكان في أرض العجم غلاماً للهرمزان ، فلما قتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله وقال : لا أترك بالمدينة فارسياً ولا في غيرها إلا قتلته بأبي .
فلما صارت الخلافة إلى علي (رض) أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلماً من غير سبب استحقه ، فلجأ إلى معاوية (مروج الذهب ٢/٤٢٠ الإمامة والسياسة ١/١٢٢) .

(٢) في وقعة صفين ص ٨٣ : حسبه .

(٣) وقعة صفين : وأما بأسه .

(٤) وبعده في وقعة صفين ٨٣ :

إلى آخرها .

قال : فبلغ قوله هذا معاوية ، فبعث إليه فأرضاه وقربه وقال : حسبي هذا منك .

ذكر كتاب معاوية إلى أهل المدينة يستنصرهم

قال : ثم أقبل معاوية على عمرو بن العاص فقال : إني أريد أن ألقي إلى أهل المدينة[1] كتاباً أذكرهم فيه أمر عثمان ، فإما أن ندرك منهم حاجتنا وإما نكفهم عنا من قبل مسير عليّ إلينا ؛ فقال له عمرو : إنك إنما تكتب إلى نفر منهم راضين بعليّ فلا يزيدهم كتابك إليهم إلا بصيرة ومحبة لعليّ ، ومنهم من يهوى عثمان فلا يقدر أن يزيده على ما هو عليه ، ومنهم معتزل عن علي وعثمان ولا يلتفت إلى كتابك ، فإن أحببت فاكتب .

قال : فكتب معاوية إلى أهل المدينة : بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن أبي سفيان إلى جماعة أهل المدينة ، أما بعد ! فإنه مهما غاب عنا من الأمر فلم يغب عنكم أن عثمان قُتل مظلوماً وعليّ قتله ، والدليل على ذلك أنه قد آوى قتلته عنده ، وإنما نطالبه بدمه حتى يدفع إلينا قتلته ، فنقتلهم به بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، فإن دفعهم إلينا كففنا عنه وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين كما جعله عمر بن الخطاب عند وفاته ، فأما الخلاف فلسنا نطلبها ، فأجيبوا[2] رحمكم الله وانهضوا معنا إلى حربه ـ والسلام ـ .

قال : فلما قرئ كتاب معاوية على أهل المدينة اجتمعوا فكتبوا[3] إلى معاوية وعمرو بن العاص جميعاً : أما بعد ! فإنكما أخطأتما موضع النصرة وتناولتماها من

= ولكنني زاولت نفساً أبية ... على قذف شيخ بالعراقين غائب
وقذفي علياً بابن عفان جهرة ... يجدع بالشحنا أنوف الأقارب

في أبيات أخرى .

(1) في الإمامة والسياسة ١١٨/١ ووقعة صفين ص ٦٢ ـ ٦٣ إلى أهل مكة والمدينة .

(2) الإمامة والسياسة : فأعينونا .

(3) الإمامة والسياسة ١١٩/١ : اجتمع رأيهم على أن يسندوا أمرهم إلى المسور بن مخرمة ، فجاوب عنهم .
ونسب في وقعة صفين ص ٦٣ إلى عبد الله بن عمر .

مكان بعيد ، يـابن هند ويـابن العـاص ! ما أنتما والمكاتبة والمشـورة ؟ وما أنتمـا والخلافة والشورى ؟ أما أنت يا معاوية فطليق العين ، وأما أنت يا عمرو فخائن[1] في الدين ، فكفًّا عن المكاتبة فليس لكما المكاتبة لأهل المدينة وليّ ولا نصير ولا معين ولا ظهير .

ثم كتب رجل من الأنصار أبياتاً من الشعر مطلعها :

مـعـاوي إن الـحـق أبـلج واضـح ... وليس كما ربصتَ أنت ولا عمرو[2]

إلى آخرها .

قال : فلما ورد كتاب أهل المـدينة على معـاوية وقـرأه أقبل على عمـرو بن العاص ، فقال : أبا عبد الله ! شعرت أننا أخطأنا في الكتاب إلى أوباش أهل المدينة وبهـا مثل عبـد الله بن عمر بن الخـطاب وسعد بن أبي وقـاص ومحمد بن مسلمـة الأنصاري ، إنما كان يجب أن نخص هؤلاء الثلاثة بالكتـاب دون غيرهم ؛ فقـال عمرو : ذلك إليك وأنت على رأس أمرك ، إن أردت أن تكتب إليهم وأنا لا أشير عليك بذلك ، فإني أخاف أن تسمع منهم ما تكره ؛ فلم يلتفت معاوية إلى قوله .

ذكر كتاب معاوية إلى
عبد الله بن عمر بن الخطاب

قال : وكتب إلى عبد الله بن عمر[3] : أما بعد فإنه لم يكن رجل من قريش أحبّ إليّ أن تجتمع الناس[4] عليه منك بعد قتل عثمـان رضي الله عنه ، ثم إني ذكرت خذلانك المرء ، وقعودي عنه وطعنك على أنصاره فتغيّرت لك وقد هون الله عليّ ذاك إذ رأيتك مخالفاً لعلي بن أبي طالب ، فأعنّا رحمك الله على دم هذا الخليفة المظلوم ، فإني لست أطلب الأمر عليك ، إنما أريدها لك ، فإن أبيت كان شورى بين المسلمين ـ والسلام ـ .

وكتب في أسفل كتابه أبياتاً من الشعر مطلعها :

---

(١) وقعة صفين : فظنون .

(٢) وقعة صفين ص ٦٣ في أبيات أخرى .

(٣) الإمامة والسياسة ١/١١٩ وقعة صفين ص ٧١ .

(٤) وقعة صفين : الأمة .

ألا قــل لعبـد الله واخصُصْ محمــداً　　وفـارسنا المـأمون سعـد بن مـالـكِ[(١)]
إلى آخرها .

فأجابه عبد الله بن عمر[(٢)] : أما بعد ! فإن الرأي الذي أطمعك فيّ هو الذي صيرك إلى ما صرتَ إليه ، يا معاوية ! إذ حدثتك نفسك أني أترك علياً والمهاجرين والأنصار وأتبعك ، فأما زعمك أني طعنت على عليّ وخالفته ، فلعلي ما أنا كعليّ في الإيمان والهجرة ونكايته في المشركين ومكانه من رسول الله ﷺ ، ولكنه حدث أمر لم يكن عندي فيه عهد من رسول الله ﷺ ، ففزعت فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هدى ففضل تركتُه ، وإن كان ضلالاً فشرّ نجوت منه ، فاروعنا نفسك[(٣)] ـ والسلام ـ .

قال : ثم أقبل ابن عمر على رجل من قريش يقال له ابن أبي عزة[(٤)] فقال : أجب عني معاوية على شعره ، فأنشأ يقول أبياتاً من الشعر مطلعها :

معـاويَ لا تـرجُ الــذي لستَ نـائــلا　　وحـاول بصيراً عنـد سعد بن مـالك[(٥)]
إلى آخرها .

ذكر كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص

قال : وكتب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص[(٦)] : أما بعد ! فإن إخـواننا من شيعة عثمان بن عفان أهل الشورى من قريش الذين عرفوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر ، ونظيـراك في الإسلام ، وخفت لذلك أم المؤمنين ، فلا تكرهنَّ ما رضوا به ، ولا تروينّ[(٧)] ما قبلوا ، فإنما نريدها شورى بين المسلمين ـ والسلام ـ .وأثبت في آخر كتابه أبياتاً مطلعها :

(١) يريد سعد بن أبي وقاص ، واسمه سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري .
والأبيات في وقعة صفين ص ٧٢ .
(٢) الإمامة والسياسة ١/١١٩ وقعة صفين ص ٧٢ .
(٣) الإمامة والسياسة ووقعة صفيـن : فاغن عنا نفسك .
(٤) وقعة صفين : ابن أبي غزية .
(٥) وقعة صفين ص ٧٣ : وحاول نصيراً غير سعد بن مالك .
(٦) الإمامة والسياسة ١/١٢٠ وقعة صفين ص ٧٤ . تاريخ اليعقوبي ٢/١٨٧ .
(٧) الإمامة والسياسة : ولا تردن .

ألا يا سعد قد أحدثتَ[1] شكّا ... وشكُّ المَرْءِ في الأحداث داء

إلى آخرها .

فكتب إليه سعد[2] : أما بعد ! فإن الشورى لم يدخل عمر بن الخطاب إلا من يحلّ له الخلافة ، ولم يكن أحد من أهل الشورى أحق بالخلافة من صاحبه بالاجتماع ، غير أن علياً كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ، وهذا أمر قد كرهنا أوله وكذلك نكره آخره ، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر لأم المؤمنين عائشة ما أتت ـ والسلام . وأثبت في أسفل كتابه أبياتاً من الشعر مطلعها :

معاوي داءك الداء العياء ... وليس لما تجيء به دواء[3]

إلى آخرها .

ذكر كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري

قال : وكتب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري[4] : أما بعد ! فإني كتبت إليك وأنا أرجو متابعتك[5] ، ولكني أحببت أن أعرفك النعمة التي خرجت منها والشك الذي صرت إليه ، فأنت فارس الأنصار وعدة المهاجرين ، غير أنك ادعيت على رسول الله ﷺ حديثاً لم تستطع إلا أن تمضي عليه ، فذكرت أنه نهاك عن قتال أهل الصلاة بعضهم بعضاً[6] ، وقد كان يجب عليك أن تكره لهم ما كرهه لهم رسول الله ﷺ ؛ أو ما رأيت عثمان بن عفان في يوم الدار وما حلّ به من أهل الصلاة ؟ وأما قومك فقد عصوا الله وخذلوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عن ذلك يوم القيامة ـ والسلام ـ .

قال : ثم عرض معاوية كتابه على مروان بن الحكم ، فقال له مروان : أما إنك قد أغلظت له في الكتاب ، ولكن دعني حتى أكتب إليه أبياتاً من شعره فلعلي أخدعه

---

(١) وقعة صفين ص ٧٤ : « أظهرت » وفيه أبيات أخرى .
(٢) الإمامة والسياسة ١ / ١٢٠ وقعة صفين ص ٧٥ .
(٣) الأبيات في وقعة صفين ص ٧٥ .
(٤) الإمامة والسياسة ١ / ١٢٠ وقعة صفين ص ٧٦ .
(٥) في المصدرين : فإني لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك .
(٦) في شرح النهج لابن أبي الحديد ١ / ٥٨٠ وهو أنه نهاك عن قتال أهل القبلة .

بهن ، فقال معاوية : اكتب ما أحببت ؛ فكتب إليه مروان أبياتاً من الشعر مطلعها :

أيا فارس الأنصار في كل ملحمة ويا أيها الباني لها كل مكرمة

إلى آخرها .

قال : فلما ورد كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة كتب إليه(١) : أما بعد ! فقد اعتزل هذا الأمر من قريش مَن ليس في يديه من رسول الله ﷺ مثل الذي في يدي ، وقد أخبرني بالذي هو كائن قبل أن يكون ، فلما رأيت ما أخبرني به كسّرت سيفي ولزمت بيتي(٢) إذا لم يصح لي معروف آمر به ولا منكر أنهى عنه ، ولعمري يا معاوية ما طلبتَ إلا الدنيا ولا اتبعتَ إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلته حياً ، وما أخرجني الله من نعمة ولا صرت إلى شك فإن أبصرت خلاف ما نحن عليه ونحن أنصار النبي ﷺ .

[ثم دعا محمد بن مسلمة رجلاً من الأنصار](٣) فقال : أجب عني مروان بن الحكم على شعره ، فأنشأ الأنصاري أبياتاً من الشعر يقول مطلعها :

أمروانُ دع هذا وفي الأمر جمجمه ولا تطلبنْ منّا جواب ابن مسلمه

إلى آخرها .

قال : فلما وردت هذه الكتب والأشعار على معاوية ندم على ما كتب ، وشمت به عمرو ، فأنشأ أبياتاً من الشعر يقول مطلعها :

ألم ترني أشرتُ على ابن هند فلم يقبل وقلت دع الكتابا

إلى آخرها .

ذكر تحريض معاوية الناس على القتال ووصيته إياهم بالصبر على ذلك

قال : فعندها قام معاوية في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال(٤) :

(١) الإمامة والسياسة ١/١٢١ وقعة صفين ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) يروى أن محمد بن مسلمة قال : أعطاني رسول الله (ص) سيفاً فقال : قاتل به المشركين ما قوتلوا ، فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً فأتِ به أحداً فاضرب به حتى ينكسر ، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية خاطئة . (الإصابة) .

(٣) زيادة عن وقعة صفين ص ٧٧ . ويروى أن اسمه مروان بن عقبة .

(٤) الإمامة والسياسة ١/١٢٣ باختلاف .

أيها الناس ! قد علمتم أن خليفتكم عثمان بن عفان قتل مظلوماً وقد جعل الله لمن قتل مظلوماً ولياً وناصراً ، وجعل لوليه سلطاناً ، وأنا وليه ، استعملني ولم يعزلني ، وأنتم أهل الحق ، والناس سواكم أهل فتنة وباطل ، مِن بين باسط يديه في دم عثمان أو معين عليه ، وقد قام بأمور الناس أبغض الناس إليه علي بن أبي طالب ، ولنخوضن إليه حومات الموت ثم لنقدحن لكم من زندة شرره ، لا يثبت لها شيء إلا أحرقته ، وقد علمتم أني لا أضبط الشام إلا بالطاعة ، ولا أقوى على حرب أهل العراق إلا بالصبر ، وأنتم عازمون على أن تحرزوا الشام والعراق ، لعمري ما للشام كرجال العراق ولا للعراق كصبر أهل الشام ! والقوم لا قوم غداً ببصائر أهل الحجاز ورقة أهل اليمن وقسوة أهل البصرة وكيد أهل الكوفة ، وإنما يصبر غداً من قرأ هذه الآية : و ﴿ استعينوا بالصبر والصلٰوة إن الله مع الصٰبرين ﴾[1] .

قال : فوثب أبو الأعور السلمي فقال : يا معاوية ! إنك والله ما تستطيع أن تضرب الناس بمثل ما يضربهم علي بن أبي طالب ! ولا يرجعون من أمرك إلى ما يرجعون إليه من عليّ ، وإنك لتحملنا على أمر لو تركته لحملناك عليه ، ونحن على بيعة الخليفة عثمان بن عفان ، وأنت وليه وابن عمه ، وعليّ عدوه وخاذله ، فنحن معك عليه ـ والسلام ـ .

قال : ثم وثب ذو الكلاع الحميري فقال : يا معاوية ! إن أمير المؤمنين عثمان بن عفان استعملك فلم توف له ، واستنصرك فلم تنصره ، وأردت أن تصرف وجوه الناس إليك ، فقد بلغتَ الذي أردت ، والله ! لو خذلتك العرب قاطبة لكفيتك خذلانها بقومي وعشيرتي ـ والسلام ـ .

قال : ثم تكلم حوشب ذو الظليم فقال[2] : يا معاوية ! لقد علمت العرب أننا أهل فعال ولسنا بأهل مقال ، وأن عظيم فعالنا يأتي على قليل مقالنا ، والأمر لك ولمن شئت من بعدك ـ والسلام ـ .

ثم تكلم سعد بن وخاطة الحميري فقال : يا سبحان الله ! أما من رجل يقدم رضا الله عزَّ وجلّ على رضا الناس ؟ ويحكم يا أهل الشام ! أما علمتم أن أهل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٣ .

(٢) مقالة حوشب في الإمامة والسياسة ١/١٢٣ باختلاف .

الحجاز هم الحكام على جميع الناس لمكانهم من الهجرة والجهاد في سبيل الله بين يدي رسول الله ﷺ ؟ وإن كان في أيديكم مثل ما في أيديهم فكانوا هم في الأمر وأشركوهم في المشورة ، فإن الله لا يستحيي من الحق ؛ ثم أنشأ أبياتاً يقول مطلعها :

قل لقوم يرون حرب عليّ احرزوا الشام لا تروموا العراقا

إلى آخرها .

قال : فلما سمع معاوية شعره أمر به ، فلُبّب وخنق وشتم وسحب ، وهمّ بقتله ، فقاموا واستوهبوه من معاوية ، فلحق الفتى بالعراق وصار إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ذكر ادعاء معاوية استحقاق الخلافة لنفسه

قال : ثم أقبل معاوية على أصحابه فقال : يا هؤلاء ! أخبروني بماذا صار علي بن أبي طالب أولى بهذا الأمر مني ، والله ! إني لكاتب رسول الله ﷺ ، وقد كانت أختي تحت رسول الله ﷺ ، وإني لعامل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وأمي هند بنت عتبة بن ربيعة ، وأبي أبو سفيان بن حرب ، وإن كان قد بايعه أهل الحجاز وأهل العراق فقد بايعني أهل الشام ، وإن هؤلاء في الأمر سواء ، ومن غلب على شيء فهو له .

قال : وانصرف معاوية إلى منزله ، فلما أصبح إذا برقعة موضوعة على بساطه فيها أبيات من الشعر ، مطلعها :

معاوي لله من خلقه عباد قلوبهم قاسيه
وقلبك من شر تلك القلوب وليس المطيعة كالعاصيه

إلى آخرها .

قال : فلم يروعه ذلك أن دعا بدواة وبياض وكتب إلى علي رضي الله عنه[1] : أما بعد فلو كنت على ما كان من قبلك لما قاتلتك ولا استحللت ، ولكنه إنما أفسد

(١) قارن مع الكامل للمبرد ٤٢٣/١ ـ ٤٢٤ العقد الفريد ٣٣٣/٤ وقعة صفين ص ٥٦ شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد ٢٥٩/١ الإمامة والسياسة ١٢١/١ ـ ١٢٢ .

عليك بيعتي خطيئتك في عثمان ، وإنما كان أهل الحجاز هم الحكام على الناس حين صار الحق فيهم ، فلما تركوه صار أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز وغيرهم من الناس ، ولعمري ما حجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير ، ولا حجتك على أهل الشام كحُجّتك على أهل البصرة ! ولأن طلحة والزبير قد كانا بايعاك ولم أبايعك ، وبايعك[1] أهل البصرة ولم يبايعك أهل الشام ، وأما فضلك في الإسلام وقرابتك من الرسول ﷺ وموضعك من بني هاشم فلستُ أدفعه ـ والسلام ـ .

قال : ثم دعا معاوية بشاعر أهل الشام واسمه كعب بن جُعيل الثعلبي ، فقال له : قل أبياتاً من الشعر واثبتهم في هذا الكتاب ! فأثبت في آخره أبياتاً مطلعها[2] :

أرى الشام تكره أهل[3] العراق وأهل العراق لهم كارهونا

إلى آخرها .

قال : فلما انتهى الكتاب إلى علي رضي الله عنه وقرأه كتب إلى معاوية[4] : أما بعد ! فإنه أتاني كتاب امرىء ليس له هاد يهديه ولا قائد يرشده[5] ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الغي فاتبعه ، زعمت أنه إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين ! أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا يضربهم بعمى ، وأما ما زعمت أن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز ، فهات رجلين من قريش الشام يقبل الشورى أو تحل لهما الخلافة ، فإن زعمت ذلك كذبك المهاجرون والأنصار ، وإلا فأنا آتيك بهم من قريش الحجاز ، وأما ما ميزتَ بينك وبين طلحة والزبير وبين أهل البصرة وأهل الشام ، فالأمر[6] في ذلك إليّ واحد ، لأن بيعة العامة لا يستثنى فيها النظر[7] ولا يستأنف فيها الخبر[7] ؛ وأما فضلي في الإسلام وقرابتي من

---

(١) في الكامل للمبرد : لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام .

(٢) الأبيات في الأخبار الطوال ص ١٦٠ ـ والكامل للمبرد ١/٤٢٤ ووقعة صفين ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣) في المصادر : ملك .

(٤) نسخة الكتاب في الكامل المبرد ١/٤٢٨ ووقعة صفين ٥٧ ـ ٥٨ والعقد الفريد ٤/٣٣٣ ـ ٣٣٤ والإمامة والسياسة ١/١٢٢ . باختلاف النصوص وزيادة .

(٥) قوله : يهديه معناه يقوده ، والهادي هو الذي يتقدم ويدل .

(٦) وقعة صفين : ما الأمر فيما هناك إلا واحد . وعند المبرد : إلا سواء .

(٧) عند المبرد : الخيار ، ولا يستأنف فيها النظر .

الرسول ﷺ وموضعي من بني هاشم فلو استطعتَ دفعه لفعلت ـ والسلام ـ .

قال : ثم دعا بشاعره(١) فقال : أجب كعب بن جعيل على شعره ، فأثبت في الكتاب أبياتاً مطلعها :

عـرفنـا معـاوي مـا لم يكـونـا(٢) فـقـد حقـق الله مـا تـحـذرونـا

إلى آخرها .

قال : فلما ورد كتاب علي رضي الله عنه على معاوية كتب إليه معاوية(٣) : أما بعد ! فاتق الله يا عليّ ودع الحسد ولا تفسدن سابقة قدمك في الإسلام بشـرّة(٤) حديثك فإن الأعمال بخواتيمها ، ولا تلحدنَّ بباطل من حق مَن لا حق له ، فإنك إن تفعل ذلك لن تضر إلا نفسك ولا تمحق إلا عملك(٥) ، ولعمري ما مضى لك من السوابق الحسنة لحقيقة أن تردعك عما قد اجترأت عليه من سفك الدماء وخلاف أهل الحق عن الحل والحرم ، فاقرأ سورة الفلق وتعوذ بالله من شر ما خلق ومن شر نفسك والحاسد إذا حسد ، أقبل الله بقلبك وأخذ ناصيتك وعجل توفيقك فإني أسعد الناس بذلك ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه عليّ : من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ! قد أتاني كتابك ليس ببعيد الشبه منك حملك على الوثوب على ما ليس لك بحق ، ولولا ما قد علمت من علمي بذلك وبما قد سبق فيك من رسول الله ﷺ مما لا مرد له دون إنفـاذه إذاً لوعـظتك ، ولكن عـظتي لا تنفع من قـد حقت عليه كلمـة العذاب ، ولن يخاف العقاب ، ولم يرجع لله وقاراً ، ولم يحف له جداراً ، فشأنك وما أنت عليه من الضلالة والحيرة والجهالة ، تجد الله عزَّ وجلّ في ذلك بالمرصاد من

---

(١) في الأخبار الطوال : النجاشي بن الحارث .

(٢) في الأخبار الطوال : دعن معاوي ما لن يكونا ، وفي وقعة صفين : دعن يا معاوي .
الأبيات في الأخبار الطوال ص ١٦٠ ـ ١٦١ وقعة صفين ٥٨ ـ ٥٩ الكامل للمبرد ٤٢٨/١ وبعده في المصادر :

أتـاكـم عـلي بـأهـل الـحـجـاز وأهـل الـعـراق فـمـا تـصـنـعـونـا

(٣) وقعة صفين ص ١١٠ .

(٤) وقعة صفين : بشره نخوتك .

(٥) وقعة صفين : ولا تبطل إلا حجتك .

دنياك المنقطعة عنك وتمنيك الأباطيل ، وقد علمت ما قال النبي ﷺ فيك وفي أمك وأبيك ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه معاوية : أما بعد ! فإن الدين على قلبك والغطاء على بصرك ، والشرّة من شيمتك ، والغدر من سجيتك ، فأبشر بالحرب ، واصبر للضرب ، فوالله ليرجعن الأمر إلى ما قد علمت والعاقبة للمتقين ، فهيهات هيهات يا عليّ ! أخطاك التمني وهوى قلبك فيمن هوى ، واضمحلّ عليك علمك ، فصار في تباب بعد التمسك بالكتاب ، فارتع على ظلعك وقيّس فترك بشبرك ، واعرف ذلك من حال من يزن الجبال حلمه ويفصل بين أهل الشك علمه ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه علي رضي الله عنه : من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ! فإن علم الله حال بينك وبين أن يصلح لك ، فإنك ابن صخر اللعين ، وزعمت أنك يزن الجبال حلمك ويفصل بين أهل الشك علمك ، فأنت المنافق القاسي القلب ، القليل الفقه في الدين ، فإن كنت صادقاً فيما تنتظر وتصدر ويعينك عليه الأبتران واصبر على مبارزتي ، واعف الناس على القتال ، لتعلم أينا الشاك الران على قلبه المغطى على بصره ، فأنا أبو الحسن حقاً ! قاتل جدك عتبة وعمك شيبة وخالك الوليد وأخيك حنظلة الذين سفك الله دماءهم على يدي في يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه معاوية : أما بعد ! فقد أبيت في الغي إلا تمادياً لابن السوداء عمار بن ياسر وأصحابه ، فقد علمت بأنه إنما [لا] يدعوك إلى ذلك إلا مصرعك وحينك الذي لا بد لك منه ، فإن كنت غير منته فازدد غياً ، فطاش في المطاولة حلمك ، وعزب عن الحق فهمك ، وأنت راكب لأسوء الأمور ، ومعضل عن الحق بغير فكرة في الدين ولا رويّة ، ثم تكون العاقبة لغيرك ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه عليّ : من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ! فإنك من كافر ولدت فقربت وأشبهت آباءك وأجدادك وعمك وأخاك وخالك ، إذ حملهم الشك وتمني الأباطيل بالجحود على نبي الله عليه السلام ، فصرعوا مصارعهم حيث قد علمت ، لم يمنعوا حريماً ولا دفعوا عظيماً وأنا صاحبهم في تلك المواطن والفالّ لحدهم والقاتل لصناديدهم صناديد الضلالة ومتابعي الجهالة ، وأنت خلفهم فبئس الخلف يتبع السلف في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

قال : فكتب إليه معاوية : أما بعد ! فقد طال في الغي إدراجك ، وعن الحرب إبطاؤك ، وعن النفاق تقاعسك ، وعن الوقوف جداتك وتوعد وعيد البطل المحامي ، وتروغ روغان الثعلب المواري ، ما أعدك لكتاب وأكلك عن الضراب الذي لا بد لك فيه من لقاء أسباب ، صادقة نياتهم ، شديدة بصائرهم ، يضربون عن الحق من التوى ، ويوفون بالعهد من إليهم ضوى ، وما أقرب ما تعرف إن لم يتداركك الله منه برحمته ، ويخرجك من أثر الغواية التي طال فيها تجبرك ، وعن قريب تعرف عاقبة فعلك ، وكفى بالله عليك رقيباً ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه عليّ : من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ! فالعجب لما تتمنى وما يبلغني عنك ، وما أعرفني بمنزلتك التي أنت إليها كائن ، وليس إبطائي عنك إلا لوقت أنا به مصدق وأنت به مكذب ، وكأني بك وأنت تعج في الحرب عجيج الجمال بأثقالها ، وكأني بك وأنت تدعوني بابن آكلة الأكباد جزعاً من النفاق المتتابع والقضاء الواقع ومصارع بين مصارع إلى كتاب الله ، وأنتم به كافرون ، ولحدوده جاحدون .

قال : فقال له عمرو بن العاص : ويحك يا معاوية ! إلى كم تكاتب علياً ؟ فوالله لو اجتمع عليه كل كاتب بأرض الشام لما قدروا على إجابته ! فحسبك من مكاتبته واعزم على محاربته أو مسالمته .

ذكر خروج معاوية من الشام إلى صفين لحرب علي رضي الله عنه

قال : فعندها جمع معاوية الناس(١) ، فجعل على ميمنته عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى ميسرته عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلى مقدمته أبا الأعور السلمي ، وعلى ساقته بسر بن [أبي] أرطاة الفهري ؛ وسار معاوية في أهل الشام بأجمعهم ، وبين يديه مروان بن الحكم على فرس أغرّ محجل وقد تقلد بسيف عثمان بن عفان ، حتى نزل بأول منزل من دمشق ، فضرب عسكره هنالك لكي تتلاحق به الناس وكتب مروان إلى علي رضي الله عنه أبياتاً من الشعر يقول مطلعها :

نسير إلى أهل العراق وإننا ... لنعلم ما في السير من شرف القتلِ

---

(١) انظر في تعبئة معاوية الناس الأخبار الطوال ص ١٦٧ والإمامة والسياسة ١/١٢٣ وقعة صفين ص ١٥٦ و٢٠٦ ـ ٢٠٧ وانظر صفحة ٢١٣ .

إلى آخرها .

فلما ورد هذا الشعر على أهل العراق علم عليّ وأصحابه بأن معاوية فصل من دمشق إلى ما قبله ، فقال للنجاشي بن الحارث : أجب مروان على شعره هذا ؛ فأجابه النجاشي وهو يقول شعراً مطلعها :

نسير إليكم بالقبائل والقنا ... وإن كان فيما بيننا شرف القتل

إلى آخرها .

قال : وسار معاوية بخيله ورجله[1] حتى نزل في صفين في ثلاثة وثمانين ألفاً[2] ، وذلك لأيام خلت من المحرم ، فسبق إلى سهولة الأرض وسعة المرعى وقرب الفرات فنزل هنالك ؛ ثم إنه بنى بنياناً له ، وضربت القباب والخيام والفساطيط ، وبُنيت المعالف للخيل ، واجتمعت إليه العساكر من أطراف البلاد فصار في عشرين ومائة ألف ؛ ثم إنه كتب إلى علي رضي الله عنه بهذه الأرجوزة[3] :

لا تحسبنَّ يا عليّ غافلا ... لأوردنْ الكوفة القبائلا

والمشرفيّ والقنا الذوابلا ... مِنْ عامنا هذا وعاماً قابلا

فكتب إليه علي رضي الله عنه بهذه الأبيات :

أصبحتَ مني يابن هند جاهلا ... لأرمينَّ منكم الكواهلا[4]

تسعين ألفاً رامحاً ونابلا ... يزدجرون الأرض والسواهلا

بالحق والحق يزيح[5] الباطلا ... هذا لك العام وزرني[6] قابلا

---

(١) في ابن الأثير ٣٦١/٢ وسار معاوية وتأنى في مسيره ، فلما رأى ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه يقول (أبيات مطلعها) :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخي ثقة مليم

فكتب إليه معاوية :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ... ولو زبنته الحرب لم يترمرم

(٢) في مروج الذهب ٤١٦/٢ : ٨٥ ألفاً ، وفي العقد الفريد ٣٣٧/٤ في بضع وثمانين ألفاً .

(٣) الأرجاز في وقعة صفين ونسبها لعمرو بن العاص . ص ١٣٦ .

(٤) في وقعة صفين ص ١٣٧ : إن لم نرام منكم الكواهلا .

(٥) وقعة صفين : يزيل .

(٦) وقعة صفين : وعام قابلا .

وكتب علي رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص :

لأصبحنّ العاصِ وابن العاصي تسعين[1] ألفاً عاقدي النواصي
مُسْتَحْقِبِيْنَ حلقَ الدِلاصي قد جنّبوا الخيل مع القلاصِ[2]
آساد غيلٍ حين لا مناص

فكتب عمرو بن العاص إلى علي رضي الله عنه أبياتاً مطلعها :

ألست بالعاصي وشيخ العاصي من معشر في غالب مصّاص

إلى آخرها .

قال : ثم كتب إليه قيس بن سعد بن عبادة أبياتاً مطلعها :

معاوي قد كنت رخو الخناق فألقحت حرباً يضيق الخناقا

إلى آخرها .

قال : فنادى عليّ في الناس فجمعهم ، ثم خطبهم خطبة بليغة وقال : أيها الناس ! إن معاوية بن أبي سفيان قد وادع ملك الروم ، وسار إلى صفين في أهل الشام عازماً على حربكم ، فإن غلبتموهم استعانوا عليكم بالروم ، وإن غلبوكم فلا حجاز ولا عراق ؛ وقد زعم معاوية لأهل الشام أنهم أصبر منكم على الحرب ، وهذا كلام يستحيل عن الحق ، لأنكم المهاجرون والأنصار والتابعون ، والقوم أهل شبهة وباطل ؛ وإنما سميت شبهة لأنها تشبه الحق ولا يخلو أن يكون فيها رشح من الهدى ، فخذوا في أهبة الحرب فقد تقارب إهراق دماء القاسطين ؛ ألا ! وإن المشورة فيها البركة ، فهاتوا رحمكم الله ما عندكم .

قال : فقام إليه عمار بن ياسر فقال : يا أمير المؤمنين ! إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل ، واشخص[3] بنا إلى عدونا من قبل اجتماع عدونا على الصدور والفرقة ، فإذا وافيتَ القوم فادعهم إلى حظهم ورشدهم ، فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حربنا فوالله ! إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم لقربة إلى الله عزَّ وجلّ وكرامة منه .

---

(١) ابن الأثير ٢/٣٦١ ووقعة صفين ١٣٦ : سبعين .
(٢) كان العرب إذا أرادوا حرباً فساروا إليها ركبوا الإبل وقرنوا إليها الخيل لإراحة الخيل وصيانتها .
(٣) وقعة صفين ص ٩٢ : اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة فقال : يا أمير المؤمنين ! اكمش[1] بنا إلى حرب عدونا ولا تعرج ، فوالله ! إن جهادهم لأحب إلينا من جهاد الروم والترك والديلم ، لادّهانهم[2] في دين الله واستذلالهم لأولياء الله ، إذا غضبوا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيّروه[3] ، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ونحن لهم كمين[4] .

قال : فتكلمت الأشياخ من الأنصار[5] وقالوا : يا قيس ! لم بدأت أشياخ قومك بالكلام ؟ قال : فاستحيا قيس ثم قال : والله ! إني لعارف بفضلكم معظم لأنسابكم ، وإنكم لساداتي وعمومتي ولكني قد وجدت ، الذي في صدري قد جاش ، فلم أجد بداً من الكلام . قال : فأمسك عنه القوم وقام سهل بن حنيف الأنصاري فقال : يا أمير المؤمنين ! نحن سلمٌ لمن سالمتَ وحرب لمن حاربتَ ، ورأينا رأيك ، متى دعوتنا أجبناك ومتى أمرتنا أطعناك ، وليس عليك منّا خلاف ـ والسلام ـ .

قال : فوثب حنظلة بن الربيع التميمي[6] فقال : يا أمير المؤمنين ! إننا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا ولا تردها علينا ، فإننا قد نظرنا لك ولمن معك من المسلمين ، الرأيَ عندنا أنك تقيم ولا تعجل بالمسير إلى قتال أهل الشام ، فإني والله لا أدري على مَن تكون الدائرة .

قال : فتكلم عبد الله بن المعتمر[7] فقال : إن الله تبارك وتعالى ربّ[8] العباد والبلاد يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، فأما الدائرة[9] فإنها على الظالمين العاصين القاسطين ظفروا أو لم يظفروا .

---

(١) الانكماش : الإسراع والجد .
(٢) الادهان : الغش والمصانعة . قال تعالى : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ .
(٣) إشارة إلى تسيير عثمان بعض الصحابة من المدينة أمثال أبي ذر الغفاري وغيره . وقد مرّ ذلك .
(٤) وقعة صفين : قطين . إشارة إلى قول سعيد بن العاص لأهل الكوفة إن سواد قطين لقريش ، وقد مرّ ذلك .
(٥) منهم خزيمة بن ثابت ، وأبو أيوب الأنصاري .
(٦) عن الاصابة ووقعة صفين ، وبالأصل : ربيعة التيمي .
(٧) كذا بالأصل ، وفي الأصابة ووقعة صفين : ابن المعتم .
(٨) وقعة صفين ص ٩٦ : وارث .
(٩) وقعة صفين : الدبرة .

قال : فوثب عباس بن شريك العبسي فقال : يا أمير المؤمنين ! إنه قد بلغنا أن صاحبنا هذا عبد الله بن المعتمر ممن يكاتب معاوية ، فاحبسه عندك إلى أن تفرغ من غزاتك وإلا فأمكننا منه حتى نقتله .

قال : ثم وثب مالك[1] فقال : يا أمير المؤمنين ! إن حنظلة بن الربيع[2] أيضاً ممن يكاتب معاوية ، فادفعه إلينا وإلا فاحبسه إلى أن تفرغ من أمرك .

قال : فقال علي رضي الله عنه : يا حنظلة ويـابن المعتمر ! إني قد سمعت كلامكما والله بيني وبينكما وإليه أكِلكما ، فاذهبا حيث شئتما ! قال : فهربا جميعاً ، فأما عبد الله بن المعتمر فصار إلى معاوية ، وأما حنظلة فاعتزل الفريقين جميعاً[3] .

قال : ثم وثب عدي بن حاتم[4] الطائي فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك ما قلتَ إلا بعلم ولا دعوتَ إلا إلى الحق ولا أمرت إلا بالرشد ، ولكن آن أن تتأنى بالقوم ولا تعجل بالمسير إليهم ، وتبعث إليهم بكتبك وتقدم عليهم رسلك ، فإن يقبلوا يصيبوا رشدهم ، والعاقبة أوسع لنا ولهم ، وإن ساروا[5] في الشقاق ولم ينزعوا عن الغيّ فسِرْ وقد قدمنا إليهم العذر[6] .

قال : فوثب زيد بن صوحان[7] العبدي فقال : والله ! لئن كنا في شـك من خلاف مَنْ خالفنا فإنه لا يصلح لنا البتة قتالهم ، وكيف نتأنّى بالقاسية قلوبهم ، القليل في الإسلام حقهم ، أعوان الظلم ومؤسّسي أساس الحقد والظلم والعدوان ، وليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من التابعين بإحسان . قال : فقام رجل من بني طيء فقال : يا زيد بن صوحان[7] ! أتهجر[8] كلام سيدنا عدي بن حاتم وتعترض عليه ؟

---

(١) هو مالك بن حبيب اليربوعي .

(٢) بالأصل : ربيعة وقد مرّ .

(٣) في وقعة صفين : هرب إلى معاوية . قال : ولكنهما لم يقاتلا مع معاوية واعتزلا الفريقين جميعاً .

(٤) بالأصل : « حازم » خطأ .

(٥) وقعة صفين ص ٩٩ : يتمادوا .

(٦) زيد في وقعة صفين : ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق ، فوالله لهم من الله أبعد ، وعلى الله أهون ، من قوم قاتلناهم بناحية البصرة أمس ، لما أجهد لهم الحق فتركوه . . .

(٧) وقعة صفين ص ٩٩ : زيد بن حصين الطائي . والمعروف أن زيد بن صوحان قتل مع علي في معركة الجمل (تاريخ خليفة ص ١٩٠) .

(٨) وقعة صفين : تهجن .

فقال زيد : ما أنتم بأعرف بحق عدي بن حاتم مني ، ولكن لا أدع القول بالنصيحة والحق وإن سخط الناس . فقال عدي بن حاتم : يا زيد ! الناس في الحق سواء ، ومن نصح فقد قضى ما عليه .

قال : ثم وثب أبو زينب بن عوف فقال : يا أمير المؤمنين ! والله لئن كنا على الخلاف لأنت أهدانا سبيلاً ولأعظمنا في الخير نصيباً ، ولئن كنا على ضلال إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمنا وزراً ، وقد أمرتنا بالمسير إلى أهل الشام[1] ، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرنا لهم فيك العداوة ، ونريد بذلك ليعلم الله ما في أنفسنا ، فليس[2] الذي نحن عليه هو الحق المبين ، والذي عليه عدونا هو الغي والضلال الكبير . فقال علي : قل لي يا أبا زينب ! أشهد أنك مضيت معنا ناصراً لدعوتنا صحيح النية في نصرتنا ، وإنك إن قطعت لهم الولاية وأظهرت لهم العداوة فما زعمت أنك ولي الله تسبح في رضوانه وتركض في طاعته ، فأبشر يا أبا زينب !

قال : والتفت إليه عمار بن ياسر فقال : يا أبا زينب ! اثبت ولا تشكك في الأحزاب ، فإنهم حزب الله وحزب الرسول .

قال : ثم وثب يزيد بن قيس الأرحبي فقال : يا أمير المؤمنين ! إننا على جهاز وعدة ، وأكثر الناس أهل قوة ونجدة ومن ليس به ضعف ولا علة ، فمر مناديك فليناد في الناس أن يخرجوا إلى معسكرهم بالنُّخَيْلَة[3] ، فإن أخا الحرب ليس بالسؤم ولا بالنؤم ، ولا يؤخر عمل اليوم في الحرب إلى غد وبعد غد ، ولكن[4] توكل على الله عزَّ وجلّ وثق به واشخص بنا إلى عدونا راشداً معاناً ، فإن يرد الله بهم خيراً تبعوك ، فوالله ما يجدون مثلك في السابقة والقرابة من محمد ﷺ ، وإن أبوا إلا حربنا استعنا بالله عليهم ، ونرجو أن يصرعوا مصارع إخوانهم بالأمس .

قال : ثم وثب عبد الله بن بديل[5] بن ورقاء الخزاعي فقال : يا أمير المؤمنين ! إن أهل الشام لو كانوا لله عزَّ وجلّ يقاتلون وإياه يريدون لما خالفونا ، ولكنهم إنما يقاتلوننا على دنياهم التي في أيديهم وعلى إحن واتّراث وعداوة يجدونها في

---

(١) وقعة صفين ص ١٠٠ : إلى هذا العدو .

(٢) وقعة صفين : أليس .

(٣) النخيلة : موضع قرب الكوفة . وبالأصل : « النخلة » والصواب ما أثبتناه عن معجم البلدان والطبري .

(٤) هذا كلام زياد بن النضر كما في وقعة صفين ص ١٠١ .

(٥) عن وقعة صفين ، وبالأصل : « يزيد » خطأ .

صدورهم ويضمرونها في أنفسهم . ثم قال : أيها الناس ! وكيف يبايع معاوية علياً وقد قتل أخاه وخاله وجده وعم أمه في يوم بدر ، والله ! ما أظن أنهم يبايعون علياً أبداً وتقطع هاماتهم بالسيوف وتكسى حواجبهم بُعمد الحديد .

قال : فعندها خرج حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي ، فجعلا يظهران البراءة من أهل الشام واللعنة لهم ، فأرسل إليهما علي أن « كفا عما يبلغني عنكما » فأقبلا إلى علي وقالا : يا أمير المؤمنين ! ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ! قالا : فلم تمنعنا عن شتمهم ولعنهم ؟ فقال : لأني أكره لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين ، ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم كذا لكان ذلك أصوب في القول وأبلغ في الرأي ، ولو قلتم : اللهم ! احقن دماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم[1] ؛ لكان ذلك أحب إليّ لكم . فقالا : يا أمير المؤمنين ! فإننا نقبل عظتك ونتأدب بأدبك .

قال : ثم أقبل عليه عمرو بن الحمق فقال : يا أمير المؤمنين ! والله ما أحببتك وبايعتك على قرابة بيني وبينك ، ولا لأن عندك ما لا تعطينه ولا التماس سلطان يرفع ذكري ! ولكني أحببتك بخصال خمس : لقدمك وسابقتك وقرابتك وشجاعتك وعلمك[2] ، فلو أني كلفت ثقل الجبال الرواسي ونزوح البحار الطوامي في أمر أقوّي به وليّك وأوهن به عدوك لما رأيت أني أدّيت فيه بعض الذي يجب عليّ من حقك . فقال علي رضي الله عنه : اللهم ! نور قلبه بالتقى واهده إلى صراطك المستقيم ، يا عمرو ! لوددت أن في جندي مائة رجل مثلك ! فقال حجر بن عدي : إذاً والله يا أمير المؤمنين ما فينا إلا مَنْ هو ناصح لجندك ومن يريد أن يقتل بين يديك .

قال : ثم كتب عليّ إلى عمّاله يأمرهم بالمسير إليه ، وأعلمهم أنه يريد أن يسير إلى الشام لمحاربة أهلها ، فأقبل إليه عبد الله بن عباس من البصرة ، ومخنف بن سليم من أصفهان ، وسعيد بن وهب من همدان ، فاجتمع إليه عماله من جميع البلاد التي كانت في يده ، وآخر من قدم عليه من عماله الربيع بن خيثم ، قدم من الري في

---

(١) زيد في وقعة صفين ص ١٠٣ حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به .

(٢) في وقعة صفين ١٠٣ : لخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله (ص) . وأول من آمن به ، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد (ص) ، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله (ص) ، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد .

أربعمائة رجل أن يزيدون .

قال : ثم خطب علي رضي الله عنه الناس وندبهم إلى المسير إلى الشام ، فقوم أسرعوا وأجابوا ، وقوم كرهوا الخروج إلى الشام .

ودعا علي رضي الله عنه جماعة من باهلة فقال : يا معشر باهلة ! إني قد علمت أنكم تبغضوني وأنا أبغضكم ، فخذوا عطاءكم واخرجوا إلى الديلم وإلى حيث شئتم ، قال : فوثب الأحنف بن قيس فقال : ولكنا والله يا أمير المؤمنين نحبك ونبرأ من عدوك ! ولنخرجن معك على العسر ، واليسر ، نحتسب في ذلك الخير ونؤمل به العظيم من الأجر .

قال : فعندها أمر علي رضي الله عنه الحارث الأعور أن ينادي في الناس أن « أخرجوا إلى معسكركم بالنّخيلة » ، وأمر مالك بن حبيب اليربوعي أن يحشر الناس إلى المعسكر ؛ ثم دعا بأبي مسعود عقبة بن عمرو[1] فاستخلفه على الكوفة ، ونادى في الناس بالرحيل ، فرحلت الناس[2] وهم يومئذ تسعون ألفاً وثمانمائة رجل[3] ممن بايع النبي ﷺ تحت الشجرة ، قال سعيد بن جبير : كان مع علي رضي الله عنه يومئذ ثمانمائة رجل من الأنصار وتسعمائة ممن بايع تحت الشجرة ، قال الحكم بن عتيبة : شهد مع علي يومئذ ثمانون بدرياً وخمسون ومائتان ممن بايع تحت الشجرة ؛ قال سليمان بن مهران[4] الأعمش : كان مع علي يومئذ ثمانون بدرياً وثمانمائة من أصحاب محمد ﷺ . قال عبد الرحمن بن أبي بكر : كان مع علي سيد التابعين أويس القرني ، وقتل بصفين بين يدي علي رضي الله عنه .

خبر أويس القرني رحمه الله

قال : وسأل رجل عبد الله بن عباس عن أويس القرني[5] فقال ابن عباس :

---

(١) في مروج الذهب ٤١٥/٢ « عقبة بن عامر » ، وهو من السبعين الذين بايعوا رسول الله (ص) ليلة العقبة .

(٢) وكان ذلك يوم الأربعاء لخمس خلون من شوال سنة ٣٦ (مروج الذهب ٤١٥/٢ وقعة صفين ص ١٣١) .

(٣) كذا بالأصل ومروج الذهب ، وفي العقد الفريد ٣٣٧/٤ : ٩٥ ألفاً .

(٤) عن تهذيب التهذيب ، وبالأصل : « مراز » .

(٥) هو أويس بن عامر القرني ، سيد التابعين ، روى له مسلم ، والقرني بفتح القاف والراء نسبة إلى قرن ، =

ويحك ! أويس القرني له شأن عظيم ، وهو سيد التابعين ! وذلك أن رسول الله ﷺ كان يقول لأصحابه : « يكون في أمتي رجل يقال له أويس القرني ، يدخل في شفاعته عدد ربيعة ومضر ، لو أقسم على الله لأبر قسمه ، فمن لقيه من بعدي فليقرئه مني السلام » ؛ قال فقال له علي : يا رسول الله ! وفينا من يلقاه ؟ فقال : « نعم يا علي أنت تلقاه ، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام واسأله أن يدعو لك بالخير » ! فقال علي : يا رسول الله ! وما علامته ؟ فقال : « هو رجل أصهب أشهل ، ذو طمرين أبيضين ، إذا غاب لم يفتقد ، وإذا طلع لم يفرح بطلعته ، وإذا سلم لم يرد عليه » . قال ابن عباس : فلم يزل بعد ذلك يُحب أن نرى من يخبرنا عنه حتى كان زمن عمر بن الخطاب ، فقدم عليه أهل الكوفة فقال لهم عمر : يا أهل الكوفة ! هل تعرفون عندكم رجلاً من اليمن يقال له أويس القرني ؟ فقال رجل : نعم يا أمير المؤمنين ! عندنا رجل من قرن يقال له أويس ، غير أنه نسخر منه وأهل الكوفة يهزؤون به ؛ قال : فتنفس عمر صعداء وقال : ويحك ! إن رسول الله ﷺ أخبرنا أنه يقدم إلى الكوفة رجل من اليمن يقال له أويس القرني ، وليس له بها إلا أم ، وقد كان به بياض من برص ، فدعا الله أن يذهبه عنه ، فأذهبه إلا مثل مقدار الدينار والدرهم ، لو أقسم على الله عزّ وجلّ لأبر قسمه[1] ، يدخل في شفاعته يوم القيامة عدد ربيعة ومضر ؛ قال : فشهق شهقة ثم قال : وا شوقاه إلى النظر إليه .

قال : فسكت الكوفيون وأخفوا ذلك في أنفسهم حتى رجعوا إلى الكوفة ثم نظروا إلى أويس القرني بغير العين التي كانوا ينظرون إليه بها ، ثم إنهم كانوا يذهبون إليه ويسألونه أن يستغفر لهم ، فقال لهم أويس : يا أهل الكوفة ! إنكم قد كنتم فيما مضى تسخرون مني وتهزؤون بي فما الذي بدا لكم حتى أنكم تسألوني الاستغفار لكم ؟ فقالوا له : إن عمر بن الخطاب أخبرنا عنك بكذا وكذا ؛ قال : واستغفر أويس لبعضهم ، ثم إنه غاب فلم ير بالكوفة بعد ذلك .

قال : وجعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل عنه الرفاق عشر سنين فلم يسمع له خبراً ، فلم يزل كذلك حتى كان آخر حجة حجها عمر ، فسأل عنه كما كان

= وهم من بطون جعفى بن سعد العشيرة (تقريب التهذيب ـ الاشتقاق لابن دريد ص ٢٤٥ حلية الأولياء ٧٩/٢ طبقات ابن سعد ١٦١/٦ تهذيب تاريخ دمشق ١٥٧/٣ تهذيب التهذيب ٣٨٦/١) .

(١) أخرجه مسلم في ٤٤ فضائل الصحابة (٥٥ باب) (حـ ٢٢٣) ص ١٩٦٨ .

يسأل[1] ، فإذا برجل من قرن قد وثب إليه فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنك قد أكثرت السؤال عن أويس هذا ، وما فينا أحد اسمه أويس إلا ابن أخ لي وأنا عمه ، غير أنه أخمل ذكراً وأوهن[2] أمراً من أن يرفع إليك ذكره ؛ قال : فسكت عمر وظن أنه ليس أويساً الذي يريد ، ثم أقبل وقال : يا شيخ ! وأين ابن أخيك هذا الذي تزعم ، أهو معنا بالحرم ؟ فقال الشيخ نعم يا أمير المؤمنين ! هو معنا بالحرم ، غير أنه في أراك عرفة يرعى إبلاً لنا .

قال : فاستوى عمر بن الخطاب جالساً هو وعلي بن أبي طالب على حمارين لهما ، وخرجا من مكة وأسرعا السير إلى عرفة وجعلا يتخللان الشجر ، فإذا هما بأويس القرني في طمرين من صوف أبيض وقد صف قدميه قائماً يصلي وقد رمى ببصره إلى موقع سجوده وألقى يده على صدره ، فقال عمر لعلي : يا أبا الحسن ! إن كان في الدنيا أويس القرني فهذا هو وهذه صفته ؛ قال : ثم نزلا عن حماريهما فشداهما إلى أراكة ، قال ثم أقبلا إليه يريدانه ، فلما سمع أويس أوجز صلاته ثم تشهّد وسلّم ؛ وتقدما إليه فقالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال أويس : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال له عمر : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : راعي إبل ، فقال عمر : ليس عن الرعاية أسألك ، إنما أسألك عن اسمك ، فمن أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا عبد الله وابن عبده وابن أمَته ، فقال عمر : إننا قد علمنا أن كل من في السماوات والأرض عبيد الله ، وإننا نقسم عليك بحق الحرم والمسجد المعظم إلا أخبرتنا باسمك الذي سمتك به أمك ! فقال : أنا أويس بن عبد الله ، فقال عمر : الله أكبر ! نحب أن توضح لنا عن شقك الأيسر ، فقال : وما حاجتكما إلى ذلك ؟ فقال له علي : إن رسول الله ﷺ وصفك لنا وقد وجدنا الصفة كما أخبرنا[3] ، غير أنه أعلمنا أن بشقك الأيسر بياضاً كمقدار الدينار والدرهم ، ونحن نحب أن ننظر إلى ذلك ؛ قال : فأوضح لهما عن شقه الأيسر ، فلما نظر علي وعمر إلى اللمعة البيضاء ابتدراها أيهما يقبل قبل صاحبه ؛ ثم بكيا طويلاً وقالا : يا أويس ! إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نقرئك منه السلام ، وأمرنا أن نسألك أن تستغفر لنا ، فإن

(١) في حلية الأولياء ٨٢/٢ قام على أبي قبيس فنادى بأعلى صوته : يا أهل الحجيج من أهل اليمن ، أفيكم أويس من مراد ؟

(٢) حلية الأولياء : وأقل مالاً ، وأهون أمراً .

(٣) وهي الصهوبة والشهولة (حلية الأولياء) .

رأيت أن تستغفر لنا يرحمك الله فقد أخبرنا أنك سيد التابعين ، وأنك تشفع يوم القيامة في عدد ربيعة ومضر ؛ قال : فبكى أويس بكاء شديداً ثم قال : عسى أن يكون ذلك غيري ، فقال علي رضي الله عنه : إننا قد تيقنا أنك أنت هو ونحن لا نشك في ذلك ، فادع لنا يرحمك الله بدعوة وأنت محسن ؛ فقال أويس : إني لا أدعو لرجل ولا لرجلين ولا ثلاث ، وإنما دعائي في البر والبحر للمؤمنين والمؤمنات في ظلم الليل وضياء النهار ، ولكن من أنتما يرحمكما الله ؟ فإني قد أخبرتكما باسمي وشهرت لكما أمري ، ولم أكن أحب أن يعلم بمكاني أحد من الناس ؛ فقال علي : أنا علي بن أبي طالب وهذا عمر بن الخطاب ؛ قال : فوثب أويس فرحاً مستبشراً فعانقهما وسلم عليهما ورحب بهما فقال : يا أبا الحسن ! ومثلي يستغفر لأمثالكما ! فقال علي : نعم ، إننا قد احتجنا إلى ذلك منك ، فخصنا رحمك الله منك بدعوة حتى نؤمن على دعائك ! قال : فرفع أويس رأسه وقال : اللهم ! إن هذين يذكران أنهما يحباني فيك وقد زاراني من أجلك ، فاغفر لهما وأدخلهما في شفاعة نبيك محمد ﷺ . فقال له عمر : الميعاد بيني وبينك غداً في هذا الموضع ، فقال أويس : وما تريد ؟ فقال عمر : أحببت أن آتيك بكسوة وشيء من نفقة ، فإني أراك رث الحال ؛ فقال أويس : سبحان الله ! ألا ترى عليّ طمرين جديدين جبة وكساء ونعلاي قد خصفتهما ومعي أربعة دراهم قد أخذتها من أجرتي ولي عند القوم حساب ؟ فمتى آكل هذا ؟ يا أبا الحسن ويا أبا حفص إن الدنيا غدارة ، غرارة ، زائلة ، فانية ، فمن أمسى وهمه فيها اليوم مد عنقه إلى غد ، ومن مد عنقه إلى غد علق قلبه بالجمعة ، ومن علق قلبه بالجمعة لم ييئس من الشهر ، ويوشك أن يطلب السنة ، وأجله أقرب إليه من أمله ، ومن رفض هذه الدنيا أدرك ما يريد غداً من مجاورة الجبار ، وجرت من تحت منازله الأنهار ، وتدلت من فوقه الثمار ؛ قال : ثم سلم عليهما ومضى يسوق الإبل بين يديه وعلي وعمر ينظران إليه حتى غاب فلم ير .

قال : وجعل بعد ذلك عمر يسأل عنه ، فلم يخبره أحد أنه رآه إلا أن يكون الربيع بن خيثم ، فإنه قال : أتيت موضعه فأصبته على شاطئ الفرات قائماً يصلي فقلت في نفسي ينصرف من صلاته وأقوم إليه فأكلمه ، فلما صلى بسط كفيه إلى الله فلم يقبضهما إلى وقت العصر ، ثم قام فصلى وبسط يديه فلم يقبضهما إلى وقت العشاء الأولى ، ثم قام فصلى وبسط يديه فلم يقبضهما إلى وقت العشاء الآخرة ؛ ثم قام فصلى ووصلها ، فلم يزل راكعاً وساجداً حتى أصبح ، فأذن وأقام وصلى

الصبح ، ثم بسط يديه إلى الله عزَّ وجلّ فلم يقبضهما إلى أن طلعت الشمس ، ثم خفق برأسه خفقة ووثب إلى الماء ، فتطهر وعزم على الصلاة ؛ قال الربيع : فدنوت منه وقلت له : رحمك الله ! لقد أتعبت نفسك ، فقال : لأني أريد راحتها غداً ، فقلت له : يا أخي ! من أين لك المطعم ؟ فقال : إن ربي عزَّ وجلّ قد تكفل لي بذلك ، وإنك مني على بال ، يا ربيع ! فلا تعد إلى مثل هذا الكلام .

قال : ثم مر أويس فلم يره بعد ذلك إلا هرم بن حيان العبدي ، فإنه قال : كنت أسأل عن أويس القرني مدة من عمري ، فلم يعطني أحد خبره ، حتى دخلت إلى الكوفة فسألت عنه ، فقيل لي : إن أكثر مأواه على شاطىء الفرات ، فإذا أنا به يغسل ثوبه ، قال : فعرفته بالصفة والنعت الذي نُعِتَ لي ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد عليّ السلام ، قال : وخنقتني العبرة لما رأيت من سوء حاله ، فقلت : حياك الله يا أويس ! فقال : وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان ! ولكن مَن دلّك على موضعي هذا ؟ قال : فقلت[1] : دلني عليك مَنْ عرفني اسمك ، فقال أويس : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . قال هرم : فقلت له : رحمك الله ! من أين عرفت اسمي واسم أبي ولم أرك ولم ترني قبل اليوم ؟ قال أويس : إذاً أخبرك يا هرم ! عرفت روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك ، وإن المؤمنين يتعارفون بنور الله عزَّ وجلّ فإن لم يلتقوا وإن نأت بهم الدار . قال هرم فقلت : رحمك الله ! حدثني حديثاً عن رسول الله ﷺ أحفظه عنك ! فقال أويس : إني لم أر[2] رسول الله ﷺ فأحدث عنه ولم تكن لي معه صحبة ، ولكن قد رأيت من رأى رسول الله ﷺ ، وقد انتهى إليّ من حديثه كبعض ما انتهى إليكم ، ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسي لأحد فأكون محدثاً ، ولي في نفسي شغل عن ذلك يابن حيان ؛ قال : فقلت له اتل عليّ شيئاً من كتاب الله تعالى اسمعه منك ، وادع لي بدعوة ، وأوصني بوصية ! فقال أويس : نعم ؛ قال ربي وهو أفضل كل قائل وصدق وقوله أصدق الحديث : **﴿ وما خلقنا السَّمٰوات والأرض وما بينهما لٰعبين * ما خلقنٰهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون * إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم * ﴾**[3] قال : ثم

---

(١) حلية الأولياء ٢/٨٤ قلت الله عزَّ وجلّ .
(٢) حلية الأولياء : لم أدرك .
(٣) سورة الدخان الآيات ٣٨ ـ ٤٢ .

شهق شهقة كادت روحه أن تخرج ، ثم أقبل عليّ فقال : يا هرم ! مات محمد المصطفى ﷺ فمن يطمع في البقاء ؟ يا هرم ! مات فلان ومات فلان ونحن في ديوان الموتى ، يا هرم ! فعليك بذكر الموت ، وإياك أن تفارق سنة الله عزَّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ فتفارق دينك وأنت لا تشعر فتدخل النار ! قال: ثم رفع أويس طرفه نحو السماء فقال : اللهم ! إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وقد زارني من أجلك ، فاجمعني وإياه غداً في دارك دار السلام ، وأرضه ، من هذه الدنيا باليسير ، واجعله لأنعمك من الشاكرين . ثم قال : أستودعك الله يا هرم وأقرأ عليك السلام ، انظر ! لا تطلبني بعد هذا اليوم ولا تسأل عني ، ولكن اذكرني بقلبك وادع لي ، فإني أذكرك بقلبي وأدعو لك إن شاء الله تعالى ، خذ أنت ههنا وآخذ أنا ههنا .

قال هرم : فطلبت أن يدعني أن أمشي معه ساعة فأبى ، ففارقته وأنا أبكي ، وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعض[1] أزقة الكوفة . قال : ثم إني طلبته بعد ذلك وسألته عن ذلك فما أعطاني أحد خبره ، قال هرم : ولا أعلم أنه أتت عليّ جمعة إلا وأنا أراه في منامي مرة أو مرتين ، حتى إذا تحرك علي رضي الله عنه بالكوفة وعزم على المسير إلى معاوية أقبل إليه أويس القرني ، فسلم عليه وخرج معه [إلى] صفين ، فقتل هنالك في رجالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ..

(١) حلية الأولياء : ثم دخل في بعض السكك .

ذكر خروج علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى صفين لمحاربة معاوية

قال : ثم خطب علي رضي الله عنه وحثهم على جهاد أهل الشام والمسير إليهم وجعل يقول : سيروا إلى قتال أهل الشام العماة الطغاة ! سيروا إلى أولياء الشيطان وأعداء السنة والقرآن ! سيروا إلى الكذبة الفجار وقتلة المهاجرين والأنصار ! سيروا ! فقد أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، فوالله لقد قرأت ما بين دفتي المصحف ، فقلّبت هذا الأمر ظهراً لبطن فما وجدت إلا قتالهم والصدق بما جاء به محمد ﷺ ؛ وجعل عمار بن ياسر يرتجز ويقول :

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبيّ   سيروا فخير الناس أتباع عليّ[1]

قال : ثم دعا علي رضي الله عنه بفرس رسول الله ﷺ ، فجاء بالفرس ، فلما أراد أن يضع رجله في الركاب قال : بسم الله ! فلما استوى على ظهر الفرس قال : ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وانا إلى ربنا لمنقلبون *** ﴾[2] ثم قال : اللهم ! إني أعوذ بك من وَعثاء السفر وكآبة المنقلب في المال والأهل والولد ، اللهم ! أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والحضر[3] .

---

(١) بعده في وقعة صفين ص ١٠١ :

هذا أوان طاب سل المشرفي   وقودنا الخيل وهز السمهري

(٢) سورة الزخرف الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٣) زيد في وقعة صفين ص ١٣٢ : ولا يجمعهما غيرك ، لأن المستخلف لا يكون مستصحباً ، والمستصحب لا يكون مستخلفاً .

ثم سافر وسار الناس معه حتى إذا عبر جسر الكوفة نزل فصلى ركعتين في مسجد أبي سبرة .

ثم سار حتى صار إلى دير أبي موسى على فرسخين من الكوفة فصلى هناك الظهر ، فلما انفتل قال : سبحان من يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ! ثم أمر مناديه فنادى في الناس : ألا ! من كان مشيعاً لنا أو مقيماً فليتم الصلاة فإنا على سفر ، ومن كان سائراً معنا إلى عدونا فلا يصومنّ إلا الفرض ، والصلاة ركعتان .

فسار حتى إذا صار إلى حمام عمر نزل فصلى هنالك العصر ، فلما انفتل من صلاته قال : سبحان الله ذي القدرة والقدم ! سبحان ذي الطول والنعم ! ثم نزل هنالك بعسكره ، حتى إذا حانت المغرب قام فصلاها ، فلما انفتل من صلاته : قال سبحانه ذي الملك والملكوت ! سبحان ذي العز والجبروت ؛ فلما صلى العشاء الآخرة انفتل من صلاته ثم قال : الحمد لله كلما أظلم الليل وغسق ، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق .

قال : وبات تلك الليلة هنالك ، فلما أصبح سار وسار الناس معه ، فإذا هو بنخل من وراء النهر[1] ، فجعل يقول : ﴿والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد ﴾[2] ، ثم أقحم فرسه النهر فعبر إلى تلك الناحية ، وسار حتى صار إلى أرض بابل حرك فرسه ثم قال : هذا موضع خَسْف ، فسيروا لعلّنا أن نصلي خارجاً منه ، ثم حرك وحرك الناس معه حتى جاز الصراة[3] ، ثم نزل فصلى هنالك الظهر[4] .

ثم سار حتى نزل بدير كعب فأقام هنالك باقي يومه وليلته . وأصبح سائراً حتى نزل بكربلاء ، ثم نظر إلى شاطىء الفرات وأبصر هنالك نخيلاً فقال : يابن عباس ! أتعرف هذا الموضع ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ما أعرفه ، فقال : أما ! إنك لو

---

(١) يريد نهر نرس ، وهو نهر حفره نرسي بن بهرام بنواحي الكوفة .

(٢) سورة ق الآية ١٠ .

(٣) الصراة : نهر يأخذ من نهر عيسى من بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ ، وهو من أنهار الفرات .

(٤) وقعة صفين : فصلى بالناس العصر .

عرفته كمعرفتي لم تكن تجاوزه حتى تبكي لبكائي ؛ قال : ثم بكى علي رضي الله عنه بكاء شديداً ، حتى اخضلّت لحيته بدموعه وسالت الدموع على صدره ، ثم جعل يقول : اواه ! ما لي ولآل أبي سفيان ! ثم التفت إلى الحسين رضي الله عنه فقال : اصبر أبا عبد الله ! فلقد لقي أبوك منهم مثل الذي تلقى من بعدي .

قال : ثم جعل علي رضي الله عنه يجول في أرض كربلاء كأنه يطلب شيئاً ، ثم نزل ودعا بماء فتوضأ وضوء الصلاة ، ثم قام فصلى ما شاء أن يصلي والناس قد نزلوا هنالك من قرب نينوى[1] إلى شاطىء الفرات ، قال : ثم خفق برأسه خفقة فنام وانتبه فزعاً فقال : يـابن عباس ! ألا أحدثك بما رأيت الساعة في منامي ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين ! فقال : رأيت رجالاً بيض الوجوه ، في أيديهم أعلام بيض ، وهم متقلدون بسيوف لهم ، فخطوا حول هذه الأرض خطة ، ثم رأيت هذه النخيل وقد ضربت بسعفها الأرض ، ورأيت نهراً يجري بالدم العَبيط ، ورأيت ابني الحسين وقد غرق في ذلك الدم وهو يستغيث فلا يغاث ، ثم إني رأيت أولئك الرجال البيض الوجوه الذين نزلوا من السماء وهم ينادون : صبراً آل الرسول صبراً ! فإنكم تقتلون على أيدي أشرار الناس ، وهذه الجنة مشتاقة إليك يا أبا عبد الله ! ثم تقدموا إليّ فعزّوني وقالوا : أبشر يا أبا الحسن ! فقد أقرّ الله عينك بابنك الحسين غداً يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ثم إني انتبهت ؛ فهذا ما رأيت ، فوالذي نفس عليّ بيده ! لقد حدثني الصادق المصدوق أبـو القاسم ﷺ أني سـأرى هذه الـرؤيا بعينهـا في خروجي إلى قتال أهل البغي علينا ، وهذه أرض كربلاء الذي يدفن فيها ابني الحسين وشيعته وجماعة من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ ، وأن هذه البقعة المعروفة في أهل السماوات تذكر بأرض كرب وبلاء ، وليُحشرَنّ منها قوم يدخلون الجنة بلا حساب .

ثم قال : يـابـن عبـاس ! اطلب لي حولها صِيران الظباء ، فطلبها ابن عباس فوجدها ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! قد أصبتها ، فقال علي رضي الله عنه : الله أكبر ! صدق الله ورسوله .

ثم قام علي رضي الله عنه يهرول نحوها حتى وقف عليها ، ثم أخذ قبضة من بعر الظباء فشمها ، فإذا لها لون كلون الزعفران ورائحة كرائحة المسك ، فقال علي

---

(١) نينوى : ناحية بسواد الكوفة .

رضي الله عنه : نعم هي هذه بعينها ؛ ثم قال : أتعلم ما هذه يابـن عبـاس ؟ قال : لا يـا أمير المؤمنين ! فقـال : إن المسيح عيسى ابن مريم قد مـر بهذه الأرض ومعـه الحواريون ، فشمّ هذا البعر كما شممته، وأقبلتْ إليه الظباء حتى وقفت بين يديه ، فبكى عيسى وبكى معه الحواريون وهم لا يدرون لماذا يبكي عيسى عليه السلام ، فقالوا : يا روح الله ! ما يبكيك ؟ ولماذا اختلست ههنا ؟ فقال لهم : أتعلمون ما هذه الأرض ؟ قالوا : لا يا روح الله ! فقال : هذه أرض يقتل عليها فرخ الرسول أحمد المصطفى وفرخ ابنته الزهراء قرينة الطاهرة البتول مريم بنت عمران ، ثم ضرب بيده عيسى إلى بعر الظباء فشمّه وقال : يا معشر الحواريين ! هذا بعر الظباء على هذا الطيب لأ [نه] كان [منّ] حشيش هذه الأرض ؛ ثم مضى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وقد بقيت هذه البعرات إلى يومنا هذا من ذلك الدهر ، حتى أنها قد اصفرّت لطول الزمان عليها ، فهذه أرض الكرب والبلاء .

قال : ثم بكى علي رضي الله عنه وقال : يا رب عيسى ! لا تبارك في قاتل ولدي والعنه لعناً كثيراً ! ثم اشتد بكاء عليّ وبكى الناس معه حتى سقط على وجهه وغشي عليه ؛ ثم أفاق فوثب فصلى ثماني ركعات وسلم من كل ركعتين ، فكلما سلم جعل يتناول من ذلـك البعر فيشمـه ، ويقول : صبـراً أبا عبـد الله ! صبراً يـا ثمرة رسول الله ﷺ وريحانة حبيب الله ! ثم أخذ كفاً من ذلك البعر فصره في ثوبه وقال : لا يزال هذا مصروراً أبداً أو يأتي عليٌّ أجلي . ثم قال : يابـن عبـاس ! إذا رأيتها من بعدي وَهِي تسيل دماً عَبيطاً ، فاعلم أن أبا عبد الله قد قتل . قال ابن عباس : فوالله لقد كنت أشد تحافظاً لها بعد علي بن أبي طالب وأنا لا أحلها عن طرفي .

قال ابن عباس : فلمـا رجع علي رضي الله عنـه من صفين وفرغ من أهـل النهروان دخل عليه الأعور الهمداني ، فقال لـه علي رضي الله عنه : يـا حارث ! أعلمتَ أني منذ البارحة كئيب حزين فزع وجل ؟ فقال الحارث : ولِمَ ذاك يا أمير المؤمنين ؟ أندماً منك على قتال أهل الشام وأهل البصرة والنهروان ؟ فقال : لا ، ويحك يا حارث ! وإني بذلـك مسرور ، ولكني رأيت في منـامي أرض كربـلاء ، ورأيت ابني الحسين مذبوحاً مطروحاً على وجه الأرض ، ورأيت الأشجار منكبة ، والسماء مصدعة ، والرحال متطأمنة ؛ وسمعتِ منادياً ينادي بينَ السماء والأرض وهو يقول : أفزعتمونا يا قتلة الحسين أفزعكم الله وقتلكم ! ثم إني انتبهتُ وأنا منه على

وجل لما رأيت ؛ فقال له الحارث : كلا يا أمير المؤمنين ! لا يكون إلا خيراً ، فقال له علي رضي الله عنه : هيهات يا حارث ! سبقت كلمة الله ونفذ قضاؤه ، وقد أخبرني حبيبي محمد ﷺ أن ابني يقتله يزيد ـ زاده الله في النار عذاباً ـ .

قال زهير بن الأرقم : فلما أصيب عليّ رضي الله عنه بضربة ابن ملجم دخلتُ عليه وقد ضم الحسين رحمة الله ورضوانه عليه إلى صدره وهو يقبله ويقول له : يا ثمرتي وريحانتي وثمرة نبي الله وصفيه وذخيرة خير العالمين محمد بن عبد الله ! كأني أراك وقد ذبحت عن قليل ذبحاً ؛ قال : فقلت : ومن يذبحه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يذبحه لعين هذه الأمة ، ثم لا يتوب الله عليه ويقبضه ، إذا قبضه وهو ملآن من الخمر سكران ؛ قال زهير : فبكيت ، فقال لي علي : لا تبك يا زهير ! فالذي قضي كائن .

ثم رجعنا إلى الخبر

قال : ثم سار حتى أتى ساباط المدائن ، فإذا هو بالدهاقين وقد أقبلوا إليه يعرضون عليه النزول ، فأبى ذلك وقال : ليس لنا عليكم نزول .

ثم سار حتى أشرف على بنيان كسرى ، فإذا برجل من أصحابه يقال له جرير[1] بن سهم بن طريف[2] التميمي قد وقف فنظر إلى آثار كسرى وهو يتمثل بهذا البيت :

سَفَت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد[3]

فقال له علي رضي الله عنه : ويحك ! فلو قلت ﴿ كم تركوا من جنّٰت وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فٰكهين * كذلك وأورثنٰها قوماً

---

(١) وقعة صفين ص ١٤٢ : حر .

(٢) عن وقعة صفين وبالأصل : طراف . وفيه أنه : من بني ربيعة بن مالك (بن زيد مناة بن تميم) .

(٣) البيت في وقعة صفين ص ١٤٢ والمفضليات ١٥/٢ من قصيدة لابن يعفر (الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل التميمي) وفي وقعة صفين :

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين * ﴾[1] هؤلاء قوم كانوا وارثين فأصبحوا موروثين ، لم يشكروا النعمة فحلت بهم النقمة وسُلبوا دنياهم بالمعصية ، فإياكم وكفر النعمة ! لا تحل بكم النقم .

ثم سار حتى نزل الأنبار ، فإذا أهلها قد أقبلوا يقودون البراذين وقد حملوا إليه الأطعمة والعلوفة ، فقال لهم علي : ما هذه الدواب التي نراها معكم ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ! هذا خلق منا نعظم بها الأمراء وهي هدية منا إليك ، وهذا طعام اتخذناه لك ولأصحابك ؛ فقال لهم علي رضي الله عنه : أما الدواب فإننا نأخذها منكم ونحسبها لكم من خراجكم ؛ وأما الطعام فإننا لا نقبله منكم إلا بثمن ؛ فقالوا : يا أمير المؤمنين ! فإن لنا في أصحابك معارف ، فأذن لنا أن نهدي لهم هذا الطعام وهذه العلوفة ؛ فقال : ذلك إليكم ولست أمنعكم من الهدية ولا أمنع أصحابي منها ، ولكن إن أخذ أحد من أصحابي منكم شيئاً على طريق الغصب فأعلموني بذلك ـ والسلام ـ .

خبر الراهب والعين

قال : وأقام علي رضي الله عنه بالأنبار يومين ، فلما كان في اليوم الثالث سار بالناس في برية ملساء ، وعطش الناس واحتاجوا إلى الماء ؛ قال : وإذا براهب في صومعته ، فدنا منه علي رضي الله عنه وصاح به ، فأشرف عليه ، فقال له علي رضي الله عنه : هل تعلم بالقرب مِنك ماء نشرب منه ؟ فقال : ما أعلم ذلك ، وإن الماء ليحمل إلينا من قريب من فرسخين .

قال : فتركه علي رضي الله عنه وأقبل إلى موضع من الأرض فطاف به ، ثم أشار إلى مكان منه فقال : احفروا ههنا ، فحفروا قليلاً وإذا هم بصخرة صفراء كأنما طليت بالذهب وإذا هي على سبيل الرحى لا ينتقلها إلا مائة رجل ، فقال علي رضي الله عنه : اقلبوها فالماء من تحتها ، فاجتمع الناس عليها فلم يقدروا على قلبها ؛ قال : فنزل علي رضي الله عنه عن فرسه ، ثم دنا من الصخرة وحرك شفتيه بشيء لم يسمع ، ثم دنا من الصخرة وقال : باسم الله ، ثم حركها ورفعها فدحاها ناحية ؛ قال : فإذا بعين من الماء لم تر الناس أعذب منها ولا أصفى ولا أبرد ، فنادى في

---

(١) سورة الدخان الآيات ٢٥ ـ ٢٩ .

الناس أن « هلموا إلى الماء » قال : فورد الناس فنزلوا وشربوا وسقوا ما معهم من الظهر ، وملأوا أسقيتهم ، وحملوا من الماء ما أرادوا ؛ ثم حمل على الصخرة وهو يحرك شفتيه بمثل كلامه الأول حتى رد الصخرة إلى موضعها .

ثم سار حتى نزل في الماء الذي أرادوا وإذا ماؤه متغير ، فقال علي رضي الله عنه لأصحابه : أفيكم من يعرف مكان الماء الذي يتم عليه ؟ فقالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلقوا إليه ، فطلبوا مكان الصخرة فلم يقدروا عليه ؛ فانطلقوا إلى الراهب فصاحوا به : يا راهب ! فأشرف عليهم ، فقالوا : أين هذا الماء الذي هو بالقرب من ديرك ؟ فقال الراهب : إنه ما بقربي شيء من الماء ، فقالوا : بلى ! قد شربنا منه نحن وصاحبنا ، وهو الذي استخرج لنا الماء وقد شربنا منه ، فقال الراهب : والله ما بني هذا الدير إلا بذلك الماء ، وإن لي في هذه الصومعة منذ كذا سنة ما علمت بمكان هذا الماء ، وإنها عين يقال لها عين راحوما[(١)] ، ما استخرجها إلا نبي أو وصيّ نبي ، ولقد شرب منها سبعون نبياً وسبعون وصياً . قال : فرجعوا إلى علي رضي الله عنه فأخبروه بذلك ، فسكت ولم يقل شيئاً .

ثم رجعنا إلى الخبر

قال : ثم سار من منزله ذلك حتى نزل بمدينة هِيت[(٢)] ؛ ورحل منها حتى نزل بموضع يقال [له] الأقطار ، فبنى هنالك مسجداً ، والمسجد ثابت إلى يومنا هذا . ثم إنه عبر الفرات وشق البلاد حتى خرج إلى بلاد الجزيرة ؛ ثم سار يريد الرقة حتى نزل بموضع يقال له البليخ[(٣)] ، فنزل هنالك على شاطىء نهر البليخ .

خبر الراهب ونزوله من صومعته إليه

قال : ونظر إليه راهب قد كان هنالك في صومعة له ، فنزل من الصومعة وأقبل إلى علي رضي الله عنه ، فأسلم على يده ؛ ثم قال : يا أمير المؤمنين ! إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا ، يذكرون أن عيسى ابن مريم عليه السلام كتبه ، أفأعرضه عليك ؟ قال علي رضي الله عنه : نعم فهاته . فرجع الراهب إلى الصومعة وأقبل بكتاب عتيق

---

(١) كذا ، ولم نجدها .

(٢) هيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار .

(٣) البليخ : موضع قرب الرقة على جانب الفرات . والبليخ نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون .

قد كاد أن يندرس ، فأخذه عليّ وقبله ثم دفعه إلى الراهب ، فقال : اقرأه عليّ ! فقرأه الراهب على عليّ رضي الله عنه ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر ، أنه باعث في الأميين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدلهم على سبيل الرشاد ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، لا يجزي السيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، أمته الحامدون الذين يَحْمَدُون الله على كل حال في هبوط الأرض وصعود الجبال ، ألسنتهم مذلَّلة بالتسبيح والتقديس والتكبير والتهليل ، ينصر الله هذا النبي على من ناواه ؛ فإذا توفاه الله اختلفت أمته من بعده ، ثم يلبثون بذلك ما شاء الله ؛ فيمر رجل من أمته بشاطىء هذا النهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يقضي بالحق ولا يرتشي في الحكم ، الدنيا عليه أهون من شرب الماء على الظمآن ، يخاف الله عزَّ وجلّ في السِرّ وينصح الله في العلانية ، ولا يأخذه في الله لومة لائم ، فمن أدرك ذاك النبي فليؤمن به ، فمن آمن به كان له رضوان الله والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإنه وصي خاتم الأنبياء ، والقتل معه شهادة .

قال : ثم إنه أقبل هذا الراهب على عليّ فقال : يا أمير المؤمنين ! إني صاحبك لا أفارقك أبداً حتى يصيبني ما أصابك ، قال : فبكى علي رضي الله عنه ثم قال : الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار .

قال : ثم سار وهذا الراهب معه ، فكان يتغدى ويتعشى مع عليّ ؛ حتى صار إلى صفين ، فقاتل فقتل ، فقال علي لأصحابه : اطلبوه ! فطلبوه فوجدوه ، فصلى عليه علي رضي الله عنه ودفنه واستغفر له ، ثم قال : هذا منا أهل البيت .

ثم رجعنا إلى الحديث

قال : ثم سار علي رضي الله عنه حتى دخل الرقة ، وجد أهلها يومئذ العثمانية وهواهم مع معاوية ، فلما نظروا إلى خيل علي رضي الله عنه قد وافتهم غلقوا باب المدينة وتحصنوا فيها .

قال : فنزل علي رضي الله عنه على شاطىء الفرات ثم كتب إلى معاوية[1] : من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ! فإن لله عباداً آمنوا بالتنزيل وعرفوا التأويل وتفقهوا في الدين ، فبين الله فضلهم في القرآن العظيم ،

(١) نسخته في وقعة صفين ص ١٥٠ .

وأنتم إذ ذلك أعداء الرسول ، تكذبون بالكتاب وتجمعون على حرب المسلمين ، حتى أظهر الله دينه وأدخل فيه الأمة الطائعين والكارهين ، فليس ينبغي لمن كان له قلب أن يجهل أمره وقدره ويتعدى حده وطوره ؛ وقد علمت يا معاوية أن أولى الناس بهذا الأمر أقربهم من الرسول ، وأعلمهم بكتاب الله عزَّ وجلّ ، وأولهم إسلاماً وأكثرهم جهاداً ، فاتقوا الله الذي إليه ترجعون ؛ ولا تلبسوا الحق بالباطل ، فإن خير عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ؛ وإني أدعوكم إلى كتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه محمد ﷺ[1] ، فإن قبلتم أصبتم رشدكم وأخذتم[2] حظكم ، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق العصا لهذه الأمة لن تزدادوا من الله إلا بعداً ولن يزداد عليكم إلا سخطاً ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه معاوية[3] : أما بعد ! فإن الحسد عشرة أجزاء ، تسعة منها فيك وواحد في سائر الناس ، وذلك أنه لم تكن أمور هذه الأمة لأحد بعد النبي ﷺ إلا وله قد حسدت ، وعليه قد بغيت ، عرفنا ذلك منك في نظرك الشزر ، وقولك الهجر ، وتنفسك الصعداء ، وإبطائك على الخلفاء ، تقاد إلى البيعة كما يقاد الجمل الشارد[4] حتى تبايع وأنت كاره ، ثم إني لا أنسى فعلك بعثمان بن عفان في البر والبحر والجبال والرمال ، حتى تقتلهم أو لتلحقنّ أرواحنا بالله ـ والسلام ـ .

قال[5] : وكتب إليه علي رضي الله عنه : أما بعد ! فإنه أتاني كتابك تذكر فيه حسدي للخلفاء وإبطائي عنهم ، فأما الحسد فمعاذ الله أن يكون ذلك ! وأما الإبطاء عنهم والكره لأمرهم فلست أعتذر من ذلك إليك ولا إلى غيرك ، وذلك أنه لما قبض الرسول ﷺ واختلفت الأمة قالت قريش : منا الأمير ، وقالت الأنصار : بل منا ، وقالت قريش : محمد منا ونحن أحق بالأمر منكم ، فسلمت الأنصار لقريش الولاية والسلطان ؛ وإنما استحقتها قريش بمحمد دون الأنصار ، فنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر من غيرنا ؛ فأما عثمان فإنه فعل ما قد علمت ، ففعلت به الناس ما قد بلغك ،

---

(١) وقعة صفين : وحقن دماء هذه الأمة .
(٢) وقعة صفين : واهتديتم .
(٣) في وقعة صفين ص ١٥١ فكتب إليه معاوية : أما بعد فإنه :

ليس بيني وبين قيس عتاب ... غير طعن الكلى وضرب الرقاب

(٤) في العقد الفريد ٤/٣٣٥ : البعير المخشوش .
(٥) العقد الفريد ٤/٣٣٦ باختلاف .

وقد علمت أني كنت في عزلة عنه ؛ وأما قتلة عثمان فلعمري لئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك ولا يكلفونك أن تطلبهم في[1] بر ولا بحر ؛ وقد كان أبوك أبو سفيان جاءني في الوقت الذي بايعت الناس فيه أبا بكر فقال : « لأنت أحق الناس بهذا الأمر من غيرك وأنا أؤيدك على من خالفك ، ولئن شئت لأملأن المدينة خيلاً ورجلاً على ابن أبي قحافة » فلم أقبل ذلك ، والله يعلم أن أباك قد فعل ذلك حتى كنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين أهل الإسلام[2] ، فإن تعرف حقي ما كان أبوك يعرفه فقد أصبت رشدك ، وإن أبيت فها أنا قاصد إليك ـ والسلام ـ .

قال : فكتب إليه معاوية : أما بعد ! فإن الله تبارك وتعالى اصطفى محمداً ﷺ بعلمه ، وجعله الأمين على وَحيه ، والرسول إلى خلقه ، واجتبى له من المهاجرين والأنصار وخيار المسلمين أعواناً ووزراء وأصحاباً ، أيده بهم ، فكانوا عنده على قدر فضائلهم ومنازلهم في الإسلام ، فكان أفضل أصحابه في إسلامه وأنصحهم لله ورسوله ﷺ الخليفة من بعده ، أبو بكر الصديق ، وخليفة الخليفة عمر بن الخطاب ، وثالث الخلفاء عثمان بن عفان ؛ فأما الصديق والفاروق فما زلتَ لهما مبغضاً عدواً حتى مضيا لسبيلهما محمودين ، ثم بغيت أشد البغي على ابن عمك عثمان بن عفان ، فكان الواجب أن لا تفعل به ذلك لقرابته وصهره ، فقطعت رحمه وقبحت محاسنه وألبت الناس عليه حتى ضُربت عليه آباط الإبل من الآفاق ، وقدتَ إليه الخيل العِراب ، وحملت عليه السلاح في حرم رسول الله ﷺ ، حتى قتل معك في المحلة وأنت تسمع[3] الداعية في داره ، ولا ترى الناس من نفسك أنك نصرته بقول ولا فعل ، وأقسم بالله قسماً صادقاً أن لو قمت في أمره مقاماً واحداً فنهنهتَ عنه الناس لما عدل بك أحد من الناس ، ولكنك أحببت قتله ، والدليل على ذلك تعظيمك لأقدار قتلته ، فهم عضدك وأنصارك ويدك وبطانتك ، ثم إنك تنتفي وتتبرأ من دمه ، فإن كنت صادقاً مكّنّا من قتلة عثمان حتى نقتلهم به ونحن أسرع الناس إجابة لك ، فإن فعلت ذلك كان الأمر على ما تريد ، وإلا فليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف[4] ـ والسلام ـ .

---

(١) العقد الفريد : في سهل ولا جبل ، ولا بر ولا بحر .

(٢) العقد الفريد : لقرب عهد الناس بالكفر .

(٣) العقد الفريد ٣١٢/٤ : تسمع في داره الهائعة . وفي الأخبار الطوال ١٦٢ : الهيعة .

(٤) زيد في العقد : والذي نفس معاوية بيده لأطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى =

قال : فكتب إليه علي رضي الله عنه أما بعد ! فإنه أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله فيه نبيّه محمداً ﷺ لدينه وتأييده إياه بمن أيده وما أنعم عليه في الوحي والهدى ، فالحمد لله الذي صدق له الوعد ، وتمم له النصر ، ومكّن له في البلاد ، وأظهره على أهل العناد[1] في قومه الذين وثبوا به وأظهروا له التكذيب ، ونابذوه بالعداوة والبغضاء ، وظاهروا على إخراجه[2] ، وجهدوا عليه وعلى أصحابه ، حتى ظهر أمر الله وهم كارهون[2] ؛ وكان أشد الناس عليه أسرته الأدنى فالأدنى من قومه إلا من عصم الله منهم ، ولقد خبأ لنا منك الدهر خبياً معجباً إذا طفقتَ تُخبرنا عن بلاء الله في نبيه محمد ﷺ وفينا ، فكأنك في ذلك كجالب التمر إلى هجر ؛ ذكرت أن أفضل أصحابه خليفته الصديق وخليفة خليفته الفاروق ، إن مكانهما في الإسلام لعظيم ، وإن مصابهما لشديد في حبهما الله وجزاهما بأحسن أعمالهما ؛ وذكرت أن عثمان كان لهم في الخلافة ثالثاً ، فذكرت لهؤلاء فضلاً إذ هو ثم اعتزلك ، وان نقص لم يلحقك ثلمة ؛ وما أنت والصديق ؟ صديقنا إذ صدق بحقنا وكذب بباطل غيرنا ، وما أنت والفاروق ؟ إنما فرق بيننا وبين أعدائنا ؛ وأما عثمان فإن كان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف له الحسنات ويمحو عنه السيئات ، فإن كان مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولكني لأحب أن تخبرني يابن هند ما للطلقاء وأولاد الطلقاء والأحزاب وأولاد الأحزاب وإن لم يثبت بين المهاجرين الأولين إلا بربع ؛ أيها الإنسان ! على طلعك ، وتتأخر حيث أخرك القدر ، ولكن بنعمة الله تعالى إنا قد فزنا على جميع المهاجرين كفوز نبينا محمد ﷺ على سائر النبيين ؛ أَوَلا ترى أن قوماً استشهدوا في سبيل الله ولكل فضل ؟ حتى إذا استشهد عمه حمزة قيل : سيد الشهداء ، وخصه ﷺ بسبعين تكبيرة ، ووضعه بيده في قبره ؛ وإن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ولكل فضل ، حتى إذا قطعت يد أخي جعفر قيل : الطيار في الجنة ؛ أو لا ترى أن مسلمنا قد بان في إسلامه كما بان جاهلنا في جاهليته ؟ حتى قال عمي العباس بن عبد المطلب لأبي طالب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم ... وإن أنصفوا حتى نعق ونظلما

= نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله . (وانظر الأخبار الطوال ص ١٦٢) .

(١) العقد الفريد : الأعادي .

(٢) العبارة في العقد الفريد ٣١٢/٤ (من تحقيقنا) : واخراج أصحابه ، وألبوا عليه العرب ، وحزبوا الأحزاب ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت صوارم في أيماننا تقطر الدما
تركناهم لا يستحلّون بعدها لذي حرمة في سائر الناس محرما

ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكره أكثر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تملحها آذانهم من أشياء لو شئت لقلت ، فدع عنك يابن هند من قد بانت الرمية ، فإننا صنائع ربنا والناس كلهم لنا صنائع ، ولم يمنعنا شرفنا أن خلطناهم بأنفسنا ، ولستم هنالك ، وانّى يكون ذلك ؟ ومنا المشكوٰة والزيتونة ومنكم الشجرة الملعونة ، ومنا هاشم بن عبد مناف ومنكم أمية كلب الأحلاف ، ومنا شيبة الحمد عبد المطلب ومنكم الكذاب المكذب . ومنا أسد الله ومنكم طريد رسول الله ، ومنا الطيار في الجنة ومنكم عدو الإسلام والسنة ، ومنا سيدة نساء العالمين بلا كذب ومنكم ابن حمالة الحطب ، وحسبي برسول الله ﷺ صهراً وابنته فاطمة شرفاً وعزاً وفخراً ، وكنتَ تسألني أدفع إليك قتلة عثمان ، وليس لك أن تسأل ذلك ولا إليّ أن أدفعهم إليك ، وإنما ذلك إلى ورثة عثمان وأولاده ، وهم أولى بطلب دم أبيهم منك ، فإن زعمت أنك أقوى على الطلب بدم عثمان فادخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار ، وحاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه محمد ﷺ ؛ وذكرت أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف ، فلقد أضحكتني بعد استعبار يابن آكلة الأكباد ! متى لقيت بني عبد المطلب ؟ فسيطلبك من يستبطن ويقرب ما يستبعد وتره ، عليك سيوف قد عرفتَ نصالها في أخيك وخالك وجدك وعم أمك وأسلافك ، فإن تكن الدائرة عليك تصطلمك عزائم الدين وحكم الكتاب ، وإن تحل منا بعاجل ظفر فلا ضير إنا إلى ربنا لمنقلبون ـ والسلام على عباد الله الصالحين ـ .

قال : فلما ورد هذا الكتاب على معاوية وقرأه أقلقه ذلك ، ولم يدر بماذا يجيب علياً ، فكتب إليه يقول :

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

وكتب إليه علي رضي الله عنه : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[1] .

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .

خبر هشام بن عبد الملك مع الشيخ وقوله في بني أمية

قال : فبينا هشام بن عبد الملك ذات يوم في برية الشام يتنزه ويتصيد إذ نظر إلى غبار ساطع على قارعة الطريق ، فقال هشام لمن معه : قفوا في مواضعكم ! لا يتبعني أحد منكم إلى أن أرجع إليكم ؛ قال : ثم حرك هشام ومضى نحو الغبار ، فإذا بعير قد أقبلت من بعض مدائن الشام ، عليها زيت وأمتعة من أمتعة الشام يراد بها الكوفة . قال : وفي العير شيخ من أهل الكوفة له رُواء ومنظر ، ومع الشيخ غلمة له أحداث وهم بنوه ، ومع هشام مولى له يقال له ربيع .

قال : فسلم عليهم هشام ، فردوا عليه السلام وهم لا يعرفونه ، فأقبل هشام على الشيخ فقال : ممن أنت وأين منشأك ؟ فقال الشيخ : أما المنشأ فالكوفة ، وأما مِن أين فما سؤالك عن ذلك ؟ فوالله إني لو كنت من العرب في أعلاها لما نفعك ، ولو كنت من أدناها لما ضرك ؛ فقال هشام : والله يا شيخ ما أظنك كتمتَ نسبك إلا وأنت مستحٍ ، قال : فضحك الشيخ ثم قال : يا هذا ! ما هو إلا ما ظننتَ ، وإني لأرجو أن يسألَ الله عزَّ وجلّ عمن يحبسني بما اطلع عليه من دناءة جنسك ونسبك إذا أنبأتني به ، فإن قبح وجهك وحول عينيك وذمامة خلقتك وسوء منطقك قد أطمعني في ذلك منك ، وأنا أخبرك ممن أنا إذ قد أبيت إلا ذلك ، أنا رجل من حكم وأمي سلولية ، ونحن اليوم خلف في عكل . فقال هشام : نسأل الله العافية ممن قد ابتلاك به يا شيخ ! لقد اجتمع فيكِ ما لم يجتمع في أحد قط ، فقال : ولم تقول ذلك ، وقد أملت أن يسأل الله عمن ينسبنا عندما قد توسمته فيك عند معرفتي بنسبك ؛ فمن أنت يا هذا ؟ فقال هشام : أنا رجل من قريش ، فقال الشيخ : إن قريشاً كثير ، وإن فيهم من قد علا نجمه ، وفيهم من قد سقط سهمه ، فمن أيها أنت ؟ فقال هشام : أنا والله من أعلاها وأسناها وأزكاها ! أنا رجل من بني أمية التي لا تسامى أخطارها ولا يدرك آثارها ، فقال الشيخ : مرحباً بك يا أخي بني أمية ! سليت ورب الكعبة غمي ، وفرجت عني كربي ، كنتم والله يا بني أمية في الجاهلية تربون في التجارة ، وفي الإسلام عاصين لأهل الطهارة ، سيدكم حمار وأميركم جبار ، إن قللتم عن الأربعين لم تدركوا بثأر ، وإن بلغتموها كنتم بشهادة الرسول من أهل النار ، رجالكم يتقلبون في عار النسبة ، ونساؤكم على نساء الأنام سَبة ، ومنكم الباكي على معلليه ، ومنكم معاليه مؤوي الطرداء وباقي الأخيار السعداء الذي اختار القرابة على الصحابة ، وصرف المال عن أهل النجابة ، ومنكم صاحب الراية يوم القليب وأبو اللعينة ذات

العيوب ، ومنكم صخر بن حرب ، فكان في الجاهلية خماراً وعلى رسول الله ﷺ مجهزاً كفاراً ، وفي إسلامه ردياً منافقاً وإلى كل السوءات سابقاً ، وابنه معاوية لعنه رسول الله ﷺ لعنات سبعاً ، سبعاً منعه الله عزَّ وجلّ أن ينال بدعوته عليه ، سبعاً منع أباه من الإسلام حثه على عبادة الأصنام ، ثم قال في الشعر الذي بعث به إلى أبيه يقول :

يا صخر لا تسلُنْ طوعاً فتفضحنا ... بعد الذين ببدر أصبحوا مزِقا
خالي وجدي وعم الأمّ ثالثهم ... والمرء حنظلة المهدي لنا أرِقا
لا تركننّ إلى أمر تقلدنا ... والرافضات به في مكة الخرِقا
فالموت أهون من قول النساء لنا ... خلا ابن حرب عن العقبى كذا فرقا

ثم إنه بعد ذلك عادى النبي ﷺ ، وقاتل الوصي ، وألحق زياداً الدعي ، وعهد إلى ابنه الفاسق الردي ، وبدل مكان كل سنة بدعة ، وجعل لابنه يزيد في إراقة الدماء فسحة وسعة ، ونبش قبر حمزة سيد الشهداء وأجرى فيه الماء عداوة وبغضاً ، ألحق زياد بن عبيد اللعين بأبي سفيان الخمار ، وأزوجه من نسائه ذات القلائد والخمار ، وقد قال النبي ﷺ : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، فترك قول النبي ﷺ وبزياد بن عبيد افتخر ، وسلطه على شيعة علي بن أبي طالب ، ولم يخف من سوء العواقب . ومنكم عقبة بن أبي معيط نفاه رسول الله ﷺ من قريش وسائر العرب ، وضرب عنقه بين يديه عليّ ذو الحسب ، وألبسكم بقتله من بين قريش العار ، وجعل أرواحهم إلى النار ، فقبلتم نسبه فيكم وزوجتموه ، وهو علج من أهل صَفُوريّة فادعيتموه ؛ وابنه الوليد المحدود في الخمر ، صلى بالناس أربعاً في الفجر والظهر ، في مساجد الله وهو سكران وقرب أهل الخيانة والغدر ، فسماه الله في كتابه فاسقاً ، وجعله في الدرك الأسفل منافقاً . ومنكم يا بني أُمية الحكم بن أبي العاص ، الملقب الحيّاص ، نفاه رسول الله ﷺ بعد لعنه إياه ، وأردفه ثانية وباللعنة ثناه . ومنكم عبد الملك غصب الأبرار ، واستعان بالفجار ، وتهاون بالأخيار ؛ فالحجاج أفضل حسناته ، والغدر والجور أقل سيئاته ، ثم بنوه الجبابرة في الإسلام ، أبناء اللعنة والجور في الأحكام ؛ منهم سليمان والوليد وهشام ، وقبله يزيد ، لا نذكر أحداً منهم برأي سديد ، وما لهم في اللعنة من مزيد ، خونة غدرة ، رموا بيت الله الحرام بالحجارة والعذرة ، وقتلوا قبل ذلك العشرة البررة . ومن نسائكم آكلة الأكباد ، ومظهرة الفساد الصادة لزوجها عن الرشاد ، والداعية إلى الكفر والفساد والعناد ، وصويحباتها الناقرات يوم أحد

بالدفوف ، المغنيات وقد دنت الزحوف ؛ فأنتم يا بني أُمية الشجرة الملعونة في القرآن ، لا ينكر ذلك إنس ولا جان ، ولا أحد من أهل الإيمان ، فأولكم ردي ، وأوسطكم دريء ، وشريفكم دنيء ، وآخركم مسيء .

ألا فخذها يا أخا أُميّة يكون في قلبك منها كيّه
لا تفخرنّ بعدها عليّه ما تركت فخراً لكم سميّه

قال : ثم مر الشيخ على وجهه حتى لحق بالعير ، وبقي هشام حيراناً لا يدري بما يقول ، ثم أقبل على غلامه ربيع فقال : ويلك يا ربيع ! رأيتُ ما مُنينا به في هذا اليوم من هذا الشيخ ! والله لقد أظلمت الدنيا عليّ حتى ظننت أني لا أبصر شيئاً ! ولكن هل تحفظ من كلامه شيئاً ؟ فقال ربيع : يا أمير المؤمنين ! والله لقد بقيت متحيراً لا أعقل من أمري شيئاً ، ولقد هممت أن أعلوه بالسيف مراراً لولا هيبتك ، فكيف أحفظ ما قال ! فقال هشام : لكني والله قد حفظته ، ولو علمت أنك تحفظه لضربت عنقك .

قال : ثم رجع هشام إلى أصحابه ووجه الخيل في طلب الشيخ وعزم على قتله ؛ قال : فكان الشيخ داهياً ، فوقع في قلبه أنه هشام بن عبد الملك واتقى ما قال ، وخشي الطلب ، فعدل عن الطريق وأخذ في البرية على مياه بني كلاب ؛ فطلب فلم يقدر عليه ، ومضى حتى دخل الكوفة ؛ فلم يزل هشام متأسفاً على ما فاته من قتل الشيخ . قال : فكان ربيع يقول : والله ما شذ عني من كلام الشيخ شيء وإني لأحفظه وما حدثت بهذا الحديث أحداً حتى مات هشام .

ثم رجعنا إلى الخبر

قال : ثم دعا على أهل الرقة فقال : اعقدوا لي جسراً على هذا الفرات حتى أعبر عليه أنا وأصحابي إلى قتال معاوية ، فأبوا ذلك ؛ وعلم علي رضي الله عنه هوى أهل الرقة في معاوية ، فتركهم ونادى في أصحابه : نمضي لكي نعبر على جسر منبج[1] .

قال : فخرج الأشتر إلى أهل الرقة مغضباً وقال : والله يا أهل الرقة ! لئن لم

(١) منبج : بالفتح ثم السكون مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . (معجم البلدان) .

تعقدوا لأمير المؤمنين جسراً لأجردن فيكم السيف ولأقتلن الرجال ولأحوين الأموال[1] ؛ فلما سمع أهل الرقة ذلك قال بعضهم لبعض : إن الأشتر والله يوفي بما يقول ؛ ثم إنهم ركبوا خلف علي بن أبي طالب فردوه وقالوا : ارجع يا أمير المؤمنين ! فإننا عاقدون لك جسراً ، قال : فرجع عليّ إلى الرقة ، وعقدوا له جسراً على الفرات ، ونادى في أصحابه أن اركبوا ! فركبت الناس وعبرت الأثقال كلها ، وعبر الناس بأجمعهم وعليّ واقف في ألف فارس من أصحابه ، ثم عبر آخر الناس .

تحريض معاوية جنده على القتال

قال : وبلغ ذلك معاوية فنادى في أهل الشام فجمعهم ثم قال : أيها الناس ! هل تعلمون من قد وافاكم ؟ وافاكم والله الأسد الأسود والشجاع المطرق علي بن أبي طالب ! ومعه أفاعي أهل العراق من ذي شرف يحامي عن شرفه ، وذي دين يحامي عن دينه ، وذي كلب يؤمل فيكم الغارة ، أتاكم والله من درعه الأنصار ، وسيفه همدان ، ورمحه عبد القيس ، وسنانه أخلاط العرب ، فإن كنتم تريدون الصبر فهذا وقت الصبر .

قال : فوثب نبهان بن الحكم فقال : يا معاوية ! والله لقد جهدت يوم الجمل أن أموت فلم أمت وأبت المقادير ذلك ، ووالله لئن رأيت علياً لأجهدن في قتله أو أموت ، دعوتنا إليه فجعلونا بينك وبينهم وقد جعلها بيننا وبين الله عزَّ وجلّ ، فأمرنا بما تحب وانهنا عما تكره .

قال : ثم وثب حوشب ذو الظليم فقال : يا معاوية ! والله ما إياك ننصر ولا لك نغضب ولا عليك نحامي إلا على الشام ، فكفّ الخيل بالخيل والرجال بالرجال ، ولا يهولنك علي ومن معه ، فإن ما له ولأصحابه عندي [إلا] حملة واحدة ، فأفرق جمعهم وأبدد شملهم .

قال : ثم وثب أبو الأعور السلمي فقال : يا معاوية ! إننا لو شهدنا مقتل عثمان وعرفنا مَن قتله بأعيانهم لما دخلنا في ذلك الشك ، ولكنا نصدقك على ما غاب - والسلام - .

---

(١) وقعة صفين ص ١٥١ : ولأخربن أرضكم ، ولآخذن أموالكم . (انظر الطبري ٢٢٧/٥ وابن الأثير ٣٦٢/٢) .

قال : ثم وثب شاعر أهل الشام فجعل يحرض على القتال وهو يقول أبياتاً مطلعها :

إن ابالشام يا معاوي قوماً   يبذلون النفوس والأموالا

إلى آخرها .

ذكر ذواق لأهل الشام من حرب أصحاب علي رضي الله عنه

قال : ونزل عليّ على شاطىء الفرات حذاء مدينة الرقة ، وبلغ ذلك معاوية ، فدعا بأبي الأعور السلمي ، فضم إليه جيشاً كثيفاً من أهل الشام ، ثم قال : سر بهذا الجيش نحو عليّ ، فلعلك أن تواقعه وقعة قبل مصيره إلينا . قال : فسار أبو الأعور في جند من أهل الشام يريد علياً ، وبلغ ذلك علياً ، فدعا زياد بن النضر وشريح بن هانيء فضم إليهما جيشاً[1] وقدمهم بين يديه نحو أبي الأعور ؛ قال : فساروا حتى إذا بلغوا إلى الموضع الذي فيه أهل الشام[2] نظروا إلى جيش عظيم، فلم يقاتلوا وبعثوا إلى عليّ فأخبروه بذلك .

قال : فدعا عليّ بالأشتر النخعي فقال : يا مالك ! إن زياد بن النضر وشريح بن هانىء أرسلا إليّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور في جند من أهل الشام كثيف ، وقد أخبرني الرسول أنه ترك القوم متوقفين[3] ، فالنجاء النجاء إلى أصحابك ! فإذا أتيت القوم فلا تبدأهم بقتال حتى يبدأوك ، ثم ادعهم[4] واعذر إليهم مرة بعد أخرى ، فإن أجابوك إلى ما تريد فالحمد لله على ذلك ، وإن أبوا إلا القتال فاستعن بالله عزّ وجلّ عليهم ، فالقهم بحدّ وجدّ ، وابعث إليّ بخبرك ، وما يكون منك ومن أمرك إن شاء الله - والسلام - .

قال : فسار الأشتر في جيش خشن ومعه يومئذ هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حتى وافى بهم القوم ، فلما نظر أبو الأعور إلى جند أهل العراق قد وافوا صاح

---

(١) في اثني عشر ألفاً ٥/٢٣٨ وابن الأثير ٢/٣٦٣ .

(٢) في الطبري وابن الأثير : لقياه بسور الروم .

(٣) متواقفين : وقف بعضهم أمام بعض في الحرب .

(٤) في الطبري وابن الأثير : حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم والأعذار إليهم مرة بعد مرة .

بأصحابه : احملوا على هؤلاء الكلاب ! قال : فحمل القوم بعضهم على بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً[1] ؛ وجعل الأشتر يقول لأصحابه : ويلكم ! أروني أبا الأعور هذا الذي بدأنا به معاوية حتى أنظر إليه ؛ فقالوا : هو الواقف على التلّ صاحب الفرس الأشقر ، فقال الأشتر لرجل من أصحابه يقال له سنان بن مالك [النخعي] : اذهب إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة ! فقال له سنان : إلى مبارزتك أو إلى مبارزتي ؟ فقال الأشتر : ولو أمرتك بمبارزته لفعلتَ ؟ قال : نعم ، والـذي لا إله إلا هـو لو أمرتني أن أعترض صفهم هذا بسيفي لما رجعت عنهم أو أضرب فيهم ضرباً يرضيك ذلك مني ! فقال له الأشتر : يـابن أخ ! والله لقد زدتني فيك رغبة ! ولكني لا آمرك بمبارزته ، إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي ، وذلك أنه لا يبارز إلا ذوي الأسنان والأكفاء من الفرسان ، وأنت بحمد الله من الكرامة والشرف ، ولكنك حدث السنّ ، وأعلم أنه لا يبارزك ، ولكن اذهب إليه وادعه إلى مبارزتي .

قال : فأقبل الفتى حتى وقف قريباً من عسكر أهل الشام ثم قال : إني رسول ولا تؤذوني ، فقال له أهل الشام : أنت آمن فهلمّ وقل ما أحببت ؛ قال : فجاء الفتى إلى أبي الأعور فقال : إن الأشتر يدعوك إلى مبارزته ، قال : فسكت أبو الأعور ساعة ثم قال : إن جهل[2] الأشتر وسوءَ رأيه هو الذي حمله على ما فعـل[3] بعثمان بن عفان ، أنه قبّح محاسنه وأظهر عداوته ، ثم سـار إليه في داره وقـراره حتى قتله ، انصرف عني فلا حاجة لي في مبـارزته ؛ فقـال سنان : إنـك قد تكلمت فـاسمع الجواب[4] ، فقال : لا حاجة لي في جوابك ، انصرف من حيث جئت .

قال : فرجع سنان إلى الأشتر فأخبره بذلك ، فتبسم الأشتر وقال : إنه نـظر لنفسه ، ولو بارزني لبريت يديه ، ولكن احملوا عليهم ! قال : فحملت أهل العراق على أهل الشام واقتتلوا قتالاً عظيماً يوم ذلك إلى الليل .

فلما كان وجه السحر انهزم أبو الأعور في أصحابه ، حتى سار إلى معـاوية فأخبره بما كان من أمره ؛ فقال معاوية : فكيف رأيت حرب القوم ؟ فقال : يا معاوية

---

(١) اقتتلوا مساء اليوم الأول ساعة ، واقتتلوا يومهم الثاني وصبر بعضهم لبعض ثم انصرفوا . (الطبري ـ ابن الأثير) .

(٢) الطبري ٥/٢٣٩ ابن الأثير ٢/٣٦٣ : خفة .

(٣) في الطبري : حمله على إجلاء عمال عثمان بن عفان عن العراق .

(٤) في الطبري : اسمع حتى أجيبك . وفي وقعة صفين ص ١٥٦ حتى أخبرك .

لا تسأل عن شيء ، فإن الخطر عظيم ؛ ثم جعل يرتجز ويقول[1] :

[و] إن للحرب عُراماً شررا　　وإن فيهم فارساً عَشَنْزَرا[2]
ينصف من أحجم[3] أو تنمّرا　　إذا ونى برمية تعسّرا[4]

ثم رجعنا إلى الحديث

قال : وسار علي رضي الله عنه من موضعه ذلك وبين يديه جرير بن سهم التميمي[5] وهو يقول :

يا فرسي سيري وأمّي الشاما　　واقطعي الأحقاف والأعلاما[6]
وقاتلي[7] من خالف الإماما　　إني لأرجو إن لقينا العاما
[جمع بني أمية الطغاما　　أن نقتل العاصي[8] وذا الأجراما]

قال : وأشرف عساكر عليّ وأصحابه على أهل الشام ، فلما نظر معاوية إلى إبل مجنبة بالخيل أقبل على عمرو بن العاص فقال : أبا عبد الله ! أما أبو الحسن فقد وفى لك بما قال إنه يجنب الخيل بالقلاص ؛ فقال عمرو بن العاص : صدقت يا معاوية ! ولكن اشدد حيازيمك لملاقاته ، فإنك تعلم ما قد وافاك وفاك ، والله من لو لقي أهل الشام بأجمعهم وهو وحيد لم يخالجه خوف ولا رهبة ! فقال معاوية : صدقت ، ولكن معه رجال ومعنا رجال ؛ قال : ثم جعل معاوية يرتجز ويقول[9] :

أتاكم الكاشر عن أنيابه　　ليث العرين جاء في أصحابه
كالسيف إذ ينزع من قرابه　　فليأتنا الدهر بما أتى به

---

(١) الأرجاز في وقعة صفين ص ١٥٩ ونسبها إلى علي أنه كتب بها إلى معاوية .
(٢) وقعة صفين : قائداً عشنزرا ، والعشنزر : الشديد .
(٣) وقعة صفين : أجحر .
(٤) بدله في وقعة صفين : على نواحيها مزجّاً زمجراً .
(٥) عن تهذيب التهذيب ٧٣/٢ ، وبالأصل : « التيمي » . وفي وقعة صفين : ص ١٣٣ الحر بن سهم بن طريف الربعي (بيعة تميم) .
(٦) وقعة صفين ص ١٣٣ : وقطعي الحزون والأعلاما .
(٧) وقعة صفين : ونابذي .
(٨) وقعة صفين : « العاصي والهماما » وفيه شطر آخر :
وأن نزيل من رجالٍ هاما
(٩) الأرجاز في وقعة صفين ص ١٥٩ ونسبها إلى علي بن أبي طالب (رض) . باختلاف ألفاظ وسقوط وزيادة شطور .

قال : ونزل علي رضي الله عنه بالعساكر والأثقال ، وذلك في النصف من المحرم سنة ثمان وثلاثين ؛ وأمر معاوية أصحابه فنزلوا على شاطىء الفرات[1] وحالوا بين عليّ وأصحابه وبين الماء . وأرسل أصحاب عليّ بالعبيد والأحرار ليستقوا الماء من الفرات ، فإذا هم بأبي الأعور وقد صف خيله على شاطىء الفرات وحال بينهم وبين الماء ؛ قال : فرجع العبيد إلى مواليهم يخبرونهم بذلك ، ووثب الناس إلى علي يخبرونه بذلك .

---

(١) وكان معاوية قد سبق علياً إلى صفين فنزل منزلاً بسيطاً واسعاً أفيح على شريعة الفرات ، وليس في ذلك الصقع شريعة غيرها ، وما عداها أخراق عالية ومواضع إلى الماء وعرة . وجعل معاوية أبا الأعور السلمي عليها ـ في أربعين ألفاً ـ يحميها ويمنعها (الطبري ـ ابن الأثير ـ مروج الذهب ـ الإمامة والسياسة) .

فهرست الجزء الأول

الموضوع ———————— الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع ـــــــــــــــــــ الصفحة

فهرست الجزء الثاني

الموضوع ——— الصفحة

الموضوع ـــــــــــــــــــ الصفحة

الموضوع — الصفحة

الإمامة والسياسة

تأريخ لحقبة من أحفل حقب الإسلام بالتاريخ المجيد والأحداث الجسام دلت على رجاحة عقل وقدم راسخة للمسلمين في السياسة وتدبير شؤون الدولة ، أعدنا تحقيقه وفهرسته وتنقيحه ، كتاب لا غنى عنه لكل دارس تاريخ ومطالع لمعرفة أمجاد المسلمين .

الأحوال الشخصية

دراسة واعية موضوعية شاملة للفقه ، تحوي كتب شتى تتناول حياة المسلم بأسلوب يسير وأصالة تحوي لغة بليغة وعبارة واضحة وتبويب بارع وترتيب جدي .

تاريخ الكوفة

محاولة لتسليط الضوء ما أمكن على غوامض تاريخ مدينة الكوفة ، الجامعة الفقهية التاريخية العلمية .

تفسير غريب القرآن

تفسير مبوب وفق أوائل وأواخر الألفاظ ، خير دليل لفهم معاني الألفاظ واستيعاب معاني الآيات الكريمة .

تنزيه الأنبياء

سفر نفيس يبحث في تنزيه الأنبياء والرسل عليهم السلام عن الذنوب والقبائح . .

ثواب الأعمال وعقابها

مجموعة دروس جليلة من علم النبي (ص) تربي الانسان على الدين القويم والخلق السليم ، وتضع أعماله بين يديه في ميزان العدل الإلهي .

الحياة الجنسية في الإسلام

الإسلام نظام تام يكفل السعادة البشرية ويرتب قواعد العلاقات الإنسانية ، هذا الكتاب يكشف عن زاوية الحياة الجنسية في الإسلام ويوضح قيمة المرأة في المجتمع والأسس المتينة التي ينبغي قيام الحياة الزوجية وحياة الأسرة عليها . .

روائع الأدب الفكاهي

كتاب يحتوي على طائفة من الشعر العاملي الضاحك الساخر يعتبر دليلاً على فكاهة الأدب العاملي والشعر السخري اللاذع .

شرائع الإسلام

من أهم المتون في الفقه الإسلامي وأكثرها فروعاً وأدقها منهجية ، صدرت عدة موسوعات فقهية كانت شروحاً له وتعليقاً عليه .

القرآن ومعرفة الطبيعة

كتاب قيم يتناول التصور القرآني الأصيل عن الطبيعة والكون ويتلمس آثار عظمة الخالق في خلقه .